التفسير الثمين

للعلامة العثيمين

تفسير سورة غافر
تفسير سورة فصلت
تفسير سورة الشورى

اعتنى به
أشرف بن كمال

الجزء الثالث عشر





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة غافر

تفسير سورة فصّلت

تفسير سورة الشّورى

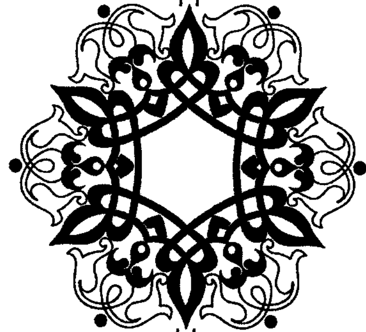
بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ



ALTABARI'S LIBERARY

سنة الطبع :	١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
رقم الإيداع :	١٥٣٦٥ / ٢٠٠٨
رقم الطبعة :	الأولى



مكتبة الطبري للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - القاهرة - عين شمس

١٤ شارع ١٣٦ من شارع مسجد الوطنية - خلف سنترال النزهة

تليفون محمول: ٠١٦١٦٦٣٣٣٤ _ ٠١٠٦٦٨١٠٧٩ _ ٠١٦٧٨٨٨٧٦٣

tabari24@gmail.com

تفسير سورة غافر

تفسير سورة غافر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، البسملة آية من كتاب الله عز وجل مستقلة ليست من السورة التي قبلها ولا من السورة التي بعدها، ولكن هي ثابتة في ابتداء السور إلا سورة واحدة وهي سورة براءة، فإنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه جعل فيها بسملة، ولهذا تركها الصحابة رضي الله عنهم بدون بسملة؛ لعدم ثبوت ذلك عن رسول الله ﷺ، وأما ما قيل: إنها تركت بلا بسملة؛ لأنها نزلت بالسيف فإنه قول باطل، وليس هذا السبب، والسيف إذا كان رحمة فإنه غنيمة، ومعلومٌ أن السيف على الكفار رحمة، يقصد به إعلاء كلمة الله عز وجل، ثم البسملة تُبدأ ليس فيها فعل ولا اسم فاعل، لكنها جار ومجرور ومضاف ومضاف إليه وصفة وموصوف، الجار هو الباء، والمجرور اسم، والمضاف اسم، والمضاف إليه لفظ الجلالة، وموصوف وهو الله، وصفة وهو ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فأين المتعلق؛ لأنه لابد لكل جار ومجرور أو ظرف لابد له من متعلق، كما قال ناظم الجمل:

لَا بُـدَّ لِلْجَـارِّ مِـنَ التَّعَلُّـقِ ... بِفِعْـلٍ أَوْ مَعْنَـاهُ نَحْـوَ مُرْتَقِـي

وَاسْـتَثْنِ كُـلَّ زَائِـدٍ لَـهُ عَمَـل ... كَالبَـا وَمِـنْ وَالكَـافِ أَيْضًا وَلَعَـل

فأين متعلق البسملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ أحسن ما يقال: إن متعلقها فعلٌ متأخر مناسبٌ لما ابتُدئ بالبسملة من أجله فنحن الآن نريد أن نقرأ نقول المتعلق تقديره: بسم الله أقرأ، ولو نريد أن نتوضأ نقول: التقدير بسم الله أتوضأ، نريد أن نذبح نقول: التقدير: بسم الله أذبح، وإنما قدرناه فعلًا وليس اسم فاعل؛ لأن الأصل في العمل هو الفعل، وإنما قدرناه متأخرًا لوجهين:

الوجه الأول: التيمن بالبداءة بسم الله.

الثاني: إفادة الحصر؛ لأنك إذا أخرت العامل، وقدمت المعمول كان ذلك دليلًا على الحصر، إذ إن القاعدة المعروفة في البلاغة هي: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وإنما قدرناه مناسبًا لما أبتدئ به؛ لأنه أدل على المقصود، فمثلًا لو قلت: إن التقدير: بسم الله أبتدئ صح لكن ابتدئ بأي شيء؟ فإذا قلنا: نقدره فعلًا خاصًّا مناسبًا لما ابتدئ به صار ذلك أدل على المقصود، ومعلوم أن ما كان أدل على المقصود كان أبين في المراد هذا هو إعراب هذه البسملة.

أما معناها: فإن (اسم) مفرد مضاف، وكل مفرد مضاف فإنه للعموم، مثل قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فإن نعمة مفرد مضاف لكن ليست نعمة واحدة؛ لأن النعمة الواحدة تحصى لكنها نعم كثيرة فتشمل كل ما أنعم الله به على العبد، فإذا كان المفرد المضاف يفيد العموم.

فما معنى قولنا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟ معناها بكل اسم من أسماء الله أفعل كذا وكذا، فتكون أنت الآن مستعينًا بكل اسم من أسماء الله على هذا الفعل الذي بسملت من أجله، وأما (اسم) فقيل: إنه مشتقٌّ من السمو وهو الارتفاع؛ وذلك لأن الاسم يعين المسمى ويبينه، وقيل: إنه مشتقٌّ من السِّمة وهي العلامة، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩] أي: علامتهم في وجوههم، وأيًّا كان فالاسم يعيِّن مسماه ويميزه من غيره، وأسماء الله سبحانه وتعالى غير محصورة في عدد، كما جاء في الحديث الصحيح: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»(١).

وأما (الله) فهو علم على الذات المقدسة العلية، قال النحويون: وهو أعرف المعارف، هذا الاسم هذا العلم، وقد رتبوا المعارف بأن أعرفها: الضمير، ثم الأعلام، لكن هذا العلم هو أعرفها؛ إذ لا تحتمل المشاركة فيه وغيره من المعارف يمكن المشاركة فيه، أما قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فهو اسم من أسماء الله دال على الرحمة الواسعة.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ اسم من أسماء الله دال على الرحمة التي تقع بالفعل، فالرحمن للوصف، والرحيم للفعل، يعني: أنه رحمن يرحم، وبذلك تبين فائدة الجمع بينهما، فإن فائدة الجمع بينهما: الدلالة على أن رحمة الله واسعة وذلك في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لأن فعلان تدل على الامتلاء والسعة كما تقول: شبعان وريان وما أشبه ذلك، وأما الرحيم: فهو باعتبار الفعل أي: إيصال الرحمة إلى من قدر الله أن يرحمه.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٢).

والبسملة لها أحكام:

منها: أنها تكون أحيانًا شرطًا في الحل كالتسمية على الذبيحة، فإن التسمية على الذبيحة شرطٌ لحلها، حتى إنه لو ترك التسمية (ولو نسيانًا) لم تحل الذبيحة، وقد تكون واجبة لا شرطًا كما في الوضوء عند بعض العلماء، فإن التسمية في الوضوء واجبة، ولكنها ليست شرطًا للصحة، إذ لو تركها نسيانًا صح وضوؤه، وقد تكون مستحبة في كل أمر ذي شأن كما جاء في الحديث: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي شَأْنٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ»، أو «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ»[1] أي: ذي شأن مهم: «لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ» أي: منزوعَ البركة، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يبتدئ بها في المكاتباتِ إلى الملوك وغيرهم، وكذلك الأنبياء من قبله كما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿حمٓ﴾ هذه الكلمة مكونة من حرفين مهملين هجائيين: الحاء والميم، ولهذا ننطق بها باسمهما لا بلفظهما فلا نقول: حم بل نقول: حاء ميم، فهما إذن مهملان هجائيان يتركب منهما كلام الناس،فهل لهذين الحرفين معنى؟

يقول المؤلف: [الله أعلم بمراده به] يعني: ما ندري ماذا أراد؟ هل أراد إثبات معنى، أم لم يُرد إثبات معنى؟ وهل أراد معنى معينًا أم ماذا؟

المهم أننا نفوض الأمر لله، فموقفنا من هذا التفويض كغيرها من الحروف الهجائية التي ابتدئت بها بعض السور، ولكن مقتضى كون القرآن باللسان العربي أن نقول: إنهما حرفان هجائيان مهملان ليس لهما معنى، يعني: نجزم بأنه لا معنى لهما؛ لأن القرآن نزل باللغة العربية، واللغة العربية لا تجعل للحروف الهجائية معنى، وهذا مَرْوِيٌّ عن مجاهد ـ إمام المفسرين في زمنه ـ زمن التابعين، وهو الحق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

فإن قال قائل: يُرد على هذا القول أن في القرآن ما ليس له معنى، وليس له فائدة، وإنما هي حروف مقطعة ليس لها فائدة؟

قلنا الجواب عن هذا الإيراد: إن الله سبحانه وتعالى تكلم بذلك لمغزى أي: لحكمة بالغة وهي أن هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء من العرب، لم يكن أتى بشيء جديد من الحروف، بل أتى بالحروف التي ترتبون منها كلامكم، ومع ذلك أعجزكم، عجزتم عن صف الحروف حتى تكون مثل القرآن، فإذا كنتم عجزتم عن ذلك، فعجزكم عن معنى هذه الكلمات من باب أولى، وهذا الذي ذكره الزمخشري رحمه الله في تفسيره، وارتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وذكره أيضًا إما ابتداءً أو تقليدًا، المهم: أن هذا هو الصواب عند المحققين وهو أن الله تعالى أنزلها،

(١) عزاه في الإرواء (١) للحافظ عبد القادر الرهاوي وقال: ضعيف جدا.

لتمام التحدي لهؤلاء البلغاء الذين عجزوا أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل بعضه، وأيدوا قولهم هذا بأن الله تعالى لم يبتدئ سورة بالحروف الهجائية إلا ذكر بعدها القرآن إلا نادرًا.

ثم قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [القرآن]؛ لأن المراد بالكتاب هنا: القرآن، مع أن الكتاب اسم جنس، يحتمل أن تكون فيه (أل) للجنس فيشمل كل كتاب، ولكن الظاهر ما ذهب إليه المؤلف؛ لأن المقصود بذلك تقرير كون هذا القرآن الذي نزل على المكذبين من عند الله عزَّ وجلَّ.

وقوله: [مبتدأ]، يريد قوله: ﴿تَنزِيلُ﴾ أي: أنها مبتدأ، والمبتدأ يحتاج إلى خبر، والخبر قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ولهذا قال المفسر: [﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر]، تنزيل الكتاب من الله لا من غيره.

وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قال: [في ملكه، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه]، العزيز ذو العزة، وقد سبق أن عزة الله تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

عزة قدر، وعزة قهر، وعزة الامتناع، وهو كذلك في كل موضع جاء العزيز فهذا هو معناه، أي: أنه ذو عزة والعزة ثلاثة أقسام: عزة قدر، وعزة قهر، وعزة الامتناع.

أما عزة القدر: فمعناها أنه ذو شرف وسيادة.

وأما عزة القهر: فمعناها أنه ذو غلبة وسلطان.

وأما عزة الامتناع: فمعناها أنه ذو امتناع عن كل نقص وعيب، وقد سبق الاستشهاد على هذه المعاني الثلاثة وبيان اشتقاقها.

فيكون قول المؤلف: [العزيز في ملكه] فيه قصور؛ لأنه جعله بمعنى الغالب فقط، والصواب ما ذكرنا.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ قال: [بخلقه] والعليم أي: ذو العلم، وعلم الله سبحانه وتعالى ليس بمحدود لا أولًا ولا آخرًا ولا مقدارًا، فعلم الله تعالى واحد شامل لكل شيء، فهو أزلي أي: لم يسبقه جهل، وأبدي أي: لا يلحقه نسيان، فصار علم الله تعالى واسعًا شاملًا زمنًا وكيفًا، زمنًا أي: في المستقبل وفي الماضي، وكيفًا أي: أنه شامل لكل ما من شأنه أن يُعلم.

وقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [للمؤمنين، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ لهم، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ للكافرين]، قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الغفر هو: الستر مع الوقاية، ومنه المغْفَر: ما يوضع على الرأس عند الحرب لاتقاء السهام، و المغفر ساتر، فهو جامع بين الستر والوقاية.

والذنب هو المعصية، يقال أذنب الرجل إذا أخطأ، ومعنى ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ أي: ساتره المتجاوز عنه، وقول المؤلف: [للمؤمنين] فيه نظرٌ واضح؛ لأن مغفرة الذنب شامل للمؤمنين وغير المؤمنين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فهو غافر الذنب لكل من تاب إلى الله وسأل المغفرة.

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ قابله معناها: أن من تاب إلى الله قَبِلَ الله توبته، و﴿ٱلتَّوۡبِ﴾ بمعنى: الرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ من معصيته إلى طاعته ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ قال المؤلف: [للمؤمنين]، وهذا أيضًا ليس بصحيح، فالتوبة مقبولة من المؤمنين والكافرين قال الله تبارك وتعالى في المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، قد يموتون وهم كفار؛ إذن لو تاب قبل ذلك لقبلت، فتبين بهذا أن ما ذهب المؤلف رحمه الله من تخصيص ذلك بالمؤمنين يعتبر قصورًا.

قال: [مصدر]، أي: التوب.

وقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [للكافرين] المؤلف رحمه الله كأنه خصَّ الغافر والقابل للمؤمنين؛ لقوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لأن شدة العقاب إنما هي للكافرين، ولكن في هذا نظرًا؛ لأن المقصود هنا ذكر وصف الله عزَّ وجلَّ أو صفة الله سبحانه وتعالى: أنه جمع بين الفضل والعدل، بين الفضل بكونه غافر الذنب وقابل التوب، والعدل في كونه شديد العقاب؛ لأن شدة العقاب من الله عزَّ وجلَّ لمن استحقها عدل، إذ إن الله أخبرنا وبين لنا أن من فعل كذا عاقبه بالعقوبة الشديدة، فإذا فعل الإنسان ما تُوعد عليه بالعقوبة الشديدة فهو الذي اختار لنفسه هذا، فتكون معاملة الله له به عدلًا.

وقوله: [أي مشدده] لماذا عدل عن ظاهر الآية التي تفيد أنه نفسه شديد العقاب؟ لأن الأشاعرة ينفون الصفات، والتشديد فعل بائن عن الله عزَّ وجلَّ، فلننظر الآن على كلام المؤلف تكون ﴿شَدِيدِ﴾ بمعنى: مشدد، ولنا أن نطالب فنقول: هل فعيل تأتي بمعنى مفعِل؟ الجواب: نعم تأتي فعيل بمعنى مفعل، كقول الشاعر:

أَمِــنْ رَيْحَانَــةَ الــدَّاعِي الــسَّمِيْعُ ... يُــؤَرِّقُنِي وَأَصْــحَابِي هُجُــوعُ

السميع هنا بمعنى: المسمِع، الداعي الذي يسمعني يؤرقني فلا أنام وأصحابي هجوع أي: نائمون.

فمن حيث اللفظ لا اعتراض على المؤلف، أي: من حيث جعلوه فعيل بمعنى مفعل لا اعتراض عليه؛ لأن ذلك وارد في اللغة العربية، لكن من حيث المعنى فيه نظر؛ لأن ظاهر قوله: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أنه هو نفسه عقابه شديد، وهو كذلك، فإذا كان العقاب شديدًا لزم أن يكون الألم على مَنْ عوقب شديد أيضًا، والعقاب مأخوذ من المعاقبة وهي: المجازاة، وسميت المجازاة عقابًا؛ لأنها تعقب العمل، لكنها تذكر غالبًا فيما يسوغ.

وقوله: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿ذِي﴾ بمعنى: صاحب، وهو مشهورة بالياء

نيابة عن الكسرة؛ لأنها من الأسماء الخمسة، و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ [أي: الإنعام الواسع]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ فـ ﴿ٱلطَّوْلِ﴾ هو: الغِنَى الواسع، ومن تمام الغنى أن يكون منعمًا، والله سبحانه وتعالى منعم واسع الغنى، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ قال: [وهو موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات، فإضافة المشتق منها للتعريف كالأخيرة]، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، هذه أربعة الأخيرة غير مشتقة، فإن ﴿ذِى﴾ بمعنى: صاحب غير مشتقة، لكنها مؤولة ومشتقة، أما ما قبلها ـ شديد العقاب ـ قابل التوب ـ غافر الذنب ـ فهي مشتقة، وجعل المؤلف رحمه الله هذه الصفات لا يراد بها إثبات المعنى المشتق منها، لكنها للتعريف فقط ولا يسلم ما في هذا الكلام من القصور التام، كيف نفهم المشتق لمجرد التعريف؟ كيف نقول: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ المراد بذلك: التعريف بالله عزَّ وجلَّ لا أنه غافر ولا أنه قابل ولا أنه شديد العقاب؟ فهو قاصر جدًّا ولا يصح أن نفسر كلام الله تعالى بهذا الكلام، بل نقول: ﴿غَافِرِ﴾ مشتق من الغفر وهو صفة مقصودة، ليس المقصود بها التعريف، وكذلك نقول: في ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، وفي ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقول المؤلف: [موصوف على الدوام بكل من هذه الصفات] قال ذلك؛ هربًا من إثبات صفات الأفعال؛ لأن صفة غافر بمعنى: يغفر صارت صفة فعل يتعلق بالمشيئة، وعند الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين يمتنع أن يُوصف الله تعالى بوصف هو فعل، لماذا؟ قالوا: لأن الفعل يدل على الحدوث، والحدوث لا يكون في القديم فلا يكون الحدوث إلا بحادث وقد سبق لنا بيان بطلان هذا القول.

فالصواب إذنْ أن ﴿غَافِرِ﴾، ﴿وَقَابِلِ﴾ صفتان من صفات الأفعال، وأما ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فهي أيضًا صفة من صفات الأفعال لأن التقدير: عقابه شديد فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي أن عقابه شديد فتكون كما سبق من الصفات الفعلية.

وأما ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ فإذا قلنا: إن معناه ذي الغنى الواسع فهي من صفات الذات، وإذا قلنا: إنها بمعنى الإنعام الواسع فهي من صفات الأفعال.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المرجع] الجملة خبرية مكونة من مبتدأ وخبر، والخبر فيها مقدم ، وإذا قُدم الخبر أفاد التخصيص والحصر، ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله وحده، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: [المرجع]، وهل المراد إليه المصير أي المرجع في كل شيء أو إليه المصير بعد الموت؟

الجواب: إليه المصير في كل شيء فإليه المرجع في الحكم بين الناس، إليه المرجع في تدبير الأمور، إليه المرجع بعد الموت، إليه المرجع في كل شيء، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

مسألة: كيف نجمع بين القول بأن أسماء الله تعالى لا تحصى، وبين قول النبي صلى الله عليه

وعلى آله وسلم: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

الجواب: عن ذلك أن نقول: إن كلام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ككلام الله لا يتناقض أبدًا فإذا كان قد ثبت عنه أنه قال: «أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»(٢) علمنا أن من أسماء الله ما لا يمكن الوصول إليه ولا يمكن إدراكه؛ لأن ما استأثر الله به لا يمكن أن نعلمه، فحينئذ يتعين أن نقول: إن معنى قوله: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»(٣) أي: من أسمائه تسعة وتسعين من أحصاها دخلَ الجنة، فتكون جملة (من أحصاها) وصفًا لكلمة «اسمًا»، وليست جملة مستقلة مستأنفة، فتكون معنى: إن لله تسعة وتسعين اسمًا موصوفًا بأن من أحصاها دخل الجنة، وله أسماء أخرى، لكن اختر منها تسعة وتسعين فإذا أحصيتها دخلت الجنة.

وما معنى إحصائها هل معناها أن تقرأها لفظًا؟ لا، ولكن معنى إحصائها هو: معرفتها لفظًا ومعنى، والتعبد لله بمقتضاها، أي: معرفة لفظها ومعناها: التعبد لله تعالى بمقتضاها.

فائدة: كل السور المبتدأة بحروف الهجاء مكية، إلا البقرة وآل عمران، وما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني هذا هو أرجح الأقوال، حتى وإن نزل بمكة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾:

١- **من فوائد هذه الآيات:** أن القرآن الكريم حروف تكلم الله به بحروف، ففيه الرد على الأشاعرة، ومن سلك سبيلهم الذين يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بالنفس، وأن الله لا يتكلم بحرف من الحروف، لكن يخلق حروفًا وأصواتًا تسمع تعبيرًا عما في نفسه، وحقيقة هذا القول نفي الكلام؛ لأن ما في النفس من المعلومات المرتبة ليست كلامًا، ولكنها معلومات، والرد عليهم معلوم من كتب العقائد منها: أن القول إذا أطلق فهو قول اللسان، وإذا أريد به قول النفس حدد مثل: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، مثل: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا»(٤).

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** علو الله عزَّ وجلَّ، يؤخذ من قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن النزول لا يكون إلا من أعلى.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن كلام الله، لا كلام غيره، لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وذلك أن ما ذكر الله أنه نزل ينقسم إلى قسمين:

إما أن يكون أعيانًا قائمة بنفسها فهذه مخلوقة، أو تكون أوصافًا لا تقوم إلا بالغير فهذا غير

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٧٣٩٢) ومسلم (٦/ ٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٣) **صحيح:** تقدم تخريجه.

(٤) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧/٢١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مخلوق.

مثال الذي أضافه إلى نفسه- إنزاله إلى نفسه وهو عين قائمة بنفسها- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] فالحديد مخلوق ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦] فهذه أعيان قائمة بنفسها مخلوقة، وقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦] مخلوق، إذنْ فما أضاف الله إنزاله إليه وهو عين قائمة بنفسه فهو مخلوق، وإلا فهو غير مخلوق.

القرآن هل هو عين قائمة بنفسها أو كلام لا يقوم إلا بالغير الثاني أو الأول؟ الثاني إذًا هو غير مخلوق.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وصف القرآن الكريم بالكتاب، فلماذا وُصف بالكتاب؟

أولًا: لأنه يكتب فهو مكتوب بالمصاحف التي بأيدينا.

ثانيًا: أنه في صحف بأيدي الملائكة: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٢، ١٣].

ثالثًا: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وعليه فالكتاب بمعنى: مكتوب، وحينئذٍ نسأل هل يأتي فعال بمعنى مفعول؟ نقول: يأتي كثيرًا في اللغة العربية، كغرار مغرور، وبناء بمعنى: مبني، وفراش بمعنى: مفروش، وما أشبهها.

٥- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله: العزيز ، والعليم، لقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وإثبات ما دلت عليه هذه الأسماء من الصفات، فالله دل على الألوهية، والعزيز: على العزة، والعليم: على العلم.

واعلم أن كل اسم من أسماء الله فهو متضمن لصفة، وليس كل صفة يشتق منها اسم، ولهذا قلنا: إن الصفات أوسع من الأسماء.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ذكر الأسماء المناسبة للمقام يعني: أن الله جل وعلا يذكر من أسمائه ما يناسب المقام، فهذه السورة يتحدث فيها الله عن المكذبين للرسل، وما جرى عليهم من الهلاك والانتقام، فما الذي يناسبه من الأسماء؟ العزة التي فيها الغلبة والأخذ، ولهذا جاءت هنا العزيز، وجاء العليم؛ ليفيد أنه لعزته أخذ هؤلاء المكذبين، ولعلمه أنزل الكتب، وعلم كيف يأخذ هؤلاء المكذبين.

ثم قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ...﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عزَّ وجلَّ يغفر الذنوب جميعًا؛ لقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ والذنب هنا مفرد محلى (بأل) فيكون عامًّا؛ لأن المفرد المحلى (بأل) يكون عامًّا مثل: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] أي: إن كل إنسان.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحث على فعل كل ما تكون به المغفرة، وجه ذلك: أن الله لم يخبرنا أنه غافر الذنب من أجل أن نعلم أنه غافر فقط، لكن من أجل أن نتعرض لمغفرته.

مسألة: ما هي الأسباب التي تكون بها المغفرة؟

الجواب: الأسباب كثيرة: منها الاستغفار، اللهم اغفر لي، ومنها أعمال صالحة يكفر الله بها الخطايا، ومنها: الإحسان إلى الخلق حتى إن الله عزَّ وجلَّ غفر لامرأة بَغِيّ لسقيها كلبًا عطشان، فأسباب المغفرة كثيرة، وغفر لرجل وجد شجرة في الطريق تؤذي الناس فأزالها، المهم: أن نتعرض لأسباب المغفرة؛ لأن ذلك مقتضى قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه يقبل التوبة من عباده، ولكن لا يُقبل الشيء حتى يكون جاريًا على مقتضى الشريعة؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[(١)] فما هي التوبة الجارية على مقتضى الشريعة؟

هي التى جمعت خمسة أمور، وهي ما تعرف بشروط التوبة:

الأول: الإخلاص لله عزَّ وجلَّ بأن يكون الحامل للإنسان على التوبة: إخلاصه لله عزَّ وجلَّ وحب التقرب إليه، والفرار من عقوبته، فلا يحمله على التوبة مراءاة الخلق، ولا حسن الجاه والرئاسة، وإنما يحمله الإخلاص لله.

الثاني: الندم على فعل المعصية أن يشعر الإنسان باكتئاب وندم وحسرة على وقع منه، فلابد من ندم؛ لأن الندم هو الذي يتبين حقيقة رجوع الإنسان إلى الله، وأن هذه المعصية أثرت في نفسه، فندم على ما جرى منه، ولا يقال: إن الندم انفعال، والانفعال يأتي بغير الاختيار، كالغضب مثلًا والحزن من الواقع، يرد على هذا بأن المراد بالندم هنا تحسر القلب، فهو انفعال يقع من الإنسان ليس كالانفعال الذي يتسبب من الخارج، هذا ربما لا يستطيع الإنسان أن يغير ما وقع.

الثالث: التخلي عن المعصية، والانفصال عنها، فإن تاب وهو مُصِرٌّ فإن توبته أشبه ما تكون بالاستهزاء، كيف يقول الذي يأكل لحم الخنزير أستغفر الله تعالى وأسأل الله أن يجعل طعامي طيبًا؟! يصلح هذا أو ما لا يصلح؟! لا، ويمضغ اللحمة جيدًا، ويقول: أستغفر الله من أكل لحم الخنزير وأسأل الله وأن يجعل طعامي جيدًا؛ هذا أشبه ما يكون بالمستهزئ، لو أن رجلًا نهاك عن شيء ووجدك تعمل هذا الشيء أرجو منك أن تعذرني وما أشبه ذلك، وقال لا تأكل ويأكل، هذا الذي يخاطبه يقول إنك تستهزئ بي وتسخر بي، فلا توبة مع الإصرار، فلابد أن يتخلى عن الذنب، وإذا كان الذنب لله فالتخلي عنه سهل، لكن إذا كان الذنب لغير الله - يعني أذنب في غير حق الله فكيف يتخلى منه -؟

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨/ ١٧١٨) بهذا اللفظ من حديث عائشة رضي الله عنه.

نقول: إذا كان مالًا فالتخلي عنه بإيصاله إلى صاحبه بأي وسيلة كانت فإن كان قد مات فإلى ورثته، فإن جَهِلَهُم فإلى بيت المال، وإذا كان بيت المال غير منتظم أو يخشى عليه أن يضيع، فليتصدق به هو لصاحبه، كم مرحلة الآن.؟ أربعة: لصاحبه، لورثته، لبيت المال إن جهلهم، يتصدق به، وأيهم أولى بيت المال أو الصدقة؟ الغالب: أن الصدقة أولى لاسيما في زماننا هذا، حيث إن بيت المال قد لا يتصرف به ولي الأمر التصرف الذي يرجى.

إذا كان عدوانًا على النفس لم يكن مالًا، فالتوبة منه أن يمكن صاحب الحق من الاقتصاص منه، فمثلًا إذا كان قد اعتدى على شخص بضرب فليذهب إليه ويقول: أنا أعتديت عليك بالضرب اضربني كما ضربتك، كما فعل النبي ﷺ مع الرجل الذي ضربه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حينما رآه متقدمًا في الصف، فقال الرجل: أقدني[1] يا رسول الله، فكشف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن بطنه ليقيده فماذا فعل الرجل؟ قبَّله، فهذا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو أشرف الخلق وأحب الناس إلى أتباعه، مكَّن من الاقتصاص منه.

وإذا كان في العرض: فإذا اعتديت على شخص في عرضه يعني: بأن اغتبته أو سببته، والفرق بين الغيبة والسب، أن السب مواجهة، والغيبة مع الغَيْبة، فذكرك أخاك بما يكره إن كان غائبًا فهي غيبة، وإن كان حاضرًا فهو سبٌّ، والتوبة من هذا أن تستحله، فهل لو قلت: سبني كما سببتك يصح أو لا؟ لا يصح؛ لأن هذا جناية على نفسك، ولكن استحله هذا إذا كان سبًا؛ لأنه قد علم بذلك، وإذا كان غيبة فهل تستحله تذهب إليه وتقول: إني اغتبتك فاعذرني واسمح لي؟

الجواب: قال بعض العلماء: نعم يجب أن تذهب إليه وتقول أنا اغتبتك فاعذرني حللني، وقال بعض أهل العلم لا يلزم استحلله بل يكفي أن تستغفر له كما جاء في الحديث وإن كان ضعيفًا: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»[2] استغفر له، وأثنِ عليه بما هو أهله في الأماكن التي اغتبته فيها، وبهذه تكون حسنات فتذهبن السيئات، وهذا القول أصح؛ لأن هذا فيها البراءة وعدم التشويش؛ لأن ربما تذهب إليه تقول اغتبتك فحللني، فتكون مهما أتيت به من صيغة الغيبة قد لا يقتنع بها، فإذا قلتَ فيك: إنك بخيل قد يقول إنك قلت بخيل وجبان، أليس كذلك؟! ربما يقول له الشيطان هكذا ويأبى أن يحللك فإذا كان لم يعلم فاحمد الله على ذلك واستغفر له، وأثنِ عليه بما هو أهله في الأماكن التي كنت اغتبته فيها وبذلك تسلم من الإثم، هذه صفة التخلي من الذنب إذا كان في حقِّ غير الله.

مسألة: بعض الناس يكون عليه حق مالي لشخص، إما سرقه أو جحده أو ما أشبه ذلك، ثم يتوب هذا الفاعل ويذهب إلى صاحب الحق ويقول: خذ حقك فيأبى صاحب الحق أن يأخذه،

---

(١) مأخوذ من القود وهو القصاص.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت ص (١٧١) من حديث أنس وسنده ضعيف.

فإذا يصنع؟ وهذا يرد كثيرًا، يكون صاحب الحق يعني قد حمل في نفسه على هذا الظالم الذي ظلمه، ويأبى أن يقبل فماذا يصنع؟ هل نقول: إنه حينئذٍ سقط حقه، وصحت توبة المعتدي، ويبقى إن طلب حقه مرة أخرى أعطيه، وإن لم يطلب فإن المعتدي برئ.

نقول: ننزل هذه الحال على القواعد الشرعية، والقواعد الشرعية تقتضي أن هذا الذي عليه حق قد برئ؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهذا ما يسعه؛ قدم الحق لصاحبه وقال خذ، قال: لا أقبل أنت اعتديت علي في الأول ولا أقبل منك، هذا الذي أبى أن يقبل هو الذي أخطأ وجنى؛ لأنه ينبغي للإنسان إذا اعتذر إليه أخوه أن يقبل عذره، لكن هذا هو الذي جنى الآن، فهذا الرجل نقول: أنت الآن برئت ذمتك، خلِّ الدراهم عندك إن جاء يومًا من الدهر أَعْطِهَا إياه، وإن مات فهل يلزمه أن يعطيه الورثة؟

الجواب في هذا نظر، وذلك أن الرجل الذي اعتدي عليه لم يقبل هذا المال ولم يدخل في ملكه، فإذا كان لم يقبله ولم يدخل في ملكه فكيف ينتقل إلى الورثة ومن شرط الإرث انتقال المال عن الموروث، وهذا الموروث لم يقبل هذا المال، وقد يقال: إن الأصل أنه ملك، فيلزم الرد إلى ورثته، وهذا الأخير أحوط، لكن في وجوبه نظر؛ لأن الذي اعتدى وأراد أن يرد يقول أنا أعطيت الرجل وأبى أن يتملكه فكيف ينتقل إلى الورثة، ولكن نقول: الأحوط والأولى أن يرده إلى الورثة ليسلم منه، لكن لو فرض أنه لا ورثة له، أو أن ورثته مجهولون فإن هذا التائب قد أدى ما عليه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب، أو ألا يعود إلى الذنب، الأول أو الثاني؟ الأول أن يعزم على أن لا يعود إلى الذنب.

ما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما أننا إذا قلنا أن لا يعود ثم عاد بطلت التوبة الأولى، وإذا قلنا الشرط العزم على ألا يعود وقد عزم أن لا يعود ثم عاد فالتوبة الأولى تبقى صحيحة وعليه أن يتوب توبة ثانية للذنب الجديد، وعلى كل حال: فالشرط هو العزم ألا يعود في المستقبل، فإن عاد فعليه توبة أخرى؟ نعم وكلما عاد يتوب.

فإن قال قائل: أليس قد ثبت في الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر: «أن رجل أذنب فتاب، ثم أذنب فتاب، ثم أذنب فتاب، ثم قال الله عزَّ وجلَّ علم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»(١)، فهل هذا يعني أن الإنسان إذا تكرر منه الذنب وهو يستغفر يغفر له؟

الجواب: نعم مهما أذنب ثم استغفر يغفر له، لكن لو قال قائل: إن ظاهر الحديث فليعمل ما شاء فليعصِ الله؟ قلنا: لا يستقيم هذا؛ لأنه يخالف الأدلة الكثيرة الدالة على أنه لابد لكل ذنب من توبة إلا طائفة واحدة من هذه الأمة هم الذين يحتاجون إلى توبة من الذنب وهم أهل بدر،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٣٠/ ٢٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

«فإن الله اطلع عليهم وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١).

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبل فيه التوبة، وهو أن تكون التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الأجل، والأول عام لكل أحد لا توبة لأحد إذا طلعت الشمس من مغربها، لقول النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها»(٢)، وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، والمراد ببعض الآيات طلوع الشمس من مغربها.

والثاني: أن تكون قبل حضور الأجل، فإذا حضر الأجل لم تنفع التوبة؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] هؤلاء ليس لهم توبة، وتطبيق هذا عمليًا أن فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ آلآن تؤمن؟! ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢] لا رحمة بك ولكن ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢]، وأما روحك فلا نجاة لها، وإنما نجاه الله ببدنه؛ لأنه قد أرعب بني إسرائيل ولا يكادون يصدقون أنه هلك حتى يشاهدوه فيطئمنوا، فلهذا نجاه الله ببدنه ليشاهدوه.

هل يُشترط ألا يكون مصرًّا على ذنب آخر؟ يعني: نفرض أنه تاب من شرب الخمر، لكنه باقٍ على الزنا ـ والعياذ بالله ـ فهل تصح توبته من شرب الخمر؟

الجواب: في هذا خلاف فمن العلماء من يقول: لا تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على ذنب آخر، ومنهم من قال: بل تصح؛ لأن كل ذنب له جرمه، ومنهم من قال: إذا كان الذنب الذي أصر عليه من جنس الذي تاب منه، فإن التوبة لا تصح، كرجل تاب من الزنا، لكنه يطلق بصره في النظر المحرم، فإن توبته من الزنا لا تصح، أو رجل تاب من النظر المحرم، ولكنه لم يتب من المس المحرم، هذا أيضًا لا تقبل توبته، ومن العلماء من قال: تقبل مطلقًا إذا تاب من ذنب تاب الله عليه من هذا الذنب؛ لأن الله عزَّ وجلَّ حكمٌ عدل ورحمته سبقت غضبه، وهذا الرجل عند جنايات متعددة تاب من واحدة منها، فليكن تائبًا، وهذا القول أصح، ولكن لا يطلق على هذا التائب وصف التوبة المطلقة؛ لأن توبته هذه مقيدة يعني: لا يستحق وصف التائبين على

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٠٠٧) ومسلم (١٦١/ ٢٤٩٤) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الإطلاق، فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ لأن هذا الرجل لا يصدق عليه أنه تائب على وجه الإطلاق، لكنه تاب من ذنب، ووقعٌ في ذنب آخر، وهذا القول هو الذي تجتمع فيه الأدلة، على أنه يقال: استحقاق الوصف المطلق فيمن تاب من ذنب مع الإصرار على غيره لا يكون، وأما وصفه بتوبة مقيدة فهذا صحيح.

مسألة: رجل سرق من شخص مالًا ثم رده عليه وقال هذه هديَّة هل يبرأ منه؟

الجواب: لا يبرأ منه.

٤ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن عقاب الله تعالى شديد؛ لقوله تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة: الحذر من التعرض لعقابه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لنبيه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال في آية أخرى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان كمال غنى الله؛ لقوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي: صاحب الطول، والطول هو الغنى كما شرحناه.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** انفراد الله تعالى بالألوهية؛ لقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، والانفراد بالألوهية أحد أقسام التوحيد الثلاثة التي هي: توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ويسمى توحيد العبادة، فهو باعتبار العبد توحيد عبادة، وباعتبار المعبود توحيد ألوهية.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أنه لا معبود حق إلا الله، لأن هناك من يعبد من دون الله وتسمى آلهة تعبد، وقد سماها الله تعالى آلهة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، لكنها آلهة باطلة.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المصير إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب التحاكم إلى شريعة الله، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾؛ حيث قدَّم الخبر، وتقديم الخبر يفيد الحصر والاستحقاق.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الجمع بين الخوف والرجاء في السير إلى الله؛ لأنه وجب على الإنسان إذا علم أنَّ المصير إلى الله وأنه غافر الذنب وقابل التوب وشديد العقاب يرجوه من وجه ويخافه من وجه آخر، ما دام المصير إلى من هذا وصفه، فإنه لا شك أنه يرجو تارة ويخاف أخرى وأيهما يغلِّب؟

قال بعض العلماء: يجب أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، لا يغلب الرجاء فيقع في الأمن من مكر الله، ولا يغلِّب جانب الخوف فيقع في القنوط من رحمة الله، بل يكون خوفه ورجاؤه واحدًا.

قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه.

وقال بعضهم: ينبغي للإنسان أن يسير إلى الله تعالى سير الطير جناحاه متسويان، فإن مال أحد جناحيه جنح إلى الجانب الذي مال إليه.

وقال بعض العلماء: ينبغي في جانب الطاعة أن يغلب جانب الرجاء، وأن الله تعالى يقبله، وفي جانب المعصية يغلب جانب الخوف؛ لئلا يقع فيها، فإذا همَّ بسيئة ذكر شدة العقاب فخاف فارتدع، وإذا عمل صالحًا ذكر الثواب والجزاء وقبول الله عزَّ وجلَّ فغلب جانب الرجاء.

وقال بعض العلماء: ينبغي أن يغلب جانب الخوف في حال الصحة، وجانب الرجاء في حال المرض، حتى يأتيه الموت وهو يحسن الظن بالله، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[1].

فالأقوال إذن أربعة: أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، والثاني: أن يغلب جانب الرجاء في العمل الصالح وجانب الخوف إذا همَّ بمعصية، والثالث: أن يغلب جانب الرجاء في حال المرض وجانب الخوف في حال الصحة.

والذي يظهر: أن القول بأنه يغلب جانب الرجاء في حالة الطاعة، وجانب الخوف إذا همَّ بمعصية هو أقرب الأقوال من أجل أن يردع نفسه إذا هم بمعصية خوفًا من الله، وأن يؤمل القبول من الله والثواب إذا فعل الطاعة فيغلب جانب الرجاء.

١١ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على التوكل على الله، كيف كان الدليل في الحث على التوكل على الله؟ أنه لما كان المصير إلى الله، كان ينبغي أن يتعلق الإنسان بربه لا بغيره ما دام المصير إليه، فتوكل على الله لا على غيره.

١٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: اللجوء إلى الله تعالى عند الشدائد، وعند طلب المحبوب، تؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، فإذا اشتدت بك شدة فلا تذهب إلى زيد أو عمرو، بل عليك بالله عزَّ وجلَّ، حتى الشدائد التي أسبابها خفية لا ينفعك فيها إلا الله قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].



قال الله تعالى:

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ما يجادل إلا الذين كفروا، ﴿مَا﴾ نافية، و﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، والجملة هنا جملة خبرية حصرية، خبرية لأنها منفية، لأنه حصر

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٢/ ٢٨٧٧) من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه.

الجدال في الذين كفروا ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أما الذين آمنوا فلا يجادلون في آيات الله، والمجادلة: هي المنازعة والمخاصمة مأخوذة من الجدل وهو فتل الحبل، هذا أصل الجدل المنازعة وهي مأخوذة من الجدل فتل الخصم، أي: فتل الحبل؛ لأن كل واحد من المتنازعين كأنما يفتل حبلًا لمنازِعه، فيكون ذلك أشد في الإحكام.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قال المفسر [القرآن]، وينبغي أن يفسر الآيات بما هو أعم، وهذا الذي فسر المؤلف به الآيات يعتبر قصورًا، ولا ينبغي أن نفسر الأمر بأخص منه إلا إذا دلت قرينة قوية على ذلك، وهنا لا دلالة.

فالمنازعون في آيات الله منهم من ينازع في القرآن، ومنهم من ينازع في السُّنة، ومنهم من ينازع في الخلق، مثلًا: الخسوف من آيات الله، أي: خسوف القمر من آيات، لكن من الناس من يجادل فيه ويقول: ليس هذا من باب تخويف العباد، وأي رابطة بين هذا وبين التخويف، وسببه طبيعي معلوم يُدرك بالحساب، ويجادل في شرع الله أي: في آيات الله الشرعية، فعندما يخاطب بحكم يقول: لماذا كان كذا، وكان في موضع آخر كذا وكذا، ككقصة المعري الذي جادل في كون اليد تقطع بربع دينار وديتها خمسمائة دينار، وكقول بعضهم لماذا ينتقض الوضوء بالريح من أسفل ولا ينتقض بالريح من أعلى، والريح من أعلى هو الجشاء، وما أشبه ذلك من المجادلات في الآيات الشرعية، ومنهم من يجادل في القرآن فيقول: القرآن فيه تناقض قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال في آية: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، هذا تناقض فيجادل.

المهم: أن الجدل يكون في الآيات الكونية الثابتة في القرآن والسنة، ويكون أيضًا في الآيات الشرعية الثابتة بالكتاب والسنة وفي الآيات الكونية، فينبغي أن نفسر الآيات بما هو أعم مما ذكر المؤلف، فنقول: ما يجادل في آيات الله الكونية أو الشرعية إلا الذين كفروا، وأما المؤمنون فلا يجادلون، بل المؤمنون يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ولا يجادلون، وهذا واضح.

مسألة: من أين عرفنا أن المؤمنين لا يجادلون؟

الجواب: من كونه حصر المجادلة في الذين كفروا.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال: [من أهل مكة]، وهذا تخصيص آخر، الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والمؤلف يقول: [من أهل مكة]، سبحانه الله! القرآن يعم، ونحن نخص هذا خطأ وقصور في التفسير، فنقول ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أعم من القرآن، و﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعم من أهل مكة، والصواب: يجادل في آيات الله الذين كفروا من أهل مكة، ومن غير أهل مكة، من أهل المدينة، من أهل الطائف من أهل جدة من أهل القصيم من كل مكان، فكلهم يجادلون في آيات

الله، لكن إذا كانوا كفارًا.

وقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ الخطاب في قوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ إما للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأنه الذي نزل عليه القرآن، وإما لعموم المخاطبين؛ لأن القرآن نزل للجميع، وأيهما أولى؟

الثاني؛ لأن القاعدة التفسيرية عندنا: أنه إذا دار الأمر بين كون المعنى عامًّا أو خاصًّا، فإنه يحمل على العام؛ لأن الخاص يدخل في العام، ولا عكس، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ﴾ أيها المخاطب، وأول ما يدخل في ذلك الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ و﴿يَغْرُرْكَ﴾ يعني: لا يخدعك ولا تغتر بهم.

وقوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ التقلب: التردد من شيء إلى شيء، ومنه تقلب الإنسان في فراشه من جانبٍ إلى جانب، والمعنى: لا يغرك ترددهم في البلاد يمينًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، للتجارة ولغير التجارة، لماذا لا يغر؟ قال: [للمعاش سالمين، فإن عاقبتهم النار]، ولكن لو قال فإن عاقبتهم البوار لكان أحسن؛ لأن الله تعالى ضرب مثلًا لمن كان على حالهم، بأن الله أهلكهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ...﴾ [الحج: ٤٢] إلى آخره.

وقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ إذن هؤلاء الكفار الذين يذهبون ويجيئون كل هؤلاء لا يغرون، لاسيما إذا كان ترددهم في البلاد استكبارًا في الأرض، ومكر السيء، وعلوًا على الخلق، وزعمًا منهم سيدبرون الناس وسيسنون نظامًا عالميًا كما يقولون، فإننا نعلم أن مآلهم الفشل، وإذا نحن صدقنا الله، فإن كيدهم لا يضر، قال الله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦] يعني: كيدًا أعظم، ومعلوم أن الكيد الواقع من الله أشد من الكيد الواقع من البشر.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الكفار يجادلون في آيات الله، لكن لأي شيء؟ قال: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حرص الكفار على إبطال الحق بالمجادلة والمجالدة، فالمجادلة كما في الآية، المجالدة إذا عجزوا عن إبطال الحق بالجدل أبطلوه بالقتال، كما في آيات أخرى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحذر من مجادلة الكفار إذا كان ليس عند الإنسان سلاح، أي: لا تدخل مع الكفار في جدل إذا لم يكن لديك سلاح، لأنك سوف تُهزم، وهزيمتك ليست هزيمة شخصية، لكنها هزيمة للإسلام.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي لنا أن نعرف معايب الكفار وأقوالهم؛ حتى يمكننا أن نجادلهم؛ لأن الجدل كما قلنا فيما سبق يعني: المنازعة، فكل واحد ينازع الآخر؛ ليفتل

كلامه أمامه حتى يشتد عليه، فلابد أن تعرف ما هم عليه من الباطل من أجل أن تحاجهم فيه، يعني: لا يكفي في مجادلة الكفار أن تعرف الحق الذي أنت عليه، بل لابد أن تعرف الباطل الذي هم عليه، وأظن هذا واضح، والله عزَّ وجلَّ يجادل الكفار من كتابه: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، والآيات في هذا كثيرة، اعرف ما عند عدوك من الباطل من أجل أن تدحض حجته.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية الكريمة التي ذكر الله فيها أنه لا يجادل في الآيات إلا الكفار وبين قول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] فأمر بالجدال، مع أنه في هذه الآية ذم الجدال، وقال أنه لا يجادل إلا الكفار؟

الجواب على هذا: أن المجادلة التي أمرنا بها هي المجادلة لإبطال الباطل وإحقاق الحق، أما الكفار فإنهم مجادلون لإبطال الحق وإحقاق الباطل، فهم عكس ما أمرنا به.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله تعالى يملي للكفار ويمهلهم، ويمكنهم من التقلب في البلاد حيث شاءوا؛ لقوله: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: تحذير المؤمن أن يغتر بما أنعم الله به على هؤلاء الكفار من التقلب في الدنيا حيث شاءوا، لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان سفه أولئك الذين أغروا واغتروا بالكفار، فبين سفاههم في العقول، وضلالهم في الدين، فإن بعض المسلمين ضعفاء الإيمان قد انبهروا بما عليه الكفار، وظنوا أن ما هم عليه من تحلل الأخلاق وفساد العقائد، والكفر هو الذي أوجب أن يكونوا على هذا المستوى من التقدم المادي، فانبهروا بذلك وانفلتوا من الدين وضيعوا مشيتهم، يقولون: إن الغراب أعجبه مشية الحمامة - ومعروف الفرق بين مشية الحمامة ومشية الغراب - فقال: سأمشي مثل مشية الحمامة فأراد أن يفعل ولم يدرك شيئًا، وأراد أن يعود إلى مشيته الأولى فعجز أن يرجع، فضيع المشية الأولى والثانية، وهؤلاء المساكين الذين انبهروا بما عليه الكفار من القوة المادية وما زُخرف لهم من الدنيا، ضيعوا دينهم ولم يصلوا إلى ما عليه هؤلاء من الدنيا، وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه مهما طال الأمد بهؤلاء الكفار فإن مآلهم الهلاك والبوار، وانظروا الآن كل الكفار السابقين أين ذهبوا؟ ذهبوا إلى النار؛ لأننا نشهد بالله أن كل كافر في النار، فهؤلاء الذين ماتوا على الكفر انتقلوا من الدنيا التي جعلت لهم جنة إلى النار - والعياذ بالله -.

وأظن قد قصصت قصة لابن حجر العسقلاني وكان قاضي القضاة في مصر - يعني كبير القضاة - وكان إذا مشى يمشي على عربة تجرها الخيول أو البغال في موكب، فمر ذات يوم بيهوديٍّ سمان يعني يصنع السمن أو زيات، والسمان تكون ثيابه ملوثة بالزيت وأحواله سيئة، فأشار إلى الموكب فوقف، فقال لابن حجر: إن نبيكم يقول: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»، وكيف يتفق هذا القول مع حالي وحالك، أنت الآن مسلم وفي هذه الرفاهية وفي هذا الموكب العظيم، وهو يهودي وتعث، في زيت أو سمن يلوث ثيابه ويديه وكل شيء، فقال له ابن حجر رحمه الله: نعم لكن أنت ما فيه البؤس هو جنة بالنسبة لما ستؤول إليه إذا مت، فإذا مت وأنت كافر فمآلك النار، هذا جنة بالنسبة للنار، وأما أنا فنعيمي هذا بالنسبة للجنة يعتبر سجنًا؛ لأن نعيم الجنة أعلى بكثير من هذا، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، سبحان الله تبين له الأمر بكلمات بسيطة، فأقول: إن هؤلاء الكفار مهما زينت لهم الدنيا فإنهم - والعياذ بالله - سيؤولون إلى عذاب، وكما نعلم جميعًا أن الإنسان إذا آل إلى عذاب بعد النعيم صار العذاب عليه أشد، لكن لو انتقل من عذاب إلى عذاب، صار أهون أما من نعيم إلى عذاب صار صعبًا جدًّا.



قال الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]

التفسير

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ هذا كالتعليل لقوله: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ يعني: فلينظر عاقبة من كان قبله حين كذبوا، وقوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ الضمير يعود على الذين كذبوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ نوح هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض بعد أن اختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ونوح بُعث إلى أهل الأرض؛ لأن أهل الأرض هو قومه، أما حين تعددت الأقوام فقد كان الرسول لا يبعث إلا إلى قومه خاصة، كما ثبت ذلك عن

النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وقوله: ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾ جمع حزب، وهي الطائفة يعني: الطوائف ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يعني: أي من بعد قوم، يقول المفسر: [كعاد وثمود وغيرهما فماذا أغنى عنهم التكذيب]، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾.

وقوله: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ﴾ يعني: كل أمة همت برسولهم أي: بالذي أرسل إليهم ﴿لِيَأۡخُذُوهُ﴾ هذه متعلقة بـ ﴿وَهَمَّتۡ﴾ أي: هموا ليقتلوه، واللام هنا بمعنى الباء أي: بأن يأخذوه فيقتلوه، ومنهم من قتلهم بالفعل من قتل النبيين بغير الحق.

وقوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ هذه تفسر معنى الجدال فيما سبق في قوله: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فجادلوا بالباطل أي: جعلوا الباطل سلاحًا لهم ﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾ ليزيلوا به الحق، فكانوا يأتون بالباطل يحاجون به الحق لأدحضه، واعلم أن الذين يأتون بالباطل ليدحضوا به الحق لا يأتون بالباطل على وجه بل يزخرفون القول له، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ ولهذا تجد الذين يجادلون بالباطل يأتون بعبارات إذا رآها الإنسان ظنها الحق، كأنها السراب للظمآن، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩].

وكما قال بعضهم:

حُجَجٌ تَهَافَتْ كَالزُجَاجِ تَخَالُهَا حقًّا وَكُلٌّ كَاسِرٍ مَكْسُورِ

فهم يأتون بزخرف القول، وزخرف القول يعني المنمق المحسن المزين لأجل إدحاض الحق.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ الفاء هنا للسببية، أي: فبسبب ما قاموا به من المجادلة بالباطل والتكذيب أخذتهم، والضمير الفاعل يعود على الله سبحانه وتعالى، والمفعول يعود على هؤلاء المكذبين فأخذتهم بالعقاب.

وقوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فسر المؤلف الأخذ هنا بالعقاب، فكيف كان عقابي، أي: معاقبتي لهم، و(كيف) هنا للتعجب وللتقرير، وللتعظيم أيضًا، أي: فكان عقابي عظميًا في كيفيته وفي وقوعه موقعه، وفي شدته، فإنه عذاب لم يوقع أحد منه، وعلى هذا فالاستفهام له عدة معانٍ يعينها السياق.

وقوله: ﴿عِقَابِ﴾ قد يشكل على الناظر لأول وهلة كيف كان مجرورًا، مع أنه مبتدأ أو خبر مبتدأ، فيقال: إنه ليس بمجرور، وأن الأصل: عقابي فحذفت الياء تخفيفًا والكسرة قبلها دليل عليها، أي: هو واقع موقعه وهذا بناء على أنه استفهام للتقرير، وإذا قلنا: للتعظيم، فيكون معنى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أعظم عقابي وأشده، حيث أزالهم عن آخرهم.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية فوائد منها:** أن الله أعذر إلى الخلق بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، لقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهذا يدل على أنه قول قاله الأنبياء فكذبه هؤلاء.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن نوحًا هو أول الرسل؛ لقوله: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فجعل الأحزاب المكذبين كلهم من بعد قوم نوح، وهذا يدل على أن نوحًا أول الرسل، وهذا أمر معلوم متقرر في عدة آيات، وفي الأحاديث أيضًا، وبه أن من زعم أن إدريس قبل نوح فإنه مخطئ، ولا وجه لقوله.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان ما تنطوي عليه صدور المكذبين للرسل من الهم بقتلهم، يعني أن المكذبين للرسل لم يقتصروا أن يكذبوا فقط، بل هموا بالقتل، والقتل والاغتيال وما أشبه ذلك هو سلاح العاجز، وذلك السجن هو سلاح العاجز، ولهذا قال فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أبو إبراهيم آزر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] فالسجن والقتل والاغتيال والسب والشتم كله سلاح العاجز؛ لأن القادر على دفع الحجة هو الذي يدفع الحجة بحجة مثلها، أما أن يستعمل سلطته فهذا يدل على عجزه.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأن الفاء سببية، وإثبات الأسباب حق، وهو مقتضى حكمة الله عزَّ وجلَّ أن كل شيء له سبب، فالإنسان لا يولد له مثلًا إلا إذا تزوج وجامع وأنزل، فبذلك يولد له، فالله عزَّ وجلَّ قرن المسبب بأسباب، وهو مقتضى الحكمة، والناس في الأسباب ثلاثة أقسام طرفان ووسط:

الطرف الأول: قسم أنكر الأسباب وقال: لا تأثير لها وما يحصل بالسبب فإنه حاصل عنده لا به، والسبب أمارة على حلول وقت الحاجة، فالسبب أمارة وعلامة فقط على حصول الحاجة، أو على حلول وقتها فانكسار الزجاجة بالحجر إذا أرسل عليها ليس هو الذي كسرها، لكن الله قدر انكسارها عند وجود الصدمة فقط وليس للحجر أي تأثير، فالأشياء تحصل عند الأسباب بغير الأسباب، لكن السبب جعله الله أمارة وعلامة على حلول وقت الحاجة، ولهذا يقولون: لو أن أحدًا أثبت تأثير الأسباب لكان مشركًا؛ لأنه أثبت مع الله خالقًا فاعلًا.

والطرف الثاني يقول: بل الأسباب ثابت تأثيرها وهي مؤثرة بنفسها؛ لأنها هي القوة الفاعلة ولا علاقة لله بها، وهذا يشبه مذهب القدرية وهو قول الفلاسفة يقولون هكذا المسألة طبيعة طبائع، من طبيعة هذا الشيء أن يحدث به هذا الشيء، وهذا لا شك أنه خطأ وأنه نوع من الشرك.

والقسم الثالث الوسط: يقول إن للأسباب تأثيرًا، ولكن لا بنفسها، بل بما أودع الله فيها من

القوة المؤثرة، وهذا هو الذي دل عليه المنقول والمعقول، وهو الحق.

والرد على الطبائعين الذين يقولون: إن الأسباب مؤثرة بطبيعتها أن الله تعالى قال لنار إبراهيم وهي محرقة: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فكانت بردًا وسلامًا فخرجت عن طبيعتها، إذن ليست الطبائع قوة مؤثرة بنفسها، ولكن بما أودع الله فيها من القوة المؤثرة.

والأدلة على تأثير الأسباب أكثر من أن تحصى؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، والأعمال الصالحة سبب للفوز، والأعمال السيئة للخسران وهكذا، فالأسباب ثابتة شرعًا ولا شك، والآن الآية التي معنا ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ تفيد إثبات الأسباب وتأثيرها ولكن بأمر الله تبارك وتعالى.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم المجادلة بالباطل لإدحاض الحق؛ لقوله: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾، ويتفرع على هذا أن هذه العادة من عادات المكذبين للرسل، ومن المجادلة بالباطل لإدحاض الحق، أن يجادل الإنسان للانتصار لقوله، وهذا يقع كثيرًا في المتفقهة والمتكلمة وغيرهم، يجادلون بالباطل من أجل الانتصار للقول، كما قال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦] فمن جادل من أجل أن ينصر قوله لا من أجل أن ينصر الحق ففيه شبه من المكذبين للرسل الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، ثم إن فيه - أي: في الذي يجادل في نصر قوله فقط - أنه قد وقع في محظور عظيم جدًّا، وهو قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فالإنسان إذا جادل لنصرة قوله، فإنه لم يكن لم يؤمن به أول مرة وحينئذ يبتلى بهذه العاهة العظيمة أن الله يقلب فؤاده وبصره حتى لا يبصر الحق ولا يعي الحق ولا يفهم الحق؛ لأنه لم يؤمن به أول مرة، والواجب على المؤمن قبول الحق من أول مرة لا يتردد في قبوله كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك، إذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: هذا حرام امتثلوا فكفوا عنه فعلًا في الحال، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وهذا شيء له شواهد كثيرة وبذلك حققوا الإيمان عقيدة وقولًا وعملًا.

٦ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان شدة عقاب الله؛ لقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ما أعظمه وما أشده وما أحسنه؛ لأنه وقع موقعه.

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يخشى من المعاجلة في العقوبة؛ لأن العقوبة جاءت بالفاء، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ ولأن المسبب يكون بعد السبب مباشرة، فالإنسان العاصي عليه الخطر من معاجلة الله بالعقوبة.



قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦]

التفسير

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الأمر وهو وقوع العقاب ﴿حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ المفسر رحمه الله قال: [﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾] ففسر كلمة الله بذلك، ولكن في هذا نظرًا واضحًا؛ لأن ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ هي الكلمة، فالكلمة هي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: حقت كلمت ربك الذي ثبتت أزلًا أن هؤلاء أصحاب النار، وقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: وجبت عليهم، والكلمة هي قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ولهذا قال المفسر: [إنها بدل من ﴿كَلِمَتُ﴾]، وإذا كانت بدلًا من ﴿كَلِمَتُ﴾ كيف نقول: إن الكلمة هي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، إذا كانت هي البدل فابن مالك يقول:

التَّابِعُ المَقْصُودُ بِالحُكمِ بِلَا ... وَاسِطَةٍ هُوَ المُسَمَّى بَدَلَا

فالتابع المقصود بالحكم بلا واسطة هذا البدل؛ إذن فالمقصود بالحكم، المقصود بقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ هو قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وإذا وجد في القرآن ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ فالمراد بها أصحابها المخلدون؛ لأن الصحبة تقتضي الملازمة، ولا يمكن أن تكون أصحاب النار لمن تُوعدوا بدخول النار، ثم يخرجون منها، إنها تكون لمن هم أهل النار الذين هم أهلها وأصحابها.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات تقدير الله عزَّ وجلَّ الأشياء، ففي هذا إثبات أن الأشياء قد كتبت من قبل، لقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهذا لا ينافي إرسال الرسل، ولا ينافي الأمر بها أمر الله به، ولا النهي عما نهى الله عنه؛ لأن الله تعالى أعطى الإنسان عقلًا ورشدًا وبصيرة، لأجل أن يعرف كيف يتصرف، فإذا أرسلت الرسل مع الفطرة الأولى ثم عاند فقد قامت عليه الحجة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات كلام الله؛ لقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومن عقيدة أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع وبحرف، يعني أنه يسمع ويفهم بحروف مرتبة، فقوله جل وعلا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] نعلم أن الهمزة قبل الحاء، والحاء قبل الميم، والميم قبل الدال وهكذا كلها حروف مرتبة، لم تأت جملة واحدة، وإذا كانت

مركبة لزم من ذلك حدوث الكلمات؛ لأن ما بعد الأول واقع بعده، فيكون بهذا دليل على حدوث كلام الله عزَّ وجلَّ وليس المراد أصل الصفة؛ لأن أصل الصفة أزلية لم تكن حادثة من قبل، فإن الله سبحانه وتعالى لم يزل بصفاته، فهو لم يزل عليمًا، ولم يزل متكلمًا، ولم يزل سميعًا، ولم يزل قديرًا، لكن الصفة قد تحدث شيئًا باعتبار آحادها وأفرادها، أما إذا كانت الصفة معنوية، فالحدوث ليس لها ولكن لمتعلقها، فسمع الله عزَّ وجلَّ هل نقول: إنه حادث؟ لا، ولكن لم يزل، لكن الذي يحدث هو المسموع، فالكلام يحدث نفس الكلام؛ لأنه نوع من الفعل، وعلى هذا فنقول: في الآية إثبات كلام الله، وأن مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بحرف مركب وصوت مسموع.

مسألة: إذا قال قائل: إذا قلت بحرف مركب لازم أن يكون كلامه مشابهًا لكلام المخلوقين؟

الجواب: لا يلزم؛ لأن الكلام لا يمكن أن يكون كلامًا إلا بهذا، لكن صوت الرب الذي يسمع ليس كأصوات المخلوقين؛ لأن الصوت هو صفته، لكن الحروف صفة الكلام الذي تكلم به، وهي لا يمكن أن تكون كلامًا إلا بترتيب، بعضه بعد بعض.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عناية الله عزَّ وجلَّ برسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وجه؛ لقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ حيث أضاف إليه الربوبية، وهذه الربوبية خاصة؛ لأن ربوبية الله عزَّ وجلَّ نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة الشاملة لكل شيء، والخاصة المختصة بما أضيفت له، اسمتع لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢] ففي هذه ربوبية عامة، وربوبية خاصة، العامة ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، والخاصة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، الأول ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ يعني: مكة الذي حرمها، ربوبية خاصة، ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ هذه عامة، إذن قول الله: ﴿رَبِّكَ﴾ من باب الربوبية الخاصة، ولا شك أن أخص ربوبية تكون للمربوبين هي ربوبية الرسل ولاسيما أولي العزم منهم وهم خمسة: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح عليهم الصلاة والسلام.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** خلود الذين كفروا في النار؛ لقوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وهل هذا خلود أبديٌّ أو إلى أمد؟ أبدي، جاء ذلك في آيات ثلاث في القرآن: في سورة النساء وفي سورة الأحزاب وفي سورة الجن.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير مما يوجب غضب الله وسخطه؛ لئلا يكون الرجل قد حقت عليه كلمة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الذي حصل لهؤلاء المكذبين فاستحقوا كلمة الله عزَّ وجلَّ.



❁ قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ [مبتدأ] مستأنف، ويجب الوقوف على ما قبله، ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يجب أن تقف؛ لأنك لو قلت: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ ووصلت لظن الظان أن أصحاب النار هم الذين يحملون العرش، وهذا فساد للمعنى، فالوقوف على قوله: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ واجب.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خبر المبتدأ.

وقوله: ﴿يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ العرش هو عرش الرحمن عزَّ وجلَّ وهو أكبر المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأشرفها فيما عدا المكلَّفين، وهذا العرش لا يعلم قدره إلا الله عزَّ وجلَّ؛ لأننا لم نخبر عن قدره، ولا نعلم من أي مادة هو؟ ولا نعلم من أي شيء هو أهو من نور أم من خشب أم من حديد لا نعلم، لأننا لم نُخبر عن ذلك، ولم نعلم عن لونه، ولم نعلم عن ملمسه، كل هذا لا نعلمه، إنما نعلم أنه عرش عظيم محيط بالمخلوقات استوى عليه الرب عزَّ وجلَّ، وله حملة، ومشهور أن حملته الآن أربعة، وفي يوم القيامة يكونون ثمانية، ومن جملة حملة العرش إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، فإنه أحد حملة العرش.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ هل نحن نعلم صفات هؤلاء الذين يحملون العرش؟ لا، لكن نعلم أنهم ملائكة، أما كيف هم؟ فإن ذلك موقوف على ما جاء به السمع، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ (من) ليست معطوفة على ﴿الْعَرْشَ﴾؛ لأنه لو كان كذلك لكان المعنى: ويحملون من حوله، وليس كذلك، وعلى ذلك فـ (من) معطوفة على الذين، أي: الذين يحملون العرش والذين حوله، ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [عطف عليه]، على المبتدأ؛ لأن المفسر قال: [مبتدأ] فتكون ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ معطوفة على المبتدأ وهو قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، و﴿يُسَبِّحُونَ﴾ [خبره]، أي: خبر المبتدأ وما عطف عليه، يعني: حملة العرش والذين حول العرش يسبحون بحمد الله، والتسبيح تنزيه الله عزَّ وجلَّ عما لا يليق به من نقص أو مماثلة للمخلوقين، والباء في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للملابسة أي: تسبيحًا ممزوجًا بالحمد، فهم مسبحون حامدون، أي: يقولون سبحان الله وبحمده، وقد بيَّن الله عزَّ وجلَّ أن ذلك دائمٌ مستمر فقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، أما إن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون.

قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ قال: [تعالى ببصائرهم أي: مصدقون بوحدانيته]

الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء، لكن الإقرار بالقلب واللسان، وليس هو مجرد التصديق، فقد لا يعرض على الإنسان شيء فيؤمن به، كما إذا شاهد شيئًا بعينه فإنه يؤمن به، وإن لم يعرض عليه، والقول بأنه في اللغة التصديق فيه نظر؛ لأن تفسير الشيء بالشيء يلزم أن يكون مطابقًا له، ومن المعلوم أنك تقول: آمنت به، وتقول: صدقت به، وتقول: آمنت له، وتقول: صدقت له، وتقول صدقت ولا تقول آمنت، وهذا يدل على أن الإيمان ليس هو التصديق، وقد نبه على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا في كتاب «الإيمان»، فقال: إن الإيمان بمعنى التصديق ليس بصحيح، وإن كان قد يأتي بمعناه، ولكن حقيقته أنه ليس إياه، فهو إقرار بالقلب ونطق باللسان، فيؤمنون بالله أي: يؤمنون بوجوده عزَّ وجلَّ ووحدانيته وبكل ما يستحقه من أسماء وصفات وغيرها، إيمانًا كاملًا، والإيمان بالله يتضمن الإيمان بوجوده، وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وانفراده بذلك.

وقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يستغفرون أي يطلبون المغفرة للذين آمنوا، وقد مر بنا مرارًا أن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ جملة ﴿رَبَّنَا﴾ مقول لقول محذوف، فسره المؤلف بقوله: [يقولون: ربنا وسعت كل شيء]، ربنا أي: يا ربنا وحُذفت منه ياء النداء؛ لكثرة الاستعمال وتيمنًا بالبداءة باسم الله عزَّ وجلَّ أو بوصفه بالربوبية.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعت رحمتك كل شيء، وعلمك كل شيء، فمعنى ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: أحطت به رحمة، وأحطت به علمًا، فما بلغه علم الله بلغته رحمته، ولكن الرحمة إما عامة وإما خاصة كما سيأتي في الفوائد إن شاء الله.

وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ وجملة ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هي عبارة عن توسل، أي: توسلوا بسعة علم الله ورحمته إلى مطلوبهم، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [أي: تابوا من الشرك ورجعوا إلى الله تعالى بالتوحيد والإخلاص].

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: طريقك وهو [دين الإسلام] سواء كان إسلام محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو إسلام من قبله؛ لأن هذا الدعاء عام لكل المؤمنين، فقول المؤلف: [دين الإسلام]، يريد به الإسلام العام، فالذين اتبعوا الرسل السابقين مسلمون، والذين اتبعوا محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم مسلمون، لكن لا إسلام بعد محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا باتباع دينه، وهنا قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

[النساء: ١١٥] فأضاف السبيل إلى المؤمنين، وكذلك الصراط يضيفه تعالى أحيانًا لنفسه مثل قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، وأحيانًا للمؤمنين: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فما هو الجمع بينهما؟

الجواب: الجمع بينهما أن الله أضاف السبيل أو الصراط إليه باعتبارين: الاعتبار الأول: أنه هو الذي وضعه لعباده يسيرون عليه، والاعتبار الثاني: أنه موصل إلى الله، يوصل إلى الله عزَّ وجلَّ، فمن سلكه أوصله إلى ربه.

أما إضافته للمؤمنين في قوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] أو للذين أنعم الله عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ فلأنهم سالكوه، فأضيف إليهم باعتبار سلوكهم إياه، وحينئذ ليست بين الآيات تعارض.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [اغفر وقهم عذاب الجحيم] أي: اجعل لهم وقاية من عذاب الجحيم، وهو عذاب النار، كما فسر بذلك المؤلف.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العرش، وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم في آيات عديدة ووصفه بأنه كريم، وبأنه عظيم، وبأنه مجيد.

٢ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لهذا العرش حملة؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ وإثبات الحملة له مع قدرة الله سبحانه وتعالى على إمساكه بدون حملة، إشعار بتعظيمه وأنه عظيم معتنىً به، ولهذا نجد أن الله قال في السماوات ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢ - ولقمان: ١٠] ولم يذكر لها حملة، والعرش ذكر له حملة مع أن الذي أمسك السموات والأرض أن تزولا قادرٌ على إمساك العرش بلا حملة، لكن هذا من باب التعظيم والتنويه بشرفه وعظمته.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن حول هذا العرش ملائكة، وأنهم كثيرون، ربما نستفيد كثرتهم من قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ كأن كل الذي حول العرش، ثم من الذي حول العرش هل يقدر بمسافة عشرة أمتار، أو عشرين مترًا أو مائة متر أو ألف متر؟

يقال: الحول في كل مكان بحسبه، فعندنا مثلًا الأرض الصغيرة بالنسبة للعرش، والذي حولها الذي حول الإنسان فيها لا يتجاوز عشرة أمتار، وربما نقول: من حولك، هو الذي يسمع كلامك المعتاد، لكن من حول العرش ما نعلم قد تكون مسافات كبيرة لا يعلمها إلا الله.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تعظيم هؤلاء الذين يحملون العرش، والذين حول العرش للرب عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تنزيه الله عزَّ وجلَّ عن كل نقص، وعن مماثلة المخلوقين.

فإن قيل: إذا قلنا تنزيه الله - عز وجل - عن النقص، فلماذا نقول: وعن مماثلة المخلوقين، أفلا يجدر بنا أن نقتصر على قولنا تنزيه الله عن النقص؟

نقول: لا؛ لأن مرادنا في التنزيه عن النقص، أن صفاته الكاملة منزهة عن النقص، فقوته لا يعتريها نقص، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وعلمه لا يعتريه النقص قال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يجهل، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فمرادنا بالنقص أن كماله لا يعتريه النقص، وأما نفي المماثلة؛ فلأن الله نص على نفيها فينبغي أن نتبع في ذلك القرآن، بأن نقول منزه عن مماثلة المخلوقين.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وصف الله عزَّ وجلَّ بالكمال والإفراد، لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن الحمد وصف المحمود بالكمال والإفضال، لأن الله يحمد على كماله مثل قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وكذلك مثل قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، كل هذا حمدٌ على الكمال، ويحمد على الإفراد؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[1] هذا حمد على الإفضال، إذنْ يستفاد منها: كمال الله عزَّ وجلَّ وإفضاله؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن كمال الكمال في نفي النقص، أو بالجمع بين نفي النقص وإثبات الكمال، وكمال الكمال أن تجمع بين النفي والإثبات في الكمال، يؤخذ هذا من قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ هذا نفي ليس فيه نقاش ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ إثبات، إذنْ كمال الكمال بالجمع بين النفي والإثبات.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله، تؤخذ من إضافة الربوبية إليهم فإن هذه الربوبية خاصة ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وهي من عدة وجوه وهي: اختصاص الله بحمل العرش، وتسبيحهم بحمد الله، وإضافة الربوبية إليهم.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الملائكة مكلَّفون، لقوله: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ووجه الدلالة: أنهم لولا أنهم مكلفون قاموا بما كلفوا به، لما يكونوا مستحقين للثناء بالإيمان، ولو كان هذا من طبيعتهم وسجيتهم لم يكن للثناء عليهم بذلك كبير فائدة، ويدل على أنهم مكلفون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ولا شك أن كل عباد الله الذين لهم فِهْم وعقل لابد أن يكونوا مكلفين.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسخير الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين أن تستغفر لهم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٩/ ٢٧٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

الملائكة، وليست الملائكة مطلقًا، بل الملائكة المقربون؛ لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧].

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: الحث على الإيمان، حتى تدخل في ضمن من تستغفر لهم الملائكة، والإيمان كله خير، وكله سرور، وكله نعمة في القلب، ونعمة في البدن، حتى البلاء الذي يصيب المؤمن هو له خير، فلهذا نقول: اصدق على تحقيق إيمانك بفعل الوسائل التي تنمي هذا الإيمان وتغذيه وتقويه.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التوسل إلى الله سبحانه وتعالى بصفاته كما يتوسل إليه بأسمائه، فهنا توسل الملائكة، توسلوا إلى الله بالربوبية في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ وتوسلوا إليه بسعة الرحمة ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ وبسعة العلم ﴿وَعِلْمًا﴾ والتوسل إلى الله تعالى بصفاته من أسباب إجابة الدعاء، كالتوسل إليه بأسمائه.

وهنا يجدر بنا أن نتعرض لمعنى الوسيلة وحكمها.

فالوسيلة: فعل ما يوصل إلى المقصود يسمى وسيلة، وربما نقول: إنه تتناوب فيه السين والصاد، وأن أصل الوسيلة يعني الوصيلة، وصيلة بمعنى موصلة فهي تعني بمعنى مفعل، فالوسيلة: كل ما يوصل إلى المقصود.

والوسائل لابد أن تكون معلومة إما بالشرع، وإما بالحس، لابد أن تكون معلومة وإنما قلت ذلك لدفع الوسائل الموهومة، الوسائل الموهومة كالذين يعلقون على صدروهم أشياء لم يثبت شرعًا ولا حسًّا أنها مفيدة، لكن على سبيل الوهم، أو الذين يعلقون نحاسًا أو خيوطًا أو ما أشبه ذلك، هذه وسائل للشفاء ادَّعوها، ولكنها حقيقة ليست وسيلة؛ لانتفاء ثبوت ذلك شرعًا وحسًّا، إذا كانت الوسيلة هي فعل ما يوصل إلى الشيء، والعلم بإيصال هذا إلى الشيء أو إلى المقصود فإما يوصل إلى المقصود العلم بكونه موصلًا يأتي عن طريق الشرع، أو عن طريق الحس، فكون العسل شفاءً وتناوله وسيلة للشفاء هذا علمناه بطريق شرعي، وربما حسي أيضًا، وكون السنة محركًا للبطن مسهلًا له، هذه وسيلة حسية، والسنة باللغة العامية يسمى السناوي، هو أوراق شجر معروف يخمر بالماء، ثم يشرب على الريق فإذا شربه الإنسان على الريق فإنه يسهله وينظف بطنه، وكان الناس يستعملونه كثيرًا قبل أن تأتي هذه الأدوية.

على كل نرجع إلى تعريف الوسيلة فهي فعل ما يوصل إلى المقصود، والعلم بإيصاله إلى المقصود يأتي عن طريق الشرع و عن طريق الحس، والتوسل إلى الله تعالى بإجابة الدعاء أن تفعل شيئًا يوصل إلى الإجابة ولا طريق لنا إلى العلم بإيصال الإجابة إلا عن طريق الشرع، لا علم إلا عن طريق الشرع، إذنْ التوسل الجائز إلى الله تعالى أقسام:

القسم الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ

بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فتقول: اللهم يا غفور يا رحيم اغفر لي وارحمني، هذا توسل إلى الله بأسمائه.

القسم الثاني: التوسل إلى الله بصفاته، ومنه قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لِي»(١) «أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي»، بماذا توسل؟ «بعلمك الغيب» والعلم صفة، «وبقدرتك على الخلق»، القدر صفة، فتقول: اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي... إلى آخره.

القسم الثالث: التوسل إلى الله بأفعاله، وذلك أن تتوسل إلى الله بأفعاله، ومن قوله تعالى عن موسى: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] إن جعلنا قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾ [القصص: ١٧] من باب الدعاء، وإن جعلناه من باب الاستئذان فلن تكون من هذا الباب، ولكن من هذا الباب قوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهو يعلمنا كيف نصلي عليه: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ»(٢)، فالكاف هنا ليست للتشبيه لكن الكاف للتعليل، يعني: صل على محمد وآل محمد؛ لأنك صليت على إبراهيم، فالتوسل في الحديث إلى الله بفعله، يعني: كما مننت أولًا على إبراهيم وآله، فامنن ثانيًا على محمدٍ وآله.

القسم الرابع: التوسل إلى الله تعالى بالإيمان بالله، والتوسل إلى الله بالإيمان بالله وهذا من فعلك أنت، التوسل إلى الله بالإيمان به ومنه قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] هذه الوسيلة ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] أي بسبب ذلك ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] هذا توسل إلى الله بالإيمان به.

القسم الخامس: التوسل إلى الله بالعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح سببٌ للمثوبة، والمثوبة حصول ما دعوت به، ودليله: قصة أصحاب الغار التي حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أصحاب الغار ثلاثة آواهم المبيت ـ الليل ـ فلجأوا إلى غار فدخلوا به، فتدحرجت عليهم صخرة عظيمة من الجبل فسدت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها، ولا مغيث لهم إلا الله، فليس حولهم بشر، فماذا صنعوا؟ توسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، فأحدهم توسل إلى الله ببر والديه، والثاني توسل إلى الله بالعفة التامة، والثالث توسل إلى الله بالأمانة التامة(٣)، والقصة معلومة ولا حاجة للتفصيل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧١) ومسلم (١٠/ ٢٦٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٧٠) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٢٧٢) ومسلم (١٠٠/ ٢٧٤٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فبر الوالدين عمل صالح، والعفة عمل صالح، والأمانة وأداء الأمانة عمل صالح، فلما توسل الأول منهم انفرجت الصخرة لكن لا يستطيعون الخروج، وتوسل الثاني انفرجت الصخرة لكن لا يستطيعون الخروج، وتوسل الثالث انفرجت الصخرة مرة واحدة فخرجوا يمشون، هذا التوسل إلى الله بالعمل الصالح.

القسم السادس: التوسل إلى الله بحال الشخص، تتوسل إلى الله بحالك أنك فقير محتاج إلى الله مريض وما أشبه ذلك، ومنه قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] لما سقى للمرأتين تولى إلى الظل ليستظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] هذا ما قال: أعطني ولا شيء، لكن توسل إلى الله بحاله؛ لأن قول القائل: أنا فقير أنا محتاج أنا مسني الضر وما أشبه ذلك، يعني: فأعطِ؟ وقد جمع أيوب عليه السلام بين ذكر الحال والتوسل بالأسماء فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، الأول: مسني الضر ـ ذكر الحال ـ، والثاني: بالأسماء.

النوع السابع من التوسل الجائز: التوسل إلى الله بدعاء من ترجى إجابته، ومنه توسل الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يدعو الله لهم، مثل الاستسقاء وغير ذلك كثير، ومن ذلك توسل الناس عمومًا يوم القيامة بشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الله أن يقضي بين الناس، فهذه سبعة أنواع.

وقولنا: التوسل إلى الله بمن ترجى إجابته يستفاد منه: أن التوسل إلى الله تعالى بمن لا ترجى إجابته لا تجوز؛ لأن هذا استهزاء بالله، لو أنك أتيت بصاحب ربا ويأكل الربا ويأكل المال بالظلم والغش والكذب، وقلت: ادعوا الله لي فإن هذا لا يجوز؛ لأنك توسلت إلى الله بمن تبعد إجابته، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، وملبسه حرام ومطعمه حرام وغزي بالحرام قال: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لَهُ»[1] وهو سخرية، ولو أنك أتيت لشخص ـ ولله المثل الأعلى ـ ليتوجه لك إلى ملكٍ وكان الملك يبغض هذا الشخص ويبعده، ماذا يكون؟ يكون هذا استهزاءً بالملك واستهترًا به، كلٌّ يعرف هذا، فلا يجوز أن تتوسل إلى الله بدعاء من لا ترجى إجابته؛ لأن هذا من باب السخرية بالله عزَّ وجلَّ هذه سبعة أقسام من التوسل الجائز.

أما التوسل الممنوع: بأن يتوسل إلى الله بما ليس بوسيلة مثل توسل المشركين بأصنامهم، حيث يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وهذا لا ينفع.

ومن ذلك: التوسل إلى الله بجاه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذا لا يجوز؛ لأنه

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٥/ ١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

توسلٌ بها ليس بوسيلة ماذا تستفيد من جاه الرسول عند الله؟ لا شيء؛ لأن جاه الرسول عند الله إنما ينفع الرسول فقط، لا علاقة لي به، فلذلك يكون التوسل بجاه الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ممنوعًا محرمًا:

أولًا: لأنه لم يرد، والثاني: لأنه ليس بوسيلة، إذ إن الوسيلة هي فعل ما يوصل إلى المقصود، وأي اعتبار بين جاه الرسول عند الله وبين مطلوبك، فالتوسل الممنوع شيئًا أو شيئين، الأول التوسل الشركي توسل المشركين بآلهتهم لتقربهم إلى الله، فإن هذا لا شك أنه وسيلة غير صحيحة وأنها باطلة، على أن تسميتنا إياها وسيلة إنما نريد من لا يعبد الأصنام، أما من يعبد الأصنام فإنه مشرك، ولم يتوسل إلى الله تعالى بشيء.

والثانية: التوسل إلى الله بجاه الرسول، فإن قال قائل أيجوز أن أتوسل بمحبة الرسول فأقول اللهم بمحبتي لرسولك؟ يجوز؛ لأن محبة الرسول عمل صالح بلا شك، فإن من أفضل الأعمال محبة الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بل لا يؤمن الإنسان حتى يكون الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان الصيغة التي تقولها الملائكة باستغفارهم للمؤمنين أنهم يتوسلون أولًا ثم يطلبون ثانيًا، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

١٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سعة رحمة الله؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً﴾ **فإن قال قائل:** كيف يصح ذلك، وأكثر بني آدم كفار فأين الرحمة؟ قل لهم: مرحمون بالرحمة العامة، من يخرج لهم النبات، ومن ينزل لهم المطر، ومن يجعلهم أصحاء من يمتعهم بالسمع بالبصر إلا الله، وهذه رحمة، فرحمة الله وسعت كل شيء.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** سعة علم الله؛ لقوله: ﴿وَعِلْمًا﴾ ويترتب على هاتين الفائدتين: أن الإنسان متى علم ذلك تعرض لرحمة الله لعله يكون من الداخلين فيها، وإذا آمن بسعة علم الله استحيى من الله أن يفقده حيث أمره أو يجده حيث نهاه أليس كذلك؟

لو قال لك أبوك: يا بني لا تفعل كذا، إذا غاب أبوك ولك هوى فيما نهاك عنه أتفعله أو لا؟ تفعل ولا شك؛ لأنه لا يعلم بك، إذا كان يشاهدك لا تفعله، أما الله عزَّ وجلَّ لا يغيب عنك، إذنْ لا تفعله لا في السر ولا في الجهر إذا كان فيما نهى الله عنه، ولا تتركه إذا كان فيما أمر به، ولهذا نقول: لا يفقدك الله حيث أمرك، ولا يجدك حيث نهاك.

١٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة التوبة؛ حيث علقت الملائكة بطلب المغفرة بها فقال: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا﴾.

١٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من تحقيق التوبة اتباع سبيل الله؛ لقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾، ولهذا نجد أن الله تعالى يقرن دائمًا مع التوبة ذكر العمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

١٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإسلام؛ وذلك لإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ.

١٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** كمال الإسلام، بإضافته إلى الله، ففيه الفضيلة بإضافته إلى الله باعتباره مرسل إليه، وفيه الكمال بإضافته إلى الله باعتباره واضعًا له، وأنه هو الذي شرعه، وهو كامل والكامل لا يشرع إلا كاملًا.

٢٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الملائكة أكدوا المغفرة بحصول أثرها، وهي قولهم: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وذلك أن التوبة لا تكون إلا بالوقاية من الجحيم؛ لأنهم أكدوا ذلك؛ لعظم هذا العذاب ـ عذاب الجحيم ـ فنصوا عليه لهذا السبب، وإلا فإن التوبة في الحقيقة والمغفرة توجب الوقاية من عذاب الجحيم، لكن النص عليه يكون في ذلك زيادة، على ما يتضمنه المعنى العام.

مسألة: هل يمكن أن يؤخذ من هذه الآية الرد على الجبرية؟

الجواب: نعم، وذلك من قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾، فأضاف الاتباع إليهم، ولو كانوا مجبرين على ذلك لم يصح أن يضاف الفعل إليهم، ولهذا إذا أُكره الإنسان على الكفر لا يكفر؛ لأن الفعل لا ينسب إليه حقيقة، فهو مكره عليه، والله أعلم.

مسألة: ما هو ضابط الفرق بين الوسيلة الشركية والوسيلة البدعية؟

الجواب: الوسيلة البدعية هي التي لم ترد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولا عن الصحابة، والشركية هي ما تتضمن إشراك غير الله مع الله، مع أن البدعة تسمى شركًا بالمعنى العام؛ لأن المبتدع شرع شرعًا لم يشرعه الله، وقد سمى الله ذلك شركًا فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، لكن ما كان مظهرهم مظهر الشرك غلب عليه اسم الشرك، وما كان سوى ذلك فيسمى بالاسم الذي يختص به.

مسألة: هل يجوز التوسل إلى الله بمحبة الصالحين والعلماء، وهل محبة الصالحين والعلماء عبادة تقرب إلى الله أم لا؟

الجواب: نعم، لأنها عمل صالح تدخل في التوسل إلى الله بالعمل الصالح.



❁ قال الله تعالى:

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٨، ٩].

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ هذا من جملة دعاء الذين يحملون العرش ومن حوله يقولون: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ربنا: أي يا ربنا، وكرروا النداء بالربوبية؛ لأنه تام بالأول يسألون الله المغفرة لهم والوقاية من عذاب الجحيم، وهذا من باب التخلية، أي السلامة مما يضروهم، أما الثاني فهو من باب التحلية، أي: من باب حصول المطلوب ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ فصارت الجملة الأولى من الدعاء فيها النجاة من المرهوب، والثانية فيها حصول المطلوب ولهذا كرروا قولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾، وجعلوا هذه الجملة معطوفة على ما سبق، لا مستأنفة أي: لم يقولوا ربنا أدخلهم، قالوا: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾؛ لتحقق ما قبلها؛ لأن العطف يقتضي ثبوت المعطوف عليه، وكونه أصلًا فكأنهم قالوا: واجمع لهم، مع ما سبق أن تدخلهم جنات عدن.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ﴾ جمع جنة، والجنة تأتي في القرآن مجموعة وتأتي مفردة فباعتبار الجنس هي جنة واحدة، وباعتبار الأنواع هي جنان كثيرة، ذكر الله تعالى فيها أربعة أنواع في موضع واحد، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فهي تُجمع باعتبار الأنواع، وتفرد باعتبار الجنس، والجنة في الأصل البستان الكثير الأشجار، وسُمي بذلك؛ لأنه يجن من فيه أي: يستره لكثرة أشجاره، والمراد بها شرعًا دار النعيم التي أعدها الله تعالى لأوليائه، «فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ وَسَقْفُهَا عَرشُ الله عَزَّ وَجَلَّ»[(1)]، فهم أقرب الناس إلى الله.

وقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ العدن بمعنى الإقامة، يقال: عَدَنَ الإنسان أي: أقام، ومنه سمي المعدن لمعادن الأرض، لأن المعدن مقيم ثابت راسخ في الأرض، فـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، وسميت بذلك أو وصفت بذلك؛ لأن أهلها لا يبغون عنها حولا، ولأنها دائمة أبد

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الآبدين.

وقوله: ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ صفة لجنات، وإنها قالوا ذلك؛ اعترافًا بفضل الله تعالى أولًا وآخرًا، وتوسلًا إليه بتحقيق ما طلبوا؛ لأن الله إذا وعد شيئًا أتمه، فإنه لا يصف النعم.

فصار ذكر قول: ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ له فائدتان الأولى: الاعتراف بفضل الله سبحانه وتعالى؛ حيث وعدهم هذه الجنات، والثاني: التوسل إلى الله تعالى بإجابة الدعاء، كأنهم يقولون: أدخلهم هذا؛ لأنك وعدتهم إياها فيكون من باب التوسل بوعده إلى تحقق موعده.

وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ يقول: [عطف على ﴿هُمْ﴾ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾]، فالواو حرف عطف، ﴿وَمَن﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل نصب، عطفًا على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أو على ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، والأحسن أن يكون عطفًا على ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، فيكون الدعاء بالدخول شامل لهم ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

وقوله:﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وهذا التوازن جيد؛ حيث قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ ولم يقولوا:وآبائهم وأزواجهم وذرياتهم، إنها قال: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ لأنهم لو دعوا بالعموم، لكن فيه نوع من الاعتداء في الدعاء؛ لأن الاعتداء في الدعاء هو أن يدعو الإنسان بما لا يمكن شرعًا أو حسًّا، كل من دعا الله تعالى بها لا يمكن شرعًا أو حسًا فإنه معتدٍ في الدعاء، ولو زدنا أيضًا أو حسًا أو عادة، فهو معتد، فلو سأل الله تعالى أن يخرج له ولدًا من جدار بيته لكان هذا اعتداء في الدعاء، ولو سأل الله تعالى أن يجعله نبيًّا لكان هذا اعتداءً في الدعاء؛ لأن ذلك لا يمكن شرعًا.

ولو سأل الله أن يجعل السموات والأرض بيده لكان هذا معتديًا في الدعاء؛ لأنه لا يمكن عقلًا، فما لا يمكن شرعًا أو عقلًا أو عادة أو حسًا فإنه لا يجب لا يدع الله به؛ لأن هذا اعتداء في الدعاء، فهنا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ لو قالوا آبائهم لكان فيه نوع من الاعتداء؛ حيث إن آباء هؤلاء قد يكونوا مشركين كفارًا لا يستحقون أن يدخلوا الجنة.

فيقول الله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ جمع زوج، ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ جمع ذرية، فذكر الأصول والفروع والمصاهرة، الأصول والفروع آباء وذريات، والمصاهرة أزواج.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ هذه الجملة استئنافية يراد بها التوسل إلى الله تعالى بعزته وحكمته أن يحقق هذا الدعاء، أو هذا المدعو به.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات أن الملائكة عباد مربوبون لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ﴾ إلى آخر الآية.

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الشيء لا يتم إلا بانتفاء المؤذي، وحصول المطلوب وجه ذلك: أنهم لما انتهوا من دعاء الله تعالى من انتفاء المؤذي سألوا الله تعالى حصول المطلوب وهو إدخال الجنات.

٣ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الجنات أنواع، نستفيد هذا من الجمع.

٤ - من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الجنات دار إقامة، لا يبغي ساكنها تحولًا عنها ولا يلحقه فناء؛ لقوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾.

٥ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التوسل إلى الله تعالى بفعله أو قوله؛ لقوله: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ فإن وعده قول، وهؤلاء الملائكة توسلوا إلى الله بهذا القول.

٦ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من تمام النعيم أن يجمع الله بين الإنسان وبين قرابته وزوجه؛ لقول: ﴿وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ إلى آخره.

فإن قال قائل: هل يلزم من ذلك أن يكونوا في درجة واحدة.

قلنا: لا يلزم، ولكن الأزواج لابد أن يكونوا مع أزواجهم، والذرية ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الطور أنهم في درجة آبائهم أيضًا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا يدل على أن الذرية الذين لم يبلغوا منازل آبائهم أنهم يرفعون حتى يكونوا في منازل آبائهم، وأن ذلك لا يقتضي نقص الآباء من عملهم، يعني: لا نقول: إن الحل وسط نرفع هؤلاء قليلًا وننزل هؤلاء قليلًا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١]؛ لئلا يظن الظان أنه إذا رفعت الذرية فإنها ترفع قليلًا وينزل الآباء بمقدار ما رفع هؤلاء ليلتقوا في نقطة الوسط، وهذا ليس كذلك؛ لأنه لو نزل الآباء قليلًا لازم من ذلك أن ينقصوا، ولكن الله يقول: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ [الطور: ٢١] أي: ما نقصنهم أي الآباء ﴿مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور:٢١].

٧ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الاشتراط بالدعاء عن التعميم؛ لقولهم: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾، ومن ذلك قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٦] أي: أهل المسجد الحرام ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] ثم أبدل منه قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] فاحترز، ولكن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] يعني أرزق من في هذا البلد ولو كانوا كفارًا، لكن من كفر أمتعه قليلًا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير.

المهم: أنه ينبغي للإنسان في الدعاء أن يحترز من التعميم الذي قد يتناول من لا يستحق الدعاء فيكون في دعائه هذا الاعتداء.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين لله وهما: العزيز والحكيم من

أسماء الله، وإثبات ما تضمناه من الوصف أو من الصفة، فالعزيز متضمن للعزة، والحكيم متضمن للحكمة والحكم.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التوسل إلى الله تعالى بالدعاء بأسمائه.

فإن قال قائل: ذكرتم في عدة مواضع أن التوسل بالأسماء ينبغي أن يكون مطابقًا للسؤال أو للمسئول، وهنا ما مناسبة العزة والحكمة للدعاء بإدخال هؤلاء الجنة؟

الظاهر والله أعلم: أن المطابقة أنهم دعوا أن الله يدخل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وهذا أمر يحتاج إلى عزة، وتمام سلطة، وإلى حكم وحكمة، فلهذا ختموا هذا الدعاء بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ دون أن يقولوا: إنك ذو الفضل العظيم.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التركيب الوجودي في الأشياء، وذلك في قوله: ﴿ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾، هذا هو التركيب: أبٌ ثم تزوج ثم ذرية، فهذا تركيب وجودي، ولا شك أن هذا من محسنات اللفظ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ هذا معطوف على ما سبق على قول: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾ أي: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، والجملة تتضمن فعلًا وفاعلًا ومفعولين، فالفعل (قِ)، والفاعل مستتر وجوبًا، والمفعول الأول الهاء، والمفعول الثاني السيئات، و(قِ) هنا فعل أمر، لكنه مكون من حرف واحد بعد أن حذف منه حرفان، الأول والثالث وهكذا كل مثال ناقص إذا كان ثلاثيًا فإن فعل الأمر منه على حرف واحد، هذه هي القاعدة: كل مثال ناقص ففعل الأمر منه إذا كان ثلاثيًا على حرف واحد.

ما هو المثال؟ الذي أوله حرف علة، والناقص هو الذي آخره حرف علة، إذنْ القاعدة هذه تشمل أمثلة كثيرة، قد جمعها الخضري في حاشية ابن عقيل على ألفية ابن مالك جمعها في أبيات، منها: قِ ـ فِ ـ ع ـ لا أذكر كل ما عدد، لكن الضابط هو هذا كل ثلاثي كان مثالًا ناقصًا ففعل الأمر منه على حرف واحد.

وقوله: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قال المفسر: [أي: عذابها]، وهذا إذا جعلنا السيئات بمعنى الأعمال السيئة، فإنه يتعين أن نفسر ذلك بعذاب السيئات، لماذا؟ لأن عمل السيئات الآن قد انتهى وقته، وإنما الموجود هو الجزاء، ففسر حينئذٍ بالعذاب، وأما إذا فسرنا السيئات بما يسوء دون العمل الذي يقع من العبد فإنه لا حاجة إلى أن نقول: عذابه لماذا؟ لأن العذاب مما يسوء فكأنه يقال: وقهم ما يسوؤهم من العذاب، والقاعدة في التفسير وشرح الأحاديث: أنه إذا دار الأمر بين احتمال التقدير وعدم التقدير فالأولى عدم التقدير، وعلى هذا فنقول: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هنا لا يراد بها الأعمال السيئات التي هي فعل العبد قطعًا؛ لأن هذا قد انتهى، وإنما يراد بالسيئات ما يسوء من أعمالٍ ومن عقوبات ومن عذاب ومن غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ [يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾] من شرطية، وجملة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ جواب الشرط، وإنما اقترن جواب الشرط بالفاء؛ لأنه مبدوء بقد، وجواب الشرط إذا بدئ بقد وجب اقترانه بالفاء، وله نظائر مما يجري اقترانه بالفاء، المهم: أنه يجب ارتباط جواب الشرط بالفاء إذا وقع واحدًا من سبعة أمور، مجموعة في قول الشاعر، أو قول الناظم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

التنفيس يشمل سوف والسين. وهذه الآية اقترن فيها جواب الشرط بقد في قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المشار إليه وقاية السيئات والرحمة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، هو يجوز أن تكون مبتدأ و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبره، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن تكون ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا محل لها من الإعراب، ويكون التقدير: وذلك الفوز العظيم، ويؤيد هذا أنها تأتي بهذه الصيغة في بعض المواضع ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وضمير الفصل من حيث الإعراب لا محل له من الإعراب، وضمير الفصل من حيث المعنى له ثلاثة فوائد:

الفائدة الأولى: الحصر، والفائدة الثانية: التوكيد، والفائدة الثلاثة: التميز بين الصفة والخبر، هذه ثلاثة فوائد لضمير الفصل.

يظهر هذا في المثال إذا قلت زيد الفاضل، يحتمل أن تكون الفاضل خبر المبتدأ، ويحتمل أن تكون الفاضل صفة والخبر لم يأت، ويحتمل أن يكون المراد زيد الفاضل فاهم أليس كذلك؟ ويحتمل أن تكون الفاضل خبر المبتدأ فإذا جاءت زيد هو الفاضل زال الإشكال وتعين أن تكون الفاضل خبر المبتدأ، وأما التوكيد والحصر فظاهر، لأنك تقول: زيد هو الفاضل أكدت أنه فاضل، وحصرت الفضل فيه.

وقوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ما معنى الفوز؟ الفوز حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ما هو النجاة من المرهوب في الآية؟ ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأما حصول المطلوب فهو ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولا تفسير أبين وأوضح من تفسير الله عزَّ وجلَّ، فالفوز هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب والدليل ما بينا.

وقوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وصف له بالعظمة؛ لأنه لا فوز أعظم من هذا، لا فوز أعظم من أن يمن الله عليك بسكن هذه الدار - جعلنا الله وإياكم من ساكنيها - التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر(١)، فكل ما في الدنيا من المؤمنين يسعون للوصول إلى هذه الدار،

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ولهذا لما قال الأعرابي للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يا رسول الله أنا لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، ولكني أسأل الله الجنة وأستعيذ به من النار، فقال: «حَوْلَهما نُدَنْدِنُ»(١) نحن لا نريد إلا هذا، وهذا الحديث وإن كان في صحته ما فيه، لكن حقيقة هذا هو أن كل المؤمنين يعملون للوصول إلى هذه الدار، وهو ـ أي: العمل ـ لها يسير، لكن على من يسر الله عليه، ومتى ييسر الله عليك ذلك؟ اسمع إلى قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] اعمل أنت، كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»(٢).

الفوائد:

١ ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله يسألون الله تعالى أن يقي الذين آمنوا السيئات أي: عذابها؛ حتى يتم لهم المطلوب.

فإن قال قائل: أليس هذا حاصل مما سبق، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾؟

قلنا: بلى، ولكنَّ مقام الدعاء ينبغي فيه البسط لعدة أسباب:

السبب الأول: أن الدعاء عبادة، فكلما بسطت فيه ازددت تعبدًا لله، وازددت ثوابًا وأجرًا.

السبب الثاني: أن البسط فيه التفصيل، والتفصيل خير من الإجمال؛ لأن الإجمال قد ينسى فيه الإنسان أشياء مهمة ولا تكون على باله، لكن إذا فصل تبين الأمر.

السبب الثالث: أن التفصيل في الدعاء انبساط مع الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الداعي مناج ربه، ومن المعلوم أن مناجاة المحبوب يستحب فيها التطويل، أو نقول بعبارة ثانية: من المعلوم أن المحبوب يحب أن تطول المناجاة بينه وبين حبيبه، وهذا شيء مشاهد، فإذا جلس إليك من تحب فإنك تود أن يطول الحديث، ويطول الجلوس حتى إن الزمن ينفرط بسرعة، وإذا جلس إليك الثقيل قلت:

إِذَا حَلَّ الثَّقِيلُ بِدَارِ قَوْمٍ ... فَمَا السَّكِينَةُ سِوَى الرَّحِيلِ

أحيانًا يجلس إليك الثقيل، يخاطبك ويكلمك كلما خاطبك بكلمة ولو كانت ثناءً عليك كأنما صفع وجهك؛ لأنه يكون عندك كأنه جالس على قلبك، لكن الحبيب إذا جلس إليك لا تود أن تفارقه ولا تمل حديثه، ولكن من خير الجلساء.

لَنَا جُلَسَاءُ لَا نَمَلُّ حَدِيثَهُمْ ... أَلِبَّاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَدَا

يعني بذلك الكتاب.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٧٩٢) عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

هؤلاء هم الجلساء الذين لا يملون، والذين ينفعون ولا يضرون، على كل نقول: إنه ينبغي البسط في الدعاء.

انظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله علانيته وسره، أوله وآخره، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت وما أنت أعلم به مني»[1] يكفي عن هذا كله أن يقول: اللهم اغفر لي ذنبي، لكن البسط له تأثير على القلب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من وُقِي السيئات فقد دخل في رحمة الله؛ لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الرحمة كما تكون في جلب المحبوب تكون في دفع المكروب، لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذا أعظم فوز، لقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ووجهه: أنه أشار إليه بإشارة البعيد للدلالة على علو هذا الفوز، ووصفه بالعظمة فيكون جامعًا بين علو المرتبة، وعلو الماهية.

مسألة: النظر إلى الله عزَّ وجلَّ في الآخرة هل يدخل في هذه الآية؟

الجواب: نعم، لأن دخول الجنة بما فيها من نعيم فوز، وأعظم النعيم في الجنة هو النظر إلى وجه الله.



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

❁ التفسير ❁

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ﴾ النداء هو الكلام من بعيد، والمناجاة الكلام من قريب، ولم يبين الله تعالى من يناديهم، لكن المفسر قال: [من قبل الملائكة]، وذلك عند دخولهم النار، وهم يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت، والمقت هو أشد البغض، فهم في ذلك الوقت عند دخولهم النار يبغضون أنفسهم بغضًا شديدًا، حيث لم يتوصلوا إلى النجاة منها،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٩٨) ومسلم (٧٠/ ٢٧١٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

فينادون فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ اللام هنا لام الابتداء، وتدخل على المبتدأ توكيدًا، وقوله: [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم] هذا أحد الوجهين في الآية، وعلى هذا فيكون المقت مضافًا إلى فاعله، لا إلى مفعوله، يعني: لبغض الله إياكم أشد من بغضكم أنفسكم، وقيل: إنه مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، وعلى هذا يكون المعنى: لمقتكم الله حين تدعون إلى الإيمان أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم، أي: أنه كرهوا ما دعوا إليه في الدنيا من محبة الله، وأبدلوا ذلك بأشد البغض، وهذا المعنى أقرب مما مشى عليه المفسر رحمه الله؛ [﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ إياكم]، وعلى ما رجحنا يكون المعنى: لمقتكم اللهَ فهو مضاف إلى مفعوله، متى مقت الله؟ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنكم حينما دعيتم إلى الإيمان كرهتم ذلك ولم تقتنعوا بل أبغضتموه أشد البغض.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ متى مقتوا أنفسهم؟ حين قيل لهم ادخلوا نار جهنم، فأبغضوا أنفسهم، وقوله: ﴿مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ مقت هنا مصدر مضاف إلى فاعل يعني: إن هم مقتوا أنفسهم، وأنفس مفعول مقت، وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تدعون في الدنيا إلى الإيمان، وأبهم الداعي؛ لأن دعوتهم إلى الإيمان تكون من الرسل وتكون من ورثة الرسل وهم العلماء، فالداعي لهم ليس واحدًا بل الرسل يدعونهم وورثة الرسل وهم العلماء يدعونهم كذلك.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ الإيمان بمن؟ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، هذا هو الإيمان كما فسره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله جبريل قال أخبرني عن الإيمان؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله...» الحديث.

وقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ المراد بالإيمان هنا كما ذكرت هو الإيمان بأركانه الستة، وكذلك الانقياد اللازم من الإيمان بهذه الأركان الستة، ولهذا هم دعوا إلى الإيمان الذي في القلوب، ودعوا إلى الاستسلام أيضًا وهو أعمال الجوارح وكفروا بذلك كله.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن الكافرين يوبخون يوم القيامة توبيخًا يزيدهم ألمًا إلى ألمهم؛ لقوله: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنهم تبين لهم ما هم عليه من الضلال والكفر، حين رأوا العقاب وجهه: أنهم مقتوا أنفسهم في ذلك الوقت حين رأوا العذاب، وهذا يدل على أنهم تبين لهم الضلال في ذلك اليوم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** على ما مشى عليه المؤلف: إثبات المقت لله، أي: أن الله يمقت أي: يبغض، هذا على ما مشى عليه المؤلف من أن (مقت) مضافة إلى الفاعل، وإذا قلنا

بالقول الراجح لم يكن في الآية دليل على أن الله يمقت، لكن الدلالة على أن الله يمقت وأن له مقتًا من أدلة أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، والمقت أشد من البغض، والبغض من الصفات الفعلية التي تتعلق بمشيئة وإرادته.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان قد يكره نفسه، ومتى يكون ذلك؟ إذا رأى من تصرفه ما يسوؤه، فإنه يكره نفسه، ويقول: هذا من النفس الأمَّارة بالسوء.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحجة قد قامت على هؤلاء المكذبين المعذبين؛ لقوله: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، وهل الدعوة دعوة بإفهام أم الدعوة لمجرد البلاغ؟ الأول دعوة بإفهام؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلابد من فهم الحجة، ولكن إذا بلغ الإنسان فالواجب عليه أن يبحث عن الفهم، فإن لم يفعل كان مقصرًا.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه هؤلاء كفروا عن عناد، وهذه تؤخذ من أنهم دعوا فكفروا، وهذا كفر عناد والعياذ بالله.



قال الله تعالى:

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

التفسير

قوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الإماتة هنا ما كان قبل الحياة وبعد الحياة، ما كان قبل الحياة أي: وهم أجنة في بطون أمهاتهم، وما كان بعدها وهو الموت الذي يكون بعد النزول في الدنيا، هاتان ميتتان، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ الحياة وهم أجنة في بطون أمهاتهم، والحياة بعد البعث يوم القيامة أو حين البعث يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] هذه أربعة إماتتان وإحياءتان، فهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إمتتين، ﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ إحيائتين؛ لأنهم كانوا نطفًا أمواتًا فأحيوا ثم أميتوا ثم أحيوا ثم بُعثوا هذا تفسير ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، والإماتة الأولى ليس إماتة بعد حياة، ولكنها فقد حياة فصح أن يطلق عليه اسم الموت، وقصد بهذا الإقرار بأن الأمر حق، يعني: كما أننا ندرك أنه مرت بنا هذه الأطوار الأربعة موت فحياة ثم موت وحياة فإننا نتيقن أننا

أخطأنا، ولهذا قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ يعني: فقد اعترفنا بذنوبنا، والذنوب جمع ذنب، وهو المعصية والمراد هنا الكفر، كما قال المؤلف رحمه الله: [بكفرنا بالبعث].

وقوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [من النار]، ﴿فَهَلْ﴾ هنا للتمني، يعني أنهم يتمنون الخروج من النار ولكنه لا يحصل لهم ذلك، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ [من النار والرجوع إلى الدنيا لنطيع ربنا]، ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ من طريق وجوابه؟ لا، وهذا من المؤلف بناءً على أن الاستفهام على بابه، أنهم يسألون هل لنا من طريق فنخرج، أما على ما قلنا: إنه للتمني فهذا لا يحتاج إلى جواب، فهو كقوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الفوائد:

١ - **هذه الآية فيها**: إثبات اعتراف هؤلاء المكذبين بأنهم كفروا بالله، وأنهم مستحقون لهذا العقاب.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إقرار الكفار بما ينكرونه من قبل، من البعث وهذا معنى قوله: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه في ذلك اليوم تبين لهم الحق وصحة القياس؛ لأنهم قالوا: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فالموتة الأولى قبل أن تنفخ فيهم الروح قد أقروا بها والحياة الدنيا قد أقروا بها، متى أقروا بها؟ أقروا بها في الدنيا وهم أحياء، ولكن أنكروا البعث بعد الموت، وأما الآن فقالوا نعم كنفخ الروح في الجنين، يعني: أنا تيقنا الآن أن ما ذكره الله عزَّ وجلَّ من قياس الإعادة على الابتداء أمر حقيقي، وأننا أحيينا مرتين، وأمتنا مرتين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: شدة حسرة هؤلاء على ما فعلوا وتمنيهم الخروج مما وقعوا فيه من العذاب بقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وفي هذه الآية إعراب مشكل وهو أن قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ جملة خلت من أحد الركنين فيها، وهو المبتدأ؛ لأن الذي أمامنا جار ومجرور وهو الخبر، وما هو محل المبتدأ، وهل يكون المبتدأ مجرورًا؟ نعم، إذنْ المبتدأ ﴿سَبِيلٍ﴾ دخل عليه حرف من حروف الجر الزائدة إعرابًا، ولهذا نقول في إعرابها ﴿مِّن﴾ حرف جر زائد، و﴿سَبِيلٍ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائدة.



قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

التفسير

قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ يقول المفسر: [أي: العذاب الذي أنتم فيه]، فالمشار إليه موجود أي: أن العذاب الذي أنتم فيه بسبب كذا وكذا، وهنا قال: ﴿ذَٰلِكُم﴾، وتأتي أحيانًا بذلك، وتأتي أحيانًا بذلكن، وتأتي أحيانًا بذلكما، فما هو السبب في تغير الخطاب في هذه الإشارات؟

فيقال: اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب التي بعدها بحسب المخاطَب، فإذا أشرت إلى واحد مخاطبًا اثنين تقول: ذلكما كما قال يوسف لصاحبي السجن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧]، وإذ أشرت إلى اثنين مخاطبًا واحد تقول: ذانك كقوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]، وإذا أشرت إلى واحدًا مخاطبًا جماعة ذكور تقول: ذلكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣]، وإذا أشرت إلى واحد مخاطب جماعة إناث تقول: ذالكن كما قالت امراة العزيز للنسوة: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا اثنين تقول: ذانكما، وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا جماعة ذكور تقول: ذانكم، وإذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا جماعة إناث: ذانكن، وإذا أشرت إلى جماعة مخاطبًا جماعة ذكور: أولئك، إلى جماعة مخاطب جماعة إناث أولئكن، وإذا كان الخطاب إلى جماعة مخاطبًا اثنين: أولئكما.

المهم على كل حال: اسم الإشارة على حسب المشار إليه والكاف على حسب المخاطب إن كان مفردًا مذكرًا، فالكاف تكون مفردة مذكرة، وإن كان مفردة مؤنثة كذلك مثنى جمعًا كذلك، هذا هو الأفصح، وربما تأتي الكاف للمخاطب المذكر مطلقًا واحدًا كان أو مثنى أو جماعة، ومكسورة للمخاطب المؤنث مطلقة واحدة أو اثنتان أو جماعة، وربما تأتي الكاف مفتوحة مفردة لكل مخاطب، فتقل: ذلك، تخاطب الرجل والمرأة والاثنين والجماعة، فهذه ثلاثة لغات في كاف الخطاب المقترن باسم الإشارة، والأفصح أن يكون بحسب المخاطب، ثم مفتوحًا في المذكر ومكسورة في المؤنث، ثم مفتوحًا على كل حال.

هنا يقول عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾ المشار إليه واحد، والمخاطب جماعة ذكور ﴿ذَٰلِكُم﴾ المخاطبون جماعة ذكور [أي: العذاب الذي أنتم فيه ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي: بسبب أنه في الدنيا ﴿إِذَا دُعِيَ

﴿اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ وأشركتم وقلتم أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب، كفرتم بتوحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِ﴾ يجعل له شريك ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تصدقوا بالإشراك]، وهذا هو الواقع ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، فهم يصدقون بقلوبهم ويستبشرون بألسنتهم، وهذا الإيمان الواقع قد نقول: إنه إيمانٌ حقيقي، وقد نقول: إنه إيمانٌ دعوي يعني: دعوى، وأنه في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله، وانظروا إلى أكفر أهل الأرض ـ فرعون ـ كيف أنكر الخالق، وادعى الربوبية وقال لقومه: ما علمت لكم من إله غيري، ومع ذلك كان مؤمن في قرارة نفسه، قال له موسى وهو يحاوره ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] هل الآية تدل على أن فرعون كان مؤمنًا بربوبية الله، كيف ذلك؟ لأنه لما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لم يقل لم أعلم، وهو في مقام يرى أنه نفسه أعلى من موسى، يعني: يستطيع أن ينكر دعوى موسى لو كان ينكر ذلك، لكنه مقر بأن الله أنزل التوراة على موسى، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]؛ ولهذا لا يمكن لأحد عاقل ـ وأريد بالعقل من سوى المجنون ـ أن لهذا العالم خالق أبدًا، كل إنسان عاقل إذا تدبر أدنى تدبر في هذا الكون علم أن له ربًّا يدبره ولا يمكن أن ينكر، فقوله هنا: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾، هل هو إيمان دعوى أو إيمان حقيقي؟

الذي يظهر لنا: أنه إيمان دعوى، يعني يقول نؤمن بأن هذا شريك مع الله، يقولونه بألسنتهم، أما في قرارة قلوبهم فلا نظن أن أحدًا ينكر أن الله سبحانه وتعالى واحد.

وقد يقال: إن المراد بقوله: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ توحيد الألوهية، يعني: يكفرون بتوحيد الألوهية ويؤمنون بالشرك في الألوهية؛ لأنهم مؤمنون بأن هذه الآلهة تقربهم إلى الله زلفى؛ فإذنْ هم مؤمنون بالله ربًّا، ويؤمنون بالأصنام شفعاء.

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ﴾ قال: [في تعذيبكم ﴿لِلَّهِ الْعَلِيِّ﴾ على خلقه ﴿الْكَبِيرِ﴾ العظيم]، يعني فبناءً على أنكم في هذه الحال يكون حكمكم إلى الله، فالفاء حينئذ تكون إما للاستئناف وإما للتفريع على ما سبق، يعني: فبناءً على ذلك يكون الحكم في أمركم إلى الله، الحكم في تعذيبكم لله وحده، واللام تكون بمعنى الغاية أحيانًا كما تقول: ولله ترجع الأمور، وهنا الحكم لله أي: إلى الله أي أن حكمكم ينتهي إلى الله، ويحتمل أن يكون المعنى: الحكم لله أي مستحق له لا يشاركه فيه أحد.

وقوله: ﴿الْعَلِيِّ﴾ يقول المؤلف: [على خلقه]، علو ذات وعلو صفة، والله سبحانه وتعالى عالٍ على خلقه في ذاته فوق كل شيء، وعلى خلقه في صفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] المثل يعني: الوصف الأعلى في السموات والأرض، وعلو الله

سبحانه وتعالى علوًا معنويًا وهو علو الصفة أمر مجمع عليه، لم يخالف فيه أحدٌ من أهل الملة، حتى المعطِّلون الذين ينكرون صفات الله عزَّ وجلَّ إنما أنكروها بناءً على تنزيههم لله عزَّ وجلَّ عن مشابهة المخلوقين، وإن كانوا أخطأوا الطريق، لكن هم يقولون: نحن نقول هذا تنزيهًا لله، ولهذا يسمون الذين يثبتون يسمونهم المشبهة، ويسمونهم المجسمة والحشوية وما أشبه ذلك، ويرون أنفسهم هم أهل التوحيد، فأقول: علو الصفة لم ينكره أحد من أهل الملة حتى أهل البدع يقرون بذلك.

وأما علو الذات فهو محل الصراع بين أهل السنة والجماعة وبين أهل التعطيل، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن الله عالٍ على خلقه بنفسه، وأهل التعطيل ينكرون ذلك، ثم انقسموا إلى قسمين:

قسم قالوا: إنه في كل مكان، إن الله في كل مكان في السماء وفي الأرض وفي الأسواق في المساجد، وفي البيوت، في كل مكان.

وقسم آخر قالوا: لا يوصف أنه بمكان فلا يقال فوق العالم ولا في العالم ولا تحته ولا يمينه ولا شماله ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه، وهذا هو التعطيل المحض، لأننا لو أردنا أن نصف المعدوم لم نجد أبلغ من هذا الوصف، إذنْ خالف في علو الذات طائفتان.

فالحاصل: أن العلو قال المؤلف رحمه الله: عليٌّ على خلقه نقول العلو نوعان: علو صفة، وعلو ذات، أما علو الصفة فهذا لم ينكر أحد من أهل القبلة حتى المبتدعة أنه منفيٌّ عن الله، كلهم يثبتون لله علو الصفة، لكن أهل التعطيل من باب التنزيه ورفع الله عزَّ وجلَّ، وأهل التمثيل كذلك، يرون هذا من باب تعظيم الله عزَّ وجلَّ وإثبات حقيقته.

وأما علو الذات فهو الذي انقسم الناس إلى هذه الأقسام الثلاثة كما بينا.

﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ قال: [العظيم] وهذا تفسير تقريبي، ولو قال: الكبير ذو الكبرياء لكان أقرب، فهو كبير عزَّ وجلَّ ذو كبرياء وهو كبير أيضًا باعتبار ذاته لا يحيط به شيء من مخلوقاته، والسموات السبع والأرضون السبع في يده كخردلة في يد أحدنا.

فائدة: أهل الباطل يوردون المتشابه على المحكم ولا يحملون المتشابه على المحكم، يوردون المتشابه على المحكم ليناقضه، وليس يحملون المتشابه على المحكم ليكون محكمًا وهذا هو البلاء، قالت عائشة رضي الله عنها: إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم، هكذا روته عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم[1].

وهذه مسألة أحب أن أنبه عليها وهي: أنه إذا ورد آيات متعارضة وأحاديث متعارضة فلا توردوها على أنفسكم على أنها متعارضة، بل أوردوها على أنفسكم على أنكم تطلبون الجمع بينها

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٦٩٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنه.

لتوفقوا للجمع، أما إذا أوردتم هذه على أنها متعارضة بقيت محل إشكال، ودائمًا أقول لا توردوا الآيات المتشابهة التي ظاهرها التعارض أو الأحاديث كذلك على أنها متعارضة، بل أوردوها على أنكم تريدون الجمع بينها لا على أن بعضها معارض بعضًا؛ حتى تهدوا إلى الصراط المستقيم؛ لأن هناك فرق بين الإيراد وبين الرد، إيراد المتشابه على المحكم معناه أنه يطلب التعارض، لكن رد المتشابه إلى المحكم هذا معناه أنه يحاول الجمع دون أن يتصور التعارض، وهذه المسألة كما تكون في الأمور العلمية، تكون أيضًا في الأمور العملية، فأحيانًا ترد عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم صفات في عبادة واحدة فيظن الظان أن هذا تعارض، لكن نقول: لا تقرأها أو توردها على نفسك على المتعارضة، لكن أوردها على أنها تجمع بين هذا وبين هذا فتحمل هذا على وجه وهذا على وجه، وأكثر ما يكون شك الطالب أنه يورد الآيات المتعارضة التي ظاهرها التعارض، أو الأحاديث التي ظاهرها التعارض على أنها متعارضة، لكن لو أوردها على أنه يرد بعضها إلى بعض، ويضم بعضها إلى بعض لوجد وجهًا ومخرجًا مما كان يظن، وهذا شيء نافع إن شاء الله، فالذين قالوا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] يدل على عدم العلو فيعارض أدلة العلو، نقول من قال هذا من قال أنه يدل على عدم العلو وإذا كان الشيء مقابل لك هل يلزم أن يكون محازيًا لك؟

أبدًا لا يلزم، قد تقول هذا عن يمني وهو في أسفل شيء، لكن من الجهة اليمنى، وهذا عن يساري وهو أسفل شيء وهو عن الجهة اليسرى، كما جاء في حديث المعراج أن على يمين آدم أسودة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر إلى اليسار بكى - لأن عن يساره نِسَم بنيه الكفار الذين في النار - وهذا في الأسفل فلا يلزم من كون الشيء عن يمينك أن يكون محاذيًا لك، ولا يلزم من كوْن الشيء فوقك أن يكون محاذيًا لك، ولا من كونه أسفل منك أن يكون محاذيًا لك، هذا ليس بلازم، لكن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه؛ لإيراد التشكيك.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ﴾، فالباء للسببية، وقد مضى علينا كثيرًا أن أهل السنة والجماعة يثبتون الأسباب للمسببات، ولكن لا على أنها فاعلة بنفسها بل بما أودع الله فيها من القوى المؤثرة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان ما عليه هؤلاء الكفار من كونهم إذا دعي الله وحده كفروا، وإذا أشرك به أقروا هذا الشرك؛ لقوله: ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحكم لله؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وليس لغيره، وحكم الله تعالى ينقسم إلى قسمين: كوني وشرعي، فالكوني: ما قضى به على عباد كونًا

وتقديرًا، والشرعي: ما قضى به على عباده شرعًا وتنظيمًا، والحكمان موجودان في القرآن جميعًا، فمن الحكم القدري قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠]، ومن الحكم الشرعي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]، والفرق بينهما: أن الحكم شرعي يرضاه الله عزَّ وجلَّ، والحكم الكوني يتعلق فيما يرضاه وفيما لا يرضاه، والفرق الثاني: أن الحكم الشرعي قد يقع من المحكوم عليه وقد لا يقع، وأما الحكم الكوني فإنه لابد أن يقع، فإذا حكم الله على شخص بموت أو مرض أو فقر أو عاهة أو غير ذلك وقع ولابد، وإذا حكم الله على شخص بأن يؤمن ويعمل صالحًا فقد يقع وقد لا يقع.

وقوله: ﴿فَالْحُكْمُ﴾ هنا يشمل الأمرين جميعًا؛ يستفاد من هذا أنه لا يجوز بالقوانين المخالفة للشريعة؛ لقوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ وهذه الجملة تفيد الحصر أي الحكم لله لا لغيره، والحكم بالقوانين المخالفة للشريعة قد يكون كفرًا، وقد يكون ظلمًا، وقد يكون فسقًا كما ذكر الله عزَّ وجلَّ على هذه الوجوه الثلاثة في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل، فإن وضع الحكم القانونية شرعًا نافذًا فهذا كفر؛ لأنه يقتضي رفع الحكم الشرعي وإحلال حكم آخر محله، وهذا كفر بما أنزل الله، محبط للعمل؛ لأنه لا يمكن أن يرفع الحكم الشرعي إلا بعد كراهته إياه، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

وعلى هذا فالذين يحكمون أممهم بالقوانين المخالفة للشريعة يُعتبرون كفارًا يجب عليهم أن يتوبوا إلى الله، وأن يحكموا بشريعة الله وإلا ماتوا كفارًا ـ والعياذ بالله ـ، ونحن لا نحكم لهذا الشيء لكل واحد بعينه، إذ قد يكون بعضهم ملبس عليه أو مغرضًا به أو تكلم عنده من يثق به فأضله، وقد يكون هذا الذي وضع القانون غره من يقول: إن الحكم الشرعي إنما يكون فيما بين الإنسان وبين ربه في العبادات والأحوال الشخصية والمواريث، وأما مسائل الدنيا فهي لأهل الدنيا، ويشبِّه بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[1]، فيأتي هذا الحاكم المسكين الذي لا يعرف عن الأمر شيئًا، والذي خدع بمظاهر الدنيا وزخارفها فيظن أن هذا هو الحق فيضع هذا القانون المخالف للشرع، فمثل هذا لا نحكم بكفره لأنه مغررٌ مؤول، لكن إذا بُين له ثم أصر حُكم بكفره.

أما الثاني: الحكم بغير ما أنزل الله الذي يكون ظلمًا فهو ما كان الحامل عليه حب الاعتداء على الغير لا كراهة الشرع ولا الحكم بغير من أنزل الله، لكن لكراهته للغير حكم على غيره بغير من أنزل الله ظلمًا وعدوانًا، فهذا له حكم الظلمة، وليس له حكم الكافرين؛ لأنه ما كفر يقول أعرف أن ما جاء به الشرع هو الحق، لكن أنا أريد أن أنتقم من هذا الرجل، وأعتدي عليه فيكون

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤١/ ٢٣٦٣) من حديث عائشة وأنس رضي الله عنهما.

له حكم الظالم، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

أما القسم الثالث: فهو الذي حكم بغير ما أنزل الله هوىً في نفسه لا كراهة للحق ولا استبدله بغيره، لكن يريد شيئًا في نفسه فحكم بغير ما أنزل الله مثل أن يكون يهوى مثلًا أن تكون له هذه الأرض أو هذه السيارة أو ما أشبه ذلك فيحكم بها لغرض ليس قصده ظلم المحكوم عليه، ولكن قصده اتباع الهوى، فيحكم فيكون بهذا من الفاسقين.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الحكم لله عزَّ وجلَّ في الدنيا والآخرة، ولهذا قسم بعض العلماء الحكم إلى ثلاثة أقسام: كوني وشرعي وجزائي، الحكم الجزائي: ما يكون في الآخرة، ولكن الصحيح أن الحكم الجزائي لا يخرج عن كونه حكمًا كونيًا؛ لأنه فعل الله، وحينئذ لا حاجة إلى كثرة التقاسيم، لأنه كلما أمكن اختصار التفصيل كان أولى؛ ولهذا - والله أعلم - كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يأتي أحيانًا يقول: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»[1]، مع أن هناك آخرين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، لكن كون الشيء يجزَّئ وتقلل أقسامه يكون أقرب إلى الفهم، ولهذا يفرق بين أن تعطي الماء لشخص عطشان دفعة واحدة أو أن تعطيه إياه على دفعات، الثاني أهنأ وأبرأ وأمرأ، كما جاء في الحديث أنه ينبغي للإنسان في شرابه أن يتنفس ثلاث مرات، الكأس مثلًا إذا كنت عطشان لا تشربه جميعًا، بل تنفس فيه ثلاثة مرات، اشرب ثم أبنِ الكأس عن فمك ثم رده ثم أبن ثم رده حتى يكون ذلك أهنأ وأمرأ وأبرأ.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العلو لله عزَّ وجلَّ؛ لقوله: ﴿الْعَلِيِّ﴾، وهو علو بنفسه وعلوٌ بصفته، فصفاته عليا، وهو سبحانه وتعالى فوق كل شيء، وأدلة علو الله سبحانه وتعالى الذاتي خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة.

أما الكتاب فمملوءٌ من ذلك، أي من دلالته على أن الله فوق كل شيء على وجوه متنوعة تارة يصرح بأنه في السماء، وتارة يصرح بأنه استوى على العرش، وتارة يصرح بأن الأشياء تنزل منه، وتارة يصرح بأن الأشياء ترفع إليه وتصعد إليه وتعرج إليه، وكل هذا يدل على علو الله تعالى بذاته.

والسنة كذلك جاءت بأوجهها الثلاثة قول وفعل وإقرار، فالقول ما كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «ربنا الله في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض»[2]، وما كان يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى»[3].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٣٦٩) ومسلم (١٧٢/ ١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٣/ ٧٧٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

والفعل: إشارته صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى السماء حين قال: «اللهم اشهد»[(١)].

والإقرار: إقراره الجارية حين قالت إن الله في السماء، لما قال لها أين الله.

وأما الإجماع: فقد أجمع السلف على أن الله تعالى بذاته فوق كل شيء، ودليل هذا الإجماع أنه لم يرد عنهم حرف واحد ينافي ما دل عليه الكتاب والسنة من علو الله، وهذا يدل على أنهم كانوا يقولون به، وهذا من الطرق التي ذكرناها فيما سبق أنه لو قال قائل: ائتوا لنا بحرف واحد من السلف يقول: إن الله عال بذاته؟ نقول لا حاجة أن نأتي لكم بذلك؛ لأن ورود ذلك في الكتاب والسنة من غير أن يأتي عنهم ما يعارضه يدل على قولهم به، وهم مجمعون على هذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله كلامًا قال فيه: والله يعلم أني بعد البحث التام ومطالعتي ما أمكن من كلام السلف لم أجد أحدًا منهم صرح بأن الله ليس في السماء، وأن الأشياء لا تعرج إليه، وما ذكر نحو هذا، وعلى هذا فنقول: إن علو الله بذاته أجمع عليه السلف، فمن قال بغير ذلك فقد شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، ولكن الله اشترط ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وأما العقل: فدلالته على علو الله ظاهرة؛ لأننا نسأل أيهما أعلى صفة العالي أو السافل؟ فالجواب باتفاق العقلاء: إن العالي أكمل، وإذا ثبت أن العلو كمال وجب أن يكون ثابتًا لله عزَّ وجلَّ؛ لأن الله تعالى موصوف بصفات الكمال.

وأما الفطرة: فاسأل عنها عجائز المسلمين لا تسأل طلبة العلم، بل اسأل العجوز، أين الله ستقول لك في السماء، اسأل كل داعي إذا دعا أن يطير قلبه إلى السماء، وهذه الفطرة هي التي ألجمت أبا المعالي الجويني حين قال له أبو العلاء الهمداني: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، لما قال أبو المعالي الجويني: إن الله كان ولا شيء، يعني لا عرش ولا غير عرش وهو الآن على ما كان عليه، ماذا يريد؟ يريد نفي الاستواء، إذا كان ولا عرش وهو الآن على ما هو عليه، لزم أن لا يكون مستويًا على العرش، فقال له: يا شيخ دعنا من ذكر العرش؛ لأن دليل الاستواء على العرش دليل سمعي، لكن أخبرنا عن هذه الفطرة التي نجدها في نفوسنا ما قال عارفٌ قط: يا الله إلا وجد من قلبه لضرورة لطلب العلو، فلطم أبو المعالي على رأسه وقال: حيرني الهمداني، لماذا؟ لأن هذا أمر فطري ما يمكن إنكاره أبدًا، إن كان الإنسان ينكر أن يكون بشرًا أنكر ما دلت عليه الفطرة.

فالحاصل: أن علو الله بذاته الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، وهو ولله الحمد لا يحتاج إلى منازعة ولولا أن أهل البدع والتعطيل ألجأوا أهل السنة إلى الحديث عنه ما احتاج إلى أن

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

يتحدث الإنسان عنه؛ لأنه أمر فطري لا يحتاج إلى كبير عناء؛ لكن هؤلاء المتكلمون المبتدعون المعطلون المحرفون المنحرفون هم الذين ألجأوا أهل السنة أن يقولوا بمثل ذلك، وأن يحاولوا إثبات هذه الأمور بما يستطيعون من الأدلة.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الكبرياء لله والكِبَر، لقوله: ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾، والله يجمع بين الكبرياء والكِبر والكِبَر في غير ما آية، قال الله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، وهنا يقول: ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾؛ لأن بذلك يحصل الكمال المطلق؛ العلو والكبرياء والكبر فيه كمال الكمال.



قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

التفسير

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ﴾ أي: يظهر لكم آياته حتى تروها والضمير يعود إلى من إلى الله، فهو الذي له الحكم، وهو العلي الكبير ومع ذلك لم يدع عباده هملًا بل أراهم آياته حتى يؤمنوا، فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهرها لكم حتى تروها عيانًا، والآيات هنا العلامات الدالة على معلومها، وهي أبلغ من المعجزات وما أشبهها.

وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: آيات كونية، وآيات شرعية، فالآيات الكونية هي مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، والآيات الشرعية هي الوحي الذي جاءت به الرسل، فكل المخلوقات آية من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، وأيضًا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

والأمثلة على هذا كثيرة كلها تدل على خلقها عزَّ وجلَّ وعلى تفرده بالخلق على حكمته وعلى رحمته وعلى عزته، إلى غير ذلك من معاني الربوبية التي تدل عليها هذه الآيات، وقد تكون آية واحدة تدل على عدة آيات وعلى عدة أوصاف، وهذه الآيات الكونية شاملة لكل المخلوقات، وفي هذا يقول القائل:

فَوَاعَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

كل شيء تأمل فيه تجد الدلالة الكاملة على أنه له خلقًا مدبرًا حكيمًا عليمًا إلى غير ذلك من معاني الربوبية.

أما الآيات الشرعية: فهي ما جاءت به الرسل، وقد أرانا الله تعالى إياها وأعطى الرسل عليهم الصلاة والسلام من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فالرسل لم يأتوا هكذا يقول للناس هكذا نحن رسل إليكم، بل أتوا بالآيات الدالة على ما أرسلوا به وعلى مرسلهم.

فالآيات تشمل الكونية والشرعية، فالبرق آيات كونية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢].

وقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ التنزيل يكون من أعلى، وهنا قال: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو العلو، وليس المراد بالسماء هنا السماء المحفوظة السقف المرفوع، بل المراد به العلو؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فالمطر ليس ينزل من السقف المحفوظ، إنما ينزل من العلو من السحاب المسخر بين السماء والأرض، وهذا أمر مشاهد.

وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ أي: ماء يكون به الرزق، فالذي ينزل ماء يكون به الرزق، فهو نفسه رزق ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وبه يكون الرزق قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، والثمرات أرزاق تؤكل، والماء رزقٌ يشرب، فهو رزق بكل حال، وفي تقديم الآيات على إنزال الرزق من السماء دليل على أن النعمة الدينية أهم وأكبر من النعمة الدنيوية.

وقوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ قال المفسر: [﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل توحيده]، يعني: التي تدل على توحيده وغير ذلك مما تدل عليه من معاني الربوبية، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ للمطر، فالمؤلف رحمه الله يرى أن الرزق هو ما يخرج بالمطر يعني النبات وما أشبه ذلك، لكن ما ذكرنا هو الأصوب: أن المطر نفسه رزق؛ لأن الله قال: ﴿ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وأحيانًا يكون احتياج البدن إلى الماء أكثر من احتياجه إلى الأكل.

وقوله: [﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجع عن الشرك]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ قال: يرجع عن الشرك، وهذا لا شك أنه صحيح لكنه قاصر، فالصواب: ﴿مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله عزَّ وجلَّ من الشرك وغيره من المعاصي والفسوق، فهو أعم مما قال المؤلف.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه يرينا الآيات.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما يرينا الله من آياته حجة ملزمة؛ لئلا يقول قائل:

نحن لم يأتنا آيات حتى نتعظ بها.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المخلوقات والمشروعات كلها تدل الخالق المشرع سبحانه وتعالى.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** منة الله عزَّ وجلَّ بإنزال المطر من السماء وأنه رزق لنا.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الحكمة في أن المطر ينزل من السماء، والله عزَّ وجلَّ قادر على أن يجعل للأرض أنهارًا تسير على سطح الأرض، وتسقي ما شاء الله أن تسقيه، لكن المطر أنفع وأفضل؛ لأن المطر إذا نزل من أعلى شمل قمم الجبال، فيشمل السهل والوعر، والنازل والعالي، وهذه من الحكمة أن يكون المطر ينزل من فوق حتى يشمل الأرض كلها.

٦ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما تتغذى به الروح أهم مما يتغذى به البدن؛ لأنه قدم إراءة الآيات على الرزق الذي ينزل من السماء، وهذا يدل على أنه أهم، وهو كذلك هذا هو الواقع؛ وذلك لأن فقد الغذاء البدني لا يكون فيه إلا شيء لابد منه، وهو الموت الذي لابد منه، حتى لو كان الإنسان في أنعم ما يكون من نعيم البدن، وأترف ما يكون فلابد أن يموت، لكن غذاء الروح هو الذي يحتاج إلى معاناة ومعالجه، وبفقده يكون الهلاك في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ١٥]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥]، وأيضًا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]؛ إذنْ خسارة البدن دون خسارة الروح بكثير، خسارة الدنيا دون خسارة الدين بكثير، ولهذا قدم الله نعمته بإراءة الآيات على نعمته بإنزال المطر.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الآيات والرزق والعطاء لا ينتفع به إلا من أناب إلى الله، أما من لم ينب إلى الله فإن الله يقول: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه كلما كان الإنسان أكثر إنابة إلى الله، كان أقوى إيمانًا بالآيات؛ لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوته ويضعف بضعفه، فإذا كان التذكر لمن ينيب، فكلما كان الإنسان أقوى إنابة كان أقوى تذكرًا.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من لم يكن عنده إنابة، فإنه يُحرم من الانتفاع بالآيات؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنابة إلى الله سبب لكثرة الرزق، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فائدة فيمن استحل الحكم بغير ما أنزل الله: من استحل الحكم بغير ما أنزل الله وإن لم يحكم به فهو كافر، من قال أنه يحل أن نحكم بغير ما أنزل الله فهو كافر وإن لم يحكم، وهذه مشكلة، فكثيرًا ما يلجئ بعض الناس إلى الاستحلال أو إلى الجحود، ماذا يقول ترك الصلاة جاحدًا فقد كفر، هذا تحريف للكلم عن مواضعه، وهذه مسألة أخبركم بأنه يلجأ إليها المتعصب؛ لقوله فيحاول أن يلوي أعناق النصوص إلى ما يقول، فمثلًا من ترك الصلاة فقد كفر، الذين قالوا: لا يكفر ماذا عملوا؟ قالوا: من تركها جاحدًا لوجوبها فقد كفر، نحن نقول: سبحان الله أنتم إذا فعلتم ذلك جنيتم على كلام رسول الله مرتين: المرة الأولى حملكم الكلام على غير ظاهره، والمرة الثانية: إثبات أمر لم يقله الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الرسول قال: «من ترك»[1] ولم يقل: من جحدها، هل في لسانه عيٌّ أن يقول: من جحدها، ثم نقول لكم: الجحد كفر وإن صلى، والرسول يقول: «من ترك الصلاة»، ولو قال إنسان إن الصلاة ليست بواجبة، ولكنه يواظب عليها وأول من يأتي إلى المسجد وآخر من يخرج يكفر، كيف يكون وصف الترك وتأتون بوصف جديد تعلِّقون به الحكم، وهذه مشكلة.

ولما قيل للإمام أحمد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] إن فلانًا يقول: هذا فيمن استحل قتل المؤمن ضحك الإمام أحمد قال: سبحان الله من استحل قتل المؤمن فهو كافر قتله أم لم يقتله، وهذا التحريف لا شك أنه مضحك.

كذلك أيضًا من استحل الحكم بغير ما أنزل الله، فهو كافر سواء حكم أم لم يحكم، والآية علقت الحكم بماذا؟ عقلت الحكم بالحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذه مسألة يجب الحذر منها،ألا وهي تحريف الكلم عن مواضعه من أجل اعتقاد، اجعلوا اعتقادكم وحكمكم على الشيء تابع للنصوص لا تجعلوا النصوص تابعة، إذا جعلت لنفسك تابعًا لما تعتقد فإن هذا هو اتباع الهوى تمامًا، اجعل نفسك بين يدي النصوص كالميت بين يدي الغاسل تقلبك النصوص ولا تقلبها، هذا هو المؤمن، لكن نعم قد يكون أحيانًا النصوص بعضها يقيد بعضًا، أو يخصص بعضًا أو الفقه في الشريعة يقتضي تقييد المطلق أو تخصيص العام، وما أشبه ذلك، وهذا لا يخرج بنا عن اتباع النصوص.



(١) أخرجه ابن حبان (٤/ ٣٢٣) من حديث بريدة رضي الله عنه وصححه.

❁ قال الله تعالى:

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٤، ١٥].

❁ التفسير ❁

لما بيَّن الله سبحانه وتعالى أنه أرانا آياته الكونية والشرعية، أمرنا أن ندعوه وحده مخلصين له الدين، فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ قال المفسر: [فاعبدوه]، وهذا أحد معنيي الدعاء، والمعنى الثاني: دعاء المسألة يعني: اسألوه والصواب: أنه شامل للأمرين، أي: دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فالعبادة تسمى دعاءً كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] قال: ﴿ادْعُونِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، وأما دعاء العبادة فإن كل إنسان يدعو الله سبحانه وتعالى فإنه لا يدعوه إلا وهو يؤمن أنه كل شيء عليم، وأنه على كل شيء قدير فلهذا دعاه فصار بذلك عابدًا.

قال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من الواو في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ والإخلاص التنقية، فتنقية الشيء تسمى إخلاصًا والمعنى: نقوا دينكم من الشرك.

وقوله: ﴿لَهُ الدِّينَ﴾ المراد بالدين العمل، سواء كان عبادة أم دعاءً، والدين يطلق على العمل ويطلق على جزاء العمل، فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] هذا من باب إطلاق الدين على العمل، وقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] هذا من باب إطلاق الدين على الجزاء، ويقال: كما تدين تُدان، أي: كما تعمل تُجازى، فالدين هنا بمعنى العمل، أي: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ له الدين [من الشرك] كما قال المؤلف رحمه الله أن ندعوا الله تعالى مخلصين له الدعاء وأن نعبده مخلصين له العبادة من الشرك، ولا نشرك به غيره لا في دعاؤنا ولا في عبادتنا.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [إخلاصكم] يعني: ادعوا الله مخلصين على كل حال، سواء رضي الكافرون أم سخطوا، ومن المعلوم أنهم سوف يسخطون، لكن لا يهم أن يسخطوا علينا إذا أخلصنا الدين لله.

وقول المؤلف: [﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ إخلاصكم]، ينبغي أن يقال: ولو كرهوا عملكم المخلص؛ لأن الإخلاص نية في القلب، والكافر إنما يكره ما يظهر من عمل الإنسان، فالمعنى: ولو كره الكافرون عملكم الذي تُخلصون فيه لله على رغم أنوفهم.

ثم قال: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [أي: الله عظيم الصفات، أو رافع درجات المؤمنين في الجنة]، قوله: ﴿رَفِيعُ﴾ من الرفعة وهو العلو، فسرها المؤلف - رحمه الله وعفا عنه - بأحد معنيين: أن المراد بالرفعة العظمة، والمراد بالدرجات الصفات، أي أن الله تعالى عظيم الصفات، والمعنى الثاني: رفيع الدرجات أي: رافع درجات غيره وهم المؤمنون في الجنة، وكلا المعنيين تحريف للكلم عن مواضعه؛ لأن ﴿رَفِيعُ﴾ اسم فاعل أو صفة مشبهة، فاعلها يعود على الله عزَّ وجلَّ المذكور في قوله: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وعلى هذا فلا يصح أن تُفسر بأن المراد رافع درجات المؤمنين، لأنه على هذا التفسير تكون الدرجات درجات غيره أي: درجات المؤمنين، ولا يصح أن تفسر رفيع الدرجات بعظيم الصفات لما بينهما من الفرق العظيم، لكن المؤلف عفا الله عنه فسرها بهذا التفسير؛ فرارًا من إثبات العلو الذاتي؛ لأنه ممن لا يرون ذلك أنه عالٍ بذاته، فلهذا حرَّف القرآن إلى أحد هذين المعنيين وكلاهما باطل.

والصواب :أنه سبحانه هو رفيع الدرجات، ويدل لهذا ويعينه قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات، فكأنه قال رفيع الدرجات فوق العرش، وهذا هو المتعين، وقول المؤلف [خالقه]، فيه أيضًا إشارة إلى إنكار الاستواء؛ لأن معنى ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: صاحبه المستوي عليه هذا هو المعنى، ولهذا لا يقال: ذو الأرض، ولا ذو السماء، ولا ذي الجبال، ولا ذي السحاب مع أنه خالقها، تفسيره ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ بخالقه، لا شك أنه تحريف الكلم عن مواضعه فرارًا من إثبات الاستواء على العرش.

وتفسير الآية المتعين أن نقول: إنه رفيع الدرجات أي: هو نفسه عزَّ وجلَّ مرتفع بل رفيع الدرجات أتى بالصفة المشبهة الدالة على الثبوت والدوام، والدرجات من الدرجات المعروفة أي: ما كان بعضه فوقه بعض حتى يصل إلى الغاية، وأما ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فمعناه: صاحب العرش المختص بالاستواء عليه، هذا هو المتعين من الآية.

وقوله: [﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾] إلى آخره، [﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ الروح الوحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وسمى الله تعالى الوحي روحًا؛ لأن به حياة القلوب.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ يقول: [أي: من قوله]، هذا التفسير جيد ، يعني أن الوحي من قول الله عزَّ وجلَّ يقول: [فيسمع جبريل ثم ينزل به إلى من شاء الله سبحانه وتعالى].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ولم يبين من هؤلاء، ولكننا نعلم أنهم الأنبياء، لأنهم هم الذين يلقى إليهم الوحي سواء كانوا رسلًا أم غير رسل، ثم إن قوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، إطلاق المشيئة في كل موضع جاءت في القرآن مقيد بالحكمة، كلما رأيت الله يقول: يشاء، فإنه مشيئة مقرونة بالحكمة لقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ومنْ هؤلاء الذين يشاء الله تعالى أن يلقي عليهم الروح؟ بينهم الله في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المراد بالعباد هنا العبودية الخاصة، وهم الذين آمنوا بالله عزَّ وجلَّ، بل ما هو أخص وهم الرسل.

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ قال: [﴿لِيُنذِرَ﴾ يخوف]، واللام هنا للتعليل، والإنذار هو الإعلام المقرون بالتخويف، ولهذا قال المؤلف: ليخوف تفسيرًا بلازمه، وإلا فإن الإنذار إعلامٌ مقرونٌ بالتخويف، وقوله: [الملقي عليه الناس]، الملقى عليه أفادنا المفسر رحمه الله أن فاعل (ينذر) الملقى عليه وهو الرسول، ولا شك أنه هو المنذر مباشرة، ويحتمل أن الفاعل يعود على فاعل ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ، أي: لينذر الله، والحكمة من عدم ذكر الفاعل - والله أعلم - ليصلح الفعل للأمرين، أي: ليكون صالحًا ليعود الإنذار إلى الله، وأن يعود إلى الرسول، فإن عاد إلى الله؛ فلأنه الأصل، وإن عاد إلى الرسول؛ فلأنه المبلغ المباشر للإنذار.

وقوله: [الناس] هذا تقدير للمفعول الأول الذي هو مفعول (ينذر)؛ لأن ينذر تنصب مفعولين، أصلهما المبتدأ أو الخبر أو لا؟ لا ليس أصلهما المبتدأ والخبر، فالمفعول الأول يكون محذوفًا، أو المفعول الثاني يكون محذوفًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ [غافر: ١٨] هذا مذكور فيه مفيد المفعولين جميعًا، ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، كذلك المفعولان جميعًا، وقد يحذف أحدهما إما الأول وإما الثاني لدلالة السياق عليه.

وقوله: [﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ بحذف الياء وإثباتها]، أي أن فيها قراءتين ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ بالياء، و﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ بحذف الياء، أما إثبات الياء؛ فلأنه الأصل ، وأما حذف الياء فللتخفيف مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩] أصلها المتعالي، لكن حذفت الياء للتخفيف، وهنا ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ أصلها التلاقي، ولكن حذفت الياء للتخفيف، ويوم التلاقي هو يوم القيامة، وعلل المفسر ذلك بقوله: [لتلاق أهل السماء والأرض والعابد والمعبود والظالم والمظلوم فيه]، أي: في ذلك اليوم، ولو قلنا بمعنى أعم لتلاق الخلائق في ذلك اليوم؛ لأن كل شيء يلاقي الآخر حتى الوحوش ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، فسمي يوم التلاقي لتلاقي الخلق فيه، حيث يحشر الله عزَّ وجلَّ الخلائق كلها في ذلك اليوم فيتلقون.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾:

١ - **من فوائد هذه الآية:** وجوب الإخلاص لله تعالى في الدعاء لقوله: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾، ودعاء غير الله فيما لا يقدر عليه المدعو يعتبر من الشرك، ثم قد يكون شركًا أكبر،

وقد يكون شركًا أصغر بحسب الحال، فمن دعا قبرًا، فهذا شرك أكبر، ومن دعا غيره ليحمل معه متاعًا وما أشبه ذلك، والغير لا يستطيع أن يحمل فهذا ليس بشرك أكبر بل هو إما عبس وإما شركًا أصغر، ومن دعا غائبًا لينقذه من شدة، فهذا شرك أكبر؛ لأن هذا يسمى شرك السر، إذ إن الغائب لا يمكن أن يدعوه الإنسان إلا وهو يعتقد أن له تصرف في الكون، يتصرف وهو بعيد بخلاف من دعا قريبًا وقال: يا فلان احمل معي كذا، أعني على كذا هذا يدعوه ليقوم بشيء محسوس.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإخلاص العبادة لله، لأننا فسرنا الدعاء بدعاء المسألة ودعاء العبادة، فمن تعبد لغير الله استقلالًا فقد صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فيكون بذلك مشركًا شركًا أكبر، يعني من صلى لشخص فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر أو ذبح لشخص تقربًا إليه وتعظيمًا له فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر مخرجًا عن الملة.

وأما إذا فعل العبادة لله لكن رائى فيها أو سمَّع فهذا لا يكون مشركًا شركًا أكبر، ولكنه مشرك شركًا أصغر، وعبادته مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ فيما رواه عن ربه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[(١)].

ثم اعلم أن الرياء إذا طرأ على القلب فإذا كان قبل الدخول في العبادة أبطلها من أصلها؛ لأنه دخل فيها على شرك، وإن كان في أثناء العبادة، فإن كان آخرها ينبني على أولها بطلت، وإن كان لا ينبني على أولها بحيث يصح أن يميز الأول عن الثاني، فإنه لا يصح ما فيه الرياء ويصح ما سبق الرياء.

مثال الأول: إذا دخل الرياء في أثناء الصلاة في الركعة الثانية فإن الصلاة تبطل كلها؛ لأنه إذا بطلت الركعة الثانية لزم بطلان الركعة الأولى لأن الصلاة لا تتبعض.

ومثال الثاني: رجل أعد مائة صاع للصدقة به فتصدق بخمسين صاعًا صدقة خالصة، ثم دخله الرياء في الأصواع الباقية، فهنا تبطل الأصواع الباقية، أما الأولى فتصح، وذلك لأن هذه العبادة - أعني: الصدقة - تتبعض، ولا ينبني آخرها على أولها، حتى لو فرض أنها مما عينه الشرع كإطعام ستين مسكينًا مثلًا في كفارة، فأطعم ثلاثين مسكينًا بإخلاص ثم بعد ذلك دخله الرياء، فإن ما سبق الثلاثين الأخيرة يكون مجزيًا، هذا إذا استرسل مع الرياء.

وأما إذا طرأ عليه الرياء فدافع وما زال جاهدًا في مدافعته، فإنه لا يضره شيئًا؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»[(٢)]، وهذا لم يعمل ولم يتكلم بل ربما أنه لم يحدِّث نفسه، لكن هاجمه الرياء.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

فصار الآن من فعل العبادة لغير الله - يعني: تعبد لغير الله - فحكمه أنه أشرك شركًا أكبر.

ومن فعل العبادة لله، لكن دخلها الرياء، إذا كان آخرها ينبني على أولها بمعنى أنها لا تتبعض فتبطل، وإن كان آخرها لا ينبني على أولها بأنها تتبعض، فيكون أولها لا يبطل وما سبقه لا يبطل.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** مراغمة الكفار في الإخلاص لله في الإخلاص وفي العمل؛ لقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وينبني على ذلك أنه يجب على الإنسان أن يقوم بالواجب ولو كره ذلك غيره ولا يحابي أحدًا في هذا، فمثلًا إذا كره أبوه أن يصلي مع الجماعة كما يوجد الآن، كره أبو الشاب أن يصلي ابنه مع الجماعة فهل يداهن أباه في ذلك؟ لا، بل يصلي مع الجماعة ولو رغم أنف أبيه، ولو كره ذلك، ولو وصل الشاب رحمه كعمه وخاله وما أشبه ذلك، وكان بينه وبين أبيه عداوة شخصية، فكان يكره لابنه أن يصل أقاربه الذين يكرههم هو، فهل يواصلهم ولو كره أو لا؟ نعم، يواصلهم ولو كره، لكن في هذه الحال يداري أباه بمعنى أنه يكتم عنه أنه وصلهم؛ لتحصل المصلحة بدون مفسدة، وهناك فرق بين المدارة والمداهنة، المدارة أن يفعل الإنسان ما يلزمه مع التكتم عن الشخص الآخر الذي يكره؛ ولهذا سميت مدارة من الدرء وهو الدفع، وأما المداهنة فأن يوافقه في ترك ما يجب مداهنة له، مأخوذة من الدهن؛ لأنه يليث.

فعلى كل حال نقول: تفرع على هذه الفائدة أن الإنسان يفعل ما يلزمه ولو كره ذلك غيره، ولو كان الكاره أقرب أحد إليه.

ثم قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾:

١ - **ومن فوائد الآية الثانية:** إثبات علو الله عزَّ وجلَّ خلافًا للمفسر؛ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ ويقصد بالعلو علو الذات، أما علو الصفة فقد بينه المؤلف في قوله: [أي: عظيم الصفات]، ففي هذه الآية إثبات علو ذات الله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ وهذا مر علينا كثيرًا، وبينا أن الأدلة الخمسة كلها تدل على علو الله: الكتاب والسنة وإجماع السلف والعقل والفطرة.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضل العرش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ فإن اختصاص العرش بالله عزَّ وجلَّ لا شك أنه فضل عظيم.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات العرش؛ لقوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات عظمة الله؛ لأن العرش يختص بالملك والسلطان، فلا يقال للرجل الجالس على كرسي أنه جالس على عرش، لكن يقال للملك أو السلطان الجالس على الكرسي الفخم العظيم يقال له: صاحب عرش.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات منة الله على من يشاء بالوحي؛ لقوله: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الوحي روح تحيا به القلوب؛ لقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات القول؛ لقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ والله سبحانه وتعالى يقول ويتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء، لا نحصر على ربنا سبحانه وتعالى في الكلام لا وقتًا ولا كيفية، بل له أن يتكلم بما شاء متى شاء كيف شاء.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات المشيئة؛ لقوله: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مرتبة النبوة لا تنال بالكسب والفتُّوة كما قال السفاريني في العقيدة، وإنما هي فضل من الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده.

١٠ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العلماء لهم حظ ونصيب من الروح التي يلقيها الروح الله تعالى على الرسل؛ لأنهم ورثة الأنبياء، لكن لهم حظ من هذه الهداية - هداية الدلالة والبيان -، ثم قد يكون لهم حظ من هداية التوفيق وقد لا يكون؛ لأن العالِم قد يعمل بعلمه فيكون له حظ من الهدايتين - هداية الإرشاد وهداية التوفيق -، وقد لا يعمل بعلمه فيكون له حظ من هداية العلم والإرشاد لكنها صارت وبالًا عليه؛ حيث خالف مع العلم بالحق، وهذا أشد ممن خالف بدون العلم بالحق.

١١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الوحي الذي ينزله الله عزَّ وجلَّ على من ينزله من عباده الحكمة منه: إنذار الناس يوم القيامة؛ لقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.

١٢ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الحكمة لله وأن أفعاله.

١٣ - **ومن فوائدها:** أنه ينبغي لمن آتاه الله علمًا أن يكون منذرًا، يعني يجمع بين العلم والتفقيه في الدين وبين الإنذار، لأنه لو اقتصر على مجرد التعليم الفقهي مثلًا أو التوحيد بدون أن يحرك القلوب لم يستفد الناس منه كثيرًا، فلابد أن يكون هناك إنذار من أجل تحريك القلوب، وكان النبي ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم.

١٤ - **ومن فوائدها:** التحذير من خزي يوم القيامة، لأنه يوم التلاق، ولا شك أن العقوبة إذا كانت لا يطَّلع عليها إلا القليل أهون مما إذا اطلع عليها الكثير، فكيف إذا اطلع عليها الخلق كلهم! لا شك أنها ستكون أشد وأعظم.

١٥ - **ومن فوائدها:** إثبات قدرة الله سبحانه وتعالى؛ حيث يجمع الله الخلق كلهم على صعيد واحد بعد الموت، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير.



قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]

التفسير

قوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ يوم هذه بدل من يوم الأولى، ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محل جر بالإضافة إضافة يوم إليها، و﴿بَارِزُونَ﴾ قال المفسر: [خارجون من قبورهم]، ولكن المعنى أخص مما قال، بل المعنى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ﴾ أي: ظاهرون ليس لهم ظل يظلهم لا من شجر ولا حجر ولا بيت ولا غيرها، لأن البارز هو الظاهر الذي لا يحجب دونه شيء، وهم بارزون في ذلك اليوم وتدنو الشمس منهم مقدار مِيل ويعرق الناس في ذلك اليوم على قدر أعمالهم منهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبتيه، ومنهم من يصل إلى حقويْه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا على حسب أعمالهم.

وقوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي لا يستتر على الله منهم شيء، ولا يغيب عن علمه منهم شيء، بل هو محيط بهم إحاطة تامة كما أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من قبل ذلك أيضًا؛ لأن الله تعالى محيط بكل شيء علمًا، لكن قال هنا: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ لأجل تمام التخويف.

وقوله: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ﴾ هذه مقول قولٍ محذوف، التقدير: يقال لمن الملك اليوم، والقائل هو الله عز وجل، فإنه تعالى يقبض السماوات بيمينه وبيده الأخرى الأرض ويهزهن ويقول: أنا الملك أين ملوك الدنيا، ويقول أيضًا: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيجيب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قال: [يقوله تعالى ويجيب نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: لخلقه]، فقوله ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: الملك لله الواحد القهار، والواحد يعني: الذي لا ثاني له، لا في ذاته ولا في أفعاله ولا في أحكامه ولا في صفاته سبحانه وتعالى.

وقوله ﴿الْقَهَّارِ﴾ صيغة مبالغة من القهر وهو الغلبة، فهو قهَّار لكل شيء، والمفسر قال [أي: لخلقه].

الفوائد:

١- **في هذه الآية من الفوائد:** أن الناس يبرزون في يوم القيامة لا يظلهم شجر ولا مدر ولا بناء ولا جبل ولا غير ذلك، لقوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنهم في ذلك اليوم لا يخفى على الله منهم شيء؛ لأنه محيط بهم علمًا وقدرة وسلطانًا.

فإن قال قائل: هل يستثنى من قوله ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أحد؟

قلنا: نعم، يستثنى من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وهم سبعة بل هم أكثر من ذلك؛ حيث بلغوا إلى واحد وعشرين رجلًا، لكن النبي صلى الله عليه وسلم جمعهم جمع سبعة في سياق واحد، يستثنى من ذلك من يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم منهم سبعة في حديث واحد وهو حديث مشهور معروف، قال ﷺ « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ... »[1] ، إلى آخره.

٣- **ومن فوائدها:** أن الملك بل جميع الأملاك تتلاشى في ذلك اليوم، فلا فرق فيه بين مالك ومملوك وسيد ومسود وحر وعبد وذكر وأنثى، ليس لأحد في ذلك اليوم ملك، ولهذا قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول لله.

٤- **ومن فوائدها:** أن من أسماء الله الواحد، والواحد هو المتفرد الذي لا ثاني له، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من أسماء الله القهار؛ لقوله ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات صفتين من صفات الله دل عليهما قوله: ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الصفة في الواحد، وفي القهار: القهر، ويترتب على ذلك من الناحية المسلكية: أن الإنسان إذا اعتقد بأن الله سبحانه تعالى واحد لم يلتفت إلى أحدٍ سواه، وإذا اعتقد أن الله قهار خاف من قهره واستعان بقهره على عدوه، فيستفيد من هذه العقيدة أن يخاف من قهر الله وأن يستعين بقهر الله على عدو الله وعدوه.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (٩١/ ١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى:

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

التَّفسِيرُ

قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ اليوم ظرف متعلِق بـ ﴿تُجْزَىٰ﴾، والظرف والجار والمجرور لابد لهما من متعلَق؛ لأنهما لا يقعان إلا معمولين أو معمولًا فيهما، لذلك لابد لهما من عامل يتعلقان به، قال ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تكافأ، لأن الجزاء بمعنى المكافأة، جازيته على عمله أي: كافيته عليه، فمعنى ﴿تُجْزَىٰ﴾ أي: تكافأ كل نفس بما كسبت من خير وشر، ولكن هذا الجزاء في الآخرة يختلف عن جزاءات الدنيا التي يجازى بها الناس بعضهم من بعض، فالجزاء هنا:

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا: نافية للجنس، وظلم: اسمها، قال أهل النحو: والنفي للجنس ينفي هذا الجنس مطلقًا أي: قليله وكثيره واحده ومتعدده، ولهم ﴿لَا﴾ أخرى يسمونها نافية الوحدة، ونافية الوحدة لا تعمل عمل إن، بل تعمل عمل ليس، تقول لا رجلَ في الدار، أي: ليس في الدار رجلٌ واحد بل ثلاثة رجال مثلًا، أما إذا أردت الجنس فقل: لا رجل في الدار أي: لا واحد ولا متعدد، وهي ـ أي النافية للجنس ـ نص في العموم، أي أنها دالة على العموم بالنص، فيكون ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لا ظلم واقع من الله ولا ظلم واقع من الخلق بعضهم لبعض، بل كل واحد من الخلق يفر من الآخر.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريع محاسبة الخلائق على أعمالهم، وبين المفسر رحمه الله هذه السرعة فقال: [يحاسب جميع الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث ورد في ذلك] يحاسب جميع الخلائق كلهم في مقدار نصف يوم، لكن من أيام الدنيا هذا يحتاج إلى تحقيق، لأن يوم القيامة يوم مقداره خمسون ألف سنة، يفرغ الله سبحانه وتعالى من حساب الخلائق في نصف ذلك اليوم، ولهذا قال الله تعالى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾

ومعلوم أن القيلولة تكون في نصف النهار، وهذا يدل على أنهم لا ينتصف النهار إلا وقد فرغ الله سبحانه وتعالى من الخلائق من حسابهم، وصار كل واحد إلى ما آل إليه، لكن هل هو كيوم الدنيا أو هو يوم القيامة الذي مقداره خمسون ألف سنة؟!

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة:** إثبات الجزاء، لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾.

٢- **وفيها:** أن كمال الجزاء يكون ذلك اليوم، وذلك أن الجزاء قد يكون في الدنيا، قد يجازي الله الإنسان في الدنيا فيعطيه بالحسنة حسنات، ويؤاخذ الظالم بظلمه، وهذا واقع كثيرًا، قال الله تعالى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾

وهذا يدل على الإنسان قد يجازى في الدنيا على عمله، لكن الجزاء الأكمل الأوفى يكون يوم القيامة.

٣- **ومن فوائدها:** أن النفس لا تُجازى إلا بما كسبت، وبماذا يكون الكسب؟ يكون الكسب: إما بالقول وإما بالعمل، أما مجرد النية فليست كسب، أو مجرد حديث النفس، فليس بكسب، فالكسب قول أو عمل، وأما مجرد حديث النفس فليس بكسب؛ لأن الإنسان لم يركن إليه، ودليل ذلك قول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم».

٤- **ومن فوائدها:** على قول بعض العلماء: أن إهداء القرب لا يصح، يعني: لو عملت عملًا صالحًا وأهديته إلى غيرك فإنه لا يصح، لأن الغير الذي أديته له لم يكسبه، إلا ما دلت السنة عليه فهو مستثنى، وإلى هذا ذهب كثير من العلماء أنه لا يرجى من القُرَب إلا ما جاءت به السنة، وذهب آخرون إلى جواز إهداء جميع القرب، وقالوا: إن ما وردت به السنة قضايا أعيان، إذا ثبت الحكم فيها ثبت في نظيرها، لأن الشريعة لا تفرق بين متماثلين، وقد وردت السنة في إجزاء العبادات المالية والبدنية والمركبة من مال وبدن، أما العبادات المالية ففي قصة الرجل الذي قال يا رسول الله إن أمي افتُلِتت نفسها وإنها لو تكلمت لتصدقت، افتلتت يعني أُخذت بغتة، وإنها لو تكلمت لتصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم، وكذلك سعد بن عبادة رضي الله عنه كان له مخراف أي: فستان يُخرف فتصدق به على أمه بإذن الرسول ﷺ[1]، هذه العبادة المالية.

أما العبادة البدنية فقول النبي ﷺ: «من مات وعليه صيام صام عنه وليه»[2]، وهذه عبادة بدنية محضة، وأما المركبة منها فالحج، وقد قال النبي ﷺ عن المرأة التي سألته عن أمها أنها مات ولم تحج قال: «حجي عنها»[3]، وهذا مذهب الإمام أحمد ـ أعني جواز إهداء القرب إلى الغير بشرط أن يكون المهدى إليه مسلمًا ـ، أما إن كان كافرًا فإنه لو أهدي إليه لا تقبل؛ لأن الكافر لا يقبل له عمل لا من نفسه ولا من غيره، وهذا القول أقرب إلى الصواب من القول بالمنع.

ولكن مع ذلك لا نحبذ أن الإنسان يهدي إلى أمواته شيئًا؛ لأن هذا لم يكن من عادة السلف،

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٦٦٩٨) ومسلم (١/ ١٦٣٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (١٩٥٢) ومسلم (١٥٣/ ١١٤٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) **صحيح:** أخرجه البخاري (١٨٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولاسيما الإكثار منه كما يفعله بعض الناس اليوم، فتجد بعض الناس في رمضان يختم القرآن عدة مرات وكل ختمة يجعلها لواحد من أقاربه، هذه لأمه وهذه لأبيه وهذه لأخيه وهذه لعمه وما أشبه ذلك، هذا في الحقيقة خلاف عادة السلف.

ونقول: إن أردت أن تنفع ميتك نفعًا محققًا فاعمل بما أرشد إليه النبي ﷺ؛ حيث قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوا له»، هذا الذي نحبذه ونقول: أكثر من الدعاء لأمواتك، أما إهداء القرب فاجعلها لنفسك؛ لأن هذا هو السنة، وأنت أيها الحي سوف تحتاج إلى هذه الأعمال الصالحة كما أن الأموات أيضًا يحتاجون إلى زيادة الأعمال الصالحة، كما جاء في الحديث: «ما من ميت يموت إلا ندم إن كان محسنًا ندم ألا يكون ازداد وإن كان مسيئًا ندم أن لا يكون ازداد».

إذن نقول: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ استدل بها بعض العلماء على أن من أُهدي إليه شيء من القرب فإنه لا ينتفع به؛ لأنه ليس من كسبه إلا ما جاءت به السنة، ولكن الصحيح أنه ينتفع به، فإذا قلت: إن هذا هو الصحيح فكيف الجواب عن الآية؟

الجواب عن الآية: أنها تدل على أن النفس تجزى بما كسبت، لكن لا تدل على أنها لا تنتفع بعمل غيرها، والشيء المضمون تمامًا هو ما كسبت، وأما ما أهداه الغير لها فهذا شيء آخر وله أدلة أخرى.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إنتفاء الظلم في ذلك اليوم، لقوله ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾، ولكن الإنسان يجازى بحسب عمله، قال الله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾

قال المفسرون: ظلمًا في زيادة سيئاته، وهضمًا في نقص حسناته.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الحساب المحاسبة، أن الله يحاسب الخلائق وهذا كما أنه مدلول النصوص، فهو مقتضى الحكمة، إذ ليس من الحكمة أن يؤمر الناس وينهوا ثم يذهب هذا الأمر والنهي هدرًا لا يُحاسب عليه العبد، هذا في الحقيقة لو ثبت لكان عبثًا والله تعالى منزه عنه كما قال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

وقال تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾

فلابد للمجازاة، ولابد من محاسبة حتى يتبين ما للإنسان وما عليه.

٧- **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله جل وعلا وقوته، مأخوذة من قوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأن السرعة تدل على القدرة والقوة، كيف يحاسب هذه الخلائق التي لا يحصيها إلا هو عز وجل في نصف يوم هذا دليل على كمال القدرة وكمال القوة.

فإن قال قائل: كيف يكون الحساب؟

قلنا: الحساب يختلف باختلاف المحاسب، أما المؤمن فإن الله تعالى يضع عليه كنفه أي ستره ويخلو به ويقرره بذنوبه ويقول: فعلت كذا وكذا في يوم كذا حتى يقر، فإذا أقر واعترف قال الله تعالى: «سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم» فيذهب طليقًا، أما الكفار فإنهم لا يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيئاته؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ولكن تحصى أعمالهم فيوقفون عليها ويقررون بها ويُخزون بها ويُوبخون عليها، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾

فيبخون زيادة في حسرتهم - والعياذ بالله - وبيان أنهم لم يظلموا، فالحساب إذن يختلف.

٨- **ويستفاد من هذه الآية من الناحية المسلكية:** تحذير الإنسان من المخالفة، وحثه على الموافقة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، هذا يوجب للإنسان إذا آمن به أن يحرص على موافقة الأمر وعلى طاعة الله؛ وأنا أسألكم كما أسأل نفسي: هل نحن إذا صلينا يكون في نفوسنا شعور بأننا سنأخذ أجرًا على هذه الصلاة، أو الشعور السائد أننا أدينا ما يجب علينا فقط؟

الجواب: الثاني، ولهذا لو كان عندنا الشعور الأول أننا سنجازى على هذه الصلاة بقدر ما أتقنا فيها، لكنا نتقنها جيدًا، لأننا نعلم أن الجزاء من جنس العمل، (ابذل دراهم كثيرة يعطيك سلعة جيدة)، لكن ابذل قليلًا يعطيك سلعة رديئة، لهذا ينبغي لنا ونسأل الله أن يعيننا ويعيذنا من الغفلة ينبغي لنا أن نشعر حين نعمل العمل الصالح أننا سوف نُجازى عليه حتى يكون ذلك أشحذ لهممنا في إتقان العمل، لأن الإنسان إذا علم أن عمله هذا هو جزاؤه فسوف يتقن العمل، وسوف يأتي به على حسب ما يرضي الله سبحانه وتعالى.



قال الله تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ قال: [يوم القيامة من أزف الرحيل قرب]، ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ الضمير فاعل يعود على الرسول، والمفعول به: الناس، يعني: أنذر الناس هذا اليوم، وهذا العامل استوفى مفعولين: الفاء وهي المفعول الأول، ويوم الآزفة: المفعول الثاني.

وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾ أي: اليوم الآزف فهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي أنذرهم اليوم القريب، وإن شئت فقل: ﴿الآزفة﴾ صفة لموصوف محذوف، والتقدير: يوم القيامة الآزفة، والآزفة بمعنى القريبة، قال الله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فالحاصل: أن الأزف بمعنى القرب، فالآزفة القريبة، وهو يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ مهما طال الوقت فهي قريبة، لو تبقى الدنيا ملايين الملايين من السنين فهي قريبة، وإذا شئت أن يتبين لك ذلك فانظر ما تستقبله الآن المستقبل تنظر إليه نظر البعيد، فإذا به يأتي بسرعة كأنه برق خاطف، هكذا مستقبل الدنيا كلها قريب، فإن أدركته أدركته وإن لم تدركه قامت قيامتك قبله، فقيامتك قريبة، وإن بقيت إلى القيامة الكبرى فهي أيضًا قريبة.

إذن كل آتٍ قريب، وكل ماضٍ بعيد، الماضي ولو كان قبل وقتك بساعة بعيد؛ لأنه لا يمكن يرجع والمستقبل قريب، إذن سميت القيامة آزفة لقربها ووجه قربها وإن كان بيننا وبينها ما لا يعلمه إلا الله من السنين، فإن المستقبل مهما بعُد فهو قريب.

وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ﴿إذ القلوب﴾ إذ بدل من يوم الآزفة، يعني: أنذرهم يوم الآزفة إذِ القلوب لدى الحناجر، وإذ ظرف لما مضى من الزمان، وتأتي ظرفًا وتأتي تعليلًا على حسب ما جاءت معانيها في اللغة العربية.

وقوله: ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ (أل) هنا للاستغراق، أي كل القلوب.

وقوله: ﴿لَدَى﴾ يقول: [بمعنى علم]، يقول المفسر [﴿إذ القلوب﴾ ترتفع خوفًا ﴿لدى﴾ عند ﴿الحناجر كاظمين﴾] قال الله تعالى في يوم الأحزاب ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ وهذا شيء معلوم محسوس أن الإنسان كلما اشتد به الخوف ارتفع قلبه وانكمش وازداد خفقانه، فيوم القيامة ترتفع القلوب حتى تصل إلى الحناجر، والحنجرة هذه ما بين الترقوتين.

﴿كَٰظِمِينَ﴾ [ممتلئين غمًا حال من القلوب عوملت بالجمع بالياء والنون معاملة أصحابها]، ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ القلوب هي نفسها جماد، والجماد لا يجمع بالواو والنون، لأنه لا يجمع بالواو النون إلا العاقل علمًا كان أو وصفًا، وقد مر علينا في شروط جمع المذكر السالم أن يكون علمًا أو وصفًا لعاقل، فهنا القلوب ليست عاقلة، بل القلوب جزء من البدن، فكيف توجيه الحال التي جاءت منها على صيغة جمع المذكر السالم؟

يقول المؤلف: لأن المراد بها أصحاب القلوب. القلوب لدى الحناجر والكاظم صاحبه، وهذا حق أن كاظمين حال من القلوب باعتبار أصحابها، والكاظم يقول: [الممتلئ غمًا] ولماذا يمتلئون غمًا؟ لشدة الأهوال والمخافة، قلوب مرتفعة، وأنفس ممتلئة غمًا.

وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ الظالمون: هم الكافرون هنا، لقول الله تعالى

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وليس المراد مطلق الظلم بل المراد الظلم المطلق وهو ظلم الكفر، فالظالمون في ذلك اليوم ليس لهم حميم، والحميم هو [المحب] كما قال المؤلف وقيل: القريب، كما قال تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

أي قريب، ولا نقول ولا صديق محب، لأنه ما من صديق إلا وهو محب، ولولا المحبة ما صادقك، وعلى هذا فنقول: أن الأولى أن تفسر الحميم بالقريب، والغالب أن الذي يحامي عنك ويدافع عنك ويشفع لك هو القريب هذا الغالب.

يقول ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ شفيع بمعنى شافع، فهي فعيل بمعنى فافعل، كسميع بمعنى سامع، ومن هو الشافع؟ الشافع من شفعك: أي صار معك حتى تكون بعد الفرد شِفعة، ولهذا يقال: الشافع هو من توسط لك بجلب منفعة أو دفع مضرة، هذا هو الشافع، التوسط للغير بجلب الخير أو دفع الضير هذا الشافع، التوسط الشفاعة يعني، الشفاعة هي التوسط للغير بجلب الخير أو دفع الضير، هذا إذا أردت أن تأتي بها على سبيل السجع؛ لأجل أن تكون أريح فهذا هو، ففي يوم القيامة ليس لهم شفيع، لا يشفع لهم أحد، لأن من شرط الشفاعة أن يكون الله راضيًا عن الشافع وعن المشفوع له.

قال ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ قال [لا مفهوم للوصف إذ لا شفيع لهم أصلًا؛ لقوله تعالى ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ أو له مفهوم بناءً على زعمهم أن لهم شفعاء، أي: لو شفعوا فرضًا لم يُقبلوا]، الآية الكريمة ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ كلمة ﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية في محل جر صفة لـ (شفيع) ولو حولناها إلى اسم فاعل لكانت تصير: ولا شفيعٍ مطاع، فهل هذه الصفة هل هي قيد بمعنى أن لهم شفيعًا لا يطاع، أو هي بيان للواقع والمراد نفيُ الشفيع؟

الجواب: ذكر المؤلف احتمالين: الأول: أن يكون المراد ليس لهم شفيع مطلقًا واستدل لذلك بقوله تعالى عنهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أو أن المعنى لو قدر أنهم شفعاء فإن هؤلاء الشفعاء لا يُطاعون، وهذا بناءً على قولهم: إن الذي يعبدونه من دون الله يكونوا لنا شفعاء لهم، والآية تحتمل ما قال المؤلف، أما إذا قلنا بالأول وهو نفي الشفعاء مطلقًا فالأمر ظاهر ما فيه إشكال، أما الثاني أن يقام لهم شفعاء ولكن ترد شفاعتهم فهذا من أجل التخجيل لهم؛ أن يخجلوا حيث تقام الشفعاء الذين يدَّعون أنهم شفعاء لهم ثم ترد الشفاعة، هذا أبلغ في خجلهم وفي ردهم وعدم انتفاعهم بآلهتهم والله أعلم.

فائدة: قال الله تعالى في اليوم الذي عنده: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ لكن يوم القيامة لم يرد فيه إلا خمسين ألف سنة، ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وفي الحديث الصحيح في قصة مانع الزكاة «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»، وعلى هذا

فاليوم الذي عند ربنا كألف سنة ما ندري هذا اليوم، فهو يوم مجهول لنا، أما ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، فهذا لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة، فإذا كان ما بينهما خمسمائة سنة، فإن صعود الأمر إلى الله ثم رجوعه يكون ألف سنة، فالأيام ثلاثة: يوم مقداره خمسون ألف سنة وهذا يوم القيامة، ويوم عند الله لا نعلم ما هو مقداره ألف سنة، ويوم مقداره ألف سنة في تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ثم عروجه إلى الله عز وجل.

الفوائد:

١- **يستفاد من هذه الآية فوائد منها:** وجوب الإنذار على رسول الله ﷺ؛ لقوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ والأصل في الأمر الوجوب لاسيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم مكلف بذلك.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يكون مخوِّفًا أحيانًا ومبشرًا أحيانًا، أما البشارة أحيانًا ففي آيات كثيرة منها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وما أشبه ذلك، وأما الإنذار فكذلك في مثل هذه الآية فالداعية ينبغي أن يكون منذرًا مبشرًا من أجل أن يحرك القلوب.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ينبغي في الإنذار أن يذكر الناس أحوال يوم القيامة، وأهوالها، لقوله ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن الآية قريبة، لقوله ﴿يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾، والقرب هنا يعني أن الوقت يمضي بسرعة حتى لا يشعر الإنسان إلا وقد قامت القيامة، إما قيامته هو وتسمى القيامة الصغرى، أو القيامة العامة.

٥- **ومن فوائدها:** بيان هذا التمثيل العظيم في حال الناس في ذلك اليوم، لقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن هذه الحال عامة للمؤمنين وللكافرين، دليل ذلك عموم قوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ﴾، ثم قوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ فدل ذلك على أن الآية عامة، ولكن هل يلحق المؤمنين شر من ذلك اليوم؟

الجواب: لا، لقوله تعالى ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، ومجرد الغم والهم لا يلزم منه الشر والضرر.

٧- **ومن فوائدها:** أن القلوب عند شدة الخوف ترتفع حتى تبلغ الحناجر، وهذا يشهد به الواقع، قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، والإنسان في نفسه أيضًا يحس أنه إذا خاف خوفًا شديدًا وكأن قلبه قد علِّق في حنجرته.

٨- **ومن فوائدها:** أن الناس في ذلك اليوم مع شدة الخوف يمتلئون غمًا؛ لقوله: ﴿كَٰظِمِينَ﴾، والغم هو التحزن أو التهيؤ لما يستقبل، فالغم في المستقبل والهم والحزن في الماضي.

٩- **ومن فوائدها:** تقطع الأسباب بالظالمين، فلا يجدون حميمًا ولا شفيعًا، لقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، والمراد بالظالمين ما سبق وهم الكافرون.

فإن قال قائل: الظلم أعم من الكفر فكيف فسرتم الظلم هنا بالكفر؟

قلنا: لأن الله قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

ولأن ما دون الكفر من المعاصي تمكن فيه الشفاعة، فإن الشفاعة ثابتة لأهل الكبائر من هذه الأمة.

١٠- **ومن فوائدها:** تحذير هؤلاء الكفار من ذلك اليوم، فإنهم في الدنيا يجدون من يناصرهم ويواليهم ويساعدهم ويعاونهم، ولكن في الآخرة لا يجدون شيئًا من ذلك.



قال الله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠]

التفسير

قوله تبارك وتعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ الفاعل هو الله عز وجل، ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي الأعين الخائنة، وخيانة العين مسارقتها النظر إلى الشيء المحرم، يعني أن الإنسان قد ينظر إلى شيء محرم وجليسه إلى جنبه لا يشعر بذلك، لأنه يسارقه النظر كأنما يتحين الفُرَص في غفلة صاحبه حتى ينظر إلى ما حرم الله عز وجل، هذه واحدة، ثانيًا: قد ينظر الإنسان النظر بدون مسارقة بل بمجاهرة ولا يحس جليسه أنه ينظر نظرًا محرمًا لذلك حذر الله عز وجل من هذه الحال فقال: ﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال المفسر [بمسارقتها النظر إلى محرم].

وقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [القلوب]، فسر المؤلف الصدور بالقلوب؛ لأنها في الصدور كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ فبين الله عز وجل هنا دقة علمه ولطف علمه، بأنه يعلم حتى هذه الحال التي لا يعلمها الناس الذين يشاهدون.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿يقضي بالحق﴾ أي: يحكم به شرعًا وقدرًا لأن القضاء - أعني قضاء الله عز وجل - على قسمين: قضاء كوني

كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

وقضاء شرعي كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (قضى) يعني: قضاءً شرعيًا، ومعناها وصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، فهنا يقول الله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ هل المراد القضاء الكوني أو القضاء الشرعي؟

الجواب: المراد الأمران جميعًا أي أنه يقضي قضاءً كونيًا بالحق فليس في قضاءه الكوني عبث ولا لعب، قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وكذلك يقضي قضاءً شرعيًا بالحق، فقضاؤه سبحانه وتعالى الشرعي كله حق، لأنه خير فيأمر به، أو شر فينهى عنه، وهذا هو الحق.

إذن ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾، بالنوعين القضاء الكوني والقضاء الشرعي، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، الواو هنا عاطفة ويجوز أن تكون استئنافية، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾قال: [يعبدون أي كفار مكة بالياء والتاء]، هنا تفسير لكلمة ﴿يَدْعُونَ﴾، ذكر المؤلف أن فيها قراءتين: القراءة الأولى: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء، والقراءة الثانية: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء، على سبيل المخاطبة، وكلاهما قراءتان سبعيتان، وأما ﴿يَدْعُونَ﴾ ففسرها بكلمة [يعبدون]، والصواب أن المراد بها: يعبدون ويسألون، لأنهم يعبدون الأصنام ويسألونها جلب المنافع ودفع المضار ويعبدونها أيضًا بالركوع والسجود والنذور وغير ذلك.

وأما الواو ففسرها المؤلف: بكفار مكة فجعل الضمير عائدًا إلى كفار مكة.

وهنا نسأل هل لا يوجد أحدٌ يعبد الأصنام ويدعو الأصنام إلا كفار مكة؟

الجواب: لا بل يوجد منهم ومن غيرهم، وإذا كان كذلك فإن تفسير العام بالخاص نقص في التفسير، فالتفسير المطابق للواو أن تكون عامة لكل من يدعو من دون الله، من كفار مكة أو كفار المدينة أو كفار الطائف أو كفار العراق أو كفار الشام أو كفار هذه الأمة أو كفار من قبلها ـ عامة ـ، كل من يدعوا من دون الله فإنه يدعوا من لا يقضي بشيء.

وقوله ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله، والدون هنا بمعنى سوى، أي من سوى الله عز وجل، [وهم الأصنام] هنا قال المؤلف: وهم الأصنام وكان مقتضى اللغة العربية أن يقول وهي الأصنام، لأن الجمع لغير ما يعقل لا يعود عليه ضمير ما يعقل، و(هم) للعقلاء، ولكن المؤلف عدل عن الأصل وهي الأصنام؛ لمراعاة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ و هذه للعاقل، وذلك أن الله تعالى جعل هذه المعبودات نزلها منزلة العقلاء ومع كونها منزلة منزلة العقلاء لا تقضي بشيء.

وقوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ ولم يقابل هذه الجملة بالجملة التي قبلها بل جعلها عامة، في الجملة الأولى قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وهنا قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ ولم يقل لا يقضون بالحق، إشارة إلى أنها لا تقضي لا بالحق ولا بباطل فليست أهلًا لأن تعبد من دون الله عز وجل،

فهم لا يقضون بشيء أبدًا لا شرع ولا قدر ولا حق ولا باطل [فكيف يكونون شركاء لله]، هذا ما حقه النفي يعني إذا كانت هذه الأصنام لا تقضي بشيء، فكيف تُجعل شريكة لله؟! وهذا يعني توبيخ هؤلاء الذين يعبدون هذه الأصنام من دون الله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قال: [﴿السميع﴾ لأقوالهم ﴿البصير﴾ بأفعالهم]، وهو في قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ يجوز أن تكون ضمير فصل ويجوز أن تكون مبتدأ، والجملة خبر إنَّ لكن ضمير فصل أحسن منها مبتدأ.

الفوائد:

يقول الله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** عموم علم الله عز وجل بكل شيء، حتى في الأشياء الخفية يعلمها عز وجل.

٢- **ومنها**: لطف علم الله ودقة علم الله وأنه يصل إلى أشياء لا تصل إليها علوم الآخرين، وهي خيانة الأعين وما تخفيه الصدور، فإن هذا لا يعلمه إلا الله حتى الذي إلى جنبك لا يعلمه.

٣- **ومنها**: التحذير من مخالفة الله أمر الله، وجهه أنه يعلم، فإياك إياك أن تخالف الله عز وجل لا في سرك ولا في جهرك.

٤- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن القلوب في الصدور، لقوله ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ والإخفاء والإسرار يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

١ - **ومن فوائدها:** إثبات أن قضاء الله تعالى كله حق، لقوله: ﴿يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾، سواء كان القضاء كونيًا أو شرعيًّا.

٢- **ومن فوائدها:** الثناء على الله عز وجل بهذه الصفة الكاملة وهي قضاء الحق، وأنه لا يفعل شيئًا سدى أو عبثًا بل كل ما يقضيه فإنه حق.

٣- **ومن فوائدها:** التنديد بعبَّاد الأصنام، حيث عبدوا مع الله من ليسوا بشيء بالنسبة إلى الله عز وجل، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها إطلاقًا؛ لقوله: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ وشيء نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء.

فإن قال قائل: إن من القوم الذين يدعون مع الله آلهًا آخر من إذا دعوا هذه الأصنام أجابتهم، فإذا دعوها لكشف الضر انكشف الضر عنهم، ومن الناس من إذا خالف هذه الأصنام أصيب ببلاء، فما هو الجواب؟

الجواب أن يقال: هذا الذي يحصل، يحصل من الله عز وجل، لا من هذه الأصنام ابتلاءً وامتحانًا، ويقال فيه: إنه حصل عند ذلك لا به، يعني: حصل هذا القضاء من الله عز وجل عند دعاء هذه الأصنام لا بدعاء هذه الأصنام، فإن قال قائل: لماذا تعدلون عن السبب الظاهر إلى سبب آخر لا يعلم؟

قلنا: عدلنا إلى ذلك؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ وبقوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وبقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، وإلا فإن العامي قد يأتي إلى صاحب القبر ويقول: يا سيد يا ولي الله يا مولاي أنقذني من هذه البلية، أنقذني من هذه الضائقة، فيذهب إلى بيته ويجد الأمر قد انفرج، هو على كل حال سوف يضيف هذا الانفراج إلى الأمر الظاهر الذي قام به وهو دعاء هذا القبر حتى انفرجت عنه الغمة، فنقول: هذه فتنة ونعلم علم اليقين أن صاحب القبر ليس هو الذي كشف الضر، وإنما الذي كشفه هو الله عز وجل، لكن حصل الكشف عند دعاء هذا القبر لا بدعائه، لأنه دائمًا يوردون علينا أصحاب القبور هذه الشبهة يقول: أنا دعوت السيد الفلاني فاستجاب لي وانكشفت الغمة.

المهم: أن الله تعالى قد يجعل الشفاء عقب دعاء صاحب القبر ابتلاءً وامتحانًا فيصدق الإنسان بالحس ويكذِّب بالشرع، يصدق بالحس وهو بناء هذا الأمر على الشيء الظاهر، ويكذب بالشرع.

فإن قال قائل: هل لهذا نظائر؟

قلنا: نعم قد يبتلي الله الإنسان بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً ليعلم الله من يخافه بالغيب، كما ابتلى الله بني إسرائيل بالحيتان، حيث حرم الله عليهم صيد الحوت في يوم السبت وابتلاهم فكانت الحيتان يوم السبت تأتي شرَّعًا على الماء بكثرة، وفي غير يوم السبت لا تأتي، فطال عليهم الأمد وقالوا: لابد أن نصطاد هذا السمك، ولكن يوم السبت محرم علينا وما العمل قالوا: هناك حيلة، واليهود أصحاب حيل، ضعوا شبكة يوم الجمعة وتأتي الحيتان يوم السبت تدخل وخذ الحيتان يوم الأحد وقولوا لله إنا لم نصطد يوم السبت، فماذا عوملوا به؟

قلبهم الله عز وجل إلى شيء يشبه الإنسان وليس بإنسان، كما صنعوا شيئًا يشبه الحل وليس بحل، جزاءً وفاقًا، وهذه الأمة حرم الله عليهم الصيد في حال الإحرام، فابتلاهم الله، فبدأت الصيود تأتي بكثرة، الصيد الطائر يناله الرمح والصيد الزاحف تناله اليد، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾، فصارت الصيود الطائر يناله الإنسان برمحه مع أنه لا ينال الطائر إلا بالسهم، والزاحف باليد، فالصحابة رضي الله عنهم تجنبوا هذا لا أمسكوا باليد ولا صادوا بالرمح.

فأنت احذر أيها المسلم أن تنخدع إذا تيسرت لك أسباب المعصية، فإن الله تعالى قد يبتليك، فربما يبتلي الله الإنسان بوظيفة يستطيع أن يسرق فيها من بيت المال إما سرقة حقيقية يعني يأخذ دراهم، وإما سرقة غير مباشرة بأن يتأخر عن الوقت المحدد أو يتعجل في الخروج؛ لأن من فعل ذلك فهو سارق، إذا قدرنا أنه يتأخر عن الوقت المحدد بمقدار السدس أو يتعجل بمقدار السدس، كم سرق من راتبه؟ سرق سدسه؛ لأنه إذا تأخر السدس لا يستحق من الراتب إلا خمسة أسداسه فقط، والباقي يأخذه بغير حق، هو مطمئن؛ لأنه ليس فوقه أحد هو المدير مثلًا أو مطمئن؛ لأن مديره يتأخر ومعلوم إذا كان المدير يتأخر وتأخر من تحته أنه لا يقول لهم شيئًا؛ لأنه لو قال لهم شيئًا فضح نفسه، إذن احذر أن تغتر إذا يسر الله لك أسباب المعصية، فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا تغتر بهذا الشيء.

٥- **ومن فوائدها:** النداء الصارخ على سفاهة هؤلاء القوم الذين يعبدون من دون الله، وهذه تؤخذ من كونهم عدلوا عن عبادة من يقضي بالحق إلى عبادة من لا يقضي بشيء، وهذا في غاية السفه.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: السميع البصير، وإثبات ما دلا عليه من صفة، وإثبات ما دلا عليه من أثر، أو من حُكم، وذلك أن أسماء الله عز وجل لا يتم الإيمان بها إلا بالإيمان بأمور ثلاثة إذا كانت متعدية: الأول: إثبات الاسم، الثاني: إثبات ما دل عليه من صفة، والثالث: إثبات ما دل عليه من أثر أو حكم، هذا إذا كان متعديًا أما إذا كان لازمًا فلا يتم الإيمان به إلا بأمرين: إثبات الاسم وإثبات ما دل عليه من صفة، فالسميع لازم أو متعدي؟ متعدي، قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ ، إذن لابد أن تؤمن بالسميع اسمًا من أسماء الله.

وهل هناك أحدٌ أنكر الأسماء؟

الجواب: نعم هناك من المعطلة المنتسبين إلى الملة الإسلامية من ينكر أسماء الله.

وأن تؤمن بما دل عليه من صفة وهي السمع، فليس الله عليمًا بلا سمع، بل هو سميع بسمع، وهل أحد أثبت الاسم دون الصفة؟ نعم المعتزلة قاعدتهم: إثبات الأسماء وإنكار الصفات التي دلت عليها هذه الأسماء، فيقولون: إن الله سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، - سبحان الله - كيف بصير بلا بصر، قال: نعم بصير بلا بصر؛ لأنك إذا أثبت البصر هل البصر صفة زائدة على الذات؟ نعم الصفة غير الموصوف، زائدة على الذات، فإن قلت: إنها قديمة أثبت تعدد القدماء، وصرت أكفر من النصارى، والنصارى كم أثبتوا؟ ثلاثة آلهة أنت الآن تثبت خمسين إلهًا أو أكثر، بقدر الأسماء التي يثبت لها الصفة، وهذا كفر، فإذا كفرنا النصراني بثلاثة وقلنا: كافر، نقول أنت كافر كافر كافر، حتى تصل إلى الخمسين، فأنت أكفر من النصارى إذا أثبت صفة قديمة،

وإن أثبتها حادثة لزم من ذلك قيام الحوادث بالله والحوادث لا تقوم إلا بحادث، فتكون أنت أثبت أن الله مخلوق وأنه حادث.

ما بالكم إذا صيغ هذا الكلام بكلام أفصح من كلامي وأبلغ، أفلا ينخدع به الجهال؟ ينخدعون به ولا شك، لكننا نقول: إن الله تعالى سميع بسمع، ولا يُعقل أن يكون مشتق بدون ما اشتُقَ منه أبدًا، إذ لا يصح أن تقول للأصم: إنه سميع، ولا للأعمى إنه بصير، لا يمكن أن يوجد اسم مشتق في جميع لغات العالم إلا والأصل المشتق منه سابق عليه، وأما قولهم: إن الصفة غير الموصوف، فإننا نقول: إن الله تعالى لم يزل ولا يزال ذو صفات، ولا يوجد ذات بلا صفة إطلاقًا، ومن ادعى أنه يوجد ذات بلا صفة فقد ادعى المحال، وما من موجود إلا وله صفة، لو لم يكن من صفاته إلا صفة الوجود، والقيام بالذات وما أشبه ذلك، فما من موصوف إلا وله صفة، لكن الموصوف بصفاته، ليس شيئًا بائنًا منه، ولهذا لا نقول: إن صفات الله هي الله، ولا نقول: إنها غير الله، بل نقول: إن الله بصفاته؛ لأنك إذا قلت إن الصفات هي الله، صار معناها أنه لا صفة له، وإذا قلت إنها غيره، أبنت الصفة عن الموصوف وهذا مستحيل.

إذنْ الإيمان بالاسم لابد أن تؤمن بما تضمنه من صفة، وتضمنه للصفة قد تكون تضمنًا وقد تكون التزامًا، فهل نؤمن بالصفة التي دل عليها تضمنًا فقط، أم تضمنًا والتزامًا؟

الجواب: تضمنًا والتزامًا، فمثلًا: الخالق اسم دل على صفة الخلق، دلالته على صفة الخلق بطريق التضمن، ودلالته على العلم دلالة التزام، لأنه لا خلق إلا بعلم، ودلالته على القدرة التزام أيضًا لأنه لا خلق إلا بقدرة، إذنْ تؤمن بما دل عليه الاسم من صفة سواء كانت تضمنًا أم التزام.

الأمر الثالث إذا كان الاسم متعديًا، الأثر أو الحكم، فمثلًا: السميع ذو السمع الذي يسمع، لابد أن تؤمن بسمع يتعدى للغير، فيسمع كل قول، والبصير كذلك متعدي، نؤمن بالبصير اسمًا وبالبصر صفة وبأنه يبصر حكمًا أو أثرًا، أما إذا كان الاسم لازمًا فإنه يؤمن بأمرين: الأول: الاسم، والثاني: الصفة، فالحي: لازم أم متعدي؟ لازم، الحي وصف لازم أو الحياة وصف لازم لا يتعدي لغير الله، فالحي إذنْ اسم من الأسماء اللازمة فتؤمن بالحي اسمًا من أسماء الله، وتؤمن بالصفة التي دل عليها الحي وهي الحياة.

إذن إذا آمنا بهذا خالفنا كل أهل التعطيل، خالفنا من لا يسم الله باسم ولا يصفه بصفة، وهؤلاء غلاة الجهمية، وخالفنا من يؤمن بأن لله أسماء، ولكن لا صفات له مثل المعتزلة، وخالفنا من يقول له أسماء وصفات لكن ليس لها حكم، لا يتعدى لأنه لو تعدى إلى الغير لزم قيام الحوادث به، إذ إن المسموع حادث أو أزلي؟ حادث، فإذا تعلق السمع بحادث صار السمع حادثًا حدوث المسموع، فلزم قيام الحوادث به.

إذن قل هو سميع له سمع لكن لا يسمع به، لئلا تقوم به الحوادث، فإذا أتينا بهذه الشروط

الثلاثة: الإيمان بالاسم، ثانيًا: بما تضمنه من صفة، ثالثًا: بالأثر أو الحكم، صح إيماننا بالأسماء، أما السميع والبصير فقد سبق لنا معناهما، وذكرنا أن السميع يدل على السمع، وأن سمع الله تعالى نوعان:

الأول: سمع بمعنى الإجابة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾ وهذا السمع يأتي بمعنى الاستجابة في اللغة العربية؟ نعم، والدليل: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لكن هل هذا فيه دليل؟ فيه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يستجيبون، ومنه قول المصلي والمسلم يصلي على الأقل سبعة عشر ركعة ويقول: سمع الله لمن حمده، وما معناها؟ استجاب، ليس المعنى مجرد سماع لمن حمده، لأن هذا لا يفيد شيئًا، ولكن معناها استجاب، هذا سمع بمعنى الاستجابة.

الثاني: سمع بمعنى إدراك المسموع، وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: ما يراد به التهديد، والثاني: ما يراد به التأييد، والثالث: ما يراد به بيان شمول سمع الله، يعني سمع الإحاطة، مثال الأول الذي يُراد به التهديد: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ هذا للتهديد، ولهذا قال: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

ومثال ما يراد به التأييد قول الله تعالى لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

ومثال ما يراد به سمع الإحاطة: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾، فصار يقسّم السمع أولًا إلى كم؟ إلى قسمين: سمع إجابة وسمع إدراك والإدراك ينقسم إلى ثلاثة أقسام وإن شئت فقل ثلاثة أنواع، لئلا تتداخل الأقسام، سمع يقتضي التهديد، وسمع يقتضي التأييد، وسمع لبيان الإحاطة، وكل هذا ثابت لله عز وجل.

فإن قال قائل: ما الذي يعين أن هذا السمع للتأييد أو للتهديد أو للإحاطة؟

قلنا: سياق الكلام وقرائن الأحوال، ولهذا يمكن أن يقال في قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾: إن هذا السمع للتأييد والتهديد، تأييد موسى وهارون وتهديد فرعون، لكن يمنع من القول بأنه من تهديد لفرعون أن فرعون لم يكن يسمع هذا الكلام من الله، فكيف يهدد من لا يسمع التهديد، ولهذا قال العلماء: إن السمع في هذه الآية للتأييد ولم أرهم قالوا إنه للتهديد ولا لتهديد فرعون ووجه ذلك أن فرعون الآن ليس يسمع ما يقول الله عز وجل، فكيف يهدد من لا يسمع التهديد؟!

أما ﴿الْبَصِيرُ﴾ فهو بمعنى ذو البصر الثاقب الذي لا يغيب عن نظره شيء عز وجل، أي حركة وأي فعل فإن الله تعالى يبصره، لكن إذا كان يبصر كل شيء فكيف موقفنا في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم»، قال: ولا ينظر إليهم فنفى النظر إليهم، نقول النظر المثبت غير النظر المنفي، المنفي هو نظر الرحمة، والمثبت هو نظر

الإحاطة، فالله تعالى ينظر كل شيء نظر إحاطة حتى المغضوب عليهم منظورون عند الله عز وجل لكن نظر إحاطة، وأما المنفي، فهو نظر الرحمة لا ينظر إليهم؛ وبهذا تلتئم الأدلة ويتبين أنه لا تعارض بينها، هناك (بصير) بمعنى العلم لكن المتبادر منه الرؤية كما سبق.



قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا النظم موجود في القرآن كثيرًا: أن تأتي أداة الاستفهام وبعدها حرف العطف ثم الجملة، وقد اختلف المعربون في كيفية إعراب هذا النوع وهذا الترتيب، فقال بعضهم: إن التقدير: وألم يسيروا في الأرض، فتكون الواو عاطفة على ما سبق، وتكون الهمزة داخلة على جملتها، مصدرة الجملة بها، وهذا القول لا يحتاج إلى تقدير، لكنه يرد عليه أن الهمزة متقدمة على حرف العطف، فأجابوا عن ذلك أن الهمزة مقدمة، وقالوا إن تقديمها في مثل هذا سائغ، والقول الثاني للمعربين: أنَّ الهمزة داخلة على شيء مقدر، وأن حرف العطف عاطف على ذلك المقدر، وحينئذٍ نحتاج إلى تعيين ذلك المقدر ولا يعينه إلا السياق، فيقدر ذلك المحذوف بحسب ما يقتضيه السياق، فمثلًا يُقال: أَفَرَّطوا ولم يسيروا في الأرض؟ أو أَأَغفلوا ولم يسيروا في الأرض؟ أو ما يؤدي إلى هذا المعنى.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ هل المراد سير القلوب بالنظر والتأمل والتفكر، أو المراد سير الأقدام حتى يقف الإنسان على ما حصل للأمم السابقة بعيني رأسه؟

الجواب: كلاهما، فمن لم يتيسر له أن يسير على قدمه فليسر بقلبه، ولكن ما طريق سيره بقلبه؟ طريق سيره بقلبه أن يقرأ تاريخ الأمم السابقة، وحينئذٍ بأي شيء يثبت هذا التاريخ؟ يثبت هذا التاريخ بطريقين فقط: الطريق الأول: القرآن والطريق الثاني: السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى قال فيمن سبق: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، وإذا كان لا يعلمهم إلا الله فإن مصدر التلقي لأخبارهم من عند الله أو من رسوله صلى الله عليه

وسلم، أما ما حدثت به بني إسرائيل عمن سبق فهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما شهد شرعنا به أو ما شهد القرآن والسنة به فهذا مقبول لا لأنه خبر بني إسرائيل ولكن لأن القرآن والسنة شهدت بصدقه.

القسم الثاني: ما شهد القرآن والسنة بكذبه، فهذا مرفوض ولا يجوز التحدث به إلا إذا أراد الإنسان بيان كذبه وبطلانه.

القسم الثالث: ما لم يشهد الوحي بصدقه ولا كذبه، أي ما ليس في القرآن ولا في السنة تصديقه ولا تكذيبه، فهذا قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»، فيكون لنا الكلام الذي يباح نقله لكن لا فائدة منه فلا يُشتغل به عما هو أهم منه.

وبهذا نعرف كيف نسير بقلوبنا في أخبار من سبق، فصار مصدر التلقي في أخبار من سبق المصدر الأساسي الأكيد هو الكتاب والسنة، وأما ما وقع من أخبار بني إسرائيل فهو ثلاثة أقسام.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض المعربين إن (في) هنا بمعنى على، لأنه لا يمكن السير في جوف الأرض بناءً على أن في للظرفية، والظرف محيط بالمظروف كما إذا قلت: الماء في الإناء، فإن الإناء محيط به والماء في جوفه، ولكن ربما يقول قائل: إن هذا غير متعين؛ لأن المراد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في منافذ الأرض، كما قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ وتكون الظرفية هنا ظرفية الأجواء، أي في أجواء الأرض، والأجواء ظرف لمن يسير فيها.

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ الفاء هنا قيل: إنها عاطفة وعلى هذا فيكون السير منتفيًا والسير أيضًا منتفيًا والتقدير على هذا القول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فألم ينظروا في عاقبة الذين كانوا من قبلهم، وقيل: إن الفاء للسببية أي: فبسبب سيرهم ينظروا كيف كان، والمعنيان متلازمان؛ لأنهم إذا لم يسيروا لم ينظروا، وإن ساروا نظروا.

وقوله ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ﴾ هل النظر هنا نظر قلب وبصيرة، أو نظر عين وبصر؟

الجواب: ينبني على ما سبق في السير، إن كان سير قلب فالنظر نظر قلب وبصر، وإن كان سير قدم فالنظر نظر عين وبصر، وقد قلنا: إن السير صالح لهذا وهذا، فيكون النظر أيضًا صالحًا لهذا وهذا.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ اسم استفهام، وهو في محل نصب على أنه خبر (كان) مقدمًا، و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ اسمها، ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مآلهم ماذا كان مآلهم؟ سيأتي ذكر المآل، لكن الله ذكر حالهم قبل أن يذكر مآلهم، قال: ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أشد: من الشدة وهي الصلابة، والعظم، ومنهم من يقول: فيها قراءتان، [وفي قراءة

﴿مِنْكُمْ﴾]، فيكون فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب، ومعلوم أن الخطاب أشد وقعًا في النفس من الحديد بصيغة الغيبة، يعني: إذا كنت تخاطب الشخص مخاطبة فهو أشد وقعًا في نفسه مما إذا كنت تتحدث بصيغة الغيبة، ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، بصيغة الغيبة والعابس والمتولي هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يقل: عبست وتوليت لأن الخطاب أشد وقعًا من الغيبة.

وقوله: [وفي قراءة: ﴿مِنكُمْ﴾] اعلم أن اصطلاح المؤلف رحمه الله أنه إذا قال: [في قراءة]، فهي سبعية، وإذا قال: [وقرئ]، فهي شاذة ليست سبعية، وفي قراءة: [﴿مِنكُمْ أَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ ، من مصانع وقصور]، فهم أقوياء الأبدان ولهم من الآثار في الأرض أكثر مما عند هؤلاء الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشاهد في هذا ظاهر في ديار ثمود، فإن كل من شاهدها تبين له كيف كانت قوة القوم، وكذلك أثر عاد في الأحقاف التي اطُّلع عليها وقال الله فيها ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

فهي قوة عظيمة حتى إن عادًا قالوا: من أشد منا قوة، فماذا كانت حالهم؟ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أهلكهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ هؤلاء القوم الأشداء الذين لهم من الآثار ما يبهر العقول أخذهم الله بذنوبهم؛ أهلكهم بسبب ذنوبهم، وذنوبهم مكونة من شيئين: التكذيب والتولي، فهم مكذبون بالخبر متولُّون عن الأمر فكذبوا الأخبار وخالفوا الأوامر وقعوا فيما نهوا عنه وتركوا ما أمروا به، وكذبوا ما يلزمهم تصديقه.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، الباء هنا للسببية ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ما: نافية، ومن: متعلقة بـ (واق)، (واق): اسم كان دخلت عليه من الزائدة للتوكيد، وأصل واق: واقي، فحذفت الياء للتخفيف، أي: ما كان لهم من أحد يقيهم من عذاب الله، حتى إن ابن نوح عليه الصلاة والسلام لم يقه من عذاب الله قربه من نوح، ولا دخوله في العموم، لأن الله سبحانه وتعالى ذكر أنه منجِّيه وأهله ـ أعني نوحًا ـ، فلما أرسل الله عليهم الغرق دعاه أبوه أن يركب معه في السفينة ولكنه أبى وقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، فغرق، وقال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾، وقد وعده الله أن ينجيه وأهله، فقال الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فلم يق هذا الابن قربه من أبيه أحد أولي العزم من الرسل ولكنه هلك فيمن هلك كما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ .

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الحث على السير في الأرض، لقوله ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ بناءً على أن الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

٢- **ومن فوائدها:** أن السير في الأرض في أرض المكذبين وبيان ما أحل الله بهم من النكال، إذا كان على سبيل العبرة فلا بأس به، على سبيل العبرة بما جرى لهم من الهلاك، لا العبرة بما كان لهم من القوة، وبناءً على ذلك نعرف أن الذين يذهبون الآن إلى ديار ثمود للاطلاع على قوتهم، والاعتبار بصنعتهم على خطأ عظيم، لأنهم لم يسيروا في الأرض السير الذي أمر الله به، بل ساروا في الأرض السير الذي نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»(١)، فمن الذي يذهب الآن إلى ديار ثمود يقف يشاهد آثارهم وهو يبكي؟ لا أحد إلا من هداه الله عز وجل وتبين له الحق، وإلا فإنهم يذهبون يتفرجون.

والعجب أن بعض الجهال منا يرون أن هذا من الآثار المحترمة فيقال: سبحان الله الآثار المحترمة أيها الجهال هي الكتاب والسنة، آثار الوحي، أما آثار المكذبين للرسل فليست محترمة، ثم هل هي آثار آبائكم وأجدادكم؟ لا لكن آثار قوم فنوا وأعقبهم أناس ثم أناس ثم قرون كثيرة، لكن هذا من الجهل والتقليد الأعمى الذي يجعل القوم يتعلقون بالآثار المادية دون الآثار المعنوية.

٣- **ومن فوائدها:** أن عاقبة الذين كانوا من قبلهم عاقبة سيئة، لقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة في الأبدان وقوة في الصناعة وقوة في الآثار، ومع هذا لم تمنعهم قوتهم هذه من أخذ الله لهم.

٥- **ومن فوائد الآية:** أن قوة الله سبحانه وتعالى فوق كل قوة، فإنه قال: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ومع ذلك أخذهم الله عز وجل، ذلك أن الله تعالى إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، فلا يحتاج إلى أن يأتي بأحد يساعده ولا يحتاج إلى صنع قنابل أو مدافع لا، كن فيكون، انظروا إلى عاد افتخروا بقوتهم فأهلكم الله تعالى بألطف الأشياء، حيث سخر عليهم الريح ولم يسخرها لهم، بل سخرها عليهم، وهي الريح من ألطف الأشياء فدمرتهم، قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ حتى كانوا كأعجاز نخل خاوية، يقولون: إن الريح تحمل الواحد منهم حتى يكون في عنان السماء ثم ترده إلى الأرض فينقلب منحنيًا كأنه عجُز نخل خاوية، وأعجاز النخيل إذا رأيتموها تجدون النخلة تقوست، هؤلاء الذين كانوا أشداء أقوياء يقفون على أقدامهم أصبحوا كأنهم أعجاز نخل خاوية، والآية الثانية ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾، وفرعون قال لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، بماذا أهلكه الله؟ أهلكه بأن أخرجه من مصر التي كان يفتخر بها باختياره، خرج مختارًا، بل خرج وكأنه غانم كأنه

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٣٨/ ٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

رابح في المعركة ثم أهلكه الله بجنس ما يفتخر به، بماذا؟ بالماء، أهلكه الله بالماء؛ ليتبين أن القوة قوة الله سبحانه وتعالى وأن الله أشد من هؤلاء القوة.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله تعالى إذا أراد بقوم سوءًا فلا مرد له؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، وقد بين الله ذلك صريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾.

٧- ومن فوائد الآية والتي بعدها: إثبات الأسباب وأنه لا يجني جان إلى على نفسه، من قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ إلى آخره، وقد تقدم لنا شرح هذه المسألة أعني مسألة الأسباب وتأثيرها واختلاف الناس فيها، وبينا أن أعدل الأقوال وأصح الأقوال أن الأسباب لها تأثير مباشر، لكن ليس تأثيرًا ذاتيًا بنفسها ولكن بما أودع الله تعالى فيها من القوى المؤثرة.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات عدل الله عز وجل، وأنه لا يؤاخذ أحدًا بدون ذنب لقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أنه ما من أمة خلت إلا وقد جاءتها رسلها، لقوله ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كل أمة جاءها نذير وجاءها رسول أنذرها وبين لها، وقد أقرت هذه الأمم بذلك، قال الله تبارك وتعالى في سورة الملك ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾

ثم قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وقال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وهذا من تمام رحمة الله عز وجل وحكمته، أن أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ولأجل مصلحة الخلق، نحن لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسله الله إلينا هل نعرف كيف نتوضأ، وهل نعرف كيف نصلي؟

لا نعرف، لكن من رحمة الله عز وجل أن أرسل إلينا رسولًا علمنا كيف نتوضأ، كيف نصلي، ثم ما الذي يترتب على هذا الوضوء والصلاة؟ مغفرة الذنوب، إذا توضأ الإنسان فإن خطاياه تخرج مع آخر قطرة من قطرات الماء، وإذا صلى فالصلوات الخمس مكفِّراتٌ لما بينهن، وإذا توضأ في بيته وأسبغ الوضوء وخرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطو خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، أحصِ خطواتك من بيتك إلى المسجد في اليوم والليلة خمس مرات، تجدها كثيرة، كل هذا من فضل الله عز وجل.

ولولا أن الله هدانا هداية إرشاد، ونسأل الله تعالى أن يتممها بهداية التوفيق لولا ذلك لهلكنا ولم نعرف كيف نعبد الله، فهذا من رحمة الله عز وجل أنه أرسل الرسل إلى الأمم ليبينوا لهم.



قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[غافر: ٢٢]

التفسير

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ذلك المشار إليه أخذ الله تعالى إياهم بذنوبهم، فهذه الذنوب أنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، قال المؤلف: [بالمعجزات الظاهرات] ﴿تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ جمع رسول، والرسول لكل أمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ والرسل جاءوهم بالبينات قال المؤلف [بالمعجزات] والصواب أن يقال: بالآيات لأن الله تعالى يعبر عنها كذا ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ والمراد بالبينات ما يؤمن على مثله البشر، وهي نوعان: حسية ومعنوية، وخِلْقية وخُلُقِية، كلها آيات بينات ظاهرة واضحة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بعث الله نبيًا إلا آتاه من الآيات ما هو على مثله يؤمن البشر»[1]، والحكمة من هذه الآيات هو أن البشر لا يمكن أن يقبلوا دعوة من شخص عاش بينهم يعرفونه يأتي ويقول: إنه نبي أو إنه رسول، لكن بأي دليل؟ لابد من آيات تدل على صدقه، وكما قلت: إن الآيات نوعان: آيات معنوية وهي ما يتضمنه الوحي الذي جاء به هؤلاء الرسل، وآيات حسية وهي ما يظهر من خوارق العادات، ولهذا قيل في تعريف الآية: إنها أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الرسول تأييدًا له، هذه هي الآية.

قال العلماء عن الآيات الحسية أنها تكون مناسبة للوقت الذي بعث فيه الرسول، واستشهدوا لذلك بأن موسى عليه الصلاة والسلام، أُعطي آيات سحرية أي: تشبه السحر لكنها أقوى منه تغلبه فيضع العصا وهي من خشب على الأرض، فتنقلب حية تسعى، ويدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء تلوح من غير عيب - أي من غير ضرر -، وهذا لأنه في وقته كان للسحر طول عالٍ مرتفع، فجاء بآيات تغلب ذلك السحر، ويظهر هذا حينما اجتمع مع السحرة في اليوم الذي واعدهم فيه فألقوا حبالهم وعصيهم حتى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفة موسى، فقال الله تعالى: لا تخف وأمره أن يضع العصا فوضعه، فإذا هي حية تلقف ما يأفكون.

ثم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام بُعث في زمن ترقى فيه الطب ترقيًا عظيمًا بالغًا

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

فجاء بأمر يعجز عنه الأطباء، يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله، بل يخرج الموتى من قبورهم بإذن الله، يقف على صاحب القبر فيخاطبه فيقول اخرج فيخرج، وهذا أعظم من الطب الذي أتوا به.

أما محمد عليه الصلاة والسلام فبعث في وقت بلغت فيه البلاغة أوجها وصار الناس يتفاخرون أيهم أبلغ، فيأتي الشعراء ويأتي الخطباء إلى أسواق الجاهلية عكاظ وغيره يتبارون في أشعارهم وخطبهم، فجاء هذا القرآن قاضيًا عليها كلها، وأعجزهم وعجزوا عن أن يأتوا بآية منه، مع أنهم هم أمراء البلاغة.

والمهم: أنه لابد لكل نبي من آية يؤمن على مثلها البشر؛ لأن الله تعالى حكيم ورحيم، حكيم لا يرسل شخصًا يقول للناس أنا رسول بدون بينة، ورحيم حيث أيد هؤلاء الرسل بالآيات من وجه، ورحم الخلق فجعل مع الرسل آيات من أجل أن تكون حجة الرسل مقبولة لديهم.

وقوله: ﴿فَكَفَرُوا﴾ الفاء عاطفة وتدل على مبادرة هؤلاء بالكفر وأنهم لم يتأملوا ولم ينظروا، وجه ذلك: أن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ﴿فَكَفَرُوا﴾ أي: بالرسل وبالبينات التي جاءوا بها، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أهلكهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أهلكهم الله سبحانه وتعالى بعامة إلا من آمن.

ثم بين أن هذا الأخذ شديد لقوله: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قوي أزلًا وأبدًا فلم يسبق قوته ضعف، ولا يلحقها ضعف، أما البشر فإنهم ضعفاء، أولًا ونهاية، ومنتهى قوتهم أيضًا ليس بشيء، حتى وإن بلغ الإنسان أشده وبلغ غاية قوته فإنه ليس بشيء، أما الرب عز وجل فإنه قوي أزلًا وأبدًا.

وقوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، المعنى عقابه شديد، الشديد يعني: الصلد القوي الذي تحصل آثاره على من عوقب.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان سبب إهلاك الأمم، وأن ذلك بذنوبهم لقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ما من أمة إلا وخلا فيها نذير وجاءها رسول.

٣- **ومن فوائدها:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بالآيات البينة الظاهرة.

٤- **ومن فوائدها:** إقامة الحجة على الخلق، بإرسال الرسل أولًا، ثم بتأييدهم بالآيات البينات التي لا تدع مجالًا للشك أو للإنكار.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن هؤلاء الذين أرسل إليهم لم يشكروا النعمة، بل بادروا بالكفر والتكذيب.

٦- **ومن فوائدها:** أنه لو تأمل العاقل ما جاءت به الرسل، ما أدى ذلك إلى كفره، لكن غالب المكذبين للرسل يبادرون بالتكذيب، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .

٧- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب، وأن الله تعالى ربط المسببات بأسبابها، وهذا يدل على تمام حكمة الله وأنه عز وجل لم يفعل شيئًا عبثًا ولا لمجرد المشيئة، خلافًا لمن قال من الجبرية وغيرهم: إن الله تعالى يفعل ما يشاء لمجرد المشيئة وليس لحكمة، وأنكروا حكمة الله، وقالوا: إن الحكمة تقتضي النقص، وهذا من غرائب الأفهام، الحكمة تقتضي النقص؟ قالوا: نعم، لأن الحكمة غرض، فإذا فعل فلكذا، فإنه محتاج لهذا الغرض.

فيقال لهم: تبًا لكم ولأفهامكم، الحكمة: هي غاية الحكم: أي أن الحكمة أكبر ما يدل على البعد عن السفه واللعب، وأما قولكم: إن الحكمة غرض فإذا قلتم: إن الله فعل كذا لكذا لزم من ذلك أن يكون الله محتاجًا إليه.

فيقال: الحكمة التي يشرع الله الشرائع من أجلها لا تعود إلى نفعه إلا من حيث الكمال فقط، أما المصلحة فالذي ينتفع بها الخلق، أما الله عز وجل فإن حكمته لا تعود إليه بشيء سوى بيان كمال صفته عز وجل.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات القوي اسمًا من أسماء الله، وهو من الأسماء اللازمة، قادر: من الأفعال المتعدية، لكن القوي من اللازمة، وعلى هذا فلابد من إثباته وإثبات ما دل عليه من الصفة وهي القوة.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى شديد العقاب، ولكن لمن عصاه.

١٠- **ومن فوائدها:** التحذير من مخالفة الله، لأنه قوي وشديد العقاب، فياويح من خالف أمر ربه سيتعرض لشدة العقاب من ذي قوة لا يلحقها ضعف، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الجملة هذه مؤكدة بعدة مؤكدات بمؤكِّدات ثلاث: بالقسم المقدر، واللام، وقد، وهذه الصيغة تأتي كثيرًا في القرآن.

وقوله: ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ موسى هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل وأعظمهم وأشدهم، وهو من أشد الأنبياء وأقواهم، ويدلك على ذلك ما فعله قبل النبوة وما فعله بعد النبوة، فقبل النبوة مر برجل من قومه يخاصم رجلًا من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه وهذا يدل على قوته وشدته، وبعد النبوة لما رجع ورأى أنهم أشركوا بالله غضب غضبًا شديدًا، فألقى الألواح، الألواح التي كتب الله بها التوراة، قال بعضهم: فتكسرت، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وهو نبي من الأنبياء مشارك له في النبوة، ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، هذا أيضًا يدل على قوته وشدته عليه الصلاة والسلام، وهذا من الحكمة لأنه أرسل إلى أعتى أهل الأرض وهو فرعون، ولهذا قابله بالقوة قال: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وهذا يدل على قوته عليه الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى أيضًا إلى قوم عتاة وهم بنو إسرائيل، ولهذا لا يوجد شعب من الشعوب فيما نعلم مثل بني إسرائيل في العتو والنفور والاستكبار إلى حد أنه لما كتب عليهم القتال قالوا: لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ، سنقعد على الفرش ولا نتحرك وأنت وربك اذهب فقاتلوا، فلهذا كان من الحكمة أن يكون هذا الرسول على هذا النحو من الشدة لمناسبة من أُرسل إليهم من فرعون وبني إسرائيل.

وقوله: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ آياتنا جمع تدل على أن معه آيات متعددة وهو كذلك، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ إلى آخره، فهو أُوتي آيات، أعظمها وأشدها وأبينها حسًّا آية العصا، فإنها من آيات الله الحسية الغريبة العجيبة، عصًا يهش بها على غنمه، وله فيها مآرب أخرى ويتوكأ عليها، إذا ألقاها صارت حية عظيمة تلقف كل ما أمامها، وإذا حملها عادت عصا، وإذا ضرب بها الحجر تفجر ماءً، هذا من آيات الله، هذه العصا آية من آيات الله عز وجل، تأمل الآن فكِّر مدى كثرة العصي والحبال التي ألقاها السحرة كثرتها وتنوعها ثم ألقى هذه العصا فصار يلقف كل ما يأفكون وأنا أتعجب أين البطن الذي يسع هذه الأشياء؟ لكن آيات الله تبهر العقول، وإلا فتقول كيف حية بمقدار العصا تلقف كل ما أفكوا من الحبال والعصيِّ، فأين تذهب؟

نقول: لا تسأل أين تذهب، أنت صدق وآمن بهذا وكيف تذهب إلى الله عز وجل، ولا مانع من أن تكون هذه الأشياء إذا مضغتها صار الشيء الكبير صغيرًا.

وقوله: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ السلطان: كل ما يكون للإنسان فيه سلطة، أي: حجة وقوة

ويختلف باختلاف السياق، فالسلطان بالنسبة للأب مع أولاده في التأديب سلطان ضرب، والسلطان فيمن دُعوا إلى الله عز وجل سلطان بيان، والسلطان أيضًا فيمن جودل سلطان حجة، وهو يختلف باختلاف المواضع.

المهم: أنه ما كان فيه سلطة على الغير فهو سلطان.

وقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ يحتمل أن تكون من اللازم ويحتمل أن تكون من المتعدي، وذلك أن أبانَ الرباعي يكون لازمًا ويكون متعديًا، فتقول: أبنت له الحق، وتقول: أبان الصبح - أي بان وظهر -، فهي رباعية صالحة للتعدي واللزوم.

فإن قال قائل: كيف يكون فعلًا صالحًا للتعدي واللزوم؟

قلنا: نعم يصلح واللغة العربية واسعة، رجع فعل ماضي ثلاثي، يكون لازمًا ويكون متعديًا، ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هذا لازم، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، هذا متعدي، فلا مانع من أن يكون الفعل الواحد لازمًا في سياق متعديًا في سياق واحد، ومن ذلك أبان، فهل قوله سبحانه وتعالى ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ معناها بيِّن، أو مبين مظهر للحق؟ ننظر أيهما أبلغ البيِّن في نفسه أو المبين لغيره؟

الجواب: الثاني؛ لأن المبين لغيره لابد أن يكون بينًا في نفسه، وعلى هذا فكلمة مبين من المتعدي تكون أشمل وأوسع معنا، وما كان أشمل وأوسع معنا فإنه يؤخذ به، ولا نقول: يترك الثاني إذا أخذنا بالأوسع والأشمل؛ لأن الثاني داخل في الأول.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تأكيد رسالة موسى عليه الصلاة والسلام بالمؤكدات الثلاثة التي ذكرناها آنفًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

٢- **ومنها**: أن الله تعالى يكرر ذكر قصة موسى ويبسطها تارة ويختصرها تارة وينوِّعها فهي جمعت بين الكثرة والتنويع من حيث الأسلوب والتنويع من حيث البسط والاختصار، فلماذا؟

الجواب: لأن النبي صلى الله عليه وسلم عاش في قوم مشركين أول الرسالة وفي قوم يهود بعد الهجرة، ولهذا جاءت السور المكية يذكر فيها قصة موسى ببسط تارة، واختصار تارة لأجل أن يتهيأ النبي صلى الله عليه وسلم لمجادلة اليهود الذين ستكون الهجرة إلى بلد هم ساكنون فيها، ولهذا لا تجد قصة نبي مثل قصة موسى عليه الصلاة والسلام، لا في تنوعها ولا في تكرارها ولا في أسلوبها.

٣- **ومن فوائدها:** فضيلة موسى صلى الله عليه وسلم وذلك بما أكرمه الله به من الرسالة.

٤- **ومن فوائدها:** أن موسى صلى الله عليه وسلم أوتي آيات، وبيَّن الله تعالى في آية أخرى أنها تسع آيات.

٥- **ومن فوائدها:** أن موسى أوتي سلطانًا ـ أي سلطة وقوة ـ في إقامة الحجة وفي غير ذلك، لقوله ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وإذا أردت أن تعرف شيئًا من سلطانه الذي آتاه الله فانظر إلى محاورته في سورة الشعراء مع فرعون؛ حيث ألجمه وألقمه حجرًا، وفي النهاية توعده بالقوة، يقول فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ هذه كلمة إرهاب ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أشد إرهابًا مما لو قال: لأسجننك، لأنه كأنه يقول عندي أناس سجناء كثيرون، وأنا قادر على سجنهم وسأجعلك من بينهم فيكون هذا أشد في الإرهاب مما لو قال لأسجننك.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ما أشرنا إليه في الآية التي قبلها أنه ما من رسول أرسل إلا وأوتي آيات بينات تدل على صدقه، وهذا من حكمة الله ومن رحمة الله.

٧- **ومن فوائدها:** أن الآيات لابد أن تكون مبينة مظهرة للحق؛ لقوله: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.



قال الله تعالى:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٤، ٢٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ متعلق بـ (أرسلنا)، وفرعون هو حاكم مصر الذي ملكها وسُلِّط على بني إسرائيل، فكان يقتِّل أبناءهم ويستحيي نسائهم، قيل: إنه كان يفعل ذلك من أجل أنه قال له بعض الكهنة: إنه سيكون في بني إسرائيل رجل يكون زوال ملكك على يده، هذا قول، وقول آخر: إنه فعل ذلك إذلالًا لهم وإهانة؛ لأنه إذا قتل الرجال وبقي النساء هلكت الأمة، وهذا القول أقرب؛ وذلك لأن القول الأول معتمده النقل عن بني إسرائيل ومعلوم أن النقل عن بني إسرائيل لا يصدق ولا يكذب، والمعنى المعقول لكونه يذبح أبناءهم ويستحيي نسائهم هو إذلال هذا الشعب وهو قلة بالنسبة للأقباط.

وقوله: ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وزير فرعون، وقارون تاجر آل فرعون؛ لأن قارون كان غنيا غنىً عظيمًا حتى قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ الذي إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة،

تنوء: يعني تَثْقُل بهم أي تُثْقِل العصبة - أي الطائفة من الناس الأقوياء - هذه مفاتيحه، إذن فالخزائن كثيرة وعظيمة، ﴿فَقَالُواْ﴾ الضمير يعود على الثلاثة: فرعون وهامان وقارون، ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ﴾ ساحر: خبر مبتدأ محذوف قدره المفسر بقوله [هو ساحر كذاب] والساحر اسم فاعل من السِّحر، وهو الذي يسحر الناس فيريهم الحقائق على غير ما هي عليه، وليس هو الذي يغيِّر الحقائق؛ لأنه لا يغير الحقائق إلا الخالق عز وجل، لكن يُري الناس الحقائق على ما هي عليه، مثلما فعل السحرة سحرة آل فرعون حين ألقوا الحبال والعصيَّ فرآها الناس وكأنها حيات تسعى ثعابين وهي ليست كذلك، هؤلاء قالوا إن موسى ساحر، كيف يلقي العصا فتكون حية؟ ثم يرسل يده فتخرج بيضاء من غير سوء؟ ليس هذا إلا سحر.

وقوله: ﴿كَذَّابٞ﴾ أي كاذب فيما ادعى من الرسالة، فهو في آياته ساحر وفي دعواه كاذب، ثم قال ﴿كَذَّابٞ﴾ صيغة مبالغة أو نسبة، والفرق بين صيغة المبالغة والنسبة أن النسبة وصف ملازم وصيغة المبالغة فعل حادث متكرر، فكلمة النَّجار هذه نسبة، وقد تكون صيغة مبالغة لكثرة نجارته، وأما إذا قيل فلان أكَّال للطعام، فهذا قد لا يكون نسبة ولكن لكثرة أكله وصف بأنه أكال.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أرسله الله بالآيات وقالوا ساحر كذاب ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا﴾ بالحق: [بالصدق]، من عندنا: من عند الله عز وجل وهو الوحي حينما قال موسى عليه الصلاة والسلام لهم: إن الله هو ربكم وإن الله واحد وما أشبه ذلك مما جرت فيه المحاورة بينه وبين فرعون وهذا مذكور في سورة الشعراء، والإسراء وغيرها، لما جاءهم بالحق الذي عجزوا أن يقابلوه بالحجة الداحضة، توعد فرعون موسى فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ وهذا وعيد، شيء آخر قالوا: ﴿ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ﴾ [استبقوا] ﴿نِسَآءَهُمۡ﴾، وعلى هذا فيكون القتل لأبناء بني إسرائيل واستحياء النساء يكون قد وقع مرتين: المرة الأولى قبل أن يبعث موسى، والمرة الثانية بعد أن بعث.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾ لئلا يبقى لهم شوكة ولتزول هيبتهم، لأنه إذا لم يبق إلا النساء، فالنساء ضعيفات لا يدفعن عن أنفسهن ولا يدافعن عن حقوقهن، فيبقى موسى وقومه على أسوء حال، ﴿قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [هلاك]، ما: نافية، كيد: مبتدأ أو نجعلها اسمها؟ كيد مبتدأ ولا يصح أن يكون اسمها؛ لأن من شرط عمل ما عمل ليس ألا ينتقض النفي، قال ابن مالك:

مَعَ بَقَا النَّفْي وَتَرْكِيبِ ذُكِنْ

فإذا انتقض النفي فإنها لا تكون عاملة عمل النفي، وفي القرآن كثير من هذا، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ولم يقل ما هذا إلا بشرًا؛ لأنه انتقد النفي؛ إذن ما نافية وكيد مبتدأ.

وقوله: ﴿كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الكيد والمكر والخداع وما أشبهها كلها كلمات متقاربة معناها التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، يعني يتوصل للإيقاع في خصمه بأسباب خفية لا يشعر بها الخصم، لأن الكائد والخادع والماكر لا يأتي بالشيء علنًا هكذا، بل بأسباب خفية، فهي التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر - أي بأسباب خفية -. فالكفار لهم كيد عظيم يكيدون على الإسلام وليسوا يكيدون للإسلام، لأن هناك فرق بين الكيد على الشيء والكيد للشيء، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ ولم يقل على، لكن الكيد بالعدو هذا يسمى كيدًا عليهم، والكافرون لهم كيد على الرسل يكيدون كيدًا عظيمًا ويفعلون كل سبب يدحضون به حجة الرسل ولكن مهما عملوا فالله يقول: ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ كيدهم في ضلال أي في هلاك وضياع كما أن الضال لا يهتدي السبيل كذلك كيد هؤلاء الكفار لا يدخلهم إلى المقصود.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الزعماء يقومون مقام الأتباع؛ لأن الرسالة ليست لهؤلاء الثلاثة فقط بل إلى آل فرعون كلهم، لكن الأسياد يقومون مقام الأتباع.

٢ - **ومن فوائدها:** أن العتاة المعاندين للرسل تتنوع أسباب عنادهم ومعارضتهم للرسل، قد تكون السلطة وقد تكون الوزارة وقد يكون المال، وقد تكون القوة البدنية، ففي هذه الآية ثلاثة أسباب: الملك والوزارة والمال، وفي عادٍ القوة البدنية ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

٣- **ومن فوائدها:** مكابرة المكذبين للرسل؛ حيث قالوا لهذا الرسول الكريم: إنه ساحر وإنه كذاب.

٤ - **ومن فوائدها:** أن ما قالوه في ردِّ الدعوة مجرد دعوة، لأنهم لم يقيموا على دعواهم أي دليل، مجرد قالوا ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وهذا يلجأ إليه الضعفاء العاجزون إذا عجزوا عن مدافعة الحجة بالحجة ذهبوا إلى السب والشتم وما أشبه ذلك.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الآيات التي تأتي بها الأنبياء يعجز عن مثلها عامة الناس، لقوله ﴿سَٰحِرٌ﴾، والساحر من يأتي بأمور تعجز الناس، لكن الفرق بين الساحر وبين النبي: أن النبي مؤيد من عند الله عز وجل، لا بفعله هو بمعنى: أن الساحر هو الذي يعالج الشيء حتى يأتي بالمعجزة، أما النبي فإن الآيات تأتيه بدون أي عمل منه، بل بإرادة الله عز وجل.

فإذا قال إنسان: ما الفرق بين الكرامة وآية النبي؟

قلنا: الفرق بينهما أن الكرامة تأتي لمتبع النبي وأما الآية فتأتي للنبي نفسه، أي أن من آتاه الله

الكرامة من الأولياء ليس نقول إنه رسول ولا إنه نبي، ولكن الله يؤتيه الكرامة تأييدا له أو تأييدًا للإسلام وفي ذلك أيضًا آية للنبي الذي يتبعه.

٦- **ومن فوائدها:** أن موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالحق إلى فرعون وهامان وقارون، وهذا يدل على أنه صدع به أمامهم.

٧- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المكذبين عجزوا عن رد الحق الذي جاء به فلم يقابلوا الحجة بمثلها.

٨- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الثلاثة لجأوا إلى القتل والتهديد، ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الذي يحمي الديار ويدافع عنها هم الرجال، وأن المرأة ليست بذاك الذي يدافع عن البلد أو يدفع العدو، دليل ذلك: أن هؤلاء قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه.

١٠- **ومن فوائد هذه الآية:** التعصب التام للكافرين، يعني أنهم متعصبون فهم يقولون ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يعني وغير المؤمنين من بني إسرائيل لا تقتلونه، ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى قد يسلط أعداءه على المؤمنين امتحانا وابتلاءً والواقع كذلك، وقد يكون إنسان كلما اشتد إيمانه اشتد إيذاء أعداء الله له.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار يكيدون للمؤمنين، لقوله ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

١٣- **ومن فوائدها:** الحكم على هؤلاء الثلاثة أنهم كفار، ولهذا لم يقل وما كيدهم، بل أظهر في موضع الإضمار إشارة إلى أن هؤلاء كفار، وقد سبق لنا أن الإظهار في مقام الإضمار يستفاد منه فوائد:

الفائدة الأولى: الحكم على هؤلاء الذين حل الظاهر محل ضميرهم في هذا الوصف.

والفائدة الثانية: العموم والشمول.

والفائدة الثالثة: إفادة التعليل.

١٤- **ومن فوائدها:** البشرى التامة للمؤمنين بأن الكفار مهما كادوا فإن كيدهم ضائع مخالف، لن ينفعهم ولن يستفيدوا منه شيئًا، وإن استفادوا فإنما يستفيدون فائدة مؤقتة والعاقبة للمتقين.



❁ قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ كانوا قد اقترحوا أن يقتلوا أبناء بني إسرائيل ويستحيوا نسائهم، لكن فرعون قال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ اتركوني أقتل موسى، وإنما قال هذا لأن موسى هو زعيم بني إسرائيل، ومعلوم أن قتل الزعيم يوجب وهن الأتباع وضعفهم، وفي قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ اتركوني دليل على تمويه فرعون وأنه رجل مموِّه كائد خبيث كأنه يقول: إن الناس يمسكونني عن قتل موسى، ولولا أن الناس يمسكوني لقتلته، فيقول: اتركوني عليه اتركوني أقتله، مع أنه لا أحد يستطيع أن يرده عن مراده، لأنه يقول لهم أنا ربكم الأعلى، لكن يموه ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ و(أقتل) مجزوم على أنه جواب الأمر ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، وجواب الأمر يكون مجزومًا وهل هو مجزوم به أو بشرط مقدر؟ على قولين: القول الأول: أنه مجزوم به، والثاني: أنه مجزوم بشرط مقدر، التقدير: إن تذروني أقتل موسى.

والقاعدة عندنا في التفسير والحديث: أنه إذا دار الكلام بين التقدير وعدمه فالأصل عدم التقدير، وعلى هذا فنقول (أقتل): فعل مضارع مجذوم على أنه جواب الأمر وعلامة جزمه السكون، ﴿أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال: [لأنهم كانوا يكفونه عن قتله]، بنى المؤلف قوله هذا على ظاهر اللفظ، أنهم كانوا يكفونه ويقول ذروني أقتله، ولكن الذي نرى أنه كذاب، لم يكفه أحد عن قتله ولن يستطيع أحد أن يكفه عن قتله أبدًا، لكن هو أراد أن يموه؛ لأنه لا يستطيع أن يقتل موسى فتظاهر أنه يُكف عن قتله ويقول: ذروني أقتل موسى.

وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ تحدي - والعياذ بالله -، الواو: حرف عطف واللام لام الأمر ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ يدع: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف الواو والضمة قبلها دليل عليها، وأصل يدع يدعوا.

وقوله: اقتله وليدع: هذا تحدٍ ساقه لموسى ومن أرسله سبحانه وتعالى، يعني إن كان صادقًا فليدع هذا الرب الذي أرسله ليمنعه مني، وقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ اللام لام الأمر، وهل لام الأمر ساكنة أو مكسورة؟

نقول: هي ساكنة لكنها بعد الواو والفاء وثم تكون ساكنة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى

﴿ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ وهنا قال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وقوله: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ ولم يقل ربنا؛ لأنه لا يعترف ظاهرًا بربوبية الله وإنما أضاف الربوبية إلى موسى من أجل التنكيت يعني: كأنه يقول هذا ربك الذي زعمت إن كنت صادقًا فليمنعك مني.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ هذا الخوف حقيقي أو لا؟ نعم حقيقي، هو يخاف أن موسى بما معه من الآيات يبدل دين هؤلاء، لأن دينه التعبد لفرعون وموسى يقول: اعبدوا الله، فإذا جاء بالآيات واتبعه الناس بدل الدين فصار الناس بدل أن يتجهوا إلى فرعون ويعبدوه يتجهون إلى الله عز وجل، ولهذا قال ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [من عبادتكم إياي فتتبعونه] إذن دينهم هو عبادتهم فرعون فإذا دعاهم موسى إلى عبادة الله انصرفوا إلى الله فتبدل الدين واتبعوا موسى.

وقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ الفساد على زعمه هو صرف الناس عن عبادته إلى عبادة الله هذا وجه، وجه آخر تفريق الناس بدل أن كانوا متفقين عليه ما بين خائف وما بين راغب يختلفون فيكون بعضهم تابعًا لموسى، وبعضهم لفرعون وتفرق الأمة لا شك أنه فساد، فصار إظهار الفساد الذي يدعيه من وجهين: الأول: تغيير الدين، والثاني: تفريق الأمة.

وقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [من قتل وغيره]، القتل هذا غالبًا من لازم الخلاف، لازم الخلاف بين الأمة أن يصل بهم النزاع إلى جد المقاتلة [أو غيره] ومنه تغير عبادة الناس من عبادة فرعون إلى عبادة الله، قال: [وفي قراءة أو] إذن الشارح شرح على الواو أو على أو؟ على الواو لأنه قال [وفي قراءة ﴿و﴾] القراءة هذه سبعية وليست شاذة بناءً على الاصطلاح الذي ذكرنا: أنه إذا قال: وفي قراءة، أو قال بالضم والفتح مثلًا فهي سبعية، وإذا قال: قرئ فهي شاذة، وفي أخرى بفتح الياء والهاء وضم الدال: ﴿وأن يَظْهَرَ في الأرضِ الفسادُ﴾، ضم الدال على أن ﴿الفسادُ﴾ فاعل ﴿يَظْهرَ﴾، لكن هذه القراءات هل تختلف معنىً؟ نعم تختلف معنى من حيث الظاهر، لكن مؤداها واحد، لأنه إذا أظهر موسى الفساد في الأرض ظهر الفساد فيكون خلاف القراءات فيه فائدة، أولًا: الفائدة من أو والواو، إذا كانت أو صار خاف أحد أمرين: أن يبدل الدين أو أن يظهر الفساد، والواو: أن يبدل دينكم وأن يَظهَر الفساد، يكون خاف من اجتماع الأمرين: تبديل الدين وظهور الفساد، ولابد من أحد الأمرين، إما أن يبدل الدين وإما أن يظهر الفساد، وإن لم يبدل الدين لكن يكون هناك قتل ونزاع، ولابد أيضًا من طرف آخر أن يجمع بين الأمرين: تبديل الدين وظهور الفساد، بالنسبة ﴿ليَظْهَر﴾ و﴿يُظْهِر﴾ نقول: إذا قصد إظهار الفساد فقد يظهَر وقد لا يظهَر، فإذا كان وأن يَظهَر في الأرض الفساد صار حصول ما أراد من إظهار الفساد، إذن القراءات مؤداها واحد، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تمويه فرعون، وأنه رجل ماكر مخادع يُظهِر خلاف الواقع؛ لقوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** شدة حمق فرعون على موسى إلى حد أنه أراد قتله.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** شدة تحدي فرعون حيث قال: دعوني أقتله وليدع ربه، يعني يتحدى إذا دعا ربه هل يفيده أو لا.

٤- **ومن فوائدها:** خوف الكفار من سلاح المؤمنين بالدعاء، لقوله ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾، وإن كان المقصود التحدي، لكن لا شك أنه قد فهم أن الدعاء سلاح لموسى عليه الصلاة والسلام.

٥- **ومن فوائدها:** تعصب الكفار لدينهم، لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن قوم فرعون يدينون له بالعبادة، يعني يتخذون تذللهم له عبادة لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن الكفار يرون أن الإيمان فساد في الأرض، لقوله: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، وإذا كانوا يرون ذلك فلابد أن يحولوا بين الناس وبينه حتى لا تفسد الأرض على زعمهم.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار يدَّعون ما هو كذب لإبقائهم على ما هم عليه، وهو دعواه أن الناس إذا دانوا لله ظهر الفساد من أجل أن يبقى الناس على تدينهم لفرعون، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٧، ٢٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ [لقومه وقد سمع ذلك] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ إلى آخره، قوله [وقال موسى لقومه إني عذت] توجيه القول إلى قوم موسى ليس بصواب، بل قال موسى لفرعون ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ هذا إن كان فرعون قد قاله له مواجهة يعني قال ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ مواجهة فإن موسى قال: إني عذت بربي وربكم منكم ولكن قال من كل متكبر، أما إذا كان فرعون يتحدث مع قومه وقد سمع موسى ذلك فعلى ما قال المؤلف رحمه الله، أن موسى لما سمع هذا قال ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ ولكن الظاهر والله أعلم أن المعنى الأول أصح، أنه قاله لفرعون، حين قال ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ عذت بمعنى اعتصمت بالله، لأن العياذ بالشيء الاعتصام به، قال العلماء: ويقال العياذ واللياذ، قال العلماء أن الفرق بين العياذ واللياذ أن اللياذ فيما يرجى والعياذ بمن يخشى.

إذن معنى عذت: اعتصمت ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ وهذه الربوبية العامة والخاصة، ربي: هذه ربوبية خاصة، وربكم ربوبية الله لفرعون وقومه من الربوبية العامة، ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ وهذا وصف ينطبق تمامًا على فرعون، فهو متكبر طاغٍ عاتٍ عالٍ، والمتكبر هو المترفع كبرياءً عن الحق وعلى الخلق، لأن الكبر إما عن الحق وإما على الخَلق، لقول النبي ﷺ: الكبر بطر الحق وغمط الناس[1]، بطر الحق يعني احتقاره وازدراءه، وهذا التكبر عن الحق، وغمط الناس: يعني احتقارهم وهذا التكبر على الخلق، وإذا اجتمع في قلب المرء تكبر على الخلق وتكبر عن الحق فهو الهالك والعياذ بالله، وقوله ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ يعني يوم القيامة، وعدل عن قوله يوم القيامة إلى يوم الحساب لأن الحساب أشد خوفًا من يوم القيامة، إذا قيل للإنسان إنك سوف تحاسب على عملك أي على ما عملت من خير وشر، فإنه سوف يخاف ويوجل ويستقيم ويبتعد عن المعاصي ويقوم بالأوامر، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ لما سمع هذا الرجل المؤمن بتهديد فرعون لموسى بالقتل قال ذلك، وتأمل سياق الآية، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ لم يعينه باسمه بل قال رجل مؤمن كتمانا له لأنه ليس المقصود معرفة الاسم إنما المقصود معرفة القضية، أما تعيين الأسماء فهي من فضول العلم بمعنى أنه إن حصل فهذا طيب وإن لم يحصل فليس ذا أهمية، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ مؤمن بمن؟ مؤمن بالله وربما نقول مؤمن بموسى أيضًا، ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل أن المراد من قرابته، لأن آل الإنسان قرابته، ويحتمل أن المراد من

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

أتباعه، لأن الآل تطلق على الأتباع، وأيًا كان فالرجل ليس من بني إسرائيل بل هو من قوم فرعون سواء كان من قرابته أم من قومه الذين ينتمون إليه، وقول المؤلف [قيل هو ابن عمه] هذا قول أشار المؤلف إلى ضعفه بكلمة قيل، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ أي يخفيه ويسره خوفًا على نفسه، وفي قوله ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ هذه ثلاث صفات: مؤمن، من آل فرعون، يكتم إيمانه، وقد قال علماء النحو إن النكرة إذا وصفت أول مرة فإن ما بعدها يجوز أن يكون حالا ويجوز أن يكون صفة، وعلى هذا فيجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ حال، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ حال، ويجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ حال، ويجوز أن تكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية، و ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ صفة ثالثة ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ أي يخفيه عن فرعون وقومه، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾.

فإن ما بعدها يجوز أن يكون حالًا ويجوز أن يكون صفة، وعلى هذا فيجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ حال، ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ حال، ويجوز أن يكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ حال، ويجوز أن تكون ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ صفة ثانية، و﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ صفة ثالثة.

وقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ﴾ أي: يخفيه عن فرعون وقومه، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، يعني كيف تقتلون رجلًا لم يأت بشيء إلا أن يقول ربي الله وهذا كقوله تعالى ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

وقوله: ﴿أَن يَقُولَ﴾ أن هذه مصدرية على تقدير اللام؛ ولهذا فسرها المفسر بقوله [أي بأن يقول] فعلى هذا تكون أن منزوعة اللام التي للتعليل، أي: بقوله: ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ يعني: ربي الله لا فرعون، وهم يرون أن ربهم فرعون.

وقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [بالمعجزات الظاهرات] ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ الباء للمصاحبة والبينات صفة لموصوف محذوف وتقديرها خلافًا للمؤلف: الآيات، أي جاءكم بالآيات البينات أي الظاهرات التي تدل دلالة قاطعة على أنه نبي.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ هذا يسمى عند علماء المنطق والتقسيم، إذنْ موسى الآن إما أن يكون صادقًا وإما أن يكون كاذبًا وليس هناك رتبة بين الصدق والكذب، لأنه هو يقول إنه رسول الله، فإما أن يكون صادقًا في هذا وإما أن يكون كاذبا، وعلى كلٍ فإنه لا يضركم أن تصدقوه، ولهذا قال ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ يعني: عليه ضرر كذبه، وسوف يوقع الله به الخزي والعار لو كذب على الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥ﴾، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وأن الله تعالى يهتك سره ويبين كذبه، فيكون كذبه عليه.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ إن يك صادقًا في أنه رسول وكذبتموه أنتم أصابكم بعض الذي يعدكم من العذاب عاجلًا، وكذلك يصبكم في الآخرة آجلًا، فصار الآن الخطر عليه إن كان كاذبًا وأنتم سوف تسلمون، والخطر عليكم إن كان صادقًا وهو سوف ينجو، وهذا لا شك أنه من تمام نصحه أن الرجل تنزل مع آل فرعون إلى هذا التنزل، لم يقل: إنه صادق مع أنه كان يؤمن به، لكن هذا من باب التنزل، وهنا قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يقل أتقتلون موسى، إبعادا للتهمة عن نفسه، لئلا يظن أحد أنه كان يعرف موسى وأنه يدافع عنه عن معرفة، ولكنه أتى برجل النكرة إبهامًا للأمر وشدة في إخفائه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد ﴿كَذَّابٌ﴾ أي: ذو كذب، وهل هذه الجملة تعليلية هل هي تعود على موسى أو تعود على فرعون؟ نقول: هي صالحة للأمرين، كل من كان مسرفا كذابًا فإن الله لا يهديه، هذا الوصف ينطبق على فرعون، فإنه مشرك متجاوز للحد كذاب مدع ما ليس له، يقول: أنا ربكم الأعلى وكذب في ذلك، فهو مسرف كذاب، كذلك أيضًا في مقام المجادلة والتنزل تنطبق على موسى لو كان كاذبًا فإنه يكون مسرفًا لتجاوزه الحد وادعاءه الرسالة وهو كاذب، وكذلك كذاب لأنه ادعى ما ليس صادقًا فيه، وعلى كل حال فالجملة صالحة لأن تكون منطبقة على فرعون وهي منطبقة عليه حقيقة، أو على موسى من باب التنزل مع الخصم.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** قوة موسى عليه الصلاة والسلام وصراحته؛ حيث أعلن أمام مهدديه بالقتل بأنه عاذ بالله ربه وربهم، لقوله ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم﴾.

٢- ومنها: قوة توكله عليه الصلاة والسلام، حيث اعتمد على الله أمام هذا الطاغية الذي يسهل عليه أن ينفذ ما توعد به.

٣- ومنها: وصف فرعون بهذين الوصفين الذميمين: التكبر وأنه لا يؤمن بيوم الحساب.

٤- **ومن فوائدها:** العدول إلى العموم دون الخصوص؛ لأنه لم يقل: إني عذت بربي وربكم من فرعون، ولكن قال ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾؛ ليعم فرعون وغير فرعون.

٥- **ومن فوائدها:** أنه إذا جاءت بصيغة العموم وبالوصف انطبقت على فرعون، وبينت أنه متصف بالاستكبار، وكذلك الكفر بيوم الحساب.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات يوم الحساب وهو يوم القيامة، والحساب ليس مناقشة الإنسان على عمله، لأن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عذب»[1]، لأن الله لو ناقشك لكانت نعمة من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٠٣) ومسلم (٧٩/ ٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

نعمه تغطي جميع الحسنات التي قمت بها، بل إن حسناتك التي قمت بها نعمة من الله عز وجل تحتاج إلى شكر، ثم إذا وفقت لشكرها تحتاج إلى شكر آخر للتوفيق إلى الشكر، ثم هلم جرًّا.

وهذا صحيح، فالحساب: هو أن الله تعالى يخلو بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه فيقول: عملت كذا عملت كذا عملت كذا، فإذا أقر قال: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم».

أما الكفار فإنهم لا يحاسبون محاسبة وتوزن حسناتهم وسيئاتهم، لأنه ليس لهم حسنات ولكن تحصى أعمالهم، ويوقفون عليها ويخزون بها، يعني: يذلون بها، ويقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا هو حساب الكفار وذاك حساب المؤمنين.

ثم قال تعالى ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي العناية بمضمون القصة دون عين من وقعت عليه، لقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ وإلا فنحن نعلم أن الله يعلم من هذا الرجل ويعلم اسمه ونسبه وكل شيء يتعلق به، لكن الله ذكره إبهامًا إشارة إلى أن المهم مضمون القصة دون عين من وقعت عليه، إلا إذا كان في تعيينه مصلحة.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه قد يكون من صلب المعادين من هو من الأولياء؛ لقوله هنا: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ سواء قلنا من قرابته أو من أتباعه على دينه، فإنه يدل على أن الله على كل شيء قدير، وأنه قد يهيئ الإيمان لمن كان بين قوم منغمسين في الكفر.

٣- **ومن فوائدها:** جواز إخفاء الإيمان، إذا خاف الإنسان على نفسه، لقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، ولكن إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش مؤمنًا إلا بالكتمان فهل تجب عليه الهجرة؟ الجواب: نعم، في دين الإسلام أن من كان لا يستطيع أن يعيش إلا مخفيًا دينه فإنه تجب عليه الهجرة، لكن بشرط أن يكون قادرًا عليها، فإن كان عاجزًا فإن الله قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

٤- **ومن فوائدها:** شدة إنكار هذا المؤمن على فرعون الذي هدد بالقتل، لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** الإنكار على من عمل عملًا بدون سبب يقتضيه، تؤخذ من قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وهذا ليس سببا للقتل، بل على الأقل يُترك وشأنه، أما أن يقتل لهذا السبب فإن هذا منكر ولا يجوز إقراره.

٦- **ومن فوائدها:** العدول عن التعيين خوفًا من التهمة، وإن شئت فقل: استعمال المعاريض؛

لقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يقل أتقلتون موسى، لأنه لو عينه باسمه لاتهمه الناس بأن له صلة به وفسد ما يريد، ولكنه أبهمه وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخره.

٧- **ومن فوائدها:** أن موسى عليه الصلاة والسلام أتى بالآيات البينة التي يؤمن على مثلها البشر، لقوله: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** قوة إيمان هذا الرجل؛ حيث جادل هؤلاء بإنكار ربوبية فرعون ضمنًا، تؤخذ من قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ فجابههم بأن لهم ربًّا سوى فرعون، وهذا يدل على قوة هذا الرجل، أما قوله: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فليس فيها دليل، لأن ربوبية الله عز وجل لموسى ما فيها شيء من الإنكار، لكن ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واضح أنه يعرض بأن فرعون ليس برب وأن الرب هو الله وهذا يدل على كمال شجاعة هذا الرجل.

٩- **ومن فوائدها:** استعمال والتقسيم، يعني الترديد بين حالين أو أحوال لا يزيد الأمر عليهما أو عليهن، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾.

١٠- **ومن فوائدها:** مراعاة الخصم فيما يؤلفه ويقربه؛ لأنه بدأ بما كانوا يعتقدون وهو كذب موسى، فبدأ بالكذب قبل أن يبدأ بالصدق؛ من أجل تأليف وبيان أن الرجل ليس عنده تعصب لموسى، ولهذا لم يبدأ بالصدق الذي هو أحد الاحتمالين.

١١- **ومن فوائدها:** جواز التورية، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ لأننا نعلم أن هذا الرجل يعتقد أنه صادق، لكنه أتى بهذا الكلام تورية بأنه ليس بمؤمن به وذلك من أجل قبول كلامه؛ لأنهم لو شعروا بأنه مؤمن به لقتلوه، مؤمن بموسى وهو من آلهم، ولكنه أتى بالكلام الدال على التورية.

١٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن شؤم الكذب يعود على الكاذب وهو كذلك، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾، وقد فضح الله عز وجل الكاذبين المفترين عليه فضحهم في الدنيا وسيفضحهم في الآخرة.

١٣- **ومن فوائدها:** قوة إيمان هذا الرجل؛ لكونه يعتقد ويؤمن بأن بعض الذي وعدهم موسى عليه الصلاة والسلام سوف يصيبهم إذا كان صادقًا وقد كذبوه، لقوله: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** أن المسرف الكذاب ـ أي المتجاوز للحد بفعله وبقوله ـ في قوله لأنه كذاب، وبفعله؛ لأنه مسرف فإنه بعيد من الهداية، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وحينئذٍ نسأل هل المراد هداية التوفيق أو هداية البيان والإرشاد؟ هداية التوفيق، لأن الله قد بين للمسرف الكذاب ولغيره، لكن وفق من شاء من عباده وخذل من شاء.



قال الله تعالى:

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]

التفسير

قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تأمل حسن خطاب هذا الرجل كان في الأول ينكر عليهم، ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ولما أراد أن يتودد إليهم وأن يبين لهم نعمة الله عليهم تلطف في الخطاب، فقال: يا قوم وكأنه واحد منهم وهذا عن لطف في الخطاب في جانب الدعوة من الأمور التي أمر الله بها شرعًا، والتي يهدي بها الله من شاء من عباده قدرًا، فقد قال الله لموسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ ثم أيضًا إن القدر يؤيد هذا، فكم من إنسان لان بسبب القول اللين وكم من إنسان اهتدى بسبب العدوان في القول، ولهذا تجد هذا الرجل من حكمته أنهم لما هددوا موسى بالقتل أنكر عليهم علانية فقال: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ولما أراد أن يبين لهم النعم ويدعوهم إلى الحق قال ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [غالبين] أي: عالين على أهلها.

وقوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: أنتم الآن مالكون، وتأمل أيضًا حسن هذا الخطاب والتحرز ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: والمستقبل لا يعرف، قد يزول ملكك، لكن اليوم أنتم في نعمة غالبين في الأرض ظاهرين على أهلها، فيجب أن تشكروا هذه النعمة.

وقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال المفسر [أرض مصر]، وعلى هذا فـ(أل) في الأرض للعهد الذهني أي الأرض المعهودة، أرضكم.

قال: [﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ عذابه إن قتلتم أولياءه ﴿إِن جَآءَنَا﴾] ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ من هذه استفهام بمعنى النفي أي: لا أحد ينصرنا، والنصر هنا بمعنى المنع، أي: فمن الذي يمنعنا من بأس الله، والبأس هو العذاب.

وقوله ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي إن نزل بنا، فهل أحد ينصرنا؟ حتى لو كنا اليوم ظاهرين في الأرض وكنا ملوكًا، فإنه إذا نزل بنا بأس الله لا أحد يمنعنا، وقول المفسر [إن قتلتم أولياءه] قد يقال: إن هذا الذي عينه المفسر يدل عليه السياق؛ لأنه أنكر عليهم أن يقتلوا موسى، وقد يقال إن المراد إن بقيتم على الكفر والعدوان ومنه قتل موسى، وهذا أصح وأعم، يعني: ما الذي ينصرنا من بأس الله إن جاءنا لكوننا مستحقين لهذا العذاب بالكفر وقتل أوليائه.

قال فرعون مجيبًا لهذا الرجل: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أكذب قول في الأرض هو هذا، ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يعني: ما أرسل لكم شيئًا حتى تروه إلا ما أرى أنه الحق، وهذه دعوى كاذبة؛ لأنه يعلم أن الحق في اتباع موسى، كما قال له موسى: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، لكن جحدوا ظلمًا وعلوًا، وهو يقول: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أرى أنه صواب، وأنه حق وهذه الدعوى كاذبة، وإن كان أراد ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أنه من مصلحتي فهذا صادق لكنه غاش، وعلى كل حال فالجملة مؤاخذ عليها، لأنها إما كذب وإما غش، إما كذب إن كان يقول: ما أريكم إلا ما أرى من الصواب، وإما غش إن كان يرى أن الحق خلاف ما أراه، لكنه لمصلحته أراهم ما رأى، قال: [ما أشير عليكم معناها ما أشير عليكم إلا ما أشير به على نفسي وهو قتل موسى]، هذا أيضا تخصيص في غير محله، لأن فرعون لا يهمه أن يقول: أقتل موسى أو لا تقتله؛ لأنه مصمم على ما يريد، لكن أهم شيء ألا يكفروا به ألا يبدل دينه، وعلى فالمقصود بقوله: ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ في بقائكم على دينكم، هذا معنى الآية، لأن أصل الإنكار على موسى والتهديد بقتله أنه خاف أن يبدل الدين.

وقوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يعني: ما أدلكم إلا على سبيل الرشاد، الرشاد ضد الغي، ولهذا يقال: رشد وغي، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فالرشاد هو ضد الغي يعني الصواب والسداد، وسديد بمعنى طريق، وهو صادق في هذا أو كاذب؟ أكذب الكاذبين، لأنه ليس يهديهم سبيل الرشاد بل يهديهم سبيل الغي والعناد والاستكبار والكفر، فصار كاذبا في الجملتين: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ إذا قلنا إن المعنى: إلا ما أرى إلا ما هو صواب، ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هو أيضًا كاذب؛ لأنه بلا شك يهديهم سبيل الغي والفساد.

الفوائد:

١- **في هذه الآية:** حسن خطاب هذا الرجل المؤمن، حين تلطف في الدعوة إلى الله عز وجل، لقوله ﴿يَٰقَوۡمِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للداعية أن يذكر المدعوين بنعمة الله عليهم؛ حتى يخضعوا ويشكروا هذه النعمة، لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** حسن احتراز هذا الرجل المؤمن، لقوله: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: وأما في المستقبل فقد يزول ملكك، لكن اشكر النعمة الحاضرة.

٤- **ومن فوائدها:** أن الاعتبار بالحال بما هي عليه الآن، أما المستقبل فقد تتغير الأحوال، لكن نحن مخاطبون ومأمورون بأن ننظر إلى الحال الحاضرة الآن.

يتفرع على هذه المسألة مسألة اجتماعية وهي: أن بعض الناس يخطب ابنته رجل غير مستقيم

يعني: ليس كافرًا، لكنه فاسق يشرب دخانًا أو حلق لحية أو يتعامل بالربا أو ما أشبه ذلك، فيأخذه الطمع ويقبل الخطبة، ثم يقول: لعل الله يهديه، أو لعل هذه البنت الملتزمة تسعى في هدايته، فيقال: نحن لا ننظر للمستقبل، المستقبل له الله، بل ربما أن هذا الرجل يغوي المرأة؛ لأنه هو أقوى منها جانبًا، فأنت الآن مأمور بالنظر إلى الحال الحاضرة، أما المستقبل فلست مأمورًا بالنظر إليه ولا يجوز أن تنظر إليه؛ لأنه مستقبل غيب، فأنت الآن اعرف الحال التي أنت عليها وتصرف على ما هي عليه الآن، هذه نأخذها من قول هذا الرجل المؤمن: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ واعلموا أنني إذا قلت حسن خطاب الرجل أو احترازاته أو ما أشبه ذلك ليس معناه أني أخبركم عن قصة مضت وتاريخ مضى، لا، بل أريد أن تأخذوا من ذلك عبرة تسيرون عليها، لأنه ما دام نثني على هذا الرجل بخطابه ومعالجة الأمور فإنه يعني أننا نحث على اتباع طريقه.

أن آل فرعون قد غلبوا في مصر وظهروا عليها ولم يكن لهم منازع، يؤخذ من قوله: ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومن ثم تكبر فرعون ولم يخضع لموسى لأن موسى من بني إسرائيل، وهم قلة أذلة في مصر والغلبة للأقباط.

أن الظهور والغلبة قد يكون سببًا للأشر والبطر إلا من وفقه الله، بعض الناس إذا أعطاه الله سبب رفعة لا يزيده ذلك إلا تواضعًا للحق وللخلق، وبعض الناس إذا أعطاه الله رفعة صار هذا سببًا في تعاليه على الخلق واستكباره عن الحق، وهذه محنة يجب على المرء أن يعالج نفسه فيها، لا إذا أعطاه الله مالا يذم ويعلو ويستكبر، فإن الذي أعطاه هذا المال قادر على أن يتلفهم عليه، لا يقول إذا أعطاه الله علما أنا عالم وأنا من أنا ثم يتعلى عن الحق وعلى الخلق، بل يجب على الإنسان كلما آتاه الله علما أن يزداد تواضعًا هذا ما أقوله وأرجوا أن أتصف به وإياكم، فعلى الإنسان أن يعرف هذه المسألة، وأن الله قد يبتلي الإنسان بالشيء الذي قد يكون داعيًا لعلوه واستكباره عن الحق وعلى الخلق، فليحذر هذا الأمر.

قوة إيمان هذا الرجل، وأنه لا دافع ولا مانع لما أراد الله، لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، وهذا يدل على كمال يقينه رحمه الله ورضي عنه، حيث آمن بأنه إذا جاء بأس الله فإنه لا مرد له.

التلطف بالخطاب حتى يُشعر الإنسان المخاطَب وكأنه هو أول من يراد بهذا الخطاب؛ لقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾، ولم يقل فمن ينصركم من بأس الله إن جاءكم، كل هذا من باب التنزل مع هؤلاء وإشعارهم بأنه واحد منهم، وقد يقال: إن في هذا إشارة إلى أن العذاب إذا نزل يعم الصالح والفاسد، ويكون قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يراد به حقيقته، أي أنه هو سيصيبه ما أصابهم، ويكون هذا شاهده قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، وهذا ليس ببعيد.

أنه إذا نزل بأس الله فإنه لا مرد له، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾.

وهل يستثنى من هذا أحد؟ لا، فكل من أتاهم بأس الله فإنهم لن ينجوا ولو آمنوا، فهل استثنى من هذا أحد؟ لا إلا قوم يونس ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ يعني إذا نزل بها العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ ولماذا خُص قوم يونس؟ لحكمة؛ لأن الله عز وجل لا يمكن أن يخص أحدًا بشيء إلا لحكمة، فالناس عنده سواء ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، الحكمة أن يونس عليه الصلاة والسلام خرج من قومه مغاضبًا قبل أن يؤذن له، وكأنه لم يستكمل الدعوة فلم تقم عليهم الحجة الكاملة، ولهذا نجوا حين آمنوا بعد رؤية العذاب، فصار إنجاؤهم له حكمة وهو خروج نبيهم مغاضبًا قبل أن يؤذن له فكأنه لم يستكمل إقامة الحجة عليهم، فصار في هذا نوع عذر لهم فأنجاهم الله عز وجل.

لكن يشكل على هذا آية دائما إذا قرأتها أقول كيف يكون هذا؟ قال نوح لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ كيف قال: إنهم إذا آمنوا يغفر لهم من ذنوبهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى ثم قال: إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر؟ فكان في الأول يقول: يؤخركم إلى أجل، وفي الثاني يقول إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر؟ يعني أحذركم من العذاب، فإنه إذا جاء لا يؤخر، لكن إذا آمنتم أخركم إلى أجل مسمى، وعلى هذا فلا تناقض في الآية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ تمويه فرعون وغشه وكذبه وضلاله لأنه خدع قومه بقوله ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ وكذب في قوله ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ قطعًا وكذب في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ على أحد الاحتمالين.

أن أهل الباطل قد يكون لديهم زخرف من القول غرورًا؛ لأن مثل هذا الزعيم الذي وصلت به الزعامة إلى أن جعلوه ربا إذا قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سوف يخدع قومه بلا شك، ولهذا يجب علينا الحذر من خداع بعض الناس إذا قالوا: نحن نريد كذا ونريد كذا من الإصلاح، فيجب أن ننظر إلى أفعالهم هل تشهد أفعالهم لأقوالهم؟ إن كان الأمر كذلك فهم صدقة بررة، وإن كانوا بالعكس فهم كذبة غششة يخدعون بزخرف القول غرورًا، ولهذا كان الإنسان الذي لديه فِراسة لا يغتر بظاهر الأقوال، وإنما يقيس ما يقوله أو يعتبر ما يقوله بما يفعله، فإذا رأى أن أفعاله تخالف أقواله علم أنه كاذب غشاش، وإذا رأى أن أفعاله تصدق أقواله صار صادقًا وصار مخلصًا لموافقة باطنه لظاهره.

أن كل أحد يعرف أن الرشد مطلوب، وأن الغي مرفوض، تؤخذ من الجملة الثانية، إذن هم

يعرفون أن الرشاد أمر مطلوب، كل إنسان حتى الكافر يرى أن الرشد أمر مطلوب، فما هو الرشد الحقيقي هل هو اتباع الهوى أم اتباع الهدى؟ الثاني اتباع الهدى لكن التمويه مشكل.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]

التفسير

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في الأول قال: ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ وهنا قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ فنقول لماذا كرر هذا الوصف لهذا الرجل؟ لطول الحديث والفصل قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾، أما اختلاف الجملتين فإن الثانية تؤكد الأولى، بأن هذا الرجل قد اصطبغ في الإيمان وحقق الإيمان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ (يا قوم) يعني: بذلك فرعون وقومه وهذا من باب التلطف في المقال، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: الطوائف السابقة وكأن هذا الرجل ملهم عنده علم بأحوال الأمم السابقين، وسيأتي إن شاء الله الكلام على فائدة هذه الجملة ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [أي: يوم حزب بعد حزب]، ثم أبدل منه قوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ دأب بمعنى عادة، وذكر قوم نوح لأنه هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وكل هؤلاء المتقدمون بعيدو العهد، قبل موسى وقبل فرعون، فهم من أوائل الرسل، ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾ عاد معطوفة على قوم، ولا يصح أن تكون معطوفة على نوح؛ لأنه لو كانت معطوفة على نوح لكان المعنى مثل قوم عاد، ولا يستقيم الكلام، بل مثل عاد وهم قوم هود، وثمود قوم صالح.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من الأمم، وسيأتي أنه أشار إلى يوسف عليه الصلاة والسلام بن يعقوب بن إبراهيم، يقول [مثل بدل من مثل قبله أي: مثل جزاء عادة من كفر قبلكم من تعذيبهم في الدنيا]؛ إذن مثل دأب ما هو مثل عادتهم إلا إذا أريد إضافتها إلى المفعول به أي: مثل العادة التي أوقعها الله بهم، لكن كأن المؤلف جعلها مضافة إلى الفاعل، وأنها على تقدير: مثل جزاء عادتهم، لأن الجزاء من الله، والعادة من هؤلاء الأقوام من الأحزاب، العادة عادة الأحزاب، والعقوبة عقوبة الله، فإما أن نقول إن الكلام على تقدير: مثل عقوبة عادة قوم نوح إلى آخره، أو نقول ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: مثل العادة التي فعلها الله بهم، والمعنى واحد، وأن المراد أنه يخاف عليهم مثل هذه الأيام التي هي عقوبة لهؤلاء الذين كذبوا رسلهم.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ ما: نافية تعمل عمل ليس؛ لتمام الشروط، ولفظ الجلالة اسمها، ويريد: جملة هي خبرها، ولو كانت اسمًا لكان التقدير: وما الله مريدًا ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ الظلم يتناول شيئين: إما الزيادة في الآثام، وإما النقص في الحسنات، وكله ممتنع بالنسبة لله عز وجل، فلا يمكن أن يقع منه ولا يمكن أن يريده، لكمال عدله.

الفوائد:

١-**من فوائد الآيتين:** شدة خوف هذا الرجل من عقاب الله، وهذا يدل على كمال الإيمان لأنه لا يخاف أحد من شيء إلا وهو مؤمن به.

٢- أن عند هذا الرجل علما من نبأ الأولين، لقوله: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أنه ينبغي للإنسان أن يكون عنده علم بأحوال الأمم السابقة؛ من أجل أن يكون معتبرًا بمن مضى فيمن بقي، وعلى هذا فعلم التاريخ علم مهم، ولكن يجب أن نعلم أن التاريخ أصابه شيء من الوضع - أي من التحريف والتغيير والكذب والزيادة والنقص -، فعلى الإنسان أن يحتاط في هذا حتى لا ينقل أو لا يروي إلا الصحيح.

٣- **ومنها:** أن قوم نوح وعاد وثمود كانوا أول الأحزاب، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

٤- **ومنها:** انتفاء إرادة الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ وإذا انتفت الإرادة انتفى الفعل قطعًا؛ لأن الله يفعل ما يريد، فإذا لم يرد الظلم انتفى الظلم، على أنه في آية أخرى نفى الظلم نفسه فقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيكون الله تعالى قد نفى الظلم عن نفسه ونفى إرادة الظلم؛ وذلك لكمال عدله، وهذه الصفة من الصفات التي يسمونها الصفات السلبية أو الصفات المنفية، ولدينا قاعدة في باب الأسماء والصفات: أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله أبدًا، كل نفي في صفات الله فإنه يتضمن شيئين: أحدهما نفي ما نُفي عن الله، والثاني: إثبات كمال ضده، فيقال: لا يظلم لكمال عدله، وإن شئت فقل: لكمال عدله لا يظلم، لأن العدل إذا لم يكن عدله كاملًا قد يظلم في بعض الأشياء، أما الرب عز وجل فإن عدله كامل لا يمكن أن يدخله ظلم بأي وجه من الوجوه، لكن هذا الظلم المنفي عن الله لكمال العدل هل هو مستحيل لذاته أو جائز، لكنه مستحيل على الله تعالى لكماله؟ الثاني؛ خلافًا للجهمية الذين قالوا: إن الظلم مستحيل على الله لذاته - لذات الظلم -، لأنه إذا كان مستحيلًا لذاته لم يكن مدحًا، مستحيل لذاته لا يمدح من استحال عليه، على ذلك، لأنه مستحيل، وهم يقولون: إنه مستحيل لذاته؛ لأن الخلق كله ملكه ويفعل في ملكه ما يشاء، ومن تصرف في ملكه، فإنه لا يقال: إنه ظالم ولو قدم شيئًا على شيء، أو نقص شيئًا عن حقه، ولكننا نقول: إن الله صرح بأنه حرم الظلم على نفسه، وهذا يدل على أن الظلم في نفسه ممكن عقلًا، لكنه حرمه على نفسه لكمال عدله.

والخلاصة: أن من قواعد الأسماء والصفات أنه لا يوجد النفي المحض في صفات الله، بل لا

يوجد نفي في صفات الله إلا لكمال ضده، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لماذا؟ لكمال قوته، لا لأن اللغوب لا يلحقه، لكن لكمال قوته لا يلحقه اللغوب، وليس المعنى أن ليس مما يمكن أن يلحقه اللغوب لا، لكنه مستحيل لكمال قوته، قال أهل العلم: وإنما قلنا بذلك؛ لأن النفي المحض عدم محض، النفي المحض نفيت شيء معناه غير موجود، والعدم المحض ليس بشيء فضلا عن أن يكون مدحًا؛ لأنه عدم، والعدم لا يمدح عليه، وإما أن يكون النفي متضمنًا لإثبات هذا الإثبات قد يكون عجزًا، فمثلًا إذا قلنا فلانا لا يظلم؛ لأنه غير قادر على الظلم فليس هذا يعني أننا مدحناه، بل هذا ذم له، كقول الشاعر:

قبيلة لا يغـــــدرون بذمـــــة ... ولا يظلمـــون الناس حبـة خردل

أول ما تسمع هذا الكلام تقول ما شاء الله هؤلاء أوفياء ذوو عدل، لكنه في الواقع ذم، يقول: إن هؤلاء ما يقدر الواحد منهم أن يغدر ولا يقدر أن يظلم.

والثاني يقول:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

يعني: أنهم إذا أتى إليهم الإنسان أحسنوا إليه، وإذا أساء إليهم غفروا له، وتجاوزا عنه لكن لكمال إحسانهم وكمال عفوهم أو لعجزهم؟ لعجزهم، ولهذا قال:

فليت لي بهم قومًا إذا ركبــوا ... شنــوا الإغـــارة فرسانًا وركبانا

ليت لي بهم أي: بدلهم، وهذا يدل على أنه ذمهم ذمًّا عظيمًا.

وقد يكون النفي لعدم صلاحية هذا الوصف لما نفي عنه، قد يكون نفي الشيء عن الشيء لأنه غير قادر وغير صالح لأن يوصف به، كما إذا قلت: الجدار لا يظلم، هل هذا مدح للجدار؟ لا؛ لأنه غير قادر ولا صالح للظلم أو عدم الظلم، فتبين بذلك أن الله تعالى لا ينفي عن نفسه شيئًا إلا لكمال ضد هذا المنفي، لا لأنه غير قابل له أو غير صالح في حقه أو ما أشبه ذلك من الناحية العقلية.

٥- **ومن الفوائد هذه الآية**: بيان نصح هذا الرجل المؤمن حيث حذر قومه من عذاب الله.

٦- **وفيه دليل على**: التلطف في الدعوة إلى الله، وأن الإنسان لا يستعمل في الدعوة إلى الله عاطفته؛ لأنه إن استعمل عاطفته أخذته الغيرة ففعل ما لا يحمد عقباه، وإنما يحكِّم العقل وينظر إلى العواقب والنتائج، ولا ضير على الإنسان إذا أصابه ذلٌّ في أو الأمر إذا كانت النتيجة طيبة، ولا يخفى ما حصل للنبي ﷺ وأصحابه في غزوة الحديبية من الشروط التي ظاهرها الإهانة، ولكنها كانت نتيجتها طيبة، حتى إن الله تعالى سماها فتحًا، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

فالحاصل: أنه يبغي للإنسان عند الدعوة إلى الله أن لا يحكم العاطفة، فتزل قدمه، ولكن يحكم العقل وينظر إلى العواقب والنتائج.

٧- **ومنها:** بيان أن ذكر الأمم السابقة ينتشر في الأمم اللاحقة، إما بواسطة الكتب المنزلة، وإما بواسطة التاريخ المنقول، ويدل لذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ لأنه لا يمكن أن يخوفهم بأمر لا يعرفونه، ولو كان الأمر كذلك لقالوا: ما هذه الأيام وما هذا الجزاء.

٨- **ومنها:** تحذير اللاحق أن يصيبه ما أصاب السابق، لقوله ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ ووجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى سنته في خلقه واحدة، هو لا يعذب هؤلاء لأنه يكرههم شخصيا، يعذب هؤلاء لأنه يكره عملهم فإذا وجد عملهم في آخرين فالكراهة حاصلة، واذكر قول الله تعالى ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ وحذر شعيب قومه أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم.

فالحاصل: أن الأمم لابد أن يتعظ اللاحق بالسابق؛ بناء على أن سنة واحدة.

انتفاء إرادة الله الظلم لعباده، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، ومعلوم أنها إذا انتفت الإرادة انتفى الفعل، فنفي إرادة الظلم نفي للظلم من باب أولى، كما أنه جاءت آيات صريحة في نفي الظلم عن الله عز وجل.

٩- **ومنها:** إثبات اتصاف الله تعالى بالنفي، أي أن الله يتصف بالصفات المنفية التي يعبر عنها بعض العلماء الصفات السلبية لأن النفي سلب.

ولكن إذا قال قائل: هل في النفي ثناء ومدح مع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فصفات الله تعالى كلها صفات كمال، والنفي عدم فهل يكون مدحا وثناء؟

الجواب نقول: أما بالنسبة لغير الله عز وجل فإنه لا يدل على الكمال ولا على المدح، وأما بالنسبة لله فيتعين أن يكون دالا على الكمال لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فكل نفي نفاه الله عن نفسه فإنه متضمن لكماله، دليلنا هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وإلا فالنفي المجرد لا يدل على الكمال إطلاقا بل أحيانا يدل على النقص.



قال الله تعالى:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا

هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ [غافر: ٣٢ - ٣٤].

۞ التفسير ۞

قال الله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ رضي الله عن هذا الرجل، خوَّفهم أولا بالعقوبة الدنيوية حين قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، ثم خوَّفهم من العقوبة الأخروية فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ قال المؤلف: [بحذف الياء وإثباتها] (التنادي) هذا إثبات، (التناد) هذا حذفها، أما إثباتها فعلى الأصل وأما حذفها فللتخفيف، والياء دائما تحذف للتخفيف مثل قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فأصلها: تستعجلوني وليست النون هنا نون الرفع، لأنها مكسورة فهي نون الوقاية وحذفت الياء تخفيفًا، ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ كلمة يوم هنا هل هي ظرف منصوبة على الظرفية والتخفيف إني أخاف عليكم العذاب يوم التناد؟ أو إن الفعل مسلط عليها فهي مفعول به؟ الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾، فجعل الخوف مسلط على يوم، لأن يوم تصلح لأن تكون مفعولا به وأن تكون مبتدأ وأن تكون خبر مبتدأ.

يقول: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [بحذف الياء وإثباتها أي يوم القيامة] هذا هو المراد به وأنا أشرت في كلامي على قواعد التفسير أن هناك تفسيرًا لفظيًا والثاني معنويًا، اللفظي يفسر اللفظ والمعنوي يفسر المراد، فهنا يوم التناد تفسيرها اللفظي أي: يوم يتنادى الناس بعضهم مع بعض، والمراد بها يوم القيامة، فإذا قلنا ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أي: يوم القيامة فهذا ليس تفسيرا لفظيا بل هو تفسير معنوي للمراد بالآية، طيب يقول ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [أي يوم القيامة يكثر فيه نداء أصحاب الجنة أصحاب النار وبالعكس]، والنداء بالسعادة لأهلها، والشقاوة لأهلها وغير ذلك، التناد يوم القيامة يكثر، فينادي الله الناس، والناس ينادي بعضهم بعضا، وأهل النار ينادون أهل الجنة، وأهل الجنة ينادون أهل النار.

والتنادي الحاصل يوم القيامة ليس كالتنادي الحاصل في الدنيا؛ لأنه بأصوات مزعجة وحزينة إذا كان أهل النار ينادون أهل الجنة وما أشبه ذلك، فهذا اليوم ذكَّر هذا المؤمن قومه به؛ ليحذروا من عذاب يوم القيامة.

ثم بين ذلك بقوله: [﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ عن موقف الحساب إلى النار، ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾].

وصف هذا اليوم بأوصاف أولا بأنه يوم التناد، ينادي الناس بعضهم بعضًا والله تعالى يناديهم أيضًا، ويتنادون بنداءات قد يكون بعضها مشغولًا لنا الآن، الوصف الثاني: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ يوم هذه بدل من قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أو عطف بيان، ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ (مدبرين) هذه حال مؤكِّدة لعاملها أو لصاحبها؟ مؤكدة لعاملها؛ لأن التولي هو الإدبار، وعلى هذا فهي حال مؤكدة لعاملها، يعني تولون يوم القيامة حال كونكم مدبرين تولون إلى أي شيء؟ إلى النار والعياذ بالله، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

فهم والعياذ بالله يولون مدبرين.

قال: ﴿مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ الجملة هذه جملة خبرية مبدوءة بها النافية والمبدل فيها قوله ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ لكن دخلت عليه (مِنْ) الزائدة [1].



قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]

التفسير [2]

قال تعالى: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾؛ لأنهم لو كانوا يجادلون لإثبات الآيات والإقرار بها لكانوا على سلطان، وقوله ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ قال المؤلف [برهان] أي بغير دليل، وذلك لأن السلطان كل ما يقوم به السلطان، ويختلف بحسب السياق، فالإمام الأعظم يسمى سلطانًا لأنه ذو سلطة، والدليل يسمى سلطانًا؛ لأن الآخذ به ذو سلطة، وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ أي بغير دليل، وهذا النعت أو الحال، يعني جملة ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ حال من فاعل يجادلون، هذا الوصف وصف لبيان الواقع، وليس وصفًا مقيدًا، والفرق أننا لو قلنا وصف مقيَّد صار الذين يجادلون في آيات الله لإبطالها أحيانًا يكون معهم سلطان وأحيانًا لا يكون معهم سلطان.

والواقع أنهم ليس لهم سلطان، والقيد المبين للواقع ليس له مفهوم، وهذا آتي في القرآن كثيرًا، وإنما المقصود به أي بالقيد المبين للواقع المقصود به الاستدلال، يعني: كأنه تعليل للموصوف، وانظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾

---

١ - بقية تفسير الآية (٣٤) غير موجود - فيما لدينا من مصادر -.

٢ - بداية تفسير هذه الآية الكريمة غير مسموع فيما لدينا من مادة علمية.

فقوله: ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ مبين للواقع وليس قيدًا؛ لأنه لا يمكن أن يدعو أحدٌ مع الله إلها آخر له فيه برهان، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، فإن هذا لا يعني أنه قد يدعون لما لا يحيينه، بل ولا يدعون إلا لما يحيينه، فيكون هذا كالتعليل لموصوفه الذي صار قيدا فيه، إذن ﴿بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ نقول: إنه وصف لبيان الحال والواقع وأنه لا سلطان لهم بذلك.

وعلى هذا فيكون كالتعليل لموصوف ـ وأعني الوصف هنا ما يشمل الحال وغير الحال ـ.

وقوله: ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ الجملة صفة لسلطان، وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ هذه الجملة خبر ومبتدأ، وقوله ﴿كَبُرَ﴾ أي: عظُم، وضمت الباء حتى صار من باب فعل لأنه أريد به التعجب، يعني ما أكبر مقتهم عند الله ﴿مَقْتًا﴾ هذه تمييز لكبر لأن كبر المراد به الجدال، يعني: كبر جدالهم مقتا، فهي مميزة للفاعل المحذوف، بل الفاعل المستتر وقوله المؤلف [كبر جدالهم مقتا] الصواب: أن يقال: كبر مقتهم مقتا عند الله، لأن التمييز مبين للفاعل المستتر.

وقوله: ﴿مَقْتًا﴾ المقت هو أشد البغض، وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ متعلق بكبر.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: وكذلك المؤمنون يكبر مقتهم لهؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان الذين يريدون إدحاض الحق وإظهار الباطل.

وقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إذا أطلق الإيمان فالمراد به ما يشمل الإسلام، وإذا أطلق الإسلام فالمراد به ما يشمل الإيمان، ولهذا لو سئلت فقيل لك هل الإسلام والإيمان مترادفان بمعنى واحد؟ فقل: هما عند الإفراد مترادفان، وأما عند الاقتران فإنه يفسر الإيمان بأعمال القلوب، والإسلام بأعمال الجوارح، مثال ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ففرق بين الإيمان والإسلام وبيَّن أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم ولكنه قريب الدخول؛ لأن لما تفيد القرب، إذن في حديث جبريل فرق بين الإسلام والإيمان لماذا؟ لأنهما اجتمعا، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

ففرق بين هذا وهذا، أي يخرجون مؤمنون، والبيت مسلم، لأن في البيت امرأة كافرة، وهي امرأة لوط، فهي في ظاهر الحال مسلمة مستسلمة؛ لأنها لا تظهر أنها كافرة، كما قال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ولكن حينما أراد الله عز وجل أن ينجي من ينجي من قوم لوط أنجى المؤمنين فقط وأما المرأة بقيت مع قومها وهلكت.

يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ أعوذ بالله، كذلك مرت علينا قريبًا وقلنا مثل هذا الترتيب يكون إعرابه كالتالي: الكاف اسم بمعنى مثل، وهي مفعول مطلق للفعل الذي بعدها فالعامل فيها الفعل الذي بعدها، ويطبع هو الفعل العامل، وعليه فنقول مثل هذا

الطبع يطبع الله، وأما قول المؤلف رحمه الله [مثل إضلالهم] ففيه نظر، وإن كان يلزم من الإضلال الطبع، لكن الأحسن أن يفسر بما يطابق العامل فيقال: مثل هذا الطبع يطبع الله، قال: [(يطبع) يختم] الطبع هنا للختم كأن الله جعل على قلوبهم غلافًا ثم ختم عليه كما يختم على الوثائق، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قال: [﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ بالضلال] يقال فيها كما قيل فيما سبق بأن المراد يطبع الله بالطبع على القلوب على كل قلب متكبر.

وقوله: [﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ بتنوين قلب ودونه]، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ﴾، و﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ، والفرق أنه على قراءة التنوين يكون التكبر وصفًا للقلب وعلى قراءة الإضافة يكون الطبع على قلب المتكبر، وليس القلب هو المتكبر، والمعنى واحد؛ لأنه إذا تكبر القلب تكبرت النفس؛ لقول النبي ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[(١)].

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أو ﴿قلبٍ متكبر﴾، ما هو التكبر؟ التكبر معناه الترفع يعني أن الإنسان يترفع، وهو نوعان: تكبر على الخلق، وتكبر عن الحق، وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[(٢)]، (بطر الحق) يعني: رده وعدم الإذعان له، (وغمط الناس) يعني: احتقارهم، فيرى نفسه أنه فوق الناس، هذا هو الكبر ـ والعياذ بالله ـ، ومعلوم أن مَنْ غمط الحق وازدراه فإنه لا يأخذ به، إذ كيف يأخذ بشيء يرى أنه نقيصه، وكذلك من غمط الناس، فإنه لا يعدل فيه بل يعاملهم بالكبرياء والعياذ بالله، فيكون الطبع حقيقًا بمثل هذا القلب، وقد أخبر النبي ﷺ أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر[(٣)].

الفوائد:

١ـ **من فوائد الآية:** كراهة الله سبحانه وتعالى للذين يجادلون في آيات الله لأجل إبطال الحق، لقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

٢ـ **ومنها:** أنه لا سلطان لكل إنسان جادل لإدحاض الحق وإظهار الباطل، يؤخذ من قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾.

٣ـ **ومنها:** تقوية قلوب المجادلين بالحق، ومعلوم أن الجدال يكون من طرفين فالمجادل في آيات الله لإبطالها هذا لا حجة له يكون الخصم المقابل له الآخر يكون له حجة؛ فإذن إذا علم المجادل الذي يريد إثبات الحق وإبطال الباطل أنه لا سلطان لخصمه فإنه سوف يقوى قلبه ويزداد ثباته.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧/ ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

فيستفاد منه بطريق المفهوم أن المجادل في آيات الله لإثباتها سيكون معه السلطان والقوة ولكن هل كل من معه حجة يستطيع أن يحتج بها؟ لا قد لا يستطيع، هو يعلم أنه على الحق لكن لا يستطيع أن يجادل بها، ولهذا ينبغي للإنسان أن يعرف ما عند الأقوام من الباطل ليتمكن من رده، أما كونه لا يقرأ الباطل ويقول أنا كل ما ورد علي من باطل فعندي قدرة على دفاعه فهذا قد يخذل الإنسان في مكان يجب أن ينتصر فيه، فلابد من أن يعرف الإنسان الباطل من أجل أن يرد عليه، ولهذا نرى العلماء المحققين يقرأون كتب المناطق والفلاسفة وغيرها.

ثم يردون عليها، وهذا حينما يكون في رجل رسخت قدمه في العلم، أما رجل ابتدأ طالبًا فهذا لا نشير عليه أن يقرأ كتب أهل الضلال، وذلك لأنه ليس عنده منعة فيُخشى أن يتأثر بهذه الكتب فيضل، لكن الراسخ في العلم نقول: اقرأ حتى تعرف كيف ترد على هؤلاء.

٤- **ومنها:** أن من جادل بحق فليس بمذموم، لقوله ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ إذ لو كان لهم سلطان لكانوا على حق، لكن ليس لهم سلطان.

٥- **ومنها:** إثبات المقت لله عز وجل وأنه يتفاضل، فيكون مقته على شخص أو طائفة أكبر من مقته على شخص أو طائفة آخرين، يؤخذ من قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهل هذا المقت حقيقة أو يراد به لازمه وهو العقوبة؟

الجواب: الأول هذا مذهب أهل السنة والجماعة، أنهم يقولون: كل ما وصف الله به نفسه فهو على الحقيقة، لكنه يجب أن نعلم أنه لا يماثل صفات المخلوقين؛ لأن الله أثبت ونفى، قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وهذه قاعدة جادة عندنا امش عليها في كل ما وصف الله به نفسه، لا تقل: هذا لا يراد به ظاهره، كل ما وصف الله به نفسه، فإنه يراد به ظاهره لكن ينزه عن مماثلة المخلوقين.

إذن الله سبحانه وتعالى يَمقُت ويُبغض ويكره ويحب حقًّا على حقيقته، ولكنه لا يماثل صفات المخلوقين.

وذهب أهل التعطيل الذين يحكمون على الله بعقولهم لا بكلامه وكلام رسوله إلى أن مثل هذه الأوصاف يجب وجوبًا أن تؤول إلى لوازمها، فيقولون مثلًا: المقت المراد به الانتقام والعقوبة، وليس البغض أو الكراهة أو الأشد من ذلك.

فيقال لهم: إذا فسرتم ذلك بالعقوبة ارتكبتم محظورين: المحظور الأول: إخراج كلام الله عن ظاهره، والمحظور الثاني: إثبات معنى لا يراد به، وهذا كله تحريف، نقول إنه ارتكب محذورين، المحظور الأول: إخراج الكلام عن ظاهره، وهذه جناية لا شك حيث سلب اللفظ معناه، والثاني: إثبات معنى لا يراد به أي لا يراد باللفظ، وهذا عدوان أيضًا، فكل مؤول فإنه يرتكب هذين المحذورين، والعجب أنهم يسمون أنفسهم أهل التأويل، والصواب أنهم أهل التحريف،

لكن هم تسموا بهذا الاسم تلطيفًا لما هم عليه من الباطل، لأن التأويل يراد به الحق ويراد به الباطل، فإذا أولنا الكلام بما يريده به المتكلم، فهذا حق، لكن بخلافه هذا باطل، وهذا هو الذي هم عليه ولكن عدلوا عن اسم التحريف إلى اسم التأويل، وانظر إلى دقة عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «العقيدة الواسطية» قال: (من غير تحريف ولا تعطيل)، ولم يقل من غير تأويل مع أن أكثر الذين يتكلمون في العقائد أو يكتبون في العقائد يقولون: من غير تأويل، لكن ما قاله هو الصحيح، لأن كل تأويل لا يدل عليه الدليل فهو تحريف.

إذن نحن نثبت لله بأنه يمقت ويفرح ويبغض حقًّا على حقيقته، وأما العقوبة فهي من لازم ذلك، ولهذا قال شيخ الإسلام وغيره: أنتم إذا أثبتم أن الله يعاقب، فقد أثبتم أن الله يكره بطريق اللزوم، أليس كذلك؟ بلى إذ لا يعاقب إلا من يكرهه، لا يمكن أن يعاقب من يحبه، فأنتم لما أقررتم بإثبات الكراهة أو المقت وقعتم فيه من وجه آخر، نقول: إذا أثبتم العقوبة فلا عقوبة إلا بعد مقت وكراهة، وهذا أمر ضروري؛ لأنه لا يمكن لأحد يحب شخصًا أن يقوم ويضربه.

٦- **ومنها:** إثبات العندية لله ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ثم العندية نوعان: عندية وصف وعندية قرب، فقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]

هذه عندية قرب، وقوله هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عندية وصف؛ لأن المقت ليس شيئًا منفصلًا بائنًا عن الله حتى يكون عندية قرب، بل هذا عندية وصف كما تقول للشخص أنت عندي عزيز، تقوله وهو بعيد منك، وليس المعنى أنت عندي عزيز يعني: قريب لا هذا عندية وصف، أي أن عزتك عندي قائمة فيَّ.

٧- **ومنها:** أن ما يكرهه الله، فإن المؤمنين يكرهونه، لقوله: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذه علامة الإيمان خذها قياسًا وميزان عدل، متى رأيت من نفسك أنك تكره ما يكرهه الله وتحب ما يحبه الله، فذلك الإيمان، دل عليه هذه الآية وغيرها من الآيات والأحاديث ودل عليه العقل أيضًا؛ لأن من كمال المحبة والإيمان أن تحب ما يحبه من تحب وتكره ما يكرهه.

٨- **ومنها:** فضيلة الإيمان حيث يكون المؤمن دائما مع الله عز وجل في محبة ما يحب وكراهة ما يكره.

٩- **ومنها:** التحذير من الكِبْرِ وأنه سبب للطبع على القلب والعياذ بالله، لقوله ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾.

١٠- **ومنها:** التحذير من الجبروت والتعاظم على الغير والشدة عليه وما أشبه ذلك، لقوله ﴿كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾؛ إذن في الآية التحذير من الكبر والجبروت.

١١- **ومنها:** الرد على من قال: الكمال أن تتصف بصفات الكامل يعنون الله، ولا أكمل من الله،

نقول: هذه قاعدة من أفضل القواعد، ولا يمكن للإنسان أن يجاري الله في أوصافه، فالتكبر والجبروت والتعالي والتعاظم بالنسبة لله صفة كمال، وبالنسبة لنا صفة نقص، ولهذا بطلت هذه القاعدة التي لا أساس لها من الصحة حتى إن بعضهم وضع حديث قال: «تخلقوا بأخلاق الله»، هل نسمي أوصاف الله أخلاقًا؟ أبدًا لا نسميها؛ لأن كلمة أخلاق قد تدل على خلق كسبي، فالأخلاق نوعان: غريزي وكسبي لا إشكال في هذا، ولهذا لما قال الرسول ﷺ: يا أشد بن عبد القيس: «إن فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة»، قال: يا رسول الله أخلقان تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما؟ قال: «بل جبلك الله عليهما»، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب[1]، أو كلمة نحوها، فالأخلاق كسبي وغريزي ولا يمكن أن نسمي أوصاف الله تعالى أخلاقًا له، بل نقول أوصاف وصفات وما أشبه ذلك.

على أن من العلماء من أنكر أن تقول باللفظ، مثل ابن حزم رحمه الله فقد قال: إياك أن تقول باللفظ الله ما له صفة، أسماء لا بأس، صفة لا، لكنه محجوب بقول الرجل الذي كان يقرأ: قل هو الله أحد قال إنها صفة الرحمن وأحب أن أقرأها فعلى كل حال نحن نقول: إن هذه الآية تدل دلالة واضحة على كذب هذه القاعدة التي قعَّدها من قعدها من الناس، ونحن نقول لكل مؤمن تخلق بأخلاق النبي ﷺ لأن نبينا ﷺ لنا أسوة، ثم نرجع إلى المفسر يقول [بتنوين القلب ودونه ومتى تكبر القلب تكبر صاحبه وبالعكس] وقوله [وبالعكس] فيها نظر، لأنه يقتضي أن يتكبر صاحب القلب قبل القلب، لأنك إذا عكست العبارة: متى تكبر القلب تكبر صاحبه، متى تكبر صاحب القلب تكبر القلب، هل هذا صحيح؟ لا لكن مراده رحمه الله أن تكبر القلب وتكبر النفس متلازمان إن تكبر القلب تكبرت النفس وإن تكبرت النفس كان ذلك دليلا على أن القلب متكبر، طيب وكل على القراءتين في عموم الضلال جميع القلب لا لعموم القلب.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) من حديث زارع رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود والشطر الأول من الحديث في مسلم (٢٥/ ١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

التفسير

قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ فرعون هو ملك مصر قيل: إنه اسم شخص أو علم شخص، وقيل إنه علم الجنس، فإذا قلنا: إنه علم شخص صار اسمًا لشخص معين، وإذا قلنا إنه علم جنس صار اسمًا لكل من ملك مصر كافرًا، وهذا هو الذي عليه الأكثر، لكن فرعون موسى علم شخص وعلم جنس أيضا، قال فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ هامان وزيره.

وقوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ يعني: مر من يبني لي ذلك، لأنه من المعلوم أن الوزير لن يباشر بناء الصرح، ﴿صَرْحًا﴾ قال المفسر [بناء عاليًا] يعني رفيعا ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ لعل هنا للتعليل وهي تأتي للتعليل تارة، وللإشفاق تارة، وللترجي تارة، فمن مجيئها للتعليل هذه الآية، وقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾هذه للتعليل، وكلما جاءت لعل في حق الله عز وجل فإنها للتعليل؛ لأن الرب عز وجل لا يترجى إذ إن كل شيء عليه هين، وتأتي للإشفاق مثل أن تقول: لعل الحبيب هالك، يعني: أخشى أن يكون هالك، وتأتي للترجي مثل حضرت إلى الدرس فلعلي أفهم فلعلي أفهم، لو قلت لعلي أفهم لاحتمل أن تكون للتعليل، فإذا قلت فلعلي صارت للترجي، وتكون أيضًا للتوقع كما لو قلت لشخص تخاطبه: لعلك فاعل، وهذه المعاني التي تأتي للحروف بل وللأسماء أيضًا وللأفعال إذا كانت متعددة، فالذي يعينها السياق وقرائن الأحوال.

قال ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الأسباب: جمع سبب وهو كل ما يوصل إلى المقصود، فالسبب وسيلة، والمسبَب غاية، فما هي الأسباب هنا؟ بينها بقوله: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فأسباب السموات محلها مما قبلها عطف بيان تبين الإبهام الموجود في الأسباب.

فإن قال قائل: لماذا لم يقع الكلام مبينًا من أول الخطاب فيقال: لعلي أبلغ أسباب السماوات؟

قلنا: إن الإبهام أولًا ثم التفصيل والبيان ثانيًا أوقع في النفس، لأن الشيء إذا جاء مبهمًا ثم بين صار البيان وقع عند تشوف النفس لمعرفة هذا المبهم، يعني: لو جاء الكلام مبينًا من أول الأمر لكان سهلًا على النفوس لكن إذا جاء أولًا مبهما تشوفت النفس لمعرفة هذا المبهم ثم جاء البيان والنفس مستعدة لقبوله متشوفة إلى الوصول إليه.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال المفسر [طرقها الموصلة إليها﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالرفع عطفًا على أبلغ وبالنصب جوابًا لـ ﴿ٱبْنِ﴾]، يعني أن فيها قراءتين سبعيتين، (فأطلعُ) (فأطلعَ)، أما على قراءة الرفع فإنها معطوفة على ﴿أَبْلُغُ﴾ يعني لعلي أبلغ الأسباب، فلعلي أطلع، وأما على قراءة النصب فإنها وقعت جوابا لـ ﴿ٱبْنِ﴾ ابن فعل أمر وفعل الأمر يقع جوابه إذا كان مقرونا بالفاء بالنصب فأطلعَ، فتكون الفاء هنا للسببية.

واعلم أن القراءتين الواردتين في القرآن الكريم هما أحد الحروف السبعة التي نزل القرآن عليها، فإن القرآن أنزل على سبعة أحرف ولما كان في زمن عثمان رضي الله عنه أمر أن يُجعل القرآن على حرف واحد وهو حرف قريش، يعني: لغتها، فهذه القراءات الموجودة ليست هي الأحرف السبعة، بل هي على حرف واحد، هذا واحد.

الثاني: اعلم أن القراءتين كلتاهما صحت عن النبي ﷺ؛ لأنها نقلت بالتواتر.

ثالثا: اعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يقرأ بين العامة بقراءة تخالف ما في أيديهم من المصاحف، لأن ذلك يوجب التشويش والارتباك واتهام القارئ وربما تهبط عظمة القرآن في نفوسهم؛ بسبب هذا الاختلاف، أما فيما بينك وبين نفسك، فالأفضل أن تقرأ بهذا تارة وبهذا تارة بشرط أن تكون عالمًا غير متخبط، وإنما قلنا: إن هذا هو الأفضل لأن كلًّا من القراءتين قد قرأ به النبي ﷺ فيكون هذا مثل العبادات الواردة على وجوه متنوعة، كالافتتاحات والتشهد وما أشبه ذلك، لكن هذا بينك وبين نفسك، أو في مقام التعليم إذا كنت تعلم طلبة.

وقوله: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يعني: أَصِلُ إليه وأنظر هل هذا حق أو غير حق، ثم استدرك خوفًا من أن يقول أحدًا من جنوده إنه حق، فقال: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ﴾ [أي: موسى] ﴿كَٰذِبًا﴾ [في أن له إلهًا غيري] قال هذا تمويهًا على أصحابه، وخوفًا من أن يقع في نفوسهم شيءٌ حين أمر وزيره أن يبني صرحًا، وفرعون في هذه المقالة كاذب، هو لا يظن أن موسى كاذب؛ بل يعلم أنه صادق، لقول الله تبارك وتعالى عن موسى أنه قال له - أي: لفرعون -: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] قال هذا مُؤكِّدًا إياه بالقسم، واللام، وقد، ويُخاطب هذا الرجل القادر على إنكار موسى ما قاله موسى لو كان كذبًا، قال له: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ فرعون هل له مانع يمنعه أن يقول: لم أعلم؟ لا يمنعه مانع، هو قادر، لكنه يعلم أنه ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] هذه مفعول من أجله لـ ﴿وَجَحَدُوا۟﴾ وليس لـ (استيقن)، فالمهم: أن قوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ هذه الجملة كذِب، يقول ذلك وهو كاذب، ويعلم أنه صادق، لكنه قال ذلك تمويهًا لقومه، وخوفًا من أن يقع في قلوبهم شيءٌ من الشك.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: مثل هذا الفعل، أو مثل هذا التزيين؛ أيهما الذي على القاعدة؟ الثاني؛ لأننا قلنا: إن (كذلك) تكون مفعولًا مطلقًا للفعل الذي بعدها؛ أي: مثل هذا التزيين الذي زُيِّن لفرعون، وهذا التمويه والترويج لقومه زُيِّن لفرعون سوء عمله، ومن الذي زيَّنه؟ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وقد يقال: والله عز وجل؛ لأن الله يُضِلُّ من يشاء، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فالله

تعالى زيَّنه قَدَرًا؛ بمعنى: أنه حجب عنه الهدى، ثم زيَّن له الشيطان والنفس الأمارة بالسوء أن يعمل هذا العمل.

وقوله: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ السبيل هنا فيها (ال) التي للعهد؛ أيُّ العهود الثلاثة: الذِّكري، أو الحضوري، أو الذهني؟ الذهني ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ الذي هو سبيل الهدى، ولهذا قال المؤلف: [طريق الهدى] وفيها قراءتان ﴿وَصُدَّ﴾ [بفتح الصاد وضمِّها] ﴿وَصُدَّ﴾ هذه بضمِّ الصاد على أنها مبنية لما لم يُسمَّ فاعله، (صَدَّ) بفتح الصاد على أنها مبنية لما سُمِّي فاعله، ولكن هل هي مُتعدِّية أو لازمة؟ هل معناه: أنه صَدَّ بنفسه، أو صَدَّ غيره؟ تشمل المعنيين؛ لأنها لفظ مُشترك صارفٌ للمعنيين جميعًا، والقاعدة في التفسير: أن كل لفظٍ يصلح لمعنيين لا يتنافيان فإنه يُحمَل عليهما جميعًا إلا إذا كان في أحدهما ما يُرجِّحه، فيُعمَل بما ترجَّح.

وقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ الكيد، والمكر، والخِداع، وما أشبهها كلها كلمات متقاربة، ومعناها: أن يتوصَّل الإنسان بالأسباب الخفية إلى مقصوده بخصمه، كل إنسان يقصد من خصمه أن يكون مغلوبًا، فيتوصَّل إلى هذا بأسبابٍ خفية لا يعلم بها الخصم إلى الوصول إلى هذا، فرعون كاد كيدًا في أن يقول لهامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ من أجل أن يرقى على هذا الصرح، فإذا وصل غايته نظر أمام الناس ثم نزل وقال: لم أجد ربَّ موسى، وهذا تمويه، لاسيَّما على عامةٍ كآل فرعون الذين قد بهرهم هذا الظالم الطاغية، فكل شيء يكون عندهم حقيقة، لكن هل هذا الكيد ينفعه؟ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: إلا في خَسار، ما هنا حجازية أو تميمية؟ حجازية مهملة؛ يعني: أنها لا تعمل، ما الذي أبطل عملها؟ الإثبات، وابن مالك يقول:

إعــمال لــيس أُعمِلَــت مــا دون إنْ   مــع بقــا النفــي ترتيــب زكــن

والنفي هنا لم يبقَ، فعلى هذا نقول: هي مُهمَلة لبُطلان النفي وانتفائه بـ (إلَّا).

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية**: استعلاء فرعون وترفُّعه، وذلك بتوجيه الأمر إلى وزيره أن يبني له صرحًا، وتأمَّل قوله: ﴿ٱبْنِ لِى﴾ ولم يقل: ابنِ؛ لأن هذا أعظم في الترفُّع والتعاظُم؛ إذ لو قال: ابنِ لكان لأي أحدٍ يبني، فيه إبهام، لكن إذا قال: لِي إلا هذا على أنه استخدم هذا الرجل الذي هو الوزير استخدامًا تامًّا.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن اتخاذ الوزراء كان عُرْفًا قديمًا، سواء كان وزيرًا في الخير، أو وزيرًا في الشر، فمن وزراء الخير قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٠]، وقول علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأله زعماء الشيعة – وهم الرافضة – عن أبي بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، فترحَّم عليهما

وقال في الثناء عليهما: هما وزيرا جدِّي؛ يعني: النبي ﷺ، فرفضوه؛ لأنهم قد زُيِّن لهم سوء عملهم بأن كل من أحبَّ أبا بكر وعمر فقد أبغض عليًّا، وعلى هذا يكون النبي ﷺ مُبغِضًا لعلي؛ لأنه سُئِل: أيُّ الرجال أحبُّ إليك؟ قال: «أَبو بَكْرٍ» فعلى قاعدتهم يكون الرسول ﷺ مُبغِضًا لعليٍّ، فانظر كيف كان عاقبة هذه القاعدة الباطلة الفاسدة؟

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: جواز نسبة الشيء إلى الآمِر به دون فاعله، لقوله: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا﴾ وهو لا يريد أن هامان يتولَّى البناء بنفسه؛ بل يأمر؛ لأنه وزير.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات علوِّ الله تعالى العلو الذاتي في الشرائع السابقة، من قوله: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهذا يدل على أن موسى ﷺ قد أبلَغَهم بأن الله في السماء، وهذا - أعني: علو الله الذاتي - أمرٌ لا يُنكَر؛ لأنه دلَّت عليه جميع الدلائل: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كلها دلَّت على علو الله عز وجل العلو الذاتي، وأنه سبحانه وتعالى في السماء، وأنه لا يمكن أن يكون في الأرض، ونحن نُركِّز على هذه النقطة لأهميتها؛ لأنها تتعلَّق بالعقيدة.

أما القرآن أكسب الأدلة المتنوعة الدالة دلالةً قاطعة على علو الله الذاتي، وكذلك السنة دلَّت على ذلك قولًا وفعلًا وإقرارًا، فالنبي ﷺ أثبت علوَّ الله الذاتي بقوله، وبفعله، وبإقراره.

أما بقوله، فإنه عليه الصلاة والسلام يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»، وأما بفعله، فأشار إلى علو الله تعالى في الوقوف بعرفة حين خطب الناس، وقال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، وأما الإقرار، فبإقراره الجارية التي قالت: في السماء لما سألها: «أَيْنَ اللهُ؟».

وأما الإجماع فقد أجمع السلف على ذلك، ما منهم أحد قال: إن الله ليس في السماء، وما منهم أحد قال: إن الله في الأرض، وما منهم أحد قال: إن الله لا يُوصَف بعلوٍّ ولا سُفُول، ولا مُحايَدة ولا مُجانبة؛ يعني: ما منهم أحد قال: إن الله ليس فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متصل بالخلق ولا منفصل، كما قاله المُعطِّلة.

فإذا قال قائل: نُسلِّم أنه لم يرِد عنهم النفي، فما هو دليل الإثبات؟ نقول: دليل ذلك: أن كل نصٍّ في القرآن والسنة لم يأتِ عن الصحابة خلافُه فإننا نعلم علم اليقين أنهم يقولون به؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ويعرفونه، فإذا خُوطِبوا بهذا، ولم يرِد عنهم خلافُه دلَّ ذلك على أنهم قائلون به، وهذه نقطة مهمة تنفعك عند المناظرة مع خصومك، إذا قال لك: أين قال الصحابة: إن الله في علو؟ تقول: قال الصحابة ذلك؛ لأن كل نصٍّ جاء بإثبات العلو ولم يرِد عن الصحابة خلافُه فإنهم قائلون به قطعًا؛ لأنه نزل بلغتهم، وعرفوه، وفهموه على ما أراد الله عز وجل.

وأما العقل: فلو سألت أي إنسان: هل العلو صفة كمال، أو النزول؟ لقال لك: العلو، ولو

قلت: العلو صفةٌ أكمل، أو المُحاذاة؟ قال لك: العلو، إذن فالعلو دلَّ العقل على ثبوته لله عز وجل.

وأما الفطرة: فلا تسأل، اسأل عجوزًا من العجائز لم تقرأ في كلام المُتكلِّمين المُعطِّلين ماذا تقول لك؟ إذا سألت: أين الله؟ قالت: في السماء، ولا تعرف إلا ذلك، والعجب أن نفس القائلين بالنفي إذا دعوا الله عز وجل رفعوا أيديهم إلى السماء، وهذا شيءٌ مُسلَّم، وادِّعاؤهم أنهم يقولون: إن السماء قبلة الداعي كما أن الكعبة قبلة المُصلِّي، نقول: إذن أنتم تدعون السماء، فوقعتم في الشرك من حيث لا تعلمون، وعلى كل حال؛ الحمد لله أن علو الله عز وجل أمرٌ فِطريٌّ لا يحتاج إلى تعلُّم ولا تكلُّف، ومع ذلك جميع الأدلة دلَّت عليه، ثم يأتي أقوام – أعمى الله تعالى بصائرهم – فيقولون: إن الله تعالى ليس في العلو، فماذا يقولون؟ منهم من يقول: إن الله في كل مكان، وهؤلاء: حُلولية الجهمية، إن الله في كل مكان، في المساجد، في الأسواق، في البيوت، في الجو، في السماء، في – والعياذ بالله – المراحيض، في كل مكان، وهذا باطلٌ كما تُبطِل الشمس ظلمة الليل؛ لأنه يلزم منه واحد من أمرين ولابد: إما أن يكون الله متعدِّدًا، وإما أن يكون الله مُتجزِّئًا بعضه هنا وبعضه هناك، أو مُتعدِّدًا واحد هنا وواحد هناك، هذا بقطع النظر عما يلزم عليهم من اللوازم الفاسدة التي تُوجِب أن الله في أقذر الأمكنة وأنتن الأمكنة.

والقول الثاني لمن يُنكِرون علو الله الذاتي يقولون: لا نقول: إن الله فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنهم، أين هو؟ عدم، قال بعض العلماء: لو قيل: صِفوا لنا العدم لم نجد وصفًا أشمل من هذا، فحقيقة الأمر أنهم لا يعبدون الله وأنهم ليس لهم إله إطلاقًا.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من بلاغة المتكلم أن يسلك أقرب الطرق إلى جذب المُخاطَب؛ ومنها: الإبهام، ثم البيان، لقوله: ﴿لَعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهذا كثير في القرآن، وفي كلام البشر.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السماوات جمع وعدد، لقوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي سبعٌ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، وقال: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وهذا متفقٌ عليه، وهل السماوات هذه مُتراصَّة، أو بينها فجوات؟ الجواب: الثاني، ويدل على ذلك دلالةً قاطعة: حديثُ المعراج، فإن النبي ﷺ كان يعرُج من سماءٍ إلى سماء.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن رؤساء الضلال وأئمة الضلال يدعون الناس إلى الضلال بكل ما يستطيعون، ويحاولون أن يحولوا بينهم وبين الحق، لقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾، فلا تغترَّ برؤساء الضلال وأئمة الضلال، وما يقولون من التمويه والدجل، وليس

هذا مقصورًا على الأئمة الذين هم السلطة؛ بل حتى على أئمة الدعوة الذين يدعون الناس إلى أفكارهم الهدَّامة، وأخلاقهم السافلة، تجد عندهم من التمويه والتضليل ما يُوجِب أن يكون فخًّا يقع به من ليس له بصيرة.

٨ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله عز وجل يبتلي العبد، فيُزيِّن له سوء عمله، لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾، ويدل لهذا: قول الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، فاحرص على الانتباه لهذه المسألة، فإن الإنسان قد يُزيَّن له سوء العمل، والتزيين نوعان: النوع الأول: أن يرى الإنسان هذا السيِّئ حسنًا، وهذا أعظم النوعين، النوع الثاني: ألَّا يراه سيئًا، فيميل إليه بهواه، ويقول: هذا سهل، وليس فيه شيءٌ، هذا من التزيين في الواقع؛ لأن من لا يرى السيئ سيئًا فإنه سيقع فيه إما رغبةً فيه؛ لأنه زُيِّن له، وإما لهوًى في نفسه؛ لأنه لا يراه سيئًا.

٩ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن فرعون يصُدُّ الناس عن سبيل الله، فهو من أئمة الصدِّ عن سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]، فاحذر هؤلاء الأئمة لا يخدعوك، فإنهم يكيدون كيدًا، والله تعالى يكيد كيدًا لعبده المؤمن.

١٠ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن فرعون أمر ببناء هذا الصرح مُكايدةً لا حقيقة، وإلا فمن المعلوم أنه سوف يخسر نفقات كثيرة على هذا الصرح العالي، لكنه لغرضه وهواه لا يهتم بذلك.

١١ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن كيد المُضِلِّين - والحمد لله - في خَسار، كل مُضِلٍّ فكيدُه في خَسار؛ لأنه إذا كان كيد هذا الطاغية في خَسار فمن دونه من باب أولَى ولا شك، ولهذا حصر كيده في الخَسار، ما هو إلا في خَسار، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦] أي: كيدًا أعظم من كيدهم، وقال تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢] وهذه من أعظم الآيات التي تفرِح المؤمن: أن كيد الكافر يجعله فهو المَكِيد، وجاءت الآية بالجملة الاسمية ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ وبضمير الفصل إشارة إلى ثبوت ذلك عليهم، وتأكُّده، إلى ثبوته بكونه جاء بالجملة الاسمية؛ لأن الجملة الاسمية - كما يقول أهل العلم - تُفيد الثبوت والاستقرار، وجاء بالحصر عن طريق ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، وهذه الآيات - والحمد لله - تفرِح المؤمن، وهذا وعد الله عز وجل وهو لا يُخلِف الميعاد، لكنه يحتاج إلى سبب، أن يكون من المؤمن عملٌ مُضاد، وأن المؤمن إذا عمِل العمل المُضاد لكيد الكافرين يثِق بوعد الله، ويقول: إن هذا الكيد سيكون عليهم وهم في خَسارةٍ منه، أما أن يقول:

إن الله يكيد لهم وهم المكيدون، ولكننا نام على فُرُشنا وندَعُ السِّباع تأكل غنمنا، فهذا غير صحيح، لابد من عمل ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]

التفسير

في أول هذه الآيات يقول عز وجل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهنا وما قبلها يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ تحقيقًا لإيمانه وأنه مؤمن حقًّا.

وقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ سبق الكلام على إعرابها، وبيَّنَّا أنها منادى منصوبة مُقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بحركةٍ مناسبة.

وقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ [بإثبات الياء وحذفها] يعني: أنها قراءتان: اتَّبعوني، واتَّبعُونِ، ما على وجود الياء فالأمر ظاهر؛ لأنها ياء المتكلم، وأما على حذفها فهي محذوفة للتخفيف، وقوله: ﴿ٱتَّبِعُونِ﴾ فعل أمر، و﴿أَهْدِكُمْ﴾ جواب فعل الأمر، ولهذا وقع مجذومًا بحذف الياء والكسرة دليلٌ عليها، وأصل ﴿أَهْدِكُمْ﴾ أهدِيكم، لكن الفعل المضارع إذا وقع جوابًا لأمر فإنه يكون مجزومًا، قيل: إنه مجزوم به، وقيل: إنه مجزوم بشرط مُقدَّر، والتقدير: إن تتبعونِ أهدِكم، وهكذا يقال لكل ما جاء على هذا التركيب.

وقوله: ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: طريقه، والهداية هنا هداية الدلالة؛ لأنه لا يمكن أن يُراد بها هداية التوفيق؛ إذ إن هداية التوفيق تكون بيد الله عز وجل، لقوله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] أي: لا تهدي هداية التوفيق، فقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ يعني: أدُلُّكم على سبيل الرشاد، سبيل الرشاد ضد سبيل الغيِّ، والرشاد هو: حسن التصرُّف، والغيُّ هو: ارتكاب الخطأ عن عمد.

وقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لما رغَّبهم في اتباعه زهَّدَهم في الدنيا؛ لأن أصل ضلال بني آدم هو: الطمع في الدنيا، والتنافس إنما يكون عليها، ولهذا قال النبي ﷺ: «وَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا أَخْشَى أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»، فهو لما طلب أن يتَّبعوه بيَّن لهم حال الدنيا التي يُنافِسون فيها، والتي صدُّوا عن سبيل الله بها، فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ﴾ إنما

أداة حصر، و﴿هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ مبتدأ، و﴿مَتَٰعٞ﴾ خبره؛ أي: ما هذه الدنيا إلا متاع يتمتَّع به الإنسان قليلًا ثم يزول، ولهذا يقول المؤلف: ﴿مَتَٰعٞ﴾ [تمتُّعٌ يزول] ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ الآخرة ما بعد الدنيا هي دار القرار، (هي) ضمير فصل، و﴿دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ خبر إنَّ، واعلم أن ضمير الفصل ضميرٌ لا محل له من الإعراب، لا يُعرب مبتدأ ولا خبرًا ولا أي شيء، واعلم أيضًا أن له ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: التوكيد، والفائدة الثانية: الحصر، والفائدة الثالثة: تمييز الخبر من الصفة، فإذا قلت: زيدٌ هو الفاضل، فهو ضمير فصل استفدنا منه ثلاث فوائد: أولًا: التوكيد؛ حيث أكَّدنا أن زيدًا فاضل، ثم الحصر؛ لأنك قلت: زيدٌ هو؛ أي: لا غيره، الثالثة: التمييز بين الصفة والخبر، فإنك لو قلت: زيدٌ الفاضل لاحتمل أن يكون الفاضل صفةً لزيد، وأن الخبر لم يأتِ بعد، فإذا قلت: هو الفاضل تعيَّن أن تكون الفاضل خبرًا، فبذلك يحصُل التمييز بين الخبر وبين الصفة، ذكرنا أنه لا محل له من الإعراب، ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] فهنا جاءت الغالبين خبرًا لكان، ولو كان له محل من الإعراب لكانت إن كانوا هم الغالبون، لكنه ليس له محل من الإعراب، إذن ما هي دار القرار؟ هي الدار الآخرة، وأُكِّد ذلك بضمير الفصل.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ أي: دار المستقر، ولهذا يُؤتَى بالموت على صورة كبشٍ فيُوقَف بين الجنة والنار، ويُقال: يا أهل النار! فيشرئبُّون ويطَّلِعون، وكذلك يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون ويطَّلِعون، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيُذبَح أمامهم، ويقال: يا أهل الجنة! خلودٌ ولا موت، ويا أهل النار! خلودٌ ولا موت، إذن هذا القرار، ما دام ليس فيه انتقال عن هذه الدار فهي دار القرار، إذا كانت هي دار القرار والدنيا متاع، فما الأولَى أن يُعمَل له؟ الآخرة؛ لأنها دار القرار، أما هذه فهي دار ثُبور، دار متاع «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ، أَو عَابِرُ سَبِيْلٍ».

وقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ هذا كالبيان لحال الآخرة وكيف يُجازَى الناس فيها، فقال: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ مَن شرطية، و﴿عَمِلَ﴾ فعل الشرط، وجملة ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ هذه جواب الشرط، وقوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ (مثل): مفعول يُجزَى الثاني، والمفعول الأول هو نائب الفاعل المُستتر، يقول: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ﴾ فما هي السيئة؟ السيئة: ما يسوء حالًا أو مآلًا، فما أصاب الإنسان من مرض، أو فقر، أو عاهة، أو ما أشبه ذلك هذا سوء لكنه في الحال، وما أصاب الإنسان من عقوبة على أعماله فهذا سوء ولكنه في المآل، وقد يكون في الحال، قد يُعاجَل الإنسان بالعقوبة.

وقوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ﴾ السيئة بواحدة مهما كانت، حتى وإن كان الإنسان في مكة، أو

في المدينة، أو في المسجد، أو في أي مكان، أو في أي زمان، حتى ولو كان في الأشهر الحُرُم التي نصَّ الله تعالى على النهي عن الظلم فيها، فقال: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن السيئة لا تُضاعَف، ولكن اعلموا أنها قد تكون أشد من حيث الكيفية لا من حيث الكمية؛ يعني: أننا نرى أن ضربةً واحدة قد تكون أشد على الإنسان من عشر ضربات لشدتها وشدة وقعها، ولهذا قال الله تعالى في الحرم المكي: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، وبهذا التقرير الذي دلَّ عليه الكتاب والسنة تبيَّن أن ما يُذكَر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خرج من مكة وقال: لا أبقى في بلدٍ سيئاته وحسناتُه سواء فإن هذا لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، وابن عباس أفقه وأعلم من أن يلتبس عليه هذا الأمر، مع أن الله قال في سورة الأنعام - وهي مكية -: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مَن هذه شرطية، و﴿صَٰلِحًا﴾ يجوز أن نُعربَها صفةً لموصوفٍ محذوف، والتقدير: عملٌ صالح، ويجوز أن نجعلها مفعولًا مطلقًا؛ لأن وصف المصدر المحذوف يصح أن يقع الإعراب عليه على أنه مفعول مطلق، أو على أنه صفة لموصوف محذوف، والتقدير: عملًا صالحًا، فما هو العمل الصالح؟ العمل الصالح: ما توافَرت فيه شروط القبول، وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسله، سواء محمد أو غيره، لكن من المعلوم أنه بعد بعثة محمد ﷺ لا يصح اتباع غيره، إذا فُقِد الإخلاص فليس العمل صالحًا؛ بل هو مردودٌ على صاحبه، لقوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيْهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1]، وإذا فُقِدَت المتابعة لم يكن العمل صالحًا وكان مردودًا، لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لمَن، فمِنْ هنا بيانية، كيف نقول: بيانٌ لمَنْ؟ لأن مَن اسم موصول، والاسم الموصول الأصل فيه الإبهام، فإذا وُجِد بعده بيان فإنه يكون مُبيِّنًا لإبهام، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا الشرط لابد أن يكون مؤمنًا، فإن لم يكن مؤمنًا فإن عمله الصالح لا ينفعه، حتى وإن كان العمل مما يتعدَّى نفعه فإنه لا ينفعه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤] فغير المؤمن لا ينفعه عمله، لو أن رجلًا كافرًا أصلح الطرق، ومدَّ أنابيب الماء، يسقي الناس، وبنى المساجد، وطبع الكتب، وكسى العريان، وأطعم الجائع، فهل هذا ينفعه؟ لا، ولهذا لا ينفع المنافقين عملهم؛ لأنهم ليسوا مؤمنين، وبه نعرف أن الإيمان هو الأصل، آمِن ثم اعمل، أما العمل بدون إيمان - نسأل الله أن لا يخلع عنا وعنكم الإيمان - هباء ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، لابد من الإيمان أولًا

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ثم إذا آمنت اعمل وإذا عملت فأخلص واتبع.

وقوله: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، جملة فأولئك جواب الشرط أي شرط هو ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فأولئك يدخلون الجنة وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ باسم الإشارة الموضوع للبعيد إشارة إلى علو مرتبتهم كأنك تشير إليهم وهم فوق ﴿فَأُولَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ قال: [بضم الياء وفتح الخاء وبالعكس] وما العكس يدخلون فيجوز ﴿يُدخَلون﴾ أي: يدخلهم الله ويجوز ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ أي: هم بأنفسهم لكن بإذن الله ومن المعلوم أن أهل الجنة لا يدخلون الجنة إلا بعد الشفاعة، بعد شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في فتح الجنة؛ لأنهم يصلون إليها وبابها مغلق، فيطلبون من يشفع لهم إلى الله عز وجل أن يفتح لهم الباب فيشفع النبي ﷺ وحده في أن يفتح لهم الباب فيفتح.

وقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ الرزق بمعنى العطاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ أي: أعطوهم فمعنى يرزقون؛ إذن يعطون.

وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: بغير تابعة يعني لا يحاسبوه عليه ولا ينقضون له ثمنًا في الدنيا لا تملك رزقًا إلا بثمن لكن في الآخرة تعطى الرزق بغير ثمن وبغير تابعة لا تحاسب عليه لماذا؟ لأن الثمن كان مقدمًا ثمن هذا الرزق كان مقدم سلم تعرفون السلم؟ نقض الثمن وتأخير المثمن فهنا الثمن مقدم في الثمن كان في الدنيا حين عملوا بطاعة الله فكان هذا هو العوض، فالقوم قد أسلموا في هذا المبيع وقدموا ثمنه ولهذا قال ﴿يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾:

١ - **في فوائد الآية الأولى:** أولًا تلطف هذا الداعي هذا الرجل المؤمن الذي يدعو إلى الله لقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، فإن هذا لا شك من أساليب التلطف.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية:** قوة جأش هذا المؤمن حيث كان رجلًا واثقًا يقول لهؤلاء الجماعة: (اتبعوني) وهذا كما قلنا في التفسير فعل أمر.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** أنه ينبغي للداعية إذا دعا إلى شيء أن يبين ما يكون به الترغيب - أي ترغيب المدعو - حتى ينشط ويفعل؛ لقوله: ﴿أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى كذب فرعون حين قال لقومه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ففرق بين قول فرعون وقول هذا المؤمن؛ قول فرعون كذب وقول هذا الرجل حق لا شك.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السبل تختلف سبل ضلال وسبل غي وسبل رشاد فالسبيل الموصل إلى الله هذا سبيل الرشاد والسبل المتفرقة هذه سبل ضلال قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

٦ - **ومن فوائد الآية الثانية:** بيان حال الدنيا، وأنها متاع يتمتع بها الإنسان، ثم تزول إما بزوالها بالتمتع وإما بزوال المتمتع؛ ولهذا انظر مصارع الدنيا، هل أحد خلد. وهل فيها أحد خلد له ما بين يديه؟ كل ذلك لم يكن فالدنيا إما زائلة وإما أن يزال عنها، قال الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** انحصار الدنيا في هذه الكلمة القليلة، وهي (متاع) كل الدنيا متاع لا تتحمل أكثر من ذلك.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الاستعداد والرغبة في الآخرة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ فاجتمع هذا إلى ما قبله صار متضمن لفائدتين وهما: الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة.

ثم قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١ - **فيها من الفوائد:** أن عامل السيئة لا يزداد إثمًا على قدر السيئة؛ لقوله هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** أنه في مقام التهديد ينبغي أن يُبدأ بما يدل على التهديد، قبل أن يبدأ بما يدل على الترغيب؛ لأنه هنا بدأ بالسيئة ثم عقب بالصالح، وانظر إلى قول الله تبارك وتعالى في مقام ذكر الأحكام الشرعية قال: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ولما أراد جل وعلا أن يتحدث عن نفسه ويبين كمال صفاته قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، فلكل مقام مقال، فالإنسان ينبغي أن يرتب المعاني حسب ما تقتضيه الحاجة لا يلقي الحديث على عوائمه، وفضل الله يؤتيه من يشاء قد يريد هذا الشيء ويريد أن يرتب كلامه وأن يبنيه على ما تقتضيه الحاجة ولكن يخونه التعبير أي أن الإنسان إذا استعان بالله سبحانه وتعالى يسَّر له الأمر.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه لا يقبل العمل إلا إذا كان صالحًا ولا ينفع صاحبه إلا إذا كان صالحًا.

وذكرنا أن الصالح ما اجتمع فيه شروط القبول وهما الإخلاص والمتابعة، فبفقد الإخلاص يكون الإنسان مشركًا وبفقد المتابعة يكون الإنسان مبتدعًا؛ ولهذا لا يقبل العمل إلا الخالص الموافق للشرع ففي فقد الإخلاص يقع الإنسان في الشرك وبفقد المتابعة يقع الإنسان في البدعة وأيهما أشد؟

الأول وقد يكون الثاني حسب المخالفة، لكن الشرك من حيث هو أعظم من البدعة وقيل أن

البدعة أشد وأعظم لأن الله قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ والآية في التدريج من الأدنى إلى الأعلى، وصاحب البدعة يضر نفسه ويضر غيره؛ لأنه يكون إمامًا يدعو إلى مخالفة الرسل، والذي يظهر أن الشرك من حيث هو شرك أعظم، لكن قد يكون المترتب على البدعة أشد من المترتب على الشرك.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الذكور والإناث مشتركون في الثواب والعقاب بمعنى أن الله لا يعاقب الأنثى أكثر من عقوبة الرجل ولا الرجل أكثر من عقوبة الأنثى، وكذلك لا يجزي الرجل أكثر من جزاء الأنثى والأنثى أكثر من جزاء الرجل؛ لقوله في هذه الآية: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن العمل الصالح لا ينفع إلا مبني على الإيمان لقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، والجملة في موضع نصب على الحال يعني: والحال أنه مؤمن وبناءً على هذا نسأل هل عمل المنافق ينفعه؟ لا، لفقد الإيمان هو غير مؤمن، وهل الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره أو هو إيمان وراء ذلك كله؟ الجواب: الثاني، ومن جملة الإيمان الذي يجب أن تكون الأعمال الصالحة مبنية عليه أن تؤمن بالثواب على العمل؛ ولهذا إذا عمل الإنسان العمل الصالح وهو يرجو هذا الثواب لا شك أنه سيزداد رغبة في العمل، وسيزداد إحسانًا للعمل؛ لأنه يعرف أن السلعة على قدر الثمن، فإذا كنت تعمل وأنت تشعر بأنك ستُجازى على هذا العمل مجازاة تامة فسوف تحسن العمل لأجل أن يحسن لك الثواب والجزاء، وهذه مسألة مهمة يغفل عنها الإنسان كثيرًا أي: يغفل الإنسان كثيرًا عن كونه ينوي بذلك الثواب الذي أعده الله لعمال هذا العمل.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن رزق الجنة ليس فيه حساب يعني أنه لا يطلب من الإنسان عوض ولا يلحقه تابعة لقوله: ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.



۞ قال الله تعالى:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٣]

۞ التفسير ۞

ثم قال هذا الرجل الذي آمن: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ هذا استفهام تعجبي وإنكار كأنه يقول عجبًا لكم أدعوكم إلى الجنة وتدعونني إلى النار وهذا والله محل العجب، محل العجب أن تدعو رجل إلى الجنة وهو يدعوك إلى النار فتأتي إلى رجل وتقول: يا فلان أترك شرب الخمر شرب الخمر حرام ولا يجوز «من شربه في الدنيا لم يشربه في الآخرة» هي أم الخبائث مفتاح كل شر فيقول لك يا ولد لذة وطرب وأنس وسرور اشرب من أجل لأن ترى إذا شربت كأنك ملك الملوك ثم يراقبه ثم يقول له أيضًا يمنيه اشرب، وإذا شربت وحصل لك اللذة والطرب فاستغفر الله فالباب مفتوح، أيهم الأحق بالإجابة الأول أو الثاني؟ لا شك أنه الأول هذا يقول: ما أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، وهذه استفهام تعجب وإنكار وهو محل التعجب ومحل الإنكار أيضًا والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ جملة وتدعونني إلى النار معطوفة على الجملة التي قبلها وليست استئنافية، ولا حالية كما قيل به، بل هي معطوفة على ما سبق؛ لأن التعجب إنما يكون من اجتماع الأمرين أنهم يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ يعني: إلى النجاة من النار ولم يقل إلى الجنة مع أنه قال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾؛ لأنهم هم يدعونه إلى الهلاك يدعونه إلى النار فقابل دعوته بدعوتهم فكأنه يقول: أنا أدعوكم إلى النجاة من النار أنتم تدعونني إلى النار، والدعوة إلى النار ليس أن يقول القائل هلم إلى النار أيها الناس لكنها الدعوة إلى عمل أهل النار وليعلم أن النار قد حفت بالشهوات وأن الجنة حفت بالمكاره وأمل أهل النار مبني على الشهوات أو على الشبهات يعني: إما جهالات وضلالات كعمل النصارى وإما شهوات كعمل اليهود، وعلى هذين يدور عمل

أهل النار الشبهات والشهوات والشبهات دوائها العلم والشهوات دوائها الحزم والإرادة التامة لما يحبه الله ويرضاه ﴿مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾.

ثم بين بعد أن أجمل في قوله: ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بين الأعمال التي يدعونه إليها فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ﴾ اللام هنا لبيان المدعو إليه يعني: تدعونني لهذا وعلى هذا ﴿لِأَكْفُرَ﴾ منصوبة بأن مضمرة بعد اللام على مذهب البصريين أو باللام على مذهب الكوفيين ﴿لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي أجحده وأنكره والمراد إنكار وحدانيته بدليل قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ وقد يقال أن المراد إنكار وجوده بالكلية أو الإشراك مع الإقرار به فيكونوا يدعونه إلى شيئين: إما إنكار الخالق عز وجل وهذا مستفاد من قوله: ﴿لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ أي: لأجحده أو أثبته مع وجود شريك له وهذا مما يستفاد من قوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا قيد مبين للواقع وأن كل من أشرك بالله فإنه مشرك بلا علم بل بما يعلم بالفطرة خلافه ولكن من المعلوم أن الشيء إذا كان بلا علم فإنه لا ثبوت له ولا أصل، فالصلة في قوله ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾؛ لبيان الواقع، وقد بينا أن كل قيد لبيان الواقع أو الغالب أو المبالغة فإنه لا مفهوم له ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ بدأ هنا باسم العزيز؛ لأن المقام يقتضيه إذ إن هؤلاء أقباط من آل فرعون يظنون أن العزة لهم فقال: أدعوكم إلى العزيز لم يقول إلى الغفور الرحيم بل قال: إلى العزيز الغفار لأن العزيز، العزيز الغالب فيهلككم إذا أنتم أشركتم به أو كفرتم به الغفار يغفر لكم ما سبق إذا أنتم آمنتم به، وهذا من تمام فقه هذا الرجل المؤمن.

فإنه قد يقول قائل: إن المقام يقتضي وأنا أدعوكم إلى الغفور الرحيم، لكن الأمر بالعكس المقام يقتضي ذكر اسمه العزيز؛ لأن هؤلاء يدَّعون أنهم فوق الناس وأن ربهم فرعون وأن لا غالب لهم.

وقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ اسم من أسماء الله والغفار أسم من أسماء الله والغفور اسم من أسماء الله، وليعلم أن أسماء الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

الأول: ما كان مشتقًا من وجه متعدٍ فهذا لا يتم الإيمان به إلا من أمور ثلاثة: الأول: إثبات اسم لله والثاني: إثبات الصفة التي دل عليها والثالث: إثبات الحكم المترتب على هذه الصفة.

والقسم الثاني: غير متعدٍ ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات اثنين: إثبات اسم من أسماء الله وإثبات الصفة التي دل عليها، لأن كل اسم يدل على صفة، ليس لله اسم يكون جامدًا؛ خلاف لمن قال: إن كلمة (الله) اسم جامد غير مشتق وهذا ليس بصحيح ما من اسم من أسماء الله إلا وهو مشتق لأن الله وصف أسمائه بأنهم حسنى وما لا يتضمن الصفة ليس بحسن فضلًا على أن يكون

أحسن.

نضرب أمثلة لهذا: الحي من أي القسمين؟ من اللازم تؤمن به اسم من أسماء الله وبالحياة الدالة التي دل عليها الاسم، والسميع متعدي تؤمن بالسميع اسم لله وبالسمع صفة لله وبأنه يسمع إثبات للحكم وهو الأثر المترتب على هذه الصفة.

ثم اعلم أن الاسم يتضمن أحيانًا صفة وأحيانًا صفتين وأحيانًا أكثر؛ لأن أنواع الدلالة ثلاثة: مطابقة وتضمن والتزام فمثلًا من أسماء الله تعالى الخلَّاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ تؤمن بالخلاق اسمًا من أسماء الله، وتؤمن بصفة الخلق التي تضمنه اسم الخلاق، وإيمانك بالاسم والصفة هذا إيمانٌ بدلالة المطابقة وإيمانك بالاسم وحده أو بالصفة وحدها إيمانٌ بدلالة التضمن، ثم إيمانك بأنه عليمٌ قدير إيمانٌ بدلالة الالتزام؛ لأنه ما من خلاق إلا وهو عليم وما من خلَّاق إلا وهو قادر؛ لأنه إن كان جاهلًا فكيف يخلق؟! وإن كان عاجزًا، فكيف يقدر فهذه فدلالة الخلّاق على العلم والقدرة دلالة التزام، وهذه الدلالة - أعني دلالة الالتزام - تتفاوت فيها الناس تفاوتًا كثيرًا، فمن الناس من يعطيه الله تعالى فهمًا يدرك به اللوازم التي تلزم على هذا الاسم، ومن الناس من هو دون ذلك، فتجد بعض الناس يستنبط فوائد عدة بدلالة اللزوم وآخر لا يقدر، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء؛ إذن العزيز لا يتم الإيمان به إلا بأن نعرف معناه أولًا العزيز بمعنى ذو العزة: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾، والعزة قالوا أنها ثلاثة أنواع عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع، عزة القدر بمعنى أنه سبحانه وتعالى عزيزٌ قدرًا بحيث لا يكون مماثل له، وعزة الامتناع يعني أنه عز وجل عزيز أي يمتنع أن يناله السوء والعزيز يأتي بمعنى الامتناع في قوله: تعالى﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع والثالث عزة القهر بمعنى أنه الغالب ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالعزة يعني الغلبة، إذا كان العزيز بمعنى الغالب فهو من الأسماء، فعز أي غلب فهو غالب، ومقابله مغلوب، وإذا كان عز بمعنى امتنع أو بمعنى كان ذا قدر عظيم، فهو لازم.

إذن نقول العزيز من جهة يكون من الأسماء المتعدية متى؟ إذا كان في معنى الغالب من جهة أخرى تكون غير متعدية إذا كانت بمعنى الامتناع أو بمعنى القدر.

قال الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ هل الجواب مطابق لقولهم أو غير مطابق؟

المطابقة أن يقول: والله أعز والمؤمنون، لكن لم يذكر هذا بل قال: ولله العزة إشارة إلى أن المنافقين لا عزة لهم أصلًا؛ لأنه لو قال: الله أعز لأثبت للمنافقين عزة ولكنهم ليس لهم عزة حصر العزة لله ورسوله والمؤمنين ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه من بلاغات القرآن، وإذا

تأملت القرآن سبحان الله تبين لك أمور تبهرك في دلالاته وإشاراته وإيماءاته، فسبحان الذي أنزله عز وجل.

والغفار اسم من أسماء الله وهل هو من أسماء الله المتعدية ؟المتعدية؛ لأن الله قال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾؛ إذن لابد أن نثبت الغفار اسمًا من أسماء الله ولابد أن نثبت الصفة وهي المغفرة وربك الغفور ذو الرحمة، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، ونثبت أنه يغفر يوصل المغفرة من شاء أن الله هو العزيز الغفار.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ وهو الكفر بالله والإشراك به ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾ أي ليس له استجابة دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ولا جرم أيضًا ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ قال المفسر: [﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًا] يعني أن معنى لا جرم حق، وعلى هذا فتكون لا زائدة وجرم بمعنى حقًا وهذا ما ذهب إليه المؤلف والمعربون اختلفوا فيها. والصواب في إعرابها أن لا نافية للجنس وجرم اسمها ومعنى جرم لا شك أو لابد هذا هو الصواب والتركيب واضح، ولا يحتاج أن يقدر أن لا زائدة وجرم بمعنى قطع وأن مصير الجملة إلى أن تكون مصدر لعامل محذوف يعني يحق حقًا أن ما تدعونني إليه إذا قلنا لا شك أن ما تدعونني إليه إلى آخره ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة انتهى الإشكال، وعلى هذا فإن جرم اسم لا وإنما وما دخلت عليه في تأويل مصدر خبر لا وانتهي الموضوع، والمعنى يقول: لا شك ولا ارتياب أن الذي تدعونني إليه ليس له دعوة.

وقوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ما مربوطة بأن، والظاهر وحسب القواعد المعروفة أن تكون مفصولة؛ لأن المعنى: لا جرم أن الذي تدعونني إليه وإذا كانت ما مفصولة فإنه تفصل عن إن كتابةً، لكن رسم المصحف تمشى فيه العلماء على الرسم العثماني؛ احترامًا للقرآن أن يغير؛ ولهذا الصلاة في المصحف مكتوبة بالواو والزكاة بالواو والربا بالواو و ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالتاء المفتوحة، كل هذا اتباعًا للرسم العثماني احترامًا لكتاب الله أن يدخله التغيير.

وقد اختلف العلماء هل يكتب القرآن حسب القواعد وفي كل وقت بحسبه أو على الرسم العثماني.

فقيل: إنه يجوز أن يكتب على القواعد في كل وقت بحسبه؛ لأن المقصود أن يتلى كتاب الله على حسب ما نزل لا على حسب ما كتب، والقرآن نزل مكتوبًا أو نزل مقروءًا؟ مقروءًا؛ إذن الكتابة ما هي إلا اصطلاحات بل تخضع لأعراف الناس.

والقول الثاني: أنه لا يجوز أن يغير أبدًا سدًا للباب ومنعًا لتغير حتى لا يجرؤ أحد أن يغير في كتاب الله عز وجل وهذا لا شك أنه يرمي إلى قوة احترامنا للقرآن الكريم والأول يرمي إلى قوة إيصال القرآن إلى الناس على وجه لا إشكال فيه.

والقول الثالث: أنك إن كتبته للدارسين المبتدئين فلا بأس أن تكتبه حسب القواعد المعروفة؛ لأن الدارسين المبتدئين لا يعرفون، وأما إذا كنت تريد أن تكتبه ليُقرأ فهذا يكتب على حسب الرسم العثماني والظاهر أن هذا القول مفصل، وأرجح الأقوال الثلاثة.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أن حرف توكيد ينصب المبتدأ ويرفع الخبر، وما اسمها ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ خبرها.

يقول: [أنما تدعونني إليه لأعبده]، ولكن هذا التفسير قاصر ما الذي دعوه إليه أن يكفر بالله ويشرك به فهم دعوة إلى أمرين، والمؤلف قصره على أمر واحد وهو عبادة غير الله وهذا إشراك، [﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي: ليس له استجابة دعوة] والصواب: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يدعى بها ولا دعوة يجيبها فمعنى ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ يعني يستحق أن يُدعى، وهو أيضًا لا يستجيب إذا دعي كما قال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] إلى آخر الآية ما يملكون من قطمير ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ فرضًا ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾، زد على ذلك أنكم تريدون أن ينفعكم في الآخرة والأمر ليس كذلك ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا الذي تدعوه لا يمكن أن يستجيب لك إلى يوم القيامة أبدًا ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ هم يجوز أن يكون المدعون ويجوز أن يكون الداعون، والهاء في دعائهم يجوز عودها لهذا وهذا حسب الضمير السابق، وإذا حشر الناس وهو الوقت الذي يريد هؤلاء الداعون أن ينتفعوا بالمدعوين وإذا حشروا الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين؛ لأن الله يقول ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ أي: المودة والمحبة التي كانت يظهرونها لهم في الدنيا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا﴾.

على كل حال: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ المؤلف: يقول: [ليس له دعوة مستجابة] يعني: لا يستجيب الدعوة، والصواب: أن لها معنيين أنه لا يستجيب ولا يدعى، فهو لا يستحق أن يدعى ولو دعي لم يستجب.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لا يستطيع هذا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

قال: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ ذكرهم بالحساب رحمه الله وجزاه خيرًا، ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ أي: مرجعنا إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة أم في الآخرة فقط؟ في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فالمرد إلى الله في الدنيا وفي الآخرة.

وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يعني: ولا جرم أيضًا أن المسرفين هم

أصحاب النار فهذه ثلاثة أشياء كلها جزم بها جزمًا: أولًا أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، والثاني: أن مردنا إلى الله والثالث: أن المسرفين هم أصحاب النار، المسرف اسم فاعل من الإسراف وهو تجاوز الحدود يقول كفرًا ويقول دون كفر، فالإنسان الذي يملأ بطنه من الطعام والشراب مسرف، لكنه ليس بكافر؛ لأن الله قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وكذلك إسراف اللباس وغيره لا يؤدي إلى الكفر، لكن الإسراف في عبادة الله بأن تتجاوز عبادة الله إلى عبادة غيره هذا هو الكفر وهذا هو مراد هذا الرجل المؤمن في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (هم) ضمير فصل، وقد سبق لنا أن ضمير الفصل لا محل له من الإعراب، فلا يؤثر فيما قبله ولا يؤثر فيه ما قبله هذه واحدة، وقلنا: إن ضمير الفصل له فوائد وهي: التوكيد، والحصر، وتميز الخبر عن الصفة وضربنا لذلك مثلًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الأولى:** إنكار هذا الرجل المؤمن على قومه بما يشهد العقل بصحته حيث قال: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾، وإذا كان العقل يدل عليه على صحته فهو محل عجب، كل إنسان عاقل يعجب أن يكون هذا الشيء، رجل يدعو قومه إلى النجاة وهم يدعونه إلى النار.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** مراعاة الحال في الخطاب وجهه: أنه قال: ﴿إِلَى النَّجَاةِ﴾ مع أنه يدعوهم إلى الجنة، لكن لما كان دعوتهم إياه إلى الهلاك آثر أن يقول: إلى النجاة.

مسألة: هل يلزم من النجاة من النار دخول الجنة؟

الجواب: نعم يلزم وجه اللزوم: أنه ليس في الآخرة إلا إحدى الدارين إما الجنة أو النار ولذلك كان أصحاب الأعراف الذين يبقون بين الجنة والنار مآلهم إلى الجنة.

٣ - **ومن فوائد الآية الثانية:** أن كل مَنْ أشرك بالله أو أنكره أي: كفر به، فليس له علم في ذلك مهما كان، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة** أن الإشراك بالله كجحود الله، ويدل ذلك أيضًا قوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة** تذكير هذا الرجل المؤمن هؤلاء بعزة الله ومغفرته؛ ترغيبًا وترهيبًا؛ لقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ الترهيب في قوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾ والترغيب في قوله: ﴿الْغَفَّارِ﴾، والله أعلم.

مسألة: يقول ما ينقله الله عز وجل عن الأمم السابقة هل هو بالمعنى أو باللفظ؟

الجواب: بالمعنى لا شك أولا لأن لغة هؤلاء ليست لغة عربية، ولو كان باللفظ لكان كلام

البشر معجزًا؛ لأن الإعجاز يحصل بالآية والآيتين والثلاثة، وهذا الرجل المؤمن كم تكلم من آية؟! إذن لأن الله هو الذي ساقه بنفسه فنقله بالمعنى، هذا يوصلنا إلى شيء الحديث القدسي هل هو كلام الله أو معناه؟

الجواب: فيه خلاف؛ منهم من يقول: هو كلام تكلم الله به لفظًا، ومنهم من يقول تكلم به معنى والصياغة من الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنهم من يقول قل قال الله ولا تقل قول ولا معنى ما دمت في عافية فاسلك طريق العافية، لكن أحيانًا يحرج الإنسان يقال: أعطني الفرق بين الحديث القدسي والقرآن؟ وأما إذا أمكنه السلامة فالسلامة خير لكن تأتيك بعض الناس تقول لك: أخبرني عن الفرق بين الحديث القدسي والقرآن فالفرق هو هذا أن الحديث القدسي ليس لفظ الله عز وجل لأنه لو كان لفظ الله لكان معجزًا ولثبت له أحكام القرآن بحيث لا يقرأه جنب ولا يمس إلا بطهارة ولا أحد يقدر على تحريفه وما أشبه ذلك وهذا كله منتفٍ.

فإذا قال قائل: أليس الرسول يقول قال الله؟

قلنا: بلى أليس الله يقول: قال موسى وما أشبه ذلك وهو بغير لغاتهم؟! هذا لا يمنع ثم لو قلنا أنه كلام الله باللفظ أشكل علينا إشكال عظيم، فإما أن يكون بواسطة جبريل أو بغير واسطة، فإن كان بغير واسطة كان أعلى سندًا من القرآن؛ لأن القرآن بواسطة جبريل، وإن كان بغير واسطة فأي إنسان يقول بغير واسطة فإننا ربما نخنقه أو نعطيه كفًّا على ظهره؛ لأنه إذا جعله بواسطة والرسول حذف الواسطة صار عندنا إشكال وهو التدليس، والرسول ﷺ منزه عن هذا.

فعلى كل حال: المسألة كما قلت لكم أحدهم يقول أنه كلام الله لفظًا ومعنى، والثاني يقول كلام الله معنًا لا لفظًا، والثالث يسكت ويقول: نقول قال الله ونسكت، وهذا إذا حصل للإنسان السلامة فهو أسلم لكن كما قلت لكم أحيانًا يقول: أعطني الفرق بين القرآن والحديث القدسي نقول: هذا الفرق هو أن القرآن كلام الله لفظًا ومعنى والحديث القدسي كلام الله معنى لا لفظًا.

فإن قال قائل: وحينئذ نطالبكم بالفرق الحديث النبوي والقدسي لأن الحديث النبوي كلام الرسول؟

نقول: هذا سهل الفرق بينهما أن الحديث النبوي لا يضيفه الرسول إلى الله، والحديث القدسي يضاف إلى الله انتهى الإشكال في هذه المسألة.

ثم اعلم أن هذه المقامات إذا حصلت السلامة فهي أسلم، ولكن إذا ابتلي الإنسان فلابد أن يفصل ومن ذلك، مثلًا لفظ الجسم معلوم أن جميع المعطلة بنوا تعطيلهم على مسألة الجسم حيث ادعوا أنه إذا أثبتوا الوجه أو اليد أو ما أشبه ذلك فإنه يقتضي أن يكون لله جسم حتى الاستواء يقول: إذا أثبتت أن الله استوى فإن الله جسم، ونحن نقول لهم: ما هذا الجسم الذي جعلتموه

دبوسًا معلقًا تخرقون به كل سياق لإثبات الصفات؟

إن إردتم أنه جسم مكون مخلوق يمكن انفصال بعضه عن بعض وبانفصال بعضه ينقص وربما يهلك فالله منزهٌ عن هذا لا شك، ومن اعتقد هذا في ربه فهو كافر ، وإن أردتم بالجسم أنه ذو ذات يفعل ما يشاء ويتكلم ويجيء وينزل ويستوي ويتصف بصفاته اللائقة به فهذا حق أم باطل؟ حق، لكن من جهة إثبات لفظ الجسم أو نفيه هذا ممنوع، لا تقل إثباتًا أن الله جسم ولا نفيًا أن الله ليس بجسم؛ لأنه لم يوجد إثبات ولا نفي فهذه مسائل ينبغي لطالب العلم أن يفهمها، فمثلًا إذا جادل الإنسان ويقول: ما تقول في الجسم؟

أقول: أما باعتبار لفظه فالواجب الكف عنه إثباتًا أو نفيًا، أما من جهة المعنى فله أن يستفصل.

٦ ـ **من فوائد الآية الثالثة:** أن كل ما يُدعى من دون الله، فليس له دعوة استحقاقًا ولا في الإجابة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن هذه الأصنام لا تنفع عابديها سواء دعوها دعوة مسألة أو دعوة عبادة، والفرق بين دعوة المسألة: أن المسألة يطلب فيها الإنسان حاجة ما، ودعاء العبادة يتعبد لله، وإنما كانت العبادة دعاء لأن العابد يدعو بلسانِ حاله أن يثاب على هذه العبادة ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ فقال أدعوني، ثم قال: إن الذين يستكبرون عن عبادتي، فدل هذا على أن الدعاء عبادة.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الرجوع إلى الله عز وجل، وأن مرد الأمور إليه؛ لقوله: ﴿وإن مردنا إلى الله﴾و هذه الآية لها نظائر منها قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ومنها: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ ومنها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة: أن مرجع الخلائق إلى ربها عز وجل.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم الإسراف؛ وجه الدلالة من الآية قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الإسراف قد يصل إلى حد الكفر، يؤخذ من الآية في قوله:﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ومتى وجدت أصحاب النار فهم الذين هم أهلها والذين هم مخلدون فيها.

١١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** قوة إيمان هذا الرجل تأخذ هذا من قوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائدها:** استعمال التعريض؛ لأنه لاشك أنه أول ما يدخل في هذه الجملة هؤلاء،

لكنه لم يشأ أن يتكلم بهذه الطريقة.

مسألة: هل يمكن أن نقول في هذه الآية إظهار في موضع الإضمار؟

الجواب: من الممكن أن نقول و من الممكن أن نقول هذه تورية وعلى كل حال فالإظهار في موضع الإضمار من أساليب اللغة العربية وهو كثير في القرآن، وله فوائد منها: إرادة العموم يعني: يعم الحكم من استعمل في حقه ومن لم يستعمل، ومنها بيان العلة التعليل؛ لأنه إذا جاء الوصف معلقًا عليه حكم من الأحكام دل على ذلك على عليَّة هذا الوصف، ومنها: التسجيل على هؤلاء الذين كانوا مفترض سياقًا أن يذكروا بالضمير بما يقتضيه هذا الوصف فهذه ثلاث فوائد: إرادة التعميم، وبيان العلة، والحكم على هؤلاء بأنهم مستحقون لهذا الوصف.



قال الله تعالى:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٤ـ٤٦]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى في بقية كلام هذا الرجل المؤمن ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ السين وسوف كلاهما يختصان بالفعل المضارع، ومن علاماته، وإذا رأيت كلمة تقبل السين وسوف فهي فعل مضارع لكنهم يفترقان، السين تدل على القرب وسوف تدل على المهلة فقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ ﴾ أي: عن قريب وهي مع إفادته القرب تفيد التحقق يعني أن هذا أمر لابد أن يكون ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ متى؟ إذا عاينتم العذاب، وهذا ليس ببعيد؛ لأن غاية ما بينهم وبينه أن تنتهي آجالهم وكل آتٍ قريب، وحينئذ لا ينفعهم ذلك كما لو نصحك ناصح عن فعل شيء ثم لا تقبل النصيحة، وبعد ذلك رأيت عاقبتها وخيمة، فإنك ستذكر قول الناصح ستذكره ندمًا وحزنًا.

قال: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الواو هنا للاستئناف، ولا يصح أن تكون عاطفة ؛لأنها لو كانت عاطفة؛ لكان المعنى وسأفوض أمري إلى الله، ولكن هذا ليس المعنى، بل المعنى وأنا أفوض أمري إلى الله فالواو هنا للاستئناف، أفوضه إلى الله أي: أكله إلى الله عز وجل وقوله: ﴿أَمْرِى﴾

هذا مفرد مضاف يعم والمراد به الشأن أي: شأني كله، و ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذا غاية ما يكون من التوكل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ هذه الجملة تعليلية للحكم السابق، وهو قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كأن قائلًا يقول: لماذا فوض أمره إلى الله؟ فأجاب بأن الله تعالى بصير بالعباد، بصير بالعباد أي بأحوالهم وحاضرهم ومستقبلهم وجميع شئونهم، فهو جل وعلا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، يعلم كل أحوالهم، [قال ذلك لما توعدوه بمخالفة دينه] يعني: كأنهم توعدوه فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولكن التوعد ليس في الآية دليل عليه.

والظاهر والله أعلم: لم يقل ذلك حين يتوعدون ولكنه قال ذلك حين أيس من أن يمتثلوا لنصيحته فقال كالمودع لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ وأما أنا فأفوض أمري إلى الله؛ لأني قمت بما يلزمني من نصيحة وهذا أكثر ما يجب علي.

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ هذا يدل على رد كلام المؤلف؛ لأنهم لو توعدوه بالقتل لم يكون هذا مكرًا؛ إذ أن المكر هو الإيقاع بالغير من حيث لا يشعر، هذا المكر أن توقع بغيرك من حيث لا يشعر أما لو توعدوه بالقتل لم يكن هذا مكرًا بل كان هذا صريحًا واضحًا.

قال: [﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: نجاه من مكرهم السيئ] فسيئات هنا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها أي: المكر السيئ وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾ المكر والخداع والغدر وما أشبه ذلك، كل ألفاظ متقاربة تدور حول شيء واحد وهي أن توقع بغيرك من حيث لا يشعر، ﴿مَا مَكَرُوا۟﴾ قال: [به من القتل] بيّن في هذا أن العائد على الصلة بقوله: (ما) محذوف والتقدير ما مكروا به.

قال: [﴿وَحَاقَ﴾ نزل ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾قومه ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق] حاق بمعنى: نزل لكن تشعر بأنها ليست بمعنى نزل من كل وجه، وأن تفسيرها بالنزول تفسير تقريبي حاق القاف قريبة من الطاء فكأن المعنى حاط بهم، وهذا أشد من نزل، الظاهر: أن حاق بمعنى نزل محيطًا بهم وليس بمعنى نزل على وجه المجرد بدون إضافة معنى.

وقوله: ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ قال المؤلف: [قومه] وقال غيره: أتباعه، والظاهر أن المعنى متقارب؛ لأن الذين اتبعوه إنما هم قومه وأما بنو إسرائيل فإنهم لم يتبعوه بل كانوا يذبحوا أبناءهم ويستحيوا نساءهم، وقوله:﴿مَعَهُۥ﴾ ذكرها؛ لئلا يظن الظان بأن العذاب نزل بآل فرعون دونه ولكن هذا لا يمكن أبدًا إذا كان آل فرعون إنما نزل بهم العذاب؛ لأنهم كفروا بالله ففرعون أكثر كفرًا بالله من هؤلاء، ثم إن الظاهر أن الإنسان إذا قال: أَكْرِم آل فلان، فإن فلانًا هو مقدمهم

ولا بد أن يدخل فيهم.

وقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا أيضًا من باب إضافة الصفة إلى موصوفها أي المعنى: العذاب السيئ وفسره المؤلف بأنه الغرق، وهذا لا شك منه أنه من سوء العذاب لكن هناك عذابات أخرى أُصيب بها آل فرعون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ كلها من سوء العذاب، الطوفان ليُغرق ما بذر من نبات، والقمل لأجل أن يفسد ما ظهر، والضفادع لتفسد الماء؛ لأنهم صاروا كلما أخذوا إناء يشربونه وجدوا هذه الضفادع قد ملأته، والدم هو نزيف الدم إما من الأنف أو من غيره فعوقبوا من كل وجه بالزروع غرق وما ادخروه قمل والماء ضفادع بعد أن يصل إلى الجسم ويتغذي به الجسم يخرج هذا ينزل دمًا فهلكوا وهذا فيه ترتيب ودرجات، وهذا من سوء العذاب، والنهاية هو الغرق أن أغرق آل فرعون بالبحر.

قال: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذه الجملة مستأنفة؛ فالنار مبتدأ و﴿يُعْرَضُونَ﴾ الجملة خبر، والمعنى: أنهم يعرضون عليها فيأتيهم من سمومها وعذابها ما لا يطيقون والعياذ بالله، قال المؤلف: [﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا﴾ صباحًا ﴿وَعَشِيًّا﴾ بالمساء] والظاهر: أن المراد الدوام، ويحتمل أن المراد هذان الوصفان فقط، فأما الأول فقد يستدل له بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يعني: في كل زمن أما الثاني فيمكن أن يقال: إن هذا ظاهر اللفظ أي في أول النهار وآخره وأنهم يعرضون على النار في أول النهار، ثم إذا صرفوا عنها أمّلوا أنها لا تعود إليهم فتعود فيكون هذا أشد من الاستمرار؛ لأن كون الإنسان يأمل ارتفاع العذاب عنه ثم يعود أشد من كونه مستمرًا آيسًا من زواله؛ ولهذا قال الله تعالى لأصحاب النار: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ هذه قراءة، وعلى القراءة أخرى: ﴿ادْخُلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ (ادخلوا) فعل أمر والمقصود به الإهانة والإذلال بخلاف قوله تعالى لأهل الجنة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ فهذه للإكرام أما هذه ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ هذه إهانة والعياذ بالله وقوله: ﴿ءَالَ﴾ فسرها المؤلف بقوله: [يا آل] إشارة إلى أنها منصوبة بياء النداء المحذوفة أخلوا يا آل فرعون، [وفي قراءة بفتح الهمزة وكسر الخاء أمرٌ للملائكة] يعني: أدخِلوا آل فرعون يعني يوم القيامة يقال للملائكة: أدخِلوا آل فرعون أشد العذاب أشد العذاب عذاب جهنم نسال الله العافية.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾

١ - **من هذه الفوائد**: أن الله سبحانه وتعالى حسب من توكل عليه؛ لقوله ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.

٢ - **ومن الفوائد في قوله**: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بيان تحذير هؤلاء الذين ينصحهم المؤمن بأنهم سيذكرون كلامه ويعرفون أنه الحق، لكن متى؟ في حال لا تنفعهم هذه الذكرى.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** قوة توكل المؤمن؛ حيث قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا ما يجب على كل مؤمن إذا أراد أن تُقضى أموره وتسهل فليفوض أمره إلى الله؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن كان الله حسبه فهو رابح وهو ناجٍ.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات علم الله سبحانه وتعالى بكل العباد؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، وهذا تفسير يشمل الأحوال والأعيان.

٥ - **ومن فوائد الآية التي بعدها** أن الله سبحانه وتعالى يكفي من توكل عليه فيحميه من عدوه؛ لقول الله تعالى ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة** التحذير من أعداء المسلمين؛ لقوله: ﴿مَا مَكَرُواْ ۖ ﴾، وأن أعداء المسلمين قد لا يواجهونهم بالعداوة، ولكن يمكرون بهم، فليحذر المؤمن مكر أعداء الله وهذا في القرآن كثير، إذ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، ومن مكر أعداء الله أنهم لا يجابهون المسلمين بالعداوة لكنهم يغزونهم من حيث لا يشعرون بالأفكار المنحرفة والأخلاق السيئة كما تشاهدون الآن وتسمعون ما يفعل أعداء الإسلام بالمسلمين يوفدون إليهم الأخلاق السافلة من وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة ويوفدون إليهم كل ما يخالف دين الإسلام في الملابس وغير الملابس، يغرونهم بالأموال الطائلة لإذهاب أوقاتهم سدى بلا فائدة كمسألة الرياضة، وما أشبه ذلك.

فالمهم: أن أعداء المسلمين يمكرون بهم مكرًا عظيمًا والمسلمون إما أنهم لا يفهمون هذا المكر، وإما أنهم لا يعرفون ولكن على كل حال الواجب علينا أن نحذر.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله سبحانه وتعالى يجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء بإساءته وتكون إجازة المسيء بإساءته تكون في الحقيقة مجازة للمحسن؛ لأن أخذ أعدائك بالعذاب هو في الحقيقة انتصار لك وأنت تفرح بذلك تؤخذ من قوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ فبين الله تعالى جزاء هذا وجزاء هؤلاء.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات عذاب القبر؛ لقوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا

وَعَشِيًّا ﴾، وعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، أما القرآن ففي مثل الآية: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟﴾ يعني قوله يوم ظرف زمان متعلق بما بعده أي متعلق بالفعل (أدخِلوا) أو (ادخلوا) وهذا إذن لا يكون إلا بعد يوم القيامة وعرضهم على النار غدوًّا وعشيًّا يكون قبل يوم القيامة، ففيه إثبات عذاب القبر.

وهو ثابت في القرآن والسنة والإجماع:

أما القرآن: في مثل هذا، ومنه ـ أي من أدلة القرآن ـ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ اليوم (ال) هنا للعهد الحضوري واليوم يعني هذا اليوم الذي هو يوم موتكم فدل ذلك على ثبوت عذاب القبر.

وأما السنة: فهي متواترة في ذلك كثيرة على وجوه متنوعة عامة وخاصة؛ من الخاصة قوله ﷺ حين مر بقبرين يعذبان: «إِنَّهُمْ لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»[1].

وأما الإجماع: فكل المسلمين يقولون في صلاتهم أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر وهذا أمر لا إشكال فيه وهو من عقيدتهم.

فإن قال قائل: هل العذاب يكون على البدن أو على الروح أو عليهما جميعًا؟

نقول: ظاهر السنة أن العذاب يكون على البدن حين مسائلة الملكين؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن المنافق والمرتاب يقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا، فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين: الإنس والجن[2] فإنهم لا يسمعونه فكل شيء يسمعه، والمراد بذلك من قرب منه بحيث يسمع، أما من كان بعيدًا فلا، وهذا يدل على أن الذي يعذب حين مسائلة البدن؛ لقوله فيضرب، أما بعد ذلك فالأصل: أن العذاب على الروح فقد تتصل بالبدن كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وإن شئنا قلنا هذا بحث لا طائل تحته ولم يسأل عنه الصحابة، فيثبت عذاب القبر على حسب ما جاء في الكتاب والسنة لا نزيد ولا ننقص.

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجود النار؛ لقوله: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ووجودها ثابت في القرآن والسنة، وقد رأى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم النار حين عُرضت عليه وهو يصلي في الناس صلاة خسوف، ورأى فيها من يعذب[3]، فالنار موجودة.

١٠ ـ **ومن وفوائد الآية الكريمة**: إثبات قيام الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾، ونحن نؤمن بالساعة وأنها ستقوم وسيبعث الناس؛ وبهذا نعرف أن ما يذكره بعض الناس اليوم

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٨) ومسلم (١١١/ ٢٩٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٣٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩/ ٩٠٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

حين يموت الرجل فيدفن يقولون: إنهم ذهبوا به إلى مثواه الأخير، هذه الكلمة كلمة كفر إذا قلت إلى مثواه الأخير، فهذا يعني: أنه لا بعث بعد ذلك وأن هذا أخر مرحلة للإنسان وليس الأمر هكذا؛ ولهذا نقول: إن من قال هذه الكلمة وهو يعرف معناها ويريده فإنه كافر؛ لأنه منكر للبعث أما من قالها وقال إلى مثواه الأخير باعتبار الدنيا المشاهدة، فهذا صحيح، لكن ظاهر العبارة الكفر؛ ولهذا يجب التحرز منها ويقال: مثلًا ذهبوا به إلى قبره، أو ذهبوا به إلى محل زيارته، هذا صحيح.

١١ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إهانة الكفار إهانة بدنية وإهانة قلبية تؤخذ من توبيخهم وإهانتهم في قوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ولا شك أن قلبوهم تتأثر في هذا وستجد الحسرة والندامة والعياذ بالله.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** التبكيت على آل فرعون كأن قال: ادخلوا آل فرعون وانظر هل ينفعكم أن تكونوا من آلهة أو لا، ففيها نوع تبكيت لهؤلاء.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النار هي أشد العذاب، وأن كل ما قبلها أهون منها لقوله: ﴿أشد العذاب﴾، ولا شك أنها أشد العذاب، كذلك نقول بالنسبة للنعيم ما يجد المؤمن من النعيم في القبر فليس بشيء لما يجده يوم القيامة، فأصل النعيم يكون بدخول الجنة وما قبله فهو كالتقدمة بين يديه.

مسألة: أهل الإلحاد يقولون: إنكم تقولون: إن الميت يوقظ في قبره ويعذب ونحن نحفر القبر ونجد أن الميت باقٍ على ما هو عليه فما الرد على هؤلاء؟

الجواب: نرد عليهم - حسيًّا - بأن هذا النائم يرى أنه معذب أو أنه منعم وأنه ذهب وأنه جاء وهو على فراشه لم يتغير حتى اللحاف ما سقط عن ظهره، هنا نقول: قس الحاضر بالغائب ثم لو كان عذاب القبر يُدرك بالاطلاع عليه لم يكن إيمانًا بالغيب، وكان إيمانًا بالشهادة، والإيمان بالشهادة لا ينفع - يعني: الإنسان إذا عاين الشيء فإن إيمانه به لا يكمل - ترى الكافرين عند حضور الأجل يؤمنون، ولكن هل ينفعهم ذلك؟ لا ففرعون لما أدركه الغرق ماذا قال؟ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

انظر إلى هذا الحد يعني: اعترف لله تعالى بالتوحيد ثم اعترف أنه تابع لبني إسرائيل؛ لقوله: ﴿ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل أنه لا إله إلا الله؛ إشارة إلى أنه ذل حتى صار تابعًا لبني إسرائيل بعد أن كان متجبرًا عليهم.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٧ـ٥٠]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ يعني: [اذكر إذ يتحاجون في النار] أي: يجلب كل واحد منهم بحجته، و(إذ) ظرف عامله محذوف قدره المؤلف بقوله: [اذكر إذ يتحاجون]، والمحاجة هي المخاصمة وإدلاء كل من حجته على الآخر.

وقوله ﴿فِي النَّارِ﴾ تفيد أن هؤلاء المتخاصمين هم أهل النار وهي متعلقة بـ ﴿يَتَحَاجُّونَ﴾، ثم بين هذه المحاجة فقال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الضعفاء إما في المال، وإما في الشرف والسيادة، وإما في غير ذلك من ما يعد ضعفًا والغالب أن الضعيف يتبع القوي.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [أي تكبروا] من الكبرياء والعظمة والسين والتاء فيها للمبالغة [﴿إِنَّا كُنَّا﴾ يعني في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ جمع تابع أي متبعين] ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ يعني: هل تجازوننا على متابعتنا إياكم بأن تتحملوا عنا شيئًا من النار وقولهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ قال المفسر: [دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ جزءًا من النار] انظر كيف يتوسل هؤلاء الضعفاء إلى الذين استكبروا كيف يتوسلون إليهم بما قدموا من متابعتهم ليتحملوا عنهم نصيبًا من النار؟! فكان جواب الذين استكبروا: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، وإذا كنا كلًّا فيها فكيف نغنيكم نصيبًا من النار، وهذا جاء ببيان الواقع.

وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ حكم بينهم بحكمه الجزائي؛ لأن الأحكام أحكام الله عز وجل ثلاثة قدري وشرعي وجزائي، والجزائي من القدري في الواقع، لكن بعض العلماء يجعله منفصل لأهميته؛ لأنه هو الغاية وقوله: ﴿حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ يعني: بين الناس عمومًا بين أهل النار وأهل الجنة، فالعبودية هنا بمعني العبودية العامة الشاملة؛ لأن العبودية عامة وخاصة.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية فوائد منها:** تعادي الكفار بعضهم مع بعض وأن القوي منهم لا يرحم الضعيف؛ لقوله: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء الكفار أدلوا بمعروف للمتبوعين وهو أنهم كانوا لهم تبعًا؛ ليتوسلوا به إلى أن يأخذوا عنهم نصيبًا من النار، ففيه دليل على: توسل الإنسان بجميل عطائه على الغير ولكن هل يعد هذا من المنة؟ الواقع: أن الذي يبين أنه توسل أو منّة هو القرائن، قد يكون هذا منة وقد يكون هذا توسل فيقول مثل ما رحمتك وأعطيتك وأحسنت إليك فأحسن إليَّ، فيكون هذا من باب التوسل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الضعفاء دائمًا يكونون أتباعًا للأقوياء لقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ ولهذا يتبين لنا الآن أن تقليد المسلمين للكفار يعني: ضعفهم أمامهم؛ لأن الضعيف دائمًا يقلد القوي لضعف شخصيته أمامه، وأنه يجب على المسلمين أن يكون لهم ميزة خاصة وأن يكون لهم قوة ذاتية؛ لأن القوة معهم فهم أهل الدين، وهم أهل الحق وهم الذين عرفوا الحياة وهم أهل الحياة في الواقع.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** أن هؤلاء الأتباع يتمنون أن يأخذ المتبوعون نصيبًا ولو قليلًا من عذاب النار عنهم، والدليل: أنهم يريدون ولو قليلًا من قولهم: ﴿نَصِيبٗا﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المستكبرين يعتذرون بأن لا طاقة لهم في ذلك؛ لأن الجميع في نار جهنم فكيف يأخذون نصيبًا عنهم؟ نعم لو كانوا ليسوا في نار جهنم، ثم يخبطون في النار من أجل أن يأخذون عن هؤلاء نصيبًا لأمكن، لكن ما دام الجميع في النار، فإن طلب تحقيق ذلك طلبُ شيء مستحيل.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قنوع هؤلاء المستكبرين يوم القيامة لقوهم: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ يعني: الآن ليس لنا فضل عليكم، وليس لكم فضل علينا، كلٌّ في نار جهنم.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقرار هؤلاء المعذَّبين في النار بأن الله سبحانه وتعالى قد حكم بين العباد حكمًا عدلًا؛ لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها:** أنه إذا نفد حكم الله فإنه لا يمكن رفعه ولا دفعه؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ

حَكَمَ﴾، وفي هذا يقول الله عز وجل في سورة (ق): ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨، ٢٩] إذا انتهى حكم الله فلا معقب لحكمه.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقرار هؤلاء المعذبين في نار جهنم أنهم من عباد الله، لكن يراد العبادة العامة وهي العبادة الكونية؛ لأن العبادة نوعان: عامة وهي العبودية الكونية، وخاصة وهي العبودية الشرعية، فمن خضع لله شرعًا فهو عابدٌ شرعًا، وكذلك الكوني، ومن تكبر عن عبادة الله شرعًا فهو عابدٌ كونًا وليس عابدًا شرعًا.

قال المفسر: [فأدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار] المعني أعم من ما قاله رحمه الله حكم بين العباد بين أهل الجنة والنار، وبين أهل النار بعضهم لبعض وحكم حكمًا عامًا.

ثم قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ استمع إلى هذا النداء الدال على البؤس واليأس: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾خزنة هو الخادم وهم الذين قاموا على خزانتها وحمايتها وحفظها؛ لأن النار لها خزانة وكذلك الجنة لها خزانة وكل أمر محكم، ويؤتى بجهنم يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام كل زمام يقوده سبعون ألف ملك وما أدراك ما الملائكة وما قوتهم! فهذه النار محكمة، ولها قواد يقودونها يوم القيامة.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وجهنم اسم من أسماء النار قيل: إنها عربية وأنها عجمية فعلى القول بأنها عربية تكون مأخوذة من الجُهمة وهي الظلمة؛ لأن النار سوداء مظلمة أعاذنا الله وإياكم منها، وعلى القول بأنها أعجمية يقال أن أصلها كهنام، ولكنها عربت حتى صارت جهنم وهي من أسماء النار يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ويقولون هذا - والله أعلم - حين يقولون لربهم عز وجل ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] حينئذٍ يتوسلون بغيرهم أن يكلموا الله يقولون: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقولوا ادعوا ربنا؛ لأنهم قد خسئوا من جهة ربهم قال لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، لكن توسلوا بعد ذلك بطلب من الملائكة أن يدعوا الله لهم: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ يخفف بالجزم جوابًا للأمر وهو قوله: ﴿ادْعُوا﴾ وأقول للأمر باعتبار صيغته وإلا هو في الحقيقة دعاء وسؤال.

وقوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ما الذي طلبوا؟ طلبوا تخفيفًا لا رفعًا وطلبوا يومًا لا دوامًا يعني: هم آيسون، لكن قالوا لعلك تنفع ولو بتخفيف يوم من العذاب - نسأل الله العافية - ومقتضى هذا: أنه في أشد ما يكون من العذاب وأنهم طلبوا أن يستريحوا ولو بعض يوم، ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قال المؤلف: [أي قدر يوم] وإنما قال قدر يوم؛ لأنه في يوم القيامة ليس هناك يوم ولا ليلة الشمس والقمر مكوران في نار جهنم، وكل شيء من أمور الدنيا منتهية ما فيه إلا أمر الآخرة، فيقول: المؤلف قدر يوم من العذاب قال: [قالوا لهم الخزنة تهكمًا] هكذا قال المؤلف،

ويحتمل أنهم قالوا ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا ليس تهكمًا؛ لأن الأمر واضح فهم يقررونه بشيء حاصل تنديمًا لهم ليزدادوا حزنًا.

وقوله: [﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الظاهرات] ليته قال بالآيات الظاهرات؛ لأن الرسل جاءوا بالآيات لا بالمعجزات، لكن الآيات أمرٌ خارق للعادة فهي معجزة وقد بينا في كرامة الأولياء في التوحيد: أن الأولى أن يسمى ما جاءت به الرسل من الدلالة على صدق رسالتهم آيات.

وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: [أي: فكفروا بهم ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أنتم].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مثل هذا التعبير يقع كثيرًا في القرآن أي: أن الهمزة تأتي ثم بعدها حرف عطف مثل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِ﴾ وما أشبه ذلك، فكيف نقول في إعرابه؟

نقول: في إعرابها وجهان للنحويين: الوجه الأول: أن الجملة معطوفة على ما سبق وأن الواو مقدَّمة على محلها، وأن التقديم في أولم تك، وألم تك، وهذا الوجه ليس فيه إلا دعوى التقديم والتأخير، لكنه سهل يعني: يسهل أن تقول: هذا معطوف عليه ما سبق. وقال بعضهم: إن الهمزة داخلة على جملة محذوفة، فالجملة مستأنفة هذه الجملة يكون تقديرها بحسب السياق ففي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ التقدير: أغفلوا ولم يسيروا، وهذا من حيث القواعد أقعد، لكنه تواجهك أحيانًا آيات لا تستطيع أن تعرف ما هو المقدم فصار هذا أقعد وذاك أيسر.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾ الاستفهام هنا للتقرير، ويقال: كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ وما أشبه ذلك، يقول كلما دخل الاستفهام على النفي فهو للتقرير، نحن نقول: لتقرير لكن هل يخرج عن معني التقرير أو يضم إلى معني التقرير معني آخر بحسب السياق؟

الجواب: نعم ففي قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ هو للتقرير إظهارًا لمنة الله عليه ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ للتقرير توبيخًا وتنديمًا.

وقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ جواب الاستفهام المقرون بالنفي الإثبات بـ (بلى) وجواب الاستفهام غير المقرون بالنفي الإثبات بـ (نعم) وجواب الاستفهام المقرون في حال النفي (نعم) وجواب الاستفهام المقرون بالإثبات في حال النفي (لا)، يقال: إن بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه قال في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: لو قالوا نعم لكفروا، وقال الفقهاء: لو قيل للرجل الست طلقت امرأتك فقال نعم، لا تطلق، وإن قال: بلى تطلق، قال ابن عباس: لو قالوا نعم لكفروا وهذا مسلم في ما إذا كان الإنسان يعرف اللغة العربية جيدًا، وأما العامي فعنده نعم وبلى سواء؛ ولهذا لو قيل للعامي: ألست طلقت امرأتك قال: نعم ماذا يكون؟ على القول

الصحيح تطلق؛ فالعبرة بالمعاني على أنه جاء في اللغة العربية جواب هذا بنعم ومنه قول العاشق:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تداني

نعم، وترى الهلال كما أراه ... ويعلوها النهار كما علاني

فقال: نعم لكن الرجل هذا قنوع اكتفى أن يجمعه الليل مع معشوقته، ولو كانت في المشرق وهو في المغرب، وترى الهلال كما يراه فهي في المشرق ترى الهلال وهو في المغرب يرى الهلال وهذا يكفي، نعم على كل حال الآن فهمنا جواب الاستفهام المقرون بالنفي إثباتًا: بلى، ونفيًا نعم، والاستفهام المقرون بالإثبات إثباتًا نعم ونفيًا لا، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ يعني: قد أتتنا ولكنهم ـ والعياذ ـ بالله كفروا.

وقوله: ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾، هذا الأمر للتهكم؛ لأن الملائكة تعلم أنهم لن يقبل منهم فقولهم: (ادعوا) والتهكم هو الذي يسمى عندنا باللغة العامية الهكت هككت عليه يعني: لعبت بعقله فهنا قالوا: فادعوا تهكم بهم؛ لأن الملائكة تعلم أنهم لا يجابوا قالوا فادعوا أنتم، فإننا لا نشفع للكافرين؛ لأن الشفاعة للكافرين مضيعة وقت؛ إذ إن الكافر لا تنفع فيه الشفاعة إلا كافرًا واحدًا نفعت فيه الشفاعة بالتخفيف عنه وهو أبو طالب، فقد نفعت شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام فيه فقط، لو جاء أبو بكر أو عمر يشفع في أبي طالب رد، لكن النبي ﷺ قُبلت شفاعته في عمه أبو طالب فخفف عنه العذاب لماذا؟ لأن أبا طالب حصل منه خير كثير لرسول صلى الله عليه وسلم وحصل منه ما يسمى بالدعاية العظيمة له حتى قال:

ولقد علمت أن دين محمد ... من خير أديان البرية دين

هذا قاله في الدين وقال في الرسول ﷺ:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعني بقول الأباطل

ودافع عنه وحوصِر معه في الشعب؛ فلذالك قبل الله سبحانه وتعالى شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه أن يخفف عنه، أما شفاعة الرسول في أمه فمنعه الله وهي أقرب من عمه لما استأذن الله أن يستغفر لها قال: لا ولما استأذنه أن يزور قبرها، قال: نعم، أذن له فزار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه وقف عليه وجعل يبكي، لكن لا يدعو لها وأبكى من معه، فالكفار لا تنفع فيهم الشفاعة؛ لأن الشفاعة مضيعة بلا فائدة، ثم هي لن يؤذن فيها من قبل الله ولا يمكن أبدًا شفاعة بدون إذن الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ ما نافية، وليست حجازية (ودعاء) اسمها مرفوع (في ضلال) جار ومجرور، لأنه انتقض النفي، وابن مالك يقول:

إعـمال لـيس أعملـت مـا دون إن ... مع بقا النفـي النفي وترتيـب ذكـن

النفي الآن ما بقي قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، فصار إثبات إذن ما هنا ليست حجازية، لاتفاق اللغتين: لغة التميميين والحجازيين فيها، وأنها لا تعمل في هذه الحالة ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [أي: ما طلبهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في ضياع] وقول المؤلف انعدام فيه نظر الضلال الضياع وعدم الاهتداء.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لا تقبل دعوة الكافر أبدًا إلا في حال واحدة أو في حالتين، تقبل دعوة الكافر في حالين: الحال الأولى إذا كان مضطرًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾، وإنما أُجيبت دعوة المضطر؛ لصدق لجوئه إلى الله؛ لأنه مضطر صادق اللجوء إلى الله.

الحال الثانية: إذا كان مظلومًا، فإنه تقبل دعوته على الراجح؛ لقول الرسول ﷺ «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[1]، وهذا إن كان يخاطبه في قوم أسلموا لكنها عامة، وإنما أجيبت دعوة الكافر إذا كان مظلومًا إقامةً للعدل؛ لأن الله لم يحب الكافر محبةً له ولكن إقامة للعدل؛ لأنه الآن هناك خصمان مظلوم وظالم فلإقامة العدل يستجيب الله دعوة الكافر.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾:

١ - **من فوائد الآية الكريمة**: بيان شدة حسرة أهل النار؛ لقوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: أن أهل النار يتحاجون ويحاجون أيضًا يتحاجون فيما سبق بينهم وكذلك يحاجون غيرهم أو يسألون غيرهم؛ لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: بيان إحكام الله عز وجل لمخلوقاته كما أحكم مشروعاته؛ حيث جعل لنار خزانة يحفظونها ويقومون عليها.

٤- **ومن فوائد هذه الآية**: شدة خجل أهل النار من مخاطبة الله عز وجل، إذ إنهم توسلوا بقول الخزنة أن يدعوا ربهم ولم يقولوا ادعوا ربنا، هذا يدل على أن هذا بعد أن قال الله لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن أهل النار في أشد ما يكون من العذاب تؤخذ من قوله: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يدل على أنه عليهم شدة وأنهم يتمنون يومًا واحدًا فقط.

ثم قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ﱹﭐﭑﭒﭓﭔﱸ:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن أهل النار يعذبون عذابًا بدنيًّا وعذابًا قلبيًّا تؤخذ من التقريع والتوبيخ لهم في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾، فهذا يكون أشد عليهم من عذاب البدن؛ ولهذا يقول كما في سورة تبارك: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لكل أمة من أهل النار رسولًا.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة** أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا بآيات تدل على أنه رسول الله حقًّا؛ لقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الاهتمام بالوصف أشد من الاهتمام بالأصل؛ لأن الوصف هو الذي يبين الأشياء تؤخذ من قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ حيث أتى بالوصف وطوى ذكر الموصوف؛ لأن المهم هو الوصف.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهكم الرسل بهؤلاء - أي بأهل النار - تؤخذ من قوله: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ﴾، هذا من باب التهكم؛ لأن الملائكة يعرفون أنهم لن يجابوا.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا قبول لدعاء الكافرين، لقوله: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، هل يشمل هذا دعاء المسألة ودعاء العبادة أم دعاء المسألة فقط أم دعاء العبادة فقط؟

الجواب: يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، وما الذي يستثني من دعاء المسألة في إجابة الكافر؟ المضطر والمظلوم. ما هو الدليل على استثناء المضطر على أنه يجاب ولو كان كافر؟

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، قد يقول لك قائل: هذا في المسلم، نقول: إذا ادعى أنها يخرج منها الكافر، قلنا: أين الدليل؟ هذا صحيح لكن نريد نصًّا واضحًا في إجابة الكافر في حال الضرورة؟ هي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾.

مسألة: ما الحكمة من إجابة الكافر في حال الضرورة؟

الجواب: لأنه في هذه الحال يكون مخلصًا لله في الدعاء، مظهرًا الافتقار إليه، فيجيبه الله، وأما المظلوم، والدليل على أن الله يجب دعوة الكافر المظلوم، حديث النبي ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجَابٌ»، ولو قال لك قائل: المظلوم من المؤمنين نقول له لم يخصص.

مسألة: ما الحكمة مَن إجابة المظلوم الكافر؟

الجواب: لإقامة العدل.

إذن: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾[غافر: ٥١، ٥٢]

التفسير

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ الجملة هذه مؤكَّدة بمؤكدين أحدهما: إنا والثاني: اللام وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ أتى بصيغة التعظيم؛ لأن المقام لتعظيم؛ إذ إن النصر لابد أن يكون من قوي ولم يقل جل وعلا أنا أنصر قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾؛ لأن المقام يقتضي العظمة والقدرة والقوة.

وقوله: ﴿رُسُلَنَا﴾ رسلنا جمع رسول وهم كل الرسل لأن رسل جمع مضاف وجمع المضاف يكون للعموم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معطوفة على رسلنا أي وننصر الذين آمنوا، آمنوا بمن؟ آمنوا بما يجب الإيمان به والإيمان هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، فمن أنكر فليس بمؤمن ومن أقر ولم يقبل فليس بمؤمن ومن أقر ولم يذعن فليس بمؤمن فأبو طالب مثلًا مقر برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه لم يقبل ولم يذعن فلا يكون مؤمنًا فالذين آمنوا هم الذين أقروا بقلوبهم واستسلموا بجوارحهم وقبلوا ما أخبرت به الرسل هؤلاء هو المؤمنون.

وقوله: ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾ متعلق بـ (ننصر) و(يوم) هذه معطوفة على ما سبق، وهي متعلقة بـ (ننصر) أي: وننصرهم يوم يقوم الأشهاد، وذلك يوم القيامة، والأشهاد جمع شاهد يقول المؤلف: [وهم الملائكة يشهدون للرسل بالبلاغ وعلى الكفار بالتكذيب] هكذا قال المؤلف رحمه الله خصها بالملائكة، والصحيح: أنها أعم من الملائكة، فالملائكة يشهدون، وهذه الأمة تشهد على من سبق كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾، والجلود تشهد والجوارح تشهد، فكل ما ثبت شهادته، فإنه داخل في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾، وذلك يوم القيامة.

الفوائد:

١ ـ **في هذه الآية الكريمة:** تأكيد نصر الله سبحانه وتعالى للرسل والذين آمنوا لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾.

٢ ـ **وفي هذه الآية:** شبهة استدل بها النصرانيون يقولون: إن الله ثالث ثلاثة ولي عليكم دليل وهو قوله: ﴿إِنَّا﴾ وقوله ﴿نَحْنُ﴾ وقوله﴿نُرِيهِمْ﴾ما أشبه ممن يدل على الجمع فإذن أنا أقول ـ يقول النصراني ـ: إن الله ثالث ثلاثة ولي حجة، فبماذا نجيبه؟ نجيبه بقولنا: إنك ممن زاغ

قلبه؛ لأنك اتبعت المتشابه والله عز وجل يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، وتركت المحكم المؤكد بأن الله واحد لا شريك له مثل قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، ومثل قوله في تكذيب هؤلاء النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فهذا النصراني تبع المتشابه، وكذلك كل مبطل يحتج بآية، فإنه يكون ممن اتبع المتشابه، والله عز وجل حكيم جعل في آياته الشرعية وفي آياته الحكمية ما يكون متشابهًا ما يكون ابتلاءً وامتحانًا للذين آمنوا وللذين في قلوبهم زيغ، الآن انظر إلى القرآن وانظر إلى السنة تجد في بعض الأحاديث أو في بعض الآيات ما ظاهره التعارض أو في بعض الأحاديث أو الآيات ما ظاهره باطل مثلًا، هذا وإن سلمنا وإلا ليس في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما ظاهره باطل إطلاقًا لكن هذا من باب التنزل مع الخصم، ونقول: هذا من باب الابتلاء والامتحان، وكذلك في الآيات الكونية: نجد أن الله تعالى يصيب الناس بكوارث عظيمة تموت بها الأنفس وتدمر بها البلاد ويفسد بها الحرث والنسل حتى يبلوا العباد قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

ويجب الانتباه لهذا النقطة وهي امتحان الله تعالى لعباده بما يأتي من الآيات الشرعية والآيات الكونية؛ إذن رددنا على النصراني الذي ادعى تعدد الآلهة محتجًا بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾.

وفي الآية إشكال: وهو أن الله تعالى ذكر أن من الناس من يقتلون الذي جاء بالحق، يقتلون الأنبياء فأين النصر في الحياة الدنيا؟ لمن قتل.

والجواب من أحد وجهين: إما أن يكون المراد بالنصر نصر ما جاء به من الشرع، وبين أنه حق وهذا ثابت لكل رسول، وهل تأييد ما جاء به الرسول نصر له أم لا؟ نصر له لا شك وحينئذٍ لا يستثنى من الرسل أحد إذا قلنا: إن المراد بالنصر نصر ما جاءوا به من الحق.

وإما أن يُراد (برسلنا) الذين أُمروا بالجهاد؛ لأن النصر يقتضي أن يكون هناك جهاد ينتصر به أحد الطرفين على الآخر، فيكون المراد بالنصر هنا ليس جميع الرسل، بل من أُمروا بالجهاد وحينئذ يزول الإشكال، هذا باعتبار النصر في الحياة الدنيا، أما باعتبار النصر يوم يقوم الأشهاد فلا يُستثنى أحد ولا إشكال فيه.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن نصر الله للعبد في الدنيا نعمة يعني: للإنسان أن يفرح بما أعطاه الله من نصر سواء نصرًا فعليًّا أو قوليًّا، المهم أن الإنسان إذا نصره الله عز وجل على ما ناوأه يعتبر هذا نعمة ومنة من الله عز وجل، فليفرح بها الإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الأشهاد يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة** التحذير من مخالفة الرسل من ذلك اليوم الذي يقوم فيه الأشهاد؛ لأن في ذلك اليوم ما يستطيع أحد يكذب يعني لو إنسان أنكر وكذب من يشهد عليه؟ جوارحه تشهد عليه جوارحه قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ يقولون هذا؛ لأنهم يشاهدون المخلصين ينصرون يوم القيامة فيقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاء أن يصبحوا معهم فيقول الله عز وجل: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ هم كذبوا على أنفسهم؛ لأنهم يقولوا والله ربنا ما كنا مشركين، وهم مشركون بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، الآن استدركنا على المؤلف رحمه الله: قصده الأشهاد على الملائكة وقلنا: إنها أعم.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ﴾ [بالياء والتاء] بالياء (ينفع) وبالتاء (تنفع)؛ إذن هما قراءتان سبعيتان؛ لأن المؤلف إذا أتي بصيغة قراءة على هذا الوجه فمعناه أنها قراءتان سبعيتان، أما إذا قال: وقُرِئ فهو للشاذ، أما بالتاء فواضحة؛ لأن (معذرة) مؤنث فالفعل يكون معها مؤنثًا، لكن بالياء نقول: أولًا أنه فصل بين الفعل والفاعل، وثانيًا أن التأنيث هنا ليس حقيقيًا.

وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ المراد بالظالمين هنا الكافرون قال الله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (معذرتهم) يعني عذرهم عندي بالشرع قال: [عذرهم أو اعتذارهم] يعني: عذرهم فيما سبق أو اعتذارهم فيما لحق في ذلك اليوم، هم يعتذرون، لكن لا يؤذن لهم فيعتذرون.

وقوله: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [أي البعد من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾] لهم اللعنة كيف قال: لهم اللعنة؟ هل اللعنة مطلوبة حتى تأتي باللام قيل: إن اللام هنا بمعني على كقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ فاللام هنا بمعني على والصواب أن اللام على بابها، وأنها ليست بمعني على، بل هي بمعني الاستحقاق يعني: أنهم يُلعنون لعنًا يستحقونه فهي أبلغ من قوله: (عليهم) من وجه، وتلك أبلغ من وجه آخر.

المهم: أن اللام هنا على معناها الأصلي بمعنى الاستحقاق، وهنا نقول لكم إذا ورد تفسيران في كتاب الله العزيز أحدهم يؤيده اللفظ والثاني لا يؤيده اللفظ فأيها نأخذ؟ الأول وإن كان كل من المعنيين مكتملًا لكن ما يوافق ظاهر اللفظ هوالأولى.

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ اللعنة هي البعد عن الرحمة، وقوله: ﴿اللَّعْنَةُ﴾ لم يبين هنا فتعم، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿ويلعنهم اللعنون﴾، فكل شيء يلعنهم نسأل الله العافية.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ سوء الدار الآخرة أي: شدة عذابها لهم سوء الدار، يحتمل أن

تكون من باب إضافة الصفة إلى الموصوف أي: الدار السوء، ويحتمل أن يكون على بابها والمعنى: لهم سوء الدار أي: السيئ في الدار، وعلى كل حال ما المراد بسوء الدار؟ يقول المؤلف: [شدة عذابهم]، ولكن لو قيل أن سوء الدار ما يسوء من العذاب الشديد وغير الشديد لكان أعم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية:** أولًا أن الظالمين لا ينفعهم العذر ولا الاعتذار يوم يقوم الأشهاد؛ لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن الكافرين ظلمة، وهو كذلك والشرك بالله أظلم الظلم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[1]، وهذا حق الذي خلقك وأعدك وأمدك، ثم تشرك به هذا أغرب ما يكون، إن الإنسان لو أهدى إليه شيء عشرة ألف ليستحيي أن يناله بسوء فكيف بمن أهدى إليك حياتك كلها؟! كيف تشرك به وتكفر به؛ إذن الشرك أظلم الظلم.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافرين يوم القيامة يعتذرون، ولكن لا يقبل لقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

فإن قال قائل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؟

الجواب: بصفة عامة أن ما ورد عليك مما يكون يوم القيامة أو من أوصاف يوم القيامة مما ظاهره التعارض، فاعلم أنه لا تعارض فيه، سواء كان ذلك في وصف اليوم أو في وصف المحشورين أو في وصف العذاب، فإنه لا يمكن أن يكون فيه تعارض أبدًا؛ لأن اليوم طويل، ومقدار اليوم خمسون ألف سنة، فيمكن أن تتغير هذه الأحوال يكون في أوله الناس في حال وآخره الناس في حال وما أشبه ذلك، فمثلًا قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، هذا يدل على أنهم في ذلك اليوم هم سكوت لا يؤذن لهم بأي كلام، فينتهزوا الفرصة بالاعتذار، لكن في موقف آخر يعتذرون ولكن لا ينفعهم الاعتذار وهذا أولى من قول بعض العلماء: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لو اعتذروا؛ لأنه على هذا التقدير يكون الكلام كلامًا فرضيًا لا واقعيًا، فأيهم أولى أن نحمل الكلام على أنه واقع أو على أنه مفروض؟ الأول، على أنه واقع نحن نقول: يعتذرون في وقت، ولا يعتذرون في وقت آخر.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكافرين مستحقون للعنة الله، فهل يعني ذلك أنه يجوز أن نلعن الكافرين؟

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦/١٤١) من حديث عمرو بن شرحبيل رضي الله عنه.

الجواب: أما على سبيل العموم فنعم، لنا أن نقول: لعنة الله على كل كافر وكان من قنوت أبي هريرة رضي الله عنه أنه يلعن الكفرة في قنوت الوتر: «اللهم العن الكفرة الذين كذبوك وكذبوا رسولك»[١]، هذا لا بأس به، وهل نلعن نوعًا معينًا من الكفرة كاليهود والنصارى؛ نقول اللهم العن اليهود اللهم العن النصارى؟

الجواب: نعم، قال بعض الناس إما اجتهادًا وإما محاباةً لليهود والنصارى قالوا إن الرسول دعا عليهم باللعنة في حال معينة حين اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد لعنهم كأنهم يقولوا لأنهم اتخذوا فيقال: التعليل لا يقتضي تخصيص المعلول، هم لعنوا من أجل هذا ومن أجل غيره أيضًا، فالصحيح: أنه يجوز أن نلعن اليهود والنصارى على سبيل التخصيص، فنقول: لعنة الله على اليهود والنصارى سواء قرنا بذلك فعل من أفعالهم مما يقتضي اللعن أم لا، إذن لنا أن نلعن الكفار على سبيل العموم، وهل نلعنهم على سبيل التعيين ؟أما إن كان حيًّا لا يجوز أن ألعن شخصًا معينًا ولو كان من أكفر الكفار ما دام حيًّا والدليل: أن النبي ﷺ لما صار يقول: اللهم العن فلانًا وفلانًا ممن عينهم من أئمة الكفر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فنهاه وقال: ليس لك من الأمر شيء وإذا كان الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فما بالك بمن دونه؟! وأما التعليل فإننا نقول: لا تلعنه، ادعُ الله له بالهداية؛ لأنك لا تدري ربما يكون هذا العدو للإسلام اليوم هو ولي الإسلام في يوم أخر ألم يكن عمر بن الخطاب من أعدى أعداء الإسلام؟ بلى، ألم يكن خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل[٢] ممن اقتحموا الجبل في أُحد ليقتلوا الرسول وأصحابه؟ بلى، وماذا كانوا؟ كانوا من قواد المسلمين وكان عمر الخليفة الثاني في هذه الأمة، إذن لا تدعُ على شخص معين من الكفار باللعنة، لكن هل يجور أن أدعو الله له بالهداية؟ نعم يجوز.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الظالمين وهم الكافرون لهم سوء الدار يوم القيامة وهي جهنم والعياذ بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا العذاب ـ أي هذا اللعن وهذا السوء ـ هؤلاء مستحقون له؛ لقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، والله أعلم.



---

(١) حسن: هذا الأثر ورد نحوه عن عمر رضي الله عنه وحسنه ابن حجر وانظر تلخيص الحبير (٢/ ٢٤).

(٢) هذا سبق لسان من الشيخ وإنما جعفر بن أبي طالب كان من المسلمين ولم يحضر بدرا ولا أحدا ولا الخندق وإنما كان ممن هاجر إلى الحبشة ولم يرجع المدينة إلا في فتح خيبر انظر الإصابة (١/ ٤٨٦).

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[غافر: ٥٣-٥٦]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، هذه الجملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ مؤكدة بثلاثة مؤكدات: الأول القسم الذي دلت عليه اللام والثاني اللام، والثالث قد وهذه الصيغة تأتي في القرآن كثيرًا.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعني أعطينا وقال آتينا ويقال: أتينا، وأتينا بمعني جئنا وأتنيا بمعني أعطينا وهي تنصب المفعولين ليس أصلهما المبتدأ والخبر المفعول الأول هنا موسى والثاني الهدى؛ موسى هو ابن عمران أحد أولي العزم الخمسة وهم محمد وإبراهيم وموسى ونوح وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

وقوله ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ما به من هدى، وهذا يشمل الهدى الذي أوتيه حتى اهتدى، والهدى الذي يهتدي به الناس فيكون موسى عليه الصلاة والسلام هاديًا مهديًّا قال المفسر: [التوراة والمعجزات] أما التوراة فمرجع في الهدي؛ لأنها كتاب شرعي فيه الهدى، وأما المعجزات فالصواب أن يقال: البينات أو الآيات، فإنها هدى؛ لأنه يهتدي بها الناس إذ إن الناس إذا رأوا الآيات اهتدوا.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنهم من الوارثين ويقول المؤلف: [أي من بعد موسى]، ويمكن أن نقول: أورثناه من بعد موسى ومن بعد فرعون فيكون الله تعالى أورث بني إسرائيل الكتاب من بعد نبيهم ومن بعد فرعون كما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوراة] وسميت كتاب؛ لأنها مكتوبة، وعلى هذا فيكون كتاب بمعني مكتوب وهذه الصيغة أعني فعالًا تأتي في اللغة العربية بمعني مفعول في مواضع كثيرة

مثل: بناءً بمعنى مبني وغِراس بمعنى مغروس وفراش بمعنى مفروش.

وقوله: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هدى يحتمل أن تكون كما قال المفسر: مصدر بمعنى اسم فاعل منصوبًا على الحال، حيث قدرها بقوله هاديًا ويحتمل أن تكون مفعول من أجله أي من أجل هدى أي من أجل اهتداء الناس ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تذكرة لأصحاب العقول فهي هدى وهي تذكرة هدى يهتدي بها الناس وتذكرة يتذكر بها، ولكن لا يتذكر بها إلا أولو الألباب، فأولو الألباب يعني: أصحاب العقول، وسمي العقل لبًّا بمنزلة اللب من الحبِّ؛ لأنه هو المقصود، وهو روح الإنسان.

وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ اجمعها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يتبين لك: أن الذين ينتفعون بالآيات الكونية كخلق السموات والأرض والآيات الشرعية هم أصحاب العقول؛ لأنهم ينظرون ويتفكرون ويقيسون الأشياء حتى يهتدوا.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** منة الله سبحانه وتعالى على موسى صلى الله عليه وسلم حيث آتاه الهدى، وهذه أعظم منة يمن الله بها على العبد أن يعطيه الهدى يهتدي به لنفسه ويهدي به غيره.

٢ - **ومنها:** تأكيد رسالة موسى من قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾، وعلى هذا فيجب علينا أن نؤمن أن موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إلى قومه كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة»[1]، لكن نؤمن أنه رسول حق وأنه جاء بالهدى والنور.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** منة الله على بني إسرائيل؛ حيث قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ولكن هل هؤلاء الذين أورثوا الكتاب هل قاموا به؟ الجواب: لا ما قاموا به، بل كانوا عتاة ظلمة بل حتى في عهد نبيهم ما قاموا لما قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ ماذا قالوا؟ ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ أما نحن فإنَّا قاعدون - مع أنه وعدهم بها - قال: الأرض التي كتب الله لكم، لكنهم كذبوا الخبر واستكبروا عن الأمر، فهم أعني ولاسيما اليهود منهم أخبث أهل الأرض وأعتى أهل الكفر، لم يشكروا نعمة الله عليهم بهذه النعمة، أما هذه الأمة فقال الله تعالى ﴿ثُمَّ

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة، ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التوراة مكتوبة؛ لقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ كيف كتابتها؟ أقرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن التوراة ذكرى لكن ليست لكل أحد، لكن لأولي الألباب.

٦ - **ومن فوائدها:** أنه لا يتذكر بالآيات الشرعية إلا أولو الألباب وكذلك الآيات الكونية.

٧ - **ومن فوائد الآية:** الثناء على العقل؛ لأن أهل العقل هم أهل التذكر الذين ينتفعون بما سمعوا، والمراد بالعقل هنا، هل هو عقل الإدراك أو عقل الرشد؟ الثاني: عقل الرشد، أما عقل الإدراك فهو الذي يُناط به التكليف الذي يوجد في كتب الفقهاء من شروط الطهارة، هذا عقل الإدراك الذي يناط به التكليف، أما عقل الرشد الذي به الاهتداء فقل من يحصل عليه.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل من لم يتذكر بآيات الله فإنه ليس ذا عقل.

فإن قال قائل: يرد عليكم أنا نجد في أئمة الكفر من هو على جانب كبير من الدهاء والذكاء.

فالجواب: أن هناك فرق بين العقل والذكاء؛ لأن العقل يعقل صاحبه عما يضره؛ ولهذا سمي عقل بمنزلة الإعقال للبعير، لكن الذكاء ليس كذلك، فالذكاء غريزة أو كسب يجعله الله تعالى في الإنسان، وربما يكون بعض الحيوانات أذكى من الإنسان أليس كذلك؟ بلى، فالغراب مثلًا أذكى من ابن آدم الذي قتل أخاه؛ لأنه علمه كيف يواري سوءة أخيه، ففي الحيوانات ما هو أذكى من بني آدم، النملة هذه إذا كان في أيام الثمار حفرت للحبوب جحورًا، وأودعت فيها هذه الحبوب، ولكنها لا تدع الحب على ما هو عليه تأكل رأس الحب؛ لئلا تنبت؛ لأنها تعرف أن بقيت الحبة على ما هي عليه نبتت وخربت عليها بيتها فتأكل رأسها حتى لا تنبت، فإذا قدر الله عز وجل ونزل المطر وخافت أن يعفن ويفسد أخرجته إلى الشمس؛ حتى ييبس ويجف، ثم أدخلته، وأشياء تذكر عن بعض الحيوانات غريبة؛ إذن الذكاء شيء والعقل شيء آخر، وكم من ذكي قاده الذكاء إلى النار، وهذا الشيء مشاهد، الذكاء إذا لم يكن مقترنًا بعقل وإيمان، فالغالب أن صاحبه يضل ويهلك، وكم من أناس كانوا أذكياء، وتوقع فيهم بعض العلماء أن هؤلاء سوف ينحرفون فصار الأمر كذلك.

إذن لا يرد علينا أننا نجد من أئمة الكفر من هو على جانب كبير من الذكاء والدهاء؛ لأن الذكاء شيء والعقل شيء آخر قال العلماء ولذلك لا يجوز أن تقول: إن الله عاقل؛ لأن العقل يحجز صاحبه عما يضره والرب عز وجل لا يمكن أن يضره شيء، ولا يمكن أن ينقصه شيء،

ومن ثَمَّ ذهب بعض النحويون إلى التعبير بقوله: (من) للعاقل و(ما) لغير العاقل، قال ما يمكن أن تكون للعاقل، لأنها تأتي عائدة إلى الله عز وجل فقل: (من) للعاقل و(ما) لغير العالم وعلى كل حال قد يناقش هذه المسألة لكني قلت هذا من أجل أن يعم أنه لا يجوز أن يوصف الله أنه عاقل؛ لأن العقل يحجز صاحبه عما يضره والله عز وجل لا يمكن أن يضره شيء.

ثم قال الله تبارك وتعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ الخطاب لمن؟ للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم اصبر على أي شيء؟ اصبر على حكم الله الكوني والشرعي؛ لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وليُتأمل أنه لما من الله عليه بأنه نزل عليه الكتاب تنزيلًا هل قال فاشكر نعمة ربك قال: ﴿اصبر لحكم ربك﴾ معناها أنك كلفت أمرًا عظيمًا يحتاج إلى صبر، اصبر لحكم ربك الشرعي والكوني، وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم العناء الكبير من الصبر على أذى قومه.

وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إذن اصبر إذا قيل هنا: إن في آية حذف، قلنا: نعم وما هو المحذوف؟ تفسره الآيات الأخرى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ الكوني والشرعي، ولا نجد أحدًا أصبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم له لحكم الله يوعك - يعني يمرض - كما يوعك الرجلان منا، شُدد عليه في الموت وهو محتضر، كما قالت ذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لم يشدد على أحد أوذي في الله عز وجل فصبر واحتسب، وقصة إيذاء المشركين له في مكة وغير مكة أمرٌ مشهور عندنا ومعلوم.

وقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ أي: والله إن وعد الله حق هذه الجملة خبرية مؤكدة بإن ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ بماذا؟ وعد بنصر أوليائه وخذل أعدائه، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير، ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ قال: [بنصر أوليائه حق وأنت ومن تبعك منهم] نعم هم على قمة الأولياء محمد رسول الله والذين معه قمة الأولياء، وصفهم الله بأنهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ انظر كيف المعاملة بعضهم مع بعض ومعاملتهم مع الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [ليستن بك] استغفر لذنبك أي: اطلب من الله المغفرة للذنب وهو الإثم أو المعصية، والمغفرة مشتقة من المِغْفر وهو الذي يوضع على الرأس أثناء القتال ليتقي به المقاتل سهام المقاتلين، هذا هو المغفر؛ إذن فالمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنها وليس مجرد الستر، ويدل لهذا قوله تعالى إذا حاسب عبده المؤمن: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»(١)، وقوله: [ليستن بك] إشارة إلى أنه لا ذنب للرسول، لكن أمر بالاستغفار لتستن به الأمة فتستغفر من ذنوبها، وهذا بناءً على أن الرسول ﷺ لا يُذنب وكذلك الرسل، ولكن في هذا نظر، هذا من الغلو بالنسبة للرسول ﷺ ورُب مذنب تاب من ذنبه فكان خيرًا منه قبل الذنب؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨/٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فآدم عليه الصلاة والسلام عصى ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، وقبل ذلك قد حصل له الاشتباه فصار بعد التوبة من الذنب خيرًا منه قبل الذنب، والذنب لا يخدش في الإنسان، الذنب إذا عرف الإنسان نفسه وعرف قدر ربه عز وجل، ثم رجع إلى الله، وتاب وندم يجد في قلبه إيمانًا لم يكن قبله، يكون عنده حياء من الله وخجل، لكن إذا لم يخجل مات قلبه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم: «لولا أن تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ويغفر لهم»[1]، وعلى هذا فنقول للمؤلف عفا الله عنك؛ حيث ادعيت ما ليس بصحيح إذا كان الله يقول للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ كيف نقول: إن أمره بالاستغفار من أجل أن يستن به، لا من أجل أن له ذنبًا والله يقول ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ويقول عز وجل ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، سبحان الله ما له ذنب، كيف يقول: استغفر ليستن به، كيف يقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ تبتغي مرضات أزواجك ﴿والله غفور رحيم﴾ غفر الله لك ذلك كيف يقول عز وجل: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، كل هذا يدل على أن مثل هذه الأمور تقع للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، لكن لا شك أن ما يخل بالأخلاق أو يخل بالرسالة لا يمكن أن يقع هذا شيء معلوم، لا يمكن أن يقع منه فاحشة، ولا يقع منه الكذب، ولا يقع منه الخيانة هذا مستحيل؛ لأن هذا يخل بالشرف ويخل بمقام النبوة، أما المعاصي البعيدة عن هذا تقع أليس موسى صلى الله عليه وسلم قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها؟! وهو من أولي العزم.

فالحاصل: أن قول المؤلف: [ليستن بك] خطأ ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ لأن لك ذنبًا، لكنه مغفور ومن أسباب مغفرة ذنبه أن تستغفر، فالاستغفار من أسباب المغفرة والطاعات من أسباب المغفرة التي تغلب الطاعات على المعاصي وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ سبح يقول المؤلف رحمه الله: [صلِّ]، ولا شك أن الصلاة تسمى تسبيحًا، ومنه حديث «صلى النبي صلى الله عليه وسلم في بيته سبحة الضحى»، ومنه قول بن عمر لو كنت مسبحًا لأتممت، يعني يصلي بالناس في العتمة، فلا شك أن الصلاة تسمى تسبيحًا، ومن الأدلة على ذلك إضافة إلى ما ذكر قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، حيث قال بعض العلماء: إن هذه إشارة إلى أوقات الصلوات الخمسة، لكن هل يتعين أن يكون التسبيح في كل مكان بمعني الصلاة؟ لا؛ ولهذا نرى أن قوله تعالى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أشمل وأعم كم إرادة الصلاة.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١١/ ٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: تسبيحًا مقرونًا بالحمد، فالتسبيح زوال الصفات التي لا تليق بالله، وبالحمد إثبات الصفات الكمال لله انتبه فيقول: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ جامعًا بين التنزيه والإثبات؛ تنزيه الله عما لا يليق به وإثبات ما هو أهله جل وعلا من الكمال في الذات والأفعال.

وقوله ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ فالعشي ما بعد الزوال ومنه حديث أبي هريرة في قصة ذي اليدين[1]: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إحدى صلاتي العشي، فالعشي ما بعد الزوال، والإبكار ما قبل الزوال قال المؤلف: [الصلوات الخمس]؛ لأن العشي يشمل الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والإبكار: الفجر ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ والصواب كما قلنا أولًا أن المراد بالتسبيح هنا ما هو أعم من الصلوات.

ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ هذه إن واسمها، وخبرها قوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر، قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ المجادلة المخاصمة وسميت المجادلة مخاصمة؛ لأن كل خصم يجدل الحجة؛ ليغلب صاحبه كجدل الحبل، أي: شده كل واحد من الطرفين يجدل الحجة لنفسه ليفحم خصمه.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَ﴾ المفاعلة تأتي في الغالب بين اثنين، وقد تأتي فاعل بدون إنشاء مثل سافر على وزن فاعل، على وزن جادل، لكن الغالب أن فاعل يعني: المفاعلة تأتي من اثنين ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ منْ يجادلون؟ يجادلون أهل الحق ويناظرونهم، ولقد علمنا المناظرة التي وقعت بين إبراهيم وقومه ووقعت بين إبراهيم والذي حاجه في ربه، ومجادلات كثيرة في القرآن وفي السنة وإلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال المؤلف: [القرآن] هذا التفسير قاصر؛ لأن آيات الله تشمل الكونية والشرعية، ثم تشمل أيضًا من يجادل في هذه الأمة، ومن يجادل فيما سبق، والذين يجادلون فيما سبق هل يجادلون في القرآن؟ لا، فالأولى أن نجعل الآية على العموم يجادلون في آيات الله الكونية والشرعية إن كان هذه الأمة، فالشرعية هي القرآن والسنة، وإن كان من قبل الأمة فالمجادلة في التوراة في قوم موسى وهكذا.

إذن تفسير المؤلف قاصر؛ لأنه لم يحطْ بالمعني، بل قصره على بعضه، لكن لو ادعى مدعٍ أن المؤلف ذكر القرآن من باب التمثيل نقول: إن هذا محدث، لكنه أخطأ في التعبير إذ إن المراد يقال:

---

(١) قصة ذو اليدين ونسيان النبي صلى الله عليه وسلم ركعتين من الرباعية في الصحيحين أخرجه البخاري (٤٨٢) ومسلم (٩٧/ ٥٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

آياته الشرعية كالقرآن، حتى يكون الأمر واضحًا.

والمجادلة في الآيات الشرعية منها: اتباع المتشابه فيأتي في آية من القرآن فيها اشتباه تحتمل معنًا حقًّا ومعنًا باطلًا وهي في الحق أظهر كما هو معلوم، فيريد أن يحملها على المعني الباطل المرجوح، يأتي بآيات من القرآن ظاهرها التعارض فيقول: القرآن متناقض، كيف يقول كذا ثم يقول كذا؟ مثلًا نقول: إن الله تعالى قال ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ يودون ولا يكتمون الله حديثا وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كتموه قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فيأتي ويقول: هذا القرآن متناقض كيف يثبت في مكان أنهم لا يكتمون الله حديثًا وفي مكان أنهم ينكرونه؟! فيجادل في مثل هذا، وإذا لم يكن لدى الإنسان سيف يقطع حجة هذا بقي الإنسان مرتبكًا، فما هو السيف الذي يقطع حجته؟ أن نقول: إن يوم القيامة ليس ساعة من زمن بل مقداره خمسون ألف سنة، فأقروا بالأول، ولما رأوا أن المؤمنين ينجون قالوا: نكتم لعلنا ننتفع أو أنهم كتموا في الأول، ثم لم رأوا جوارحهم تشهد عليهم أقروا واعترفوا.

فعلى كل حال: أنا أقول المجادلة في القرآن منها اتباع المتشابه لاشك، وكذلك أيضًا المجادلة في الآيات الكونية يأتي بأشياء من مخلوقات الله عز وجل فيقول لماذا خلقها الله؟ لماذا خلق الله هذا الشيء؟ لماذا خلق الله العقرب؟ ولماذا خلق الله الحية؟ ولماذا خلق الله الأسد؟ وما أشبه ذلك، إذن ما أراد الله إلا إظهار الخلق وإيذاء الخلق، عندما يُراد هذا السؤال على عامي ماذا يقول؟ يقول: والله ما ندري فيمكن أن يجادل مع أننا نعلم أن خلق هذه المخلوقات من مصلحة العباد، وقد ذكرنا أن فيها ثماني فوائد تظهر للمتأمل، وبذلك نعرف أن المجادلة في الآيات تكون في الآيات الكونية والآيات الشرعية وذكرنا مثالين على ذلك.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ قال المفسر: [برهان] ﴿أَتَاهُمْ﴾ أتاهم هذه صفة لسلطان، والسلطان يقول المؤلف: هو البرهان، وذكرنا في ما سبق أن السلطان ما يكون به سلطة سواء كانت مسألة تحتاج إلى دليل، أو سلطة تدبير كالسلطان الأعظم وما أشبه ذلك، أو قوة وقدرة كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

المهم: أن السلطان ما يكون به سلطة للإنسان وفسره بكل مكان بحسبه.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ هل يعني أنه يمكن أن يجادل الإنسان بالباطل بسلطان؟ لا؛ إذن هذا القيد بيان للواقع، وليس قيدًا احترازيًّا، بل هو قيدٌ مبين للواقع، أن كل من جادل في آيات الله فإنه مجادل بغير سلطان، ولا يمكن أن يأتيه سلطان في ذلك.

وقوله: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إن يقول المفسر: [ما] يعني: ﴿إِنْ﴾ نافية وذلك أن ﴿إِنْ﴾ في اللغة العربية لها عدة معانٍ مشتركة بين عدة معاني، وما أكثر الكلمات التي يكون لها

عدة معانٍ! ولكن ما الذي يعين المعنى؟ السياق وقرائن الأحوال، ومن ذلك أنك متى وجدت إثباتًا بعد إن فهي نافية ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ وهلم جرًّا، فمتى وجدت الإثبات في سياق (إن) فاعلم أنها نافية ويأتي بقية الكلام على معانيها، لكن هنا يقول: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ قال: في صدورهم والذي في الصدور هو القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وإذا تكبر القلب ـ والعياذ بالله ـ تكبر البدن، وإذا ذل القلب لله ذل البدن قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب»(١)، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ومثَّل أبي هريرة رضي الله عنه ذلك بالملك له جنود يأمر الجنود فيأتمرون، ولكن شيخ الإسلام بن تيمية قال: إن تمثيل الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغ، لكن الملك قد يتمرد عليه الجنود، لكن القلب هل يمكن أن تتمرد عليه الجوارح؟ أبدًا لا يمكن، فجعل الكبر في الصدور أي في القلوب، لأن الصدور محلها ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ [تكبر وطمعٌ أن يعلو عليه].

وقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ هذه الجملة الظاهر أنها مستأنفة وليست صفة لكبر ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ ولهذا نقول إذا قرأت فقل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾، هذا الوقف الصحيح، ولا تقف على قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾؛ لأنك إذا وقفت على ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾، وقفت قبل تمام الكلام ولكن قل: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ ثم قف وقل: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لأنك إذا وصلت ﴿إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صار جملة ما هم ببالغيه حسب القراءة صفة لكبر، وليس الأمر كذلك، بل هي جملة مستأنفة من الله عز وجل يقول: إنهم لن يبلغوا ما في صدورهم من التكبر عليه، والعلو عليه.

وقوله: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أصلها: ببالغينه، لكن أين ذهبت النون؟ ذهبت النون للإضافة؛ لأن النون والتنوين لا يجتمعان مع الإضافة؛ ولهذا قال أحد الناس يصف تباعده مع صاحبه:

كأني تنوين وأنت إضافة ... فأين تراني لا تحل مكاني

والنون كالتنوين تحذف مع الإضافة.

وقوله: [﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من شرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ السميع لأقوالهم البصير بأحوالهم] ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ استعذ بمعني استجر به واعتصم به، فإنه جل وعلا نعم المُعان؛ ولهذا لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة تزوجها فقالت: أعوذ بالله منكَ قال: «لقد عذتِ

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

بمَعَاذِ الحقي بأهلك»(١) مع أنه تزوجها راغبًا فيها، لكن استعاذت بمن لا يمكن أن تخفر جواره أبدًا، قال: «الحقي بأهلك» لكن استعذ بالله من أي شيء؟ يقول المفسر: [من شرهم]، والأولى أن يكون الأمر أعم أي استعذ بالله من كل مكروه فلا ملجأ للإنسان إلا إلى الله عز وجل ولا عياذًا إلا به، ولا لياذًا إلا به، فهو عز وجل نفرُّ منه إليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ختم الآية بالسمع والبصر؛ لأن ما يؤذون به النبي ﷺ إما قول فيدرك أو فعل فيدركه البصر، يعني: إن آذوك بالقول، فنحن نسمع، أو بالفعل فنحن نبصر، وهذا من تطمين الرسول صلى الله عليه وسلم.

الفوائد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾:

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** الأمر بالصبر، وهو هنا للوجوب، والصبر ثلاثة أنواع كما قال العلماء رحمهم الله:

الأول: صبر على طاعة الله.

الثاني: وصبر عن معصية الله.

الثالث: وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والأول هو الأكمل ثم الثاني ثم الثالث؛ الصبر على طاعة الله أن يفعل الإنسان الطاعة على الوجه الذي شرعه الله عز وجل بدون تضجر، وبدون تكره، بل هو مستسلم لها غاية الاستسلام هذا الصبر على طاعة الله، الصبر عن معصية الله أن يحبس نفسه عن مباشرة المعاصي، فلا يفعلها، فليصبر ولو شق عليه ذلك، والثالث الصبر على أقدار الله يعني: على ما يقدره الله عليك من البلاء في بدنك أو عقلك أو فكرك أو أهلك أو مالك أو مجتمعك يسكت ويحبس نفسه عن التسخط بالأركان أو اللسان أو الجنان؛ التسخط بالجنان أن يكون في قلبه نوع اعتراض على الله عز وجل، لماذا قدر علي كذا ولم يقدر على فلان؟ ولماذا ابتلاني الله؟ ثم بعد ذلك ربما يكفر نسأل الله العافية كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾، والتسخط باللسان أن يدعو بالويل والثبور وما أشبه ذلك من دعوى الجاهلية، والتسخط بالأركان بضرب الخدود وشق الجيوب وما أشبه ذلك، ففارق الصبر على طاعة الله يتضمن حبس القلب واللسان والجوارح.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٥٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

٣ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحذير المعارضين له؛ لأن الله وعده بالنصر، وخذلان أعدائه ومعارضيه؛ لقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وكما أن فيه تسلية له، فيه أيضًا تحذير لأعدائه.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن وعد الله سبحانه وتعالى لابد أن يقع؛ لقوله: ﴿حَقٌّ﴾ والحق هو الثابت الواضح، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾، وذلك لتمام قدرته وصدق وعده أنه لا يخلف الميعاد؛ لأن إخلاف الوعد ناشئ عن كذب الواعد أو عن عجزه عن الوفاء به، وكل ذلك محال في حق الله عز وجل.

٥ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الاستغفار؛ لقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

٦ ـ ومن فوائدها: جواز الذنوب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله: ﴿لِذَنۢبِكَ﴾ والخطاب للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإذا جاز الذنب على الرسول وهو أشرف الرسل فعلى غيره من باب أولى.

فإن قال قائل: أليس الأنبياء معصومين عن الذنوب؟

فالجواب هذه الآية وأمثالها تدل على أن الجواب بالنفي، لكنهم يفارقون غيرهم في ذلك من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنهم معصومون من الكذب والخيانة وما أشبه ذلك مما يؤثر على الرسالة.

والوجه الثاني: أنهم معصومون عن كل ذنب يُخل بالشرف.

والثالث: أنهم معصومون من الإقرار على الذنوب، لابد أن ينزهوا عليها حتى يوفقوا للتوبة منها فهذه فروق ثلاثة بينهم وبين غيرهم الناس. أما غيرهم من الناس فإنهم ليسوا معصومين مما يخل بالشرف ولا مما يخل بالأمانة، وليسوا معصومين من الإصرار على المعاصي.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: الأمر بالتسبيح بحمد الله صباحًا ومساءً؛ لقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾، فإن كان المراد بذلك الصلوات الخمس، فالأمر هنا للوجوب، وإن كان المراد به التسبيح الذي هو الذكر المعروف، فإن الأمر هنا للاستحباب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

١ ـ في هذه الآية فيها فوائد منها: بيان حال الذين يجادلون في آيات الله، وأنهم ليس لهم دليل لما يجادلون به، ثم إن الجدال في آيات الله ينقسم إلى قسمين: جدال لإثبات الحق، وإبطال الباطل فهذا مأمور به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وجدال بالعكس لإثبات الباطل وإبطال الحق، وهذا هو المذموم، وعليه تتنزل مثل هذه الآية الكريمة.

٢ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات آيات الله عز وجل، وهي كما قلنا في التفسير

شرعية وكونية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الحامل لهؤلاء المجادلين هو الكِبْر والتعلِّي؛ لقوله: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها أيضًا:** أن هؤلاء لن يبلغوا مرادهم بما يجادلون به؛ لقوله: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ وقد أشار الله تعالى في قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾، فتأمل هذه العبارات القوية بل نقذف بالحق على الباطل، قذف وهو الرمي بشدة فيدمغه أي: يصله إلى أم دماغه، فإذا هو زاهق أي: فيموت في الحال؛ لأن إذا فجائية، وإذا الفجائية تدل على مفاجأة الشيء وهذا يدل على أن الحق غالب للباطل ولا محالة.

فإن قيل إننا نجد المجادلة من الكفار أحيانًا لا تُدفع، يعجز الإنسان عن دفعها.

فنقول: نعم هذا ربما يكون، لكن ليست العلة من الحجة، بل من المحتج العلة ليست من الحجة الحجة قائمة والحق غالب، لكن العلة من المحتج، قد يكون قليل العلم؛ ولهذا لا ينبغي أن تدخل في مجادلة غيرك إلا ومعك علم، وقد يكون قاصر الفهم لا يفهم هو عنده علم، ولكنه لا يفهم، وقد يكون سيئ القصد يريد الغلبة فقط انتصارًا لقوله لا انتصارًا للحق، وهذا يخذل، وقد يكون لعيِّه، ومعني العيِّ: أنه ليس عنده من البيان والفصاحة ما يؤدي إلى الغلبة؛ لأن البيان والفصاحة لهما تأثير كبير في إثبات الحق؛ فلقد قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «إن من البيان لسحرًا»[1]، فهذه الأمور الأربعة هي التي تجعل الباطل يعلو ظاهرًا على الحق، والأربعة هي: إما قلة العلم، أو سوء القصد، أو قصور فهمه، أو العي يعني: التعبير عما في نفسه، هذه الأربعة هي التي تجعل من الباطل منارًا يعلو ظاهرًا على الحق، وأما الحق نفسه فلا يمكن إطلاقًا أن يغلبه الباطل.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكبر سبب لكل شر؛ ولهذا لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، ونوع هذا الكبر الذي في هؤلاء المجادِلِين هل هو بَطَرُ الحق أو غمط الناس أو كلاهما؟ كلاهما هذا الكبر والعياذ بالله جمع نوعي الكبر وهو غمط الحق ورده والثاني: ازدراء الناس، بطر الحق وغمط الناس.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تثبيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ بقوله: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾.

٧ ـ **ومن فوائدها:** تيئيس هؤلاء المجادلين أنهم لن يبلغوا مرادهم.

٨ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الاستعاذة بالله في مقام الله المجادلة مشروع؛ لقوله: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وذلك لأن المجادل سيورد من الشُّبه ما يخشى أن تؤثر عليه، فإذا استعاذ بالله

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

واعتصم به أنجاه الله من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ في المجادلة أمر بالاستعاذة بالله، وعند الحكم أمر بالاستغفار، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٥، ١٠٦]، وذلك لأن الذنوب تحول بين الإنسان وبين تبين الحق، وأما في مقام المجادلة، فالإنسان محتاج إلي من يلتجئ إليه ويعتصم به؛ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

٩ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة** إثبات السمع لله عز وجل، لقوله: ﴿إنه هو السميع﴾، وإثبات البصر؛ لقوله: ﴿البصير﴾، والسمع ذكر العلماء رحمهم الله أنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدراك المسموع.

والثاني: الاستجابة.

فأما إدراك المسموع فيرد بمعاني متعددة:

الأول: بيان سعة سمع الله عز وجل، مثاله قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]؛ ولهذا قالت عائشة: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات)[1].

الثاني: التهديد في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

الثالث: التأييد، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

أما السمع الذي بمعنى الاستجابة، فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: مجيب وكقول المصلي (سمع الله لمن حمده) أي استجاب لمن حمده.

وأما البصير فلها معنيان:

المعني الأول: المدرك ببصره كل شيء، فيكون بمعني الرؤية.

والثاني: العلم يعني: أنه عليم بكل شيء.

١٠ ـ **وفي الآية الكريمة من الفوائد أيضًا**: إثبات السمع والبصر معًا، وهو أدل على الكمال من انفراد أحدهما، وذلك بأن المجادِل قد يقول، وقد يفعل فهدده الله عز وجل بهذا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾؛ لأن المستعيذ بالله، إما أن يستعيذ من أقوال، وإما أن يستعيذ من أفعال.



---

(١) أخرجه البخاري معلقا ووصله النسائي (٣٤٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

قال الله تعالى:

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٧، ٥٨]

التفسير

قال الله وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ اللام هنا لام الابتداء وتفيد التوكيد، و(خلق) مبتدأ، و(أكبر) خبر المبتدأ.

(السموات) هي السبع الطباق، والأرض هي الأرض التي نحن عليها، وقد جاءت السنة بأنها سبع تصريحًا كما في قول النبي ﷺ: «من اقتطع من الأرض شبرًا طَوَّقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»[1] وأومأ القرآن في ذلك في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لأن المماثلة هنا لا يمكن أن تكون في الصفة؛ لظهور الفرق بين السموات والأرض، لكنها مثلها في العدد.

وقوله: ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ يعني: إيجاد الناس ابتداءً أو إعادة؟ ابتداءً وإعادة، فإيجاد السموات والأرض أكبر من إيجاد الناس ابتداءً وإعادةً يقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول المؤلف رحمه الله: [ونزل في منكري البعث لخلق السموات والأرض ابتداءً أكبر من خلق الناس مرة ثانية] فقيَّد خلق الناس بالمرة الثانية، وللإعادة بناءً على أن الآية نزلت في منكري البعث.

والصواب: أن الآية نزلت في ما هو أعم نزلت في منكر البعث وفي بيان قدرة الله وعلى هذا فنقول خلق السموات والأرض ابتداءً أكبر من خلق الناس ابتداءً وإعادة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾، قال المفسر: [أي: كفار مكة لا يعلمون] وفي هذا التفسير قصور لأن أكثر الناس أعم من كونهم من مكة أو غيره أكثر الناس لا يعلمون لماذا لا يعلمون؟ لأنهم لا يتفكرون في خلق السموات والأرض فهم جاهلون لا يعلمون ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ هذان مثلان بينهم الله عز وجل الأول الأعمى والبصير، هل يستويان؟ لا وأحد من الناس يقول: إنهما يستويان ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء يعني إذا تقرر أنه لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ولا المسيء لا يمكن قال المؤلف: فهم أي الذي لا يهتدون كالأعمى ومن يعلمه كالبصير جاء بذلك المؤلف توطئة لبيان مناسبة الآية لما قبلها، ولكن قد يقال أنها استئناف بيان الله بها أنه لا يستوي هؤلاء وهؤلاء ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: لا يستويان ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [وهو المحسن ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾] فيه زيادة اللام وكأن التقدير على المؤلف ولا الذين آمنوا وعلموا الصالحات ولا المسيء، وهذا المعنى واضح، لكن قوله: [وهو المحسن] يعني أن الذي آمن وعمل الصالحات محسن؛ لقوله صلى الله عليه وسلم «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ آمنوا بالقلب وعملوا الصالحات بالجوارح، وذلك أن الإيمان متى وقر في القلب صدقته الأعمال.

وقوله: ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾وصف لموصوف محذوف والتقدير: الأعمال الصالحات، والعمل الصالح ما اجتمع فيه أمران: الأول الإخلاص لله عز وجل، والثاني المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ فبفقد الأول يكون الشرك، وبفقد الثاني تكون البدعة، والله سبحانه وتعالى لا يقبل عملًا أشرك فيه معه غيره، ولا يقبل بدعة ابتدعها أحد في دينه؛ قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(٢)، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»(٣).

إذن فلابد من إخلاص لا شرك معه، ومتابعة لا ابتداع معها، وبذلك يكون العمل صالحًا، ﴿وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ يعني: فاعل السيئات والسيئات، هي إما تفريط أو إفراط، إما تفريط بالنقص والقصور، وإما إفراط بالزيادة وكلاهما إساءة.

ثم قال عز وجل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [يتعظون بالياء والتاء] أي: تذكرهم قليل جدًا.

قوله: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون وهي فيها قراءتان يتذكرون وتتذكرون، وكلاهما صحيح سمعية ثم أشار المؤلف إلى إعراب هذا التركيب، وهو كثير في القرآن فقال رحمه الله: [أي تذكرهم قليل جدًا]، وعلى هذا تكون (ما) مصدرية أي: تذكرهم تذكر قليل، ولكن الذي يظهر أن (قليلًا) صفة لموصوف محذوف مفعولًا مطلقًا أي: يتذكرون تذكرًا قليلًا، وما هذه زائدة لتوكيد القلة يعني: قليلًا، وعلى هذا تكون الجملة مركبة من فعل وفاعل ومفعول مطلق الذي هو قليلًا؛ لأنه صفة لمصدر محذوف ومن ما الزائدة للتوكيد.

---

(١) هذا حديث جبريل المشهور رواه عمر بن الخطاب وأبي هريرة وأبي ذر وغيرهم رضي الله عنهم وهو في مسلم وكذا البخاري.

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

الفوائد:

يقول عز وجل: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات أن السموات والأرض أعظم من البشر وهذا واضح، بل إن البشر جزء من الأرض؛ لأنهم خلقوا من طين.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إقامة الحجة على منكر البعث لأنكم إذا أقررتم أن الله خالق السموات والأرض لازمكم أن تقروا أن الله قادر على خلق الناس لأن من قدر على الأعظم فهو على ما دونه أقدر، وقد أقام الله أدلة كثيرة على إثبات البعث منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهو الضمير يعود على الإعادة أهون عليه من الابتداء، وهذا شيء معلوم بالحس والعقل.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات البعث، وجه الدلالة من قوله: ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ لأن المقصود من الآية تقرير البعث.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر الناس في غفلة وجهل؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فاحرص على ألا تكون من هؤلاء الذين لا يعلمون.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن العلم في الناس قليل؛ لأنه إن كان أكثرهم لا يعلم لازم أن الذي يعلم هو الأقل، فإن قال قائل: هل المراد نفي العلم أو نفي الفائدة فائدة العلم؟ يقال: المراد الأمران؛ فأكثر الناس في جهل، وأكثر الناس وعندهم علم لم ينتفعوا بعلمهم ولم يستفيدوا منه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾

١ - **في هذه الآية من الفوائد:** ضرب الأمثال، وهو إلحاق المعقول بالمحسوس، وجه ذلك: أن انتفاء الاستواء في الأعمى والبصير أمر معلوم بالحس، وانتفاء استواء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء أمر معلوم بالعقل.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ينبغي لمعلم الناس، أن يربط المعقولات بالمحسوسات؛ لأن ذلك أقرب إلى الفهم، وأدعى إلى التصديق؛ إذ إن المحسوس لا ينكر، لكن المعقول قد يكابر فيه من يكابر وينكره.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** نفي المساواة بين الأمور المختلفة، وهذا من قواعد الشريعة أنها لا تساوي بين مختلفين ولا تجمع بين مفترقين.

٤ ـ **ومنها:** أن من الناس من يطنطن ويقول: إن الدين الإسلامي دين مساواة، وهذا خطأ؛ الدين الإسلامي دين العدل، وليس دين المساواة، الذين يقولون: إنه دين المساواة يريدون أن يتحولوا من هذا إلى التسوية بين الرجل والمرأة، وبين الشريف والوضيع، وهذا خطأ، فإن الله تعالى جعل لكل إنسان ما يليق به شرعًا وقدرًا؛ ولهذا لم يأتِ حرف واحد في القرآن فيه أن الناس سواء أبدًا، فأكثر ما يوجد في القرآن نفي المساواة، لكن العدل جاء في العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، وذلك؛ لأن العدل يعني أن ينزل كل إنسان منزلته، فإذا استوى إنسانان في منزلة ساوينا بينهما في الحكم، وإذا اختلافا فرقنا بينهما والعجب أن كثيرًا من كتب المتأخرين يقولون بذلك، وهذا أمرٌ قد يدعو أيضًا إلى التسوية بين المؤمن والكافر؛ لأن كل منهما إنسان بشر، لكن إذا قلنا: العدل صار الكافر لا يمكن أن يلحق بالمسلم؛ لأن ذلك جور وظلم في حق المسلم، وغلو إفراط في حق الكافر.

٥ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح، وسوء العمل السيئ؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كثيرًا من الناس لا يتذكرون إلا قليلًا؛ لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾

٧ ـ **ومن فوائدها:** أن في هذه الآية شاهدًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٥٩، ٦٠]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكدين هما: إن واللام، ثم أُكد هذا التأكيد بقوله وهو تأكيد معنوي أيضًا والأول تأكيد لفظي: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ (ريب) شك فيها أي في إتيانها ووقوعها، والمراد بالساعة اليوم الذي يُبعث فيه الناس، وسمي

ساعة؛ لأن الناس يطلقون الساعة على الأمر الذي يدهى الناس، ويفجعهم حتى لا يشعرون به، والريب فسره المؤلف: بالشك وهو تفسير قريب، لكنك تجد فرقًا يسيرًا لطيفًا بينهما - أي بين الريب والشك - وهو أن الريب شك باضطراب وتردد، فقول القائل: ارتاب ليس بالتحديد كقوله: شك، فالارتياب يحمل قلقًا واضطرابًا، فهو إذن أخف من الشك، فكل ريب شك وليس كل شك ريبًا، لكن العلماء رحمهم الله يفسرون الشيء بما يقاربه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يؤمنون بماذا؟ بإتيان الساعة؛ ولهذا أؤكد لهم إتيانها، ولما كان أكثر الناس لا يؤمنون بها كان أكثر الناس كافرين؛ لأن الإيمان بالساعة له أثر عظيم في تحقيق الإيمان، فإن من لم يؤمن بالساعة لا يعمل، لأي شيء يعمل؟ وهو لا يؤمن بيوم الحساب، ومن آمن بيوم الحساب كان حريصًا على أن ينجوَ من وبال هذا اليوم.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لما ذكر الساعة ذكر ما يكون به الوقاية من وبالها وهو دعاء الله فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾، وأتي بالجملة بصيغة الغيبة تعظيمًا له عز وجل قال ربكم ولم يقل: أقول أو قلنا أو ما أشبه ذلك؛ تعظيمًا لله.

وقوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ أمر، و﴿أَسْتَجِبْ﴾ جوابه، جواب الطلب، والدعوة هنا تشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، فدعاء المسألة أن يقول الإنسان: يا رب اغفر لي، ودعاء العبادة أن يتعبد لله سبحانه وتعالى بما شرع، وإنما كانت العبادة دعاء؛ لأنها متضمنة لطلب الإنسان النجاة من النار ودخول الجنة أليس كذلك؟ بلى، لو سألت كل عابد لماذا تعبد الله؟ قال: أريد أن أنجو من النار وأدخل في رحمة الله؛ إذن فهو متضمن لدعاء بلسان الحال.

وقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ نفسرها في مقابل دعاء المسألة بـ (أعطكم ما سألتم) ونفسرها بدعاء العبادة بالقبول يعني: (أتقبل منكم) فاستجابة الله تعالى لدعاء المسألة أن يعطي السائل ما سأل، واستجابته لدعاء العبادة أن يتقبل من العابد، قال المفسر: [أي اعبدوني أثبكم بقرينة ما بعدها] وهذا التفسير يعتبر تفسيرًا قاصرًا، وأما ما بعده فليس قرينة لتخصيصه بهذا، بل نقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾، تدل على أن الدعاء عبادة؛ لأنه قال: ادعوني ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾، ولا شك أن الذي يستكبر عن دعاء الله ويرى أنه غني عن الله وليس محتاج إليه لا شك أنه مستحق لهذا الوعيد وهو أنه سيدخل جهنم داخرًا.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ هذا من جملة المطلوب [سيدخلون بفتح الياء وضم الخاء وبالعكس] يُدخَلون وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان.

وقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم للنار، وهو اسم معرب وأصله على ما قيل كهنام وقيل: بل هو عربي والنون فيه زائدة، وأصله من الجهمة يعني: من الظلمة، وأيًّا كان فهو علم عن النار.

وقوله: ﴿داخرين﴾[صاغرين] فالداخر هو الصاغر.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

١ - **من فوائدها:** ثبوت قيام الساعة ثبوتًا مؤكدًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** التحذير من إهمال هذه الساعة، وعدم العمل لها؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** وجوب الإيمان بالبعث؛ لأنه خبرٌ من الله مُؤكَّد، وكل أخبار الله تعالى صدق، وكل وعد الله حق.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن الارتياب في هذه الساعة؛ لأن قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يحتمل أن يكون خبرًا مجردًا للتأكيد، ويحتمل أن يكون خبرًا بمعنى النهي؛ أي: فلا ترتابوا فيها، ونظير ذلك: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ﴾ فإن فيه تفسيرين: الأول: أنه خبر محض، والثاني: أنه خبرٌ بمعنى النهي؛ أي: لا ترتابوا فيه.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الساعة وينكرونها، يقولون: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، ويقولون أيضًا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على كلمة مشهورة؛ بل إبطال الكلمة المشهورة، وهو: أن الإنسان إذا مات قالوا: عاد إلى مثواه الأخير، فإن هذه الجملة باطلة؛ لأن القبر ليس المثوى الأخير، المثوى الأخير: هو الجنة أو النار، أما القبر فإنه زيارة مَعبَر، كما أن الدنيا مَعبَر كذلك القبر معبر، ولهذا سمع أعرابيًا قارئًا يقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فقال الأعرابي: والله ما الزائر بالمقيم، وإن هناك شيئًا وراء القبور، من أين استنبط؟ ﴿زُرْتُمُ﴾ الزائر يبقى مدة، ثم يرحل، إذن إذا سمعنا من يقول: إن هذا دُفِن في مثواه الأخير أو ما أشبه ذلك فإننا نُنكِر عليه، ونقول: اعدل عن هذه الكلمة؛ لأن الكلمة مضمونها لو اعتقده القائل لكان كافرًا.

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات القول لله عز وجل، وهذا القول هل هو قولٌ نفسيٌّ لا يظهر، أو هو قولٌ ظاهرٌ؟ الثاني، لأن القول النفسي إذا أُريد قُيِّد، كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ فإذا أُطلِق القول صار المراد به: الكلام المسموع، وهذا قول السلف وأئمة الخلف أن الله يتكلم ويقول بقولٍ مسموعٍ وبحرف؛ لأن ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ هذه كلمات مركبة من حروف أو لا؟ إذن يتكلم بحرفٍ وصوت عز وجل.

وقول من قال: إن كلام الله هو: المعنى القائم بالنفس، وأن ما يُسمَع عبارة عن كلام الله، خلقه الله ليسمعه الناس، وإلا فإن كلامه في نفسه فقط، وهذا قول باطل؛ لأننا إذا فسَّرنا القول بهذا صار معناه: العلم وليس القول.

والآن نريد أن نقارن بين قولين: قول يقول: ما في المصحف فهو كلام الله مخلوق، وقول آخر يقول: ما في المصحف فهو عبارة عن كلام الله مخلوق؛ أيهما أقرب إلى الصواب؟ الأول، الأول: قول الجهمية والمعتزلة، والثاني: قول الأشاعرة، فتبيَّن الآن أن قول المعتزلة والجهمية في كلام الله خيرٌ من قول الأشاعرة مع أنهم يدَّعون - يعني: الأشاعرة - أنهم من أهل السنة والجماعة، فكيف يكون هذا؟ إذن نُثبِتُ من هذه الآية: القول لله، والقول لا يكون إلا بنصٍّ مسموع وبحروف.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الرب وتعاظمه، من قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ فإن هذه الصيغة تدلُّ على عظمة القائل عز وجل.

٣- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الربوبية لله، وهي تنقسم إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعامة الشاملة للخلق، وهي: تربية الخلق بالنعم وتغذيتهم بالنعم، والخاصة هي: تربية عباد الله المؤمنين؛ حيث ربَّاهم الله عز وجل على ما يحب، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن السحرة سحرة آل فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أيهما العامة؟ الأول: رب العالمين، ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب دعاء الله، أو استحباب دعاء الله؟ وجوبه، من قوله: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ لأنها تتضمَّن: لا تدعوا غيري.

٥- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الله تكفَّل ووعد الداعي بأنه مُجابٌ، لقوله: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

فإن قال قائل: ندعوا كثيرًا ولا نرى إجابة، ونعمل كثيرًا ولا نُحِسُّ بقبول، فما الجواب؟ الجواب: أن نقول: الأسباب لا تؤثِّر إلا إذا وَجَدَت محلًّا قابلًا، أرأيتم السكين إذا قَدَدتَ بها اللحم ينقطع أو لا؟ ينقطع، إذا قَدَدتَ بها الحديد لا ينقطع، مع أنها في اللحم بتَّارة ومع الحديد لا تعمل شيئًا، فالسبب لابد أن يكون له محلٌّ قابل وإلا فلا أثر له، ففي العبادة يعبد الإنسان ربَّه ولا يشعر بقبول لوجود سبب يمنع ذلك؛ إما فوات شرط، أو ركن، أو واجب، أو حدوث مُفسِد، وإلا لو أنَّا أقمنا العبادات على ما طُلِب منَّا لوجدنا لها أثرًا ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ من منَّا يشعر إذا صلَّى بكراهة الفحشاء والمنكر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلماذا لا نشعر بهذا؟ لأننا مُقصِّرون في الدعاء، دائمًا ندعو الله عز وجل ولا نرى إجابة، فنقول فيما قلنا في الأول: إن السبب لابد له من محل قابل، فإذا دعا الإنسان ربَّهُ لكن قد فاته شيءٌ من آداب الدعاء الواجبة، أو المستحبة، أو وُجِد مانعٌ يمنع من قبول الدعاء فليس الخلل

في الدعاء؛ بل الخلل في الداعي والمحل.

ولنضرب مثلًا بإنسان دعا وهو لا يشعر بالافتقار إلى الله عز وجل، ولا يشعر بالاضطرار إلى الله، فهذا دعاؤه ناقص جدًّا، إذا قلت: ربِّ اغفر لي مثلًا، لابد أن تشعر أن هناك ذنوبًا تحتاج إلى المغفرة، وأنك في أشد ما يكون من الضرورة إلى مغفرة هذه الذنوب؛ لأن هذه الذنوب إذا لم تُغفر فيا ويلك، ذنبٌ مع ذنب يكون كبيرة، ولهذا نهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن مُحقَّرات الذنوب، وقال: «إِنَّ مَثَلَهَا كَمَثَلِ قَومٍ نَزَلُوا أَرْضًا، فَأَتَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِعُودٍ، فَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا، وَأَضْرَمُوا نَارًا كَبِيرَةً»(١) مع أن الواحد منهم أتى بعود واحد، فالمهم: أنك لابد أن تشعر حين الدعاء أنك في غاية الضرورة إلى الله عز وجل.

ثانيًا من الآداب التي فقدُها سببٌ لمنع الإجابة: أن يكون عندك شكٌّ في قبول الله عز وجل لدعائك، أو لإجابة الله لدعائك؛ مثل: أن تستعظم المدعو به تستعظمه تقول: هذا ليس بحاصل، فهذا غلط، هذا مما يمنع الإجابة، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قول القائل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ» وقال: «لِيَعْزِمَ المَسْأَلَةَ، وَلْيُعظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

كذلك أيضًا من أسباب منع الإجابة: أن يدعو الإنسان بإثم أو قطيعة رحم، فيدعو بإثم؛ مثل: أن يدعو على شخصٍ لا يستحقُّ الدعاء عليه، فهذا إثمٌ، كأن يدعو على وليِّ أمرٍ أساء في مسألة من المسائل، فيقول: اللهم لا تُوفِّقه، وما أشبه ذلك، إذا رأيتَ وليَّ أمرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا أخطأ، فليس علاجُهُ: أن تقول: اللهم لا تُوفِّقه؛ بل يجب أن تقول: اللهم وفِّقه يَصلَح ويُصلِح الله به، هذا من الاعتداء في الدعاء الذي لا يُقبَل، من الاعتداء في الدعاء: قطيعة الرحم، أن تدعو بقطيعة رحم أيضًا لا يُقبَل.

دعاء الظالم على مظلوم لا يُقبَل؛ لأنه إثم.

رابعًا: من موانع القبول: أكل الحرام؛ لأن النبي ﷺ ذكر الرجل يُطِيلُ السفر، أشعثَ أغبرَ، يمُدُّ يديه إلى السماء: «يَا رَبِّ، يَا رَبِّ» كل هذه الوجوه الأربع من أسباب إجابة الدعاء «وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالحَرَامِ» قال النبي ﷺ: «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(٢) هذه كلها تمنع أو تحول بين الإنسان وبين قبول دعائه، واستجابة الله له، فإذا لم يوجد موانع، وكان المحل صالحًا وقابلًا بقي ما فوق ذلك السبب، الآن وافٍ ومتوافٍ لكن بقي شيءٌ وراء ذلك، وهو: مشيئة الله عز وجل، قد يدفع الله عن الإنسان من الشر ما هو أعظم مما طلب، وقد يُجِيبُ ما طلب، وقد يدَّخِر ذلك له أجرًا يوم القيامة، كما جاء في الحديث، وإلا فنحن واثقون غاية الثقة من صدق

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وأنه لابد أنْ يكون.

٦- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الذين يستكبرون عن عبادة الله سيدخلون جهنم على وجهِ الذل والصَّغار، لقوله: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** أن الجزاء من جنس العمل؛ يعني: العقوبة تقابل الجرم؛ لأنهم لما استكبروا في الدنيا أُدخِلوا النار صاغرين في الآخرة ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات النار، لقوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الدعاء من العبادة، لقوله: ﴿ادْعُونِي﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.



قال الله تعالى:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦١ - ٦٣]

التفسير

ثم قال الله تعالى مُبيِّنًا نفعه على عباده: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي﴾ خبره، و﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر، ونصبت مفعولين: الأول: الليل، والثاني: لفظي، والجَعْل هنا جَعْلٌ قَدَري وليس جَعْلًا شرعيًّا.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ اللام هنا هل للتعدية أو للتعدية مع التعليل؟ الجواب: الثاني، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللام للتعليل، والسكون ضد الحركة، وضد العمل، وهو شامل لسكون الجوارح، وسكون القلب، وسكون النفس، ولهذا يجد الإنسان إذا تعب ثم نام يجد أن نشاطه يستجِدّ ويزداد.

وقوله: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: وجعل النهار مُبصِرًا هذه معطوفة على الليل؛ أي: جعل النهار مُبصِرًا، وإسناد الإبصار إلى النهار؛ لأنه موضعه؛ أي: موضع أبصار الناس، ولهذا قال المُفسِّر: [إسنادُ الإبصارُ إليه مجازيٌّ؛ لأنه يُبصَر فيه] فهو زمنُ الإبصار، النهار محل عمل وبصر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أكَّد الله سبحانه وتعالى كونَه ذا فضلٍ على الناس بـ

(إنَّ) واللام، وذو بمعنى: صاحب ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فضل بمعنى: إفضال، فالله سبحانه وتعالى هو المُتفضِّل على العباد، ومنه -أي: من فضله- جعل الليل سكنًا، والنهار مُبصِرًا.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ عامة تشمل المؤمن والكافر، وهذا هو الواضح؛ لأن الليل سكنٌ للمؤمنين والكافرين، والنهار مبصرٌ للمؤمنين والكافرين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يعني: مع كون الله ذا فضلٍ على الناس أكثرهم لا يشكرون - والعياذ بالله -، أكثرهم كافر، ولهذه الآية نظائر؛ منها: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ولقد جاءت السنة بمثل ذلك؛ حيث أخبر النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُنَادِي يومَ القِيَامَةِ: يا آدَمَ ! أَخرِجْ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثَ النَّارِ، فَيُخْرِجَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعمِائَةٍ وَتِسعٍ وَتِسْعِيْنَ»[1] كلهم في النار، من ألفٍ واحدٌ ينجو، والشكر هو: الاعتراف للمُنعِم بالنعمة بالقلب، واللسان، والجوارح، قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

يعني: أنكم ملكتم مني ثلاثة بسبب نعمائكم، أما الشكر بالقلب فهو: أن تعترف بقلبك أن كل نعمة بك فإنها من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وأكبر النعم نِعم الدين، ثم العقل، ثم يتلوه النعم شيئًا فشيئًا بحسب حاجتها والضرورة إليها، وأما باليد - يعني: بالجوارح - اليد، والسمع، والبصر فاستعمال هذه في طاعة الله، اللسان كذلك، شكر الله باللسان: أن تعترف بلسانك أن ما بك من نعمةٍ فمن الله، وأن تُحدِّث بنعمته عليك، لا فخرًا واختيالًا، ولكن افتقارًا إلى الله عز وجل، واعترافًا بفضله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ثم استعمل هذا اللسان في طاعة المُنعِم، إذن صار الشكر في الحقيقة هو الدين كله؛ القلب، واللسان، والجوارح.

ثم إن الشكر يتبعَّض قد يشكر الإنسان ربَّه على نعمة من النعم دون النعم الأخرى، قد يُنعِمُ الله عليه بالمال فيشكر، ويُنفِق في سبيل الله، وينعم الله عليه بالعلم فيشكر، وقد ينعم الله عليه بالعلم فينشر العلم، وبالمال فينفق، فالشكر يتنوَّع كما أن الكفر يتنوَّع.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ذا مُبتدأ، واللام للبُعد، والكاف للخطاب، والميم للجمع، ﴿ٱللَّهُ﴾ هل نقول: إنها بدل، أو عطف بيان من اسم إشارة، أو أنها خبر؟ الظاهر: الأول، ﴿رَبُّكُمْ﴾ خبر المبتدأ، و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خبرٌ آخر؛ لأن الخبر يتعدَّد؛ إذ إن الخبر وصفٌ للمُخبَر عنه، وإذا كان وصفًا له فالأوصاف يجوز أن يتعدَّد، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كم خبر عندنا؟ الغفور، الودود، ذو العرش، المجيد، فعَّالٌ،

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

خمسة أخبار، الخبر يتعدَّد؛ لأن الخبر وصفٌ للمُخبَر عنه، فإذا قلت: زيدٌ قائم، معناه: أن وصفه القيام، والأوصاف يجوز أن تتعدَّد على موصوفٍ واحد، إذن نقول: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ خبر ذلكم ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا يشذُّ عن هذه الجملة شيءٌ أبدًا كلية عامة، خالق كل شيء من الآيات والأوصاف والأحوال، كل شيء فالله خالقه، العبد مخلوق، أحوال العبد؛ من مرض، وصحة، وعقل، وجنون، وما أشبه ذلك مخلوقة، أفعالُه مخلوقة، كل شيء فإنه مخلوقٌ، الله عز وجل لا يشِذُّ عن هذه الجملة شيءٌ أبدًا حتى العجز والكيس وهو من الأوصاف، العجز - يعني: أن الإنسان يكون غير حازم -، والكيس يكون حازمًا.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما بيَّن أنه خالق كل شيء وأنه لا خالق معه بناءً على هذه الجملة الكلية بيّن أنه لا إله إلا هو؛ أي: لا معبود بحق إلا الله عز وجل، فكما أنه منفرد بالخلق فيجب أن يُفرَد بالعبادة.

إله بمعنى: مألوه، وفِعال تأتي بمعنى مفعول في اللغة العربية كثيرًا؛ ومنه: غراس، بناء، فراش، كتاب، لباس، وما أشبهه.

إذا قال قائل: كيف تصح هذه الجملة مع قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ فأثبتَ آلهةً دون الله؟ الجواب: تصح هذه العبارة إذا عرفنا الخبر المُقدَّر حقٌّ، لا إله حقٌّ إلا الله، دليل هذا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام هنا للتعجُّب والإنكار، ﴿فَأَنَّىٰ﴾ [كيف] ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ [تُصرَفون عن الإيمان مع قيام البرهان].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ﴾ هذا التركيب يأتي كثيرًا في القرآن، فالكاف اسم بمعنى: مثل، وهو مفعول مطلق للعامل بعده؛ أي: مثل ذلك الإفك يؤفكون، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك، وهو: الإشراك بالله وعدمه في النعم ﴿يُؤْفَكُ﴾ [أي: مثل إفك هؤلاء إفكُ] ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إعرابها على أنها نائب فاعل، ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: كانوا يُنكِرون بآيات الله؛ أي: يكفروا، والجحد هنا بمعنى: الكفر بدليل أنه تعدَّى بالباء، وقول المؤلف: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [معجزاته] هذا لا شك أنه خطأ؛ بل نقول: آيات الله: الدلالات التي تدل على كماله عز وجل واستحقاقه للعبودية، فهي آيات وليست معجزات، وآيات الله سبحانه وتعالى نوعان: كونية وشرعية، فالمخلوقات كلها كونية، آيات تدل على كماله:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّهُ واحدُ

فكل ما في الكون فإنه شاهدٌ بكمال الله عز وجل، وقدرته، وعزته، وسلطانه، وغير ذلك، المهم: أن جميع المخلوقات آيات كونية تدل على خالقها، وعلى حكمته، ورحمته، وغير ذلك من

كمال صفاته، وآيات شرعية، وهي: ما جاءت به الرسل؛ من أحكام عادلة، وأخبار صادقة، وقصص نافعة، التكليفات والأوامر والنواهي كلها عادلة، والأخبار كلها صادقة، والقصص كلها نافعة ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** كمال قدرة الله عز وجل بإيجاد الليل والنهار، فإن هذا من عظيم قدرته جل وعلا، هل يستطيع البشر إذا طلعت الشمس أن يرُدُّوها فتغرب؟ أبدًا، وإذا غابت أن يردوها فترجع؟ أبدًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ فأقول: الليل والنهار الذي جعله الله للعباد لا يمكن لأحدٍ أن يغيرهما إطلاقًا، ثم إذا نظرنا أيضًا إلى هذا الليل والنهار وتعاقُبِه وولوج بعضه في بعض فهو آية أخرى، أحيانًا يجيء الليل وأحيانًا يجيء النهار، من يستطيع أن يفعل ذلك إلا الله سبحانه وتعالى؟

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تعليل أحكام الله القدرية كما هو ثابتٌ في الأحكام الشرعية؛ يعني: أن الأحكام الكونية لا يمكن أن تكون إلا لحكمة، من قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾ واللام للتعليل، إذن جعل الله ذلك لنسكن.

ذكرنا أن أحكام الله الكونية مُعلَّلة كأحكامه الشرعية، لكن هل يلزم من تعليلها أن نعلم بالعلة؟ لا يلزم، إن فتح الله علينا ما فتَح من ذلك فهذا خيرٌ منه وفضل، وإن حُرِمنا ذلك بذنوبنا فنحن مُخطِئون، إنما على كل حال ما من شيءٍ إلا وله حكمة.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان منة الله سبحانه وتعالى في الليل والنهار؛ حيث جعل الليل سكنًا، وجعل النهار مُبصِرًا، لقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا﴾، ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لولا هذا ما سكن الناس، ولذلك تجد الإنسان بطبيعته إذا جاء الليل أحبَّ السكون، ولولا أن في وقت عصرنا هذا شاعت الأنوار، وشاعت الأضواء، وصار الليل كالنهار لوجدتَ للَّيل لذَّةً عظيمة، وقد أدركنا ذلك، تجد لذَّةً ومحبة للسكون، وسكون قلب، وسكون بدن، وسكون نفس، ثم إذا طلع الفجر وإذا هو كالرُّطَب التي تأتي بعد التمر نفرح به، وجاء النهار، الآن ما كأن هناك ليل ولا نهار، ولذلك لا نجد اللذة التي كنا نعرفها من قبل.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله ذو فضلٍ على الناس عمومًا، من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكيف نجمعُ بين التعميم والتخصيص؟ أن نقول: الفضل نوعان: عام وخاص، فالعام لعامة الناس، والخاص للمؤمنين.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أكثر عباد الله لا يشكرون الله، لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من قياس الأحكام الشرعية بأعمال العباد؛ بمعنى: أننا إذا قلنا لشخصٍ: هذا حرام، قال: كل الناس يفعلونه، فيجعل المعيار أعمال الناس، وهذا خطأ؛ كل الناس يعملوه ما هي حُجَّة ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، الحُجَّة في ما قال الله ورسوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ سواء كانت الطائفة الأخرى أكثر من التي قبلها أو أقل، إذن لا يجوز أن نجعل أعمال الناس معيارًا للأحكام الشرعية.

٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب شكر الله عز وجل، والإشارة إلى أن يكون هذا الشكر من جنس الفضل، فما شكر صاحب المال؟ شكرُهُ لربِّهِ أن يُنفِقَهُ في سبيل الله، ما شكر العلم؟ أن يبذُلَه في سبيل الله، ما شكر من أعطاه الله شجاعة وقوة بدنية والجهاد قائم؟ أن يجاهد في سبيل الله، إذن الشكر من جنس النعم؛ لأنه قال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ الفضل.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

١ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات ربوبية الله عز وجل على كل شيء أنه رب كل شيء، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾.

٢ـ **ومن فوائدها:** الإشارة إلى وجوب طاعته وعبادته، لقوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ وإذا كان هو الرب فهو السيد، وإذا كان هو الرب فهو الذي له السلطان، وإذا كان هو الرب فهو الذي له الحق أن يُعبَد، كل ما يُثبِتُ الربوبية فهو دليلٌ على وجوب الألوهية، ولهذا يستدلُّ الله عز وجل على المشركين لكونهم يُثبِتُون الربوبية ويُنكِرون الألوهية، فكل من أثبت الربوبية لزِمَهُ أن يُثبِت الألوهية، إذن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ إذ لا يمكن لأحدٍ أن يعبد الله إلا وهو يعلم أنه ربٌّ أهلٌ للعبادة، ولهذا لو قال لك قائل: هل التوحيدان متلازمان؟ فقل: أما توحيد الربوبية فمُستلزمٌ لتوحيد الألوهية، وأما توحيد الألوهية فمُتضمنٌ لتوحيد الربوبية.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات خلق الله عز وجل لكل شيء، لقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فلو قال قائل: استثنى العقلُ نفسَهُ فليس خالقًا لها، فهل يصح هذا القول؟ لا؛ لماذا؟ لأن نفسه لم تدخل أصلًا؛ لأن هناك فاعلًا ومفعولًا، والفاعل لا يمكن أن يدخل في المفعول حتى يُستثنَى منه، فنحن نقول: إن الربَّ عز وجل لم يدخل في قوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لأن الخلق، أو إن شئت فقل: لأن المخلوق بائنٌ من الخالق، فلا يمكن أن يدخل الخالقُ في المخلوق حتى نقول: استثنى العقل، والاستثناء: إخراجُ الشيء من الشيء، وهنا لم يدخل أصلًا.

استدلَّ الجهميةُ والمعتزلة بأنَّ كلام الله مخلوق؛ لأن كلام الله شيءٌ، فيكون داخلًا في العموم.

نقول: إذن يلزمُكُم أن تقولوا: إن الله مخلوق؛ لأن الله شيءٌ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذن قولوا: إن الله مخلوق أيضًا، فإن قالوا: لا يمكن أن نقول؛ لأن الفاعل غير المفعول، قلنا: وصفات الفاعل كالفاعل، الصفاتُ تحذو حَذوَ الذات، فإذا كان الرب عز وجل خالقًا غير مخلوق فصفاته أيضًا غير مخلوقة، فالقرآن ليس بمخلوق؛ لأنه كلام الله، وكلام الله من صفاته، وصفات الله كلها غير مخلوقة.

فإن قال قائل: إن الخلق ثابتٌ للعبد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ فأثبت أن هناك خالِقِين، وقال الرسول ﷺ في المُصوِّرين: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» فأثبتَ أنهم خالقون؟ فالجواب: أن الخلق الثابت للباري عز وجل ليس كالخلق الذي أُثبِتَ للمخلوق، خلقُ المخلوق للشيء: تحويلُهُ من حالٍ إلى حال وليس إيجادًا، فالنجار إذا صَنَعَ الخشبةَ بابًا؛ هل يقال: إنه خلق الخشبة؟ لا، يقال: حوَّلَهَا من خشبةٍ إلى باب ولم يخلقها، حتى إذا قلنا: إن صنعه هذا خلق فهو في الحقيقة بمعنى: تغيير وتحويل، وليس بمعنى: الإيجاد، وقد تحدَّى الله عز وجل الأصنام التي تُعبَد من دون الله والتي يُدعَى أنها آلهة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.

٤- **ومن فوائد الآية الكريمة**: بناءُ توحيد الألوهية على توحيد الربوبية، لقوله بعد ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا هو؛ أي: لا تعبدوا إلا إيَّاه، لقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإنكارُ والتعجُّب على أولئك الذين صُرِفوا عن الحق مع وضوحه وبيانه، لقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

١- **من فوائد هذه الآية**: أن المُكذِّبين بآيات الله يصدر منهم ما يُقضَى به العجب، لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الذنوب تحُول بين الإنسان وبين رؤية الحق؛ لأن هؤلاء لما جحدوا بآيات الله صُرِفوا عنها، وهذا واقع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هل أحدٌ يمكن أن يقول: هذا القرآن العظيم أساطير الأولين؟ يقول الله عز وجل: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من الأعمال السيئة حتى رأوا هذا الحق المُنِير، فجعلوه أساطير، ولهذا يجب أن نُعالِج أنفسنا إذا رأَينَا أننا نقرأ القرآن وكأنه حُرُوفٌ تُتلَى نرجوا بركتَها وثوبها، إذا لم تُؤثِّر على القلب باللِّين والخشوع والرجوع إلى الله عز وجل، فإن ذلك دليلٌ على

مرض القلب وربما نقول: على موت القلب، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المؤمنين بآياته، المُتَّبِعين لمرضاته.



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلَّذِى﴾ خبره؛ يعني: الله هو الذي جعل لكم الأرض قرارًا، والسماء بناءً.

وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ هذه من أفعال التصيير؛ أي: صيَّرَ لكم ﴿قَرَارًا﴾ بمعنى: ذات قرار؛ أي: مستقر ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: فوق، وقد بيَّن الله تعالى في آية أخرى أنه سقف، فالله جعل الأرض قرارًا؛ أي: مُستقرة، وهل معنى هذا القرار أنها لا تتحرك، أو أنها لا تَميدُ بنا؟ يقال: القرآن يُفسِّرُ بعضُه بعضًا، فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ فبيَّن أن المراد بالقرار: أنها لا تَميدُ بساكنيها؛ أي: لا تضطرب، وليس المعنى: أنها قارَّة لا تتحرك.

وقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا عاليًا، والمراد بالسماء هنا: السماوات ذات الأجرام، وذلك أن السماء يُطلَق على معنيين: المعنى الأول: العلو، والمعنى الثاني: السماء السقف، والذي يُعيِّن أحد المعنيين هو السياق، فقول الله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ المراد بالسماء هنا: العلو؛ لأن المطر ليس ينزل من السماء السقف؛ بل ينزل من العلو، ويدل لذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالسماء هنا بمعنى: ذات السقف، والمطر ينزل من السحاب، فإذا كان مُسخَّرًا بين السماء والأرض اقتضى ذلك ألَّا يكون المطر ينزلُ من السماء ذات السقف، ولكنه ينزل من السماء التي بمعنى: العلو، والذي معنا هنا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ المراد به: السماء ذات السقف.

وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: جعلكم على صورة مُعيَّنة، والصورة هي:

الشكل، فشكل الآدمي هو أحسن شكل في المخلوقات وأحسنه وأقومه ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فلا صورة أحسن من صورة الآدمي، ولا شكل أحسن من شكله، ولهذا قال: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فبيَّن الله في هذه الآية أربعة أشياء: الأرض التي هي محل السكنى، والسماء التي هي محل الظل، والهيكل الإنساني، والإمداد لهذا الهيكل، وهو: قوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ رزقكم أي: أعطاكم، والطيبات هنا ما طاب ولذ، واعلم أن الطيب تارةً يُراد به: الحلال، وتارةً يُراد به: الحسن، وتارةً يُراد به: اللذيذ، ويُعيِّن ذلك: السياق، فقول الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ المراد بالطيب هنا: الحسن، والمراد بالخبيث هنا: الرديء، والمراد بقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ المراد بها: الحلال، لقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ لأنه لو قيل: المراد: اللذيذ لكان قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ﴾ لا معنى له، ولا يمكن إقامة الشكر إلا إذا تناول الإنسان الشيء الحلال، والمراد بقوله هنا: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المراد بها: ما طاب ولذ، وإنما قلنا ذلك؛ لأن رزق الله عز وجل بالمعنى العام يشمل الحلال والحرام، ولهذا نقول: إن الإنسان إذا اكتسب مالًا عن طريق الربا مثلًا فإنه مرزوق لا شك لكنه رزقٌ فيه التبِعة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾: اسم إشارة مبتدأ وما بعده عطف بيان أو نعت، ورب خبر المبتدأ؛ يعني: هذا الذي أمدَّكم بالأشياء الأربع هو الله لا أحد غيره، وقوله: ﴿رَبُّكُمْ﴾ يعني: أنه جل وعلا ربُّ عباده الذي هو: الخالق، المالك، المُدبِّر؛ لأن الرب يجمع ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير.

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبارك قيل معناها: تعالى وتعاظم، وهذا المعنى قريب، لكن فيه أن تبارك أخص من ذلك، ومعنى تبارك أي: أنه ذو البركة العظيمة الثابتة، ولهذا لا يُطلَق على غير الله بهذا المعنى؛ أي: بمعنى: أنه ذو البركة العظيمة الثابتة؛ لأن هذا الوصف لا يليق إلا بالله.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربُّ هذه عطفُ بيان أو صفة للفظ الجلالة، والعالمون كل من سوى الله، كل الخلق عالمون، وسُمُّوا بذلك؛ لأنهم عالَمٌ على خالقهم، ففي كل الخلق آيةٌ من آيات الله، كما قيل:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحدُ

والربوبية هنا: الربوبية العامة؛ لأنه أضافها إلى العالمين، فهي عامة شاملة.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أن الله تعالى هو خالق الأرض، لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

٢- **ومن الفوائد:** نعمة الله عز وجل علينا بكون الأرض ذات قرار؛ أي: مستقرة لا تميد.

٣- **ومن فوائدها:** أن الأرض لا تتحرك، لقوله: ﴿قَرَارًا﴾ هكذا قال بعض العلماء، ولكن إذا قارنَّا هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تبيَّن أن الاستدلال بهذه الآية على أن الأرض لا تتحرَّك فيه نظر، فيقال إذن: من فوائد هذه الآية نعمة الله عز وجل علينا لكون الأرض لا تميد بنا ولا تضطرب بنا، ومن ثَمَّ نعرف الحكم على اختلاف الناس اليوم ما بين مُؤيِّد ومُفنِّد: هل الأرض تتحرك أو لا تتحرك؟ فمن المعروف عند علماء الفلك أنها تتحرك، وهذا عندهم بمنزلة الأمور البدَهِيَّات اليقينيات التي لا تقبل الجدل، يقولون: إن الأرض تتحرك وتدور بذاتها دورانًا يختلف به الليل والنهار، وتدور دورانًا محوريًّا به يختلف الفصول، وليس عندهم في ذلك شك، ولا يجادلون فيها.

ومن العلماء من قال: لا، إنها لا تدور؛ بل هي ثابتة قارَّة، وأن اختلاف الليل والنهار إنما يكون بسبب دوران الشمس على الأرض لا بسبب دوران الأرض.

والذي يظهر لي أن القرآن الكريم ليس فيه شيء صريح بأنها تدور أو لا تدور، وهو إلى كونها تدور أقرب من كونها لا تدور؛ لأن نفي الأخص في قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يقتضي وجود الأعم، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: إن هذه الآية تدل على ثبوت رؤية الله عز وجل؛ لأن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، نفي المَيَدان يدل على وجود أصل الحركة، لكن الأمر خطير فيما أرى؛ هل الشمس هي التي تدور على الأرض عند الطلوع والغروب، أو لا؟ نحن نعتقد أنها هي التي تدور، ولا مانع أن يكون هناك دوران للأرض ودوران للشمس؛ لأن ظواهر الكتاب والسنة كلها تدل على أن الشمس هي التي تطلع وتغرب، وتميل، وتدور، وتسير، وما أشبه ذلك، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ فهذه أربعة أفعال كلها أُضيفت إلى الشمس، والأصل أن ما أضيف إلى الشيء فهو فعله، وقال الله تبارك وتعالى في سورة ص: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾، وقال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ حين غربت الشمس: «أَتَدْرِي أَيْنَ ذَهَبَتْ؟»[1] قال: الله ورسوله أعلم، فكل هذه الأفعال مضافة إلى الشمس نفسها، فكيف نعدِلُ عن ظاهر هذا اللفظ إلى معنى آخر بدون أمر قطعيٍّ يكون لنا حُجَّة عند الله عز وجل أن نخالف ظاهر كلامه، لكن من تبيَّن له أمرٌ تبيُّنًا واضحًا، ورأى أنه أمر قطعيٌّ يقينيٌّ بدَهيٌّ - كما يقولون -، فإنه يمكن أن تُؤوَّل بأن نسبة الطلوع إلى الشمس والغروب والذهاب باعتبار رأي العين لا باعتبار الواقع، لكني إلى الآن لم يتبيَّن لي أن

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٠/ ١٥٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

اختلاف الليل والنهار يكون بدوران الأرض؛ بل هو يكون بدوران الشمس، والله على كل شيء قدير.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن السماء مبني، لقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وهو كذلك، قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾، وقال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ إذن فهي أجرام لا شك في ذلك، وهي أجرام محفوظة لا يمكن الولوج إليها إلا بعد إذن، ويدل لهذا: أن أفضل الرسول البشرية محمدًا ﷺ وأفضل الرسل المَلَكية جبريل كلاهما لم يدخل السماء الدنيا وما بعدها إلا بعد استئذان، مما يدل على كمال حفظها.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** منة الله تعالى علينا نحن البشر أن صوَّرَنا هذا التصوير البديع الذي هو أحسن الصور فقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تحريم التصوير، يمكن أن نأخذ منها ذلك، فنقول: إن من صوَّر فقد نازع الله تعالى فيما هو من اختصاصه، وهو: الخلق، ولهذا جاء في الحديث يقال للمُصوِّرين يوم القيامة: «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ»[1] وهذا هو الصحيح: أن التصوير حرام؛ بل هو من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ لعن فاعله[2]، ولكن هنا ثلاثة أمور: الأول: الصورة التمثالية؛ بمعنى: أن يخلق الإنسان من الطين، أو الخشب، أو الحديد شيئًا على شكل صورة، هذه لا شك في التحريم، ولهذا قال في حديث علي بن أبي طالب الذي رواه مسلم أنه قال لأبي الهياج: ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؛ أَلَّا تدعَ قبرًا مُشرفًا إلا سوَّيته، ولا تمثالًا إلا طمَسته[3]، ولا أعلم نزاعًا بين العلماء في تحريم ذلك.

الثاني: ما كان بالرَّقْم؛ أي: التصوير بالرَّقْم؛ بمعنى: أن الإنسان يُصوِّر بيده صورة، فهذه اختلف فيها السلف والخلف؛ فمنهم من قال: إنها لا تحرُم، لقوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «إِلَّا رَقْمًا فِي ثَوْبٍ»[4] وهذا رَقْمٌ في ثوب فلا يحرم، ولأن هذا ليس شيئًا مُجسَّمًا حتى يُطابق ما خلق الله عز وجل، إنما هو شكل فقط، والصورة التي صوَّرَها الله جسم محسوس ملموس يُشاهَد بالعين، وأما هذا فإنه مُجرَّد تلوين، فلا يدخل في الحديث، ولكن الجمهور داخل في الحديث بدليل النمرقة حديث عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ جاء إلى بيته فلم يدخل من أجل صورة كانت في نمرقة جعلَتْها للنبي ﷺ[5].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠٥) ومسلم (٩٦/ ٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٤٧) من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩٣/ ٩٦٩) من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٩٥٨) ومسلم (٨٥/ ٢١٠٦).

(٥) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠٥) ومسلم (٩٦/ ٢١٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهذا هو الصحيح: أن التصوير برسم اليد حرام وداخل في اللعن، ولا يحلُّ لأحد أن يقوم به.

الثالث: ما كان تصويرًا بالالتقاط وليس باليد، وذلك ما يُعرَف بالتصوير الفوتوغرافي الذي ليس للإنسان فيه أي عمل؛ بل هو شيءٌ يتمثَّل أمام هذا الضوء المُعيَّن فينطبع، وليس للإنسان فيه أي عمل سوى تحريك الآلة التي تقوم بالتقاط هذه الصورة، فهذا مُختلَفٌ فيه اختلافًا كبيرًا بين المتأخرين؛ لأنه لم يظهر إلَّا أخيرًا فاختلفوا فيه، والذي يتبيَّن لي أنه لا يدخل في التصوير؛ لأن هذا لم يخلق بيده كما خلق الله عز وجل، لم يُشكِّل العين، ولا الأنف، ولا الفم، ولا الشفة، ولا أي شيء، غاية ما هنالك أن هذا الضوء انعكس على هذه الصورة فانطبعت، فهو بمنزلة ما لو شاهدتَ المرآة رأيتَ صورتك فيها، إلا أن الفرق: أن هذا يثبت وما في المرآة يزول بزوالك، ولهذا نُسمِّي صورة الناظر في المرآة نُسمِّيها: صورة، وهي بالاتفاق لا تدخل في التصوير المنهِيِّ عنه، لكن يبقى النظر لماذا صوَّر هذا الإنسان؟ يعني: الآن تقرَّر عندي أن هذا التصوير مباح، لكن لماذا صور؟ نقول: نُجرِي على هذا ما نُجرِيه على سائر المباحات، وهو: أنه إذا كان لغرض مقصود، وإذا كان لغرض مُحرَّم فهو حرام، فلو أن إنسانًا صوَّر صورة امرأة أجنبية من أجل أن يتلذَّذ برؤيتها كلما سنَحَت له الفرصة، لقلنا: هذا حرام لا شك، ولو أراد أن يُصوِّر صورةَ عظيم ليُعلِّقها في بيته، لقلنا: هذا حرام، ولو أراد أن يُصوِّر صورة أبيه، أو أخيه، أو عمه، أو صديقه من أجل أن يتسلَّى به عند المصائب، لقلنا: هذا حرام، فيكون هذا المباح حكمه حكم الغرض الذي من أجله صُوِّر، هذا ما يظهر لي حول هذه المسألة، والناس فيها بين متهاون وبين مُتشدِّد، والذي يظهر لي - والله أعلم - هو هذا.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** منَّةُ الله عز وجل برزقه إيَّانا من الطيبات، لقوله: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ذكرنا أن المراد بالطيبات هنا: اللذائذ ليشمل الرزق العام والخاص، وليُعلَم أن الرزق ينقسم إلى قسمين: رزقٌ عام، ورزقٌ خاص، فالعام كل ما ينتفع به الإنسان فهو رزق، كما قال السفَّاريني رحمه الله:

والرزق ما ينفع من حلالٍ وضده ....

وهو الحرام، هذا رزق عام، يستوي فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمكتسب عن طريق الحلال، والمكتسب عن طريق الحرام، وعلى هذا فالمسروق بالنسبة للسارق رزقٌ لكنه رزقٌ وإن تمتَّع به في الدنيا فسيكون عليه وبالًا في الآخرة، أما النوع الثاني من الرزق: فهو الرزق الطيب الحلال، وهذا هو الرزق الخاص، وهو الطيب الحلال، وهو خاصٌّ بالمؤمن، وعلى هذا فالكافر ليس له رزقٌ خاصٌّ إطلاقًا حتى لو اكتسبه عن طريق الحلال فليس رزقًا خاصًّا؛ بل هو داخلٌ في العموم؛ لماذا؟ لقول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وغير الذين آمنوا ليست لهم،

ولهذا نقول: الكافر يُحاسَب على كل لقمةٍ أكَلَها، وكل شربة شربها يُحاسَب عليها يوم القيامة؛ بل إن من الخبر أن يُحاسَب المؤمنين على الطيبات إلا بالشروط التي ذكر الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ الشروط: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ شروطٌ ثقيلة لِحِلِّ الرزق مع أنه طيب - نسأل الله أن يعيننا على تنفيذ هذه الشروط -، إذن الكافر لا يمكن أن يكون في حقِّه رزقٌ خاص، كل الرزق - وإن كان طيِّبًا - فهو عام بالنسبة له، يُحاسَب عليه، أما المؤمن فينقسم في حقِّه إلى خاص وعام، فما أَثِمَ به فهو من العام، وما لم يأثم به فهو من الخاص.

٨- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان أن ربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة، لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي: الذي أعطاكم هذه الأشياء الأربع ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فربوبية الله عز وجل مبنية على الرحمة، ويدل لهذا: قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعدها ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فربوبيته عز وجل مبنية على الرحمة والرأفة.

فإن قال قائل: ينتقض عليكم هذا في الحياة الدنيا من المُنغِّصات التي تؤذي الإنسان وربما تضره، قلنا: هذه بالنسبة للمؤمنِ رحمة؛ كيف ذلك؟ لأنها مُكفِّرة للذنوب، لا يُصيب المؤمن شيءٌ من همٍّ، أو غمٍّ، أو أذى إلا كفَّر الله به عنه، حتى الشوكة يُشاكُها، إذن فهي رحمة؛ لأنها تُكفِّر السيئات، ومع احتساب الأجر عند الله عز وجل تكون حسنات؛ لأن ترقُّب ثواب الله واحتساب الأجر على الله عملٌ صالح يُثابُ عليه المرء، وهذا الأذى أو هذا الضرر الذي ينال العبد عَرَضٌ يزول، ولهذا لو رجعت إلى الوراء في تفكيرك لوجدتَ أنه مرَّ بك أشياء كثيرة من الأذى، وأشياء كثيرة من الضرر فزالَت وكأنها لم تكن، إذن الثواب الذي حصل، وتكفير السيئات الذي حصل هو خيرٌ من هذه الأذايا وهذه الأضرار، فتكون بذلك رحمة، فلا تخرج عن نطاق الرحمة في الربوبية.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الله عز وجل، لقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد استنبط بعض العلماء من هذا: أن اسم الله عز وجل تُنالُ به البركة، واستشهد لذلك بقوله: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرٌ»(١) وهذا ليس ببعيد، وإن كان فيه شيء من الركاكة.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم ربوبية الله عز وجل، لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويتفرَّع على ذلك: أنه يجب أن يقوى اعتماد الإنسان على الله في جلب المنافع ودفع المضارّ؛ لأنه إذا كان رب العالمين عز وجل فهو مسيطر على كل العالمين، وله السلطان على كل العالمين.

---

(١) ضعيف جدا: تقدم تخريجه.

ويتفرَّع على ذلك أيضًا مسألة أخرى، وهي: اللجوء إلى الله عز وجل عند حصول المضايقات من بني آدم، أو غير بني آدم؛ لأنه سبحانه رب العالمين، بيده الأمر، فهو القادر على أن يعصِمَ الإنسان من الأسد الضارم المُهاجِم وإن كان الإنسان لا يستطيعه بمجرد قدرته، لكن الله تعالى قد يصرِفُه عنه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الربوبية العامة، لقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وهناك ربوبية خاصة، وربوبية أخص، وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن السحرة آل فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ إذن ربوبية الله العامة شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، والربوبية الخاصة للمؤمنين، والربوبية التي هي أخصُّ للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبهذا نعرف أن من صفات الله ما يكون عامًّا، وما يكون خاصًّا، وأخص.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل المخلوقات آية على الله، لقوله: ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقد قلنا: إنهم سُمُّوا بذلك؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]

التفسير

قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ جملة خبرية تفيد الحصر، وهذا حصرٌ إضافي؛ لأن المراد بالحي هنا: الحي حياة كاملة، أما مطلق الحياة فيكون فيه وفي غيره، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أما الحياة الكاملة فهي لله عز وجل.

وقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا نافية للجنس، ولا النافية للجنس نصٌّ في العموم، وإله بمعنى: مألوه؛ لأن فعالًا يأتي بمعنى: مفعول في اللغة العربية، وله شواهد كثيرة؛ مثل: غراس، وبناء، وفراش، وما أشبه ذلك، إذن إله بمعنى: مألوه، وما معنى مألوه؟ معناه: الذي تألَهُهُ القلوب محبةً وتعظيمًا؛ أي: تهواه، وتميل إليه محبةً له وتعظيمًا له، فبالمحبة يكون فعل المأمور، وبالتعظيم يكون ترك المحذور.

وقوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلّا أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم في المحصور فيه ونفيُه عما سواه، وإذا كان الأمر كذلك بقِيَ فيه إشكال؛ لأنك إذا قلت: لا إله إلا هو، وقلت: إن ذلك للحصر ورَدَ على قلبك، أو أُورِدَ عليك أن هناك آلهة دون الله بنصِّ القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ

عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾؟ والجواب عن ذلك: أن يقال: إن خبر ﴿لَآ﴾ محذوف، وتقديره: حقٌّ؛ أي: لا إله حقٌّ إلا الله، وإذا كان هذا هو التقدير لم يرد الإشكال الذي ذكرنا؛ لأن الآلهة التي سوى الله كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ وما قرّرناه هنا في هذه الكلمة - كلمة الإخلاص - هو الذي تطمئن إليه النفس، وإلا فقد اختلف فيها علماء العربية وعلماء التوحيد على أقوال متعددة تبلغ نحو ستة أقوال.

ومما ذُكِر: أن الخبر محذوف تقديره: موجود، لا إله موجود، وهذا لا شك أنه باطل؛ لأنك إذا قلت: لا إله موجود إلَّا الله لزِمَ أن تكون الآلهة التي تُعبَد من دون الله هي الله، لزِمَ أن تكون هي الله، وأن تكون عبادتها حق، وإلهيتها حق، إذن المُتعيِّن ما دل عليه القرآن: أن الخبر محذوف تقديره: حق، لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾.

قال: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ قال المُفسِّر: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ [اعبدوه] ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾، وهذا التفسير يعتبر قاصرًا؛ لأن المراد بالدعاء هنا: دعاء العبادة - كما قال المُفسِّر -، ودعاء المسألة، فالذي يُدعَى دعاء مسألة هو الله، والذي يُدعَى دعاء عبادة هو الله، كأنَّ المؤلف رحمه الله اقتصر على العبادة لقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ لأن الدين هو العمل، ولكن يقال: إن الدعاء من العمل، ولابد فيه من الإخلاص، فالصواب: أن قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أي: اعبدوه واسألوه، فهو دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

إذا قال قائل: دعاء المسألة واضح أنه دعاء، تقول: يا رب اغفر لي، يا رب يسِّر أمري وإخواني من المسلمين مثلًا، هذا دعاء مسألة واضح، لكن كيف كانت العبادة دعاء؟ الجواب: أن العابد يدعو الله بلسان الحال؛ لأنك لو سألتَه: لماذا عبدتَ الله؟ لقال: أرجو ثوابه وأخشى عقابه، إذن فهو داعٍ بلسان الحال.

وقولُه: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ مخلصين اسم فاعل، وفعلُه أخلص، ومعنى أخلص أي: نقَّى الشيء من غيره، أخلصه يعني: جعله خالصًا لا شائبة فيه، فمعنى مخلصين أي: مُنقِّين العبادة والدعوة له وحده، وقوله: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ الدين يُطلَق في القرآن الكريم على معنيين: المعنى الأول: العمل، والمعنى الثاني: الجزاء، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ لأنه يوم القيامة ليس هناك عمل، فيوم الدين يعني: يوم الجزاء، والمراد به هنا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ العمل أم الجزاء؟ العمل؛ أي: مخلصين له عملكم، وهو الدعاء.

وقوله: [من الشرك] متعلِّق بـ ﴿مُخْلِصِينَ ﴾ أي: مُنقِّين له من الشرك؛ بحيث لا يكون في عملكم إشراك.

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه جملة تتضمَّن الثناء على الله عز وجل بعموم ربوبيته، والحمد مصدر حَمِد يحمَدُ حمدًا، وهو - أعني: الحمد -: وصف المحمود بالكمال على وجه المحبة والتعظيم، فقولنا: وصف المحمود بالكمال خرج به القدح؛ لأن القدح وصف الموصوف بالنقص، وقولنا: على وجه المحبة والتعظيم خرج به المدح؛ لأن المدح المجرد قد لا يكون لمحبة ولا للتعظيم قد يكون للخوف، فربما يمدح الرجل سلطانًا جائرًا لا لمحبته ولا لتعظيمه ولكن للخوف منه، أما الحمد فلا يصدر إلا عن محبة وتعظيم، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ اللام هنا للاختصاص والاستحقاق، للاختصاص؛ لأن الحمد المطلق لا يصح إلا لله وحده، والاستحقاق؛ لأن المُستحقَّ للحمد حقيقةً هو الله عز وجل، المخلوق وإن استحق الحمد لكنه ليس استحقاقًا حقيقيًّا؛ لأن كل شيء يأتيك من المخلوق أو كل كمال في المخلوق فمن الله، فأنا أحمد المخلوق عندما يُحسِنُ إليَّ، أو عندما أرى فيها صفات كمال أحمده لا لأنه هو المستقل بذلك ولكن لأنه السبب، إذن اللام هنا ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق والاختصاص.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الرب هو: الخالق، المالك، المدبر؛ يعني: كلمة رب المضافة إلى الله عز وجل، أو التي وُصِفَ بها الله تتضمَّن ثلاثة معانٍ: الخلق، والملك، والتدبير، فالله عز وجل هو الخالق لكل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو المُدبِّر لكل شيء، حتى المشركون يُقِرُّون بهذا ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال العلماء: العالَم: كل من سوى الله، وسُمُّوا عالَمًا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالقهم جل وعلا؛ إذ إن في كل شيء من هذه المخلوقات آية تدلُّ على عظمة الرب، وقدرته، وغير ذلك مما تقتضيه معاني الربوبية.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد؛ منها:** ثبوت الحياة المطلقة لله عز وجل، لقوله: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ وحياة الله تعالى كاملة من كل الوجوه، فهي كاملة؛ لأنها لم يسبقها عدم، كاملة؛ لأنه لا يلحقها فناء، كاملة؛ لأنها متضمنة لجميع أوصاف الكمال، كاملة؛ لأنها مُنزَّهةٌ عن كل نقص، فكمالها من وجه أربع، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ صفة كمال ونفي نقص، فإن قال قائل: الحي من الأسماء اللازمة أو المتعدية؟ من الأسماء اللازمة، وقد ذكر العلماء في كتب التوحيد أن أسماء الله عز وجل إن كانت مُتعدِّية فإنه لا يتم الإيمان بها إلا بأمور ثلاثة: إثباتها اسمًا لله، وإثباتُ ما دلَّت عليه من الصفات، وإثبات ما يترتَّبُ على هذه الصفة، وأما إذا كان الاسم لازمًا فإنه يتضمَّنُ شيئين: إثبات ذلك الاسم لله عز وجل، والثاني: ما دل عليه من الصفات فقط.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** انتفاء الألوهية عمَّا سوى الله، لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ومعنى الألوهية: تألُّه العبد لله عز وجل محبةً وتعظيمًا.

٣- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإخلاص لله عز وجل في العبادة والدعاء، لقوله: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الكمال لله عز وجل في ذاته وفي إنعامه، لقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالله أثنى على نفسه بذلك لكمال صفاته.

٥- **ومن فوائدها:** عموم ربوبية الله سبحانه وتعالى لكل شيء، لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن المستحق للحمد هو الله عز وجل، والمختص بالحمد المطلق هو الله سبحانه وتعالى.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[غافر:٦٦]

التفسير

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ يُخاطِبُ المشركين فيقول: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ الجملة هنا مُؤكَّدة بـ (إنَّ)، و﴿نُهِيتُ﴾ فعل ماضٍ مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، وحُذِف الفاعل للعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ حُذِف الفاعل للعلم به؛ لأنه لا أحد ينازع في أن الخالق هو الله، وهنا المسألة مسألة شرعية نهيٌ، فلا نزاع في أن الذي له الأمر والنهي هو الله، كما أنه هو الذي الخلق، إذن يكون الناهي هو الله، والنهي: طلب الكف على وجه الاستعلاء بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية، فقولنا: طلبُ الكفِّ خرج به: الأمر، وخرج به المباح، وقولنا: على وجه الاستعلاء خرج به: الدعاء؛ مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ لأننا لا نسأل الله على وجه الاستعلاء؛ بل على وجه الاستضعاف، نستضعف أنفسنا أمام الله عز وجل، وخرج بقولنا: بصيغة المضارع المقرون بـ (لا) الناهية خرج به: نحو قولك: انتهِ عن كذا، اجتنِب كذا، هذا نهي ولكنه ليس نهيًا اصطلاحيًّا؛ بل هو أمرٌ بالاجتناب، فلو قال لك قائل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ هل هذا نهيٌ عن الرجس من الأوثان، أو أمرٌ باجتنابه؟ نقول: الثاني؛ أمرٌ باجتنابه، لكن إذا قلت: لا تقرب الرجس من الأوثان صار نهيًا.

وقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ العبادة هي: التذلُّل للمعبود محبةً وتعظيمًا،

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال المُفسِّر: [تعبدون من دون الله] وهذا أيضًا فيه شيءٌ من القصور، والصواب: أن المراد بـ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون وتسألون؛ لأن من المشركين مَنْ يسألون أصنامهم، ويتذلَّلون لها بالسؤال، فهي أعم مما ذكره المُفسِّر رحمه الله، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من سوى الله، وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ لما ظرف زمان بمعنى: حين، ولما تأتي في اللغة العربية على أربعة أوجه: الوجه الأول: أن تكون بمعنى: حين، كما في هذه الآية، والوجه الثاني: أن تكون بمعنى: إلا، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ معنى ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ إلا عليها حافظ، والمعنى الثالث: أن تكون أداة جزم، كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ أي: لم يذوقوا عذابي ولكنه قريب، المعنى الرابع: أن تكون حرف وجود لوجود، كقولك: لما جاء زيدٌ جاء عمرو.

وقوله: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ صفة لموصوف محذوف للعلم به، والتقدير: الآيات البيِّنات، قال المُفسِّر: [دلائل التوحيد] والمعنى أعم مما قاله رحمه الله؛ بل هي دلائل التوحيد، ودلائل القدرة، ودلائل السمع والبصر، وغير ذلك، المهم: أنه جاءه البينات من الله عز وجل، وفي القرآن العزيز كلمة البينات دائمًا محذوفٌ موصوفُها وذلك للعلم به، والشيء المعلوم يجوز حذفه، كما قال ابن مالك في «الألفية»:

وحَذفُ ما يُعلَمُ جائزٌ كما ... تقول: زيد بعد «مَنْ عندكما»؟

وهذه قاعدة عامة في كل شيء ليس في المبتدأ والخبر فقط؛ بل في كل شيء.

وقوله: ﴿مِن رَّبِّى﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿جَآءَنِيَ﴾ أي: جاءني من الله عز وجل، ولكنه ذكر اسم الربوبية؛ لأن هذه ربوبية خاصة يُربِّي بها الله عز وجل أنبياءه ورسله، وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ مُقابِل ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مَن الآمِر؟ الله، والأمر: طلب الفعل على وجه الاستعلاء بصيغة افعل أو غيرها مما يدل على الأمر، وقوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ أنْ مصدرية، و﴿أُسْلِمَ﴾ فعل مضارع موصولٌ بها، ومعنى ﴿أُسْلِمَ﴾ أستسلم لرب العالمين، والمراد بالإسلام هنا: الإسلام الشرعي؛ لأنه هو الذي في طاقتنا، وهو الذي يمكن أن نفعله أو لا نفعله، وهو الذي لا يكون إلا من المؤمن، أما الإسلام الكوني فليس بطاقتنا، ولا يمكننا أن ندافعه، ويكون من المؤمن والكافر، إذن يتبيَّن لنا أن الإسلام له معنيان: المعنى الأول: الإسلام الكوني القدري، والثاني: الإسلام الشرعي الديني، فمن الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الإسلام هنا كوني أو شرعي؟ كوني؛ لأنه قال: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ والإسلام الشرعي لا يكون بالإكراه، والإسلام الشرعي لا يكون عامًّا لكل شيء، فالإسلام هنا كوني قدري، وهنا قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾ المراد به: الإسلام الشرعي الديني؛ يعني: أن أُسلِم؛ أي: استسلام تعبُّدًا وتذلُّلًا لله عز وجل، وقوله: ﴿لِرَبِّ

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نقول فيها ما قلنا في الآية السابقة، لكن لو قال قائل: لماذا لم يقل: أن أُسلِم لله؟ قلنا: ليكون ذلك دليلًا على وجه الإسلام؛ يعني: لماذا أسلم؟ لأن الله رب العالمين، ورب العالمين أحقُّ أن يُسلَم له، وأن يُتعبَّد له عز وجل، فهو كالدليل للحكم السابق الذي هو الإسلام.

الفوائد:

١- **في هذه الآية الكريمة فوائد؛ منها:** أن النبي ﷺ عبدٌ مأمورٌ منهيٌّ، من قوله: ﴿أَنْ أُسْلِمَ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائدة: بطلان دعوى من يقول: إن النبي ﷺ له الأمر والنهي في السماوات والأرض؛ لأنه لا يمكن أن يكون كذلك وهو مأمور منهي.

٢- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب الإخلاص لله عز وجل، لقوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ وهذه حقيقة الإخلاص.

٣- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى القاعدة المشهورة، وهي: أن التخلية قبل التحلية، من قوله: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ هذه تخلية ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تحلية، ووجه كون التخلية قبل التحلية: أن التحلية إذا وَرَدَت على محلٍّ غير نظيف صارت ناقصة متلوثة، فأنت طهِّرِ المحل أولًا، ثم حلِّهِ ثانيًا، هذا هو المعنى المراد، وهكذا في كلمة الإخلاص: لا إله نفيٌ، إلا الله إثباتٌ، الأول: تخلية، والثاني: تحلية.

٤- **من فوائد الآية الكريمة:** بطلان عبادة ما سوى الله؛ لأن النهي يقتضي البطلان والفساد، فلما نُهِينا عن عبادة مَن سوى الله دلَّ ذلك على أنها باطلة.

٥- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ كغيره يحتاج إلى العلم، لقوله: ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

فإذا قال قائل: في هذا إشكال كبير، وهو: كيف يكون الرسول عليه الصلاة والسلام لم يعلم ببطلان هذه الآلهة إلا حين جاءه النهي مع أن بطلان هذه الآلهة مركوزٌ في الفِطَر والعقول؟ أما كونه مركوزًا في الفِطَر، فلقوله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَى الفِطْرَةِ»[1] والفطرة هي: عبادة الله وحده، وأما العقل فلأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام استدل على بطلان الآلهة بدليل عقليٍّ، حين قال لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، قلنا: إن الرسول ﷺ يعلم بطلان هذه الآلهة لكنه أسند هذا العلم للآيات البينات لإثبات الرسالة، فتكون الرسالة مُؤيِّدة لما تقتضيه الفطرة ويدل عليه العقل.

٦- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فهو آياتٌ بيِّناتٌ ليس فيها خفاء، لقوله: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، والعجب أن المشركين كانوا يتردَّدون إلى منزل

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

الرسول عليه الصلاة والسلام خُفْية يستمعون القرآن؛ لأنه أخذ بألبابهم وعقولهم، لكنهم - والعياذ بالله - ينكرونه استكبارًا ومكابرة.

٧- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: التحذير من خفاء ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام؛ بمعنى: أن الذي لا يرى أن ما جاء به الرسول مُتضمِّنٌ للآيات البينات فليعلم أن على قلبه غشاوة؛ لأن القلب النظيف النزيه لابد أن يعرف أن ما جاء به الرسول حقٌّ بيِّن، لكن قد تتراكم الذنوب على القلوب - والعياذ بالله - فلا تعرف الحق، قال الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فصاروا يَرَون هذا القرآن الكريم أساطير الأولين - نسال الله ألَّا يُعمِيَ قلوبنا وقلوبكم -، فالمسألة خطيرة؛ إذ لم تجد قلبك مستنيرًا بهذا القرآن، أو بعبارة أعمّ بما جاء به الرسول فاعلم أن في القلب بلاءً، فداوِ القلب ما دام في أول المرض حتى لا يستشري المرض فيقضي على القلب، فلا تتمكَّن من إصلاحه بعد.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: عناية الله تعالى برسول محمد ﷺ، وذلك في إثبات الربوبية الخاصة في قوله: ﴿مِن رَّبِّى﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة**: وجوب الإسلام لله عز وجل، لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه لابد للقلب من حركة، فإما إلى باطل، وإما إلى حق، لقوله: ﴿نُهِيتُ﴾ وهذا تفريغ هذا الفراغ لابد له ما يملؤه، وهو: الإسلام؛ لأن كل شيء إذا لم يكن له بديل سيظل الأمر خاويًا، فإذا خُلِّيَ المكان من الباطل وَجَبَ أن يُملأ بالحق، وهكذا أيضًا إذا تأمَّلتَ وجدتَ كل شيء باطل إذا لم يخلُفْه حقٌّ بقِيَ الأمرُ خاويًا فتذبذب الإنسان، لما قال الله تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا﴾ ماذا قال؟ ﴿وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا﴾ لابد من قول، فإذا أُبطِل الباطل لابد أن يخلفه الحق.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما سوى الله لا يستحق أن يُسلَم له، لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فمن كان رب العالمين فهو الأحق بالإسلام له، ولا يُوصَف برب العالمين إلا الله عز وجل.

١٢- **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات عموم الربوبية لله، لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١٣- **ومن فوائد الآية الكريمة**: مُراعاة الوصف المناسب وإن كان فيه عدولٌ عن الأشهر، لقوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عدولًا عن (لله) مع أن الله هو الأشهر، لكن اعتبار الوصف المناسب أولَى، والله أعلم.



قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]

التفسير

قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ أي: ابتدأ خلقه، والخلق بمعنى: الإيجاد مع التقدير، قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقتَ وبعضُ الناس يخلق ثم لا يفري

قوله: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ قال: [بخلق أبيكم آدم منه] فالأصل: أننا من تراب من هذه الأرض ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الأرض هي الأول والآخر بالنسبة لبني آدم إلى يوم البعث، وقوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ منيّ، وهذا باعتبار نسل آدم عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هذا الطور الثالث، والثاني باعتبار نسل آدم، والعلقة قال: [دمٌ غليظ] مثل: الخيط ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وطوى الله تعالى ذكر المُضغة وإنشاء الخلق الآخر إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [بمعنى: أطفالًا] وإنما قال: [بمعنى: أطفالًا] لأنها حالٌ من الكاف في ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾، وهي جمع، وطفل مفرد، وعلى هذا فيتعيَّن أن يكون طفل بمعنى: أطفال، وقيل: إن طفلًا بمعنى المفرد، وأن المعنى: ثم يُخرِج كل واحد منكم طفلًا، فيكون ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ جمعًا باعتبار المجموع؛ أي: أن كل واحد منَّا يُخرَجُ طفلًا، وعلى هذا فلا حاجة إلى تأويل طفل بمعنى: أطفال.

وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ قال: [ثم يبقيكم لتبلُغوا] وإنما قدَّر ذلك؛ لأن اللام تحتاج إلى مُتعلَّق، وعلى هذا فمُتعلَّقُها محذوف، والتقدير: ثم يُبقِيكم، ﴿لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [تكامل قوتكم من الثلاثين سنة إلى الأربعين سنة] هذا بلوغ الأشد، أقوى ما يكون الإنسان من ثلاثين سنة، ثم يبدأ في الانحدار شيئًا فشيئًا، ولكن قد يكون هناك عوامل تُوجِبُ أن تبقى قوته مُدَّة من الزمن أكثر، وقد تكون هناك عوامل تُوجِبُ أن تنهدم قوته قبل تمام الأربعين، لكن في الأصل أنه إذا تمَّ الإنسان أربعين سنة بدأ في ضعفه، وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ أي: كامل قوتكم ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ [بضم الشين وكسرها] يعني: شُيوخًا وشِيوخًا، والقراءتان سبعيَّتان، وهذه طريقة المؤلف إذا ذكر الوجهين جميعًا فمعناه: أن القراءتين سبعيَّتان، وقوله: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ يعني: كبارًا تبلغوا سن الشيخوخة.

وقوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل الأشد والشيخوخة، قال: [فعل ذلك بكم

لتعيشوا ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾] والمُفسِّر يُقدِّر ذلك لوجود حرف العطف، وهو قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، وقوله: ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وقتًا محدودًا، والمُسمَّى بمعنى: المُعيَّن، وهو بمعنى: المحدود، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تكونوا من ذوي العقول، وتفهموا حكمة الله عز وجل في تقديره وتشريعه، فالقَدَر يكون فيه مُقدَّر شيئًا فشيئًا حتى يكون، وهكذا الشرع تكون فيه الشرائع شيئًا فشيئًا حتى تكمل، وهذا من سنة الله تعالى الكونية وسنته الشرعية؛ أن الأمور لا تأتي دفعة واحدة؛ بل تطوَّر حتى تبلغ الكمال، وهذا من حكمته البالغة، وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ليس المراد بذلك: عقل الإدراك؛ بل المراد بذلك: عقل التدبير والرشد؛ لأن العقل عقل إدراك تتوقَّف عليه التكاليف الشرعية، ولهذا يقال: من شروط صحة الصلاة: العقل، والمراد به: عقل الإدراك، وعقل التدبير والرشد، وهو: حُسن التصرف، ولهذا نقول: إن الكفار لا يعقلون، مع أنهم بالنسبة لعقل الإدراك أقوياء أشداء وأذكياء، لكن عقل التدبير والتصرُّف هم خالون منه.

الفوائد:

١ـ **في هذه الآية الكريمة:** بيَّن الله سبحانه وتعالى منشأ بني آدم وغاية بني آدم.

٢ـ **وفيها من الفوائد:** بيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقنا وحده، وأنه لا خالق إلا الله، وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ ما الجواب؟ جوابُنا: أنهم لم يُخلَقوا من غير شيءٍ، وليسوا هم الخالقين، إذن فلهم خالق.

٣ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان أن أصل بني آدم هو التراب، لقوله: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ والتراب معروف أنه يختلف، ومن ثَمَّ اختلفت طبائع بني آدم، واختلفت ألوان بين آدم، واختلفت ألسنة بني آدم، كما اختلف أصلهم، فالتراب منه: الرمل، والطين، والسباخ، وغير ذلك.

٤ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** انتقال هذا الأصل إلى أصل آخر، وهو: الماء النطفة المَنِيُّ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، وفي آية أخرى: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ يعني: غليظ لا يندفع ولا يجري؛ لأنه غير سائل، ليس كالماء المائع الذي يسيل؛ بل هو ماءٌ مهينٌ ضعيفٌ لا يتحرَّك.

٥ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** تطوُّر خلق الإنسان في بطن أمه، وهنا لم يذكر الله عز وجل إلا النطفة والعلقة؛ لأن النطفة هي الأصل، والعلقة هي أصل مادة الحياة؛ إذ إن الحياة لا تكون إلا بالدم، وهو أصل المادة، ولهذا لو تفرَّغ دم الإنسان لهلك.

٦ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله عز وجل أنه بعد هذا الجنين أو بعد هذه الحال في بطن أمه يخرج طفلًا مُتكاملًا.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا:** أن الله تعالى قسَّم الناس بعد خروجهم أطفالًا إلى أقسام:

القسم الأول: أن يبلغ الإنسان أشُدَّه، ثم يموت، والثاني: أن يبلغ الشيخوخة، والثالث: أن يموت قبل ذلك؛ أي: قبل بلوغ الأشُدّ، وقبل الشيخوخة، وعلى أي أساس يكون هذا؟ نقول: هذا محضُ مشيئة الله عز وجل، ليس له أساسٌ معلومٌ، لكنه محض المشيئة، لكن مع كونه محض المشيئة قد يُقدِّر الله تعالى أسبابًا كونية وأسبابًا شرعية بها يطول العمر وتبقى الصحة، وقد يُقدِّر الله أسبابًا على العكس من ذلك؛ فمن الأسباب الشرعية: ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، وَيُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[1] هذا دليلٌ على أن صِلة الرحم من أسباب سعة الرزق، وطول العمر، فيُيسِّر الله تعالى لهذا العبد أن يصِلَ رحمه فيطول عمره، وهذا شيء مكتوب، ولكن لا علم لنا به، فحثَّنا النبي ﷺ عليه بهذه الطريقة، وأما الأسباب الكونية فهو توقِّي الأسباب الضارة في الصحة، وهذا شيء لا نهاية له، وهو أمرٌ معلوم، وأكثر ما يعرفه الأطباء، فيُيسِّر الله تعالى للإنسان من أسباب الصحة من دواء، وغذاء، وهواء ما يكون به طول العمر.

٨- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأجل مهما طال بالإنسان فإنه محدود له غاية، مع أن الإنسان في نفسه يمُدُّ أملًا بعيدًا جدًّا، يظن أنه سيبقى عشرات المئات، ولكنه في الواقع مهما بلغ فإن الأجل محدود، والشيء المحدود المعدود غايتُه النهاية؛ لأن كل يوم يمضي ينقص العمر، قال الشاعر:

والمـرءُ يفـرحُ بالأيـام يقطعهـا ... وكـل يـومٍ مـضى يُـدنِي مـن الأجـل

المرء يفرح بالأيام يقطعها يقول: ما شاء الله ! عمرك طويل، ومُكِّثت كثيرًا، لكن كل يوم يمضي يُدنِي من الأجل؛ يعني: إذن يطول من وجه، ويقصُر من وجه آخر، ثم عند انتهاء الأجل ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ وقِسْ ما يُستقبَل بما مضى، الآن منَّا من عُمِّر ستين سنة، أو خمسين سنة، أو عشرين سنة، أو ما أشبه ذلك، هذه الأيام التي مضَتْ كأنها ساعة؛ يعني: أنت اليوم كأنت بالأمس، وأنت بالأمس كأنت قبل أمس، كأنها ساعة، كأنها أحلام، ولذلك قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾.

٩- **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان نعمة الله عز وجل علينا في العلم والبيان؛ لأن ذلك سببٌ لبلوغ الغاية في العقل، وذلك لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثباتُ تعليل أحكام الله؛ أي: أن أحكام الله تعالى مُعلَّلة،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٠/ ٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

وهل هذا مُقتصر على الأحكام الشرعية، أو على الأحكام الشرعية والكونية؟ الجواب: الثاني، فكل أحكام الله الكونية والشرعية كلها مُعلَّلة؛ يعني: كلها لحكمة، لكن هذه الحكمة قد تكون معلومة لنا، والناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا مُتباينًا؛ منهم من يُطلِعُه الله على أسرار خلقه وأسرار شرعه، ومنهم من لا يُطلِعُه، ومنهم مَن بَين ذلك، وكذلك أحكام الله الشرعية كلها مُعلَّلة بحكمة، وما يذكره الفقهاء أن هذا الحكم تعبُّدي لا يعنون بذلك: أنه ليس له علة، وإنما يعنون بذلك: أن علَّته غير معلومة لنا، فنحن ليس لنا إلا مجرَّد التعبُّد، ولهذا لما سألت المرأة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ ماذا قالت لها؟ قالت: كان يصيبنا ذلك فنُؤمر بقضاء الصوم، ولا نُؤمَر بقضاء الصلاة، إذن الحكمة شرع الله، شرعُ الله كله حكمة، لكن لو أراد إنسان أن يلتمس لذلك حكمة معقولة فلا حرج عليه.

١١- **ومن فوائد الآية الكريمة:** الثناء على أهل العقل؛ أي: على العقلاء؛ لأن الله تعالى جعله غاية، فقال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

ذكرنا الآن أن أحكام الله الكونية والشرعية لها حكمة، فإن قال قائل: ماذا تُجيبون عن قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾؟ الجواب: أنه لا مُنافاة؛ لأن الله لم يقل: لا حكمة لما يفعل؛ بل قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأن كل ما يفعله فهو حكمة لا يُسأل عنه، نعلم أن ما فعله إلا لحكمة فلا يُسأل.



قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]

التفسير

هذا كالأول جملة استئنافية تُبيِّن كمال قدرة الله عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: يجعل الحياة في الميت، والموت في الحي، وحده أو معه غيره؟ وحده لا أحد يُحيي ويميت، ولهذا قال إبراهيم للذي حاجَّه في ربه: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فلا يمكن أن يُحيي أحدٌ ميتًا، ولا أن يُميت حيًّا، فإن قيل: أليس عيسى ابن مريم يُحيي الموتى؟ قلنا: لكن بإذن الله في نفس الآية ﴿يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بإذن الله، فإن قيل: أليس الرجل يقتل الآخر وهو حي فيموت؟ قلنا: بلى، ولكن ما فعله هو سببُ الموت وليس هو الإماتة، وكثيرًا ما تُقطَع أوداجُ الإنسان ويُشقُّ بطنه، ثم يبقى حيًّا ويحيا، فالحاصل: أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ [أراد إيجادَ شيءٍ] ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أمرًا هنا بمعنى: شأنًا؛ أي: فهو واحد الأمور، وليس واحد الأوامر؛ أي: إذا قضى شأنًا من الشئون وقدَّره فإنه لا يُعجِزه أن يُوجِده، بماذا يُوجِده؟ بالكلمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولهذا يُسمَّى عيسى ويُوصف بأنه كلمة الله؛ أي: كان بكلمة، فالحاصل: أنه إذا أراد شيئًا إذا قضى أمرًا وقدَّره قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وهل المراد: الموجودات، أو المعدومات، أو الكل؟ الكل حتى لو أراد إعدام شيء قال له: ﴿كُن﴾ فينعدم، فقول المؤلف: [إيجاد شيء] لو زادها: أو إعدامه لكان خيرًا؛ لأنه إذا قضى أمرًا من إيجاد أو إعدام قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، غير الله عز وجل لو أردتَ أن تهدم بيتًا تبقى أيامًا وأنت تهدمه، لكن الله عز وجل إذا أراد أن يهدم هذا البيت أو القرية كلها بكاملها ماذا يقول؟ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ تنهدم تكون هباءً، فإذن نقول: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ في إيجاد شيء أو إعدامه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ كل شيء بقدر؛ الصغير والكبير، المُتعلِّق بأفعاله وأفعال عباده، كل شيء خَلَقَه فهو بقدَر، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ ويتأخَّر المأمور؟ لا، ما هو؟ ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ لمح البصر ليس شيء أسرع منه، واحدة بدون تكرار ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء للتعقيب، وقال تعالى في بعث الناس: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ سبحان الله ما أعظم خلق الله، كلمة واحدة فيها تكون كلها كما أراد الله عز وجل، وإن كان هذا المأمور لا يعلم به، لكن لابد أن يكون كما أراد الله، لما قال القلم: ربي ! ماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فماذا فعل؟ كتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، مع أنه لا يعلم، لكن أُمِر فلابد أن يمتثِل ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ليس هناك إكراه، طوعٌ، إذن نقول: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: بإيجاد شيء أو إعدام شيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾ رابطة للجواب جواب إذا، وهي تدل على التعقيب.

وقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بدون تأخير؛ لأن الفاء هذه للتعقيب، قال: [بضم النون وفتحها بتقدير أنْ] إذن فيها قراءتان: كُن فيكُونُ، كُن فيكونَ، فعلى القراءة الأولى: تكون الفاء للاستئناف، وعلى الثاني: تكون الفاء فاء السببية التي ينتصِب بعدها الفعل، وهي معروفة في علم النحو، قال: [أي: يوجد عقب الإرادة التي هي معنى القول المذكور] يريد أن ينفي بذلك: القول؛ يعني: أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ إنما يريد أن يقول؛ لأنه - عفا الله عنه - يُريد أن ينفي قول الله عز وجل، فإن مذهبه مذهب الأشاعرة الذين يقولون: إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس شيئًا يُسمَع، وليس توجيهًا يُصدَّر إلى الموجَّه إليه، مع أن الآية صريحة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ﴾ قولٌ صريح مُصدَّق ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ معنى ﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ أي: يريد أن يكون فكان، ولا شك أن هذا تحريفٌ للكلام عن مواضعه، نسأل الله تعالى أن يعفو عمَّن حرَّفَه بحُسْن نية، والمؤلف لا نعتقد فيه - إن شاء الله -

إلا الخير، لكنه أخطأ في هذا، والصواب: أنه يقول قولًا مسموعًا يسمعه المُوجَّه إليه فيمتثل أمر الله عز وجل.

الفوائد

١ـ **في هذه الآية الكريمة:** بيان أن الله تعالى هو الذي يُحيِي ويميت، وهذا من تمام ربوبيته.

٢ـ **ومن فوائدها:** أن الإحياء والإماتة ليست بصعبة عليه، لقوله: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

٣ـ **ومن فوائدها:** الرد على مُنكري البعث الذين قالوا: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ وجهه: أنه إذا قضى البعث ماذا يقول؟ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولنأتي على بيان الأدلة الدالة على قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى في هذه الآيات، لقد ذكر الله تعالى ثمانية أوجه على قدرته على إحياء الموتى:

الوجه الأول: قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وجه الدلالة: لأن الذي قَدَرَ على إنشائها أول مرة قادرٌ على إعادتها؛ لأن الإعادة أهون ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

الوجه الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وجه الدلالة: هو لا يخفى عليه الخلق، فإذا كان لا يخفى عليه الخلق، فما الذي يعجزه وهو على كل شيء قدير؟

الوجه الثالث: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ وجه الدلالة: هناك شجر معروف إذا ضربتَه بالقدح اشتعل نارًا، فخرجت النار من ضدِّها، فالذي أخرج الضدَّ من ضده قادرٌ على أن يُحيي الموتى، الشجر الأخضر فيه الرطوبة والبرودة، والنار فيها اليبوسة والحرارة، فيُخرِج هذه المادة الحارة اليابسة من مادة رطبة باردة، وهذا من تمام القدرة.

وقوله: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ هذا لتأكيد أنه خرج هذا وأوقدتموه.

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ بلى، وجه الدلالة: لأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فالقادرُ على الأكبر قادرٌ على ما دونه.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فإذا كان الخلاق العليم فهو قادرٌ على أن يخلق كل شيء، ومنه: إعادة الموتى.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وجه الدلالة: أنه يعُمّ كل شيء حتى إحياء الموتى، ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يحتاج إلى أعوان ولا تردُّد.

وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ هذه الجملة وجه الدلالة منها: إذا كان مالكًا لكل شيء بعموم الكل، فإن كان مالكًا لكل شيء فالبعثُ يدخل ضمن العموم.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وجه الدلالة: لولا هذا الرجوع لكان الخلق عَبثًا، فكوننا لابد أن نرجع إلى الله لابد أن نحيا، وإلا لكانت الحياة كلها عبثًا، فانظر إلى تقرير الله عز وجل الإحياء بعد الموت؛ لأنه ينبني عليه العمل، لو أن أحدًا لا يؤمن بيوم الحساب لم يعمل، يعمل لأي شيء ما دام ليس فيه إلا الحياة الدنيا نموت ونحيا فلأي شيء نعمل؟ إذن سيعمل للدنيا، ينهب، ويسرق، ويزني، ويشرب الخمر، ويعمل كل شيء؛ لأنه ليس وراء هذه الدنيا شيء، فلا يمكن أن نستقيم إلا بالإيمان باليوم الآخر، ولهذا تجدون الله عز وجل يقرِن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به في مواضع كثيرة ربما لو أحصيناها لوجدناها أكثر من الإيمان به وبرسله؛ لأن الإيمان باليوم الآخر عليه أساس العمل، ونحن لولا أننا نعتقد ونؤمن أن أعمالنا أمامنا يوم القيامة ما حرصنا على العمل الصالح؛ لأنه يذهب هباءً، ولهذا فالإيمان باليوم الآخر من أعظم الباعث على الاستقامة، أما من لا يؤمن باليوم الآخر ولا يؤمن بالله ولا بالبعث، فهذا سيكون عمله كل هباء.



قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٢]

التفسير

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير؛ لأن همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي صارت مقرِّرةً له، فمعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: رأيت، والخطاب إما للرسول ـ ﷺ ـ، أو لكل من يصحُّ أن يتوجَّه إليه الخطاب، وهذا الخطاب يرِدُ كثيرًا في القرآن، وقد بَيَّنَّا أن الخطاب المُوجَّه إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو الذي ظاهره أنه مُوجَّه للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: ما هو مختصٌّ به قطعًا، والقسم الثاني: ما هو عامٌّ له وللأمة قطعًا،

والقسم الثالث: ما ليس فيه هذا ولا هذا، أما الأول: فهو الخاص بالرسول قطعًا فهو خاصٌّ به، ولا إشكال في ذلك؛ مثل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١، ٢]، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٦، ٧]، وما أشبه ذلك، الخطاب هنا للرسول - عليه الصلاة والسلام - خاصٌّ ولا يشمل الأمة، وأما الذي له ولغيره قطعًا؛ فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١]، لم يقل: إذا طلقتَ النساء، فدلَّ هذا على أن الخطاب الخاص به له وللأمة؛ لأنه خاطبَه أولًا بالنداء، ثم وجَّهَ الخطاب إلى الأمة عمومًا، فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ فدلَّ هذا على أن الخطاب الخاص به بالنداء ليس خاصًّا به؛ بل هو له وللأمة، ما ليس كذلك؛ يعني: ما ليس هذا ولا هذا، اختلف فيه العلماء - رحمهم الله -؛ هل هو خطابٌ خاصٌّ بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ولا يشمل الأمة إلا حكمًا على سبيل التأسِّي به، أو إنه عامٌّ للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولغيره، ويكون الخطاب فيه لمن يصح خطابه؟ والخلاف في مثل هذا يكاد يكون لفظيًا؛ لأن الجميع مُتفقُون على أن هذا الحكم ثابتٌ للرسول ولغيره، لكن إذا قلنا: إنه خاصٌّ به صار بالنسبة لغيره عامًّا على وجه التأسِّي والقدوة، لكن الحكم لا يختلف في الواقع؛ لأنه إن لم يشمل الأمة لفظًا فقد شملها حكمًا للأمر بالتأسِّي به - ﷺ -، فهنا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ من أي الأقسام الثلاثة؟ هذا مما يدخله الاحتمال: أنه خاص بالرسول - عليه الصلاة والسلام -، أو عام لكل من يتوجه إليه الخطاب.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ قال المؤلف: [أي: القرآن]، وهذا التفسير يعتبر قاصرًا؛ لأن آيات الله أعظم من كونها كونية أو شرعية، وأعظم من كونها في القرآن، أو التوراة، أو الإنجيل، أو غيرها من الكتب المُنزَّلة على الرسل، فالصواب: أن نقول: في آيات الله الكونية والشرعية، وأَولَى ما يدخل فيها: القرآن، والمجادلة هي: المنازعة مع الخصم من أجل صرفه عما كان عليه من المجادلة، مأخوذة من الجَدْل، وهو: فَتْل الحبل حتى يحتكم ويكون قويًا، هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله يجادلون الرسل وأتباعهم، فالمجادلة بين الرسل وأتباعهم كانت منذ أن أُرسِل الرسل إلى يومنا هذا، ولا تستغرب أن يوجد من يُجادِل في آيات الله - عَزَّ وجَلَّ - في هذا الزمن؛ لأن هذا هو سنة الله - عَزَّ وجَلَّ - منذ أرسل الرسل.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، كل نبي له عدو من المجرمين، وإذا كان له عدوٌّ من المجرمين فلابد لهذا العدو أن يُجادِل، وبالتالي أن يُجالِد بالسيوف.

المجادلة في آيات الله في آيات الله الكونية: أن يُنكِر أن يكون الله هو الخالق، وقد وُجِد هذا فعلًا، وُجِد من ينسُب ما يحدث للكون إلى الأمور الطبيعية دون أن يكون لها مُدبِّر، وقال: هذه طبيعة تتفاعل وينتج منها ما يُشاهَد، يوجد من يُجادِل في آيات الله الكونية في الأمور التي دون ذلك؛ مثل: أن يثبت شيئًا من الأسباب لم يجعله الله له سببًا، كما يحدث لأهل الجاهلية من التشاؤم

بالطيور، والأماكن، والأزمان، وما أشبه ذلك، فهم يتشاءمون في الأزمان بشهر صفر، يقولون: إن هذا الشهر شهر شر، ويتشاءمون أيضًا بالطيور بنوع الطير، أو بكيفية طيرانه، أو باتجاهه، وما أشبه ذلك، يتشاءمون أيضًا بالأشخاص يرى الإنسان الرجل أول ما يراه فيتشاءم به، حتى إن هذا كان موجودًا إلى عصرنا هذا، هذا أيضًا من المجادلة في آيات الله الكونية، أما المجادلة في آيات الله الشرعية فحدِّث ولا حرج، يُكذِّبون بآيات الله الشرعية، يُنكِرُونها، يُجادِلون في بعض الأمور فيها، يقولون: فيها تناقض، وفيها كذا وكذا، وأنواع الجدل كثيرة.

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ كيف يُصرَفون عن الإيمان؟ يعني: كأن هذا استفهام تعجُّب وإنكار، كيف يُصرَفون عن الإيمان مع أنه واضح بَيِّن؟ فهم يُصرَفون عنه، ويجادلون فيه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾.

هذا بدل من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾، بدل، أو عطف بيان، والفرق بينهما: أن عطف البيان يشبه الصفة في بيان المُبدَل منه، وأما البدل فقد يكون بدلًا مُجرَّدًا عن الصفة؛ فمثلًا: إذا قلت: جاء زيد أخوك، أخوك هنا بدل لم نستفد منها شيئًا كثيرًا، لكن إذا جاء فلان؛ مثل هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ فقد استفدنا منها معنى هو إلى الصفة أقرب منه إلى البدلية، فلهذا يُسمُّونه عطف بيان.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: قالوا: إنه كذب، والكتاب هنا مُحلًى بـ (ال) فهل هي للعهد، أو للاستغراق، أو للجنس؟ أقربُ شيء أنها للجنس، والمؤلف جعلها للعهد، فقال: [القرآن]، ولا شك أنه لا يجوز العدول عن الجنس أو بيان الحقيقة إلا بدليل، فما هو الأصل في (ال)؟ أن تكون لبيان الحقيقة، أو لبيان الجنس، أو للعهد؟ لبيان الجنس؛ لأن بيان الجنس يعني: الاستغراق، وهذا هو الأصل، فإذا جعلتَها للعهد فقد عدلتَ بمعناها العام إلى معنًى خاص، وكذلك إذا جعلتَها للحقيقة، ونحن نضرب ثلاثة أمثلة ليتبين الأمر، إذا قلت: الرجل خيرٌ من المرأة؛ هل هي للعموم؟ لا؛ لأن من النساء من هي خير من الرجال، إذن هذا لبيان الحقيقة، إذا أورد عليك مُورِد: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، لأي شيء هذا؟ للجنس؛ يعني: العموم؛ يعني: خُلِق كل إنسان ضعيفًا، إذا أُورِدَ عليك قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، للعهد الذكري، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠]، هذا أيضًا للعهد؛ أي: العهد الذهني، هنا المؤلف - رحمه الله - حمل قوله تعالى: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ على العهد الذهني، وقال: إنه القرآن، والصواب: أنه عام، وأن المراد به: جنس الكتاب؛ وذلك لأن التوراة كذَّب بها أُناسٌ، والإنجيل كذَّب به أُناس، وكذلك الزبور، وبقية الكتب، وآخرها القرآن.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ [من التوحيد، والبعث، وهم

كفار مكة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عطفها على قوله: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بإعادة العامل؛ لأن العطف يكون بإعادة العامل، وبغير إعادة العامل، فتقول: مررتُ بزيدٍ وعمرٍو هذا عطف بدون إعادة العامل، مررتُ بزيدٍ، وبعمرٍو هذا عطفٌ بإعادة العامل، ويُفيد إعادة العامل استقلال المعطوف عن المعطوف عليه؛ لأنه ليس تابعًا له من كل وجه بدليل: إعادة العامل، فقوله: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يدل على أنها أُرسِلَت به الرسل كأنه مستقل عن الكتاب، ولهذا كانت السنة بمثابة الكتاب في الدلالة ووجوب العمل بها، ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ قال المؤلف: [من التوحيد، والبعث، وهم كفار مكة] التوحيد؛ يعني: توحيد الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ بما يستحق من الأسماء والصفات ، والعبادة، والربوبية، وأما البعث فهو: إخراج الناس من قبورهم يوم القيامة، وقوله: [وهم كفار مكة] هذا لا وجه له؛ لأن هذا الوصف - التكذيب بالكتاب وبما أرسل به الرسل - لا يختصُّ بأهل مكة، هم وغيرهم، فالأَولَى أن يُجعَل هذا عامًّا في كل من كذَّب بمحمد ﷺ؛ بل نقول: عامًّا في كل من كذَّب الرسل.

لكن إذا قال قائل: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ألا تدل على أن المراد بذلك: الكفار الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ؟ الجواب: لا؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد لما سيكون في الدنيا، وما سيكون في الآخرة بدليل: قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ والأغلال لا تكون في الأعناق إلا يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [عقوبة تكذيبهم] ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [إذ بمعنى: إذا] ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [عطفٌ على الأغلال، فتكون في الأعناق، أو مبتدأ خبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره] ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [أي: يُجرُّون بها].

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هو تهديد بلا شك، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣، ٤]، وكقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ فيقول المؤلف: [إذ بمعنى: إذا]، ومن المعلوم أنَّ (إذ) تأتي للحاضر، وتأتي للماضي، وإذا تكون للمستقبل، فما الذي جعل المؤلف ـ رحمه الله ـ يصرِف معناها إلى المستقبل؟ جعله يصرف ذلك إلى المستقبل؛ لأن الأغلال لا تكون إلا يوم القيامة، وهو مستقبل، ولكننا نقول: لا حاجة إلى ذلك؛ بل هي (إذ) على بابها، ولكنها حكاية حال، وحكاية الحال هي التي تجعل المستقبل كأنه حاضر، وهذا أبلغ في التهديد؛ يعني: كأن الأغلال الآن حاضرة؛ لأنها أمر مؤكد ولابد أن يكون، الأغلال تكون في الأيدي، كما قال الله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٦٤]، والسلاسل تكون في الأرجل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

لكن هنا يقول تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ تقتضي أن تكون السلاسل في

الأعناق في محل الأغلال، ولكن هناك احتمال آخر بيَّنه - رحمه الله - بقوله: [عطفٌ على الأغلال، فتكون في الأعناق، أو مبتدأ خبر محذوف؛ أي: في أرجلهم]، وعلى هذا إذا كانت مبتدأ نقول: الواو للاستئناف ، والسلاسل مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: في أرجلهم، أو خبره يُسحَبون، ويكون العائد محذوفًا، والتقدير: يُسحَبون بها، ﴿وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ فهنا صار في إعراب سلاسل ثلاثة أوجه: الوجه الأول: أنها معطوفة على الأغلال، فتكون السلاسل في الأعناق؛ يعني: معناه: أن تُغلَّ أيديهم في أعناقهم بسلاسل، والثاني: أن تكون السلاسل بالأرجل، والخبر محذوف؛ أي: في أرجلهم، والثالث: أن تكون السلاسل في الأرجل، والخبر: قوله: ﴿يُسْحَبُونَ﴾، والمعنى: أنهم يسحبون بهذه السلاسل، وهذا المعنى هو أقربها لظاهر القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، فهم إذا سُحِبوا على وجوههم فتكون السلاسل في الأرجل، فهذا أقرب الاحتمالات التي ذكرها المؤلف - رحمه الله -.

وقوله: ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ [أي: جهنم]، ووُصِفت بذلك؛ لأنها شديدة الحرارة ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [يوقَدون]؛ لأن النار وقودها الناس والحجارة.

الفوائد:

١ - العجب من حال هؤلاء المُكذِّبين بالكتاب، وبما جاءت به الرسل، لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، وهم - والله - عجب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

٢ - **ومن فوائد هذه الآيات:** أن الإنسان يُصرَف عن الحق مع بيانه ووضوحه.

وهذا يؤدي إلى فائدة أخرى، وهي: خوف الإنسان من أن يُصرَف عن الحق.

وينتج عن ذلك: الفائدة الثالثة، وهي: سؤال الإنسان ربه دائمًا أن يثبته، ولهذا كان من دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] فينبغي للإنسان أن يكون دائمًا على خوف، وأن يسأل الله الثبات دائمًا.

٣ - **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** تهديدُ هؤلاء المُكذِّبين بهذه العقوبة؛ أن تُغلَّ أيديهم يوم القيامة، وأن تُسلسَل أرجلهم، وأن يُسحَبون في النار على وجوههم، وكل هذا يُوجِبُ للإنسان أن يُصدِّق بالكتب، وبما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام.

٤ - **ومن فوائد الآيات الكريمة:** أن الإنسان لا يعلم علم اليقين حتى يشاهد ما أخبرت به الرسل، لقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ الْأَغْلَالُ﴾ وفي ذلك الوقت يُقِرُّون بالحق، ويقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣]، لكن هذا لا يُمكنُهم، ولا يُمهَل لهم في ذلك؛ بل قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثباتُ النار وأنها في أشد ما يكون من الحرارة، لقوله: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٣-٧٦]

التفسير

هذا العذاب لا يخفى علينا جميعًا أنه عذاب بدني جسدي، هناك عذاب قلبي بيَّنه في قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ [تبكيتًا] ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [معه، وهي: الأصنام]، والاستفهام هنا لا شك أنه للتوبيخ، والتَّنْديم، والتعجيز، كلها يتضمنها هذا الاستفهام، وهذا ألمٌ قلبيٌّ؛ لأن الإنسان يندمُ أشدَّ الندم إذا كانت هذه الأصنام التي كان يعبدُها لتُقرِّبَه إلى الله - عَزَّ وجَلَّ - كما يدَّعي، ثم تضِلَّ عنه ولا تُرجَع، كما لو أمسكتَ عبدًا مثلًا وعذَّبته، فقلت: أين سيدك الذي تدَّعي أنه يحميك؟ أليس هذا يكون أشدَّ ندمًا له؟ بلى، إذن هؤلاء مُنَدَّمُونَ هذا التنديم، فيقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: مع الله، [وهي: الأصنام]، وحينئذٍ يتحسَّرون حسرةً ليس فوقها حسرة، ولهذا يقولون إقرار المكره في الواقع: ﴿قَالُوا ضَلُّوا﴾ [غابوا] ﴿عَنَّا﴾ [فلا نراهم]، إذن عرفوا أنها لم تنفع، وأنها غابت عنهم في أشد ما يحتاجون إليها فيه؛ بل قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ يعني: أنكروا أن يكونوا أشركوا، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٣-٢٤]، فالحاصل: أنهم يُندَّمُون هذا الندم العظيم، ثم يُنكِرون.

يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ ندعوا بمعنى: نعبد؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما متلازمان؛ فدعاء المسألة عبادة، كما جاء في الحديث: «الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ»[1]، ودعاء العبادة - أيضًا - دعاء مسألة؛ لأنك لو سألتَ العابد: لماذا عبدت الله؟

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٧٩) من حديث النعمان بن بشير وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

لقال: رجاء ثوابه، وخوف عقابه، فهو داعٍ بلسان الحال، ولذلك صار الدعاء بمعنى: العبادة، والعبادة بمعنى: الدعاء، وانظر إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، لكن دعاء المسألة دعاءٌ صريح في السؤال، يقول القائل: رب اغفر لي، وارحمني، ودعاء العبادة دعاء باللازم؛ لأن الإنسان إنما يعبُدُ الله خوفًا من عقابه، ورجاءً في ثوابه، دعاء المسألة دعاء عبادة باللازم؛ لأن السائل مُتذلِّل للمسئول، فهو مُتعبِّد لله.

قال تعالى: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [أنكروا عبادتهم إيَّاهَا، ثم أُحْضِرَتْ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: وقودها]، وتمام الآية: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، فهؤلاء كذبوا على أنفسهم، ظنوا أن هذا سينفعهم، كما لو أن الجاني في الدنيا أنكر جنايته ربما ينفعه ذلك، لكن في الآخرة لا ينفع، حتى إنهم إذا أنكروا خُتِمَ على أفواههم، فتتكلم الأيدي، والأرجل، والجلود، والألسن بما تعمل، وحينئذٍ لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلًا.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿كَذَلِكَ﴾ الكاف حرف لكنها اسم في الواقع، فهي مفعول مطلق، وتقدير الكلام: مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، فهي حرف صورةً، لكنها بالمعنى اسم، هذا الاسم محله من الإعراب: مفعول مطلق للفعل الآتي بعده، ومثل هذا التعبير يأتي كثيرًا في القرآن، وإعرابه: أن الكاف حرف بمعنى: مثل، وأن إعرابها: مفعول مطلق للفعل الذي بعدها، والتقدير في كل سياق بحسبه، لكن الآية بمعنى: مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يجعلهم في ضلال، يقول المُفسِّر: [﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إضلال هؤلاء المكذبين ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾].

وقال: [ويقال لهم أيضًا]: ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، ذلكم المشار إليه: العذاب، والمخاطب: أولئك الكافرون، ولهذا جاءت الكاف بضمير للجماعة، وجاءت اسم الإشارة بالإشارة بمفرد المذكر؛ لأن العذاب مفرد مذكر، واعلم أن اسم الإشارة وكاف الخطاب تارةً يتفقان وتارةً يختلفان، فاسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب بحسب المخاطَب، فإذا قيل لك: أشِرْ إلى مفرد مذكر مخاطبًا جماعة نساء، فكيف تقول؟ ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:٣١]، أشِرْ إلى مثنى مذكر مخاطبًا مُثنًّى مؤنثًا؟ ﴿ذَلِكُمَا﴾، أشِرْ إلى مفردة مؤنَّثة مخاطبًا جماعة ذكور؟ ﴿أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، المشار إليه: مفرد مؤنث، والمخاطب: جماعة ذكور، إذن اسم الإشارة بحسب المشار إليه، وكاف الخطاب بحسب المخاطب، قد يتفقان وقد يختلفان.

وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء للسببية، وما مصدرية، وعلامة ما المصدرية: أن يصحَّ تحويل ما بعدها إلى مصدر؛ فمثلًا: قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ إذا حوَّلنا ما بعدها إلى مصدر يكون التقدير: ذلكم بكونكم تفرحون في الأرض بغير الحق، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ معلوم أن كان هذه للماضي؛ أي: قبل الموت، وقوله: ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: تفرحون بالباطل، وذلك أنهم يفرحون بالشرك والكفر، وكل من شاركهم في إثمهم فإنهم يفرحون به، وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يعني بذلك المُفسِّر: [من الإشراك، وإنكار البعث]، وهذا في الواقع قصور إلا إذا كان يريد به التمثيل، وإلا فإن قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أعم من الشرك، وإنكار البعث، فهم يفرحون في الأرض بغير الحق؛ من الشرك، وإنكار البعث، والعدوان، وتحليل الحرام، وتحريم الحلال؛ كالسائبة، والوصيلة، والحام، وما أشبه ذلك، المهم: أن قول المؤلف: [الإشراك، وإنكار البعث] هذا قصور ما لم يرد التمثيل، فإن أراد التمثيل فإن التمثيل لا يفيد الحصر.

وقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [تتوسَّعون في الفرح] الواو حرف عطف، والباء للسببية، وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها بإعادة العامل الباء، والعطف بإعادة العامل يعني: أن الثاني مستقل عن الأول، فهُم يُعذَّبون بالأمرين جميعًا؛ يُعذَّبون عذابًا خاصًّا بالفرح، وعذابًا خاصًّا بالمرح، والباء للسببية.

وقوله: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ادخلوا فعل أمر، والآمِر هم الملائكة، والأمر يراد به: الإهانة، ليس أمر إكرام، ولكنه أمر إهانة وإلزام؛ لأنه لابد أن يدخلوا، وقوله: ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ جمع، فكم عدد الأبواب؟ عدد أبواب جهنم سبعة، كما قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] وجهنم اسم من أسماء النار، وسُمِّيت بذلك؛ لأنها ذات جهمة إذا قلنا: إن جهنم اسم عربي زِيدَت فيه النون، وإن قلنا: إنه اسم غير عربي ولكنه عُرِّب، فلا حاجة أن نقول: إنها مشتقة من الجُهْمة التي هي: الظلمة والقعر، وأيًّا كان هو اسم من أسماء النار - أعاذنا الله وإيَّاكم منها -.

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خالدين هذه حال من الفاعل في قوله: ﴿ادْخُلُوا﴾، وهذا الخلود هل هو طول المكث، أو التأبيد؟ نقول: الخلود يأتي في اللغة العربية مرادًا به: طول المكث، ويأتي مرادًا به: التأبيد، والمراد به هنا: الثاني؛ يعني: أنهم خالدون فيها أبدًا، ودليل ذلك: أن الله تعالى صرَّح في القرآن الكريم بأن أهل النار خالدين فيها أبدًا في ثلاثة مواضع: الموضع الأول: قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨- ١٦٩]، والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٥]، والآية الثالثة: قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]،

وبهذه الآيات الثلاث يتبيَّن ضعف؛ بل بطلان من يقول: إن النار ليست مُؤبَّدة وأنها تفنى، فإن هذا القول منكر؛ لأنه مخالف لصريح القرآن، ولا يمكن للإنسان أن يخالف صريح القرآن لمجرد تعليلات يُعلِّلها؛ مثل: أن يقول: إن رحمة الله تعالى سبقت غضبه[1]، وإن هؤلاء مآلهم إلى أن يفنَوا هم والنار، نقول: نعم، رحمة الله سبقت غضبه، لكن وعد الله حق، وإذا كان وعد الله حقًّا فإنهم يُخلَّدون فيها أبدًا.

وإذا قال قائل: التخليد الأبدي في هذا العذاب الأليم كيف يكون جزاءً لإنسان لم يبق في الدنيا إلا مائة سنة، أو مائتي سنة، أو ألف سنة؟ فيكون هنا العذاب أكثر من زمن العمل؛ لأنه لا أحد بقي في الدنيا أبد الآبدين، فيقتضي هذا أن يكون فيه ظلم؛ لأن الجزاء صار أكثر من العمل بكثير، ولا يُنسَب له، لنفرض أن أحدًا من الناس عاش ألف سنة، أو ألفي سنة، أو عشرة آلاف سنة، لكنه عاش إلى أمد، ثم نقول: عذابه مُؤبَّد، يكون هذا ظلمًا؟

فيُقال: إن هذا أمضى حياته الدنيا كلها في مُحاجَّة الله ورسله، فيمضي حياته الأخرى كلها في العذاب، وهذا عدل، ثم إن هذا الذي عُذِّب أبدًا قد قيل له في الدنيا، وبُيِّن له أن جزاءه: العذاب الأبدي، فلماذا يُقدِم على شيء يعرف أن هذا جزاءه، وحينئذٍ لا ظلم، ولا عُذْر للكافرين، فالمهم: أن قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يُراد به: الخلود الأبدي.

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ هذه الجملة جملة إنشائية يُراد بها: الذم، ويقابل هذا في المدح: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، فبئس هنا فعل إنشائي يُراد به: الذم، والمعنى: أن هذه الدار دارٌ كلها ذمٌّ، كلها بلاءٌ، ولهذا وُصِفَتْ بأنها بئس مثوى المتكبرين.

الفوائد:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

١ - **في هاتين الآيتين من الفوائد:** أن هؤلاء المُكذِّبين بالكتاب، وبما أرسل الله به الرسل يُعذَّبون عذابًا جسديًّا بالسلاسل، والأغلال، والسحب في النار، ويُعذَّبون عذابًا قلبيًّا بالتوبيخ، والتقريع، والتنديم، فيقال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

٢ - **ومنها:** إثبات القول لله - عَزَّ وجَلَّ -، الآية لا تدل على هذا؛ لأن القائل لم يبين ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾، ولكن في آية أخرى تدل على أن الله يقول لهم ذلك، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢]، من الذي يناديهم؟ الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأنه قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، ويمكن أن يقال: أنهم ينادون من قِبَل الله، وينادون أيضًا من

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣١٩٤) ومسلم (١٤/ ٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قِبَل الملائكة الذين وكَّلهم الله ـ عَزَّ وجَلَّ، أو يقال: إن الملائكة تناديهم، ولكن مناداتهم أُضِيفَتْ إلى الله؛ لأنه الآمِر بها، كما أضاف الله الوفاة إليه مع أن الذي يتوفى الأنفس مباشرة هي الرسل، ولكن نقول: هذه الاحتمالات لا نُورِدُها مع وجود الظاهر؛ لأن الكلام يُحمَل على ظاهره حتى يقوم دليل على صرفه عن الظاهر، فإذا كان الله يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، صريحٌ بأن المنادي هو الله فيبقى على ما هو عليه، ويُحمَل ما كان مبنيًّا للمفعول على أن المنادي هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ.

٣ ـ **ويستفاد من قوله تعالى:** ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أن الله تعالى يُذِلُّ الكافر بكفره، وجه الدلالة: أن الحكم إذا عُلِّق على وصف كان ذلك الوصف علَّة له، فما الذي عُلِّق على الكفر هنا؟ الإضلال، إذن الكفر سببٌ للإضلال، ويؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

يتفرَّع على ذلك: أن الضالَّ إذا ضلَّ فإنه هو السبب في ضلاله؛ لأن الله ـ تعالى ـ لو علم فيه خيرًا لأسمعه، ولهذا يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وهي تعني: أن الله أعلم حيث تكون الرسالة في شخصٍ مُعيَّن، وكذلك حيث يكون أثر الرسالة في شخصٍ مُعيَّن، وأثر الرسالة الهداية.

٤ ـ **ومن فوائدها:** الردُّ على القدرية ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾، وجه ذلك: أن القَدَرية يُؤيِّدون أن الإنسان له إرادة مستقلة، ولا علاقة لله بها، فيكون في ذلك ردٌّ على القدرية.

ينبغي بهذه المناسبة أن نقول: إن الناس انقسموا في هذا الباب إلى طرفين ووسط – أي: في أفعال العباد –؛ فمنهم من قال: أفعال العباد مخلوقة لله، والعبد مجبورٌ عليها وليس له إرادة؛ لأن الله خالق كل شيء، وإذا كان الله هو الخالق فالإنسان ليس له تدبير، ومنهم من قال بالعكس: إن الإنسان فاعل باختياره، وليس لله علاقة به، هذان طرفان، ومنهم من قال: إن الإنسان فاعل باختياره، لكن فعله مقرونٌ بمشيئة الله، وهذا هو الوسط.

واعلم أن أسباب الضلال في مثل هذه الأمور: أن من الناس من ينظر إلى النصوص من زاوية واحدة؛ بمعنى: أنه يأخذ نصًّا ويدَعُ نصًّا، فالجبرية رأوا عموم مشيئة الله، وعموم خلق الله، وأن الإنسان فقير إلى الله، وما أشبه ذلك، فقالوا: إذن الإنسان ليس له إرادة ولا اختيار، وفعله على وجه الإجبار، والقدرية رأوا أن الإنسان يفعل، ولا يَشْعُرُ أن أحدًا مكرهٌ له، والله ـ تعالى ـ قد أضاف الفعل إليهم، فقال: أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وما أشبه ذلك، فإذن هو مستقل بعمله، ليس لله فيه علاقة، فأخذوا من جانب وتركوا جانبًا آخر، وهكذا جميع خلاف العلماء، إذا رأيت العلماء مختلفين على طرفين ووسط، فاعلم أن الطرفين كل واحد منهما أخذ بجانب من الأدلة، وترك جانبًا آخر.

ثم قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾:

١ - **في هذه الآية الكريمة**: إثبات الأسباب، من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾؛ لأن الباء هنا للسببية، واعلم - أيضًا - أن الناس اختلفوا في الأسباب على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط: طرف من الناس أثبت الأسباب، وأنها فاعلة بنفسها؛ يعني: أنه إذا وُجِد السبب لَزِمَ وجود المُسبَّب، ولابد، وطائفة أخرى أنكرت تأثير الأسباب، وقالوا: إن الأسباب لا تؤثر؛ لأنك لو جعلت هذا متأثرًا بسبب لأثبتَّ لله شريكًا في الإيجاد، وهذا شرك، إذن هنا طرفان: طرف يُثبِتُ الأسباب، وأنها مؤثرة بنفسها؛ بمعنى: أنه متى وُجِد السبب لزم وجود المُسبَّب، فالسبب مؤثِّر بذاته، وطائفة أخرى تقول: لا تأثير للأسباب؛ لأنك لو جعلتَ للأسباب تأثيرًا أشركتَ مع الله؛ حيث جعلت مُوجِدًا مع الله - عَزَّ وجَلَّ -، الطائفة الثلاثة قالت: الأسباب مؤثرة لا شك، لكن لا بنفسها؛ بل بما أودع الله فيها من القوى التي صارت بها مؤثِّرة، ولو شاء الله - تعالى - لسلب تلك القوى، فلم تؤثر، وهذا قول وسط، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو الذي يوافق السمع والعقل.

أضرب لك مثلًا: رجلٌ رمى زجاجة بحجر فانكسرت.

مُثبِتو الأسباب يقولون: الذي كسرها الحجر بذاته، ونافو الأسباب يقولون: الحجر لم يكسر الزجاج، لكن انكسرت الزجاجة عند رميها بالحجر، وليس بالحجر، وإنما الحجر أمارة فقط حصل بها الشيء عندها، وكذلك بقية الأسباب، والوسط يقولون: الحجر كسر الزجاجة، فهو السبب بما جعل الله - تعالى - في الحجر من قوة، وبما جعل في الزجاجة من قابلية تقبلُ الانكسار، وهذا هو الحق.

مثال آخر: أَلقَيْنَا في النار ورقًا فاحترق، مُثبتُو الأسباب الذين يقولون: إن الأسباب تؤثر بنفسها يقولون: النار أحرقت الورقة، ولابد، ونافو الأسباب يقولون: إن النار لم تحرق الورقة، ولكن احترقت الورقة عند إلقائها في النار لا بالنار، والوسط يقولون: احترقت الورقة بالنار بما جعل الله تعالى في النار من قوة الإحراق، وبما جعل في الورق من قابلية ذلك، ولهذا يوجد الآن مواد تُضاد النار، تُلقَى في النار، ولا تحترق؛ لأن هناك مانعًا يمنع من تأثير السبب، وهذا القول هو الراجح.

ألم تروا إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، أُلقِي في النار العظيمة التي لم يستطع مُلقُوه أن يقربوا منها حتى ألقوه بالمنجنيق، ورموه فيها رميًا، ولم يحترق مع أن النار سبب الإحراق، لكن الله قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه، قال العلماء: لو قال الله - تعالى - :كوني بردًا، ولم يقل: سلامًا لكانت بردًا مهلكًا، لكن الله قال: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فكانت بردًا وسلمًا وكأنه لم يكن هناك نار، إذن نقول: الأصح من أقوال العلماء في تأثير الأسباب:

أنها مؤثرة لا لذاتها، ولكن بما جعل الله ـ تعالى ـ فيها من القوى المؤثرة في المحلات القابلة.

٢ ـ من فوائد الآية الكريمة: أن الفرح بغير الحق سببٌ للعذاب والإضلال، من قوله: ﴿تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

٣ ـ ومن فوائدها: أن الفرح بالحق محمودٌ، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ**»(١)، وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرح بالحق محمود، والفرح بغير الحق مذموم، والفرح بما ليس حقًّا ولا باطلًا ليس محمودًا ولا مذمومًا؛ لأنه من اللغو، لكن عباد الرحمن إذا مرُّوا باللغو مرُّوا كرامًا، ثم اعلم أن الفرح يكون طبيعيًا، الإنسان إذا أتاه ما يسُرُّه لابد أن يفرح ينفعل بدون إرادة، ومعلوم أن هذا لا يُؤاخذُ به الإنسان، إلا إذا كانت طبيعته منحرفة؛ بحيث يفرح بالسوء دون الخير.

٤ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأسباب تتوراد؛ بمعنى: أنه قد يرِدُ على الشيء سببان، من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾، والمرح أشد من الفرح، وهكذا الأسباب الشرعية تتوارد؛ بمعنى: أنه قد يكون في الإنسان سببان؛ واحدٌ منهما يُوجِبُ الحكم، فإذا اجتمعا صار كل واحدٍ يُقوِّي الآخر، فإن اختلف مُوجَب السببين؛ فهل نقول: إننا نأخذ بأحد السببين دون الآخر، أو نأخذ بالسببين ونعمل بمُوجَبهما؟ فالجواب: الثاني، ما لم يكن أحدهما أقوى فيندرج به الأصغر، إذن إذا اجتمع سببان واختلف موجبهما أخذنا بموجب كل منهما، ما لم يكن أحدهما أقوى فيؤخذ بالأقوى.

مثال ذلك: ابن عم هو زوج ماتت امرأته، هنا اجتمع في حق هذا الزوج جهة فرض، وجهة تعصيب؛ فهل يرث بالفرض، أو بالتعصيب، أو بهما؟ بهما، فنقول: هذا الزوج له النصف فرضًا، والباقي تعصيبًا، فهنا يرِثُ بالفرض وبالتعصيب.

رجل مَلَكَ أَمَة، ثم تزوَّجها؛ فهل يصح هذا الزواج ليملك بُضْعَها، أو لا يصح؟ لا يصح؛ لأن المُلكَ أقوى، ولهذا لا يصحُّ للسيد أن يعقد النكاح على أَمَتِه، لكن يستمتع بها بمُلكِ اليمين.

رجل بال وتغوَّط، هنا سببان موجبان للوضوء؛ هل نأخذ بكل واحد منهما؟ هنا لم يختلف الموجب؛ لأن المُوجَب هو الوضوء، لكن يقوى المُوجَب بتعدُّد المُوجِب، لكن لمَّا لم يختلف لم نقل: نأخذ بهما جميعًا؛ لأنه لا فائدة من ذلك، إذن إذا اجتمع موجِبان فإن اتحد موجبهما أخذنا بواحد وكفى، وإن اختلف الموجَب أخذنا بهما، ما لم يكن أحدهما أقوى فيؤخذ بالأقوى ويُترَك الأضعف.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٦٥) من حديث عمر رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

وقوله: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾:

١ - **يستفاد من الآية:** إهانة الكفار، وهو عذاب قلبي؛ لأن العذاب القلبي قد يكون أشدَّ من العذاب البدني.

٢ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن لجهنم أبوابًا، لقوله: ﴿أَبْوَٰبَ﴾، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** خلود أهل النار فيها، لقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، والصواب الذي لا شك فيه: أن الخلود مُؤبَّد للآيات الثلاث التي سُقْناها قبل قليل.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** ثناء القدح على نار جهنم، لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من التكبُّر، لقوله: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[1]، فالكبر - والعياذ بالله - سببٌ لدخول النار، لكن قد يكون سببًا لدخولها مع الخلود، وقد يكون سببًا لدخولها للتطهير فقط، فإن كان هذا التكبُّر تكبُّرًا عن الحق وردًّا له، فهذا سببٌ لدخول النار على التأبيد، وإن كان التكبر دون ذلك؛ مثل: أن يتكبَّر على الخلق مع القيام بحق الخالق، أو يتكبَّر عن بعض الأشياء، ولا أظن أحدًا يتكبَّر عن أمرٍ من أمر الله إلا وهو كَافِر كُفْرًا مطلقًا؛ لأن إبليس تكبَّر عن شيءٍ واحدٍ فكفر، وهو السجود، لكن من تكبَّر على الخلق دون الحق، فهذا لا يُخلَّد في النار، يُعاقَب بمثل ما فعل من ذنب.



قال الله تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر: ٧٧]

التفسير

اصبر: فعل أمر، والأمر الأصل فيه الوجوب، ومعنى الصبر لغةً: الحبس، ومنه: قولهم: قُتِل فلانًا صبرًا؛ أي: حبسًا؛ أي: أُمسِك ثم قُتِل، لكنه في الاصطلاح الشرعي أخص من مطلق الحبس، فهو: حبسُ النفس عمَّا يُغضِبُ الله تعالى في ما يُرضِي الله، ومن ثَمَّ قال العلماء: إن الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

صبرٌ على طاعة الله - وهو أعلى الأقسام -، وصبرٌ عن معصية الله - وهو الثاني في المرتبة -، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة - وهو الثالث في المرتبة.

الأول: صبرٌ على طاعة الله؛ بأن يصبِر الإنسان نفسَه على طاعة الله فيقوم بالواجب، ويُكمِّل ذلك بالمستحب، وهذا يحتاج إلى صبر وإلى عناء، ولاسيَّما مع ضعف الإيمان، فإن ضعيف الإيمان يشُقُّ عليه فعل الطاعة فيحتاج إلى أن يصبر، ويحبس نفسه على فعل الطاعة، ويَعِدُها بالخير والثواب، ويقول: إن الوقت ذاهب، فإما أن يكون في طاعة الله، وإما أن يكون في معصية الله، وإما أن يكون لهوًا، فيحمِلُها ذلك على القيام بطاعة الله، والصبر على طاعة الله شاقٌّ من وجهين: من وجه إلزام النفس بالقيام بها، ومن وجه تَعَب البدن بالقيام بها، فها هنا عناءان: الأول مع النفس، والثاني مع الجوارح، ولهذا كان هو أعلى أقسام الصبر.

مثال ذلك: الصبر في الجهاد هذا صبرٌ على طاعة الله، وهو أشقُّ أنواع الطاعة التي يُصبَر عليها، ولهذا جعله النبي ﷺ ذروة سنام الإسلام[1]؛ لأنه أشقُّ ما يكون.

الثاني: صبرٌ عن معصية الله؛ يعني: أن الإنسان قد يَهْوَى المعصية، ولكن يحبِس نفسَه عنها، فهذا صبرٌ عن معصية الله - عَزَّ وجَلَّ -، ويتضمَّن هذا الصبر حبسَ النفسِ مع الكفِّ، ففيه عناء واحد، وهو حبس النفس عن المعصية، لكن ليس فيه تعبٌ بدني؛ إذ أنه كفٌّ بلا فعل، والكفُّ بلا فعل أهون من الفعل؛ لأنه ليس فيه مشقَّة بدنية، غاية ما فيه أنه معاناة قلبية للصبر عن هذه المعصية.

والقسم الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة، هي التي لا تُلائِم النفس؛ إما بفوات محبوب، وإما بحصول مكروه، فيحبس الإنسان نفسه في هذا الأمر، وهو أقل أقسام الصبر رتبة؛ لأنه يأتي بغير اختيار الإنسان، فالصبر على الطاعة باختيار الإنسان، وعن المعصية باختياره، لكن على الأقدار ليس بمَلكِك أن تمنع ما قدَّر الله عليك من فوات محبوب، أو حصول مكروه، ولهذا قال بعض السلف: عند حلول المصائب إما أن تصبر صبر الكرام، وإما أن تسلُو سُلُوَّ البهائم، وقِسْ نفسك تأتيك المصيبة اليوم أكبر من الجبال، وأحرّ من النيران، ثم تخِفُّ شيئًا فشيئًا حتى لا تكاد تذكرها، إذن إما أن تصبر وتحتسب، وإما أن تسخط، حتى لو سخطت، فالمآل إلى نسيانه، أن يسْلُو الإنسان سُلُوَّ البهائم، هذا القسم الثالث من أقسام الصبر يكون بالأمور الآتية:

١ - حبس اللسان عن التسخُّط، لا يتسخَّط، يقول: أصابني بكذا، ولم يُصِب فلانًا، أصابني بالفقر، والناس أغنياء، أصابني بالمرض، والناس أصحَّاء، وما أشبه ذلك، لا يقول هذا، ولا يقول: واويلاه، واثُبُوراه، وانقطاع ذِكْراه، وما أشبه ذلك، لا يقول هذا؛ لأن هذا منافٍ للصبر،

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

الإخبار بما أصاب الإنسان من مصيبة دون التشكّي.

هل يجوز هذا أو لا؟ يجوز هذا، وقع هذا من النبي - عليه الصلاة والسلام -؛ حيث قال: «بَلْ أَنَا وارَأْسَاهْ»(١) ولا حرج؛ لأن هناك فرقًا بين شخصًا يتكلم بما أصابه تسخطًا أو شكايةً لمخلوق، وبين شخص يخبر عما أصابه فقط مجرد خبر، والأعمال بالنيَّات.

٢ - حبس الجوارح عند المصيبة عن فعل ما لا يجوز، وما يُنبِئ عنه الغضب؛ مثل: شق الجيوب، ولطم الخدود، ونتف الشعور، وما أشبه ذلك، هذا أيضًا منافٍ للصبر، ولهذا تبرَّأ النبي ﷺ فقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ»(٢).

٣ - وهو حبسُ القلب عن كراهة ما قدَّر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذا أعظمها وأدقُّها، قد يرى الإنسان الضعيف المخلوق المملوك المُدبَّر قد يرى أن ربَّه ظلَمَه - والعياذ بالله - دون أن يتكلم ودون أن يفعل، لكن قلبه مملوء على الله من السخط، ورؤية أن الله تعالى ظلمه، أو ما أشبه ذلك، هذا يجب أيضًا أن يتخلَّى القلب عنه، وهذا أخطر ما يكون بالنسبة للصبر على الأقدار، أتُل قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١] حرف يعني: طرف ليست هي عبادة، لكنها رأي ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وهذا يشمل فتنة المصائب وفتنة الشُّبُهات، من الناس من يؤمن بالله واليوم الآخر لكنه على طرف، إن أصابه خيرٌ ولم يناقشه أحد ولم يجادله أحد مضى، وإن جاءه أحد يُشكِّكُه في هذا الأمر شكَّ فانقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، من الناس أيضًا مَن يكون في نعمة، قد أنعم الله عليه بالأموال، والأولاد، وما يحتاج إليه من الدنيا أو يُكمِّلها، فأُصِيب بحادث فَقَدَ أهله به كلهم، من الناس من إذا كان يعبد الله على حرف يسخط على الله، ويكره قضاء الله كراهةَ سُخْط، لم يكره المصيبة؛ لأنه يتمنَّى أنها لم يُصِبْه؛ بل يكره قضاء الله تسخُّطًا على الله، وهذا من جهل الإنسان.

أنت مُلْكٌ لله - عَزَّ وَجَلَّ -، هذا الرب الكريم الذي إذا أصابك بالسَّرَّاء فشكرتَ أثابك، وإذا أصابك بالضرَّاء فصبرتَ أثابك، كيف تسخط على هذا الرب الكريم وأنت مُلْكُهُ وعبده يتصرَّف فيك كما شاء، وله حكمة فيما فعل، وظيفتُك: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء.

فالمهم: أن الصبر الآن تَبَيَّنَ أنه ثلاثة أقسام: الأول: أعلاها وأتمها، وهو: الصبر على طاعة الله، والثاني: الصبر عن معصية الله، والثالث: الصبر على أقدار الله، وأفضلها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

يوسف - عليه الصلاة والسلام - أُصِيبَ ببلاء في خُلُقِهِ، وبلاءٍ في جسده، فصبر على هذا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٦٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٦٥/ ١٠٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وهذا، دَعَتْه امرأة العزيز في مكان مغلق، وهي امرأة العزيز عندها من الحُلِيِّ والزينة، وربما الجمال ما ليس عند غيرها، وهو فتاها أيضًا ليس هو أكبر منها شرفًا عندها، دَعَتْه إلى نفسها في مكان خالٍ، وهمَّ بها؛ لأن النفس البشرية قد يغيب عنها ملاحظة أمر الربوبية، فهَمَّ بها، لكن هي السابقة ﴿هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾، لكن بعد أن همَّ رأى برهان الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أراه الله البرهان ـ الآية ـ كأنها رؤيا عين فامتنع، وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] هذا صبرٌ عن المعصية، وصبرٌ عظيم، فتى شاب مع سيِّدته الجميلة في مكان لا يدخل عليه أحد، ومع هذا كفَّ عنها، وأُوذِيَ في جسده بالسجن ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، ومع ذلك صبر، حتى إن الملك لما قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أَبى أن يخرج حتى تُسأَل النسوة: ماذا حصل؟ ليتبيَّن براءته قبل أن يخرج، وهذا لا شك صبرٌ عظيم، لكن أيُّ الصبرين أعظم؟ الأول: الصبر عن المعصية؛ لأن السجن واقعٌ سواءٌ صبر أو لم يصبر، وليس باختياره.

قول الله تعالى لرسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ [طه: ١٣٠] يتضمن كل الأقسام، ولهذا كان نبينا ﷺ أصبر الناس في أحكام الله، وأصبر الناس على أحكام الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] هذه جملة مؤكدة بأن، ويقول المؤلف رحمه الله: [﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بعذابهم ﴿حَقٌّ﴾]، وهذا قصورٌ من المؤلف ـ رحمه الله ـ؛ بل إن وعد الله بعذابهم ونصرِهِ حق؛ بل لو قلنا بأنه أعم من ذلك ـ أيضًا ـ، لولا أنه في السياق مُحاجَّةٌ مع الكفار لقلنا: إنه أعم، إن وعد الله حق في كل شيء في عذاب هؤلاء، ونصر هؤلاء، وفي الجنة، وفي النار، وفي كل شيء.

وقوله: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: أمرٌ ثابت واقع، فكل ما وعد الله به فهو حقٌّ ثابت واقع لكمال صدقه، وكمال قدرته، وقلنا هذا؛ لأن إخلاف الوعد يأتي من أحد أمرين: إما كذب الواعِد، وإما عجزه عن تنفيذ ما وعد به، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لا يُخلِف الميعاد لكمال صدقه، وكمال قدرته ـ تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يقول المؤلف في إعرابها: [فيه إن الشرطية مُدغَمة، وما زائدة تُؤكِّد معنى الشرط أول الفعل، والنون تُؤكِّد آخرَه] ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الفاء هذه عاطفة، وإن شرطية، وما زائدة للتوكيد، وهي التي في قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] أيًّا ما، ما زائدة، لو حُذِفَت تكون أيًّا ندعو استقام الكلام، لكن يؤتى بحروف الزيادة للتوكيد، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ لو حُذِفَت ما، وقال: إنْ نُرينَّك استقام، لكن تأتي ما للتوكيد، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ نُرِي فعل مضارع، لكنه بُنِي على فتح آخره، وهي الياء لاتصاله بنون التوكيد، والنون للتوكيد، والكاف مفعول به، التوكيد هنا في آخر الكلمة، وما في أولها، فصار هذا الفعل الذي هو الإراءة مُؤكَّدًا بمؤكِّدَين: ما الزائدة في أوله، ونون التوكيد في آخره، والكاف مفعول أول، وبعض مفعول ثان، ونُرِهِ من باب كسا، أو من باب ظنَّ؟ من باب كسا؛ لأن الرؤية هنا بصرية، لكن لما

دخلت عليه همزة التعدية صارت ناصبةً مفعولين، تقول: فلان رأى النجم، نَصَبَت واحدًا، وتقول: فلان أريتُهُ النجم، نصَبَت مفعولين من أجل دخول الهمزة على رأى هذه؛ لأن نُرِي رباعي أصلها أرى يُرِي ونُرِي.

وقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ يعني: فأنت تراه، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [به من العذاب في حياتك، جواب الشرط محذوف؛ أي: فذاك] إنْ هي جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يعني: إن أريناك بعض الذي نعدهم فقد رأيته بعينك، وأقرَّ الله عينك به، وهذا هو المطلوب.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يعني: قبل أن نرينك ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وسنُرِيك بهم، هذا تهديد عظيم، وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هذه معطوفة على نُرِيَنَّك، وهي قسيم قوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يعني: إما أن ترى عذابهم قبل موتك، وإما أن نتوفَّاك، ثم نُعذِّبهم بعد الرجوع إلينا، وهذا أشد فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، ولهذا جاء في الحديث: «أَنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - إِذَا أَحَبَّ شَخْصًا عَجَّلَ لَهُ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا»[1] عُوقِبَ في الدنيا بماله، أو بدنه، أو أهله، أو مجتمعه، وإلَّا تركه حتى يُوافِيه به يوم القيامة - نسأل الله أن يقينا وإياكم عذاب الدنيا والآخرة، ويرزقنا العافية -.

وقوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [فنُعذِّبهم أشد العذاب، فالجواب المذكور للمعطوف فقط]، وهو ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ يعني: إذا توفَّيناك فإلينا يرجعون.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** وجوب الصبر؛ لأن الله - تعالى - أمر به في قوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾؛ لأن الأصل في الأمر الوجوب، وهذه المسألة اختلف فيها الأصوليون: هل الأصل في الأمر في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ: الوجوب أو الأصل النفي؟ إن قلنا: الأصل الوجوب كان هذا المأمور به مُلزَمًا به، وإذا قلنا: النفي صار الإنسان بالخيار، إن فعلها فهو خير، وإن تركه فلا شيء عليه، وهذا محلُّ إشكال في الواقع عند التفريق محل إشكال، وعند التجريد أيضًا فيه نظر؛ يعني: المراد: الأمر المطلق المجرد عن القرينة، أما ما دلَّت عليه القرينة، فالأمر واضح إن دلَّت على الوجوب فهو واجب، وإن دلَّت على الاستحباب فهو مستحب، وإن دلَّت على الإباحة فهو مُباحٌ، وإن دلَّت على التهديد فهو للتهديد، ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ المعنى: من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

لكن مرادنا: الأمر المجرد عن كل قرينة؛ هل هو للوجوب أم للاستحباب؟ من العلماء من قال: إنه للوجوب، ولهم أدلتهم، ومنهم من قال: إنه للاستحباب، ولهم أدلتهم، القائلون بالوجوب يستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] قالوا: هذا يدل على الوعيد في مَن خالف أمر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فيدلُّ إذن على أن الأمر للوجوب، وقالوا أيضًا: إن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»(١)، وهذا أيضًا يدلُّ على الوجوب؛ لأنه قال: «فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»، ومثل هذا التعبير إنما يكون في الواجب، «وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ»؛ ولأنه يقبُحُ عادةً أن يقول السيد لعبده: افعل كذا، ثم يخالف، فتكون مخالفة الأمر قبيحة، والقبيح منهيٌّ عنه مكروه، أما القائلون: بالاستحباب بأن الأصل في الأمر الاستحباب، فيقولون: إن كونه مأمورًا به يدل على فعله، والأصل براءة الذمة، فلا نُؤثِّم الإنسان إذا ترك ما أُمِر به إلا بدليل؛ لأن الأصل براءة الذمة؛ ولأننا وجدنا مسائل كثيرة وأدلة كثيرة فيها الأمر أجمع العلماء على أنها للاستحباب، وهذا يُوهِنُ القول بأن الأمر للوجوب، توسَّطَ قومٌ فقالوا: إذا كان الأمر في عبادة فهو للوجوب، وإذا كان في آداب فهو للاستحباب، وهذا أقربُ من الإطلاق بأنه للوجوب أو الإطلاق بأنه للاستحباب؛ يعني: أن هذا التفصيل هو أقرب ما يكون، ومع هذا فليس بمُنضَبط؛ بل قد تأتي أوامر في الآداب وهي واجبة، فعلى كل حال نقول: الأصل أقرب ما يقال في هذه المسألة: إن الأصل في الأوامر في التعبُّد: الوجوب؛ لأننا خُلِقنا للعبادة وأُمِرنا بها، فنتعبَّد، والأصل في الأوامر في غير العبادة كالآداب مثلًا: للاستحباب، ومثل ذلك يقال في النهي؛ هل هو للتحريم أو للكراهة.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثباتُ وقوع وعد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنه حق، ولابد أن يقع، لقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، وهذه الجملة مؤكدة بـ (إنَّ) تدلُّ على أن وعد الله لابد أن يقع، هل وعيده كذلك؟ نعم، حتى وعيده حق، ولابد أن يقع إلا أن يمُنَّ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بالعفو، وإلا فالأصل: أن وعيده واقع، لا يقال كما قال بعض الناس: الوعيد ليس بواقع، وليس بحقٍّ، وأن الوعد هو الحق، نقول: كله حق، لكن الوعيد قد يعفو الله عنه، والعفو كرم.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات كلام الله، أن الله يتكلم، من قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ لأن الوعد يكون بالقول، ولا شك أن الله ـ تعالى ـ يتكلَّم، وأنه لا نفاد لكلماته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩]،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٠/ ١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البحر اسم جنس يعم كل البحار ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾، لو كانت البحار كلها حِبرٌ لنفِدَت قبل أن تنفد كلمات الله، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] يعني: لو أن ما في الأرض من الشجر كان أقلامًا ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ يعني: وكتب بالأقلام بمداد البحر ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾، وهذا يدل على عظمة الرب - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأنه مُدبِّر الكون، وإذا أراد أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، ولا منتهى لإرادة الله.

وهل قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - قول مسموع يعني: بصوت أو بلا صوت؟ بصوت؛ لأن الله - تعالى - قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، ولا نداء ومناجاة إلا بصوت، وورد الصوت صريحًا في ما ثبت عن النبي ﷺ: أن الله تعالى يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ» فيقول: لبَّيْكَ وسعديك، فيُنادِي بصوتٍ: «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ» قال: يا رب، وما بعث النار؟[1] إلخ، هذا صريحٌ بأن الله يتكلَّم بصوت، وهنا في هذه المسألة مذاهب: نذكر منها المذاهب المشهورة الثلاثة: أنه يتكلَّم بصوتٍ مسموع وحرف غير مخلوق؛ لأنه كلام، وهذا مذهب السلف وأئمة الخلف، فكلامه - عَزَّ وَجَلَّ - هو اللفظ والمعنى، والقول الثاني: أن الله - تعالى - يتكلم بصوت مسموع، وحرف مخلوق، والكلام كلامه، وهذا مذهب الجهمية الذين يقولون: إن القرآن كلام الله، ولكنه مخلوق؛ لأن كل كلام الله عندهم مخلوق، والقول الثالث: إنه لا يتكلم بصوت ولا بحرف مخلوق، إنما كلامه هو: المعنى القائم بنفسه، لكن يخلق شيئًا يُعبِّر عن هذا الذي في نفسه، فيُسمَع هذا المخلوق، ويُضافُ إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - إضافة تكريم وتشريف، وهذا مذهب الأشاعرة الذين هم أهل الكلام، والذين يقولون: إنهم هم الذين دافعوا المعتزلة عن الباطل، وهم الذين انتصروا للإسلام، وهم في الحقيقة لا للإسلام انتصروا، ولا لحرب الإسلام كسروا؛ بل قد نقول: قولهم في الكلام شرٌّ من قول الجهمية؛ لأنهم اتفقوا على أن ما يُسمَع من كلام الله مخلوق، وعلى أن القرآن مخلوق، لكن الجهمية يقولون: هو مخلوق، وهو كلام الله، وهؤلاء يقولون: مخلوق، وليس كلام الله؛ بل هو عبارةً عنه، إذن نسألهم: أين كلام الله؟ قالوا: هو المعنى القائم بنفسه، والحقيقة أن المعنى القائم بنفسه ليس كلامًا، وإنما هو عِلْمٌ، عَلِمَ بما سيخلق من كلام فيكون هذا هو كلامه، والعجيب: أنهم استدلُّوا بآية وَشِعْر، أما الآية فقالوا: إن الله تعالى يقول: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] فأثبتَ القول النفسي، أما الشِّعْر، فقالوا: إن الشاعر قال:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلا

الفؤاد يعني: القلب، فنقول لهم: أما الآية فلا دلالة فيها لكم؛ بل هي على رؤوسكم؛ لأن الله -

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٨) ومسلم (٣٧٩/ ٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

تعالى - لم يطلق القول؛ بل قيَّده، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨]، وهذا كقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا»[1]، وحديثُ النفس لا يمكن أن يقال: إنه حديث، ولا أن يقال: إنه قول إلا بقَيْد، ولهذا لو حُذِفَت ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقيل: لولا يعذبنا الله، فماذا يُفهَم منه؟ يُفهَم منه: كلام اللسان، لكنِ هم بأنفسهم يُقدِّرون، يقول الواحد منهم: لولا يعذبنا الله بما نقول، إذن ما نقوله حق؛ لأن الله لم يُعذِّبنا، هذا يُقدِّره الإنسان في نفسه.

أما الشعر، فهو قول الأخطل الشاعر النصراني قاله بعد تغيُّر الألسن، وعلى فرض أنه موافق، فإنه يجب أن يُحمَل على أن المعنى: إن الكلام المُعتَبر هو ما يُقدَّر أولًا في الفؤاد، ثم ينطق به اللسان، ولهذا يُعتَبر الكلام الذي يسبق على اللسان لا يعتبر كلامًا، ولا يُؤاخَذ به، فالكلام الحقيقي الرصين المعتبر هو الذي يكون أولًا في القلب، ثم يُعبَّر عنه باللسان، هذا معنى البيت الذي لا يحتمل غيره.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن وعد الله حقٌّ ثابتٌ لابد أن يقع، وهو كذلك، وقد صرَّح الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** تهديد هؤلاء المُكذِّبين للرسول - عليه الصلاة والسلام - بأحد أمرين: إما بعقوبة عاجلة قبل أن يُتوَفَّى، وإما بعقوبة آجلة في يوم القيامة، لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مرجع الأمور كلها إلى الله، وليست باختيار أحد، فهو الذي يُقدِّر ما شاء، سواءً في الدنيا أو في الآخرة، لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

٧ - ومنها: أن عذاب العدو يشفِي غليل عدوِّه، لقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ فإن الإنسان إذا رأى عذاب الله - تعالى - لعدوه فلا شك أنه يشفِي غليلَه.

٨ - **ومن فوائدها:** أنه لا بأس أن نفرح إذا أصاب الله عدوَّنا بمصيبة؛ لأن الظاهر أن قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأجل أن تقرَّ عينُه بذلك، فإذا أُصِيبَ أعداؤنا بخسفٍ، أو صواعق، أو فيضانات، أو ما أشبه ذلك، وفرِحْنا بهذا فلا لوم علينا؛ لأنهم أعداؤنا يفرحون بما يسيئنا، فالجزاء من جنس العمل.

٩ - ومنها: إثبات رجوع الخلق إلى الله، لقوله: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، وهذا عامٌّ في كل شيء، في الأحوال، والأوقات، وفي كل شيء، المرجع إلى الله، وحده.



---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]

التفسير

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الجملة هذه مُؤكَّدة بثلاثة مُؤكِّدات: اللام، وقد، والقسم المحذوف، والتقدير: والله لقد أرسلنا رسلًا من قبلك، والرسول: هو بشرٌ يُوحَى إليه بشرع، ويُؤمَر بتبليغه، ولهذا سُمِّي رسولًا؛ أي: مدفوعًا من قِبَل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليبلغ، وأما النبي: فإنه بشرٌ أُوحِيَ إليه بشرع، ولكن لم يُكلَّف بتبليغه؛ بمعنى: أنه يُجدِّد شرع من قبله إن كان قبله رسول حتى يُحيِيَ هِمم الناس فيقتدوا به، وإذا لم يحتج الناس إلى رسول لم يُرسل إليهم أحد، فإن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان نبيًّا ولم يكن رسولًا [1]، هو نبيٌّ يُتعبَّد لله ـ تعالى ـ بما أرسله الله إليه، ولكن لم يُرسَل؛ لأن الناس لم يختلفوا بعدُ، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فالرسل إنما أُرسِلوا بعد الاختلاف، ولهذا قال بعض أهل العلم: إن تقدير الآية الكريمة: كان الناس أمةً واحدةً فاختلفوا فبعث الله النبيين مُبشِّرين، وقال: إن في الآية إيجاز حذفٍ؛ أي: حُذِفَ منها ما دلَّ السياق على حذفه، على كل حال؛ الرسول هو: بشر أوحي إليه بشرع وأُمِر بتبليغه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ وهؤلاء الرسل كانوا يُرسَلون إلى أممهم فقط، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» من حديث جابر: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» [2]، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، كما قال الله ـ عزّ وجلَّ ـ، كل أمة أرسل الله إليها رسولًا لتقوم الحُجَّة.

وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ مِنْ هذه تبعيضية؛ أي: بعضُهم قصصناهم عليك، وأخبرناك بهم، وبعضهم لم نقصصهم عليك، قال أهل العلم: وإنما قصَّ الله على رسوله ﷺ مَنْ كانوا من الجزيرة العربية وما حولها؛ لأن أخبار هؤلاء لهم بقية في

---

(١) ورد في الحديث أن آدم عليه السلام نبي مكلم وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (٥/ ١٧٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٣٧).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

العرب، فلهذا قصَّهُ الله، أما من كانوا في أمريكا، أوفي شرق أسيا، أو ما أشبه ذلك من الأماكن البعيدة، فهؤلاء لم يقُصَّ علينا من نبئهم شيء.

وقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [رُوِي أنه ـ تعالى ـ بعث ثمانية آلاف نبي: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس]، وجدير بالمؤلف ـ رحمه الله ـ أن يقول: [رُوِي] بصيغة التمريض؛ لأن هذا لا يصح، كيف يكون من بني إسرائيل وهم متأخرون عن أمم كثيرة أربعة آلاف، ومن سائر الناس أربعة آلاف هذا بعيد؛ بل إن الله أرسل في كل وقت وحين ما تقوم به الحُجَّة، وهل لنا أن نبحث عن عدد هؤلاء؟ لا، وإن قلنا: لنا، فإنه ليس علينا؛ يعني: لو قيل: لنا أن نبحث للاطلاع لم يكن سائغًا أن نقول: علينا أن نبحث؛ بل نقول: آمنا بالله وبرسله، ما علمنا منهم، وما لم نعلم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ [منهم] ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [لأنهم عبيدٌ مربُوبُون]، قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ما نافية، وكان فعل ماض ناقص، و﴿لِرَسُولٍ﴾ خبره، و﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ اسم كان؛ أي: وما كان إتيان أحدهم بآية إلا بإذن الله، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ آتاهم الله آيات، لكن هل هم الذين يملكون هذا؟ لا، هذا من عند الله، ولكن الله ـ تعالى ـ بيَّن أنه ما من رسول إلا وأُوتِي آية ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني: بالآيات البيِّنات حتى يؤمن البشر، وحتى لا يكون لهم حجة عند الله؛ لأن الله لو بعث رسولًا هكذا إلى الناس، وقال: إني رسول الله، ولم يأتِ بآية، فإن الناس لن يقبلوا منه، وإلا لأمكن لكل كاذبٍ أن يدَّعي الرسالة، فلا بد من آيات بيِّنات واضحة على أنه رسول، ومع هذا لا يُمكِن لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله.

وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الإذن الكوني، إذا أذِنَ الله كونًا أن يأتي الرسول بآية أتى بآية، والرسول قد يأتي بآية ابتداءً، وقد يأتي بآية بطلبٍ من المُرسَل إليهم؛ بل قد جاء في الحديث الصحيح: أن قريشًا قالوا للرسول ﷺ: أرِنا آيةً، فأشارَ إلى القمر، فانفلق فِرقَتَيْن؛ إحداهما على الصفا، والثاني على المروة[1]، وشهد الناس ذلك، ولكن مع ذلك ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢] قالوا: إن محمدًا سحرنا، والقمر لم يتصدَّع، ولكن لما لم يُعيِّنوا الآية التي طلبوها لم يُؤاخَذوا بالعقاب؛ لأن الأمم إذا عيَّنوا الآية التي طلبوها ثم لم يؤمنوا عاجلهم الله بالعقوبة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ أي: علامة على صدقه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهنا قال: ﴿آية﴾، ولم يقل: بمعجزة، وقد جرى على ألسنة كثيرٍ من العلماء ـ رحمهم الله ـ تسمية آيات الأنبياء بالمعجزات، ولكن هذه التسمية غير سديدة؛ بل الأَولَى أن نُعبِّر بآية، نقول: آية النبي، ولا

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

نقول: معجزة؛ أولًا: لأن هذا هو التعبير القرآني، وثانيًا: لأن المعجزة تأتي من الرسول، وتأتي من الساحر، وتأتي من الشياطين، يأتي من هؤلاء ما يعجز عنه البشر، والثالث: أن كلمة آية فيها إشارة إلى أن ما جاء به الرسول مما يعجز البشر آية؛ أي: علامة، فهذه ثلاثة أشياء تُبيِّن رُجْحان التعبير بآية على التعبير بمعجزة.

قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [بنزول العذاب على الكفار] ﴿قُضِىَ﴾ [بين الرسل ومُكذِّبيها] ﴿بِالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [أي: ظهر القضاء والخُسْران للناس، وهم خاسرون في كل وقتٍ قبل ذلك]، إذا جاء أمر الله - تعالى - الكوني؛ لأن أمر الله ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بماذا؟ [بنزول العذاب على الكافرين]، ونزول النصر للرسل، وأتباعهم، قوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ والقاضي هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وحَذْفُ الفاعل هنا للعلم به؛ لأن الله - تعالى - هو الذي يقضي بالحق، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]، ويحذف الفاعل أحيانًا للعلم به، كما في قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وكما في هذه الآية، وقد يُقال: إنه حُذِف الفاعل هنا للتعميم، فيكون القاضي: هو الله، وكذلك القاضي بالحق هم: الرسل وأتباعهم؛ لأنهم قضَوا بالحق بالانتصار على عدوهم، لكن الأول أَوْلَى؛ أن يكون الفاعل واحدًا ولكن حُذِف للعلم به.

وقوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الخُسْران: فوات الربح، وهنا اسم إشارة للمكان، والمراد به: الزمان، ولهذا قال المؤلف: [في كل وقت] المعنى: خسر في ذلك الوقت المُبطِلون، فإذا قال قائل: ألستم تقولون إن (هنا) إشارة للمكان؟ قلنا: بلى، لكن قد تستعار إشارة للزمان، واللام في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ للبعد، والكاف حرف خطاب، ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين وقعوا في الباطل؛ لأن القضاء بالحق يقتضي زوال الباطل، وإذا زال الباطل خسر أهله، والباطل ضد الحق، ويُفسَّر في كل موضع بحسبه، فالباطل في الكلام الخبري: الكذب، والباطل في الحكم: الجَوْر، والباطل في المعاملة: الغِشّ، وما أشبه ذلك، المهم: أن الباطل يُفسَّر في كل موضع بحسبه، وقول المؤلف: [وهم خاسرون في كل وقت] احترازًا من الإشارة في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ لئلَّا يظُنَّ الظانُّ أنهم خاسرون حين نزول العذاب فقط، مع أنهم خاسرون كل وقت، وقد يُقال: لا حاجة إلى ذلك؛ يعني: لا حاجة إلى ما قاله المؤلف؛ لأن المقصود: وخسر هنالك؛ أي: ظهرت خسارتهم وبانت؛ لأنهم قبل أن يُؤتَوا بالعذاب ربما يقول قائل: إنهم ربحوا، كما قال أبو سفيان في يوم أحد: يوم بيوم، والحرب سِجَال، فظنَّ أنه ربح في ذلك اليوم، فالأَولَى أن تبقى الآية على ظاهرها، وألَّا يُستدرَك القرآن، فيقال: خسر هنالك؛ أي: ظهر خسرانهم وبان، أما خسرانهم قبل نزول العذاب فهو ليس ببيِّن؛ إذ قد يقول قائل: إنهم يربحون فيما إذا أدال الله لهم على الإسلام إدالةً غير مستقرة؛ لأنه لا يجوز أن نعتقد بأن الله يُدِيلُ الكفر على الإسلام إدالةً

مستقرة؛ بل من ظنَّ بالله هذا فقد ظن به ظن السوء، لكن الله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

«الفوائد»

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الرسل السابقين، لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

٢ - **ومن فوائدها**: عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - في عباده؛ حيث لم يُعاقِبهم إلا بعد إرسال الرسل، وتكذيب هؤلاء القوم الذين أُرسِل إليهم.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: الإشارة إلى أنه لا رسول بعد محمد ﷺ(1)، لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾، ولم يقل: سنُرسِل، وهذه الفائدة في الواقع ليست بتلك القوية؛ يعني: مأخذها من الآية لولا الواقع ما أخذناها من الآية؛ لأن الله إنما يتحدَّث عن شيءٍ مضى.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن من الرسل من قصَّهم الله على محمد ﷺ، ومنهم من لم يقُصَّها، لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله - تعالى - يتكلَّم؛ يعني: إثبات كلام الله، لقوله: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، والقصُّ في الأصل: تتبُّع الأثر، وأما في الكلام فهو: ذِكْر أخبار من سلف، وهذا يدل على أن الله يتكلم - عَزَّ وَجَلَّ -، وهذا هو ما دل عليه الكتاب، والسنة، وإجماع السلف، ولكن هل يتكلم بصوت يُسمَع أو لا؟ نعم، يتكلم بصوت يُسمَع.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في حديثه عن الأمم السابقة؛ حيث قسَّمها إلى من قصَّ علينا نبأهم، ومن لم يقُصَّ، وما ذلك إلا لحكمة عظيمة بالغة.

٧ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أيَّدهم الله - تعالى - بالآيات، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٨ - **ومن فوائدها**: أن الرسل لا يملكون إيجاد الآيات، مهما بلغت منزلتهم فإنهم لا يملكون أن يأتوا بآية واحدة، لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

٩ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: تسلية الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فإن الكفار يطلبون منه آيات، ولكن الله - تعالى - يقول: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] يُسلِّي الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وأن هذا الأمر ليس إليك؛ بل هو إلى الله؛ إذا شاء أن يؤتيك آية آتاك، وإلَّا فهو الحكيم.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: إثبات الإذن لله - عَزَّ وَجَلَّ -، والإذن نوعان: إذنٌ شرعي،

---

(١) قال النبي صلى الله عليه وسلم لا نبي بعدي وهو حديث متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢/٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإذنٌ كوني، فالإذنُ الكوني ما يتعلَّق بالمخلوقات، وإيجادها، وإعدامها، وتغييرها، وما أشبه ذلك، والإذن الشرعي: ما يتعلق بالمشفوعات، فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] شرعيٌّ ولا يصحَّ أن يكون كونيًا؛ لأننا نعلم أنه إذا فعلوه فقد أذِنَ الله فيه، وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] شرعيٌّ، كذلك هم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، هنا؛ أي: لم يأذن به شرعًا، ولا يجوز أن يكون إذنًا كونيًا؛ لأنه وقع فقد أذِنَ الله - تعالى - فيما شرع هؤلاء إذْنًا كونيًّا، وقال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذا إذْنٌ كونيٌّ؛ وذلك لأن الشفاعة تُطلَب من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يُخفِّف العذاب عن الشخص، أو ما أشبه ذلك، أو يرفع درجاته.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية:** إثبات أفعال الله الاختيارية؛ يعني: أن الله - تعالى - قد يُحدِثُ من أمره ما شاء، لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وإذا هنا شرطية للمستقبل، إذن الأمر لم يأتِ بعد، وهذا يدل على أن الله - سبحانه وتعالى - مُتَّصِفٌ بالأفعال الاختيارية خلافًا للأشاعرة ونحوهم، الذين قالوا: إن الله - تعالى - لا يوصف بالأفعال الاختيارية، فإذا قلنا: يُوصَف بالأفعال الاختيارية، قالوا: هذا يقتضي أحد أمرين: إما أن يكون الله حادثًا، وإما أن يكون ناقصًا، أما كونه يستلزم أن يكون الله حادثًا؛ فلأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، فإذا أثبتُّم أن الحوادث تقوم به لَزِمَكم أن يكون الله حادثًا؛ لأن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، هذه واحدة، أما النقص فنقول: إذا كان هذا الفعل الذي فعله الآن كمالًا؛ فلماذا لم يتَّصِف به من قبل؟ وإن لم يكن كمالًا، فهو نقصٌ يجب أن يُنزَّه الله عنه.

وهذا لا شك أنه تلبيسٌ، أما الأول: فقولهم: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، نقول: من أين أتاكم هذا، أمن جيوبكم، أم من آرائكم الفاسدة؟ من قال: إن الحوادث لا تقوم إلا بحادث؟ الحوادث منا الآن تحدث، وقبل أن تكون، ونحن سابقون عليها، فكذلك ما يُحدِثُه الله - عَزَّ وَجَلَّ - يُحدِثُه وهو سابق عليه، وسبقُهُ أزليٌّ، فدَعواكم هذه باطلة تحتاج إلى دليل، ولا دليل؛ بل الدليل على نقضه.

وأما قولكم: إن كان كمالًا فلماذا لم يتصف به من قبل، وإن لم يكن كمالًا فهو نقص فيجب نفيه؟ نقول: هذا أيضًا باطل؛ لأننا نقول: إن فعل الله الذي يُحدِثُه هو كمالٌ حال إحداثه، وليس كمالًا حال عدمه؛ لأن الله - تعالى - متصف بالكمال، ففي حال عدمه لا يكون كمالًا، وفي حال وجوده يكون هو الكمال، وهذا واضح، فعلُ الإنسان وهو الإنسان أحيانًا يكون مناسبًا وفي محله، وأحيانًا يكون غير مناسب، وتكون الحكمة ألَّا يفعله، وبذلك نعرف أن الرجوع إلى العقل فيما يتعلَّق بالله باطل وضلال؛ لأن العقل قد يزِلُّ وقد يهِم، فالرجوع فيما يتعلق بالله - عَزَّ وَجَلَّ - إلى الكتاب والسنة، لا ثالث لهما، اللهم إلا أن يقال: إجماع السلف أيضًا يُرجَع إليه، فيكون مصدر التلقِّي في العقيدة وفيما

يتعلّق بذات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأسمائه وصفاته ثلاث: القرآن، والسنة، وإجماع السلف، لكننا نقول: لا حاجة إلى قول إجماع السلف؛ لأن إجماع السلف لا يكون إلا عن كتاب أو سنة.

١٢ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: تهديدُ هؤلاء المشركين الذين كذَّبوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ ووجهُ التهديد: أن علماء البلاغة يقولون: إن (إذا) تفيد وقوع الشرط في المستقبل، كما إذا قلتُ لك: إذا جاء زيدٌ فأكرِمْه، تفهم من هذا: أن زيدًا سوف يأتي، لكنه بشرط؛ يعني: متأخر، بخلاف (إنْ)، فإنَّ (إنْ) شرطية، لكن للمحتمل، إنْ جاء زيدٌ فأكرِمْه، هل مجيئه محقق؟ لا، لكن إذا جاء فأكرِمْه يكون المجيء مُحَقَّقًا، لكنه مربوطٌ بزمن مستقبل، هذه ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تفيد أن أمر الله لابد أن يأتي، أمر الله ينقسم إلى قسمين: كوني، وشرعي، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] شرعي؛ لماذا لا يكون كونيًّا؟ لأنه لو كان كونيًّا لكان كل الناس يؤدُّون الأمانة إلى أهلها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨] كوني، فصار الأمر الآن يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا.

١٣ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما قضى الله ـ تعالى ـ من عقابٍ أو عذاب فإنه حقٌّ، لقوله: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾، وعلى هذا فينتفي بذلك أن يكون الله تعالى ظالمًا لمن عاقبه، فإن قال قائل: أليست العقوبة تنزل بالأمة وفيهم الصالحون؟ الجواب: بلى، تنزل العقوبة على الأمة وفيهم الصالحون، لكنها تكون عقوبةً على المُسيء، ورفعةً درجات وتكفير سيئات على الصالح، ولهذا لما قالت إحدى أمهات المؤمنين: أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1] فإذا غلب الخَبثُ على الطيب حلَّت العقوبة على الجميع.

١٤ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المُبطِل خاسر إذا نزل به العذاب، لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وإذا كان المبطل خاسرًا فالمُصلِح رابحًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] ، ولهذا إذا كان الأهل مصلحين فإن الله لا يهلك الأمة، لكن إذا كانوا صالحين فقد تهلك الأمة إذا كثر الخبث، وهذه نقطة قد لا يتفطَّن لها كثير من الطلبة انتفاء الإهلاك متى؟ إذا كان الأهل مصلحين ومحاولين للإصلاح، أما إذا كانوا صالحين فإنه قد يقع الإهلاك إذا كثُر الخَبَث، أما مع الإصلاح ولو كثُر الخَبَث ما دامت الأمة تحاول الإصلاح، وتسعى به فإنها لن تهلك، وهذه نقطة قد لا يتفطَّن لها كثيرٌ من الناس ـ نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوالكم ـ.



(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (١/ ٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠]

التفسير

[قيل: الإبل خاصَّةً هنا، والظاهر: والبقر، والغنم] ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ جعل؛ أي: صيَّرَها مُسخَّرةً لكم، والجَعْل هنا جَعْل كوني؛ لأن الجَعْل المضاف إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- يكون كونًا، ويكون قدرًا؛ يعني: يكون جَعْلًا كونيًا، ويكون جَعْلًا شرعيًّا، ففي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] هذا الجَعْل شرعيٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] هذا جَعْلٌ كوني، وفي قوله تعالى هنا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ جَعْلٌ كوني، والأنعام جمع نَعَم، قال المُفسِّر: [قيل: الإبل خاصة، والظاهر: والبقر، والغنم] بل والظاهر: ما هو أعم من ذلك، وهو ما أنعم الله به علينا من الحيوان الذي سخره الله لنا؛ من إبل، وبقر، وغنم، وفِيَلة، وغيرها، من كل شيء.

وقوله: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قسَّم الله -سبحانه وتعالى- هذه الأنعام إلى قسمين: قسم تُركَب، وقسم تُؤكَل، وعلى هذا فتكون مِنْ في الموضعين للتبعيض، وعلامة مِنْ التي للتبعيض أن يحل محلها كلمة بعض، فهنا احذف مِن، وقل: لتركبوا بعضها، وبعضها تأكلون يستقيم الكلام، فهذا علامة مِنْ التبعيضية أن يحل محلها كلمة بعض، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا التقسيم لا يعني: الانقسام؛ بمعنى: أنه يمكن أن يوجد من الأنعام ما يؤكل وما يُركَب؛ مثل: الإبل فإنها تؤكل وتُركَب.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [من الدَّرِّ، والنَّسْل، والوَبَر، والصوف] يعني: والشَّعر، وغير ذلك من المنافع؛ كنقل البضائع، وغيرها، ولهذا جاءت كلمة (منافع) جمع منفعة بصيغة مُنتهَى الجموع، وصيغة منتهى الجموع ما كانت على وزن مفاعل أو مفاعيل.

وقوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ [هي: حمل الأثقال إلى البلاد] ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، قوله: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ فسَّرها المؤلف بأنها حمل الأثقال، ولكن الذي يظهر أنها غير ذلك، وأنها قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ [النحل: ٦، ٧] يعني: ما يكون في قلب الإنسان من محبة الفخر، والخُيَلاء، وغيرها، وإن كانت هذه الحاجات قد تكون ممنوعة؛ كالفخر، والخُيَلاء،

لكن لا شك أن هذه حاجة عند كل إنسان أنه يجد فَرَحًا، وسرورًا إذا غنِمَ كثيرًا من المواشي، ومن الإبل، والبقر، والغنم، والظِّباء، والأرانب، وغيرها، يجد الإنسان لهذا طعمًا في نفسه، ويمكن أن يقال أيضًا: ومن الحاجات في النفس الاتجار بها، فإن بعض الناس يتَّجِر بهذه الأنعام، والله - سبحانه وتعالى - لم يقصُر نوع الحاجة، فيشمل كل ما يقع في القلب من مثل هذه الأمور.

وقوله: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ [في البر] ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ [السفن في البحر] ﴿تُحْمَلُونَ﴾، بيَّن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هذه الأنعام نُحمَل عليها، وكذلك السفن، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية:** بيان نعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - علينا في هذه الأنعام؛ حيث جعلها لنا مُسخَّرة مُذلَّلة.

٢ - **ومن فوائدها:** جواز ركوبها وأكلها، ومن المعلوم أن هذا ليس على الإطلاق، فإن الذي يُركَب لا يُركَب على وجه يشُقُّ عليه، فلو أراد الإنسان أن يركب على بهيمة، وهي لا تطيق أكثر من واحد، فأردَفَ عليها، قلنا: هذا لا يجوز، لما في ذلك من المشقة، وكذلك أيضًا ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ليس على الإطلاق؛ إذ من هذه الأنعام ما لا نأكله؛ مثل: الحُمُر، فإنها لا تُؤكَل، ولكنها يُحمَل عليها، وتُركَب.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأصل: جواز كل ما يُنتَفَع به من وجوه الانتفاع في هذه الأنعام ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، وبناءً على ذلك: يجوز أن يركب ما لا يُركَب عادةً إذا لم يشُقّ عليه؛ لأن ذلك من المنافع، فلو كان مع الإنسان بقرة واحتاج إلى أن يركب عليها، قلنا له: اركب؛ لأن هذه من المنافع، والله - تعالى - أطلق المنافع ما لم يشق عليها، فإن شقَّ عليها كان ممنوعًا؛ لأن إيذاء الحيوان مُحرَّم.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز ما يقع في قلب العبد من الفرح والسرور بهذه الأنعام، بشرط ألَّا يُعَدِّيَ ذلك إلى الكبرياء والخُيَلاء، فما دام هذا الفرح في نطاق الأمر المباح، فإن الإنسان لا يُلامُ عليه؛ بل هو مما يجعله الله له.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان نعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - بحملنا على هذه الأنعام، وعلى الفلك؛ يعني: أن الله سخَّر لنا ما نركبه في الماء، وما نركبه في البر، وهنا تسخير ثالث حدث بعد نزول القرآن: ما نُحمَل عليه في الجو، فيكون الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنعم علينا بمراكب جوية، وبحرية، وبرية.



قال الله تعالى:

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أي: يُظهِرُها لكم حتى تروها، وعلى هذا فـ (يُري) من الرباعي لا من الثلاثي؛ لأنها من أَرَى يُرِي؛ أي: أظهر الشيء حتى يراه الإنسان، وقوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ جمع آية، والآية هي: العلامة على الشيء، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] أي: علامة، فالآية علامة على ما يختص بها من صفة؛ فمثلًا: إذا نزل الغيث وأنبتت الأرض، فهو آية على رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، إذا اهتزَّت الأرض بأهلها، أو خُسِفَت بأهلها، فهو آية على سخط الله وعقابه، وعلى قدرته؛ حيث يُزلزِلُ هذه الأرض الكبيرة العظيمة، فيكون هذا آية على ما يختص بها، فالآيات إذن آيات على ما تختص به من صفة، لا نقول: إنها كلها آية على شيء واحد؛ بل منها ما يكون آية على الرحمة، وآية على العزة، وآية على الحكمة، وآية على القدرة، وهلُمَّ جرًّا، إذن آيات نقول: جمع آية، وهي: العلامة، هذه الآيات هل هي كلها تدل على شيء معين من الآيات، أم لكل آية ما يختص بها؟ لكل آية ما يختصُّ بها.

وقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ أيَّ هنا استفهامية منصوبة على أنها مفعول مُقدَّم لقوله: ﴿تُنكِرُونَ﴾، ولو كانت الآية تُنكِرونها، أو تُنكِرونه؛ فهل ننصب أيَّ أو نرفعها؟ نرفعها، ويجوز النصب؛ لأن هذا يكون من باب الاشتغال، وأضرب لكم مثلًا: لو قلتُ: زيدًا أكرمتُ، هنا يتعيَّن النصب على أنه مفعول مُقدَّم، ولو قلت: زيدٌ أكرمتُهُ، فهنا يجوز الوجهان، والرفع أرجح؛ لأنه الأقرب، أما النصب فيكون على سبيل الاشتغال، وعليه فإذا جاء معمول مقدم، وعامل مؤخر لم يستوفِ عمله، فإنه يجب أن يكون هذا المعمول السابق حسب ما يقتضيه هذا العامل.

وقوله: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [أي: الدالة على وحدانيته] ﴿تُنكِرُونَ﴾ يعني: لو قال المؤلف ما هو أعم لكان أحسن؛ لأن هنا ليست الآيات دالة على الوحدانية فقط؛ بل على الوحدانية وعلى ما يختص بتلك الآية، ﴿تُنكِرُونَ﴾ [أي: استفهام توبيخ] يعني: قوله تعالى: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وهو أيضًا استفهام تحدٍّ، فهو جامع بين التوبيخ والتحدِّي؛ يعني: هذه آيات ظاهرة لا يمكنكم أن تنكروها، قال: [وتذكيرُ أيِّ أشهر من تأنيثه] لأنه يُقال: أيَّةُ، ويقال: أيُّ، وعلى كلام المؤلف يكون التذكير أشهر من التأنيث، ولو كان المشار إليه مؤنثًا، ولهذا قال: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ

ٱللَّهِ﴾، وآيات مؤنث، ولم يقل: فأيَّت آيات الله، لكن في غير القرآن لو قِيلَت: فأيَّت آيات الله، لكان هذا سائغًا، إلا أنه مرجوح.

«الفوائد»

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** نعمة الله - سبحانه وتعالى - على عباده بإراءتهم الآيات الدالة عليه، ولو شاء الله لأخفَى عنَّا ذلك، ووَكَلَنا إلى ما في نفوسنا وفِطَرِنا، ولكن من رحمته أنه يُظهِرُ الآيات حتى يكون هذا عونًا على ما في الفطرة من معرفة الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** جواز تحدِّي الإنسان بما يعترف به لولا الجَحْد، لقوله: ﴿فَأَيَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، وهل تعرف أن أحدًا جحد الآيات مع تيقُّنِه بها؟ فرعون وقومه، فإنهم جَحَدوا بآيات الله مع أن أنفسهم مُستيقنةٌ بها.



قال الله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض؛ لأن (في) للظرفية، ولو جعلنا في للظرفية في هذا السياق لكان معنى الآية: أن يدخلوا في جوف الأرض، وهذا غير مرادٍ قطعًا، فتكون (في) بمعنى: على، كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] أي: مَنْ على السماء، وليس المراد: أن الله في جوف السماء؛ لأن ذلك مستحيل، فقد وسع كُرسِيُّه السماوات والأرض، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل السير بالقدم، والسير بالقلب، أما السير بالقدم فمعروف، وأما السير بالقلب فمعناه: أن يتفكَّر الإنسان فيما مضى من تاريخ الأمم، وأصحُّ مرجعٍ نرجع إليه فيما مضى من سير الأمم هو القرآن الكريم.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾ هذا الاستفهام يحتمل أن يكون للحث، وعليه فيكون بمعنى: الأمر؛ أي: سيروا في الأرض، ويؤيِّد هذا: قول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١]، ويحتمل أن يكون للتوبيخ؛ أي: توبيخ هؤلاء عن عدم السير في الأرض، والسير هنا يشمل السير بالقدم، والسير بالقلب، أما السير بالقلب فمرجِعُه إلى الأخبار الصادقة؛ بحيث

يقرأُ الإنسان عن الأمم السابقة، ولاشيء أصحُّ من كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - في الحديث عن الأمم السابقة، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] فلا شيء أصحُّ بالأخبار مما جاء به الكتاب العزيز وصحَّت به السنة، نقول: سيرٌ بالقدم، السير بالقدم: أن يمشي الإنسان لينظر ما صنع الله - تعالى - بالمُكذِّبين؛ مثال ذلك: أن يسير الإنسان إلى ديار ثمود لينظر ماذا صنع الله بهم، ولكن كما نبه النبي - عليه الصلاة والسلام -: أنه لا يجوز أن يدخُلَهَا إلَّا وهُوَ بَاكٍ[1] خوفَ أن يُصِيبَه ما أصاب هؤلاء المُكذِّبين، وأما من ذهب إليها للتنزُّه والفُرْجة، فإن ذلك لا يجوز، كما يصنع كثيرٌ من الناس اليوم، يذهبون إليها لا على سبيل العِظَة والاعتبار، ولا أن يدخلوها وهم باكون؛ بل على سبيل الاطلاع فقط على آثار السابقين، وعلى سبيل النزهة، وهذا حرام ولا يحل.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ الإعراب: أن نقول: إنَّ (لم) حرف نفي وجزم وقلب، حرف نفي؛ لأنها تنفي، جزم؛ لأنها تجزم، قَلْب؛ لأنها تُحوِّل المضارع إلى الماضي، والفاء في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ عاطفة لا شك، لكن هل هي عاطفة على مُقدَّر محذوف، أو عاطفة على ما قبلها من الجُمَل؟ في ذلك قولان: القول الأول: أنها عاطفة على محذوفٍ مُقدَّر بعد الهمز، ويُقدَّر بما يناسب المقام، وعلى هذا فترتيبها بعد الهمزة ترتيبٌ طبيعيٌّ، والثاني: أنها عاطفة على الجملة السابقة، وبناءً على ذلك تكون الفاء هنا مُزحلقةً عن موضعها؛ إذ إن موضعها يكون قبل الهمزة، والقولان معروفان لأهل العلم بالنحو، على التقدير الأول: أنها عاطفة على مُقدَّر بعد الهمزة يكون المعنى: أغفَلوا فلم يسيروا في الأرض، وقوله: ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ الفاء عاطفة على ﴿يَسِيرُوا۟﴾ وعلى هذا يكون المعنى: أفلم يسيروا فلم ينظروا، ويحتمل أن تكون منصوبة بعد فاء السببية؛ أي: انتفى سيْرُهم فينظروا، كما تقول: لم تُزُرْني فأُكرِمك، وما أشبه ذلك من الكلام.

وقوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كيف هذه استفهام، وهي في محل نصبِ خبر كان مقدمًا، وعاقبة اسمها، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فما هي العاقبة؟ العاقبة ذكرها الله - تعالى - في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠] هذا هو فائدة النظر أن هؤلاء القوم المُكذِّبين كانوا أشدَّ من هؤلاء قوة ومع ذلك دمَّرهم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: في العدد، وقوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ أي: في الكيفية، فصاروا مُتميِّزين عنهم في العدد والكيفية، ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

بالمصانع، والقصور.

وقوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ما نافية، وأغنى فعلٌ ماضٍ، و﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ اسم موصول فاعل، و﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ صلة الموصول، ويحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾ استفهامية، والمعنى: فما الذي أغنى عنهم ما كسبوا، والاستفهامية أبلغ؛ لأنها تتضمَّن النفي مع التحدِّي؛ أي: أيُّ شيءٍ أغني عنهم كسبهم حين دمَّرهم الله، إن كانت نافية فالمعنى: ما أغنى عنهم كسبهم شيئًا، وإن كانت للاستفهامية فالتقدير: ما الذي أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، ونظير ذلك: قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ _ ٢٠٧] أي: أيُّ شيء أغنى عنهم، أو أن المعنى نفيُ الإغناء.



قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ٨٤ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٣_٨٥]

التفسير

وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ هذه معطوفة على ﴿يَسِيرُواْ﴾ يعني: أن الله وبَّخهم على أمرين: عدم السير، وعدم النظر، فهم لم يسيروا، ولم ينظروا، وقوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والنظر هنا هل هو نظر البصيرة، أم البصر؟ إن قلنا: إن قوله: ﴿يَسِيرُواْ﴾ سير القدم، فالنظر نظر البصر، وإن قلنا: يسيروا سير القلب، فالنظر نظر البصيرة.

وقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كيف خبرٌ مُقدَّم لكان، وهنا يتعيَّن التقديم؛ لأن كيف اسم استفهام، والاستفهام له الصدارة، فعليه تكون خبرًا مُقدَّمًا لكان، وعاقبة اسمها، وقوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني: من الأمم، فما هي العاقبة؟ العاقبة أشار الله إليها في سورة القتال في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

ثم شرح الله حال هؤلاء أولئك السابقين، فقال: ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أكثر منهم عددًا، وكثرة العدد تُوجِبُ القوة بالكمية، وأشد منهم قوة هي القوة بالكيفية، ثم قال: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: من العمران، والقصور، وغيرها، ومع ذلك لم تنفعهم هذه الكثرة، ولا هذه القوة؛ يقول: [من مصانع، وقصور] هذه تفسير لقوله: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ما يحتمل أن تكون نافية؛ أي: فلم يُغنِ عنهم ما كسبوا، ويحتمل أن تكون استفهامية، والمعنى: فما الذي أغنى عنهم، والاستفهام هنا أشد وَقْعًا؛ لأنه مُشرَبٌ بالتحدي، أيُّ شيءٍ أغنى عنهم؟ الجواب: لا شيء.

وقوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا يكسبون من القوة، والآثار في الأرض، وغير ذلك؛ لأن الله - تعالى - دمَّرهم ودمَّر قوتهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ هذا الذي أتى بعد ذكر تدميرهم هو في الحقيقة عَودٌ إلى شرح ما حصل، فإن الله أرسل إليهم الرسل بالبيِّنات الواضحة، وأنزل الكتب، ولكن لما جاءتهم رسلهم بالبينات، قال المؤلف: [المعجزات الظاهرات]، والصواب أن يقول: الآيات البيِّنات، هو - رحمه الله - جعل البينات بمعنى: الظاهرات، وهذا حق، وجعل البينات صفةً لموصوف محذوف تقديره: المعجزات، وهذا فيه نظر؛ بل يُقدَّر: الآيات؛ وذلك لأن المعجزات لم ترِد في الكتاب والسنة محل الآيات أبدًا، وأيضًا المعجزات تكون من الرسل وغير الرسل، فالسحرة مثلًا: تأتي لهم الشياطين بالمعجزات، لكن الآيات؛ يعني: العلامات الدالة على صدقهم هذه أبلغ، ولهذا إذا وجدتم في الكتب: المعجزات أو معجزة الأنبياء، أو ما أشبه ذلك، فاضربوا عنها صَفْحًا، وقولوا بدلها: الآيات، كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - الآيات، والآيات أدقُّ من كلمة المعجزات؛ لأن المعجزات يدخل فيها ما يُعجِزُ البشر مما تصنعه الشياطين مع السحرة وغيرهم.

وقوله: ﴿فَرِحُواْ﴾ [أي: الكفار] ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ [أي: الرسل] ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [فرح استهزاء وضحك مُنكِرين لها]، قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ﴾ الواو فاعل، فمن الفارح؟ يقول: [أي: الكفار]، وهذا صحيحٌ، فَرِح الكفار بما عندهم من العلم، وقوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الضمير يعود على الرسل على حدِّ تفسير المؤلف، [بما عند الرسل] ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: بما جاءوا به من البيِّنات، لكن هل هذا الفرح فرح استبشار أو فرح استهزاء؟ يقول المؤلف: [إنه فرح استهزاء، وضحك]، وسخرية، ولكن هذا التفسير إذا تأمَّلته وجدتَه تحريفًا وليس تفسيرًا، لما فيه من البُعْد المعنوي واللفظي، أما البُعْد اللفظي؛ فلأن فيه تشتيت الضمائر؛ لأن قوله: ﴿فَرِحُواْ﴾ الواو للكفار ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ الهاء للرسل، هذا تشتيتٌ للضمائر، والهاء في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ إذا جعلنا الكلام نَسَقًا واحدًا لا شك أنها تعود على الكفار؛ أي: بما عند الكفار من العلم، وأما

المعنوي؛ فلأن الفرح في الأصل: استبشار، فإذا صرفناه عن معناه الظاهر إلى أن يكون فرح استهزاء كان هذا إخراجًا للمعنى عمَّا يدل عليه ظاهرُ اللفظ، والحاصل: أن هذا التفسير الذي ذكره المؤلف تفسيرٌ ضعيفٌ جدًّا؛ بل هو تحريف، والصواب: أن المعنى: فَرِحَ الكفار بما عندهم؛ أي: بما عند الكفار من العلم، وقالوا: نحنُ أعلم بما يُصلِحُنا وما يُصلِحُ دنيانا، وديننا الذي نحن عليه، فأنتم أيها الرسل سحرة مجانين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، وإذا كانوا يعتقدون بقلوبهم، أو يقولون بألسنتهم ما لا يعتقدون من أن الرسل سحرة مجانين، فإنهم لا شك سيجعلون ما عندهم من العلم هو العلم الحقيقي، فيفرحون به، وعلى هذا فنقول: الفرح هنا فرح بَطَر واستبشار فيما يظنُّون أنهم على علمٍ أعلى من علم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ويعجب الإنسان أحيانًا فيما يذهب إليه بعض العلماء من تفسير الآيات أو الأحاديث، الآن لو قرأت هذه الآية على إنسان عامِّي ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ فعلى أي شيء يتنزل الضمير في قوله: ﴿بِمَا عِندَهُم﴾ عند هذا العامي؟ على الكفار، والإنسان يفرح بما عنده لا بما عند غيره.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ حَاقَ يقول: [نزل]، لكنها - أعني: حاق - ليس كنزل من كل وجه؛ لأن نزل تكون بالخير والشر ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤]، هذا خير، لكن حاق لا تأتي إلا في الشر، فلا يقال: حاق به القرآن، أو حاق عليه القرآن كما يقال: نزل عليه، فحاق هنا بمعنى: نزل، لكنها لا تستعمل إلا في نزول الشر، وهو شرٌّ بالنسبة لمن نزل به، وقد يكون خيرًا بالنسبة لغيره.

وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ فاعل حاق ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يعني: فيما سبق؛ أي: أنه لما جاءهم رسول الله - عَزَّ وَجَلَّ - ونزل بهم، حاق بهم ما كانوا به يستهزئون فيما سبق؛ حيث كانوا يستهزئون بالرسل، وبما جاءوا به، وبالشرائع؛ بل ربما يستهزئون بالله - عَزَّ وَجَلَّ -، انظر إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، يتبيَّن لك أن الكفار يستهزئون بالله، ويستهزئون بآيات الله، ويستهزئون بالرسل، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: العذاب؛ يعني: حاق بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به حين توعَّدَتهم الرسل به، فجعلوا يستهزئون، يقولون: أين العذاب الذي تقولون؟ يستفهمون استهزاءً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [أي: شدة عذابنا] ﴿رَأَوۡاْ﴾ بمعنى: بأبصارهم؛ يعني: رأوا رؤيا العين، والبأس أشد العذاب، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ أي: دون شركائنا ودون ما كنا نعبدهم، وهذا غاية الإخلاص، ثم أكَّدوا هذا بقولهم: ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ بما الباء حرف جر متعلقة بـ ﴿وَكَفَرۡنَا﴾، وبه يحتمل أن تكون للسببية؛ أي: بما كنا بسببه مشركين، وأن تكون متعلِّقة بمشركين تعلُّق الجار بعامله، المعنى: أنهم لما رأوا عذاب الله آمنوا، ولكن هل ينفعهم هذا

الإيمان؟ لا، إنَّ فرعون لما غرق وأدركه الغرق ماذا قال؟ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن ماذا قيل له؟ قيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١]، يعني: أتؤمن الآن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فلم ينفعه إيمانه، وقال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨]، هذا لا تنفعه التوبة؛ لأنه رأى وشاهد ما كان غَيْبًا يكفر به، والإيمان عن مُشاهدة لا يفيد؛ لأن كل إنسان يؤمن بما يشاهَد ولو كان أكفر الناس، وإنما الذي يُحمَد عليه الإنسان، وينجيه من عذاب الله أن يؤمن بالغيب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ لم يك أصلها: لم يكن، لكن حُذِفت النون تخفيفًا، وقد جاء الحذف والإبقاء في آيتين من كتاب الله، فقال تعالى في إبراهيم: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهي جملة واحدة حُذِفت فيها النون وأُبقِيت، وهذا الحذف تخفيف وله شروط معروفة في النحو.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ إيمان هل تُعرَب على أنها اسم يكن مؤخَّرًا، أو على أنها فاعل ينفع واسمها مستتر؟ الثاني، والتقدير على هذا: فلم يك إيمانهم ينفعهم، أما على الأول: فلم يك ينفعهم إيمانهم، فيكون اسمها ـ اسم يكن ـ محذوفًا ضمير الشأن، وقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ لمَّا هنا ظرف بمعنى: حين، واعلم أن (لمَّا) تأتي في اللغة العربية على أوجه: الوجه الأول: أن تكون ظرفًا بمعنى: حين، كما في هذه الآية، فإن معنى ﴿لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ أي: حين رأوا بأسنا، والوجه الثاني: جازمة؛ مثل قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، والوجه الثالث: تأتي شرطية، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، الوجه الرابع: تأتي بمعنى: إلَّا، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وكذلك قوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]، الوجهُ الخامس: تأتي بمعنى النفي، كما في قوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾[ص: ٨]، لكن الفرق بينها وبين لم: أنَّ (لمَّا) تفيد قُرْب مدخولها، ﴿لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ولكن سيذوقونه قريبًا، بخلاف لم فتأتي للنفي المطلق.

وقوله: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ سُنَّة يقول المُفسِّر: [نصْبُهُ على المصدر بفعلٍ مُقدَّرٍ من لفظه] سنة بمعنى: طريقة؛ أي: هذه طريقة الله، وسُنَّة في مثل هذا التركيب يجوز أنْ تكون مرفوعة؛ أي: سنةُ الله على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه سنة الله، ويجوز أن تكون منصوبة، والمؤلف يقول: إنها منصوبة بفعلٍ مقدرٍ من لفظه؛ أي: سنَّ الله بهم سنَّته، ويجوز أن تكون مصدرًا عامله محذوف، لكنه مُقدَّر من الجملة التي قبله؛ لأن هذه العبارة بمعنى ما قبلها تمامًا؛ يعني: سنة الله بمعنى ما قبلها، وهي: أَخْذُ المُكذِّبين بالعذاب، فتكون منصوبةً بمضمون الجملة لا بفعلٍ مُقدَّر، وما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ وجه لا شك فيه، والمهم: أن السنة بمعنى: الطريقة،

فما هي طريقة الله؟ طريقة الله - تعالى - هي: إهلاك المُكذِّبين وتعذيبهم، وأنهم لو آمنوا بعد نزول العذاب لم ينفعهم.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [في الأمم ألَّا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب] هذه واحدة، والثانية: أن يُعذِّب المُكذِّبين، فالسنة التي استفدناها من هذه الآية شيئان: أولًا: إهلاك المُكذِّبين، والثاني: أنه لا ينفعهم إيمانهم إذا رأوا العذاب، قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ خسر فسَّرها المؤلف بمعنى: [تبيَّن خُسرانهم لكل أحد، وهم خاسرون في كل وقت قبل ذلك] ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ معلوم أن ﴿هُنَالِكَ﴾ ظرف مكان، هذا هو الأصل، فهي اسم إشارة إلى المكان، وقد تُستعار اسم إشارة للزمان، فتقول: هنالك؛ أي: في ذلك الوقت، ومنه: هذه الآية، الآن إذا قلت: فلان هناك هذا ظرف مكان، وهذا هو الأصل، ولو قلت مثلًا: قَدِم فلانٌ هناك، تشير إلى الوقت، صارت إشارة للزمان.

لكن هذا خلاف الأصل بقي علينا أن يقال: خسر في ذلك الوقت الكافرون، أليس الكافرون خاسرين في كل وقت؟ بلى، لكن تبيَّن خسرانهم وظهر؛ لأنهم كانوا قبل أن ينزل عليهم العذاب يظُنُّون أنهم رابحون، ولهذا فرِحوا بما عندهم من العلم، لكن إذا نزل بهم العذاب ظهر لهم الخسران.

الفوائد

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

١ - من فوائد الآية الكريمة: الحثُّ على النظر في أحوال الأمم السابقة، من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وجه الدلالة: أن الله وبَّخهم على عدم السير.

٢ - ومن فوائدها أيضًا: أن السير في الأرض بالقدم إذا لم يصحَبْه النظر والاعتبار فإنه لا ينفع، لقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟﴾.

ويتفرَّع على هذا: ما يفعله كثيرٌ من الناس اليوم من السير إلى ديار ثمود؛ حيث يسيرون بأبدانهم، لكن لا يسيرون بقلوبهم ولا يعتبرون؛ بل يذهبون إلى هنالك للاطِّلاع على مآثر القوم؛ بل على آثار القوم الدالة على قوتهم، وهذا لا يجوز، الواجب على من سار إلى تلك الديار أن يدخلها وهو باكٍ، لقول النبي ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»[1]، ولا ينفع التباكي، لقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوهَا»، ولم يقل: فتباكَوا، إذن من لم يُوطِّن نفسه على هذا الوصف الذي رخَّص فيه النبي ﷺ للدخول في ديار ثمود فإنه لا يجوز أن يدخل، وغالب الناس الذين يذهبون الآن إنما يذهبون للفُرْجة والنزهة فقط، وهذا حرام.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن من الأمم من هو أشدُّ قوةً وآثارًا مما كانت عليه قريش، لقوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن الله - تعالى - لا يُعجِزُه قوة العدو، ولا كثرة العدو، فإن الله - تعالى - أهلكهم مع كثرتهم وقوتهم، وهل الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا أراد إهلاكهم يكون إهلاكهم مُمتدًا لمدةٍ من الزمن حتى يقضي عليهم؟ لا، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، المُحتظِر يعني: الذي أحاط أرضه بحِظار، والحِظار: مركب من أعواد خفيفة، أو من سعف النخل، وتأكله الشمس والهواء بسرعة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن قوة الإنسان وكثرة عدده لا تغني عنه شيئًا من عذاب الله، لقول الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُوا۟ يَكۡسِبُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الله - سبحانه وتعالى - أرسل الرسل بالآيات البيِّنات الدالة على صدقهم.

ويتفرَّع على هذا فائدتان أو أكثر، وهما: رحمة الله بعباده، وحكمة الله - تعالى - في فعله، أما رحمة الله بعباده: فلأن الله - تعالى - لو أرسل إليهم رسلًا بدون آيات لكان في ذلك تكليفٌ بما لا يُطاق؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يُصدِّق برسولٍ بدون آيات تدلُّ على صدقه، وإلا لأمكن كل كاذب أن يقول: إنه رسول، وأما الحكمة فظاهرة: أن الله - سبحانه وتعالى - لما أرسل الرسل لم يتركهم هملًا؛ بل أعطاهم ما على مثله يؤمن البشر، كما أخبر بذلك نبيُّنا ﷺ أن الله ما بعث رسولًا إلا آتاه ما يؤمن على مثله البشر، والذي أُوتِيَه الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو: الوحي القرآن، ولهذا قال: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1]؛ لأن القرآن آية باقية إلى يوم القيامة، أو إلى أن يأذن الله - تعالى - بانتهاء العالم، أما آيات الرسل فغالبها تنقضي في زمانهم، لكن آية الرسول باقية.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن آيات الرسل بيِّنة لا تحتمل الشك، لقوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

ويتفرَّع على ذلك: أنه ينبغي للعالم الذي ينشر شريعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا نشرها بين الناس أن يكون نشرُه إيَّاهَا على وجهٍ بيِّنٍ لا اشتباه فيه؛ لماذا؟ أولًا: اقتداءً بالرسل، وثانيًا: ليزداد المُخاطَب طمأنينة؛ لأن الطمأنينة لها أثر في قبول ما يُلقَى، وفي القيام به، فإن الإنسان إذا لم يُبيَّن له الحق على وجهٍ تحصُلُ به الطمأنينة تجده يمشي أو يأخذ بالحق وهو متردِّد، لكن إذا زِيدَ طمأنينة انتفع

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (٢٣٩/ ١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بذلك.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية:** بيان حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - ورحمته؛ وذلك أنه جعل الآيات التي تأتي بها الرسل آيات بيِّنَاتٍ حتى لا تبقى حُجَّة.

٤ - **ومن فوائدها:** أن الكفار يفخرون بما عندهم من العلم، ولو كان باطلًا، لقوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾، وهذا وإن كان فيما سبق موجودٌ الآن، فإن بعض أولئك القوم الذين آتاهم الله من علم الدنيا ما آتاهم تجدهم يفرحون بها، ويقولون: هي خيرٌ من علم أولئك المُقوقِعين على أنفسهم، ويعنون بهم: علماء الشريعة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير البالغ من ردِّ ما جاءت به الرسل، لقوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآيات:** أن أولئك القوم المُكذِّبين للرسل إذا رأوا العذاب قالوا: آمنا، والمثال على ذلك: فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين يُؤمِنُون بعد أن نزل بهم العذاب لا يستفيدون من إيمانهم شيئًا، لقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

٣ - **ومن فوائدها أيضًا:** أن سنة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في العباد واحدة، فإنه لا يُحابي أحدًا لغِناه أو لفقره، أو لغير ذلك؛ بل إن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، لقوله: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** التحذير من تكذيب الرسل، وأن من كذَّب الرسل فإنه سينالُهُ ما نالَهم من العذاب؛ أي: ما نال الأمم السابقة من العذاب.

٥ - **ومن فوائدها أيضًا:** ظهور الخُسْران لهؤلاء المُكذِّبين قبل أن يموتوا، لقوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: حين جاءهم البأس تبيَّن لهم الخسران ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة غافر



تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ

تفسير سورة فصلت

بسم الله الرحمن الرحيم

❁ **قال الله تعالى:**

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟
قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ
وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١ـ٥]

❁ التفسير ❁

البسملة: تقدم الكلام عليها كثيرة وبينًا أنها آية من كتاب الله، ولكنها ليست آية تابعة للسورة التي بعدها أو السورة التي قبلها، بل هي آية يؤتى بها لابتداء السور ما عدا سورة براءة، أما معناها: فإن الإنسان يقول: أبتدأ بكل اسم من أسماء الله. وإنما جعلنا المعنى بكل اسم من أسماء الله، لأن اسم مفرد مضاف، والمفرد المضاف يفيد العموم، كل مفرد مضاف إلى معرفة فإنه يفيد العموم.

ألم ترو إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، نعمة الله لو نظرنا إلى لفظها لقلنا: إنها واحدة، لكنها كثيرة لا تحصى، فيكون هذا المفرد الذي أضيف، يكون للعموم، وهذه هي القاعدة: كل مفرد مضاف إلى معرفة فإنه يفيد العموم.

ولهذا قلنا بكل اسم من أسماء الله.

والرحمن الرحيم: صفتان للفظ الجلالة لكن الأولى روعي فيها الوصف والثانية روعي فيها

الفعل.

وهو إيصال الرحمة، أما متعلق هذا الجار والمجرور، فإنه محذوف ويقدر مؤخرًا مناسبًا للمقام، فإذا كنت تريد أن تقرأ فقلت بسم الله الرحمن الرحيم، قدِّر (أقرأُ)، وإنما أختير ذلك، أي أختير أن يكون فعلا، لأن الأصل في العمل الأفعال، ولهذا يعمل الفعل بلا شرط.

والأسماء التي تعمل عمل الفعل لا بد لها من شروط، كما هو معروف في علم النحو.

وإنما اخترنا أن يكون متأخرًا، لفائدتين:

الفائدة الأولى: تيمُّنًا بذكر اسم الله.

الفائدة الثانية: إرادة الحصر. لأنه إذا تأخر العامل كان ذلك حصرًا، فإذا قلت. زيدًا أكرم. المعنى: لا تكرم غيره. ولكن إذا قلت أكرم زيدا: لم يمتنع عن تكريم غيره. إذَنْ أَخَّرناه لفائدتين. **الفائدة الأولى**: تيمنًا بذكر اسم الله عز وجل. والفائدة الثانية: إفادة الحصر.

وقدرناه مناسبًا، لأنه أبين للمقصود، فلو قال قائل: بسم الله أبتدأ، قلنا صحيح، لكن لا تبين المراد مثل ما تبينه بقولك: بسم الله أقرأ، وذلك لأن الابتداء يكون للقراءة ولغير القراءة، فلهذا اختير أن يكون مناسبًا للمقام.

والخلاصة الآن: أين متعلق الجار والمجرور؟ نقول هو محذوف، فعل متأخر مناسب للمقام.

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ وقال المفسر: [الله أعلم بمراده به].

وهذا هو الأدب مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أن الذي لا تعرف معناه، قل: الله أعلم بمراده به. كقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ولكن قد يقول قائل: إننا نعلم أنه لا معنى لهذه الحروف الهجائية التي توجد في كثير من السور، ولكننا نعلم ذلك لأنه بدلالة القرآن فقد قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥] واللسان العربي، لا يكون التعبير بمثل هذه الحروف له معنى في حد ذاته. لو قلت: ألف باء جيم حاء خاء، فهذه ما لها معنىً، فإذا لم يكن لها معنى بمقتضى اللسان العربي، قلنا: إن قوله: ﴿حمٓ﴾، و﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓمٓرٰ﴾ ليس لها معنى في حد ذاته، يرد على هذا إذا لم يكن لها معنى صارت لغوًا، وكلام الله تعالى لا لغوَ فيه، فيقال إنها ليست لغوًا، وإنما المراد إقامة الحجة على هؤلاء المشركين، حيث عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن ولو بآية واحدة، مع أن هذا القرآن هل أتى بحروف لا يعرفونها حتى يعتذروا ويقولوا: إنه جاء بحروف ليست معروفة لنا؟

الجواب: لا القرآن جاء بحروف يعرفونها، قال شيخ الإسلام رحمه الله: ولذلك لا تكاد ترى سورة من القرآن مبدوءة بهذه الحروف إلا وبعدها ذكر القرآن، وابدأ من سورة البقرة إلى أن تأتي إلى آخر السور المبدوءة بهذه الحروف. تجد أن بعدها ذكر القرآن، إشارة إلى أن هذا القرآن الذي

أعجزكم معشر العرب كان من هذه الحروف التي تكونون منها كلامكم، وهذا الذي ذهب إليه شيخ الإسلام رحمه الله واضح جدًّا.

وأن القول بأنه ليس لها معنى: فقد قاله مجاهد بن جبر أعلم التابعين بكتاب الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾

قال المؤلف رحمه الله: [﴿تَنزِيلٌ﴾ مبتدأ]، كتاب خبره، ولو قيل بالعكس لكان أوضح، لو قيل: (كتاب فصلت آياته تنزيل من الرحمن الرحيم)؛ لأنه يخبر بالمعنى عن الذات ولا يخبر بالذات عن المعنى، هذا الأصل، زيد قائم، فقائم خبر ولا تقول زيد خبر. لكن ما ذهب إليه المؤلف من الإعراب له وجه.

ليس باطلًا، لكن لو قيل إن تنزيل هو الخبر مقدم وكتاب مبتدأ مؤخر لكان أوضح وأبين.

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعني به: الرب عز وجل، أي تنزيل من الله الرحمن الرحيم، لكنه أتى بهذين الاسمين الكريمين إشارة إلى أن القرآن رحمة، لأن إنزاله من مقتضى رحمة الله عز وجل، أليس من الممكن أن يقال تنزيل من الله؟ نعم كما جاء في آيات أخرى، لكنه قال من الرحمن الرحيم، إشارة إلى أن هذا القرآن نزل بمقتضى رحمة الله عز وجل، وأن الله رحم به العباد، والرحمن الرحيم اسمان من أسماء الله، من أشرف أسماء الله عز وجل، ويأتيان مقترنين، ويأتيان منفصلين بعضهما عن بعض، فإن فصلًا فكل واحد متضمن معنى الآخر، فقوله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] هذا منفرد عن الرحيم، فيتضمن الصفة والفعل، أي أن الله تعالى موصوف بالرحمة الواسعة، وهو سبحانه وتعالى يرحم بهذه الرحمة من شاء من عباده، وفي قوله ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أيضًا نقول الرحيم هنا تشمل الوصف والفعل، لأنها انفردت عن الرحمن، أما إذا اجتمع الرحمن والرحيم، كانت الرحمن للصفة والرحيم للفعل، ولهذا جاءت الرحمن على وزن فعلان، وهذا الوزن في اللغة العربية يقتضي الامتلاء وتمام الوصف الذي كان مراده.

فمثلًا يقال: غضبان، لمن امتلأ غضبًا، ويقال غاضب لمن كان غضبه خفيفًا، وكذلك سكران للمتلئ سكرًا.

فكل هذا الوزن يفيد الامتلاء والسعة.

أما الرحيم غلب فيها جانب الفعل، أي إيصال الرحمة إلى المرحوم، ولهذا جاءت في القرآن: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: قد وصلت رحمته بالمؤمنين على وجه مطلق، أما غير المؤمنين فإنه يرحمهم بالمعنى العام.

خلاصة ما قلنا في: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قلنا: إما أن يذكر الرحمن مع الرحيم، أو يفرد أحدهما عن الآخر، فإن أفرد أحدهما عن الآخر تضمن الثاني، وإن ذكرا جميعًا غلب في الرحمن جانب الصفة وفي الرحيم جانب الفعل، واعلم أن

هذين الاسمين الكريمين يدلان على أن الله تعالى موصوف بالرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، فالرحمة صفته والرحيم اسمه، وهل هذا الاسم مما يتعدى أو من المصادر اللازمة؟ يتعدى، لقوله تعالى ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١] والقاعدة في العقيدة: أنه إذا كان الاسم لازمًا لا يتعدى فإنه يتضمن أمرين: إثبات الاسم وإثبات الصفة، وإذا كان يتعدى يتضمن ثلاثة أشياء: إثبات الاسم وإثبات الصفة وإثبات الفعل.

فكلمة العظيم: اسم من أسماء الله اللازم، ولهذا يقال عظم: أي صار عظيمًا، الإيمان به يتضمن الإيمان بالعظيم على أنه اسم من أسماء الله، ويتضمن أيضًا ثبوت العظمة لله عز وجل، الرحمن يتضمن ثلاثة أشياء: يتضمن الرحمن اسم من أسماء الله، والثاني: الرحمة صفة من صفاته، والثالث: الفعل أي أنه يرحم من يشاء.

وعلى هذا فقس. الإيمان بالأسماء، نقول: إن كان متعديًا لزم أن تؤمن بالاسم والصفة والفعل، وإن كانت لازمة وجب أن تؤمن بالاسم والصفة.

قوله: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، كتاب: فعال بمعنى مفعول، أي مكتوب، وبماذا هو مكتوب؟ نقول مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، مكتوب بالصحف التي بأيدينا.

أما الأول: فدليله قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢].

وأما الثاني: فدليله قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٢ - ١٦].

وأما الثالث: فواضح فكل ما جاء من كتاب فهو يتضمن هذه المعاني الثلاثة، كتاب أي مكتوب في اللوح المحفوظ، في الصحف التي بأيدي الملائكة، في الصحف التي بأيدينا.

وقوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [بُيِّنت بالأحكام والقصص والمواعظ]. التفصيل ضد الإجمال، يعني آيات القرآن مفصلة، لكنها تأتي أحيانا مجملة وتأتي أحيانا مفصلة، وإذا فصل المجمل صار جميعًا مفصلًا.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ جمع آية، والآية في القرآن هي كل ما فصل بينها وبين ما سبقها ولحقها بفاصل، ولهذا تسمعون كلام العلماء يقولون: فواصل الآيات: يعني الأماكن التي يفصل فيها الآية عما قبلها وعما بعدها. وهي - أعني الآيات الكريمة - منها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير، ومنها ما هو متوسط. فأطول آية في كتاب الله آية الدين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وأقصر آية: ﴿طه﴾ ولكنها من الحروف التي ليس لها معنى. ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: ٢١]، وقوله: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤] أيهما أكثر حروفًا؟ ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ستة أحرف، وقوله:

﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ثمانية حروف؛ إذن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أقصر آية في كتاب الله، وعددها حروفها ستة أحرف. والباقي متوسط، منه ما يميل إلى الطول ومنه ما يميل إلى القصر. والسنة في الآيات أن تقرأها حسب ما فصلت. فتقرأ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالآيات سبع تقرأ هكذا مفصلًا وإن أدرجت فلا بأس، لأنه لم يرد النهي عن ذلك، إلا أنه لا ينبغي للإنسان أن يهذَّ القرآن هذًّا تخفى معه الحروف، بل قد يحرم عليه إذا لزم أن تخفى بعض الحروف، أم الهد الذي يستكمل فيه الإنسان الحروف فلا بأس، لكن الأفضل الوقوف على كل آية.

مسألة: هل تقف على قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]؟

الجواب: يقف، لأنها آية، ولأن الله عز وجل هو الذي أنزلها، وجعل هذه الآية منفصلة عن الأخرى، وربما يكون في الوقوف على الآية، كيف ويل للمصلين؟ فيترقب المعنى الذي يوضح ذلك. تقول ويل للمصلين. سيندهش السامع. كيف ويل للمصلين؟ فسيترقب بشغف المعنى المبين لهذا. فتأتي ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، كأنها مطر على أرض قاحلة، أليس كذلك. إذنْ نقف على هذا ولا مانع. أما (لا تقربوا الصلاة)، فهذه لا نقف. والسبب: لأنها ليست رأس آية. بل نقول ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، إذنْ ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ يشمل التفصيل اللفظي والمعنوي، فالتفصيل اللفظي أن الله جعل كل آية مستقلة عن الأخرى، مفصول بعضها عن بعض. والمعنوي التبيين والأيضّاح لما كان مجملا، ولهذا أشار المؤلف رحمه الله، إلى التفصيل المعنوي فقط، فقال: [بينت بالأحكام والقصص والمواعظ]، لكن طبعا يقال: إنه فصلت من وجهيْن، لفظي ومعنوي، فاللفظي أن كل آية فصلت عن الأخرى، والمعنوي: أنها بينت وبيِّن ما أجمل منها سواء من الأحكام أو غيرها.

فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ هذا مجمل فصلها بقوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٣] هذا مجمل فصلها بقوله ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، فالتفصيل هنا، أي التفصيل المعنوي، يعني بيان القرآن، أنه بيِّن وواضح، حتى ولو جاء مجملًا فلابد أن يُبيَّن.

وقوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [حال من كتاب بصفته]، مفسر الجلالين رحمه الله يعني جيد جدًا: قال إن قرآنًا حال. فكأن إنسانًا أورد عليه: كيف تقول إنه قرآن؟ والحال وصف، والقرآن ليس وصف، فقال بصفته، أين صفته؟ عربيًّا، يعني قرآنًا عربيًّا. يعني لو كانت الآية الكريمة. قرآنا فقط، ما صح أن تكون حالًا، لأن الحال لا بد أن تكون مشتقة. اسم فاعل أو اسم مفعول أو ما

أشبه ذلك، والقرآن غير مشتق، فلهذا قال: إنها حال من كتاب بصفته. إذنْ بصفته عائد على قرآن. كأنه قال: صحَّ أن يكون حالًا لأنه موصوف.

فإذا قال قائل: كيف تجعلونه حالًا من كتاب وكتاب نكرة وصاحب الحال لا بد أن يكون معرفة؟

قلنا: إن هذه النكرة خصصت في قوله ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ خصصت بالصفة، والنكرة إذا خصصت صارت قريبة من المعرفة، فلذلك جاز وقوع الحال منها. فلدينا إشكالين. الإشكال الأول: كيف جاءت الحال من كتاب وهو نكرة؟ ذلك بأن الكتاب والذي هو نكرة وصف بأنه فصلت آياته وإذا وصفت النكرة جازت أن يكون الحال منها.

الإشكال الثاني: الحال قرآنًا عربيًا. إذا أعربنا (قرآنًا) حالًا، فكيف صحَّ أن يكون حالًا وليس بمشتق؟ لأنه موصوف بالمشتق ولذلك جازت الحال منها. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كلمة قرآن على وزنه فُعْلَان، كَشُكْرَان وَغُفْرَان، وما أشبه ذلك. فهل هو بمعنى قارئ؟ أو بمعنى مقروء؟ قيل: إنه بمعنى مقروء، ومقروء هل هو من الجمع أو من التلاوة؟ قيل: إنه من قرا يقري. بمعنى جمع، ومنه اسم القرية، لأنها جامعة للناس، وقيل من قرأ بمعنى تلا. والصواب أنه جائز أن يكون من هذا ومن هذا. لأنه ما دام اللفظ صالح للمعنيين ولا منافاة بينهما. فإنه يحمل عليهما جميعًا، هذا إذا قلنا قرآنا بمعنى مقروء. ويجوز أن تكون بمعنى اسم الفاعل قارئ، قرآن بمعنى قارئ، أي: جامع للأحكام والتوحيد وغير ذلك. أما عربيًّا، فهو نسبة للعرب، لأنه جاء بلغتهم. والله أعلم.

مسألة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قرأتم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرأوا ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إنها أم القرآن و أم الكتاب و السبع المثاني و ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحدى آياتها»(١).

الجواب: الحديث هذا ليس بصحيح. ويدل على ذلك حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح «أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْن - يعني الفاتحة- فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال: حَمَدَنِي عَبْدِي....»(٢) فبدأ بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: أن الرسول ﷺ كان لا يجهر بها على في الصلاة الجهرية على القول الراجح. ولو كانت من الفاتحة لجهر بها كما يجهر ببقية الآيات.

ثالثًا: أن بقية سور القرآن ليس البسملة منها، فنحتاج إلى دليل قوي يبين أنها من الفاتحة.

رابعًا: أن قوله تعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ». هي نصف في السياق ونصف في المعنى، ولا يتم ذلك إذا جعلنا البسملة منها. استمع: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٢/ برقم:٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٢٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨/ ٣٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا لله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هذه ثلاث آيات، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ للعبد ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ للعبد ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ للعبد، إذًا ثلاث وثلاث، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ صارت بينهما، كما جاء في الحديث، «هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ» فصار ثلاث آيات ونصف منها لله، وثلاث آيات ونصف منها للعبد.

ولو قلنا: إن البسملة منها لما استقام هذا.

خامسًا: أنك إذا جعلت البسملة منها صارت الآية الأخيرة طويلة، لا تتناسب مع ما قبلها، لأن ستكون الآية الأخيرة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذا لا تتناسب مع قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾. أو ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ فهو خلاف البلاغة، فصار عندنا أربعة أوجه كلها تدل على أن البسملة ليست من الفاتحة.

مسألة: إذا مر معنا أحد بعينه من المهلكين. هل يحسن بالإنسان أن يلحقه بسب، كما نلحق أحدًا من الصالحين برحمة؟

الجواب: لا بأس، إذا مثلًا تقول (فرعون لعنه الله)، ما في مانع.

مسألة: هل هناك مانع أو يستحب سب الهالكين؟

الجواب: لا الاستحباب هذا نتوقف فيه، يقول رسول الله ﷺ «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُم أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا»[(١)].

مسألة: إذنْ حديث «لَيسَ الْمُؤْمِنُ بِاللَّعَّانِ»[(٢)] يترك هذا الشيء، أي لا يلعن أحدًا؟

الجواب: اللعان للأحياء، أما هذا لعنته؛ لأن الله لعنه.

مسألة: حول معاني أسماء الله (الرحمن، الرحيم).

الجواب: فسر العلماء بأن الرحمن هي رحمة خاصة، والرحيم رحمة عامة، ولكن ما ذكرناه أحسن، ولقد نبه عليه ابن القيم في (بدائع الفوائد).

مسألة: حول الاستشهاد بالقرآن، والكلام به أي: جعل القرآن بدل عن الكلام؟

الجواب: الاستشهاد بالقرآن لا بأس به، أما أن تجعل القرآن بدل عن الكلام فهذا حرام. ولهذا ذكر صاحب جواهر الأدب قصةً عَنْوَنَهَا بقوله: (المتكلمة بالقرآن الكريم بدلًا عن الكلام) وأحضر قصة امرأة تخاطب أولادها بالقرآن. إذا أرادوا الغداء قالت (آتنا غداءنا)، وإذا أمرتهم أن يشتروا حاجة من السوق قالت: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الكهف:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٧٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

١٩] وأشبه ذلك. ثم قال في آخر القصة. هذه امرأة لها كذا من السنين تتكلم بالقرآن مخافة أن تزل فيغضب عليها الرحمن. فالواقع أنها زلت تماما، لأنها تجعل آيات القرآن الكريم تنزلها على أغراضها الخاصة فهذا لا يجوز، أما الاستشهاد بالقرآن مثل أن ترى رجل مفتون في الدنيا فتقول: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٤٦] هذا لا بأس به، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ حينما رأى الحسن والحسين يعثران في ثوبهما جديد لهما. نزل وأخذهما وقال صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(1) [التغابن: ١٥].

ثم قال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفة، لقوم يعلمون يفهمون ذلك وهم العرب، يعني أن الله جعله قرآن عربيا لقوم يعلمونه ويفهمونه ولا حجة لهم في معارضته والكفر به؛ لأنهم يعلمونه، كما قال تعالى في آيات أخرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تفهمون معناه حيث جاء بلسان عربي مبين، أي: لأنه جاء بألفاظ العرب.

قوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ يعني جعلناه قرآنا عربيًّا، ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، بشير لمن آمن به كما قال تعالى ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢] صفة ﴿قُرْءَانًا﴾ ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر به وإن شئت فقل: إنه نذير لجميع العالمين كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، المهم أن البشارة خاصة، والنذارة عامة، وربما يكون خاصًا، كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] يعني: الذين كفروا به، فصارت البشير خاصة بمن آمن، والنذير تكون عامة وتكون خاصة، فالبشير المخبر بما يسر، وسمي خبره بشارة؛ لأن أثره يظهر على بشرة الإنسان، ولهذا تبرق أسارير وجهه من الفرح، ونذيرًا هو الإعلام المقرون بالتخويف.

قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (فأعرض أكثرهم)، الفاء عطف، و(أعرض) معطوفة على فصلت، يعني كتاب فصلت آياته ومع ذلك أعرض أكثره، ويحتمل أن تكون الفاء للإستئناف، أي أنها جملة مستأنفة، لا تعطف على ما قبلها، أعرض أكثرهم، أي أكثر الذين بلغهم فهم لا يسمعون سماع قبول، هذا نتيجة الإعراض، أنهم صاروا لا يسمعون، ونفي السماع عنهم، لانتفاء فائدته، وهو الاتعاظ والقبول، واعلم أن السمع ينفى تارة لعدم أصله، وتارة لعدم ثمرته، فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] فهذا النفي لأصله؛ لأن الميت لا يسمع، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] وهذا لانتفاء ثمرته، لأن السمع الذي لا ثمر له كالمعدوم. وقالوا: معطوفة على ﴿فَأَعْرَضَ﴾.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١١٠٩) من حديث بريدة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

ثم قال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾ [أغطية] ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾، هذا وليعاذ بالله من شدة عنادهم وكفرهم.

قالوا للنبي ﷺ وهو يدعوهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ كقوله ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: ٨٨] والأكنة جمع كن، وهو ما يستتر به، وقوله: ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ أي من التوحيد والطاعة والشهادة لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة، وإنما ذكروا القلوب وبدأوا بها؛ لأنها محل الوعي، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [ثقل]، يعني أننا لا نسمع، يعني أننا نستمع إليك في كراهة وبغض، فكأن في أذاننا ثقل سمع، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ أي: حائل يحول بيننا وبينك فلا نراك، فأتوا على كل مدارك الإحاطة.

المدرك الأول: القلب، والثاني: السمع، والثالث: البصر. وانتفاء البصر عنهم، لقوله: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾، وقد جمع الله تعالى بين هذه الثلاثة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وتأمل قولهم: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ لم يقولوا: وبيننا وبينك حجاب، إشارة إلى أن هذا الحجاب ممتد من عندنا إليك، وعلى هذا فكل ما تباعدنا عنك غلظ هذا الحجاب. لأنه إذا كان ابتداؤه من عندهم إلى الرسول، صار كلما زادت المسافة ازداد غلظه، لأن (من) هنا للابتداء فتفيد أن هذا الحجاب مباشر منهم إلى الرسول ﷺ لكن لو قالوا وبيننا وبينك حجاب، لأمكن أن يكون الحجاب في الوسط ولو كان بينهم وبينه مسافة، وهذا يدل على غلظ ما بينهم وبين الرسول ﷺ وبعده. ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ هذا - واليعاذ بالله - تحدي للرسول ﷺ فيما يظهر وليس من باب الإباحة ولكنه من باب التحدي. فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا. ويحتمل اعمل لمجاهدتنا فإننا عاملون لمجاهدتك. والثاني: أبلغ من الأول، كأنهم يقولون اعمل ونحن سنعمل وسنرى من الذي يغلب.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآيات:** أن نزول القرآن من عند الله لقوله ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٢ - **ومنها:** أن إنزال القرآن من آثار رحمة الله حيث قال: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

٣ - **ومنها:** إثبات اسمين من أسماء الله هما: (الرحمن، الرحيم).

٤ - **ومنها:** إثبات ما دل عليه هذان الاسمان من صفة الرحمة. وقد ذكرنا عند التفسير أن أهل التعطيل نفوا أن يكون لله رحمة. وقلنا: إنهم يفسرون الرحمة إما بالإحسان والثواب وهو منفصل، وإما بإرادة الإحسان والثواب، لأنهم كانوا يقرون بالإرادة. وبينا بطلان هذا القول، وقلنا: إن الرحمة من صفات الله عز وجل، ولكن ليست كرحمة المخلوق.

٥ - **ومنها:** أن القرآن فصلت آياته، والتفصيل لعلنا قلنا: إنه تفصيل لفظي ومعنوي، والتفصيل اللفظي بالفواصل بين الآيات، والتفصيل المعنوي، التفصيل في المعنى، إذا ذكر الله أمرًا

ذكر نهيًا، وإذا ذكر ثوابًا ذكر عقابًا، وإذا ذكر أهل الخير ذكر أهل الشر.

٦- **ومنها:** أن القرآن كل آية منه تعتبر آية على صدق الرسول، لقوله ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وآياته جمع، تعم كل فرد على حدة ويعم المجموع.

٧- **ومنها:** أن القرآن نزل باللغة العربية، ففيه منقبة للعرب؛ لأن هذا القرآن نزل بلغتهم، وفيه إحياء للغة العربية، لأن هذا القرآن سيبقى إلى أن يأذن الله بخراب العالم، ومن المعلوم أنه إذا بقي بلسان العربي، فإنه ستحيا اللغة العربية وتبقى. وهذا من آثار القرآن.

٨- **ومنها:** أنه لا يفقه هذا القرآن ولو كان باللغة العربية إلا ذوو العلم، لقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أما من ليس من أهل العلم فإنه لا يستفيد من هذا الكتاب شيئًا، لأنه أمي، والذي يقرأ القرآن بلا فهم للمعنى فهو أمي وإن تلاه. لقوله الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾. فالذي لا يعلم القرآن إلا قراءة فقط كالذي لا يقرأ القرآن، ولا فرق.

٩- **ومنها:** أن القرآن فيه البشارة والنذارة، لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ولكن المسألة هل هذا موزع أم يمكن أن يكون بشيرًا ونذيرًا في آن واحد؟ **الجواب:** يمكن هذا وهذا. أما على الأول بشيرًا ونذيرًا فإننا نجد من آياته ما هو بشارة للمؤمنين ونجد من آياته ما هو إنذار، وأما الثاني: فإن الآية الواحدة قد ينتفع بها أقوام ويتضرر بها آخرون. اقرأوا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] ولا تستغرب أن يكون الشيء الواحد ضارًا من وجه ونافعًا من وجه آخر، فالقرآن نافع للمؤمنين ضار لغير المؤمنين، ولا تستغرب هذا، وأضرب لك مثلًا حسيًا. فالتمر حلو المذاق فاكهة غذاء وقوت. يأكلها واحد فيتضرر به، ويأكله آخر فينمو به، مع أنه شيء واحد، هكذا القرآن.

١٠- **ومنها:** أنه مع وصف القرآن بهذا الوصف الجليل، وتفصيل الآيات، وأنه بلسان عربي، وأنه بشير ونذير لم يسلم من المعارضة والإعراض، لقوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾.

١١- **ومنها:** جواز نفي السمع لم لا ينتفع به، لقوله ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وكذلك يقال في بقية الحواس لمن لم ينتفع بها، نقول: إن وجودها كالعدم، فمن لم ينتفع بما رأى، نقول هذا لا يبصر ولو كان له عينان.

١٢- **ومنها:** شدة كراهة المشركين لما نزل من الحق. لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾

١٣- **ومنها:** تحدي هؤلاء المبطلين على باطلهم، ويتفرع عليها أن من أهل الباطل من يتحدى أهل الحق إلى يومنا هذا. ولكن على أهل الحق أن يستعينوا بالله عز وجل في مقاومة هؤلاء. وأن يعلمون أن كلمة حق تغلب ألف كلمة باطل، ولكن السيف بضاربه ربما يكون السيف بيد جبان،

فإذا رأى العدو مقبلا سقط السيف من يده. فهل في هذا الحال ينتفع بالسيف؟ طبعًا لا، لو كان السيف بيد مسلم شجاع لعمل السيف وقرع هام الأعداء. فالحقيقة أن السيف بضاربه، فكم من إنسان يحمل من الشريعة أشياء كثيرة ولكن لا ينتفع بها. وكم من إنسان دون ذلك بكثير ولكن نفع الله به. لأنه مجاهد يجاهد أهل الباطل بما معه من الحق.



قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يعني لست غريبًا عليكم، فلماذا تكفرون بي؟ وأنا بشر، لست جنيًا فتنفروا مني، ولا ملكا فتنفروا منه، وإنما أنا بشر مثلكم، والبشر هم بنو آدم، وسموا بشرًا، لظهور بشرتهم، حيث بدت أجسامهم عارية، غير مكسوة، وهذا من نعمة الله علينا ومن رحمته أن جعل الله الإنسان عاريًا إلا بكسوة حتى يتذكر أنه عارٍ من الإيمان إلا بكسوة، فكسوة الإيمان التقوى. لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] فالله جعلنا نفتقر إلى الستر الحسي، حتى نعلم أننا مفتقرون أيضًا إلى الستر المعنوي. فأنت عار من الإيمان إلا بلباس التقوى. إذن البشر هم بنو آدم وسموا ذلك لظهور بشرتهم عارية لا شيء عليها. بخلاف المخلوقات الأخرى فإنهم مغطون إما بالوبر أو بالصوف، وإما بالشعر أو بالريش أو بغير ذلك.

﴿مِّثْلُكُمْ﴾ هذا توكيد لمعنى البشرية، وإلا لو اقتصر على ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ لكان مقتضى ذلك أن يكون بشرًا ولكن مخالف. ولكن أكد هذا المعنى بقوله: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ لكنه يمتاز ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، هذا هو الميزة والفرق، هو أن محمدًا ﷺ بشر يوحى إليه، و﴿يُوحَىٰٓ﴾ الموحي هو الله، لقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وحذف للعلم به، وربما يقال حذف للعلم به وللتعميم، لأن الله قد يوحي إلى نبيه محمد ﷺ بواسطة جبريل، وقد يوحي إليه بغير واسطة، والإيحاء: هو الإعلام بسرعة وخفاء، ولذلك إذا كان بجوارك واحد، وأردت أن تسأله والدرس مكتظ بالطلبة، وخفت أن يسمع إليك فتهمس إليه بخفية وسرعة لئلا

يتفطن لك، فكل إعلام بسرعة وخفية يسمى وحيًا، وإنما كان كذلك لأن النبي يوحى إليه وعنده الناس جالسون لا يدرون ماذا قال الرسول.

قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] هذا الجملة في محل رفع نائب فاعل، أي: يوحى إلي هذا الخبر أنما إلهكم إله واحد. وأنما أداة حصر، وعلى هذا تكون الجملة متضمنة لنفي وإثبات، لأن الحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه.

ومن طرق الحصر:

الأول: (إنما) أو (أنما).

والثاني: النفي والإثبات مثل: (لا قائم إلا محمد).

والثالث: تقديم ما حقه التأخير مثل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والرابع: دخول ضمير الفصل، مثل أن تقول: (زيد هو الفاضل)، فإن ضمير الفصل تفيد الحصر، هذه أربع طرق وهي الأكثر دورانًا.

قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي اقصدوا، ولهذا لم يقل استقيموا له، قال: إليه، فضمن استقيموا معنى اقصدوا إليه.

فتكون أبلغ من (استقيموا له)، لأن المستقيم للشيء قد يستقيم له وهو في مكانه دون أن يسعى إليه، أما إذا قيل استقيموا إليه فهي تفيد السعي إلى الله وقصده، فلهذا عديت بإلى، فهل هنا ناب حرف عن حرف، أو إن الحرف على معناه ولكن ضمن الفعل ما يناسب الحرف؟ فيها قولان:

القول الأول: أن الاستعارة في الحرف.

القول الثاني: أن الاستعارة في المتعلق.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] يشرب بها، هل العين يشرب بها الإنسان، فهل العين هنا إناء يتناول باليد؟ فهنا للعلماء قولان:

القول الأول: أن الاستعارة في الحرف، يعني الباء هنا بمعنى من (يشرب منها عباد الله). والعين يشرب منها باليد وبالإناء وبأي وسيلة.

القول الثاني: أن الاستعارة في الفعل، أي أن يشرب ضمن فعلا يناسب الباء. فالذي يناسب الباء هنا يروى بها عباد الله. يعني: عين تروي.

أما إذا قلنا إن الباء بمعنى (مِنْ) فعلي فهذا سهل؛ لأنك تقدر أي حرف مناسب وانتهى الموضوع.

لكن إذا قلنا إن الباء على بابها، وأن الفعل قد ضمن معنى يتناسب معها، فحينئذ قد يصعب على الإنسان أن يقدر الفعل المناسب، لكن نقول: إن تضمين الفعل معنًى مناسبًا للحرف أولى.

نبين إذا قلنا يشرب بها عباد الله، إن الباء بمعنى (مِنْ) فهل استفدنا فائدة لاستعارة الباء بدلًا من (مِنْ)؟

الجواب: ما استفادنا، إذنْ إتيانه بهذا الحرف يوجب بعض الإشكال، فنكون قد تضررنا فضلًا عن كوننا لم نستفد، لأن كونك تضع حرف بدل حرفًا بدون موجب فهذا يوجب التشويش والإيهام، لكن إذا ضمَّنا الفعل معنًى يتناسب مع الحرف إزددنا فائدة، فإن قولنا: إن التقدير (يروى بها) يتضمن الشرب الذي ذكر ويتضمن الري. وهذا الرأي: أعني الفعل يضمن معنًى يناسب الحرف، هو الذي ذهب إليه البصريون وأظنه اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

فرجاء الإنتباه لهذه الفروق الدقيقة؛ لأنها تفتح الذهن لأفاق بعيدة لفهم المعاني وزيادة الاستفادة.

مسألة: قولنا أن الحرف بمعنى حرف آخر لا نستفيد منه شيئًا، بينما قلنا في غير هذا الموضع السابق في بعض الآيات ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] قلنا: إن ﴿فِي﴾ بمعنى (على).

الجواب: هذا ضروري إن الفاء تفيد معنى (على)، ومع ذلك فيها فائدة أنها جاءت (في) بمعنى على.

وقد ذكرنا قبل ذلك أن إذا قلنا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ لكان تصليبًا مع رخاوة الحبل، لكن في جذوع كأنه شده شدًّا قويًّا حتى كأن هؤلاء المصلوبين داخلين فيه.

مسألة: قال تعالى هنا: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾، وفي آية أخرى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾؟

الجواب: لا تعارض لأن قوله مثاني بمعنى فصلت، حيث إن معناها تثنى فيه المعاني فيذكر الخير ثم الشر، أهل الخير وأهل الشر والجنة والنار وما أشبه ذلك، وأما المراد بقوله متشابهًا فمعناه أنه يشبه بعضه بعضًا في الكمال والحسن والجودة.

المسألة: ما وجه الجمع بين ثناء الله على القرآن بأنه متشابه وبين قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾.

الجواب: فالجمع بينهما أنه متشابه في الحسن، بحيث يشبه بعضه بعضًا، وأما المحكمات والمتشابهات. فالمحكمات ما اتضح معناها، والمتشابهات ما خفي معناها.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

قوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ هذه صفة (للمشركين) الذين لا يؤتون أي: لا يعطون الزكاة، والزكاة هنا يحتمل أن تكون زكاة النفس ويحتمل أن تكون زكاة المال، فإن كان زكاة المال ففيه إشكال بأن ظاهرها يقتضي أن الكفار يلزمهم إخراج الزكاة، ومعلوم أن إخراج الزكاة لا يطالب به العبد حتى يسلم. لقول النبي ﷺ لمعاذ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا

تَدْعُوهُمْ إِليهِ تَوْحِيدَ الله ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الصَّلاةِ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الزَّكَاةِ»[1]. وهذا يدل على أن الزكاة لا يخاطب بها الإنسان أي بأدائها إلا بعد أن يسلم. أما إذا قلنا: إنه المراد بالزكاة زكاة النفس، فإنه لا يرد على هذا إشكال، لكن يرد على هذا إشكال من جهة اللفظ، وهو قوله: ﴿يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهل زكاة النفس شيء يعطى، هذا محل نظر، ولذلك الآية فيها إشكال سواء فسرتها على هذا أو على هذا، وإذا كان فيها إشكال بين معنيين فإننا نترك المرجح. والراجح أن المراد بها زكاة النفس، والمعنى: (لا يؤتون أنفسهم زكاتها)، وفي الحديث: «أَعْطِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا» وعلى هذا نرجح أن المراد بالزكاة زكاة النفس، ويكون المعنى لا يؤتون أنفسهم زكاتها، بل يهينونها ويقلّون عنها.

وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ ، ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ جار ومجرور متعلق بكافرون، ﴿وَهُم﴾ مبتدأ و﴿هُمْ﴾ الثانية. تأكيد لفظي لـ ﴿لَهُمْ﴾ الأولى والتأكيد اللفظي أن تعاد الكلمة بلفظها، كما قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ التَّوكِيدِ لَفظِيٌّ يَجِي ... مُكَرَّرا كَقَولِكَ ادرُجِي ادرُجِي

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾. أي: جاحدون لها غير مؤمنين بها، يقولون: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤]. يعني يموت قوم ويحيى آخرون ولا يهلكنا إلا الدهر ولا بعث ولا حساب.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب إعلام النبي ﷺ أمته بأنه بشر مثلهم. لقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** آكدية هذا الإعلام، حيث أمر النبي ﷺ أن يبلغه على وجه خاص، وذلك أن القرآن كله أمر الله الرسول ﷺ أن يبلغه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] لكن في بعض الأحيان يمر بك آيات يؤمر النبي ﷺ بتبليغها بذاتها، فيكون هذا دليل على الاعتناء بها وأهميتها وهو كثير، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] وقوله: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ وما أشبه ذلك. فيكون بهذا توصية خاصة بتبليغه، وهو دال على العناية به والاهتمام به. والقرآن كله قد أمر النبي ﷺ بتبليغه، والدليل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، في بعض الآيات يؤمر النبي

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٤٩٦) ومسلم (٢٩/ ١٩) من حديث معاذ رضي الله عنه.

ﷺ بتبليغها على وجه خاص، فيقال: (قل كذا)، وهذا يدل على العناية والاهتمام به وأن هذا ذا شأن خاص.

وهنا قال ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أمر أن يبلغ ويعلم بأنه بشر مثلنا.

٣- **ومنها**: الرد على من قال بأن النبي ﷺ خلق من نور، لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾.

٤- **ومنها**: الرد على من قال بأنه ﷺ نور وأنه لا ظل له يمشي في الشمس فلا يكون له ظل، وجه ذلك تحقيق البشرية بالمماثلة. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فأي أحاديث تأتي بمثل هذه الأمور التي توجب أن يخرج النبي ﷺ عن نطاق البشرية فإنها موضوعة مكذوبة؛ لأنه بشر مثلنا.

٥- **ومنها**: أن النبي ﷺ يلحقه الحر والبرد والجوع والعطش والخوف والأمن وغير ذلك من مقتضيات البشرية، وهذا من قوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فتحقيق البشرية بالمثلية حتى لا يقول قائل: إن هذا مجاز، فأكد هذه البشرية بالمثلية.

٦ ـ **ومنها**: أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أوحي إليه؛ لأننا لا نعلم الغيب وهو بشر مثلنا.

٧- **ومنها**: أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا لغيره، وجه ذلك أنه مثلنا، وأنه إذا كنا نحن لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا لغيرنا فكذلك النبي ﷺ.

٨- **ومنها**: أن موت النبي ﷺ موت حقيقي وأنه بموته ﷺ انقطع عمله إلا ما يأتيه من ثواب أجور أمته؛ لقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ والمماثلة تقتضي المساواة من كل وجه إلا ما خصه الدليل. وبهذا ينقطع أمل كل من طلب من الرسول ﷺ أن يشفع له فيقف عند قبر الرسول ويقول: يا رسول الله اشفع لي، فإن هذا لا يجوز لأنه اعتداء في الدعاء حيث يطلب الإنسان ما ليس له. ولا يمكن للرسول أن يفعله؛ لأنه مات وإذا مات ابن آدم انقطع عمله لا بدعاء ولا بغيره.

٩- **ومنها**: أن النبي ﷺ قد ينسى، لأن هذا مقتضى البشرية. كما حقق ذلك في قوله: «إنما أنا بشر مثلكم انسى كما تنسون».

١٠- **ومنها**: أن النبي ﷺ يجتهد وربما يخطئ في اجتهاده، لأن هذا مقتضى البشرية، وكما هو الواقع في مثل قول الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]. وفي قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]، ولكنه ﷺ يمتاز عن غيره، بأنه لا يقر على خطأ ولو كان بالاجتهاد بخلاف غيره، فقد لا يُذكَّر ولا يَذْكر إذا نسي وقد يعلم ولا يعمل إذا جهل، لأن خطأنا نحن قد نستمر عليه دون أن ننبه له أو ننتبه، لكن الرسول ﷺ لا يمكن أن يقر على خطأ، ولا يمكن أن يقر على نسيان ما يجب، بل لا بد أن يتنبه أو ينبه.

١١- **ومنها**: إثبات رسالة النبي ﷺ وتؤخذ من قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ لأن الوحي لا يكون إلا

لنبي. فإن قال قائل كيف تقولون إن الوحي لا يكون إلا لنبي وقد أوحى الله تعالى إلى غير الإنسان، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]. وقال تعالى في غير الأنبياء: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

قلنا: هذا الإشكال لا يرد إلا على من لا يفرق بين معاني الوحي. فأما من فرق بينها وقال إن الوحي إما أن يكون بشرع وإما أن يكون بغيره، فإن كان بشرع فهذا لا يكون إلا للرسل أو الأنبياء، وإن كان بغير شرع فإنه يكون من باب الإلهام. فيكون قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي ألهمها أن تتخذ من الجبال بيوتا. وكذلك ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بوحي إلهام. وبذلك يزول الإشكال.

١٢- **ومنها**: أهمية التوحيد؛ حيث حصر الوحي بالتوحيد؛ قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ﴾ كالصلاة والزكاة وغير ذلك، لكن لما كان أهم ما جاء به ﷺ التوحيد، حصر الوحي به أنما إلهكم إله واحد، وإن أقول لكم، متى حقق الإنسان التوحيد فلا بد أن يقوم بشرائع الإسلام؛ لأنه إذا وحد الله بالقصد وجعله هو حياته، فلا بد أن يتجه إليه.

وفيما يتجه إليه؟

بالطريق الذي شرعه موصلًا إليه. ولهذا نقول إن حديث عتبان: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، هو على ظاهره، فمن قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله فإنه محرم على النار، ومقتضى تحريمه على النار، أنه لا يعمل كبيرة توجب دخوله النار، أو تقتضي دخوله النار، كل من قال لا إله إلا الله يبتغي وجه الله فلن يعمل ما يغضب الله، كيف تريد وجهه ثم تعمل ما يغضبه، هل عمل ما يغضبه يصدك للوصول إلى وجهه أم لا؟ نعم يصدك. فإذا كان يصدك وأنت تبتغي وجهه فلا بد أن تعدل، إما بالكفاف مطلقا، وإما بالتوبة مطلقا إن وقعت فيه؛ لأن بعض الناس يقول: أنتم تكفرون تارك الصلاة، وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ»، ولم يذكر الصلاة، قلنا له بل ذكر الصلاة وذكر ما دون الصلاة أيضًا، في قوله يبتغي بذلك وجهَ الله. ونحن نقول لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون رجل يقول لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله أن يحافظ على ترك الصلاة، من حاول أن يجمع بين ذلك وبين ترك الصلاة فقد حاول أن يجمع بين الماء والنار، وهذا أمر ظاهر، فمثلًا - ولله المثل الأعلى - لو كنت تريد أن تصل إلى شخص من الناس وتسعى بكل وسيلة أن تصل إليه، فهل تفعل ما يحول بينك وبين الوصول إليه، مِنْ معصيته؟ أبدًا، بل تنظر ماذا يحب فتفعله من أجل أن تصل إليه ومن أجل أن يكون المستقبل لك بالترحيب، أما أن تقول أن أحب فلانًا، وفلان يقول لا تمشي في هذا الطريق، ثم أنت تقول أنا أحب أن أمشي في هذا الطريق، الطريق المخالف. فهل هذا صدق أم كذب؟ هذا كذب، فإن كنت تحبه حقًّا لكنت طوعًا له أمرًا ونهيًا.

إذنْ مَنْ قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا اللهَ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله» فإنه سوف يتحاشى المعاصي، ويصلي؛ ولهذا جاء حصر الوحي في هذه الآية بالتوحيد ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وهو الله عز وجل.

١٣- **ومنها:** وجوب الإخلاص لله والاستقامة على الدين. في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ﴾ هذا العمل، و﴿إِلَيۡهِ﴾ الإخلاص.

١٤- **ومن فوائدها:** تهديد المشركين؛ لقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وهذا النوع من التهديد يكون في ما هو شرك ويكون في ما دون ذلك. فقد قال الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٢]، وهؤلاء ليسوا بمشركين، يعني: عملهم هذا لا يصل إلى الشرك.

وقال النبي: «وَيْلٌ لِمَنْ حَدَّثَ فَكَذَبَ لِيُضْحِكَ القَوْمَ وَيْلٌ لَهُ ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ»، وهذا أيضًا ليس من الشرك، وعلى هذا فلا يقال أن كل وعيد كان بهذه الكلمة يفيد أن يكون الفعل شرك، بل قد يكون شرك، وقد يكون ما دونه.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن التوحيد تزكية للنفس، لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولا شك أن التوحيد تزكية للنفس، لأنك تقطع العلائق مع غير الله إلا فيما يحب الله. والموحد حقيقة قلبه دائمًا مع الله عز وجل، دائمًا يتقلب في قضاءه الكوني راضيًا به كما يتقلب في قضاءه الشرعي راضيًا به، ولهذا تجده إذا أصابته سراء شكر.

وإذا أصابته ضراء صبر ولم يسخط. فهو دائمًا مع الله يقول لنفسه: (أنا عبد الله يفعل بي ما شاء، أنا عبد الله إن أصابني شيء في السراء شكرت فكان خيرًا لي، وإن أصابني في الضراء صبرت فكان خيرًا لي. أنا عبد الله لا يمكن أن أعارض قضاء الله، يقضي علي اليوم بالسرور فأسر، وغدًا بالسوء فأستاء). ويمشي مع الله في قضاءه وقدره، وهذا هو الذي يجد الراحة تمامًا، ولهذا من ثمرات الإيمان بالقدر، أن الإنسان يكون دائمًا مطمئنًا ليس فيه قلق ولا حزن وإن كان ربما في الصدمة الأولى يجد الإنسان الحزن لكن بالتصبير تصبير نفسه ومشاهدة القدر يسهل عليه الأمر، وإن كان معلوما أن الإنسان ليس حديدًا أو حجارة لا يتأثر لكنه عندما يصبر نفسه ويحملها يصبر فيطمئن، فالمهم أن التوحيد كله خير وكل زكاء، تزكية للنفس وتطهير لها.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن المشركين لا يؤمنون بالآخرة، ولهذا إذا قيل له وحد الله تنجو من عذابه، قال: ليس هناك عذاب، يكفرون بالآخرة.

٣- **ومن فوائد الآية:** أن الإيمان بالآخرة يدعو إلى التوحيد وتحقيقه، وهذا حق واضح، كل

إنسان يؤمن بأنه سوف يحشر يوم القيامة، في أرض قاع صفصف لا يرى فيها عوجً ولا أمتًا. وأنه سيجازى على عمله، كل إنسان عاقل سوف يستعد لهذا اليوم. ولهذا ينبغي لنا مع كون قلوبنا مع الله عز وجل أن نتذكر الساعة. وهل بين الإنسان وهذه الحال وقت محدد معلوم؟ لا أبدًا، يصل إلى هذا إذا مات، ومتى يموت؟ لا يعلم، قد يخرج الإنسان من بيته ولا يرجع إليه. قد ينام على فراشه ويحمل ميتًا، قد يركب سيارته ولا ينزل منها، فإذنْ تذكر يا أخي عندما تستولي على قلبك الغفلة، تذكر هذا اليوم الذي تحشر فيه أنت وسائر الخلق حافيًا عاريًا. ليس عندك مال ولا بنون ولا أحد يحميك، تذكر هذا، فإذا تذكرته فسوف تعمل، فاعمل لهذا اليوم، إخوانك أباءك أولادك أمهاتك الذين فقدتهم في الحياة متى تجتمع بهم؟ في هذا اليوم، ما في اجتماع إلا في هذا اليوم، إذنْ استعد لهذا اليوم واعمل صالحًا، ولا يفوتك الركب فكن في مقدمته، واجعل الدنيا وراء ظهرك، اجعلها تابعة لك ولا تجعل نفسك تابعًا لها حتى تنجو، فكل إنسان يؤمن بالآخرة فإنه إذا تذكرها سوف يعمل لها، قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المتقين الذين يؤمنون بالآخرة ويعملون لها.

مسألة: حول آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٦٤] والرد على من يتخذها دليل لطلب الاستغفار من الرسول والتوسل والدعاء عند قبر الرسول؟

الجواب: هذا داخل في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يتحدث عن قوم معينين، بدليل قوله: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾، وإذ لما مضى، ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ يعني: استغفرت لهم لكن أظهر في المقام الإضمار تعظيمًا لشأن الرسول، وبيان أنه أقرب منهم إجابة ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٤ ـ ٦٥] ولم يقل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾. ولو قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ قلنا: إن هذه لهم ولغيره، ولكن قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ ثم إن استغفار الرسول بعد موته مستحيل؛ لأنه استغفار عمل، والعمل قد انقطع بالموت، ثم إن هؤلاء ليس أفقه في كتاب الله وليسوا أعلم بحال رسول الله من الصحابة، هل جاء أحد منهم إلى قبر الرسول، وقال: يا رسول الله استغفر لي، أبدًا، بل إنهم لما أصيبوا بالجدب لم يقولوا: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادعوا الله يغيثنا، مع أنهم إلى جنبه، بل استغاثوا ودعوا الله وطلب عمر من العباس أن يدعو الله عز وجل. لكن لا بد لكل ذي باطل أن يجد شبهة في الكتاب والسنة وهذا من حكمة الله عز وجل وابتلاءه وامتحانه. ولكن كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: «درء تعارض العقل والنقل» وكذا في الفتاوى: (كل إنسان يستدل بدليل صحيح من كتاب أو سنة على باطل فإن هذا الدليل دليل على إبطال باطلهم لا على إثبات

باطلهم) الدليل قول الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

مسألة: حول معنى النبوة والرسالة ووجه الفرق بينهما؟

الجواب: هذا المسألة تنبني على اختلاف العلماء، مَنِ النبي؟ ومن الرسول؟ فجمهور العلماء على أن الرسول من أرسل وأوحي إليه بالشرع وأرسل به وأمر أن يبلغه. وأما النبي فهو من (نبئ) أي: أخبر والإخبار لا يلزم منه التكليف بالإبلاغ. فهو من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، بل أمر أن يفعل به في خاصة نفسه دون تبليغه.

فيكون هذا الإنباء تجديدًا للرسالة السابقة، أو إنشاء لشريعة لم تكن قائمة، وهذا الذي قاله الجمهور هو الصحيح. لأننا لو قلنا: إن النبي هو من جدد شريعة سابقة وأمر أن يبلغ الناس وأن يوقظهم، فلو قلنا بهذا، لأشكل علينا نبوة آدم، فإن آدم نبي مكلم ومع ذلك لم يسبقه رسول، فإن قال قائل ما الفائدة؟ الفائدة أولًا مصلحة هذا النبي هو نفسه، أنه أوحي إليه بالبشارة.

ثانيًا: أنه إن كان في شريعة سابقة، فهو عبارة عن تجديد تلك الشريعة، وإن كان في غير شريعة سابقة كآدم، فإن الناس في عهده بدائيين، لم يكفروا ولم يختلفوا ولم تفتح عليهم الدنيا، فكانوا ينظرون إلى ما يفعله أبوهم فيفعلونه، دون حاجة إلى أن يرسل إليه. ولهذا قال ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، فأنا يترجح عندي قول جمهور العلماء: أن النبي من يوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، وأما نحن فلما لم يكن بعد رسول الله ﷺ نبي صرنا مأمورين بإبلاغ رسالته، فنحن في الحقيقة رسل رسول الله، ولهذا جاء في الحديث: «العُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ».



قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٨-١٢]

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾، لما ذكر عقوبة المشركين بين ثواب المؤمنين، لأن الله تعالى أنزل هذا الكتاب مثاني، وإنما كان الأمر كذلك ليكون الإنسان سائرًا إلى ربه، بين الخوف والرجاء، فإنه إذا سمع عقوبة المكذبين خاف، وإذا سمع ثواب المؤمنين رجع، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون سائرًا إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولكن في بعض الأحيان قد يكون من المصلحة تغليب الرجاء، أو من المصلحة تغليب الخوف، فإذا إشتدت رغبة الإنسان في المعصية فليغلب جانب الخوف حتى يرتدع عنها وإذا فعل الإنسان العبادة فليغلب جانب الرجاء وهو قبول الله تبارك وتعالى لها، وكذلك أيضًا ينبغي له في حال المرض، أن يرجع إلى الله سبحانه وتعالى وأن يحسن الظن به، كما جاء في الحديث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ». يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جمع الله تبارك وتعالى بين العقيدة والعمل بين الإيمان والإسلام، ﴿ءَامَنُواْ﴾ العقيدة، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الإسلام، وهذا كما ترون يقرأ في القرآن كثيرًا، فالإيمان وحده لا يكفي، بل لا بد من عمل صالح حتى يحصل الثواب، وكلما جاءت ﴿ءَامَنُواْ﴾، فالمراد آمنوا بما يجب الإيمان به، من الأصول الستة التي بينها الرسول ﷺ لجبريل حين قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وذلك؛ لأن الإيمان المجمل في القرآن يفسره تفصيل السنة، لأنه لا أحد أعلم بكتاب الله من رسول الله ﷺ أما قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فمعلوم أن الصالحات وصف لموصوف محذوف، والتقدير (الأعمال الصالحات)، فما هي الأعمال الصالحات.

الأعمال الصالحات: ما جمعت شرطين، الأول: الإخلاص لله عز وجل. الثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

فكل عمل فيه شرك فهو ليس بصالح وهو مردود على صاحبه، لقول الله في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، وكذلك أيضًا لا بد من اتباع الرسول، فالعمل البدعي غير مقبول وإن أخلص الإنسان فيه، لقول الرسول «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، إذنْ الأعمال الصالحة لا بد من أن تضمن شيئين، الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله.

قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾، هذه الجملة خبر (إن). ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾، قد نقول إن تقديم الجار يدل على الحصر، أي لهم لا لغيرهم من المكذبين أو الفاسقين، ﴿أَجۡرٌ﴾ أي: ثواب، ﴿غير ممنون﴾ يقول المؤلف: [أي: غير مقطوع]، بل هو دائم. كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وقيل: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير ممنون به أي يعطونه بلا منة وهذا محتمل، وإذا كان محتملًا ولا ينافي المعنى الأول، كان المراد بالآية المعنيين جميعًا. إذ لدينا قاعدة في التفسير وكذلك في الحديث مهمة وهي: (إذا كان النص يحتمل معنيين ولا ينافي أحدهما الآخر، فإن النص يحمل عليهما جميعًا)؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يحتمل كلامه وكذلك الرسول ﷺ. فلما لم يعين أحد الاحتمالين وجب أن يكون شاملًا لهما، لكن إذا كان أحدهما أرجح من الآخر فإنه يتبع الأرجح، ولهذا نقول: نقدم ظاهر النص على تأويل النص. والتأويل كما تعرفون هو اتباع المعنى المرجوح، إذنْ ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: ثواب غير مقطوع، وثواب غير ممنون به.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المكذبين ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، الجملة هذه استفهام بمعنى التقرير، يعني: إنكم لتكفرون (وإن) للتوكيد و﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ للتوكيد أيضًا، وذلك لأن اللام الواقعة في خبر إن أو اسمها المؤخر تكون للتوكيد، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ﴾ هذا إعرابها، فإن: تنصب المبتدأ وترفع الخبر و(الكاف) اسمها، وجملة ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ خبرها، أما من حيث القراءات، استمع يقول: [بتحقيق الهمزة الثانية وتسهيلها]، تحقيقها ﴿أَئِنَّكُمْ﴾، وتسهيلها أن تقول: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾، سهلها تمر بها بسرعة، [وإدخال ألف بينهما بوجهيها وبين الأولى]، بوجهيها الوجه الأول التحقيق، والتسهيل، أدخل ألفان بينهما على القراءتين تكون القراءة أربعة، إدخال الألف تقول آءنكم، هذا في التحقيق، أي: آنكم هذا بالتسهيل، إذنْ تحقيق وتسهيل بألف وبدونها بأربع قراءات، قوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ تكفرون به: أي تجحدونه وتستكبرون عن عبادته، لأن الكفر كله يدور على شيئين، إما جحود وإما استكبار، فمثلًا الشيطان لما كفر، كفر استكبار وإلا فإنه مقر بالله وبعزة الله وبقدرة الله، لكنه استكبر، وآل فرعون ومن شابههم كفروا بالجحود، فالمدار كله على هذين الأمرين: الجحد أو الاستكبار، فقول لتكفرون: يشمل المعنيين، بأن جحدوا توحيد الله عز وجل واستكبروا عن عبادته، بالذي خلق الأرض في يومين، لم يقل بالله، بل أتى بفعل من أفعاله جل وعلا، فعل لا تقدر عليه هذه الأصنام. والإتيان بالفعل الذي لا تقدر عليه الأصنام هو إقامة للحجة في نفس الوقت، أي تكفرون بهذا مع أن أصنامكم لا تفعله. ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ قال المؤلف (المفسر): [الاحد والإثنين]، لأن أول يوم ابتدأ الله في الخلق الأحد ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾، الواو حرف عطف ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ معطوف وحالها (تكفرون) لا على الصلة. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ شركاء، ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، والند في الأصل هو المساوي والمماثل، يقال: هذا ند هذا أي مماثل له

ونظير له، والمراد بهم هنا الشركاء الذين يعبدونهم كما يعبدون الله، والعجب أن هؤلاء المشركين السفهاء، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فكيف يعبدون مع الله أحدًا ويقولون يقربونا إلى الله؟! إن الله غني عن هذا، وهذا لا يزيدكم من الله إلا بعدًا، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ذلك: أتى باسم الإشارة دون الضمير ثم جعلها إشارة بعد، للتعظيم والتفخيم والتعلية، لأن البعد هنا إشارة إلى المكان العالي، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لو قال: (هو رب العالمين) استقام الكلام، لكن لم يحصل ما تدل عليه الإشارة من التعظيم، ثم ما يدل عليه صيغة البعد من العلو، نظير ذلك ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ولم يقل: هو الكتاب ولا هذا الكتاب، إشارة إلى ما ذكرنا، ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال المفسر: [مالك]، وفي هذا التفسير قصور، بل نقول خالق ومالك ومدبر، لأن الربوبية: هي الخلق والملك والتدبير، فإذا قلنا مالك صار في هذا قصور، قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالقهم ومالكهم ومدبر أمورهم. والعالمين: جمع عالم وهو ما سوى الله عز وجل، كل ما سوى الله فهو عالم، وسمي عالم، لأنه علم على خالقه جل وعلا، فإن كل شيء فيه آية تدل على وحدانية الله وقدرته وحكمته وعزته وغير ذلك، قال: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [جمع عالم، وهو ما سوى الله، وجمع لاختلاف أنواعه]، يعني لم يقل: (العالم)، بل أتى بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لاختلاف أنواعه، [بالياء والنون، تغليبًا للعقلاء]، فإن قال قائل هل العقلاء أكثر أو غير العقلاء؟ إن قيل العقلاء أكثر يحتاج إلى دليل، وربما يكون دليله أن النبي ﷺ قال: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ مِنْهَا إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ» والسماء واسعة عظيمة، فكل سماء أوسع مما تحتها، فمن يحصي هؤلاء، هذا شيء عظيم.

البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كل يوم من الملائكة سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، فمن يحصي هذا، وكل يوم يظهر سبعين ألف ملك، فإذا رأينا إلى هذا، قلنا: إن العقلاء أكثر، فمن يحصي هؤلاء، وإن نظرنا إلى ما في الأرض قلنا أن غير العقلاء أكثر، فعلى هذا التقدير أن أريد من في الأرض، نقول إنه غلب العقلاء لشرفهم، والحاصل أن تغليب العقلاء، إن كان العقلاء أكثر، فغلبوا لكثرتهم، وإن قلنا: إن غير العقلاء أكثر، فغلب العقلاء لشرفهم.

على كل حال تغليب العقلاء، إن كان العقلاء أكثر فلكثرتهم، وإن كان غير العقلاء أكثر فلشرف العقلاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [مستأنف] يعني وليس معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، والعجب أنه يقول: [ولا يجوز عطفه على صلة الذي للفاصل الأجنبي]، هذا ما ذهب إليه المؤلف أن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ مستأنف، ولا شك أننا إذا جعلناه مستأنفًا لم يكن الكلام منتظمًا، والصواب أنه على خلاف ما قال المؤلف: أن ﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على ﴿خَلَقَ﴾، يعني بالذي خلق الأرض في يومين

وجعل فيها رواسي، والفاصل الأجنبي هنا لا يضر، إما أنه لا يضر مطلقا كما قيل به، وإما أنه لا يضر لأنه في مضمون الكلام، والكلام واحد، فالصواب أن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ معطوف على خلق، أي بالذي خلق الأرض في يومين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ قال: [جبالًا ثوابت]، أولا: ﴿وَجَعَلَ﴾ هنا هل هي من أفعال التصيير أو من أفعال الإيجاب؟ يحتمل المعنى، وأوجد فيها رواسي، ويحتمل أن تكون من أفعال التصيير أي صير فيها رواسي، والمعنى لا يختلف، لكن الإعراب يختلف، إذا قلنا أنها من أفعال التصيير صارت تنصب مفعولَيْنِ، وإذا قلنا من أفعال الإيجاب، صارت تنصب مفعولًا واحدًا.

وقول المؤلف: [جبالًا ثوابت]، أفادنا رحمه الله أن رواسي صفة لموصوف محذوف، والتقدير: جبالًا رواسي، ورواسي بمعنى ثوابت، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، هل يجوز أن يحذف المنعوت؟

نعم، وهو كثير جدًّا، قال ابن مالك:

وَمَا مِنَ المَنعُوتِ وَالنَّعتِ نُقِل ... يَجُوزُ حذفُهُ وَفِي النَّعتِ يَقِل

أي: وفي المنعوت يكثر، قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾ أي: دروعًا سابغات، المهم أنها تأتي في القرآن كثيرة، وعملوا الصالحات كما مر علينا، حذف المنعوت كثير، بأن المقصود الصفة، والصفة تكون بالنعت وهو موجود، ﴿مِن فَوْقِهَا﴾، هذه الكلمة لها فائدة، فالرواسي قد تكون من أسفل، وقد تكون من فوق، أليس كذلك؟ قد تكون من أسفل، كأن يحفر في الأرض قواعد ترسي وتكون راسية، لكن هنا قال من فوقها، وذلك لفوائد:

١- الفائدة الأولى ظهور هذه الرواسي، وبيانها للناس، حتى يعرفوا بذلك حكمة الله عز وجل، وربما لا تكون رواسي إلا إذا كانت من فوق، بناء على أن الأرض تدور حتى تحفظ توزانها.

٢- هذه الرواسي إذا كانت من فوق حصل فيها من المنافع في درء العواصف وفي الملاجئ شيء كثير، كما هو معروف في المغارات، وكما يعرف من سفوح الجبال، ورؤوس الجبال، وخدود الجبال، من نوابت لا توجد لولا هذه المرتفعات.

٣- أنها توجب أن تندفع مياه الأمطار بشدة حتى تصل إلى أراضي صالحة للنبات، لأنكم تعرفون أن بعض الأرض سابخات ما فيها خير، وبعضها رياض تنبت، فإذا نزل الماء على هذه الجبال على قممها وعلى خدودها نزل إلى الأرض بشدة عظيمة حتى يصل إلى ما أراد الله بها من صالح.

٤- وأنها في قمم الجبال من المعادن الجيدة أكثر مما في الأرض السفلى، ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. أنزلناه من قمم الجبال، ولهذا يقول العلماء: إن الحديد الذي يكون من قمم الجبال أعلى وأقوى من الذي يكون من الأسفل، هذا ما نعلمه وما لا نعلمه

أكثر. المهم أن كلمة ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ صار لها فائدة عظيمة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [بكثرة المياه والزروع والضروع]، ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي في الأرض، وما أعظم بركات الأرض، من الزهور، والأشجار، والأنهار والمعادن، وغيرها، من بركات الأرض، وقول المؤلف: [الزروع]، يعني زروع البهائم، يعني: البهائم كلما شبعت من الربيع، ازداد درُّها، ومن يتأمل يجد أن في الأرض بركات عظيمة، حملت الأحياء والأموات والوحوش والسباع والبهائم والحشرات والآدميين، وكم السعة مع كثرة ما فيها، الآن هؤلاء الأحياء الذين على ظهر الأرض، لو كان الناس يحيون إلى الآن لرأيت أمرًا بشعًا وصعبًا، لكن جعل الله الأرض كفاتًا أحياءًا وأمواتًا. وهذه من بركاتها.

قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا﴾ قال المؤلف: [قسم فيها أقواتها للناس والبهائم]، قدَّر فيها الأقوات، يقول: قدر من التقدير وهو التقسيم، قدر الأقوات، ولم يجعل القوت في جانب واحد من الأرض، لو كان في جانب واحد من الأرض لشق ذلك على الناس كثيرًا، أليس كذلك؟ لو قدَّر مثلا، أن الأقوات في غرب القرى، فكيف يعيش أهل الشرق، أو بالعكس كيف يعيش أهل الغرب، لكنه مقدر، ثم قدره من ناحية أخرى، جعل في هذه الأراضي ما لا يحصل في الأراضي الأخرى، والعكس، الحكمة من أجل أن يتبادل الناس الأقوات، فيأتي الناس الذين ليس عندهم هذا النوع من القوت، يذهبون إلى الأراضي الذي فيها هذا القوت يجلبونه إلى أرض خالية منه. وكذلك العكس. في بعض الجهات من الأرض ما يكثر فيه النخيل والعنب لكن يقل فيه الحمضيات وأشباهه. وفيه أيضًا أشياء كثيرة، أنا لست من أهل الزراعة لكن فيه أشياء كثيرة تصلح في مكان دون مكان، من أجل أن يقع التبادل بين الناس، والضرب في الأرض ابتغاء الرزق، وهذا من الحكمة في قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تمام أربعة أيام، أي الجعل وما ذكر معه في يوم الثلاثاء والأربعاء، إذا كان خلق الأرض أولها الأحد والإثنين، ثم قال في أربعة أيام ماذا يكون الباقي، الثلاثاء والأربعاء، فتكون الأرض خلقت وقدرت فيها الأقوات في أربعة أيام، قال الله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ منصوبة على المصدر، أي استوت الأربعة استواء لا تزيد ولا تنقص، فأفادنا بقوله: استوت استواء، أن سواء اسم مصدر، فقوله منصوب على المصدر فيه تجوز، لأننا إذا قلنا سواء المصدر استوى، فإنه لا يستقيم على القاعدة. لأن القاعدة: إذا المصدر وافق الفعل في حروف، وهنا استوى لا توافقها سواء، بل الذي يوافقها استواء، إذْ فسواء تكون اسم مصدر، مثل كلم والمصدر تكليم، واسم المصدر كلام.

هنا استوى والمصدر استواء واسم المصدر سواء، المهم أن قوله: ﴿سَوَآءً﴾، يعني أن هذا الخلق استوعب الأربعة كلها، ما يكون في يومين أو ثلاثة، بل في الأيام الأربعة كلها، فعلى هذا فقوله منصوب على المصدر والصواب أن يقال: إنه مفعول مطلق، أي استوت الأربعة استواء، لا تزيد

ولا تنقص، ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ [عن خلق الأرض بما فيها]، ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ هذه لا تظن أنها متعلقة بسواء، بل هي جواب لخبر محذوف، أي: هذا جواب للسائلين، أو نحو هذه الكلمة، المهم أن قوله: ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ يفيد أن ما ذكر جوابًا لمن سأل عن خلق السموات والأرض، عن خلق الأرض وتقدير أقواتها، بأنها في أربعة أيام سواء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ثم: أي بعد خلق الأرض وتقدير أقواتها ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، يقول المؤلف: [قصد إلى السماء، وهذا أحد القولين في هذه الجملة، أنها بمعنى قصد، لكن قصدًا كاملًا، وذلك لأن استوى تدل على الكمال، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ والقول الثاني: أن ﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى﴾ بمعنى استوى على السماء، أي علا عليها، ولكن المعنى الذي سلكه المؤلف أرجح، أنه قصد إلى السماء بإرادة تامة مستوية، لأن ﴿إِلَى﴾ تفيد الغاية، وعلى تفيد الاستعلاء، ومعلوم أن السموات لم تكن خلقت في تلك الساعة، ثم إننا لو قلنا: إن استوى بمعنى (علا) ثم استوى على السماء كان قبل ذلك حين خلق الأرض ليس عالٍ على السماء، مع أن علو الله تعالى وصف لازم لذاته، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [بخار مرتفع]، جملة ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ حالية، والسماء هنا بمعنى العلو، لأنها لم تكن خلقت بعد، لكنها كالدخان، أي: البخار المرتفع، قيل: إن هذا البخار المرتفع تصاعد من الماء الذي كان قبل أن تخلق الأرض، لأن الله تعالى قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، فكان قبل خلق السماء والأرض ماء فوقه عرش الرحمن عز وجل، ثم خلقت الأرض وقد اندفع من هذا الماء بخار متصاعد كثيف، صار مثل الدخان، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ إلى مراد منكما ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [في موضع الحال أي: طائعتين أو مكرهتين]، قالتا آتين [بمن فينا] طائعين.

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ هذا الأمر هل هو أمر تكوين أم أمر تكليف؟ إن قلنا: أمر تكليف لم يكن هناك فرق بين أن يكون طائعين أو مكرهتين. وإذا قلنا أنه أمر تكليف فظاهر أنه أمر تكليف ولهذا قال: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ إن قلنا: إنه أمر تكوين فإنه لا يستقيم أن يكون طوعا أو كرها، لأن أمر التكوين كائن لا محالة، فالظاهر والله أعلم أنه أمر تكليف، ولله تعالى أن يكلف ما شاء من عباده أو من خلقه، له أن يكلف ما يشاء.

مسألة: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هل هذه الآية تصلح دليلًا لمن أخرج العمل الصالح عن الإيمان؟

الجواب: هذا لا يصح لأن العمل الصالح دلت النصوص على أنه من الإيمان، لكنه لا مانع أن يكون الشيء الواحد منقسمًا إلى أنواع، فالإيمان يغفل فيه الأعمال لا شك، لكنه يتنوع، منه ما هو عقيدة، منه ما هو عمل قولي، ومنه ما هو عمل فعلي.

مسألة حول الاستواء؟

الجواب: لا يجوز أن يكون الفعل (سوى)؛ لأنه لو قلنا أن الفعل (سوى) لصارت تسوية، وهي لا تصح، تصلح من (استوى).

مسألة حول إعراب المصدر حال؟

الجواب: لا يعرب المصدر حالًا إلا للضرورة؛ لأن أصل الحال أن تكون مشتقة والمصدر جامد.

مسألة: حول الذين ينكرون غيبيات القبر والغيبيات المأمور بالإيمان بها، ومن ناحية أخرى يصلون ويزكون، فما حكم هؤلاء؟

الجواب: إذا قلت لهم أن هذا عليه دلائل من كلام الله (القرآن) ومن السنة، وقالوا: لا نصدق إلا ما نراه فهؤلاء كفار. حتى ولو كان يصلون بالليل والنهار، وحتى لو كانوا يتصدقون. لأنهم يكذبون، فهذا كفر تكذيب.

مسألة: بعض القراء يقرأون بدلا من آءنكم، يقرءونها آهنكم. فما حكم هذا؟

الجواب: ما أظن هذا بصحيح، ولكن إذا ثبتت القراءة بالهاء، فهذا يعتبر إبدالا وليس تسهيلا، إبدال الهمزة هاء.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، يقول المفسر: [﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا﴾ بمن فينا ﴿طَآئِعِينَ﴾]، احتاج المؤلف أن يقدر: [بمن فينا] لوجهين، الوجه الأول: أن طائعين جمع، وقالتا مثنى، ولا مطابقة بين المثنى والجمع، ولو أراد المطابقة، لقال: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، الوجه الثاني: أنه جمعهم في المذكر العاقل، فكان لابد أن يقدر بمن فينا ليدخل فيه العقلاء، ويكون هذا من باب التغليب، وقوله رحمه الله فيه تغليب للمذكر العاقل ذكرنا فيما سبق: أنه غلب المذكر لشرفه، أو لكثرته إذا قلنا: إن العاقل أكثر.

وقوله رحمه الله: [نزلتا لخطابهما منزلته]، أو أنزلتا، يعني: المسألة فيها إما تغليب، وإما أن الأرض والسماء أنزلتا منزلتا الغائب العاقل لخطابهما أي لكونهما خوطبا ولا يخاطب غالبًا إلا العاقل.

وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يقول: [الضمير يرجع إلى السماء، لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه أي: صيرها سبع سموات]، ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يقول: [الضمير يرجع إلى السماء]، وحينئذ يرد إشكال: فإن السماء مفرد، و(قضاهن) الضمير جمع، فكيف يكون الأمر كذلك.

فيقول رحمه الله: [يرجع إلى السماء؛ لأنها في معنى الجمع الآيلة إليه]؛ لأن هذه السماء المفرد يؤول إلى جمع وما مقداره؟ سبع سموات، فكأنه عبر عن السماع باعتبار مآلها، أنها ستكون سبع

سموات، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ أي: صيرهن، وعلى هذا فيكون الضمير في ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ المفعول الأول، وسبع سموات المفعول الثاني. ويحتمل أن تكون قضاهن أي فرغ منهن، وعلى هذا فيكون الضمير الأول مفعول به، و ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ حال، أي حال كونها سبع سموات، وعلى كلٍ فإن السموات كانت سبع في يومين، قال المؤلف: [الخميس والجمعة، فرغ منها في آخر ساعة منها وفيها خلق آدم ولذلك لم يقل هنا سواء، ووافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام].

وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ و(في) للظرفية، والظرف يكون أوسع من المظروف، فيحتمل أن يكون قضاهن في يومين من أول اليومين إلى آخرها. ويحتمل أنه قضاهن في يومين، أي: في هذا الظرف وإن كان القضاء لم يستوعب بهذا الظرف. وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف وسيتبين ما به إن شاء الله، يقول: [فرغ منها في آخر ساعة منه]، وفي آخر الساعة [خلق آدم، ولهذا لم يقل سواءً]، بينما قال في خلق الأرض (في أربعة سواء)، وهنا لم يقل: (في يومين سواءً)، وذلك لأن بعض اليومين خلق فيه آدم، هذا ما ذهب إليه المؤلف وفيه نظر ظاهر.

لأن هذا يقتضي أن آدم خلق حين خلق السموات والأرض، يعني: في الأيام الستة التي خلقت فيها السموات والأرض، وهذا لا شك أنه خطأ، وإنما خلق بعد لا نقل بملايين ولكن بمئات السنين؛ لأن آدم كما تعلمون جعله الله خليفة للجن الذين سكن الأرض قبله، ولهذا لما قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ....﴾ إلى آخره، فدعوى المؤلف رحمه الله أن آدم خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة التي تم فيها خلق السموات والارض، هذا غير صحيح. نعم هو خُلِقَ آدم يوم الجمعة ولا شك في هذا. وهذا ثبت عن النبي ﷺ، ولكنها ليست الجمعة التي تم بها خلق السموات والأرض، إذًا خلقهن في يومين، يقول المؤلف: [إن هذا وافق ما هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة آيام. كيف وافقها؟ لأن أربعة أيام كانت لخلق الأرض، ويومين لخلق السماء، فيكون المجموع ستة أيام]، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام. وفي بعض الآيات ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لأن بين السماء والأرض من الآيات العظيمة ما استحق أن يكون قسيمًا لخلق السموات والأرض، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وقد كنا نقول كيف يكون خلق ما بين السموات والأرض قسيما لخلق السموات والأرض، مع أنه في نظرنا لا يساوي شيئًا بالنسبة لخلق السموات والأرض، إذا كنا لا نعلم إلا أن الذي بين السموات والأرض هو الغيوم والهواء فقط، وكنا نقول: إن القمر والنجوم والشمس كانت في السماء، كنا نقول القمر في السماء الدنيا، والشمس في السماء الرابعة، وزحل في السماء السابعة، وكنا ننشد قول الشاعر:

زُحَلٌ شَرِي مَرِّيخُهُ مِنْ شَمْسِهِ فَتَزَاهَرَتْ بِعطَارِدَ الْأَقْمَارُ

وعلى هذا فتكون الشمس في السماء الرابعة وكنا نظن أن هذا مرصعة بالسماء، كما يرصع المسمار على الخشبة، لكن تبين الآن أن هذه في أجواء بين السماء والأرض، وليست مرصعة في السموات والأرض وأن السماء من فوقها بأمدٍ بعيد، وحينئذ تبين الحكمة من كون الله عز وجل يجعل خلق ما بين السماء والأرض عديلًا لخلق السماء والأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [الذي أمر به مَنْ فيها من الطاعة والعبادة]. أوحى لكل سماء أمرها، يعني قدر بها أوحاه في كل سماء أمرها، كل سماء لها ملائكة خاصة وأجواء خاصة، كل سماء تختلف عن السماء الأخرى، حتى إن بعضهم - وهي من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب - يقول: إن جرم السماء الدنيا تختلف عن جرم السماء الثانية والثانية عن الثالثة كل واحدة من مادة أخرى غير مادة السماء الأخرى والله أعلم.

وقوله: ﴿أَمْرَهَا﴾ مفرد مضاف فيعم جميع الأمور، جميع ما يتعلق بكل سماء.

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [بنجوم ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوب بفعل مقدر، أي حفظناها من استراق الشياطين السمع بالشُّهب]، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ الدنيا: يعني: القريبة، وسميت دنيا؛ لأنها قريبة من الأرض، فهي أقرب السماوات، زينها بالمصابيح، والمصابيح المقصود بها النجوم، وسميت بمصابيح؛ لأنها بمنزلة القناديل المعلقة بالسقف.

فإن قال قائل: ظاهر الآية، أن هذه المصابيح مرصعة بالسماء، قلنا إن كان ظاهرها في الواقع بخلاف ذلك. ولا مانع من أن تزين بمصابيح وإن لم تكنْ ملتصقة بها، أرأيت لو أنك دليت مصابيح من سقف عالٍ، ثم تكون تحت هذه المصابيح، أفلا تكون هذه المصابيح زينة للسقف؟ نعم، وإن كانت غير لاصقة به، بل جهة هذا السقف، فلا يلزم من قوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أن تكون مرصعة بالسماء، بل نقول مزينة بها وإن بينها وبين السماء مسافة، وقوله ﴿وَحِفْظًا﴾ أي: حفظناها حفظا، فالسماء محفوظة، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ولهذا لم يستطع جبريل أن يدخل إلى السموات مع أنه نازل منها، حين كان معه محمد ﷺ، حتى استأذن له، ففي حديث المعراج، أن جبريل لما وصل بالنبي ﷺ إلى السماء الدنيا استفتح، فقيل من هذا؟ قال: جبريل، فقيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل له: هل أوحي إليه؟ قال: نعم، ففتح له. لماذا؟ لأن السماء محفوظة، لا يمكن أن يدخل أحدًا منها إلا بإذن الله، جبريل قال: معي محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحبًا به فنعم المجيء جاء ثم فتحوا له، فدخل السماء الدنيا، ثم الثانية والثالثة وهكذا. مما يدل على إتقان حفظ الله تبارك وتعالى للسموات وأنها متقنة على الملائكة فلا يمكن أن يتجاوزها أحد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ذلك، المشار إليه ما سبق، من قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ (العزيز) أي: الذي قدره هو العزيز عز وجل (العليم)، العزيز هنا مناسبتها؛ لأن المسألة تحتاج إلى عزة وإلى قوة، ولهذا يقول المؤلف رحمه الله: [العزيز في ملكه]، يعني الذي له العزة التامة في ملكه، لكن إلى الآن لم يبين لنا ما هي العزة، العزة قال العلماء: إنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام، عزة القدر وعزة القهر وعزة الامتناع؛ ثلاث معانٍ.

أما عزة القدر: يعني معناه الشرف، يعني أنه ذو قدر عظيم. بالغ العظم.

أما عزة القهر: يعني أنه قاهر ولا يُغلب.

والثالث عزة الامتناع، أي يمتنع أن يناله سوء جل وعلا، بأي حال من الأحوال.

ولملاحظة هذا المعنى الثالث: نقول أنه مشتق من قولهم أرض عزاز. عزاز يعني قوية صلبة، ونحن نسميها باللغة العامية الأرض عزا يعني صلبية، ليست لينة كالرمل والروض، ولكنها صلبة.

أما العليم: فهو ذو العلم، وعلْم الله تبارك وتعالى واسع، قال الله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢] فعلمه تعالى واسع شامل لكل شيء، يعلم ما كان فلا ينساه، ويعلم ما يكون فلا يجهله، ويعلم كيف كان يكون إذا كان، يعني: ليس يعلم أن هذا الشيء يقع فقط، بل يعلم أنه يقع ومتى يقع وكيف يقع وأين يقع؛ من كل جهة.

وقد فصل الله تعالى دقائق العلم في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام:٥٩]. و علمنا بأنه عليم، ما الذي يستوجب من الناحية المسلكية بالنسبة للعبد؟ إذا علمت أن الله بكل شيء عليم، ما الذي يترتب على هذا؟ يترتب على هذا أن يخاف العبد الله عز وجل، وأن يقوم بطاعته، وأن يدع معصيته، لأنه يعلم بأن الله تعالى عالم به، حتى وإن خفيت على الناس فإنك لن تخفى على الله، بل إن الله يعلم من نفسك ما لا تعلمه أنت، أنت تعلم من نفسك ما يمكن أن تحيط به، لكن الله يعلم من نفسك ما لا تحيط به، يعلم مستقبلك ومآلك وحالك، وأنت لا تعلم، وهذا يوجب للعبد المؤمن بذلك أن يخاف ربه في السر والعلن، حتى ولو كنت بحجرة مظلمة ليس معك أحد وأردت أن تفعل ما يغضب الله، فاعلم أن الله تعالى يراك.

مسألة: حول قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ [الرحمن: ٣٣].

الجواب: هذه الآية على سبيل التحدي، يعني: إذا استطعتم أن تنفذوا فانفذوا وفروا من قضاء الله، فروا من عذاب الله لا تستطيعون، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾، يعني ولا سلطان لكم، والسلطان هنا القدرة والقوة، لأن المقام مقام تحدي، والذي يقابله قوة، والمعنى لا سلطان لكم، ولهذا فالآية للتحدي، وهذه تكون يوم القيامة، وليس كما زعم الناس، لما خرجت الروس بأول

مركبة فضائية، وخرجوا عن الغلاف الجوي، بدأ هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا القرآن كتابًا علميًّا، يقولون هذا دل عليها القرآن، ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إلا بعلمه، وقد تعلمنا ونفذنا، وهذا حرام، تفسير القرآن بهذا المعنى حرام، وقول على الله بغير علم.

لأن إذا كان المقام مقام تحدي، فما هو السلطان الذي يمكن أن يفعل به؟ القوة، لا شك، ثم إنه قال: في الآية التي بعدها: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، فهل أرسل على هؤلاء، ثم إنه يقول: ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ وهؤلاء إذا قدرنا أنهم قد نفذوا من الأرض فإنهم لم ينفذوا من أقطار السموات، ولهذا هؤلاء - والعياذ بالله - الذين فسروا الآية بما حصل قالوا على الله بلا علم، ومن قال على الله بلا علم وقال بالقرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، ومثل ذلك من قال: إن الأرض تدور لقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] قال هذا في الدنيا، لأن قوله (تحسبها)، هذا حسبان والحسبان لا يكون في الآخرة، بل في الآخرة يقين، فيقال هذا خطأ.

أليس الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ [الحج: ١، ٢] تحسبهم سكارى من شدة الذهول والانزعاج، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

المهم: أن بعض المتأخرين هداهم الله، يفسرون القرآن بالواقع، مع أنه لا يدل عليه، ونحن نقول احمدوا الله على أن القرآن لا يدل على خلافه، أما أن تقول يدل عليه فهذا خطأ.

مسألة: حول مفهوم الآيتين: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨].

الجواب: رفع يعني: جعلها رفيعة، يعني بعد أن خلقها جعلها سميكة.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

قال الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فقضاهن يعني أتمهن. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يومي الخميس والجمعة، فرغ منها في آخر ساعة وفيها خلق آدم، ولذلك لم يقل هنا سواء، ووافق هنا آيات خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأوحى إلى كل سماء أمرها الذي أمر به، أمر به من فيها من الطاعة والعبادة.

قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ صرف المؤلف الأمر هنا إلى الأمر الشرعي لا الأمر الكوني، [أمره الذي أمره به من فيها من الطاعة والعبادة].

ويحتمل أن يكون المراد بالأمر هنا الشأن، (أوحى في كل سماء شأنها)، فيشمل أحوال السماء وأحوال من فيها، وهذا أعم مما ذكره المؤلف رحمه الله، وإننا نقرر قاعدة في التفسير: إذا ورد تفسيران في الآية، احدهما أعم أخذنا بالأعم، لأن الأعم يدخل فيه الأخص، ولا عكس. فإذا قلنا شأنها، صار أعم من أن نقول إنه أمرها الشرعي، لأن هذا أخص، فالحمل على الأعم أولى، يقول جل وعلا ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وهي [النجوم] زيناها: أي جعلنا زينة تسر من نظر إليها ويبتهج بها، و﴿وَحِفْظًاۚ﴾ منصوب بفعل مقدر أي: [حفظناها حفظًا من استراق الشياطين السمع بالشهب] إلى آخره.

قوله: ﴿وَحِفْظًاۚ﴾ مصدر عامله محذوف، التقدير: (حفظناها حفظًا) ومن أي شيء؟ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧] فيكون المراد بالحفظ، أي: الحفظ من الشياطين، لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وما شأن الشياطين بالنسبة للسمع؟ شأن الشياطين بالنسبة للسمع، تصعد فيركب بعضها بعضًا إلى أن تصل إلى السماء، فتستمع إلى أخبار السماء، وما تتحدث به الملائكة، ثم تنزل به إلى الأرض، وتلقيه إلى الكهان الذي لكل واحد منهم رئيٌّ من الجن، والكاهن يأخذ هذا الخبر ويضيف إليه أخبارًا أخرى، ثم يحدث الناس بذلك، ومن المعلوم أن ما سمع في السماء لا بد أن يكون، فتكون الكلمة الواحدة الصدق، تكون مسارًا لإعجاب الناس بالكهان والرجوع إليهم، ولهذا كان في الجاهلية يتحاكمون إلى الكهان، هذه هي قضية استراق السمع، ثم إن الله تعالى حفظ السماء وقت بعثة النبي ﷺ وصارت الشياطين إذا حاولت الاستماع أرسل الله تعالى عليهم شهاب يطلقها، وتهلك، وهل بقي هذا الحفظ بعد موت الرسول ﷺ أو لا؟ يقال، الله أعلم، لكنها حفظت في عهد النبوة من استراق السمع، أما الآن فالله أعلم، فقد يكون ذلك أو لا يكون، لأنه ليس هناك نبي حتى يختلط المسموع المسترق بالوحي الصحيح.

يقول عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ المشار إليه ما سبق مما تحدث الله عنه من خلق السموات والأرض، تقدير: أي مقدر (العزيز العليم)، أو تقدير: مصدر على ثابت، ويكون المشار إليه فعل الله لهذا الشيء، فإن عندنا الآن كلمة تقدير مصدر يجوز بأن تكون معنى اسم المفعول، ويكون المعنى: ذلك مقدر العزيز، ويجوز أن تكون مصدرًا وهو فعل الله عز وجل، ويكون هذا أيضًا معنًا صحيحًا وكلاهما متلازمان، لأنه إذا كان هذا الشيء مقدر الله فهو من تقديره ناتجًا عن تقديره، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ قال: [في ملكه، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بخلقه]، فيه شيء من القصور [العزيز في ملكه] والصواب: العزيز يعني: بذلك ذا العزة، والعزة قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام كما سبق أن بيّنا، وهي: عزة قدر وعزة قهر وعزة الامتناع.

وعزة القدر: أي أنه ذو قدر عظيم وشرف عظيم لا يشاركه فيه أحد.

وعزة القهر: أي القاهر الذي يغلب ولا يُغلب.

وعزة الامتناع: أي يمتنع عن الله سوء أو نقص.

أما قوله: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ فهي صفة مشبهة ويجوز أن تكون من باب المبالغة،لأن فعيل يصح أن تكون صفة مشبهة ويصح أن تكون صيغة مبالغة، ومعناها ذو العلم: وعلم الله تعالى واسع عالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد سبق الكلام عليها قبل ذلك ولا حاجة إلى الإعادة.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** تحقيق أن القرآن مثاني، تثنى فيه المعاني المتقابلة إذا ذكرت ثواب المجرمين ذكر ثواب المتقين، وإذا ذكرت الجنة ذكرت النار، وهلم جرًّا، من أجل أن يكون الإنسان سائر إلى ربه بين الخوف والرجاء، وهكذا ينبغي للإنسان في سيره إلى ربه أن يكون خائفا راجيًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فما سبب الخوف؟ سبب الخوف ذنوب الإنسان، إذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره خاف، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: يخافون ألا يقبل منهم، والرجاء إذا نظر إلى عفو الله وفضله وأنه جل وعلا حليم رجي وقوي رجاؤه، فيكون دائرًا بين الخوف والرجاء، وقال بعض أهل العلم: في الطاعة يغلب جانب الرجاء، وفي المعصية يغلب جانب الخوف، وهذا له نظر قوي، لأن الإنسان إذا فعل الطاعة فلا بد أن يحسن الظن في الله، وأن الله سيقبل منه فيقوى رجاءه، أما إذا هم بالمعصية فينبغي أن يغلِّب جانب الخوف حتى لا يقع في المعصية.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن الإيمان وحده لا يكفي، حتى يقترن بالعمل، لكن إذا أطلق الإيمان شمل العمل، وإن ذكر معه العمل صار العمل علانية والإيمان سرًّا، مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، هنا جمع بين الإيمان والعمل فيكون الإيمان في القلب والعمل بالجوارح.

٣- **ومنها:** دوام نعيم المؤمنين العاملين للصالحات، لقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي لا يقطع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

٤- **ومنها:** أن أجر الآخرة خير من أجر الدنيا وثوابها، وجه ذلك أن أجر الآخرة غير مقطوع بل ومستمر ودائم وغير ممنون به أيضًا، بل يعطى الإنسان بدون منة، وأما ثواب الدنيا فإنه بالعكس.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

١- **في هذا دليل على:** وجوب إعلان المؤمن ما عليه الكفار من الكفر بالله؛ لقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ

لَتَكْفُرُونَ﴾، ويتفرع على هذه فائدة أنه لا يجوز مداهنة الكفار، وإن كانت المداراة تجوز لكن المداهنة لا تجوز. والفرق بينهما: أن المداهنة سكوت الإنسان عن معصية العاصي كأن يقول لك: معصيتك ولي طاعتي، فأنت اعمل وأنا تعمل، هذه مداهنة، مصانعة لا تجوز قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، لكن لا يجوز للمؤمن أن يداهن، أما المدارة فمعناه: أن ينقل الإنسان العاصي ما عليه من معصية شيئًا فشيئًا، وهو غير راضٍ بها بل هو كاره ولا يرى أنه يجوز اقرارها بخلاف المداهن، المداهنة في الحقيقة أشبه ما بها في الوقت الحاضر ما يسمونه بالمجاملة أو بالعلمنة، العلمنة الآن أو العلمانيين، يقول خلِّ كل إنسان وشأنه، الدولة دولة، والدين دين، الدولة لا بد أن تتحد، والدين لكل دينه. لا تنكر على الكافر ولا على الفاسق، خل كل إنسان يفعل ما يشاء.

المهم: أن هذه الآية صريحة، في أنه يجب أن ننكر على الكافرين كفرهم، وألا نداهنهم.

٢- **ومن فوائد الآية:** أنه ينبغي تأكيد ما يمكن أن ينفى، أو يشك فيه، وجهه أنه أكد ذلك بقوله ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ﴾، وإلا فيكفي أن يقول: (قل لقد كفرتم) أو (قل كفرتم)، لكن لما كان هذا أمر يشك فيه، ويقال: هؤلاء لم يكفروا بالله بل آمنوا به، لأنهم يؤمنون بأن الله موجود، وأن الله خالق السموات والأرض، لكن إذا لم يتبعوا شرعه فهم كافرون به. ولو أقروا بوجوده.

٣- **ومن فوائد الآية:** بيان قدرة الله عز وجل وبيان حكمته في خلق السموات والأرض، حيث خلق هذه الأجرام الكبيرة العظيمة الواسعة في خلال ستة أيام، أما الحكمة فوجهه: أن الله جل وعلا كان قادرا على أن يخلقها بلحظة واحدة، كن فيكون، لكنه جل وعلا ربط الأسباب والمسببات وجعلها تتفاعل شيئًا فشيئًا حتى تنتهي، هذا من وجه، ومن وجه آخر، أنه أخر ذلك ليعلِّم عباده التأني في الأمور.

٤- **ومنها:** أن خلق الأرض قبل خلق السماء، لأنه لما ذكر خلق الأرض في أربعة أيام، قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهذا كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ولكن هذا يعارضه ظاهر قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠] فهنا ذكر أن الأرض دُحيت بعض خلق السماء، فهل المراد بالدَّحو شيء سوى الخلق. أو أن البعدية هنا بعدية ذكر. يعني كما يقولون هذا ترتيب ذكري، وليس ترتيبًا زمنيًّا، وفي هذا وجهان:

الوجه الأول: أن الدحو ليس الخلق بل هو شيء آخر، فسره الله بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، هذا الدحو، وإخراج الماء والمرعى شيء زائد على الخلق، والتكوين.

وأما الوجه الثاني: فإن البعدية هنا بعدية ذكر وهو ما يعرف عند علماء النحو بالترتيب الذكري.

ومنه قول الشاعر

إِنَّ مَـنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أَبُـوهُ ثُـمَّ سَـادَ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ جَـدُّهُ

فتجد هنا الترتيب على خلاف الترتيب الزمني، ولكن هذا يسمى ترتيبا ذكريًا، يحتمل وجهين لكن الوجه الأول أولى، أن يقال أن الدحوى ليس الخلق، الخلق تكوين شيء، والدحو شيئ آخر. والدليل أن الله تعالى قال في الدحو: مفسِّرًا إياه ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ إذنْ لا معارضة بين الآيتين، للتنزُّل لكل واحدة منهما على وجه لا يعارض الآخر.

واعلم أنه ينبغي للإنسان إذا رأى آيتان ظاهرهما التعارض، ألا يسرع في الحكم بالتعارض، لأنه لا يمكن أن تتعارض آيتين من كل وجه - كما ذكرنا ذلك في أصول التفسير - ولكن ليتأنى وليتأمل وليفكر؛ فإن أدرك أنه لا تعارض فهذا المطلوب، وإلا وجب أن يسأل أهل العلم، فإن لم يتبين له الأمر، وجب عليه التوقف وصارت هذه من الآيات المتشابهات التي يجب أن يقول فيها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وقد ذكرنا لكم فيما مضى، أن من العلماء الذي ألف في الآيات التي ظاهرها التعارض، وجمع بينها، وذكرت أن من أحسن ما رأيت ما ألفه الشيخ الشنقيطي رحمه الله - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب -.

٥- ومن فوائد الآية: أن نوع الكفر الذي حصل من هؤلاء المخاطبين الشرك، لقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ وجعل الأنداد له أنواع كثيرة، إما أن يجعل له أندادا في الذات، فيقول إن الله له مثيل، كما فعلت النصارى حيث: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وكما فعل الممثلة الذين مثلوا صفات الله بصفات خلقه، فإن هذا من الشرك، وقد يكون ندًّا في العبادة، يعبده وإن كان لا يرى أنه مثل الله، لكن يعبده ويدعي أنه إنما عبده ليقربه إلى الله عز وجل، وقد يكون هنا أنداد في المحبة يحب الشيء كما يحب الله، والعجب أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فيحب الشخص ويتعلق به كثيرًا، ويقول أنا أحبه لله، والحقيقة أنه يحبه مع الله، وليس لله، الذي يحب الشخص لله، تكون المحبة الأصلية محبة الله وهذا أحبه لأنه يحب الله، لكن الذي يجعل قلبه منصرفًا إلى هذا المحبوب، لا يفكر إلا به ولا ينام لا على ذكره، ولا يستيقظ إلا بذكره، هذا لم يحبه لله، بل أحبه مع الله، وهذا شرك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، كذلك من الند أن يتعلق قلب الإنسان بالمخلوق خوفًا ورجاءً، لا محبة ولكن خوفًا ورجاءً، بحيث يعتمد عليه في تحصيل معاشه أو في دفع الضرر عنه، وهذا يقع كثيرا ولا سيما بعد فتح المستشفيات، فإن أكثر الناس يتعلق قلبه بالمستشفى، تجده إذا مرض يقول أذهب لآخذ الأقراص المعالجة، ما يقول: يا رب عافني أو يلجأ إلى الله، لا يكون أول

ما يفكر فيه العلاج المادي، مع أنه ربما يكون هذا الطبيب الذي اعتمد عليه. ورجاه كافرًا ملحدًا، هذا أيضًا من اتخاذ الند لله، ولهذا كان ضرر المستشفيات الآن مع ما فيها من نفع وخير كثير والحمد لله، ضرر عظيم، لأن الناس صاروا يعلقون آمالهم. ويجرون آلامهم بالمستشفيات، حتى ولو أصابته شوكة يسهل إخراجها، يقول: لا المستشفى قلبه معلق بالمستشفى، لا إله إلا الله.

المرأة إذا جاءها الطلق، وصارت تطلق طلقا عاديًا، ماذا يفعل؟ المستشفى. فيذهب للمستشفى، والمستشفى تقول: والله هذه مسألة خطيرة لا بد من قيصرية والقيصرية هذه (شق البطن)، وبالقيصرية هذه إذا ولدت عشر أولاد لم تعد تتحمل أي حمل، إذا حصل أي حمل يحدث إنفجار في بطنها.

كل هذا نوع من الشرك، لا تلجأ إلى المستشفى إلا للضرورة القصوى، إجعل رجاءك معلقًا أولا بالله، وقل إن الذي خلقني وأوجدني أول مرة قادرٌ على أن ينزل ما نزل بي من مرض، أليس كذلك؟ وهو أقدر من كل أحد، يزيلها عز وجل بدون أي عملية، وبدون أقراص، وبدون محاقن. المهم أن اتخاذ الأنداد ليس خاصًا في شيء معين، بل هو يكون في أشياء كثيرة، فإياك أن يكون لك ند، حتى أن الرسول ﷺ قال: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ» كيف يعبد هذه الأشياء؟ هل الإنسان يضع الدينار فوقه ويسجد له ويركع؟ لا، ولا كذلك الدرهم ولا الخميصة ولا الخميلة، لكن لما كان قلبه معلق بهذا الشيء، إن أعطي رضي وإن لم يُعْطَ سخط، صار عبدًا لها، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من ذلك.

٦- **ومن فوائد الآية:** بيان امتناع الند لله عز وجل، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وجه الامتناع: أنه رب العالمين، ومن يمكن أن يكون رب العالمين؟ لا أحد يمكن فهو رب وما سواه مربوب؛ إذنْ ما سواه لا يصح أن يكون ندًّا له.

٧- عموم ربوبية الله عز وجل لكل العالم؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٨- وجوب الخضوع له شرعًا، كما أننا نخضع له قدرًا، لأن هذا مقتضى الربوبية. أن تخضع لهذا الرب شرعًا، كما أنك خاضع له قدرًا، فالكل خاضع لله قدرًا، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] هذا السجود قدري، فيجب أن تخضع له شرعًا، وأن تتذلل له، تكون أمامه ذليلا، كما كنت أمامه ذليلا في قدره.

٩- منة الله سبحانه وتعالى على عباده حيث جعل في الأرض رواسي. أي ثوابت ما الحكمة؟ الحكمة ذكرها الله في قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾. لولا هذه الرواسي لمادت بنا الأرض.

١٠- أن الأرض تدور، لقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أن نفي الميدان دليل على وجود أصل الحركة. إذْ لم يقل أن تتحرك بكم، ونفي الأخص يقتضي وجود الأعم. كما قلنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] إنه دليل على أن الله يرى، لكن لا يدرك إذ لو

كان لا يرى لوجب أن يقول: (لا تراه الأبصار)، فلما نفى الأخص صار دليلًا على وجود الأعم. هكذا قررها بعضهم، وقال: إن في الآية دليلًا على أن الأرض تدور، لأن الله ألقى هذه الرواسي لتكون دورتها متزنة، لا تحدث خلخلة فتضطرب بالناس، ولكن هذا وإن كان قويًّا من حيث النظر، لكنه ليس متعين، إذ يجوز أن يكون المعنى، ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] تضطرب ولو كانت واقفة، فالسفينة مثلًا على الماء تضطرب ولو كانت واقفة، فيكون المعنى: أن تميد بكم، يعني أن تضطرب بكم، وسواء كانت تدور أو لا تدور؛ ولهذا في الآية دلالة قطعية على أن الأرض تدور.

فإن قال قائل: إذا قلت: إنه يحتمل أنها دالة على أن الأرض تدور. فما جوابك عن آيات كثيرة تدل على أن الشمس تجري تطلع تغرب تزاور توارى تذهب؟ كل هذه الأفعال أسندت إلى الشمس والأصل أن الفعل إذا أسند إلى شيء أن يكون قائمًا به، فيكون ظاهر القرآن أن الشمس هي التي تدور على الأرض، ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ [الكهف: ١٧]؛ إذنْ معناه أنها كانت مختفية ثم طلعت علينا، وهؤلاء الذين يقولون: إن الأرض تدور يكون المعنى إذا طلعت، أي إذا طلعنا عليها، لأن نحن الذي نأتي إليها، أما هي ثابتة أي الشمس، قلنا يجوز أن تكون الأرض تدور والشمس أيضًا تدور وهذا جائز، وإذا كان الدوران بالعكس فظاهر أن يتعاقب الليل والنهار، يعني مثلا لو كانت الأرض تدور نحو الشمس، والشمس تدور نحو الغرب، هذا ممكن بكل سهولة، فإن كانتا تدوران إلى اتجاه واحد فإن أحدهما إذا كانت أسرع من الأخرى تحقق اختلاف الليل والنهار، ومن قال: إنه لا يمكن أن نقول: إن الشمس تجري إلا إذا قلنا: إن الأرض ثابتة لا تدور، فأما إثبات دوران الأرض مع دوران الشمس فهذا لا يمكن، فإن قوله غير صحيح، بل إن كان ممكنًا ولو قلنا بدورانهما جميعًا، لكن الشيء الذي نعتقده الآن أن الليل والنهار يحصل بتعاقب الشمس على الكرة الأرضية، لا بتعاقب الكرة على الشمس هذا الذي نعتقده إلى الآن لأن هذا هو ظاهر القرآن، والقرآن صدر من الخالق عز وجل وهو أعلم بما خلق، ولا يمكن أن نحيد عن هذا قِيدَ أُنْمِلَة، ما دام لم يظهر لنا أمر حسي لا يمكن التكذيب به. وعند بعضهم أي الذين يقولون بدوران الأرض، يقولون عندنا أمر قطعي بدليل الصواريخ العابرة للقارات، فإنها تقدر بتقدير معين بحيث يتماشى مع دوران الأرض، فيصيب الهدف وإلا لما أمكن، على كل حال هذه أنا أردت أن أتكلم فيها بعض الشيء، لأنها كانت في يوم من الأيام كانت مسارًا للجدل بين الناس، بين طلبة العلم وبين عامة الناس وبين الذين لم يتمكنوا من العلم كثيرًا، فنحن نقول أولا: البحث العميق في هذا والجدل في هذا أمر لا ينبغي ولا فائدة منه. ثانيًا: عندما نريد أن نحقق المسألة تحقيق علميًّا نظريًّا، ننظر إلى الآيات، فإذا كان ظاهر قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١١] يقتضي أنها تدور قلنا بذلك ولا حرج، ولا مانع أن نقول هي تدور، وكذلك الشمس ولا

مانع، فنكون أخذنا بظاهر القرآن في الشمس، وبظاهر ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في الأرض، وإذا كان قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لا يتعين أن يكون بحركتها وإنما قد تضطرب وهي ساكنة قارة، فلا يبقى في الآية دليل على أن الأرض تدور.

فائدة: أما الذين يقولون: إن اختلاف الليل والنهار يكون باختلاف دورة الشمس نحن نقول: لا نقرهم على هذا، بل نقول باختلاف طلوع الشمس على الأرض، لكن لو فرض أنه جاءنا دليل حسي ملموس على أن اختلاف الليل والنهار بسبب دورة الأرض لقلنا به، ويكون إضافة الأفعال هذه إلى الشمس على حسب رؤية الإنسان لها، هم يقولون: إن الشمس تدور في الجو، أو تدور حول نفسها، على كل حال فهذا لا يهم، فالمعول على ما في القرآن، الآن إذا قرأنا: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧]، هذه فيها أربعة أفعال أضيف كلها إلى الشمس، الأصل أن الأفعال كلها إلى الشمس، الأصل أن الأفعال مضافة إلى الشيء أنها قائمة به، فالشمس هي التي تطلع، هم يقولون: لا، الشمس لا تطلع علينا نحن الذين نطلع عليها، بسبب دوران الأرض، يعني الآن مثلا، إذا رفعت يدي ويكون فوقها المصباح فيضيء المصباح عليها.

يعني: نحن غبنا عن الشمس، نقول: إذا ثبت هذا ثبوت قطعيًا لا شك فيه، لأن في القرآن لا يخالف الحس أبدًا، وتفسر الأفعال المضافة إلى الشمس بحسب رؤية الرائي.

مسألة: كيف تكون طاعة الكافر طاعة قدرية؟

الجواب: أليس الله يأمره أن يكون مريضا فيمرض، ويكون صحيحًا فيصح. ويموت فيموت.

مسألة: حول قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]؟

الجواب: أنها تختفي عنها؛ ولهذا قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾.

مسألة: ما الحكمة في أن الله تعالى يذكر السماء أولا ثم الأرض؟

الجواب: الحكمة في أن الله تعالى يذكر الأعلى قبل الأسفل، نقول: أما التحدث عن خلق السماء فبين الله تعالى أن الأسفل يخلق قبل الأعلى، فأنت الآن إذا أردت أن تبني شيئًا، هل تبني السقف قبل أن تبني العمود؟ بالطبع، تبني العمود أولا، فعند الذكر والتحدث يبين الأشرف والأعلى ويقدم، وعند التكوين والبناء يبدأ بالأسفل؛ لأنه هو الأصل.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى جعل الرواسي من فوق الأرض لما في ذلك

من المنافع، ودفع المضار الذي أشرنا إليه في أثناء التفسير.

٢- **ومنها:** أن الله تعالى بارك في الأرض، ووجه البركة ظاهرة، فقد حملت الأحياء والأموات، وحملت من الدواب ما لا يعلمه ـ أجناسه فضلًا عن أفراده ـ إلا الله عز وجل.

٣- **ومنها:** أن الله قدر في الأرض أقواتها، أي جعلها مقدرة بقدر معلوم، ومن ذلك التقدير أن جعل في جهات من الأرض من الأقوات ما ليس في جهات أخرى حتى يتبادل الناس هذه الأقوات وتتحرك التجارة إلى غير ذلك من الفوائد ولعله يشير إلى هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٠] يعني: المطر ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾.

٤- **ومن فوائد الآية:** أن خلق الأرض تمَّ في أربعة أيام، لقوله تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية:** أن الله تبارك وتعالى يجيب السائلين عن أسئلتهم، أو يجيب السائلين أسئلتهم سواء سألوا بمسألة الحال أو بمسألة المقال، فالإنسان متشوف إلى علم المسألة دون أن ينطق بلسانه، يقال: إنه سائل بلسان الحال، والإنسان الذي يتكلم باللسان، سائل بلسان المقال. والمسألة عن خلق السموات والأرض وكيف ذلك؟ هذا يكون بمسألة الحال وبمسألة المقال.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن السماء كانت قبل أن تخلق كانت دخانًا، ثم حول الله هذا الدخان إلى سماوات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات علو الله عز وجل على أحد القولين في تفسير: ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ وهما قصد أو ارتفع.

٣- **ومنها:** أن كل شيء مؤهل لمخاطبة الله عز وجل، أي قابل أن الله يخاطبه، لأن الله خاطب السماء والأرض وهي جماد. قال ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ لكننا لو خاطبنا الجماد لَعُدَّ ذلك سفهًا ونوعًا من الجنون، أما الرب عز وجل فإنه يخاطب ما شاء من عباده؛ من عاقل وغيره وجماد وغيره؛ لأن كل ما خاطبه الله فإنه يفهم خطاب الله.

٤- **ومنها:** أن كل شيء خاضع لله عز وجل، سواء كره أم رضي؛ لقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

٥- **ومنها:** كمال خضوع السموات والأرض لله حيث قالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

٦- **ومنها:** أنه يصح أن يعبر عن غير العاقل بما يعبر به عن العاقل إذا نزل غير العاقل منزلة العاقل؛ لقوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾؛ لأن هذا الجمع جمع المذكر السالم، لا يصدر إلا من عاقل، وغيره يقال: طائعات وما أشبهها، لكن إذا نزل غير العاقل منزلته بالخطاب صح أن يعامل معاملة

العاقل.

٧- **ومن فوائد الآية**: إثبات الطواعية والكراهية لغير العاقل، لقوله: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾، فهل هذا يعني أن لغير العاقل إرادة؟

الجواب: نعم، لأن الطائع له إرادة، ومن يتصور إكراهه لا يُثْبِتُ له إرادة، وإرادة كل شيء بحسبه، وقد مر علينا أن الحصى تسبح بين يدي رسول الله ﷺ ولا تسبيح إلا بعد إرادة، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال في أُحدٍ: «يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، والمحبة أخص من الإرادة، وعلى هذا فهل الجمادات التي لا نفقه تسبيحها تسبِّح؟ نعم، هي لها إرادة وتسبح الله عز وجل.

٨- **ومن فوائد الآية**: أن مدة خلق السموات أقل من مدة خلق الأرض، مع أن السماوات أعظم، لكن لما كانت الأرض موضوعة للأنام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠] كان خلقها أكثر مدة، لبيان عناية الله تعالى بهذه الأرض، وليعلم الأنام الذين على الأرض أن العبرة بالإتقان لا بالسرعة.

٩- **ومن فوائدها**: أن الله أتم خلق السموات، حين أوحى في كل سماء أمرها، ورتبها الترتيب المحكم المتقن.

١٠- **ومنها**: أن الله تعالى خلق هذه النجوم، لفائدتين، الفائدة الأولى: زينة السماء، والفائدة الثانية: حفظ السماوات من الشياطين، فهي تحفظ السماوات من الشياطين وهي كانت زينة للسماء، هناك فائدة ثالثة ذكرها الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ ولهذا قال قتادة وهو من أئمة التابعين: (خلق الله هذه النجوم لثلاثة: زينة للسماء ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها).

١١- **ومن فوائد الآية**: كمال إتقان الله عز وجل لمخلوقاته؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وهذا التقدير لا شك أنه تقدير محكم متقن من جميع الوجوه.

١٢- **ومنها**: إثبات اسمين من أسماء الله وهما: العزيز العليم. وهذان الاسمان يتضمنان صفتين، وهما العزة والعلو، وهنا نسأل: هل في العزيز ما يسمى بالحكم أو بالأثر؟

الجواب: نعم، بناءً على أن من معناه عزة القهر، والقاهر لا بد من شيء مقهور حتى يتم به القهر، فعلى هذا يكون الإيمان بهذين الاسمين متضمنًا ثلاثة أمور: أولًا: الإيمان باسمين من أسماء الله، والثاني: الإيمان بالصفة، والثالث: الإيمان بالأثر أو الحكم.



قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]

التفسير

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ﴾، قال المفسر: [﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي: كفار مكة]، ومعلوم أن الآية لم تدل على كفار مكة، ولكن السياق يدل على ذلك، حيث قال: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

قال المؤلف: [﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أي كفار مكة عن الإيمان بعد هذا البيان، ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾ خوفتكم ﴿صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: عذابٌ يهلككم مثل الذي أهلكهم]، ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾ فسره المؤلف بأنه التخويف، وهو كذلك، بأن المنذر هو مَنْ تكلم بكلام يخوف به غيره، ولهذا قيل: إن الإنذار هو: الإعلام المتضمن للتخويف، وقوله: ﴿صَاعِقَةً﴾، الصاعقة: ما يصعق المرء - أي يهلكه -، ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، والمثلية هنا لا تقتضي - والله أعلم - المماثلة من كل وجه، بل مثلية في أصل الإهلاك، أو في معاني العذاب، ويحتمل أن الله تعالى أنذرهم مثل صاعقة عاد وثمود، وصاعقة عاد وثمود نوعان، الريح والرجفة الشديدة، الذي أهلكوا بالريح الشديدة هم عاد، والذين أهلكوا بالرجفة والصيحة هم ثمود، وإنما ذكر الله عاد وثمود؛ لأن العرب يعرفونها، فهم يمرون بديار ثمود إذا ذهبوا إلى الشام، وهم كذلك يعرفون محل عاد الأحقاف، ويذكرون ويتناقلون ما جرى لهم من العذاب، وإلا فهناك أناس أيضًا أهلكهم الله عز وجل، لكن لما كان هؤلاء القوم - أعني عادًا وثمودَ - هم الذين تعرفهم العرب أي: كفار مكة، نص عليهم: ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، (عاد) هم قوم هود، و(ثمود) هم قوم صالح، أُهلكت عاد بالريح، والحكمة من ذلك أن يريهم الله عز وجل ضعفهم، وكانوا قد افتخروا بقوتهم فقالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأما ثمود فأهلكهم الله عز وجل بالرجفة والصيحة، الصيحة فيهم وأرجفت بهم الأرض.

قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم﴾

قوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ﴿إِذْ﴾ هذه ظرف للتعليل، يعني: تعليل الصاعقة التي أهلكتهم، سبب ذلك: أن الرسل جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم، قال المفسر: [أي: مقبلين عليهم ومدبرين عنهم، فكفروا كما سيأتي والإهلاك في زمنه فقط]، ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: يقول المؤلف: [مقبلين عليهم ومدبرين عنهم]، يعني: تارة يقبلون فيدعون، وتارة يدبرون فيهددون إذا لم يؤمنوا، ويحتمل أن يكون المراد من بين أيديهم ومن خلفهم، أي أتوهم بالآيات الماضية والآيات المستقبلة، فلم يقصروا في بيان الحق بل جاءوا ببيان الحق من كل وجه، وقوله: ﴿فَكَفَرُوا﴾ هذا هو المقصود من الإنذار أنهم كفروا فأهلكوا، ولهذا قال: [والإهلاك في زمنه فقط]، أي في زمن الكفر، وليس في زمن المجيء لأن الرسل جاءت أولا ثم دعت ودعت فلما أصروا على كفرهم أهلكوا، (أن) [أي: بأن] ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، أفاد المؤلف رحمه الله، (أنْ) هنا مصدرية، والتقدير بـ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، أي جاءتهم بعدم عبادة غير الله، ويحتمل أن تكون (أنْ) تفسيرية، بأنه سبقها معنى القول دون حروفه لأن مجيء الرسل جاءوا بكلام ووحي يتكلمون به ففيه معنى القول دون حروفه، وكلما جاءت (أنْ) بعد ما فيه معنى القول دون حروفه، فإنهم يسمونها تفسيرية، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] أوحينا أن اصنع الفلك، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي﴾ [النحل: ٦٨] فأن هنا تفسيرية، فكلما جاءت (أن) بعد ما تضمن معنى القول دون حروفه فإنها تكون تفسيرية، إذًا (أن)هنا يحتمل أن تكون مصدرية كما قال المفسر، و(أن) تكون تفسيرية، ينبني على هذا الخلاف كيف نعرب (لا)، إن أعربنا (أن)مصدرية، فلا نافية، والفعل منصوب بأن، وإن أعربناها تفسيرية، فلا ناهية، والفعل مجزوم بلا، فإعراب تعبد إذنْ يتنزل على الخلاف في (أن).

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، لا تعبدوا إلا الله هو معنى قول لا إله إلا الله، لأن لا إله بمعنى لا معبود حق ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾، وهنا يقول: لا تعبدوا إلا الله فهي بمعنى لا إله إلا الله، وهي بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ومتى حقق الإنسان هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فلا بد أن يقوم بطاعة الله، ما دمت تشهد بأنه لا إله إلا الله، فلا بد أن تتخذ الوسائل التي توصلك إلى هذا الإله الذي شهدت بأن لا إله سواه، ﴿قَالُوا﴾ الفاعل قوم عاد وثمود. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾، [على زعمكم] بما أرسلتم به على زعمكم كافرون، هذا الجواب، جواب في غاية السقوط، لو شاء ربنا أن نهتدي وألا نعبد إلا الله لأنزل ملائكة، وعلى هذا الترتيب الذي قلت لكم يكون مفعول شاء محذوف، أي لو شاء ربنا ألا نعبد إلا هو أو إلا إياه لأنزل ملائكة، فـ(لو) شرطية وشاء فعل الشرط، وجواب الشرط لأنزل ملائكة، ومفعول شاء محذوف، التقدير لو شاء أن لا نعبد إلا إياه

لأنزل ملائكة، هذه الحجة حجة باطلة بأن المرسل إليهم هل هم ملائكة أو بشر؟ بشر، فكيف ينزل الله ملائكة على بشر، ثم إن الله قال في جواب هذا ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني في صورة رجل، لا يمكن أن ينزل ملكًا بصورة الملك على بشر لو فرض أن الله أنزل ملكا لجعله بصورة البشر، وحينئذ تعود الشبهة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] أرأيتم إذا أرسل الله إلى بني آدم جبريل وله ستمائة جناح، قد سد الأفق، أيتوافق هذا مع الناس؟ أبدًا، بل يهربون منه ولا يقفون أمامه، فإذا كان كذلك بطلت هذه الحجة؛ لأننا نقول لهؤلاء - ولمن قال مثل قولهم - لو أنزل الله ملكًا لجعله رجلًا وحينئذ تعود الشبهة، إذنْ الحجة باطلة وهي ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ الفاء هنا للتفريع ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ نسأل الله العافية أكدوا كفرهم وقالوا: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فقدم المفعول؛ لأن ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾ فلماذا قدم عليه؟ لوجهين، الوجه الأول: مراعاة فواصل الآيات، لو قال: (فإنا كافرون بما أرسلتم به) لم تتناسب الفواصل، ولما قال: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تناسبت الفواصل.

ومراعاة المناسبة أمر ثابت، أرأيتم موسى وهارون، أيهما أفضل؟ ومن الذي يقدم في القرآن؟ موسى والذي يقدم في القرآن موسى إلا في آية واحدة من أجل التناسب، في سورة طه؛ ذكر الله عن السحرة أنهم قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠] مع أنهم كانوا قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ هذا قول السحرة، لكن لما نقلهم الله عنهم في سورة طه، قدم ذكر هارون، لتناسب الآيات، مع أن موسى أفضل، وموسى هو الذي نطق بتقديمه السحرة كما في آيات عدة، لكن الله عز وجل نقل كلامهم في سورة طه مقدما هارون على موسى، لتناسب الفواصل، هنا ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ قدم المتعلق وهو ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ على المتعلق لسببين، السبب الأول: مراعاة الفواصل، والسبب الثاني: الحصر، كأن هؤلاء المكذبين المعاندين قالوا: (لو أنا آمنا بكل شيء لكفرنا بما أرسلتم)، فكأنهم يقولوا: (لا نكفر بأي شيء إلا بما أرسلتم به)، وحكم التقييد يفيد الحصر، انظر إلى العناد، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، كأنهم قالوا لا نكفر إلا بما أرسلتم به، هذا معنى الحصر، فيكون هذا أبلغ في العناد، كأنهم يقولون لو آمنا بكل شيء فلن نؤمن بما أرسلتم به، ثم إن قوله بما أرسلتم به قالوه على سبيل التنزل، ولهذا قال المفسر: [على زعمهم]، وإنما قلنا: إنهم قالوا على سبيل التنزل: لأنهم لو قالوا على سبيل الإقرار لآمنوا ولكانوا مؤمنين. لكن قالوا على سبيل التنزل، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** أمر إلى النبي ﷺ أن ينذر هؤلاء المكذبين بعذاب من قبلهم، لقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ﴾.

٢ - **ومن فوائد الآية:** إثبات القياس، لأن إنذار المكذبين إذا لم يكن المراد بذلك قياس حال المكذبين للرسول على حال المكذبين لهود وصالح، لم يكن لهذا الإنذار فائدة، لولا القياس لم يكن لهذا الإنذار فائدة، إذنْ ففيه جواز القياس، والاعتبار بالنظير والمماثل. ولقد قال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] وإثبات القياس دليلا من محاسن الشريعة، لأن إثبات القياس دليلًا هو مقتضى العقل السليم؛ وذلك لأن العقل لا يمكن أبدا أن يفرق بين متماثلين، فعلى هذا فالذين أنكروا القياس خالفوا الدليل السمعي، والدليل العقلي الذين أنكروه وقالوا لا قياس في الشريعة، سبحان الله، القرآن كله يشير إلى هذا، كل الأمثال المضروبة في القرآن كلها دليل على القياس، وإلا لم يكن فائدة في المسألة، السنة أيضًا أتت بالقياس. «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ، اقْضُوا فَاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ» هم أيضًا مخالفون للعقل؛ لأنه لولا ثبوت القياس لكانت الشريعة ناقصة، حيث لم تجمع بين المتماثلين.

٣ - **ومن فوائدها:** أن الرسل أتوْا قومهم من كل جانب مقبلين ومدبرين يرونهم الآيات الماضية والآيات المستقبلة، ولكن لا فائدة.

٤ - **ومنها:** أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أتوا بتحقيق التوحيد، لقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وهذه هي الأصل الأصيل الذي أتت به الرسل جميعا، الدليل على ذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وآية أفصح منها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾. ذكرنا في قوله ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أن المؤلف يقول: [مقبلين ومدبرين]، وقلنا معنى آخر: آتوهم بالآيات الماضية والمستقبلة، وهناك أيضًا ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، الرسل الذين جاءوهم مباشرة، يعني ثمود جاءهم صالح، وعاد جاءهم هود، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الرسل السابقة، ولهذا قال: ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، ومعلوم أن الذي أرسل إلى عاد هود، وإلى ثمود صالح وهما اثنان، والرسل جمع فيقتضي أن يكون المعنى إذ جاءتهم الرسل السابقين والرسل اللاحقين، ولعل هذا أقرب الاحتمالات الثلاث.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآيات الكريمة:** أن أهل الباطل يشبهون ويلبسون بما ليس له حقيقة وذلك حين ردوا دعوة الرسل بما لا يصح أن يكون ردًّا؛ حيث قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ وهذا الشبهة ليست بحجة، بدليل ما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ إذ يقتضي الحال أن يكون الرسول رجل بشر يدعو قومه.

٦- **ومن فوائدها:** شدة عناد المكذبين لصالح وهود، وجه ذلك في قوله: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ كأنهم يقولون لو آمنا بكل شيء لن نؤمن بما أرسلتم به خاصة، ووجه الخصوصية تقديم الجار والمجرور على متعلقه.

٧- **ومنها:** أن المكذبين للرسل يؤمنون بالملائكة وهم كفار؛ لقوله: ﴿لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن المقر بالربوبية لا يعتبر مؤمنًا حتى يقرَّ بالألوهية؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾، وهؤلاء الكفار الذين بعث فيهم الرسول ﷺ كانوا مقرين بالربوبية، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، ولكن الإيمان بالربوبية لا يكفي في كون الإنسان مسلمًا، بل لا بد من الإيمان بالألوهية، إضافة إلى الإيمان بالربوبية، فالمستلزم والمتضمن للآخر الألوهية، لأن من آمن بالربوبية لزمه أن يؤمن بالألوهية، ومن آمن بالألوهية فقد تضمن إيمانه بالألوهية إيمانه بالربوبية، فأحدهما متضمن للآخر والثاني مستلزم للآخر، ومن مظاهر العناد لهؤلاء أنهم أكدوا كفرهم بإن قال تعالى: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ فصار تأكيدهم لكفرهم وعنادهم، من عدة أوجه، أولًا: التأكيد بإن، والثاني: الحصر، وذلك بتقديم ما حقه التأخير أي: بتقديم الجار والمجرور على متعلقه، والثالث: أنهم أتوا به بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار بخلاف الفعلية فهي دالة على الحدوث وعدم الاستمرار، وهنا أتوا الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار.

مسألة: هل معنى أن الكفار يؤمنون بالربوبية أنهم يؤمنون بالأسماء والصفات؟

الجواب: قد يكون وقد لا يكون أنهم يكفرون ببعض الأسماء والصفات، فهم ينكرون اسم (الرحمن) والبعض يثبتونه.

مسألة: قوله تعالى ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ هل كانت دخانًا قبل خلق السماوات والأرض قديمًا؟

الجواب: لا، قديمًا ماء ثم تكون من هذا الماء البخار حين خلق الله الأرض.

مسألة: إعراب ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾.

الجواب: مجرور بالفتحة؛ لأنه ممنوع من الصرف.

مسألة: بالنسبة لقوله: ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ كيف نستبط الصفة الثالثة من اقتران هذين الاسمين؟

الجواب: العز والعلم، اجتماع العزة والعلم كمال، لأن العزيز بلا علم قد يبطش عن جهل، والعليم بلا عزة ضعيف.



قال الله تعالى:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]

التفسير

لما ذكر الله أمر النبي ﷺ أن ينذر قريش بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، بين ماذا كان من عاد وماذا كان من ثمود، وقال جلَّ وعلا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أما هذه أداة شرط وتفصيل، أما كونها أداة شرط فلأن لها شرط وجزاء، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا﴾، وأما كونها أداة تفصيل، فلأنها تأتي كذلك في التفصيل، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾، فهي إذًا حرف شرط وتفصيل، ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، استكبروا أي: أصابهم الكبر، وإنما أتت السين والتاء للمبالغة، أي تكبروا تكبرًا عظيمًا، وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، هذه ليست صفة مقيدة ولكنها صفة كاشفة؛ لأن كل استكبار في الأرض بغير الحق، فالاستكبار لا ينقسم إلى قسمين، بل هو قسم واحد، فكل استكبار فإنه بغير حق، ويسمى مثل هذا القيد صفة كاشفة، أي تكشف ما سبق وتبين حقيقته، إذنْ فما حقيقة الاستكبار، أنه بغير حق، والحق ضد الباطل، والباطل إما أن يكون في الخبر وإما أن يكون في الطلب، فأما الباطل في الخبر كأن يكون كذبًا، وأما الباطل في الحكم كأن يكون جورًا، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ يشمل الأمرين، يشمل دعواهم أن هذه آلهة وهذه دعوى كاذبة، ويشمل عملهم لهذه الآلهة وهو جور وظلم، من حيث يعدلون المخلوق بالخالق، يعني من جملة ما استكبروا به، قالوا: (لما خوفوا بالعذاب): ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي لا أحد، و﴿مَنْ﴾ هنا استفهام بمعنى النفي والإنكار، وقد كررنا مرارًا، أن الاستفهام إذا كان بمعنى الإنكار والنفي، صار أبلغ من النفي المجرد لأنه يتضمن التحدي، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ و﴿مَنْ﴾ كما تعلمون اسم استفهام، وأشد: خبر المبتدأ، لأن ﴿مَنْ﴾ المبتدأ، و﴿أَشَدُّ﴾ خبر المبتدأ، و﴿قُوَّةً﴾ تمييز لـ﴿أَشَدُّ﴾، ومن الضوابط الغالبة، أنه إذا أتى الاسم منصوبًا بعد اسم التفضيل كان تمييزًا، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، [أي لا أحد]، ثم ذكر المؤلف نموذجًا

من قوتهم، قال: [كان أحدهم يأخذ الصخرة العظيمة من الجبل يجعلها حيث يشاء]، وهذا المثال قد يكون حقًا وقد يكون اسرائيليًا؛ لأنه معروف أن عادًا كانوا بالأحقاف، والأحقاف كلها جبال رملية، لكن على كل حال سواء صح هذا المثال أم لم يصح، فإنهم كانوا بلا شك أقوياء أشداء ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، قال الله تبارك وتعالى ردًا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: أولم [يعلموا] ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهذا تقرير لكون الله تعالى أشد منهم قوة، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ولم يقل: (إن الله أشد)، بل قال: ﴿خَلَقَهُمْ﴾ ليبين ضعفهم، وأنهم مخلوقون وأن الخالق سيكون أقوى منهم، فالذي خلقهم هو أشد منهم قوة لأنه هو الذي أعطاهم القوة، ومعطي الكمال أولى به، وهذه هي الحكمة من كونه تعالى قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ ولم يقل: (أولم يعلموا أن الله الذي خلق السموات والأرض)، أو (أن الله هو أشد منهم قوة)؛ ليبين ضعفهم، وأنهم مخلوقون ضعفاء، قال ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ قوله: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ معطوفة على ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ في الأرض، وقالوا: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾، ﴿بِآيَاتِنَا﴾ [المعجزات]، ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يعني: يكذبون، لأن الجحد والتكذيب والاستنكار ولا سيما وهو معدّى بالباء الدالة على ذلك، وقول المؤلف: [﴿بِآيَاتِنَا﴾ معجزاتنا] فيه نظر، لأن الآيات هي العلامات والدلالات على الخالق عز وجل، وليست المعجزات، وقد ذكرنا أن المعجزات تأتي آيات وتأتي من الشياطين بواسطة السحرة وغير ذلك، ولكن إذا قال: (آيات) صار معناها: علامات دالة على الحق، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [باردة شديدة الصوت بلا مطر]، ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ريحًا نكرة يراد بها التعظيم، أي: ريحًا عظيمة، ﴿صَرْصَرًا﴾ شديدة الصوت، يسمع لها صوت كالرعد لشدتها وشدة اصطدامها بالهواء والأشجار والأحجار والبيوت، وقول المؤلف: [بلا مطر]، هذا الظاهر أنها لا تدل عليه السياق الموجودة الآن، لكنه قد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: ليس فيها مطر، لأن المطر من أسباب الرياح، يرسله الله عز وجل فيصير سحابًا، فيصبه من السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا، فتبرد فيخرج من خلاله، لكن ريح عاد ليس فيها ذلك. قوله: [﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ بكسر الحاء وسكونها، مشؤومات عليهن]، ﴿فِي أَيَّامٍ﴾، هذه الأيام بين الله قدرها في آيات أخرى، في قوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ ابتدأت بالفجر وانتهت به، أو بالغروب، الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، سبع ليال وثماني أيام، ثمانية أيام تنتهي بالغروب، وسبع ليال لأن الليلة الأولى حذفت، يقول الله عز وجل: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخزي: الذل، (اللام) للعاقبة، ويحتمل أن تكون للتعليل، وكلاهما صحيح، فإن الله تعالى أرسل عليهم الريح العقيم لهذا الغرض، أو أرسل عليهم الريح العقيم حتى كانت عاقبتهم أن ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا، أي بهذه الحياة التي

نحياها، وسميت دنيا لوجهين: لدناءتها وحقارتها بالنسبة للآخرة؛ لأن موضع سوط الإنسان في الجنة خير من الدنيا وما فيها؛ ولأنها أيضًا دنيا منغصة، لا تكاد يمر بك الشهر إلا ووجدت تنغيصًا بل أكثر من ذلك

كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

هذا وجه، والوجه الثاني: لدنوها؛ لأنها سابقة للآخرة، فهي أدنى للمخلوقات من الآخرة، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي قريبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ قال: [أشد، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بمنعه عنهم] اللام في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ يسمونها لام الابتداء، وهي للتوكيد، ولذلك إذا جاءت (إنْ) أين تذهب (اللام) تزحلق وتؤخر عن مكانها، وتكون في المتأخر في اسم إن وخبرها، وإنما زحلقناها حتى لا يشتمل في أول الكلام مؤكدان متواليان، اللام في العذاب هي لام الابتداء وهي تفيد التوكيد ويدل لهذا أنها مع (إن) تزحلق حتى تبعد عنها.

قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أشد خزيًا ـ والعياذ بالله ـ؛ لأن عذاب الدنيا لا يسمع به من سبق، أليس كذلك؟ ولا يراه من لحق أليس كذلك؟ لا يسمع به من سبق، لأنه جاء بعده، فالقوم الذين كانوا قبل عاد، ما علموا بذلك، والقوم الذين بعدهم، ما رأوه، بل سمعوا به ولم يروه، لكن في الآخرة سماع ورؤيا ـ والعياذ بالله ـ، الذي يعذب في الآخرة يسمعه كل أحد السابق واللاحق، ولذلك قال: ﴿أَخْزَىٰ﴾، ثم هو أيضًا أشد، كما قال تعالى في آيات أخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ اشد وأعظم، كما تعرفون عذاب النار ـ أعاذنا الله وإياكم منها.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ (الواو) هذه استئنافية، يعني: في الآخرة لا أحد ينصرهم، في الدنيا ربما ينصر الإنسان من العذاب، بدفعه قبل وقوعه، أو برفعه بعد وقوعه، لكن في الآخرة لا ناصر.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظم استكبار هؤلاء المكذبين لنبيِّهم ـ أعني عادًا ـ؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

٢ - **ومنها:** بيان طغيان الإنسان وأن الإنسان لا حد لطغيانه، لأن وصوله إلى هذه الدرجة ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، يدل على الطغيان العظيم والكبرياء.

٣- **ومن فوائدها:** حكمة الله عز وجل بأخذهم بالعذاب، حيث أخذوا بما هو ألطف الأشياء، وهو الريح، الريح اللطيفة، التي يكون به انعاش البدن وتقويته ونشاطه، هي التي أهلك بها عاد؛ لأنهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وانظر إلى فرعون حين قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، فبماذا عُذّب؟ بالماء. الذي كان بالأمس يفتخر به.

٤- **ومن فوائد الآية:** بلاغة القرآن في الإقناع وإقامة الحجة، لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وجه ذلك، أنه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾.

٥- **ومنها:** جواز عقد المفاضلة بين الخالق والمخلوق، لقوله: ﴿أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، مع أنه سبحانه وتعالى أشد من كل أحد، لكن المقام مقام محاجة، ومقام المحاجة لا بأس أن يذكر فيها المفاضلة بين المفضل والمفضل عليه، ونظير هذا بل أبلغ منه قول الله تعالى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وليس في الأصنام خير، لكن هذا من باب المحاجة، وأن الإنسان يحاج الخصم بما يقر به.

٦- **ومن فوائد الآية:** خطأ من يفسر قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وما أشبه ذلك؛ حيث يفسر أعلم بعالم، كالجلالين رحمهما الله، أعلم يقول عالم، وهذا خطأ عظيم، وتحريف للقرآن، أيهما أبلغ أعلم أم عالم؟ أعلم، لأن أعلم يمنع المشاركة، وعالم لا يمنع المشاركة، تقول فلان عالم وفلان عالم وفلان عالم، لكن تقول: (فلان أعلم) معناها أنه لا يساويه أحد في درجته، فتفسير أعلم بعالم لا شك أنه تحريف في القرآن وقصور عظيم.

٧- **ومنها:** بيان أن هؤلاء المكذبين لهود عليه السلام ـ وهم عاد ـ جمعوا بين الأمرين بين الاستكبار وبين التكذيب، الاستكبار في قوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، وأما التكذيب ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى أرسل الرسل بالآيات، وأقام البينات والبراهين على أنه الحق وأن رسله حق؛ لقوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾.

ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** أن الرياح تجري بأمر الله. لقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، ولا شك أن كل شيء يجري بأمر الله، حتى أفعال البشر تكون أيضًا بأمر الله، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، فكل شيء فإنه يسير بأمر الله عز وجل، الرياح والسحاب والبحار والأنهار كلها تجري

بأمر الله عز وجل.

٢- **ومنها:** بيان حال هذه الريح التي أهلك الله بها عاد، وأنها ريح صرصر شديدة وفي آيات أخرى ما يدل على أنها ليس فيها مطر، وليس فيها خير، بل هي عقيمة من الخير كله.

٣- **ومنها:** حكمة الله عز وجل في مجازاة من يستحق الجزاء، حيث يجازى بمثل عمله، ولهذا يقول العلماء: الجزاء من جنس العمل، ولذلك أرسل الله على هؤلاء المستكبرين الذين يقولون ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أرسل عليهم الريح اللَّيِّنة الهينة، ومن حكمة الله عز وجل في هذا العذاب أنها لم تكن تجرفهم في آن واحد، بل سلطها عليهم سبع ليال وثمانية أيام، ليكون هذا أشد في استغراق العقوبة؛ لأن الإنسان المعاقب لو عُوقب بما يهلكه فورًا لانتهى من العقوبة، لكن إذا كانت العقوبة تأتي عليه في ساعات وفي أيام، صار هذا أشد.

٤- **ومن فوائد الآية:** إثبات أن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة، لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، أن أفعال الله تعالى مقرونة بالحكمة، وأن شرعه مقرون بالحكمة، فكل ما شرعه أو قدره فإنه لحكمة، ولكن هل هذه الحكمة معلومة؟ منها ما هو معلوم ومنها ما ليس بمعلوم، فمثال للحكمة الغير معلومة الحكمة في عدد الصلوات الخمس: فما ندري نحن الحكمة من كونها خمس أو عدد الركعات في كل صلاة؟ لأن عقولنا قاصرة، لكننا نعلم أن الله لا يفعل شيئًا إلا لحكمة، ولهذا كان جواب أمنا عائشة لمعاذ عليهما السلام أن قالت: (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة)، يعني: إذا كان الأمر كذلك نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة فهذا لا بد له من حكمة، من علماء الأمة وفرقها من يقول: إن أفعال الله لا تعلل ما لها حكمة، وشرعه ما له حكمة، يفعل لمجرد المشيئة، يحكم بالشرع لمجرد المشيئة، وهؤلاء لا شك أنهم وصفوا الله بالنقص والسفه، وقد أنكر الله على ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، والآيات في هذا كثيرة، وكل آية فإنها تدل على الحكمة، هناك أناس عكسوا هذا الكلام، وقالوا إن أفعال الله معللة بالحكمة، وأنه يجب عليه أن يفعل ما تقتضيه الحكمة، وأن يشرع ما تقتضيه الحكمة، وهؤلاء أصابوا من وجه وأخطأوا من وجه، أصابوا حيث ظنوا أننا نوجب نحن على ربنا بعقولنا ما نرى أن الحكمة تقتضيه، وهذا خطأ أم صح؟ هؤلاء يقولون: يجب على الله أن يفعل ما فيه الحكمة وجوبًا، هذا خطأ وهذا خطأ من وجه وصحيح من وجه، فإن أرادوا بذلك أن نوجب على الله أن يفعل ما تقتضيه عقولنا أنه حكمة، فهذا خطأ، وإن أرادو أن الله أوجب على نفسه أن يفعل ما به حكمة؛ لأنه حكيم فهذا صحيح، ونحن لا نشك أن الحكمة

هي مراد الله عز وجل، وأنه لا يفعل شيئًا ولا يحكم شيئًا إلا لحكمة، لكن هل نحن الذين نقدر الحكمة، ثم نوجب على الله أن يفعله؟ هذا هو الخطأ، فالثاني: هذا مذهب المعتزلة، والأول مذهب الأشاعرة وأتباعهم، والصواب: الوسط، ودائمًا خير الأمور الوسط، الوسط: أن الله يجب عليه فعل لإيجابه على نفسه الحكمة، لأنه نفى أن يكون فعله عبثًا أو لعبًا أو باطلًا، وهذا يقتضي أن الله سبحانه وتعالى يفعل الشيء لحكمة، ولكن ليس نحن الذين نوجبها على الله.

٥- **ومنها:** أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

٦- **ومنها:** أن الكافر يعاقب بالعقوبتين، عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، لقوله: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أما المؤمن فإن الله لا يجمع عليه عقوبتين، إذا عوقب بالذنب في الدنيا لم يعاقب به في الآخرة، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ ولأن النبي ﷺ أخبر أن من أتى شيئًا من هذه القاذورات - يعني المعاصي- فعُوقب به في الدنيا لم يعذب به في الآخرة، فالمؤمن إذا عوقب في الدنيا على عمله لم يعاقب في الآخرة، والكافر يعاقب بهذا وبهذا، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حيث قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾، فإما أن يكون المراد أن عذاب الآخرة أشد فيكون بالنسبة لشدته مضاعفا، وإما أن يكون هو الجمع له بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقولنا: إنه يجمع له بين عذابين، ليس معناه أنه حتمي، لكن نقول: إنه إذا عذب بذنبه في الدنيا لم يسلم من تعذيبه به في الآخرة، حتى لا يرد علينا أن الكفار الآن يموتون وهم في غاية ما يكون من السرور والعافية والأموال والأولاد، والمعنى: أنهم لم يجدوا عذابا يشاهد، لكنه عذاب القلب عندهم لا شك أنه موجود، أشد الناس عذابًا قلبيًّا وقلقًا هم الكفار، وكلما كان الإنسان أعصى لربه كان أشد قلقًا وأقل راحة، وكلما كان أشد إيمانًا وعملًا صالحًا كان أشد طمأنينة، استمع إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل الله عز وجل لنعطينه مالًا كثيرًا، لا، لنحيينه حياة طيبة ولو كان فقيرًا، فتجد حياته طيبة مطمئن البال مستريحًا لا يهتم بشيء إلا بما يرضي الله عز وجل.

٧- **ومن فوائد الآية:** أنه لا ناصر للمعذبين يوم القيامة، لقوله ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهذه لها شواهد، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، وكذلك هم يقرون ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾، ثم قال ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧، ١٨]

التَّفْسِيرُ

هذا هو القسم الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بينا لهم طريق الهدى، ثمود بلا تنوين، وعاد بتنوين فلماذا؟ لأن ثمود ممنوعة من الصرف، وعاد ليست ممنوعة من الصرف. والصرف جر ما لم ينصرف بالفتحة.

قال ابن مالك:

الصَّرْفُ تَنْوِينٌ أَتَى مُبَيِّنَا مَعْنًى بِهِ يَكُونُ الاسْمُ أَمْكَنَا

قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ قال المؤلف: [بينا لهم طريق الهدى]، فالهداية هنا هداية بيان، يعني: بيَّن لهم الحق، واعلم أن كل من كفر، فإنه كفر بعد ما تبين له الحق، إذا جاءه الرسول، لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام يبينوا الحق لا يدعون شيئًا يحتاج إلى بيان إلا بينوه، قال هنا: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم طريق الحق، فالهداية هنا هداية بيان وإرشاد، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾، أي [اختاروا الكفر] ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، أي على هداية التوفيق، يعني على الاهتداء، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ﴾ الذي هو الكفر ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الذي هو الإسلام، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ يعني: عذاب الصاعقة؛ لأن ثمود صِيحَ بهم ورُجِفَ بهم فصعقوا هلكوا هلكة رجل واحد، أصبحوا في ديارهم جاثمين - والعياذ بالله - على ركبهم هامدين، وقوله: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب [المهين]؛ لأن الهون هو الإذلال، ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، الباء للسببية و(ما) إما موصولة، وعليه فيكون عائدها محذوفًا، التقدير بما كانوا يكسبونه، وإما أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى عائد، ويكون التقدير: بكسبهم ﴿وَنَجَّيْنَا﴾ (منها) أي: من صاعقة عذاب الهون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ جمعوا بين الإيمان والتَّقوى، وهذا هو سبب النجاة. وسيأتي إن شاء الله ما يستفاد من الآيات.

مسألة: حول التوبة والأخذ بالذنب؟

الجواب: لأنه إذا تاب لا يكون له عقاب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

مسألة: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وعكسها أنه كمن عليه ذنب؛ لأنه ما ارتدع من هذه العقوبة.

الجواب: وإذا عوقب محي عنه إثم ما سبق، لأنه أخذ الجزاء وانتهى، لكنه قد يؤخر له العذاب، إلى يوم القيامة، ولهذا إذا أحب الله قوما عجل لهم العقوبة في الدنيا، حتى لا يجزون بها يوم القيامة.

مسألة: لو عوقب الآن ثم مات مباشرة قبل أن يفعل الذنب الآخر، هل يعاقب بنيته عدم التوبة؟

الجواب: إذا استمرت النية بعد العقوبة فهذا ربما يعاقب بنيته لا على فعله.

مسألة: يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ في الحديث: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» لا يدخل الجنة دخولًا أوليًّا أم لا يدخل الجنة أبدًا؟

الجواب: هذا فيه تفصيل إن كان الكبر كفر فهو لا يدخل الجنة أبدًا، وإن كان كبر مع الإيمان فإنه لا يدخلها الدخول المطلق الذي لم يسبقه عذاب، وهذا أيضًا من آية الوعيد إذا شاء الله تعالى عفا عنه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

مسألة: هل عذاب الكفار إذا ماتوا متصل إلى يوم القيامة؟

الجواب: منها عذاب القبر، هذا عذاب القبر، أما عذاب الكفار في الآخرة فهو مستمر، لكن عذاب القبر قد ينقطع يعذب بقدر ذنوبه، ثم ينقطع، وبالنسبة للكافر فإن الظاهر استمراره.

مسألة: حول إضافة قوله تعالى: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ إلى الأيام.

الجواب: لا بأس به، كما قال لوط: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ المراد به مجرد الخبر، وأما إذا كان المراد به العيب والسب، فإنه لا يجوز، فإذنْ يكون هذا السب والعيب، يكون على سبيل الأخبار، أو على سبيل السب، على الأول جائز وعلى الثاني غير جائز. ونظير ذلك إخبار المريض ما جرى عليه، أحيانا يسأله صديقه كيف أنت البارحة؟ فيتشكَّى ويقول والله ما نمت البارحة كنت تعب في البطن أو في الرأس أو في الرجلين، هذا إذا قاله على سبيل التشكي هذا لا يجوز لأنه ينافي الصبر، وإذا قاله على سبيل الأخبار فلا بأس به، ولهذا بعض المرضى يقدم فيقول إخبارًا لا شكوى حصل لي كذا وكذا.

مسألة: حول النية لفعل المعصية والعقاب عليها.

الجواب: العقاب على النية إذا نوى الإنسان تلك المعصية، أما أن يدافع الإنسان هذه النية ويدع المعصية لله عز وجل هذا يثاب، وإما أن يستمر على نيته ويعزم لكنه يعجز فهذا يعاقب على نيته.

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (١):

(١) لا ريب أن القرآن الكريم نزل ليتعبد الناس بتلاوته، وليتدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ج﴾ ولوأن الإنسان إذا قرأ متنا ألفه إنسان من البشر فلا بد أن يتفهم معانيه ويتدبرها، فكذلك كلام الله عز وجل من باب أولى، أن يتدبر الإنسان معانيه ويتفهمها، لأن قراءة بلا معنى ليست قراءة، فالقارئ الذي لا يفهم المعنى بمنزلة الأمي الذي لا يقرأ، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ يعني: إلا قراءة، فوصفهم الله بأنهم أميون لأنهم لا يعلمون الكتاب إلا قراءة فقط، وقد ذكر العلماء رحمهم الله لتفسير كلام الله قواعد مهمة، نذكر منها ما يلي.

أولًا: أولى ما يفسر به القرآن أن يفسر القرآن بالقرآن. ذلك بأن الذي فسره هو الذي أنزله وهو أعلم بمراده. فيفسر القرآن بالقرآن ما وجدنا إلى ذلك سبيلًا. ولهذا أمثلة كثيرة، مثل قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ فسر الله ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فلو سئل سائل ما هو يوم الدين؟ نقول: يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله. وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ف ف ڤ ڤ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ ولهذا أمثلة كثيرة، ثم يفسر القرآن بتفسير أعلم الناس به وهو رسول الله ﷺ، ولهذا أمثلة منها قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، الزيادة لم يبينها الله عز وجل، ولكن بينها الرسول ﷺ بقوله: «هي النظر إلى وجه الله». وكذلك مثال آخر: قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فسرها النبي ﷺ بقوله: «ألا إن القوة الرمي»، وكررها، وكما يكون تفسير النبي ﷺ للقرآن بلفظه يكون كذلك بفعله، فقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يبين الله تعالى كيفية هذه الإقامة التي أمر بها، لكن فسرها النبي ﷺ بفعله، فقام وركع وسجد وقعد، وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»، إذًا أول ما نفسر القرآن بماذا؟ بالقرآن؛ لأن الذي فسره هو الذي تكلم به وهو أعلم بمراده ثم بسنة النبي ﷺ القولية والفعلية؛ لماذا؟ لأن النبي ﷺ أعلم الناس بكلام الله؛ لأنه رسول، ثم بعد ذلك بتفسير الصحابة رضي الله عنهم، وتفسير الصحابة لا شك أنه أولى من غيره، لأن الصحابة رضي الله عنهم أعلم الناس بلغة القرآن بلا منازع، ولأن القرآن نزل في عصرهم وفي الأحوال التي يعرفونها، ولا ريب أن المعنى يعرف في الزمن والحال التي نزل بها، ولهذا ينقلون إلينا أسباب نزول الآيات التي نزلت على سبب؛ لأنهم كانوا يعلمون ذلك، فيرجع في تفسير القرآن، فإذا لم يوجد في كتاب الله أو في سنة رسوله، يرجع إلى أقوال الصحابة، والصحابة رضي الله عنهم، يختلفون في فهم القرآن اختلافًا ظاهرًا، كما يختلفون في مراتبهم في الفضائل كذلك أيضًا يختلفون في العلم وفي تفسير القرآن، ومن أعلمهم بالتفسير ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن النبي ﷺ دعا له فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» يعني التفسير، وبعد هذا المرتبة الرابعة: الرجوع إلى كلام المفسرين الذين أخذوا عن الصحابة، وهم التابعين، ليس كل التابعين، بل الذين اشتهر عنهم الأخذ عن الصحابة، وعلى رأسهم مجاهد بن جبر رحمه الله، الذي أخذ تفسير القرآن عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فكان يقرأ القرآن على ابن عباس ويقف عند كل آية يسأله عن تفسيرها، ثم بعد ذلك يؤخذ بالأمثل فالأمثل من أقوال أئمة هذه الأمة وعلمائها، ثم اعلم أن تفسير القرآن لا يقتصر على تفسير الصحابة والتابعين لأنه قد يخرج للآيات معاني لم تكن تطرأ على البال في ما سبق، كما تشير بعض الآيات إلى المخترعات الحديثة التي وقعت في زماننا هذا، وكما تشير بعض الآيات إلى

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله تعالى أبلغ رسالته لكل أحد ولم يدع أحدًا بلا هداية دلالة، لقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهذه الجملة تفصيلية كما سبق في التفسير معطوفة على قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

٢- **ومنها:** أن الهداية ليست مقصورة على هداية التوفيق، ولكنها تطلق على هداية الدلالة والبيان؛ لقوله ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: دللناهم على الحق.

٣- **ومنها:** الرد على الجبرية الذين قالوا: إن الإنسان مجبر على عمله، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾، ووجه الأخذ في ذلك: (أن استحبوا) تدل على اختيارهم لهذا الشيء، وأنهم آثروه على الهدى.

٤- **ومنها:** أن من لم يسير على هدى الله فإنه أعمى. ويؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى﴾ حتى ولو كانوا مبصرين، فإنهم عمي البصيرة.

٥- **ومن فوائدها:** أن العمى نوعان: عمى بصر وعمى بصيرة، وعمى البصيرة أشد من عمى البصر، فكم من إنسان أعمى البصر لكنه مبصر البصيرة، وكم من إنسان مبصر البصر لكنه أعمى البصيرة.

٦- **ومنها:** تعجيل العقوبة لمن استحب العمى على الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، ووجه الدلالة الفاء تفيد الترتيب والتعقيب هذا من وجه، ووجه آخر، أن الفاء هنا للسببية والمسبب يعقب السبب.

٧- **ومنها:** التحذير من إيثار العمى على الهدى، وأن الإنسان إذا بيِّن له الحق ولكنه عمي عنه فإنه جدير بأن يعاقبه الله عز وجل؛ لأن الله أخبرنا بعقوبته بأخذهم ليحذرنا من ذلك. دليل ذلك أن الله يخبرنا عن أخبار من سبق لنحذر من طريقهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هذا دليل، ودليل آخر قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾.

٨- **ومنها:** أن ثمود أهلكوا بالصاعقة، أي بشيء صعقوا به وهلكوا، وقد بين الله في آيات

ما عرف أو إلى ما علم في علم الأحياء والكائنات، وذلك لأن القرآن كتاب عالمي لا يزال الناس يستخرجون كنوزه وفوائده إلى يوم القيامة، وبناء على ذلك يجب علينا أن نعتني بكلام الله عز وجل وأن نتدبره وأن نفهمه حتى نلحق بالركب.

أخرى أنه أخذتهم الرجفة فيكونوا أُخذوا بالرجفة حتى صعقوا وهلكوا.

٩- **ومنها**: أن هؤلاء الذين غرهم الكبر، أنهم أهينوا وأذلوا، وذلك من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ يعني: عذاب الذل.

١٠- **ومنها**: إثبات الأسباب، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، والباء هنا للسببية، واعلم أن الله تعالى لن يحكم حكمًا شرعيًّا ولا قدريًّا ولا حكمًا جزائيًّا إلا لسبب - هذه قاعدة - لن يحكم حكمًا شرعيًّا كالإيجاب والتحريم والإباحة، ولا قدريًّا كالخلق والتكوين، ولا جزائيًّا إلا لسبب، نعلم ذلك علم اليقين، ونأخذه من أن الله تعالى حكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها، لا يمكن أن تكون أفعال الله فلتة ولا صدفة ولا لغوًا ولا لعبًا، بل لا بد له من سبب اقتضاه، لكن هل كل سبب اقتضى حكم الله يكون معلوم للخلق؟ لا، لأن الخلق أعجز من أن يدركوا حكمة الله عز وجل، وكم من أحكام شرعية وكونية وجزائية لا نعلم حكمتها؛ لأننا أقصر من أن نحيط بحكمة الله عز وجل.

١١- **ومنها**: إثبات أن العمل كسب للإنسان، لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ يتفرع عن هذه الفائدة، أنه إذا كان العمل كسب للإنسان، فإنه يجب عليه بمقتضى العقل كما هو مقتضى الشرع أن يسعى إلى الكسب المفيد لا إلى الكسب الضار، كما كان يفعل للدنيا، أليس الواحد منا في الدنيا يسعى إلى الكسب النافع؟ بلى، إذنْ يجب أن تسعى إلى الكسب النافع للآخرة، ولهذا ضل من ضل في عقله ودينه من احتج بالقدر على معاصي الله، ولم يحتج بالقدر على أمور الدنيا، فأمور الدنيا يعمل فيها ويكدح، ويسعى إلى ما فيه المصلحة والمنفعة، لكن في أمور الآخرة يتكاسل ثم يقول: هذا القدر، فنقول: قد ضللت، كيف تحتج بالقدر على كسب الآخرة، ولا تحتج به على كسب الدنيا.

أما فوائد الآية التي بعدها: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

١- **فيستفاد منها**: عدل الله عز وجل، والعدل معناه عدم الجور وعدم الظلم، ووجه ذلك، إثبات النجاة للمؤمنين والعذاب للمعرضين، فهذا دليل على العدل، لأنه أعطى سبحانه وتعالى كل إنسان ما يستحق، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين، ومن كونه أحكم الحاكمين، لازم أن يكونه أعدلهم، لأنه كلما كان الحكم أعدل كان أحكم.

٢- **ومن فوائدها**: أن الإيمان والتقوى سبب للنجاة، لقوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ومثل قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾.

٣- **ومنها**: أن الإيمان وحده لا يكفي بل لا بد من إيمان وتقوى لقوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ووجه المقارنة بين هذه الآية وبين قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن الذين آمنوا وكانوا يتقون والذين ينجيهم الله هم أولياء الله، لأن

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، يطابق تماما هذه الآية حتى في اللفظ هناك ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، وهذه أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

٤- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز حذف ما يعلم، ويؤخذ هذا من مفعول ﴿يَتَّقُونَ﴾، أي: كانوا يتقون الله. وإن شئت فقل وكانوا يتقون ما يجب اتقاءه، لأن الله تعالى أحيانا يقول: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وأحيانًا يقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ فإذا قلنا: وكانوا يتقون ما أمر باتقائه صار ذلك أعم.

وقد أمروا بتقوى الله وتقوى النار وتقوى يوم القيامة؛ إذنْ المعنى العام: وكانوا يتقون ما أمروا اتقائه.

٥- **ومن فوائدها:** فضيلة الإيمان والتقوى وأنه سبب للنجاة، لقوله ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾. فإذا قال قائل: أليس الله تعالى ينزل العقوبة أحيانا في أقوام فيهم المتقي وفيهم غير المتقي، فما الجواب؟

الجواب: أن الله تعالى يأخذ المتقي بذنب غير المتقي في الدنيا، في الدنيا يعذبون جميعا، ويبعثون في الآخرة على نياتهم وأعمالهم، دليل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ يعني إحذروا هذه الفتنة، وهذا يعني أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر لنتقيها. ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٢٣ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ۝٢٤﴾ [فصلت: ١٩-٢٤]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ ﴿يُحْشَرُ﴾ فيه قراءتان، ﴿يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ وعلى هذه القراءة يكون الفعل مبنيًّا لما لم يسمَّ فاعله، وكلما رأيت فعل مضارع مضموم الأول، مفتوح ما قبل الآخر، فهو مبني لما لم يسم فاعله - خذها قاعدة - فإن رأيته مضموم الأول فقط فهل يكون مبنيا لما لم يسمَّ فاعله أو لا؟ الجواب: لا، لأن المضارع من الرباعي يكون مضموم الأول، مثل: (يُكْرَم) من (أَكْرَم) الرجل وما أشبه ذلك؛ إذنْ هذا اللفظ إحدى القراءتين ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ وعلى هذا فيكون ﴿يُحْشَرُ﴾ فعل مضارع مبنيًّا لما لم يسم فاعله، ولاحظ أن قولنا: لما لم يسم فاعله، أولى من قولنا مبني للمجهول، لأنه قد يكون الفاعل معلوم كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ من الخالق؟ الله، وهو معلوم مع أن الفعل مبني لما لم يسمَّ فاعله، ولهذا التعبير بقوله: ﴿وَخُلِقَ﴾ فعل ماض مبني لما لم يسمَّ فاعله أولى من قوله: ﴿وَخُلِقَ﴾ فعل ماضي مبني للمجهول. وكذلك ﴿يُحْشَرُ﴾ فعل مضارع مبني لما لم يسمى فاعله.

قوله: ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ أعداء نائب فاعل، فيها قراءة أخرى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ أشار إليها المؤلف وليس هناك حاجة للتعليق لأنها موجودة في الكتاب. ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾، وعلى هذه القراءة تكون نَحشر فعل مضارع مبني للفاعل والفاعل هنا مستتر وجوبًا، و﴿أَعْدَاءُ﴾ مفعول به منصوب، وهنا نذكر متى يكون الفاعل مستترًا وجوبًا أو مستترًا جوازًا؟.

الجواب: إذا كان تقديره: (أنا أو أنت أو نحن) فهو مستتر وجوبًا، وإذا كان تقديره: (هو أو هي) فهو مستتر جوازًا، (أقوم) مستتر وجوبًا تقديره: أنا، تقوم تخاطب رجلًا، تقول: أنت تقوم مستتر وجوبًا. نقوم وجوبًا؛ لأن تقديره نحن، قام جوازًا؛ لأن تقديره هو، قامت جوازًا؛ لأن تقديره هي، تقوم إذا كنت تخاطب رجلا فهو مستتر وجوبًا؛ لأن التقدير أنت، تقوم إذا كنت تتحدث عن امرأة فيكون مستتر جوازًا، لأن التقدير هي.

إذنْ هذا الضابط ما كان تقديره أنا أو نحن أو أنت فهو مستتر وجوبًا.

وما كان تقديره هي أو هو فهو مستتر جوازًا.

في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ﴾ إعرابها وهو أن (يوم) ظرف وكل ظرف لا بد له من متعلق، لأن الظرف اسم مفعول فيه فلا بد من فعل، ولهذا قال ناظم الجمل:

لَا بُدَّ لِلْجَارِّ مِنْ تَعَلُّقِ ... بِفِعْلٍ أَوْ مَعْنَاهُ نَحْوَ مُرْتَقِي

فأين العامل في يوم؟ العامل في يوم محذوف، التقدير: واذكر يوم يحشر أعداء الله، ويحشر

بمعنى يجمع ويساق، وفيها قراءتان [بالياء والنون المفتوحة، وضم الشين، وفتح الهمزة]، لم يكمل المؤلف في الواقع القراءة الثانية، يحشر فيها قراءتان، الأولى ضم الياء وفتح الشين، ﴿يُحْشَرُ﴾ وعلى هذه القراءة يجب أن تكون ﴿أَعْدَآءُ﴾ مرفوعة على أنها نائب فاعل، القراءة الثانية: ﴿نَحشُر﴾ [بفتح النون وضم الشين]، على هذه القراءة يجب أن تكون ﴿أَعْدَآءَ﴾، منصوبة على أنها مفعول به، ويوم نحشر أعداء الله. وهنا نسأل هل القراءتان اللتان تكونان في القرآن الذي بين أيدينا هل هما الحروف السبعة أو سواها؟

الجواب: أنها سوى الحروف السبعة، الحروف السبعة الآن غير معلومة؛ لأنها قضي عليها بتوحيد المصحف في عهد عثمان رضي الله عنه، لكن القراءات السبع الموجودة في حرف واحد وهو حرف قريش، والذي توحدت المصاحف عليه في عهد عثمان رضي الله عنه، وعلى هذا فلا حاجة إلى التفتيش والتنقيب عن الحروف السبعة في وقتنا هذا؛ لأنها انتهت وقضي عليها، قال ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أعداء الله يمكن أن نعرفهم بمعرفة أولياء الله، وأولياء الله تعالى قال الله في بيانهم،﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ضد الإيمان الكفر، وضد التقوى المعاصي والفسوق، فأعداء الله إذنْ هم الكفار والفسقة يحشرون إلى النار أي يساقون إليها ويجمعون إليها، إلى النار فهم يوزعون، يقول المؤلف: [يساقون]، ولها معنى آخر، يساقون للتوزيع، يعني أنهم طوائف، وأمم كلما دخلت أمة لعنة أختها، فهم يوزعون بالسياق، أي يساقون، ويوزعون أيضًا بالتفريق كل أمة وحدها.

ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ﴾، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا﴾ قال المؤلف: [زائدة]، يعني كلمة ﴿مَا﴾ زائدة، لأنها وقعت بعد ﴿إِذَا﴾، وكلما وقعت ﴿مَا﴾ بعد ﴿إِذَا﴾ فهي زائدة، وعليك بحفظ البيت.

يَا طَالِبًا خُذْ فَائِدَه ... مَا بَعْدَ إِذَا زَائِدَه

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ جاءوها أي وصلوا إليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، قبل أن يدخلوها، تشهد عليهم هذه الجوارح، حتى يدخلوا وهم موقنون أنهم عوملوا بالعدل والإنصاف، يشهد عليهم سمعهم، هل يشهد بما سمعوا من اللغو ومن الكلام المحرم، أم يشهد السمع بجميع الأعمال؟ يحتمل وجهين، إما أن يكون المعنى شهد عليهم سمعهم بما سمعوا من الباطل وأبصارهم بما شاهدوا من الباطل وجلودهم بما لمسوا من الباطل، أو أن هذه الأعضاء تشهد على كل عمل عملوه، يحتمل هذا وهذا والثاني أعظم، أن يكون السمع يشهد بما حصل عن طريقه وبما حصل عن طريق البصر وبما حصل عن طريق اللمس، هذا أعظم بما لو شهد بما حصل منه فقط.

قوله: ﴿سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهل هذا بعد إنكار أو للتحقيق وللتأكيد؟ ليس في الآية ما يدل على ذلك، لكن قيل: إن هذه الأعضاء وأيديهم وأرجلهم كما في آيات أخرى إن هذا إنما يكون بعد إنكارهم، أن يكونوا أشركوا كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقوله: [﴿وَجُلُودُهُم﴾ بما مست]، وهي أعم من شهادة السمع والبصر، لأنه يدخل في ذلك اليد والرجل والشم وغير ذلك كل هذا عن طريق الملامسة.

ثم قال الله تعالى حكاية على لسانهم: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ولم يقل: (لأبصارهم وسمعهم)؛ لأن شهادة الجلود أعظم وأعم، ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: أعداء الله، ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾، وهذا الاستفهام استفهام إنكار، كأنهم يقولون: نحن نجادل عنكم فكيف تشهدون علينا، ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، يعني: إنا شهدنا بأن الله أنطقنا، والله عز وجل بيده ملكوت السموات والأرض، ينطق كل شيء، قال المؤلف: [أي أراد نطقه]، ولا حاجة إلى هذا القيد، لأن الله تعالى لا يكرهه أحد حتى نقول: إن هذا الفعل مقيد بالإرادة، نقول أنطق كل شيء، ولا نقول أراد نطقه، لأنه لا يمكن أن ينطق الشيء إلا بعد إرادة الله، ومثل هذا القيد غير مناسب، لأننا لو اعتبرناه لقلنا كل فعل ذكره الله عن نفسه يجب أن نقيده بالإرادة وهذا أمر مستكره، إذ إننا نعلم أن كل فعلٍ فعله الله فإنما هو عن إرادة، كما قال الله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فالله تعالى أنطق كل شيء هل أنطق الحجر؟ نعم أنطق الحجر والشجر وسمع تسبيح الحصى والطعام بين يدي النبي ﷺ(1)، بل قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، كل شيء يسبح الله بلسان المقال، إلا الكافر فإنه لا يسبح الله بلسان المقال؛ لأنه كافر بالله تعالى، يصف الله تعالى بكل نقص وعيب، وكل شيء يسبح الله بلسان الحال، حتى الكافر يسبح الله بلسان الحال، كيف ذلك؟ الكافر ما أودع الله فيه من آيات في الخلقة والخلق، كله يسبح الله عز وجل، أي يستدل به على تنزيه الله عن كل نقص وعيب، قال ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قيل: هو من كلام الجلود، وقيل هو من كلام الله تعالى، كالذي بعده، وموقعه قريب مما قبله بأن القادر على إنشاءكم ابتداءًا وإعادتكم بعد الموت أحياء، قادر على انطاق جلودكم وأعضاءكم.

قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يحتمل أن يكون من كلام الله، يخاطب به هؤلاء المكذبين والأعداء ويحتمل أن يكون من تتمة كلام الجلود، يعني أن الجلود تستدل على قدرة الله تعالى على

---

(1) صحيح: تقدم تخريجه.

إنطاقها بأنه خلقهم أول مرة، يقول المؤلف في بيان ذلك: [قيل هو من كلام الجلود وقيل هو من كلام الله]، أيهما قدم؟ إذا قال المؤلفون قيل كذا وقيل كذا، فالخلاف هنا مطلق لا تقديم فيه ولا تأخير، وإذا قيل هو من كلام الجلود وقيل من كلام الله، هنا يكون قدم الأول، أما إذا قال المؤلف قيل وقيل فهذا ليس فيه تقديم، بل هو نقل خلاف على وجه الإطلاق، قيل هو من كلام الجنود وقيل هو من كلام الله وعلى هذا فإن القولين لدى المؤلف متساويان، فأيهما أقرب أن نجعله من كلام الجلود حتى يتصل الكلام بعضه ببعض، أو من كلام الله؟

الجواب: الأول من حيث اللفظ أقرب، أن الجلود تقول أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء، وتقول لهؤلاء هو الذي خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، ولكن معنا القول الثاني أقوم للمعنى، يعني: أن الله لما بين أن هؤلاء يعادون يوم القيامة ويحاسبون وتشهد عليهم السمع والأبصار والجلود، بيَّن عز وجل أنه قادر على الإعادة، لأن هؤلاء الذين كذبوا ينكرون البعث، فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، والقادر على الخلق أول مرة، قادر على إعادته، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فهو يقول هو الذي خلقكم أول مرة والقادر على ذلك قادر على الإعادة.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا أيضًا فيه إشارة إلى الحكمة من خلق الخلق، أنهم يبتلون فيؤمرون وينهون، ومآلهم إلى الله عز وجل، يجازيهم بحسب أعمالهم التي كلفهم بها، ثم قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ هذا معنى قول المؤلف كالذي بعده لا شك أن هذا من كلام الله وليس من كلام الجلود، وقول المؤلف رحمه الله وموقعه قريب مما قبله، يعني: موقع هذا الكلام ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قريب مما قبله، يبين مناسبة هذه الجملة لما قبلها، وهو أن القادر على إنشاءكم ابتداءًا إعادتكم بعد الموت أحياء، قادر على إنطاق جلودكم وأعضائكم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ [عن ارتكابكم الفواحش من] ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، يعني: ما كنتم تستخفون في معاصيكم وكفركم، وغير ذلك مما يستترون به، خوفًا من أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم، ولا جلودكم، يعني أن الكفار يستترون أحيانا بالمعاصي، ليسوا يستترون خوفًا من أن تشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، لأن هذه الأشياء لا استتار عنها إطلاقًا، إذ أن هذه الأشياء ولا يمكن الاستتار عنها، وأيضًا هم لا يؤمنون بأنها سوف تشهد عليهم في يوم من الأيام، فصاروا لا يستترون عن هذه الأشياء لوجهين: الأول: أنه لا انفكاك عنها وأنها هي مكوناته، والثاني: أنه ما كان يطرأ على باله في يوم من الأيام أن هذه

سوف تشهد عليهم لأنهم ينكرون البعث، وإنكار البعث يستلزم ألا يؤمنوا بأنها تشهد عليهم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ ومعنى ﴿تَسْتَتِرُونَ﴾: تستخفون، وقوله: ﴿أَن يَشْهَدَ﴾ هي على تقدير محذوف، التقدير: (خوف أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم إلى آ خره). بأنكم لم توقنوا بالبعث، هذا التعليل أضفنا إليه تعليل آخر وهو عدم انفكاك جلودهم وسمعهم وأبصارهم، ولكن ظننتم أن عند استتاركم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون، هذا الذي ظنوه بالله، فظنوا بالله تعالى ظن السوء وأنهم إذا استتروا عن الخلق، استتروا عن الله، ولهذا قال: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، والكثير الثاني ما يفعلونه علانية ولا يهتمون به.

ثم قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ [مبتدأ]، ﴿ظَنُّكُمُ﴾ [بدل منه]، ﴿الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [نعت، والخبر] ﴿أَرْدَاكُمْ﴾، المؤلف أعرب الآية على وجه التفصيل، و﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ذا اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب جاءت بالجمع لأن المخاطب جماعة، وهنا يجب عليكم أن تعرفوا أن اسم الإشارة يعود إلى المشار إليه والكاف تعود إلى المخاطب، فكيف تقول: إذا خاطبت ذكرًا، تشير إلى شيء مذكر، ذلك، وكيف تقول: إذا أشرت إلى اثنين مخاطبًا ذكرًا؟ ذانك، وإذا أشرت إلى واحد تخاطب اثنين؟ تقول: ذلكما، وإذا أشرت إلى واحدة تخاطب جماعة إناث؟ تلكن.

اسم الإشارة يكون بحسب المشار إليه، والكاف بحسب المخاطب، تشير إلى جماعة مخاطبًا جماعة ذكور؟ أولئكم. في القرآن ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾،

تشير إلى مؤنثتين تخاطب اثنتين؟ ذانكما.

وهل الأفصح في كاف المخاطب الإشارة أن تكون بحسب المخاطب، أو أن تكون بالإفراد المذكر دائمًا أم بالإفراد المذكر للمذكر والمؤنث للمؤنث؟

هناك أقوال ثلاثة وكلها لغات:

يعني: الكاف هل نلزمها بطريقة واحدة بالإفراد والفتح، مثلما نقول: ذانك، ذلك، تانك.

أو نلزمها بالإفراد مع الفتح للمذكر والكسر للمؤنث.

هذان وجهان أم نقول هي حسب المخاطب المفرد المذكر له كاف مفتوحة، والمفرد المؤنث بها لها كاف مكسورة، والمثنى كاف مقرونة بعلامة التثنية، وجماعة النساء كاف مقرونة بنون النسوة، وجماعة الذكور كاف مقرونة بميم الجمع.

الأخير هو الأفصح، لكن يجوز الوجهان الآخران.

قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ قال المؤلف: [مبتدأ ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدل منه]. ﴿الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [نعت، والخبر] ﴿أَرْدَاكُمْ﴾، يعني معنى أن قوله ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ وما عطف عليها صار صفة لها، في مقام المبتدأ و﴿أَرْدَاكُمْ﴾ في مقام الخبر، هل يمكن احتمال وجه آخر؟ نعم، يمكن أن نجعل ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ مبتدأ و﴿ظَنُّكُمُ﴾ خبره، و﴿أَرْدَاكُمْ﴾ خبر ثاني، وهذا الوجه أقوى في المعنى، يعني ذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم، يعني لن تظنوا به سواه، وأنه لن يعيدكم، ثم أخبر عن هذا الظن خبر آخر، فقال أرداكم، فهذا المعنى أقوى من قول المؤلف رحمه الله تعالى: أن ﴿ظَنُّكُمُ﴾ بدلًا من ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾، وأن ﴿الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ نعت له، وأرداكم خبر له.

قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ وهو الله عزَّ وجل، وأضاف الربوبية إليهم، لأنهم يقرون بربوبية الله، لاينكرونها، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ وفي قراءة أخرى سبعية، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أراداكم يعني: [أهلككم]، قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فأصبحتم أي صرتم من الخاسرين، وهنا (أصبح) لو نظرنا إلى مجرد لفظها لكانت دالة على الإصباح، لكنها تستعمل في اللغة العربية بمعنى الصيرورة، تقول أصبح لا يعلم شيئًا أي صار لا يعلم شيئًا، وهنا ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ليس المعنى دخلتم في الصباح خاسرين، ولكن المعنى صرتم ﴿مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾، والخاسر ضد الرابح، وإنما قال من الخاسرين، لأن هؤلاء الذين أنكروا البعث خسروا الدنيا والآخرة في الواقع، فدنياهم لم تنفعهم وهم في الآخرة في النار وهذا غاية الخسران.

قال تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾

قوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا﴾ أي: الأعداء ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ يطلبوا العتبى أي: الرضا فما هم من المعتبين أي من المرضيين، انتبهوا لهذا الوعيد الشديد، ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، لم يقل: (إن يصبروا فلينتظروا الفرج)، بل قال: ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي ليس لهم إلا النار، وهذا كقوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾، العذاب سوى عذاب الآخرة ينتظر الفرج له، لأن دوام الحال من المحال، فإذا صبر الإنسان على البلاء فالنهاية الزوال، لكن في الآخرة إن يصبروا فلن يسلموا من النار، ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وهي مثوى لهم قبل الصبر وبعد الصبر، لكن هذا من باب التيئيس لهم وأن صبرهم لن يفيدهم شيئًا ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ [أي يطلبوا العتبى] أي الرضا ﴿فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾، لأنهم يسألون الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، والجواب: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ لكن في الدنيا إذا طالبوا بالعتبى

وتابوا إلى الله لحصل لهم ذلك، لكن في الآخرة، قد فات الأوان.

وقوله: ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي [مأوى]، وكل إنسان مأواه النار فلا حظ له في الجنة.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات حقيقة النار؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾.

٢ - **ومنها:** إثبات أعداء لله كما أن له أولياء. وعدو الله من كان كافرًا فاجرًا.

٣- أن أهل النار - والعياذ بالله - يساقون إلى النار أوزاعًا، أي متفرقين، لقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية:** إثبات حقيقة النار وأن هؤلاء يصلون إليها حقيقة لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** دخول التوكيد في كلام الله عز وجل؛ لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾؛ لأننا قلنا: إن ما زائدة ولكنها للتوكيد. فإن قال قائل: كلام الله عز وجل مؤكد بدون أداة توكيد، فما الفائدة في أن الله يأتي كثيرًا في كلامه بأدوات التوكيد؟ الجواب: أن القرآن لا شك أنه مؤكد، وأن أخباره لا تحتاج إلى توكيد لكن القرآن نزل بلسان عربي مبين، واللسان العربي يقتضي أن يكون الكلام الهام مؤكدًا بأنواع من التوكيدات. إذًا تأكيد ما يؤكد في القرآن دليل على بلوغ القرآن الفصاحة في أعلى معانيها لأنه متمشٍ على قواعد اللغة العربية الفصحى.

٣- **ومنها:** إثبات النطق للسمع والبصر والجلود؛ لقوله: ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾، والشهادة تكون بالنطق، وقد تكون لغير النطق لكنها في الأصل في النطق، ولذلك قالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله.

٤ - **ومنها:** أن أعضاء الإنسان تكون يوم القيامة خصومًا له، ووجه ذلك أن هؤلاء أنكروا على سمعهم وأبصارهم وجلودهم أن شهدوا عليهم، وما ظنك بأعضاء تكون يوم القيامة خصوما لك، إذنْ فالواجب على الإنسان أن يرعى هذه الأعضاء حق رعايتها، وألا يورطها فيما تكون خصمًا له به يوم القيامة.

٥ - **ومنها أيضًا:** أن الأعضاء منفردة تعرف ربها عز وجل؛ لقولها: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٦ - **ومنها:** عموم قدرة الله تعالى؛ لقوله: ﴿الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

٧- **ومنها** أن ابتداع الخلق من الله، لم يشرك أحد رب العالمين في الخلق، لا أم ولا أب ولا سلطان، ولا رئيس ولا وزير، المنفرد بالخلق هو الله عز وجل.

٨- **ومنها** استعمال الأدلة العقلية في القرآن تؤخذ من استدلال الله تعالى بالمبدأ على الميعاد؛ لأن هذا دليل عقلي؛ فإن قال قائل: وهل تقدم الأدلة العقلية على الأدلة السمعية؟

الجواب: لا؛ لأن العقل قد يخطأ، فيظن الإنسان أن هذا عقل وليس بعقل، وأما الأدلة السمعية الثابتة عن الله ورسوله فهذه لا تخطئ، ولهذا أخطأ من استعمل العقل، بل قدمه على السمع والنقل فيما يتعلق بالله واليوم الآخر، وحكموا بعقولهم القاصرة على أمور الغيب استحالة أو وجوبًا أو جوازًا، وأعرضوا عن نصوص الكتاب والسنة، ومن هؤلاء جميع المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية وغيرهم حيث جعلوا التلقي فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته على الاعتماد على العقل.

٩- **ومنها**: إثبات الرجوع إلى الله عز وجل، فاستعد لهذا الرجوع واعلم أنك ملاق ربك ولكن أبشر إن كنت مؤمنًا، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني لا يخف المؤمن من هذه الملاقاة، بل له البشارة في الدنيا قبل الآخرة، لكن حقيقة هذه البشارة للمؤمن خاصة.

مسألة: هل عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ينطبق على قول الصحابة أن الطعام كان يسبح في أيديهم؟

الجواب: ظاهر النصوص أنه يسبح حقيقة، لكن قوله تعالى: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فباعتبار المجموع، لا باعتبار كل فرد، فإن من الأشياء ما نسمع تسبيحه فهو يسبح تمامًا، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ فالظاهر أنها تردد كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾.

مسألة: هل التسبيح كما نعرفه نحن أم خاص بهم؟

الجواب: لا، يقولون: سبحان الله.

مسألة: بعضهم قال: صوت خرير الماء تسبيح؟

الجواب: هذا خطأ صوت خرير الماء ليس تسبيحًا، هذا طبيعي، كأن نقول حركة الإنسان بالأرض وسماع لها صوت هذا تسبيح، هذا أيضًا خطأ.

مسألة: حول الاستعتاب.

الجواب: الاستعتاب طلب العتبى. والعتبى معناها قبول العذر والرضا، فالمؤلف فسرها في النهاية بالغاية، بل هي الرضا، لأن الإنسان إذا استعتب وقبل عذره رضي عنه المستعتب.

مسألة: قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ مخبرًا عن نفسه بضمير الغائب.

هذه لها أحوال لكن العلماء يقولون:

الجواب: أن المتكلم إذا عبر عن نفسه بضمير الغائب فهذا دليل على العظمة والتعظيم، ففرق أن يقول ملك من ملوك الدنيا: إن الملك يأمركم أن تفعلوا كذا، أو يقول: إني آمركم، هذه قاعدة في البلاغة، تعبير المخاطب عن نفسه بصيغة الغائب يدل على التعظيم. لا سيما بوصف يقتضي ذلك.

مسألة: حول وقوع العذاب على أهل النار.

الجواب: الواقع أن العذاب على أهل النار واقع على كل البدن، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، هم يتعجبون ويوبخون السمع والأبصار والجلود لما شهدتم علينا ونحن نجادل عنكم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هؤلاء المجرمين لا يؤمنون بالبعث، لقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ﴾.

٢- **ومنها:** تمام قدرة الله عز وجل وأنه قادر على إنطاق كل شيء، حيث أنطق السمع والأبصار والجلود.

٣- **ومنها أيضًا:** أن هؤلاء المجرمين يظنون أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون، وهو الذي يخفون، ولهذا كانوا يخفون عن الله عز وجل، ما يقعون فيه من الكفر.

أما قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

١- **فيستفاد منها:** أن مثل هذا الظن سبب لهلاك المرء، أن يظن أنه لن يبعث فإن ظن ذلك كان سببًا لهلاكه بل هو هلاكه حقيقة، لأن الذي ينكر البعث كافر، والكافر لا حظ له لا في الدنيا ولا في الآخرة، لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٢- **ومنها:** أن هؤلاء المجرمين يظنون أنهم ربحوا المعركة باستخفائهم وهذا ينطبق تماما على المنافقين، ولكن حقيقة الأمر أنهم خسروا، لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

٣- **ومنها:** أن أهل النار لن يخرجوا منها، سواءً صبروا أم لم يصبروا؛ لقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، ويبينه قوله تعالى: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

قال تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** الإشارة إلى أن النار لا تفنى لقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى

لَهُمْ﴾ وهذا أعني أن النار لا تفنى هو قول أهل السنة والجماعة، كما أن الجنة أيضًا لا تفنى، وقد زعم بعض العلماء أن النار تفنى في النهاية، ولكن هذا الزعم نهاية باطل، وهذا لا يستحق منزلة أن نقول ضعيف، بل نقول إنه باطل، لا ينبغي أن تسود به الصحائف، وذلك لأن كلام الله تعالى - الذي خلق النار وهو عالم بها وبمصيرها - فيه التصريح بالتأبيد، في ثلاثة مواضع من كتاب الله عز وجل، الموضع الأول: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. الموضع الثاني: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، الموضع الثالث: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فهل بعد هذا الكلام كلام؟! ولهذا الإنسان يعجب أن يقع من بعض العلماء: القول بأن النار تفنى مع وجود الآيات الثلاث، قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ قد يكون فيها إشارة إلى أنها ستبقى أبد الآبدين، لأنه لو كان لها منتهى فسوف يعتبون في آخر النهاية.

٢- **ومنها**: إثبات النار؛ لقوله: ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾، ومنها أنها هي المثوى وليس كما يزعم بعض الكتاب اليوم، يقولون: إن الميت إذا مات صار إلى مثواه الأخير، وقد بينا أن هذه الكلمة كلمة كفر، لو اعتقد الإنسان مدلولها، لو اعتقد أن القبر هو المثوى، ولا قيام بعده لكان كافرا، فيقال: إن القبر ليس المثوى الأخير.



قال الله تعالى:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ قال المؤلف: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ أي: [سببنا]. والصواب أن معناها هيأنا لهم قرناء، وذكر الفاعل بضمير الجمع للتعظيم؛ لأن ضمير الجمع يراد به تارة التعظيم وتارة التعدد، وهنا لا يمكن أن يراد به التعدد لأن الله إله واحد، ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [من الشياطين] والمراد بالشياطين: شياطين الإنس وشياطين الجن، لأن هناك قرين خفي، وهو قرين الجن، يأمر الإنسان بالسوء وينهاه عن الخير، وهناك قرين سوء من الإنس ولهذا مثل النبي

ﷺ قرين السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة[1]، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، (زينوا) أي القرناء لهم، أي: للمقترنين بهم، ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، يقول المؤلف: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، واتباع الشهوات، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [من أمر الآخرة لقولهم لا بعث ولا حساب]، نعم هؤلاء القرناء حسنوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وقالوا لهم اتبعوا الشهوات، كونوا كما شئتم، أترفوا أنفسكم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ ومنوهم وما خلفهم أي ما أمامهم، لأن الخلف والوراء قد يراد به الأمام، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، إذنْ زينوا لهم الآخرة أيضًا، لأنهم منوهم بأحد أمرين، إما بالنجاة من العذاب، لقوله: [لا بعث ولا حساب]، وإما بأن ينتقلوا إلى خير من ذلك، ويقولوا: (إن الذي أترفنا في الدنيا سوف يترفنا في الآخرة)، كقول بعضهم: هذا لي ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده الحسنى، كقول صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ فهكذا يمني الشيطان أولياءه، يقول: انبسطوا في الدنيا أترفوا أنفسكم وفي الآخرة سوف تنتقلون إلى ما هو أفضل، ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ومنوهم الأماني.

قال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: وجدوا، القول: قول الله تبارك وتعالى: فما هو القول الذي حق؟ فسره المؤلف: بأنه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقيل القول: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ونقول كما أسلفنا في قاعدة التفسير: إن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا مرجّح لأحدهما عن الآخر، ولا منافاة بينهما، فإنها تحمل على المعنيين جميعًا، نقول حق عليهم قول الله تعالى: ﴿﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ وهذا في الدنيا، يعني مهما عالجت الإنسان الذي حقت عليه كلمة الله فإنه لن يهتدي، وحقت عليهم كلمة الله في الآخرة وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إذنْ لا فائدة، إن أبرز مثلٍ عندنا في هذا ما حصل للنبي ﷺ مع عمه أبي طالب الذي كان يدافع عنه أشد المدافعة ويؤويه وينصره ويشهد أنه الحق لكنه لم ينقد إلى ذلك ولم يتبع، هل أغنى عنه من الله شيء؟ لا، عند موته يقول: «يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[2]، ولم ينفعه ذلك، كان آخر ما قال: على ملة عبد المطلب، لأن أبا طالب عند موته حضره النبي ﷺ وحضره رجلان من كبار قريش، فكان الرسول يقول: يا عم قل لا إله إلا الله وهما يقولان له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ يعني على ملة الكفر، فكان آخر ما قال: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، مع أنه يقر ويعترف بأن الرسول

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٠١) ومسلم (١٤٦/ ٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٣٩/ ٢٤) من حديث المسيب رضي الله عنه.

حق، يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

ويقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

أي: بقول السحرة فهو ليس بساحر، ومع ذلك قد حقت عليه الكلمة ـ نسأل الله العافية، ويحسن الله لنا ولكم الخاتمة ـ حقت عليه الكلمة أي أنه لم يؤمن، يقول: ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ يعني: في [جملة] ﴿أُمَمٍ﴾، واحتجنا إلى قوله في جملة يعني إدخال جملة وإن كانت معروفة في السياق، لأنه لو قال في أمم لكان هؤلاء مشاركين في كل الأمم الماضية والمستقبلة مع أنهم في أمتهم وحدهم، فيكون المعنى في أمم في جملة أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: [هلكت] ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ إلى آخره، ﴿مِن قَبْلِهِم﴾، أي: من قبل هؤلاء المكذبين. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، الجن: هم عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نار؛ لأن أباهم إبليس كان من نار؛ ولهذا كان شأنهم أو كان حالهم الطيش والسرعة والاندفاع كالنار في لهبها، فهم أعني الجن خلقوا من نار، وهم مكلفون بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولكن هل الأعمال التي كلفوا بها هي الأعمال التي كلف بها الإنس، أو غيرها؟، إن نظرنا إلى عمومات الأدلة، قلنا إن الجن مكلفة بما كلف به الإنس، لأن الشريعة التي بين أيدينا لم تأت بشريعة للجن، فهي شريعة واحدة، ورسول واحد، فهم مكلفون مثلًا بصلاة كصلاتنا ووضوء كوضوئنا، وحج كحجنا، وصوم كصومنا، وصدقة كصدقتنا. كل ما نحن مكلفون به هم أيضًا مكلفون به، إذ إننا لا نرى في الشريعة التي بين أيدينا تشريعات للجن، هذا ما إذا نظرنا إلى عموم الأدلة، أما إذا نظرنا إلى حكمة الله في شرعه قلنا: إنهم مكلفون بشريعة تليق بهم، فكما أن الإنس إذا اختلفوا يجعل لكل صنف ما يليق بهم، فكذلك الجن، والجن مخالفون للإنس في الحد والحقيقة، مخالفون تماما للإنس، فتكون شريعتهم خاصة تليق بهم، لكن تحذير الظلم والشرك والعدوان وما أشبه ذلك هذا عام على الجن والإنس، إنما أريد التكليفات البدنية، كالصلاة مثلًا، هل صلاتهم كصلاتنا، أو صيامهم كصيامنا؟ هذا هو محل الخلاف بين العلماء: منهم من يقول إن الجن مكلفون كما كلف الإنس تمامًا، وحجة هؤلاء: عموم الأدلة التي بين أيدينا لا نجد فيه أحكامًا تخص الجن، فالأصل العموم أن ما كلف به الإنس هو ما كلف به الجن، والقول الثاني: أن الجن مثل الإنس في العبادة وما كلفوا به، أو يختلفون، ووجه ذلك: أننا نجد من حكمة الله أن التشريعات مناسبة للمكلف بها، فمثلًا المريض يصلي قاعدًا، المسافر يؤخر الصوم، والذي لا يستطيع الركوب على الرحل لا يحج، فإذا كانت هذه الاختلافات تكون بين الإنس لاختلاف أحوالهم، فما بين الجن والإنس من باب أولى، ولكن هناك أشياء لا جدال فيها. ومنها

تحريم الشرك والظلم والعدوان وما أشبه ذلك، ولهذا نجد كثيرًا من العلماء الذين يقرأون على من مسهم الشيطان، يذكرونهم بتحريم الظلم وأنه حرام وأنهم معتدون وما أشبه ذلك. مما يدل على أنهم ملتزمون بهذا.

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ إذنْ الجن عالم غيبي خلقوا من النار مكلفون بشريعة النبي ﷺ إلزامًا؛ لأنه مرسل إلى الجن والإنس، لكن، لا نعلم هل هم ملزمون بذلك أم لا؟

لكنهم مأذون لهم أن يعملوا بها قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ مما يدل على أنهم انتفعوا بكتاب موسى، أنزل من بعد موسى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فهم ملزمون بالعمل بشريعة محمد ﷺ، قلنا: إنهم عالم غيبي، فهل يمكن أن يبرزوا للناس يوم من الأيام؟ نعم، ربما يبرزون لبعض الناس ملونين، يعني يتلونون، هم يتلونون، قد يتراءى الجني للإنسي بصورة إنسان ضخم كبير عظيم، أو بصورة هيكل له قرون وله آذان وله أرجل طويلة وما أشبه ذلك، هم يتلونون، وأما ما زعم بعض الناس بأنهم أجسادًا ليس فيها عظيم، وإذا لمسته وجدته رقيقًا جدًّا، وأن أعينهم مشقوقة الطول هكذا، فهذا كل لا أصل له، إذنْ نقول: هم عالم غيبي، ويدل لذلك المادة التي يوصفون بها، يعني الجن، لأن الجيم والنون تدل على التستر والخفاء، أرأيتم الجنة، الجنة هي البستان كثير الأشجار، أما الجُنَّة الجُنَّة ما يتخذه المقاتل لحماية نفسه من السلاح يستتر به، والإنس هم هؤلاء البشر من بني آدم وسموا أنسًا؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، ولهذا قيل إن الإنسان مدني بالطبع، ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ﴾ أي الذي حق عليهم القول ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾، كانوا متى؟ أي في علم الله وليس يوم القيامة؛ لأنه لو كان كذلك لقال: (يكون)، لكن (كانوا) في علم الله عز وجل وتقديره خاسرين، ولكن اعلم أنه لا يمكن لأحد أن يضل إلا وهو السبب في ضلال نفسه، لدينا آية من كتاب الله حاكمة على كل ذلك، على كل ما يتوهم أن الضلال مقدر من عند الله تعالى ابتلاءً وامتحانًا ـ إن كان الأمر كذلك ـ لكن سبب ضلال الإنسان هو نفسه، قال تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه فماذا نفعل؟ فاعلم أن كل شيء من المعاصي فأنت سببه، وإن شئت فاقرأ قول الله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ يا لها من موعظة في هذه الآية، أنك إذا توليت عن أمر الله فاعلم أن ذلك بذنبك، فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، فصار الإعراض عقوبة، وهذا أمر قد لا يتفطن له بعض الناس، إعراضك عن الله عز وجل وعن دين الله هو عقوبة بيد الله عز وجل، لقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا

مِنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾.

مسألة: حول هل هناك ناران؟

الجواب: هناك تقسيم أورده ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» و«شفاء العليل»، وكذلك في «الوابل الصيب» في نار جهنم؛ حيث قسَّمه بحسب من هم فيها، فإن كان فيها الكفار فهي تدوم ولا تفنى، وأما إن دخلها العصاة من المسلمين، فهي تفنى؛ وذلك لأن أهلها خرجوا منها، وهذا التقسيم قوي والإنسان يميل إليه من الناحية العقلية، ولكن ما الدليل على هذا؟ ولكن المذكور أنها نار واحدة، فكلامه يوافق العقل، فإن كان صوابًا فهذا توفيق من الله وإن كان خطئًا فنسأل الله أن يعفو عنه، وهو تقسيم قوي ولأنه يوافق أن تكون هناك نارين.

مسألة: حول عدم تقديم كلام أحد من الناس على كلام الله وكلام رسوله؟

الجواب: لا يجوز أبدا أن نعرف الحق بالرجال، بل نعرف الحق بالدليل، فما دام بين أيدينا كلام الله عز وجل كيف نفكر أو نرجح نقول قال فلان أو قال فلان، لو قال أكبر الناس ـ ما عدا الرسول ﷺ ـ قلنا: لا سمع ولا طاعة ولا تصديق ولا إيمان، بين أيدينا كلام الله عز وجل والخالق عز وجل والعالم عز وجل.

مسألة: هل يرسل إلى الجن رسل؟

الجواب: يقول عز وجل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾. وقال العلماء: إنه لا يكون رجال من الجن، ولكن في هذا نظر لأن سبحانه قال: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ فيقال: الجن من أهل القرى، قال أنت فيها والجن فيها أيضًا.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان عظمة الله عز وجل في قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا﴾؛ لأن ﴿نا﴾ تفيد العظمة.

٢ - **ومن فوائدها:** الرد على المعتزلة الذين يقولون بأن العبد مستقل بعمله، ولا علاقة لله تعالى به، والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام: القسم الأول: من قال إن الإنسان مجبر على عمله وليس له إرادة ولا اختيار، وأن فعله الاختياري كفعله الاضطراري، فالذي يذهب ويجيء باختياره، كالذي يرتعش أويمشي مجنونًا في الارض وهذا مذهب الجبرية، وزعيمهم الجهم بن صفوان الذي تتلمذ على يد الجعد بن درهم.

القسم الثاني: من قال: إن العبد مستقل بعمله وليس لله فيه علاقة فالإنسان مريد مختار وليس لأحد عليه سلطة وهذا مذهب القدرية والمعتزلة، وهؤلاء القدرية يسمون مجوس هذه الأمة لأنهم

ادعوا أن للحوادث خالقين فالحوادث التي من فعل الله هي من فعله، والحوادث التي هي من فعل العبد هي من فعله استقلالا، وهؤلاء هم المعتزلة ومن ضاهم وزعيمهم واصل بن عطاء.

القول الثالث: من قال إن العبد له إرادة واختيار، ولكن إرادته واختياره تابعة لإرادة الله تعالى ومشيئته وهم السلف الصالح أهل السنة والجماعة. فقالوا: إن العبد هو القائم الصائم الراكع الساجد، هو العبد وليس الله وقالوا إن هذه الأفعال تنسب إليه، وما أكثر ما في القرآن، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ و﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾.

وما أشبه ذلك، لكنها لم تقع خارجة عن قدرة الله ومشيئته، بل هي تحت قدرة الله ومشيئته، وفائدة ذلك أنه إذا وقع الفعل منا أن الله قد شاءه وأراده ولسنا مستقلين به.

فهذه الآية: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ترد على الطائفتين جميعا، ﴿وَقَيَّضْنَا﴾ ترد على القدرية، ﴿فَزَيَّنُواْ﴾ نسبت الفعل إليهم فترد على الجبرية.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الحذر من الوساوس التي يلقيها الشيطان لفاعل المعصية ويزينها لها، ويقول هذه سهلة، الله غفور رحيم، افعل هذا ثم تب وما أشبه ذلك، احذر هذا؛ لأن هذا وعد الشيطان، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

٤ـ **ومنها:** أن هؤلاء الذين تابعوا القرناء قد خسروا، لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

٥ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء الذين استحسنوا ما زينوا لهم القرناء حق عليهم القول، وسبق أن القول على رأي المؤلف، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وعلى ما ذكرناه، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولا يبعد أن يكون المراد بذلك الأمرين جميعًا.

٦ـ **ومن فوائد الآية:** كثرة الضالين لهؤلاء القرناء، لقوله: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت:٢٦ـ٢٩]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ [عند قرءاة النبي ﷺ للقرآن] ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ يعني بعضهم يوصي بعضهم، يقول: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، أي لا تنصتوا له ولا تستمعوا إليه وابتعدوا عنه، وذلك لأن القرآن يؤثر في قلب من يسمعه، حتى إن بعض المشركين من كبرائهم يأتون إلى النبي ﷺ يستمعون قراءته اختفاءً بالليل، لأجل أن يطلع عليه؛ لأنهم يستمعون قولًا يسلب العقول، ويأخذ بالنفوس، فهم يوصي بعضهم بعضًا، يقول: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، والقرآن كلام الله وهو على وزن فُعْلَان، وفعلان مصدر، كالغفران والشكران، وهل هو من (قرأ) وأم مِن (قرى) أو منهما جميعًا؟

نقول: هو صالح للجميع، فإن كان من (قرأ)، أي من القراءة والتلاوة، وهو من (قرى) أيضًا بمعنى جمع، ومنهم القرية؛ لأنها تجمع أقوامًا، فالقرآن جامع ثم هل هو فاعل أو مفعول؟ إذا كان من (قرأ) فهو بمعنى مقروء فهو مفعول، وإن كان من (قرى) فهو بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، أي أنه مشترك بين فاعل ومفعول، فهو جامع وهو مجموع بأنه يكتب وتجمع حروفه بعضها إلى بعض، والمراد به ما نزل على محمد ﷺ. ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [بهذا القرآن]، المراد بالإشارة هنا التحقير، يعني هذا لا يساوى شيئًا لا تسمعوا إليه، ويشبه هذا من بعض الوجوه، قوله أحدهم ﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ احتقار، أهذا الذي يسب من هو؟ ﴿أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ وهذا للاحتقار ولكنه يستفاد من الاستفهام، أما هنا فهو مستفاد من الإشارة الدالة على التحقير، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾، [ائتوا باللغط ونحوه وصيحوا في زمن قراءته]، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي عندما تسمعون رسول الله ﷺ يقرأ صوتوا وتصايحوا لأجل أن تخلطوا عليه قراءته، وتحولوا بينه وبين السماع، يعني فهم يفعلون ذلك لأمرين، الأول: التخليط على النبي ﷺ في قراءته، والثاني: ألا يسمع أحد قراءته من أجل الضوضاء واللغط، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذه (لعل) للتعليل، وكما تعلمون أن (لعل) تأتي للتعليل وتأتي للإشفاق، وتأتي للترجي، وتأتي للتمني، كل هذه المعاني تختلف بحسب السياق؛ لأن السياق هو الذي يحدد معاني الكلمات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فيسكت عن القراءة]؛ لأنه إذا سمع الأصوات والضوضاء والضجة، واختلطت عليه قراءته فإنه لا يجد فائدة من القراءة وحينئذ يسكت، هذا ما يفعله هؤلاء المشركون.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** خوف المشركين وانزعاجهم من تأثير قراءة النبي ﷺ، وجه ذلك أن بعضهم يوصي بعضا بألا يستمعوا لهذا القرآن.

٢- **ومنها:** قوة تأثير القرآن على سامعه، وهذا هو الواقع، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ

لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ لكن القرآن إنما يؤثر على من يفهم اللغة العربية ومعاني الكلمات، وأما الأعجمي حقيقة أو حكمًا فإنه لايتأثر به، ثانيًا: إنما يؤثر القرآن كمال التأثير على المؤمن به، أما المكذب والمستكبر فلا، حتى إنه يقول هذا أساطير الأولين.

٣- **ومن فوائدها:** أنه لا يجوز اللغط والضوضاء حين قراءة القرآن، فإما أن تستمع إليه وإما أن تقوم، أما أن تجلس إلى قارئ القرآن وتحدث الأصوات واللغط والضوضاء، فهذا أقل ما فيه أنه شبيه بصنيع المشركين، هذا أقل ما فيه، يعني لو قدرنا أن هؤلاء القوم الذين عندهم اللغط والضوضاء لا يريدون أن يشوشوا على القارئ ولا يريدون ألا يستمع قراءته أحد ، نقول: أدنى ما فيه أنه مشابه لعمل المشركين، ويتفرع على ذلك ما يفعله بعض الناس في متاجرهم ومساكنهم يفتحون القرآن على المسجل ويجعلونه يقرأ وتجده في ضوضاء وفي كلام قبيح وفي كذب ـ وهذا إهانة للقرآن ـ فنقول إما أن تستمع إلى كلام الله و إما أن تغلقه، أما أن يبقى يقرأ ـ وهذا يكذب وهذا يلعن وهذا يغش ـ فهذا في غاية الإمتهان لكلام الله عز وجل، وإما إن يجهل الإنسان فإن صورته صورة الامتهان.

٤- **ومنها:** أن التشويش على الداعية، قد يظن فاعله أن يغلب ويصل إلى مقصوده ولكن ليس الأمر كذلك، ووجه الدلالة من هذا أن هؤلاء المشركين لم يحصل لهم مطلوبهم من الغلبة.

ثم قال تعالى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾ الجملة هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، ويدلنا على القسم توكيد الفعل واللام أيضًا، والثاني: اللام، والثالث: النون، ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ... ﴾ أي لنعذبنهم عذابًا يذوقون ألمه، وهو كناية عن شدة هذا العذاب الذي يصل إلى مذاقهم حتى كأنه شيئ محسوس يتذوقونه بأفواههم، ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ المراد بالذين كفروا من سبق، وهم الذين قالوا ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ ﴾، وحينئذ يقول قائل: لماذا لم يضمر فيقول: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾؟ نقول: هنا إظهار في موضع الإضمار، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد، الفائدة الأولى: تنبيه المخاطب، كيف ذلك؟ لأنه جرت العادة أنه إذا كان السياق يقتضي الإضمار فإنه يأتي الإضمار، فإذا جاء الإظهار صار هذا على خلاف العادة، العادة أن الكلام إذا كان في سياق الإضمار فإن الذي يأتي هو الإضمار يعني الضمير، فإذا جاء الظاهر موضع الضمير فسوف يتوقف الإنسان، لماذا جاء الظاهر موضع الضمير؟ فيكون في ذلك انتباه له. والفائدة الثانية: الحكم على مرجع الضمير بمقتضى هذا الاسم الظاهر، فدلالة المعنى: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ إذنْ الحكم عليهم بالكفر وهكذا كلما جاء في هذا الموضع. الفائدة الثالثة: العموم، لو قال: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ﴾ صار هذا الوعيد خاصًا بالذين قالوا: ﴿ لَا

تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾، فإذا قال ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ صار عاما لهم ولغيرهم.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هنا ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ منصوب، ﴿الَّذِينَ﴾ نصبه ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، (ونذيق) فعل ينصب مفعولين، ودليل أن (نذيق) تنصب مفعولين، أنه لدينا قاعدة: أن الفعل إذا تعدى لواحد فأدخلت عليه همزة التعدية تعدى إثنين، وإذا كان يتعدى لاثنين فأدخلت عليه الهمزة، تعدى إلى ثلاثة، مثل: (ذاق) تتعدى إلى واحد، مثل: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا»(١)، فإذا دخلت عليه الهمزة، تعدت إلى مفعولين، ورأى تقول: (رأيت الرجل قائمًا)، تنصب مفعولين، فإذا دخلت عليه الهمزة تعدت إلى ثلاثة، (أريت زيدًا الرجل قائمًا)، هذه قاعدة عربية مضطردة، إذا كان لازمًا فدخلت عليه الهمزة تعدى لواحد، إذا كان متعديًا لواحد فدخلت عليه الهمزة تعدى لاثنين، وإذا كان متعدى لاثنين فدخلت عليه الهمزة تعدى الى ثلاثة.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ﴿عَذَابًا﴾ أي القوة، ﴿شَدِيدًا﴾: قويًا ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ معطوف على ﴿فَلَنُذِيقَنَّ﴾، ﴿أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ هذه تنصب مفعولين الأول الهاء والثاني أسوأ، ﴿أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: [أقبح جزاء عملهم] ﴿أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. هل هم يجزون أسوأ الذي كانوا يعملون؟ أو يجزون جزائهم؟ هم يجزون الجزاء العمل منهم ليسوا مُجزيين به، هم الذين عملوا، فإذا قال ﴿أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صار المراد أسوأ الجزاء، وليس المراد أسوأ العمل؛ لأن العمل في فعل العبد، والجزاء فعل الله به، والمراد فعل الله به ولهذا قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، فإذا قال قائل لماذا عبر بالعمل عن جزائهم؟ نقول: إشارة إلى أن الجزاء بقدر العمل، ولهذا قال العلماء: (الجزاء من جنس العمل)، لكنه بالنسبة للسيئات عدل، وبالنسبة للحسنات فضل، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والسيئة بمثلها، وقوله: ﴿أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ظاهر الآية أن الله يجزيهم أسوأ عملهم، وغير الأسوأ ما دون الأسوأ يعني: السيئ، فهل يجازى الكافر بكل أعماله أو بأقبح أعماله؟ هذا ينبني على: هل الكافر مخاطب بفروع الشريعة أم لا؟ يعني مثلًا الكافر هل هو مخاطب بصلة الرحم هل هو مخاطب بالصدق؟ هل هو مخاطب بالصلاة؟ هل هو مخاطب بالزكاة؟ وما أشبه ذلك، في هذا خلاف بين العلماء والصحيح أنه مخاطب، مخاطب بفروع الأعمال، لأن إذا كان المسلم مخاطب به، فالكافر من باب أولى، كيف نقول إن المسلم يجازى ويعاقب على عقوق الوالدين والكافر لا يعاقب، لا يمكن هذا؟

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٦/ ٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ.

الصواب: أنهم مخاطبون بفروع الشريعة، لكنهم غير مخاطبين بفعلها.

يعني: لا يقال لكافر مثلا يشرب الدخان، حرام عليك، هذا غير لائق، ادعوه أولا للإسلام ثم كلمه، إذنْ يخاطب بفروع الشريعة ليس معناه أنه مخاطب بفعلها، وأيضًا ليس معناه أنه مخاطب بفروع الشريعة أنه يقضيها إذا أسلم، لأن الله قال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، إذنْ ما الفائدة؟ قال العلماء: الفائدة من قولنا: إن الكافر مخاطب بفروع الشريعة هو زيادة عقوبتهم في الآخرة، أنهم معاقبون عليها، وهذا حق، أصحاب اليمين يتساءلون عن المشركين، ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾، يعني: ما الذي أدخلكم النار؟ ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾، فذكروا الصلاة وإطعام المسكين وهما من فروع الشريعة، فعلى القول بأنهم لا يجزون بفروع الشريعة، نقول نعم يوم القيامة لا يجزون إلا على أسوأ أعمالهم وهو الكفر، لكن على القول الراجح، أنهم مخاطبون بفروع الشريعة ومعاقبون عليها، يكون هنا الأسوأ ذكر الأسوأ؛ لأنه هو الأشد، والمقصود هنا التهديد، وهل الإنسان هنا يهدد بالأخف أو بالأشد؟ بالأشد، هذا هو الظاهر والله أعلم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، أي: رفع أجزاء عملهم.

في الآية الكريمة هنا وعيد لهؤلاء الكفار بالعذاب الشديد، وهذا من أساليب القرآن، أن الله تعالى يهدد الكافر والمشرك وغيرهم ممن أساءوا، وفيه دليل على أنه ليس من القدح أن يقوم الإنسان بطاعة الله خوفًا من عذاب الله، أنه لا حرج وليس من القدح أن يتجنب الإنسان معصية الله خوفًا من عقابه، خلافًا لمن قال: اعبد الله لا طمعًا في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وهؤلاء ترد عليهم النصوص كلها، بل إن الله جعل العقوبة في الدنيا سببًا للردع عن المعاصي، قال الله تعالى في قضية السارق ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فلم يجعل الله الحدود إلا من أجل أن يخاف الناس منها ويجتنبوا المعاصي، والقرية التي دمرت، قرية بني إسرائيل حتى صار أهلها قردة خاسئين، لماذا؟ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، فالحاصل أنه لا حرج على الإنسان أن يدع المعاصي خوفًا من عقوبة الله الدنيوية أو الأخروية ولا يعد ذلك قدحًا في سلوكه ومنهجه.

الفوائد:

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات العذاب. ويكون العذاب في الدنيا وفي القبر وفي

الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ وهو عذاب الدنيا ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا يتعين بأن المقصود بالعذاب الأدنى ليس عذاب القبر كما قيل، بل هو عذاب الدنيا، لأن عذاب القبر لا يمكن فيه الرجوع، فإذنْ العذاب الأدنى هو عذاب الدنيا، والعذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «عَذَابُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»(١).

٢- **ومن فوائد الآية:** إثبات الجزاء بالأسوأ؛ لقوله: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

٣- **ومنها:** أن الجزاء من جنس العمل، فالجزاء الصالح للعمل الصالح، والجزاء السيء للعمل السيء، وهذا - سبحان الله - حتى في مجازاة الدنيا قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ فإذا أساء إليك إنسان بسيئة فلك أن تقابله بمثلها وإن عفوت وأصلحت فأجرك على الله.

مسألة: حول من يفتح الإذاعات في التلفاز أو المسجل لسماع القرآن، فأحيانا يكون في البيت، ولكن لا يكون منتبهًا له، ولا يتخذ أحاديث السباب واللعان والشتم والكذب والغش، ولكنها أحاديث جانبية، فهل هذا من اللغو؟

الجواب: هذا لا يعد لغوًا فقد يقرأ الرجل القرآن وقلبه ليس بحاضر، أما إن امرأة تطبخ وتستمع إلى القرآن، فهذه لا يوجه الإنكار عليها.

مسألة: حول الآية التي تقول: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الجواب: قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الوعيد هنا في الآخرة.

مسألة: حول أدلة عذاب القبر؟

الجواب: قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

مسألة: حول مفهوم اللغو في القرآن ومعنى الآية ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؟

الجواب: لا يجب الاستماع في غير الصلاة ولكن لا يجوز اللغو، كما قال الإمام أحمد: إن العلماء

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤/ ١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

أجمعوا على أن الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تكون في الإنصات أثناء الصلاة لأنه لو قلنا بوجوب الإستماع، لقلنا أنه لو شرع قارئ أن يقرأ وأنت بجواره فحرام عليك أن تقوم.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يقول المفسر: [﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الشديد، وأسوأ الجزاء ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، بتحقيق الهمزة الثانية]، يعني: في ذلك قراءتين، الأولى تحقيق الهمزة ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ والثانية: قلبها واوًا ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، وهذا في كل همزة بعد واو، أن تحقق أو تقلب واوًا، ولهذا قول المؤذن: الله وكبر يعني يجوز ابدال الهمزة واوًا، وتحقيقها: الله أكبر، وهذه اللغة تهون علينا ما يفعله بعض المؤذنين من قلب الهمزة واوًا. فتجدهم يقولون: الله وكبر كما تهون علينا أيضًا اللغة التي تنصب الجزأين في إن وأخواتها؛ حيث إن بعض المؤذنين يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله فإن نصب الجزأين بأن فهي لغة عربية ثابتة، ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ أعداء الله تعالى هم الذين نصبوا له العداوة، وذلك بمحاربته بالمعاصي، ومنهم الذين آذنوا بحرب من الله ورسوله (أكلة الربا)، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، المهم أن عدو الله من نصب له العداوة، وذلك بمحاربته بمعاصيه، وقوله: ﴿النَّارُ﴾ [عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك] ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾، يعني كلمة ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان للجزاء المخبر به عن ذلك، فأفادنا أن (ذا) مبتدأ ﴿جَزَاءُ﴾ خبر، و﴿النَّارُ﴾ عطف بيان له، ذلك جزاء أعداء الله، كأن الكلام على إعراب المؤلف انتهى، ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان لهذا الجزاء، ويحتمل أن تكون ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾، أن تكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ عطف بيان له، لكن ما ذهب إليه المؤلف أقرب للقوام، ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: [إقامة لا انتقال منها]، ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ أضاف الدار إلى الخلد من باب إضافة الموصوف إلى صفته، يعني دار الخلود، التي ليس فيها انتقال، ويجوز أن تكون من باب إضافة الشيء إلى نوعه، لأن الدور تنقسم إلى أقسام: دور هي دور انتقال، ودور هي دار خلد، فدور الانتقال، الأول: بطن الأم، والثاني: الحياة الدنيا، والثالث البرزخ، و﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ هي الأخيرة، ويذكر أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال والله ما الزائر بمقيم، وإن هناك دارًا أخرى، وهذا لا شك أنه من قوة الاستنباط والفهم، ﴿جَزَاءً﴾ منصوب على المصدر بفعله المقدر. منصوب على

المصدر، والمصدر لا بد له من عامل، والعامل تارة يكون من لفظ المصدر، وتارة يكون من معناه، فإذا قلت: (قمت وقوفًا)، فالعامل من معناه، وإذا قلت: (وقفت وقوفًا) فالعامل من لفظه، فالمقدر يقدر من لفظه، ولا يقدر من معناه، لأننا لا نلجأ إلى تقدير المعنى إلا إذا وجد أمامنا ما يختلف في لفظه، وأما إن لم نجد فنقدر من لفظه، وعلى هذا يكون التقدير يجزون جزاءً ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بكونهم يجحدون، وعلى هذا فـ(ما) هنا مصدرية ولا تصح أن تكون موصولة، وقوله ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ [القرآن] ﴿يَجْحَدُونَ﴾ أي يكذبون، وإنما قدرنا يكذبون من أجل تعديها بالباء؛ لأن جحد تتعدى بنفسها، فيقال: جحدت الشيء يعني: أنكرته، لكن إذا عُدي المعمول بالباء، صارت الجحود مضمنا معنى التكذيب، أي بما كانوا يكذبون بآياتنا.

الفوائد:

١- في هذه الآية الكريمة فوائد منها: أن جزاء أعداء الله النار ولابد؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ وبيّن الجزاء وهو النار.

٢- **ومنها:** بيان خلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾، والتخليد هنا المقطوع به مؤبد، لأن الله تعالى صرح به في آيات ثلاث: في النساء وفي الأحزاب وفي الجن، ففي النساء قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وفي سور الجن: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

٣- **ومنها:** إثبات عدل الله عز وجل، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بذنب؛ لقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات الأسباب ويستفاد من قوله: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ لأن الباء هنا للسببية.

٥- **ومنها** أن التكذيب بآيات الله ردة، لأن الله وصف المكذبين بأنهم أعداء، وأن جزائهم دار الخلد، وهذا أمر متفق عليه، وهو أن من كذب الله ورسوله، فإنه مرتد كافر يستتاب فإن تاب وأقر وإلا قتل، فإن قال قائل: من المعلوم أن من كذب شيئًا من القرآن فهو مرتد؛ لأن القرآن ثبت بالتواتر، فهل من كذب شيئًا من السنة يكون كذلك، نقول إذا صحت السنة وقال القائل: أنا أعلم أن هذا من كلام الرسول لكنه ليس بصحيح. فهذا مرتد، لأنه أقر بصحة نسبته إلى الرسول،

ثم كذبه، أما لو كذبه بناء على استبعاده أن يكون صدر من الرسول ﷺ فهذا لا يكفر لأنه متأول، ولكن يجب عليه أن ينظر مرة بعد أخرى حتى يتبين له الأمر، إذنْ من كذب شيئًا من القرآن فهو كافر بدون تفصيل، لثبوت القرآن ثبوت لا تواتر مثله في أي كتاب. ومن كذَّب شيئًا من سنة الرسول ﷺ فإذا قال: إن هذا كلام الرسول حق لكنه ليس بصحيح فهو كافر، لأنه كذب ما اعترف أنه قول رسول الله، وأما إذا قال: لا ـ إنه ينكره ـ لأنه لم يثبت عنده فهو لا يكفر وإن ثبت عند غيره.

٦- **ومنها:** أن آيات الله بينة ظاهرة لا يمكن أن يكذب بها أحد، لقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وتخصيص المؤلف رحمه الله ذلك بالقرآن فيه شيء من النظر، بل يقال: إنه أعم.

٧- **ومنها:** إثبات عظمة الله؛ حيث أتى بضمير الجمع، ولم يقل: (بآياتي) بل قال: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، ولا شك أن الله تعالى له العظمة المطلقة من كل وجه.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: كفروا بالله سبحانه وتعالى، بسبب إضلال الشيطان من الجن والإنس، قالوا الذين كفروا، [أي: في النار]، ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ قوله: [في النار]، هذا قيد لا يدل عليه القرآن؛ لأنه يحتمل أن يكون ذلك في النار أو في عرصات يوم القيامة ـ الله أعلم ـ ولكنهم لا بد أن يقولوا هذا القول، قال ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ﴿أَرِنَا﴾ أي: اجعلنا نرى، ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، ﴿ٱلَّذَيْنِ﴾ اسم موصول مثنى، والمراد الجنس، لا الواحد، وقوله: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيان للذي، قال المؤلف: [أي إبليس وقابيل سنَّا الكفر والقتل]. يعني معناه أن المؤلف رحمه الله حمل هذا العموم على التعيين فقال: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ مثنى إثنين، أحدهما: إبليس سن الكفر هو أول من كفر، والثاني: قابيل سن القتل، فالأول أول عدوانًا في حق الله، والثاني أول عدوانًا في عباد الله، أما إبليس فأول من سن الكفر لأن الله أمره أن يسجد لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين، وأما قابيل فأول من سن القتل بغير حق، لأنه قتل أخاه حسدًا وبغيًا، قرب قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، وقد يكون كيفية قبول القربان بنار تنزل فتأكل القربان الصالح، كما كان يفعل في الغنائم سابقًا أو بغير ذلك من العلامات، المهم أن أحدهما تقبل منه والآخر لم يتقبل، الذي تقبل منه هابيل، والثاني قابيل لم يتقبل منه، فحسده وقال لأقتلنه، فقال له أخوه هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، كأنه يقول: اتق الله فيتقبل منك،

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: إن أردت أن تقتلني فسوف أكف أنا يدي؛ لأني أخاف الله.

ولعل هذا كان في شريعة من سبق، أنه لا يجوز للإنسان أن يدافع عن نفسه، أو أنه خاف من مفسدة أكبر، ومعلوم أن دفع المفسدة الأكبر أمر واجب، ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أي سهلت له ﴿فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكان قابيل أول من سن القتل بغير حقه، وصارت كل نفس تقتل بغير حق فعلى قابيل شيء من وزرها ـ والعياذ بالله ـ؛ لأنه أول من سن القتل، «وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»(١)، لكن هل الأمر كما قال المؤلف، إنه الشيطان الذي أبى واستكبر عن السجود لآدم وقابيل، أم المراد الجنس، الصواب الثاني بلا شك، لأن كثيرًا من الكافرين، لا يخطر ببالهم أنهم كفروا تأسيًا بالشيطان الذي أبى واستكبر وكثيرًا من القتلة لا يتأتى بباله أنه فعل ذلك تأسيا بقابيل، فإذا كانت الآية تدل بلفظها على العموم والمعنى يقتضي ذلك، فإنه لا وجه لكوننا نخصها بمعين.

وهذه قاعدة يجب أن نفهمها من قواعد التفسير، أن اللفظ العام لا يجوز أن يقتصر فيه على بعض أفراده إلا بدليل. فإن لم يكن دليل فالواجب العموم.

هنا نقول الواجب العموم؛ لأن اللفظ عام، ولأن المعنى يقتضيه، بأن كل إنسان كافر قد لا يخطر بباله أنه متأسٍ بالشيطان، كل إنسان يقتل عمدًا بلا حق، لا يخطر بباله أنه قتل تأسيًا بقابيل، وحينئذ فاللفظ لا يساعد والمعنى لا يساعد، أعني لا يساعدان على التخصيص بإبليس وقابيل، وقوله ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الجن على كلام المؤلف: [هو إبليس]، والإنس: [هو قابيل]، والصواب العموم. فإن قال قائل: نحن نعلم أن الإنسان يضله البشر، يأتي إنسان سيء ويضله، لكن كيف يكون من الجن؟ نقول: لأن الجن وعلى رأسهم الشيطان يأمر الإنسان بالفحشاء، ويأمره بالمنكر، ويأمره بالكفر، فيكون بذلك مضل له، أرأيتم ما حصل من آدم وزوجه، ألم يكن الشيطان قد أضلهما؟ بلى، قد أضلهم، نهاهم الله عن الأكل من الشجرة، فجاء الشيطان ودلهما بغرور، وجاء ليقسم لهما أنه ناصح، ووسوس إليهما حتى أكلا من الشجرة.

وقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ نجعلهما بالجزم، جواب الأمر في ﴿أَرِنَا﴾، يعني: إن أريتنا إياهما نجعلهما تحت أقدامنا في النار، ولا شك أن الذي يجعله الإنسان تحت قدمه قد أذله أعظم

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٩/ ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

إزلال، ولهذا من الأمثال السائرة، أن الإنسان إذا أراد إعزاز شخص قال: أنت مني على الرأس، وإذا أراد إزلاله قال: أنت تحت قدمي فهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أي أشد عذابًا منَّا، كما كان عاليين علينا من قبل، فلنجعلهما نحن الآن تحت أقدامنا ليكون من الأسفلين.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إقرار الكفار بربوبية الله، وأنه مجيب للدعاء، لقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ وهذا من كلام الكفار.

٢- **ومن فوائد الآية:** أن الإنسان يجب عليه أن يبتعد عن قرناء السوء، لقوله: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد حذر النبي ﷺ من جليس السوء فقال: «الْمَرْءُ عَلَى دِيْنِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[1] أي: على دين صديقه ومحبه، فلينظر أحدكم من يخالل. وقال ﷺ: «مَثَلُ الجَلِيسِ السُّوْءِ كَنَافِخِ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً خَبِيثَةً»[2]، فاحذر قرين السوء، لا تجتمع به، ولا تصادقه، ولا تستأمنه على أي شيء.

٣- **ومنها:** تبرؤ التابعين من المتبوعين يوم القيامة، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ فالمتبوعين في آية البقرة يتبرأون من التابعين، كما أن التابعين أيضًا يتبرأون من المتبوعين.

٤- **ومنها:** أن الإضلال يكون من الجن والإنس؛ لقوله: ﴿أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ فمصاحبة الإنسي للإنسي واضحة، ومصاحبة الجني للإنسي أيضًا مستفادة من قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٥- **ومنها:** شدة حَنَقِ هؤلاء الضالين على المضلين؛ لقوله: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.



---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢) **صحيح:** تقدم تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[فصلت: ٣٠-٣٢]

التفسير

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ قالوا بألسنتهم وقلوبهم، ولا يكفي مجرد القول باللسان، لأن القول باللسان يقع من المنافق ومن المخلص، لكن المراد القول باللسان والقلب ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وهذا القول الذي قالوا ليس مجرد قول باللسان واعتقاد بالجنان، بل هو مستلزم لطاعة الله، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أي: استقاموا على طاعة الله، فالإيمان في القلب، والاستقامة في الجوارح.

لم يكتف الله بالثناء عليهم على الإيمان بالقلب، بل لا بد من الاستقامة ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾، وقول المؤلف: [على التوحيد وغيره مما وجب عليهم] صحيح يعني: استقاموا على التوحيد فلا إشراك، استقاموا على الاتباع فلا بدعة، استقاموا على الطاعة فلا بدعة، استقاموا على الخير فلا شر وهلم جرًّا، وتأمل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ أتى بثم الدالة على الترتيب بمهلة. يعني أن إيمانهم لم يكن إيمانًا خاطفا، آمنوا ثم زال، لا، إيمان مستقر؛ لأنهم استقاموا على دين الله عز وجل، ولقد سئل النبي ﷺ سأله رجل فقال: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسئل عنه أحد غيرك، يعني: قولًا فصلًا، فقال له: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»(١)، وهو مأخوذ من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٢/ ٣٨) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾، ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مدلولها يخالف مدلول تنزل؛ لأن ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ فيها زيادة على تنزل، والزيادة هي التاء، وهذه الزيادة تقتضي معنيين.

المعنى الأول: أن تنزلهم يكون شيئًا فشيئا. تتنزل لا تنزل دفعة واحدة.

المعنى الثاني: أن النزول متكرر، تتنزل عليهم، يعني كل ما دعت حالهم إلى تنزل الملائكة عليهم، تنزلت عليهم، فصار الفرق الآن بين تتنزل وتنزل من وجهين.

الوجه الأول: أن تنزل تعني النزول مرة واحدة دفعة واحدة. وتتنزل تقتضي تكرار النزول وأنه يكون شيئًا فشيئًا.

قوله: ﴿عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ سبق الكلام على ذكر الملائكة، وقول المؤلف: [عند الموت] فيه نظر؛ لأن الله تعالى لم يقيد ذلك، فالظاهر أن الملائكة تتنزل عليهم كلما دعت الحاجة إلى النزول، عند الموت، وعند الخوف، وعند المعارك، وفي كل حال تقتضي أن تنزل الملائكة عليهم، لأن الله أطلق ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا﴾ أي بألا تخافوا [من الموت وما بعده]، ولا تحزنوا [على ما خلفتم من أهل وولد، فنحن نخلفكم فيه]، نحن نقول: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ من مستقبلكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ماضيكم، لأن الإنسان عند الخوف، إما أن يخاف من المستقبل، أو يحزن على ما مضى، فيقول لو أني فعلت كذا لكان كذا، لم يحدث لي الخوف مثلًا، فالملائكة تتنزل عليهم، فتقول لا تخافوا من المستقبل ولا تحزنوا من الماضي، وقدم الخوف من المستقبل، لأنه أهم من الحزن على ما مضى؛ لأن مستقبل الإنسان هو الذي يجعله يسير أو يتوقف، فلهذا بدأ به قبل ذكر الحزن، وإذا جعلنا مثلًا مما يدعو إلى التنزل، حال الموت، فالإنسان عند الموت، حاله يقتضي أن يزاد قوة ونشاطًا على الإيمان والتوحيد فتتنزل عليهم الملائكة عند الموت أيضًا وتبشرهم بـ ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أبشروا هي من البشارة وهي الإخبار، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، البشارة هي الإخبار بما يسر، وسميت بشارة؛ لأنه إذا سر الإنسان ظهرت علامة السرور على وجهه، تتغير بشرة الوجه، وقد تطلق البشارة على الإخبار بما يسوء من باب التهكم. قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مع أن هذا مما يسوء، لكنه على سبيل التهكم بهم، كما تقول أنت للعاصي، أبشر بسوء العاقبة، أبشر بالنار، وما أشبه ذلك مما يكون تهكمًا به، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الجنة هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، وفيها كما في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفيها كما جاء في الحديث القدسي: «فِيهَا

مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١)، ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، من وعدهم بها؟ وعدهم الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي نحفظكم فيها] ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [أي نكون معكم فيها حتى تدخلوا الجنة] ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [تطلبون] تقول لهم الملائكة:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ يعني أن الملائكة تتولى المؤمنين تحثهم على الخير وتحذرهم من الشر، وقد أخبر النبي ﷺ أن للملك في قلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة(٢)، فلمة الملك إيعاذه بالخير وحث على الطاعة، ولمة الشيطان بالعكس، وقوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [أي نحفظكم فيها] وذلك إن الإنسان إذا كانت الملائكة معه فإنها تسدده وتدله على الخير وتحثه عليه، وفي الآخرة تتولاهم أيضًا، فإن الملائكة تتلقاهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وفي الجنة تدخل عليهم الملائكة من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ فهم أولياء المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة، جعلنا الله وإياكم منهم.

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، كل ما اشتهاه الإنسان وإن لم يطلب فإنه يحصل بين يديه، وكذلك أيضًا كل ما طلب فإنه يحصل بين يديه، في الدنيا لا يتسنى للإنسان ما يشتهي حتى لو طلب وكرر الطلب فإنه قد لا يأتيه، لكن في الآخرة مجرد ما يقع في قلب الإنسان أنه يشتهي كذا يحضر، كذلك أيضًا ما يطلبون، ما يطلبونه يحضر أيضًا، ويأتيهم أيضًا ما لا يخطر على بالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يعني يأتيك من النعيم ما لم تطلبه وما لم تشتهِ نفسك لأنه لم يخطر على بالك، ﴿نُزُلًا﴾ [رزقًا مهيئًا منصوبًا بـ(جعل) مقدرًا]، أي: جعل ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، وهو الله عز وجل، لأنهم لم يصلوا إلى الجنة إلا بمغفرته ورحمته.

مسألة: حول قول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ هل المقصود بها عذاب القبر؟

الجواب: لا، الآية عامة تشمل عذاب القبر وغيره، ويدل لعمومها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ فإن مفهومها أن من لم يتصف بذلك ليس له حياة طيبة. وقد فهم جماعة من المفسرين أن قول الله عز وجل ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ حملوها على عذاب القبر، وهذا لأنه ظاهر السياق يقتضي ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أي ما تطلبون، فكل ما تشتهيه النفس ولو بلا طلب يحصل، وكل ما يطلبون فإنه حاصل مهما كان، يقول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، قال: [﴿نُزُلًا﴾ رزقًا مهيئًا منصوبًا بـ (جعل) مقدَّرًا]. يعني على تقدير المؤلف: أن ﴿نُزُلًا﴾ مفعول ثانٍ لـ (جعل) المحذوف، جعل نزلًا، ومفعولها الأول هو نائب الفاعل، لأن نائب الفاعل ينوب عن المفعول به، ينوب المفعول به عن الفاعل.

قوله: ﴿نُزُلًا﴾ [أي: جعل نزلًا ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ وهو الله عز وجل]. وذكر المغفرة والرحمة؛ لأنه بمغفرة الله ورحمته وصلوا إلى هذا، فبمغفرة الذنوب نقُّوا منها، وبرحمة الله تعالى: صار أهلًا لدخول الجنة.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد كثيرة منها الآتي:

١- من فوائد هذه الآيات: أن مجرد العقيدة لا يغني شيئًا حتى يكون معه عمل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. وما يقوله كثير من الناس نحن على العقيدة، هذا حق ولا شك ويمدحون عليه، لكن لا بد أن يقال نحن على العقيدة والعمل الصالح، إذ لا بد من العمل.

٢- **ومن فوائدها:** الحث على الاستقامة على دين الله عز وجل أن يثبت عليه ويستقيم عليه ولا يتغير.

٣- ومن فوائدها أيضًا: إثبات الملائكة لقوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

٤- **ومنها:** أن الله تعالى سخر الملائكة لبني آدم في مواطن كثيرة كما في هذه الآية، وكما في قول الله تبارك وتعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، وكما سخرهم الله عز وجل يجلسون على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون الأول فالأول إلى غير ذلك من المواطن التي جاءت في الكتاب والسنة.

٥- **ومن فوائد الآيات:** أن الملائكة التي تتنزل على هؤلاء المسلمين المستقيمين تبشرهم بثلاثة أمور، أولًا: أنه لا خوف عليهم، والثاني: ألا يحزنوا، والثالث: أن الجنة مأواهم.

٦- **ومنها:** تحقيق البشرى بما يؤيدها، يعني لا يكفي أن تقول لفلان أبشر بالخير، حتى تبين ما

يؤيِّد هذه البشرى، يؤخذ من هذه الآية ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وذلك لعلمهم أن وعد الله لا يخلف.

٧- **ومنها:** أن الملائكة أولياء لمن آمن واستقام في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أما الحياة الدنيا حفظهم من المعاصي والزلل، وتهيأتهم للعمل الصالح ومعونتهم على ذلك وتثبيتهم عليه، وأما في الآخرة فلا تسأل فإن الملائكة تتولاهم وتتلقاهم الملائكة، وكذلك أيضًا يدخلون عليهم من كل باب في الجنة إلى غير ذلك مما ذكر الله عزَّ وجلَّ.

٨- **ومن فوائدها:** أن للذين آمنوا بالله واستقاموا في الجنة ما تشتهيه الأنفس، وفي آية أخرى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ فيكون لأهل الجنة فيها متعتان: المتعة الأولى: في الذوق والطعم، والثاني: في الرؤية والنظر.

٩- **ومن فوائدها:** أن في الجنة كل شيء يطلب، لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فكل ما يطلبون فهو موجود في الجنة ـ نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها.

١٠- **ومنها:** أن أهل الجنة يؤتوا هذا الرزق في الجنة على أنها إكرام وكرامة. لقوله: ﴿نُزُلًا﴾ وأصل النزل ما يقدم للضيف من الكرامة.

١١- **ومنها:** أنهم ما وصلوا إلى ذلك إلا بمغفرة الله ورحمته؛ لقوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾، ولولا ذلك لما وصلوا إلى ما وصل إليه؛ ولهذا أخبر النبي ﷺ أنه: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[1] فالإنسان لا يدخل الجنة بالعمل، ووجه ذلك أنه لو قوبل العمل بالنعمة التي أنعم الله بها على الإنسان لم يكن شيئًا، إذ إن نعم الله لا تحصى ولا تعد، بل قال بعض أهل العلم: إن شكر نعمة الله على النعمة نعمة يحتاج إلى شكر ثانٍ، والشكر الثاني نعمة يحتاج إلى شكر ثالث، وهلم جرًّا.

ولهذا قال الشاعر:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الأَيَّامُ وَاتَّصَلَ العُمْرُ

١٢- **ومن فوائد الآيات:** إثبات اسمين من أسماء الله، وهما الغفور والرحمة، وهنا قاعدة مفيدة على الأسماء الحسنى، الأسماء الحسنى تدل على الذات والصفة، دلالة مطابقة، وتضمن، ودلالة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٧١/ ٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

التزام؛ فغفور يدل على أن هناك غافرًا وهو الله، ويدل على صفة المغفرة له، إذ لا يمكن أن يوجد اسم مشتق لا يوجد في موصوفه أصل الاشتقاق، ولهذا لا تقل للأعمى إنه بصير، ولا للأصم إنه سميع.

فلابد إذنْ من إثبات الذات المتصفة بما دل عليه الإسم، ولا بد من إثبات الصفة التي اشتقت من الاسم. لا بد أيضًا من إثبات لازم تلك الصفة. مثال ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ فأخبر أنه خلق وبين أنه أخبرنا بذلك لنعلم أنه على كل شيء قدير وأنه أحاط بكل شيء علمًا.

فكيف دلت صفة الخلق على العلم والقدرة؟

الجواب: لأنه لا يمكن خلق إلا بعلم، يعلم كيف يخلق، ولا يمكن خلق إلا بقدرة؛ ولهذا من لا علم له لا يمكن أن يخلق، ومن عنده علم ولكنه عاجز كذلك لا يمكن أن يخلق لأنهغير قادر.

أرأيت لو أن شخصًا يستطيع أن يصلح مسجلًا، هل يمكن أن يصلحه إلا بعلمٍ كيف يصلحه؟ لا، لا يمكن، وهل يمكن أن يصلحه وهو عاجز.

إذنْ: الخالق من أسماء الله. تتضمن الدلالة على الذات وهو الله، وعلى صفة الخلق وعلى صفة العلم وعلى صفة القدرة.

تدل على صفة الخالق والذي هو ذات الله عزَّ وجل، وعلى صفة الخلق بالتضمن والمطابقة. وكيف ذلك؟

الجواب: إذا أخذ اللفظ لكامل معناه، سميت الدلالة مطابقة. وإذا أخذ بعض معناه صارت الدلالة تضمنًا، وإذا أخذ بما يلزم على ذلك صارت الدلالة التزام.

فدلالة الخالق على الذات وصفة الخلق مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها تضمن، وعلى الخلق وحده تضمنا أيضًا، وعلى العلم والقدرة التزام.

مثال: لي دار، الدار كما نعلم تتضمن حجرًا وغرفا وساحات وأبواب وشبابيك وما إلى ذلك. دلالة هذه الكلمة على كل هذا وعلى مجموع هذا، دلالة مطابقة، ودلالتها على كل حجرة وغرفة وشباك دلالة تضمن. ودلالتها على أن لهذا البيت بانيًا يعد دلالة التزام.

أسماء الله تعالى تجرى على هذا.

كذلك أيضًا نقول: إذا كان الاسم متعديًا. فلابد من الإيمان له اسمًا من أسماء الله، والإيمان بما

دلَّ عليه من صفة، والإيمان بما يترتب على تلك الصفة من أفعال، الغفور لا يتم الإيمان به حتى تؤمن بأن الله تعالى تسمى بهذا الاسم وأنه اسم من أسماء الله، لا بد أن تؤمن بما تضمنه من صفة المغفرة، لا بد أن تؤمن أن الله يغفر بمقتضى هذا الإسم، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

فلابد من الانتباه لهاتين القاعدتين

فدلالة الإسم على المعنى تتضمن ثلاث دلالات، مطابقة، تضمن، التزام.

ثم الاسم من أسماء الله إذا كان متعديًا فلا يتم الإيمان به إلا بثلاث أمور: أن تؤمن بأنه اسم من أسماء الله، أن تؤمن بما دل عليه من صفة، أن تؤمن بما يترتب عليه من أثر.

وإذا كان الإسم غير متعديًا، فلابد من الإيمان بأنه اسم من أسماء الله وبما تضمنه من صفة، وليس له أثر بأنه غير متعدي، فالحي مثلًا، الحي اسم من أسماء الله لا يتم الإيمان به حتى تؤمن بأنه اسم من أسماء الله، وبأن الله متصفٌ بما دل عليه من صفة وهي الحياء، هل له أثر؟ لا، الحياة صفة لازمة لا تتعدى، لكن السميع متعدٍ، فالسميع ذو سمع يسمع به، البصير ذو بصر يبصر به.



قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٣-٣٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذه ثلاثة أوصاف، إذا اتصف بها الإنسان فلا أحد أحسن منه قولًا. يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ أي [لا أحد أحسن قولًا]، تفسير المؤلف لهذه الجملة، تفيد بأن [من] اسم استفهام ولكنها بمعنى النفي، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾ يعني لا أحد أحسن، فإذا جاء الاستفهام بمعنى النفي فإنه مشرب

معنى التحدي،

أيهما أبلغ أن تقول لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى الله، أو أن تقول من أحسن؟

الثاني: أبلغ، لأن الثاني يتضمن النفي ويتضمن التحدي، كأنه يقول ائتني ببينة على أنه هناك أحد أحسن ممن دعا إلى الله.

فكل استفهام جاء بمعنى النفي فإنه مشرب معنى التحدي. من كذا؟ يعني أتحداك أن تأتي لي بشيء سوى ذلك.

فمن أحسن؟ أشد نفيًا من قول: (لا أحد أحسن). وذلك لأنها جملة استفهامية مشربة معنى التحدي.

﴿أَحْسَنُ﴾ هذه خبر مبتدأ ﴿وَمَنْ﴾ هو المبتدأ ﴿قَوْلًا﴾ تمييز؛ لأنه جاء اسم منصوب بعد اسم التفضيل فهو تمييز له، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال المؤلف: [بالتوحيد]، وهذا لا شك حسن ولكن الآية أشمل من التوحيد، ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للتوحيد والعمل الصالح.

وقوله: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: إلى دين الله، ودين الله يتضمن التوحيد والأعمال الصالحة. وهنا قال: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فبدأ بإصلاح الغير ثم ثنى بإصلاح النفس، مع أن من دعا إلى الله فهو مصلح لنفسه أيضًا، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف، التقدير: وعمل عملًا صالحًا، ولا يكون العمل صالحًا إلا بشرطين هما: الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ.

فعمل المرائي باطل؛ لأنه فقد الإخلاص فهو لذلك ليس بعمل صالح، وعمل المبتدع فقدَ المتابعة؛ لذلك نقول لهؤلاء المبتدعين المخلصين لله أشد الإخلاص عملكم غير صالح؛ لأنه فقد الاتباع؛ لهذا هو ليس بعمل صالح، قال النبي ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُو رَدٌّ»(١).

ثم نقول: حقيقة الإخلاص تستلزم أن لا تعبد الله إلا بما شرعه، لا تعبده بهواك، لأنك إذا عبدت الله بهواك وببدعة فأنت غير مخلص، فالمخلص يتعبد لله عز وجل بما شرع، فالعمل الصالح ما تركب من شيئين: الأول: الإخلاص، والثاني: المتابعة.

وقوله: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال باللسان وبالقلب. فإن قال قائل قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو من العمل الصالح ولا شك فما الفائدة من ذلك؟ قلنا: إنه يعلن هذا القول ولا يبالي بالمخالفة؛ لأن من الناس من يعمل صالحا، لكنه تجده متسترًا، ليس عنده الشجاعة التي تجعله يعلن ذلك، أما هذا فهو يعلن ويقول بلسان المقال

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

فأنت غير مخلص، فالمخلص هو من يعبد لله عزَّ وجل بما شرع، فالعمل الصالح ما تركَّب من شيئين، الأول: الإخلاص، والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

غير مبال إنني من المسلمين والجملة كما تعلمون (إنني) مؤكدة بإن.

ذكر بعض أهل العلم أن المراد بذلك المؤذِّن، لأن المؤذن يدعو الى الله يقول للناس حي على الصلاة حي على الفلاح، ولأنه مؤمن عامل صالح. ولأنه يقول أشهد أن لا إله إلا الله يعلنها، وأشهد أن محمدًا رسول الله وهذا معنى قوله ﴿إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، لكن الصحيح أن الآية عامة، تشمل المؤذن وغير المؤذن، فالخطيب على المنبر يدخل في الآية، والمعلم في حلقة تعليمه يدخل في الآية فالآية أعم مما ذكر. ولكن اعلم أن بعض السلف يذكر للآية معنىً خاصًا لا يريد حصرها في هذا المعنى ولكن يريد التمثيل، وهذه مسألة قد تفوت على بعض الناس، دائما ننظر في (ابن كثير) أو (ابن جرير) أن قال فلان كذا لجزء المعنى فهم لا يريدون أن يقصروا العام على الخاص، لأنهم أعلم من أن يقتصروا على بعض أفراد العام مثلًا، لكنهم يريدون التمثيل.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾. قال بعض العلماء: الظالم لنفسه الذي يؤخر الصلاة عن وقتها، والمقتصد الذي يصليها في آخر الوقت، والسابق في الخيرات الذي يصليها في أول الوقت، فهذا لا شك أنه حاصل، بل لا شك أنه تخصيص للعام.

فنقول: أرادوا بذلك التمثيل.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تفاضل الأعمال، لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ وأحسن اسم تفضيل، ولا شك أن الأعمال تتفاضل، فتتفاضل باعتبار الجنس وباعتبار النوع، وباعتبار الهيئة والكيفية، وهذه ثلاث اعتبارات.

أولًا: التفاضل باعتبار الجنس.

فمثلًا الصلاة أفضل من الزكاة، الزكاة أفضل من الصوم، الصوم أفضل من الحج. هذا باعتبار الجنس. ثم هذا الجنس تتفاضل من جانب آخر، واجب العبادة أفضل من نفلها.

فصلاة الظهر أفضل من قيام الليل، هذا تفاضل باعتبار الجنس دليل ذلك أن النبي ﷺ قال عن الله: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثانيًا: تتفاضل باعتبار النوع، مثل الوتر أفضل من مطلق التهجد، الرواتب أفضل من النافلة المطلقة، هذا باعتبار النوع، وإن شئت فاجعل تفاضلها باعتبار الوجوب والندب من هذا النوع.

ثالثا: باعتبار الهيئة، فصلاة يخشع فيها الإنسان ويتدبر ما يقول وما يفعل ويطمئن، وصلاة أخرى يختصر على الواجب وبدون خشوع قلب، فلا شك أن الأولى أفضل، والمهم، أننا نؤمن بأن الأعمال تتفاضل وأنها أحب إلى الله من بعض.

يبقى النظر هل يلزم من تفاضل العمل تفاضل العامل؟

الجواب: نعم، فالعامل أيضًا يختلف ويتفاضل.

قال النبي ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ»[1].

العمل واحد ولكن العامل مختلف.

٢- **ومنها**: فضيلة الدعوة إلى الله عزَّ وجل؛ لقوله: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية**: الإشارة إلى الإخلاص في الدعوة، مأخوذة من قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، لأن الداعي ربما يدعو ويقوم للناس ويذكرهم ويعظهم ويحثهم على الخير ويحذرهم من الشر، لكن أراد أن يكون مرموقًا بينهم، فهذا داعي إلى نفسه، فلابد إذن من الإخلاص.

لو قال قائل: هل يسلم الإخلاص إذا أراد بالدعوة إصلاح الناس؟

الجواب: لا، الأصل دعوته لإصلاح الناس.

٤- **ومنها**: فضيلة العمل الصالح الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، لقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

٥- **ومنها**: وجوب العلم؛ لقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنك لا يمكن أن تعرف أن العمل موافق للشرع أو غير موافق إلا بالعلم، وهذا واضح، فيكون في الآية دليل على وجوب العلم لأنه إذا كان العمل الصالح من الواجبات فلا بد أن تعلمه بالشرع، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٦- **ومنها**: أنه ينبغي للمسلم أن يكون عزيزًا بدينه، وأن يعلن به وأن يقول: إنني من المسلمين، وأن لا يستحي إذا قيل له: إنه مسلم، لقوله: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٢١/ ٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

٧- **ومنها:** الإشارة إلى تجنب التزكية الذاتية لأنه قال: ﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ ولم يقل: (وقال إنني مسلم)؛ لأن الإنسان قد يعتز بقوله مسلم ويفخر، أكثر مما يكون ذلك فيما لو قال: إنني من المسلمين.

٨- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى المؤاخاة بين المسلمين، لقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إشارة إلى أنني واحد من هؤلاء لا أفترق عنهم.

مسألة: هل الأفضل الاشتغال بالعلم أو طلب الدعوة؟

الجواب: أولًا: يمكن الجمع بين هذا وهذا، ونحن نعلم أن الداعية ليس يشغل وقته من صلاة الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء وهو يدعو، لا، أبدًا، هل أحد من الدعاة يفعل هذا؟ لا، يدعو نصف ساعة هنا، ونصف ساعة هنا، وأما يبقى لا يسكت من صلاة الفجر إلى أن يصلي العشاء. لا، لا يمكن ولكن لا بد من فترات.

فلا يتعذر الجمع بين الدعوة إلى الله وطلب العلم، يطلب العلم ساعة أو ساعتين، ثم يدعو نصف ساعة مثلًا. فلا منافاة، هذه أولًا.

ثانيًا: أنه لا يمكن الدعوة إلى الله بلا علم، والدعوة إلى الله عن جهل قد يكون فيها من الضرر أكثر من عدم الدعوة، كثير من الدعاة يكون عنده غيرة ومحبة إلى الخير، فتجده يحرم الحلال، أو يوجب ما ليس بواجب بناء على ما عنده من الغيرة، ولو كان ذا علم لحصل له الثبات.

ولا يخفى عليكم ما صنعه عمر بن الخطاب يوم الحديبية [(١)].

صار يعارض الصلح، ويأتي إلى الرسول ﷺ يريد أن يحل عقدة الصلح، لكن الثبات كثبات أبي بكر، تبين الحق، فلا يمكن أن يكون داعية يدعو إلى الله بغير علم، هذا إذا أردنا أن ندعو إلى العلم بما يدعو إليه، ولسنا نريد أنه لا يمكن أن يدعو إلى الله إلا إذا كان متبحرًا في العلوم، لا، لو قلنا هذا ما صح قول الرسول ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[(٢)].

إذنْ الجواب من وجهين.

الوجه الأول: أنه لا منافاة بين العلم والدعوة.

الوجه الثاني: أنه لا تمكن الدعوة إلا بعلم إلى ما يدعو إليه.

بقي علينا وسائل الدعوة.

---

(١) **صحيح:** أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح:** أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ووسائل الدعوة كثيرة، فليست مختصة بأن يقوم الإنسان يتكلم. فالدعوة تكون بالقول وتكون بالكتابة، وتكون بنفس الفعل، الإنسان الذي تثق به، تجد أنك تنظر ماذا يصنع وتفعل مثله هذا دعوة هذا نوع من الدعوة، بل قد تكون الدعوة بالفعل والعمل أقوى تأثيرًا من الدعوة باللسان.

مسألة: حول الفرق بين الدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والموعظة والنصيحة؟

الجواب: هذه في الحقيقة موعظة أو أمر، أما الدعوة فتكون بصفة عامة، أما أن تذهب إلى فلان وتنصحه، فهذا في الحقيقة موعظة، وأما إذا كان لديك سلطة فهو أمر بمعروف، وهذا كما نعرف له أحوال، لا يجب على الإنسان أن يترك ما يهمه في دينه ودنياه، من أجل أن يذهب إلى الناس يقرع أبوابهم يأمرهم أو يعظهم هذا ليس بواجب، فالحديث يقول: «مَنْ رَأَى...» (١) ولم يقل تطلبوا رؤية المنكر، وهذا الذي لا يصلي يمكن أن أعظه في السوق وفي المسجد ولهذا الناس تجدهم يستثقلون أن يقرع أحد عليهم الباب أحد يعظهم أو يأمرهم، وربما حصل من ذلك ما يسمى بردِّ الفعل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ [أي: لا تستوي في جزئياتها لأن بعضها فوق بعض] ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ﴾ فسرها المؤلف، أنه لا تستوي الحسنات بعضها مع بعض، ولا السيئات بعضها مع بعض، وعلى هذا التفسير تكون (لا) غير زائدة، تكون أصلية، ويكون المراد بالآية انتفاء تساوي الحسنات وانتفاء تساوي السيئات، وهذا أمر لا إشكال فيه، أن الحسنات بعضها أحسن من بعض وأوكد من بعض. وكذلك السيئات بعضها أسوأ من بعض وأشد، لكن هناك تفسير آخر، وهو أن المعنى أن الحسنات والسيئات لا تتساوى. بدليل قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وبناء على ذلك تكون لا زائدة للتوكيد، كما هي في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فإن ﴿وَلَا﴾ هنا زائدة للتوكيد، ولذلك لو قلت في غير القرآن العزيز: (غير المغضوب عليهم الضالين)، لاستقام الكلام. فإذا قال قائل: هل هناك ترجيح، قلنا: إن المؤلف رجح المعنى الأول، وهو أن الحسنات لا تتساوى والسيئات لا تتساوى، وبعضهم رجح الثاني لأنه قال: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ولو قيل

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٨/ ٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

بالمعنيين جميعًا، لم يكن هناك بأس، وذلك لو أن الآية لو كانت تحتمل معنيين على السواء وهما لا يتنافيان، فإنها تحمل عليهما جميعًا، هذه قاعدة في أصول التفسير، ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ ما يحسن ذكره. و﴿ٱلسَّيِّئَةُ﴾ ما يسوء ذكره، هذا التفسير العام للحسنة والسيئة، قال: ﴿ٱدْفَعْ﴾ [السيئة] ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالخصلة التي هي أحسن.

الغريب أن كلام المؤلف في ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقتضي أن معنى الجملة قبلها لا تستوي الحسنة مع السيئة. ﴿ٱدْفَعْ﴾ السيئة ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، أفادنا رحمه الله أن التي هي صفة لموصوف محذوف، أي بالخصلة التي هي أحسن من السيئة، فإذا قال قائل: السيئة ليس فيها حسن فليس يكون أحسن من السيئة؟ قلنا: إن اسم التفضيل قد يأتي وليس في الطرف الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، مع أن أصحاب النار ليس في مستقرهم خير ولا في مقيلهم خير، ويقوم عن الآية أنه لما كان من المعتاد، أن الإنسان لا يدفع السيئة إلا بالتي هي أحسن، أمره الله أن يدفع بالتي هي أحسن، وذلك لأن مدافعة السيئة تكون على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن يدفع السيئة بمثلها، هذا جائز.

الوجه الثاني: أن يدفع السيئة بحسنة، ولكن هناك شيء أحسن منها، هذا أيضًا جائز وهو أعلى من الأول.

الوجه الثالث: أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن، يعني بأحسن ما يدفعها به، وهذا أفضل وأطيب، وهو الذي أمر الله به.

يعني إذا أساء إليك إنسان، فلا تقابله بإساءة ولا تقابله بحسنة أيضًا، قابله بما هو أحسن، يقول المؤلف ممثلًا، [كالغضب بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو].

فالغضب بالصبر يعني إذا غضب عليك إنسان، فاصبر وتحمل، والجهل بالحلم، فإذا جهل عليك إنسان بالإساءة. فقابله بالحلم.

فإذا قال إنسان الجهل هل هو يقابل الحلم أو يقابل العلم؟ قلنا أما الجهل الذي هو عدم العلم فيقابل بالعلم، وأما الجهل الذي ضد الحلم، بمعنى أن يكون الإنسان ذا عدوان على الغير فهذا يقابل بالحلم.

قال الشاعر العربي.

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا ... فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا

وكذلك الإساءة بالعفو.

وقد سبق مرارًا ونكرره تكرارًا.

أن العفو إنما يندب إليه إذا كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (إذا) هنا فجائية، و(الفاء) عاطفة، أي فإذا دفعت بالتي هي أحسن فاجئتك هذه الحال. وهي أن تنقلب عداوة الشخص الذي أساء إليك فيصير كأنه ولي حميم، يعني صديقًا قريبًا، وتأمل كون الجواب بإذا الفجائية، ليتبين لك أن انقلاب عداوته إلى ولاية حميمة لا يتأخر كثيرًا؛ لأن إذا الفجائية تدل على الفورية، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، لو كان المخبر بذلك غير الله عز وجل، لكان الإنسان يتردد. كيف ينقلب العدو صديقًا حميمًا بهذه السرعة؟ نقول: إن الذي أخبر بذلك هو الله عز وجل. ومن أصدق من الله قيلًا؟ ثم إن الذي أخبر بذلك هو الذي قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء. فلا تستبعد هذا فالأمور بيد الله، وكم من عدو انقلب صديقًا وصديقًا انقلب عدوًا، ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: [فيصير عدوك كالصديق القريب بمحبته إذا فعلت ذلك].

[فـ﴿ٱلَّذِى﴾ مبتدأ، و﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخبر، و(إذا) ظرف لمعنى التشبيه، و﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ هذا صلة وموصول، و﴿كَأَنَّهُۥ﴾ الخبر خبر المبتدأ الذي، و(إذا) ظرف لمعنى التشبيه، الذي هو كأنه، لأن التشبيه مضمن معنى الفعل، لذلك صح أن يتعلق به الظرف، وهذا ما ذهب به المؤلف بالنسبة لإذا، والصحيح أن إذا فجائية لا تحتاج إلى متعلق.

يقول رحمه الله: [﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: [يؤتى الخصلة التي هي أحسن] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقوله: [﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: يؤتى الخصلة]. وقيل معناها لا يوفق لها، والمعنى متقارب. يعني لا ينال أحد هذه الخصلة وهي الدفاع بالتي هي أحسن إلا الذين صبروا، هذه جملة فيها حصر، طريقه النفي والإثبات.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي: حبسوا أنفسهم، أجبروها على تحمل هذا الأمر، وذلك لأن هذا الأمر شديد، إذ أن النفوس تحب الإنتقام ممن أساء إليها، ولكن قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ كل إنسان سوف يعاني معاناة شديدة إذا سلك هذا الطريق، وهي الدفاع بالتي هي أحسن، لا يد أن يجد عناء ومشقة فأثنى الله تعالى على الصابرين

على ذلك.

الصبر لا يحتاج أن نطيل الشرح فيه؛ لأنهم قالوا: إنه ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله.

والثاني: صبر عن معصية الله.

والثالث: صبر على أقداره.

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قال: الحظ هو [الثواب]. والصواب أن يقال الحظ هو النصيب، أي لا يلقاها إلا ذو نصيب عظيم، ليس من الثواب فحسب، بل من الثواب والأخلاق والرزانة، وغير ذلك.

يعني: من له نصيب عظيم من الثواب والأخلاق والتأني والرزانة وغير ذلك فلا ينبغي أن يقتصر ذلك على الثواب.

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ولما ذكر الله تعالى دفع العدو من بني آدم ذكر دفع العدو من غير بني آدم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ انظر مدافعة العدو من غير بني آدم لم يقل ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، قال: الجأ إلى الله؛ لأنك لا تستطيع أن تدفع الشيطان إلا باللجوء إلى الله عز وجل، إذ إن الشيطان ليس أمامك حتى تلوي عنقه وتقتله، لا يدفعه إلا الله؛ ولهذا قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. فالمناسبة بين هذه الآية والتي قبلها أنه لما ذكر مدافعة العدو من بني آدم ذكر مدافعة العدو من غير بني آدم.

[فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾، قال إما فيه إدغام نون (إن) الشرطية في (ما) الزائدة]، إما أصلها، وإن ما ينزغنك، لكن (ما) الزائدة تزاد كثيرًا في أدوات الشرط، كقوله هنا ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ وكقوله: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يعني إن ينزغك الشيطان نزغ فاستعذ بالله [أي: يصرفك عن الخصلة وغيرها من الخير صارف] ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾. المؤلف رحمه الله إذا نظرنا إلى تفسيره وجدناه يقصر هذه الآية على شيء معين، وهي إن صرفك الشيطان عن المدافعة بالتي هي أحسن فاستعذ بالله، والصواب أن الآية خلاف ذلك، والصواب أن الآية عامة، ولهذا قال ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ أي يصيبنك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ ، ﴿نَزْغٌ﴾ نكرة في سياق الشرط، فتكون عامة، سواء كان فيه مدافعة بالتي هي أحسن، أو غير ذلك، كلما أصابك

نزغ من الشيطان فاستعذ بالله، ولهذا أمر النبي ﷺ الذي شكا إليه الوسوسة في الصلاة. أمره أن يستعين بالله، قال: «اتفلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلَاثَةً وَاسْتَعِذ بِالله»[1]. المهم: أنه متى نزغك من الشيطان نزغ فالجأ إلى من يستطيع دفعه، وهو الله عز وجل.

ولكن كيف أعرف أن الشيطان نزغ أحدًا؟ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾. كلما رأيت أنه ألقي في روعك أن تفعل معصية، فاعلم أنه نزغ من الشيطان، كلما ألقي في روعك أن تترك طاعة فهو نزغ من الشيطان، فاستعن بالله؛ لأن الشيطان ليس شيئًا محسوسًا يحسه الإنسان فيراه أو يسمعه، لكن يعرف بما يلقي في القلب، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اعتصم به، قال المؤلف: [جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفعه عنك]. أين الأمر؟ استعذ، يعني كأن يقول: وإذ استعذت، فما النتيجة؟ النتيجة أن يدفعه الله عنك، لأن الله تعالى لم يأمرك بالاستعاذة به، والاستعاذة كما تعرفون هي الاستجارة مما يسوء، استعذ بالله يدفعه عنك، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ [بالقول] ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [بالفعل]، هذه الجملة تعليلية لقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، يعني: فإنك إذ استعذت منه بالله، سمع وإنه عليم بكيفية دفع هذا الشيطان الذي نزغك منه نزغ، فهو سميع لقولك إذا استعذت به، عليم بما يدفع به عنك هذا الشيطان.

الفوائد:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** انتفاء تساوى الحسنات بعضها ببعض، وانتفاء تساوي السيئات بعضها ببعض، فيترتب على ذلك: أن الحسنات تتفاوت وأن السيئات تتفاوت، فمن الحسنات ما هو أصول في الإسلام، كالأصول الخمسة، ومنها ما هو دون ذلك، ومنها ما هو فرائض ومنها ما هو نوافل.

وفي المحرمات ما هو شرك مخرج عن الملة، وما هو شرك دون ذلك، وكذلك يقال في الكفر منه ما هو فسوق ومنه ما هو دون ذلك. هذا إذا قلنا إن المراد أن الحسنات لا تتساوى وأن السيئات لا تتساوى، أما إذا قلنا لا تستوي الحسنة ولا السيئة، أي أن السيئة والحسنة لا تتساويان، فيفيد الحث على فعل الحسنات في مقابل السيئات، وليس الفائدة أن يعلم أن الحسنة لا تساوي السيئة؛ لأن هذا أمر معلوم، ولا يمكن في القرآن ببلاغته أن يأتي بمثل ذلك؛ لأن هذا كقولك السماء فوقنا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٨/ ٢٢٠٣) من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

والأرض تحتنا، لكن المراد الحث على أن تقابل السيئة بحسنة.

٢- **ومنها:** الإرشاد إلى مدافعة السيئات، من قوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

٣- **ومنها:** الحث على المقامات في مدافعة السيئات، تؤخذ من قوله: ﴿أَحۡسَنُ﴾.

٤- ومنها أن الله تعالى مقلب القلوب. فقد يكون العدو صديقًا والصديق عدوًّا؛ لقوله: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ﴾.

٥- **ومن فوائد الآية:** أنك لا تأخذك العزة بالإثم، فتقول لا يمكن أن أسكت أمام هذا الذي أساء إلي، ولا بد أن آخذ بحقي، فنقول: إنك إن أخذت بحقك فإن ذلك لك، لكن هناك خلق أفضل وأكمل وهو المدافعة بالتي هي أحسن.

فوائد قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾

١- **يستفاد منها**: أن المدافعة بالتي هي أحسن شاقة على النفس؛ لقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾، ولكن اصبر.

٢- **ومنها:** أن من سلك هذا الطريق وهو مدافعة السيئة بما هو أحسن، فإنه ذو نصيب عظيم من الأخلاق والثواب والرزانة والرجولة والشهامة وغير ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

١- **من فوائد هذه الآية:** أن ملجأ الإنسان عند الخوف مما لا يمكنه دفعه، هو الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أنك كلما احسست بشيء من نزغات الشيطان، من تهاون بأمور، أو ارتكاب لمحذور، فعليك أن تلجأ إلى الله عز وجل. فإن قال قائل: نجد الاستعاذة مشروعة في غير هذا الحال. مشروعة عند قراءة القرآن مثلا، مشروعة عند دخول الخلاء، فما الجواب؟ الجواب: مشروعيتها عند تلاوة القرآن لأن الشيطان يتسلط على الإنسان حين قراءة القرآن أن يصده عما فيه من الذكر الحكيم، يصده عن تدبره، وعن الخشوع فيه. وعن كون الإنسان يلتزم بأوامره ونواهيه ويصدق بأخباره. المهم: أن الشيطان يحرص على الإنسان إذا أراد قراءة القرآن، فناسب أن يؤمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، وكذلك إذا دخل الخلاء، وذلك لأن الخلاء موطن الشياطين.

والشياطين تكون في أخبث الأماكن، والملائكة تكون في أطيب الأماكن؛ ولهذا كانت المساجد بيوت الملائكة، وكانت المراحيض بيوت الشياطين.

٣- **ومن فوائدها:** إثبات الشيطان، وأن له سلطة على بني آدم؛ لقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

والله سبحانه وتعالى سلط الشيطان على بني آدم، وأيد المؤمنين بالملائكة، فإن الشيطان إذا أمر بالفحشاء فإن هناك أمر آخر يضاده وهو أمر الملك.

٤- **ومنها:** أنه لا يستعاذ إلا بالله، لقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾، لكن هذا مقيَّد بما لا يقدر عليه إلا الله، فإنه لا استعاذة منه إلا بالله. وكذلك أيضًا لا استعاذة بمخلوق غير قادر.

مثال: لو أن إنسانًا استعاذ بميت لكان هذا شرك، لأن الميت لا يمكن أن يفيدك، لكن إذا استعاذ بحي فيما يقدر عليه فلا بأس بذلك، لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ وَجَدَ مَلَاذًا أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ». فالاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة به فيما يقدر عليه، وكذا الاستغاثة به فيما يقدر عليه.

٥- **ومن فوائد الآية:** إثبات أن السميع والعليم من أسماء الله عز وجل، وسبق أنه لا يتم الإيمان بالاسم إلا بثلاثة أمور إذا كان متعديًا، وبأمرين إن كان غير متعد، السميع متعدي، فتثبت السميع اسمًا، والسمع صفة، وكونه يسمع أثرًا، وكذلك يقال في العليم، وقول المؤلف رحمه الله: [السميع بالقول] هذا صحيح، لأن متعلق السمع هي الأقوال، العليم بالفعل فيه نظر؛ لأن الله عليم بالقول عليم بالفعل، عليم ما ليس بفعل ولا بقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. فقصره على العلم بالفعل لا شك أنه قاصر، فيقال الصواب العليم بكل شيء من الأقوال والإرادات والأفعال والحاضر والمستقبل والماضي.

٦- **ومن فوائد الآيتين:** بلاغة القرآن بذكر المتقاربين في المعنى، وإن كان بينهما فرق من حيث الحقيقة، وجه ذلك: أنه ذكر في الآية الأولى: معاملة المسيء من الإنس بأن تدفعه بالتي هي أحسن، وذكر في الثاني معاملة المسيء من غير الإنس وهو الشيطان.



قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٧، ٣٨]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾، أي آيات الله عز وجل، والآية في اللغة أي العلامة، وهي بالنسبة للآية ما كان علامة على قدرة الله عز وجل وقوّته وحكمته وعلمه ورحمته وغير ذلك.

فقال ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ الدالة على قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وغير ذلك مما يدل عليه الليل والنهار.

الليل بظلامه، والنهار بضيائه، لا أحد يستطيع أن يفعل ذلك إطلاقًا، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لا، لا أحد يأتي بذلك.

قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لا أحد فهذه من آيات الله العظيمة الدالة على قدرته وعلى رحمته وعلى قوته.

بينما الليل إذا غشي الأرض بظلامه، وإذا بالصبح قد كشف هذا الغطاء فأصبحت الدنيا ضياء. كذلك من آياته الشمس والقمر، وما أعظمها من آية، هذان كوكبان يسيران منذ خلق الله عز وجل إلى أن يأذن الله بخرابهما، يسيران على نمط واحد لا يتعديانه ولا يتجاوزنه.

قال بعض العلماء: لو أن الشمس بعدت عن مقرِّها شعرة واحدة، لهلك الناس من البرد

وجمدت المائعات، ولو أنها نزلت شعرة واحدة لذابت الأرض من الحر وهذا من قدرة الله عز وجل.

ثم هذا الجرم العظيم له هذه الإضاءة العظيمة مع البعد التام، وهذه الحرارة العظيمة مع البعد التام، لو أنك سعرت أقوى نار في الدنيا ما بلغت مسافة حرها إلى مائة متر، ومع ذلك تجد مس الحرارة فقط، لا أن يصل إلى هذه الدرجة، وهذه بينك وبينها ما لا يعلمه إلا الله عز وجل. وتجد هذا الحر.

في أيام الصيف، قال لي بعضهم، ربما بدأ الماء يغلي من شدة الحرارة في بعض المناطق، مما يدل على عظمة هذه الشمس، والقمر أيضًا عظيم، هذا القمر الكوكب الكتلة يضيء هذه الإضاءة العظيمة من بعد، ومع ذلك هو بارد لا يسخن الجو ولا يسخن الأرض؛ لأنه آية الليل، أرأيتم لو كان حرًّا أيتمتع الناس بالليل كما يتمتعون به اليوم، لا يمكن أبدًا، لكن من رحمة الله عز وجل أن جعله نورًا باردًا حتى لا تبقى حرارة الأرض، طوال أربع وعشرين ساعة وحتى يستقر الناس في منامهم وذهابهم ومجيئهم.

ثم قال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ نهي عن السجود للشمس والقمر، لأن من بني آدم من يسجد للشمس ويسجد للقمر. ولذلك نهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وقال بعض العلماء إن المراد: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ عند تغيرهما بكسوف ولكن ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي الآيات الأربع، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يعني: إن كنتم صادقين بعبادته فلا تسجدوا لغيره، لأن من يعبد الله ويعبد غيره ليس صادقا في عبادته، الصادق في عبادته هو الذي يخلص العبادة لله عز وجل.

مسألة: ما الفرق بين الشيطان وإبليس؟

الجواب: الشيطان هو إبليس.

مسألة: حول آية ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؟

الجواب: هذا هو الحكمة في أن الله قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ لأن الإنسان ينال درجة عظيمة عالية من الأخلاق والرزانة والرجولة والثواب. وليس الحظ العظيم هو أن الإنسان يزداد درهمًا أو دينارًا، الأخلاق هي كل شيء، سواء مع الله أو مع العباد.

وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ... فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

مسألة: حول كيفية أن يكون الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا؟

الجواب: السلطان كما تعرف هو الذي يتولى الأمر بسلطته ويغلب، فالشيطان ينزغ حتى عباد الله الصالحين ولكن ليس له عليهم سلطان، أليس قد تفلت على الرسول ﷺ شيطان يريد أن يفسد عليه صلاته[1]، لكن ليس له سلطان، فالشيطان يقول ويفعل، كما قال ابن ورد في المنظومة.

جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ لَا تُخَاصِمْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

فالمراد بأنه ليس له عليهم سلطان، أي أنه لا يمكن أن تتسلط عليهم فتغويهم.

الجواب: هذا ضعف وجوبًا، هذا الذي لا يقدر على الانتصار لنفسه هذا لا يحمد، بل يقال هذا ضعيف، فإنه لا يحمد إلا العفو والصفح عند المقدرة. أما إنسان عاجز فيأتي إنسان قوي ينهال عليه ضربًا فيقول الضعيف جزاك الله خيرًا، أحسن الله إليك. فهل هذا يحمد؟ لا؛ لأنه عاجز.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾، (مِنْ) هنا للتبعيض، وعلامة من التبعيضية، أن يحل محلها بعض، يعني بعض آياته الليل والنهار والشمس والقمر، وذكرنا وجه هذا الأرض من آياته فيما سبق، ولا حاجة للإعادة.

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ الخطاب لجميع العباد، نهاهم أن يسجدوا للشمس ولا القمر، لأن من الناس من يعبد الشمس والقمر ويسجد لله، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشمس تطلع بين قرني الشيطان[2]، فإذا طلعت سجد لها الكفَّار، ومن ثم نهى عن الصلاة في أوقات النهي التي هي قريبة من طلوع الشمس وغروبها.

قوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ المراد بالسجود هنا ـ والله أعلم ـ ما هو أعم من السجود الخاص،الذي هو وضع الأعضاء السبعة على الأرض، أي أن المراد بالسجود هنا الذل كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، ويحتمل أن يكون المراد بالسجود هنا السجود الخاص، لقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، والقاعدة في علم التفسير، أن اللفظ إذا كان يحمل معنيين أحدهما أعم وأشمل وأوسع، فإنه يحمل على

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٦١) ومسلم (٣٩/ ٥٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٥٧٢) من حديث عمرو بن عنبسة رضي الله عنه وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي.

الأعم الأوسع.

قوله: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الذي خلق هذه الأشياء، وفي هذه إشارة إلى أن الله هو المستحق أن يسجد له لأنه هو الخالق، وأما هذه فهي مخلوقة، لا تستحق أن يسجد لها ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ أي إن كنتم ذوي عبادة حقة، فاسجدوا لله ولا تسجدوا للشمس ولا للقمر، وقوله: ﴿إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ العبادة بمعنى الذل ومنه قولهم طرق معبد أي مذلل لمن سلكه ليس فيه وعورة لا طلوع ولا نزول، ولا التفاف يمين ولا شمال، فالطريق المعبد أي هو المذلل، إذنْ فالتعبد لله هو التذلل له محبة وتعظيمًا.

واعلم أن العبادة تطلق على معنيين: المعنى الأول: التعبد لله الذي هو فعل العابد، والمعنى الثاني: المتعبد به والذي هي العبادات، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (إن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه) بناء على أن المراد بها المتعبد به، لكن كما قلت لكم هي تطلق على معنيين، على التعبد الذي هو فعل العابد، وعلى المتعبد به الذي هو العبادات.

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ قدَّم المفعول به لإفادة الحصر؛ لأن من القواعد المقررة في علم البلاغة وغيرها أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، وهذه قاعدة هامة.

إذا قدِّم ما حقه التأخير كان ذلك دالا على الحصر.

فإذا قلت مثلًا: (إياك أكرمتك)، المعنى أني لم أكرم غيرك.

وقول القائل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ يعني: لا نعبد غيرك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ يعني: لا نستعين بـ(غيرك).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ يعني عن عبادة الله والسجود له فإن الله تعالى غني عنهم، ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ [عن السجود لله وحده]، ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ﴾ [يصلون] ﴿لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [أي لا يملون]، يعني فإن استكبر هؤلاء عن عبادة الله، فلله عبادٌ آخرون كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، ثم على فرض أنه لا يوجد عابد لله، فإن الله يقول: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾، وأيضًا: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فهنا شيئان، الشيء الأول: أن يستكبر طائفة من المخلوقين عن عبادة الله، فإن استكبروا فهناك طائفة أخرى تعبد الله، الثانية: أن يستكبر الكل وهذا محال على حسب ما نعلم. لكن على فرض أن جميع المخلوقات استكبرت عن عبادة الله فالله غني عنهم. كل هذا أفصح به القرآن قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾،

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ هذا إذا كفر بعض وآمن بعض، ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ هذا إن استغفر بعض وزل بعض ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ جملة ﴿فَالَّذِينَ﴾ هي جواب الشرط، وقرنت بالفاء لأن ما بعدها لا يصح أن يكون فعلًا للشرط، وهذه قاعدة: إذا كان جواب الشرط لا يستقيم أن يكون فعلًا للشرط، وجب اقترانه بالفاء.

كما قال ابن مالك:

وَاقْـرُنْ بِفَـا حَـتْمًا جَوَابًـا لَـوْ جُعِـلْ ... شَرْطًـا لِإِنْ أَوْ غَيْرِهَـا لَمْ يَنْجَعِـلْ

وقد ذكر بعض الجامعين لما يجب أن يقترن بالفاء، جمع ذلك في بيتٍ:

اسْـمِيَّةٌ طَلَبِيَّـةٌ وَبِجَامِـدِ ... وَبِـمَا وَقَـدْ وَبِلَـنْ وَبِـالتَّنْفِيس

﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يقول المؤلف: [﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يصلون]، وهذا نعم له وجهة نظر، لأن السياق في السجود، ويمكن أن نقول، يسبحون بما هو أعم من الصلاة، أي يقولون سبحان الله والحمد لله، وما أشبه ذلك من كل ما فيه تنزيه الله عز وجل عما لا يليق به. وقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾ أي: لله، واعلم أن التسبيح معناه التنزيه، فما الذي ينزه الله عنه؟ ينزه الله تعالى عن كل نقص. فلا يمكن أن يعتريه النقص بكل حال من الأحوال. ثانيًا: ينزَّه عن كل نقص في كماله، فلا نقص في سمعه، ولا بصره، ولا قدرته ولا قوته. الثالث: ينزه عن مماثلة المخلوقين، فلا يماثل المخلوق أبدًا بأي حال من الأحوال. والتماثل بين الخالق والمخلوق من أكبر المحال، فما ينزه الله عنه إذنْ:

أولا: النقص لا يمكن أن يعتريه نقص.

الثاني: النقص في كماله، فكمالاته من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر وغير ذلك لا يمكن أن يعتريها نقص بأي حال من الأحوال.

الثالث: مماثلة المخلوقين لا نقول مشابهة، بل نقول مماثلة المخلوقين. أكثر الذين يعبرون في مثل هذا يعبرون بالمشابهة وهذا ليس بصواب.

الصواب أن نعبر بما عبر الله به عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾. ولم يذكر التشبيه بأي حال من الأحوال، ولهذا كان التعبير بنفي التمثيل هو الصواب دون التشبيه، دليل هذا أن الله منزه عن كل نقص وعيب. قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ المثل يعني: الوصف؛ لأن المثل يطلق على ذلك كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ

ءَاسِنٍ﴾ مثل الجنة، مثل يعني وصفها وصفتها ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فإذا كان الله له المثل الأعلى أي: الأكمل لزم أن يكون منزه عن كل نقص، أما النقص في كماله، فيدل له قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي من نقص على أن هذه المخلوقات عظيمة جدًّا و ومع ذلك ما لحق الله تعالى فيها نقص.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

الثالث: مماثلة المخلوقين، يقول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ويقول سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويقول تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، إذنْ التسبيح التنزيه، والذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء، كما قلنا.

وقوله: ﴿يسبحون له بالليل والنهار﴾، الباء هنا بمعنى (في)، لأن المقصود بالليل ظرف الليل، وعلى هذا فتكون الباء بمعنى (في) كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وبالليل يعني في الليل. وقوله: ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ يعني: إذنْ كل وقت، كل الوقت تسبحون الله. ويقول عز وجل: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، هم مع كونهم مستغرقين الليل والنهار بتسبيح الله، لا يسأمون، أي لا يملون، وكذلك لا يتعبون، لأن الملل يكون من الضجر والتعب وذل النفس أمام ما يتحمله الإنسان، هؤلاء الملائكة عليهم الصلاة والسلام لا يسئمون.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن لله آيات كثيرة لا تنحصر بآيتين أو ثلاث، ندرك ذلك من قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وما أكثرها في القرآن الكريم. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وهي كثيرة.

٢ - **ومن فوائدها:** أن لله تعالى أيات محسوسة تعينُ على الآيات المعقولة، وهذا من رحمة الله عز وجل، أن الله أرى عباده الآيات المحسوسة ليستعينوا بها على الآيات المعقولة، الآيات المعقولة كل

يعلم أن كل حادث لا بد له من محدث هذه آية عقلية لا ينكرها أحد، ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، الجواب: لا هذا ولا هذا، هم ما خلقوا من غير شيء، إذ لا بد لهم من خالق. ولا خلقوا أنفسهم، إذنْ لهم خالق وهو الله عز وجل. ولهذا لما سمع الجبير بن مطعم هذه الآية، وكان من أسرى بدر، وسمع النبي ﷺ يقرأ بالطور ووصل لهذه الآية، يقول: كاد قلبي يطير[1] يعني: عرفت أني على خطأ، وأن المشركين كلهم مخطئون، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الجواب لا هذا ولا هذا فيتعين أن يكون لهم خالق.

إذنْ آيات الله عز وجل إما عقلية وإما محسوسة، هنا من آياته الليل والنهار، هذه الآيات هل هي محسوسة أم عقلية؟ الآيات هذه محسوسة، كل يعرف الليل والنهار، وأنه لا يمكن لأحد أن يأتي بهما.

٣- **ومنها:** أن الليل والنهار والشمس والقمر، آيات عظيمة، ولهذا نص الله عليهما، والأمر كذلك، هذه الشمس الكوكب العظيم المنير الحار لا يمكن لأي مخلوق أن يصنع مثله إطلاقًا، وقد بينا في أثناء التفسير وجه ذلك.

٤- **ومن هذه الفوائد:** النهي عن السجود للشمس والقمر، لقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ مع أنهما من آيات الله، لكنها مخلوقة، والسجود إنما يكون للخالق.

ننتقل من هذا إلى نقطة مهمة أشار إليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (أن صفات الله عز وجل ليست هي الله). فلا يجوز دعاء الصفة ولا السجود للصفة من صفات الله، ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: (من دعا صفة من صفات الله فإنه كافر بالاتفاق)، يعني: لو قال قائل: يا رحمة الله ارحميني. هل الرحمة شيء بائن عن الله؟ يستطيع أن يرحم أو لا. فإذا قلت يا رحمة الله ارحميني معناها أنك جعلت مع الله إلهًا آخر، وهذا كفر، وكذلك إذا قلت يا قدرة الله أنقذيني، هذا حرام وشرك، قل يا الله بقدرتك أنقذني، ولا يرد على ذلك قوله: اللهم برحمتك أستغيث، لأن ليس المعنى أنني أستغيث بالرحمة وكأنني أجعلها شيئًا مستقلًا. لكن المعنى التوسل إلى الله تعالى برحمته، كأنه يقول يا رب أغثني برحمتك. فيجب التنبه لمثل هذه المسألة.

ومن ذلك أيضًا من الخطأ في مثل هذا قول بعض الناس: شاءت قدرة الله، وكذلك شاء القدر هذا حرام، أي لا يجوز، القدرة نفسها ليس لها مشيئة، فالمشيئة لله عز وجل، أما القدرة فليس لها مشيئة لأنها صفة في الموصوف، والشائي والمختار هو الله عز وجل؛ لأنه مقتضى قدرة الله، فهذا

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

صحيح، يعني من مقتضيات القدرة كذا وكذا. أما المشيئة لا تكون إلا ممن له مشيئة له اختيار وهذا لا يمكن أن يكون من صفة.

٥- أن من بلاغة القرآن، أنه إذا ذكر الحكم ذكر الدليل العقلي عليه؛ لقوله: ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ اسجدوا لله هو أمر شرعي، لكن الذي خلقهن دليل كوني قدري على أن المستحق للسجود الذي خلق هذه الأشياء، كيف تسجدون للشمس والقمر، ولا تسجدون لله الذي خلقهن؟ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ لم يقل أن الله أشد منهم قوة، بل قال: ﴿الذي خلقهم﴾، ليدل بذلك دلالة واضحة أنهم دون الله تبارك وتعالى في القدرة؛ لأن الله هو الذي خلقهم، وهذا من أساليب القرآن المعجزة الذي تدل على أنه من لدن حكيم خبير.

٦- **ومنها:** الرد على عابد الشمس والقمر؛ لقوله: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، استنبط بعض العلماء من هذه الآية فائدة: وهي مشروعية صلاة الكسوف، قال لأن الله قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، ولم يقل: (لليل والنهار)، وذلك لأن الشمس والقمر إذا تغيرتا فقد ينشأ في قلب عابدهما أن يسجد لهما كالتائب، ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾، وهذا الاستنباط فيه شيء من البعد لكنه ليس ممتنعًا أن يكون في ذلك إشارة إلى مشروعية صلاة الكسوف.

٧- **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن لإنسان يدعي أنه يعبد الله حقًّا أن يسجد لغير الله؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٨- **ومنها** تحدِّي من أشرك بالله بأي نوع من الشرك، أن يكون عابدًا حقًّا لله، فالمرائي مثلًا نقول: إنك لم تعبد الله حقًّا، لم تفرده بالعبادة، لأنك أردت بعبادتك التقرب للمخلوقين. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن المستكبرين عن عبادة الله لن يضروا الله شيئًا؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** كشف تحدي هؤلاء الذين يدعون غير الله.

٣- **ومن فوائدها:** ما استدل به بعضهم على أن الملائكة أفضل من البشر، وعلَّل ذلك بأن

الملائكة ليس فيهم مشرك، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، وبنو آدم مؤمن وكافر، والجنس الذي ليس فيهم مشرك خير من الجنس الذي فيه مشرك وموحد، ولكن قد يعارض هذا الاستدلال فيقال: عبادة الجنس الذي فيه مشرك وموحد أفضل من عبادة جنس ليس فيه مشرك، وكذلك لمشقة التوحيد في جنس فيه مشرك على الموحد، فيكون الموحد من بني آدم أفضل من الملائكة؛ لأنه عبد الله في قوم لا يعبدون الله، أما الملائكة فكلهم يعبدون الله ولا يستكبرون عن عبادته، وهذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم، ولكل منهم أدلة، لكن جمع شيخ الإسلام رحمه الله بين الأدلة فقال: الملائكة أفضل باعتبار البداية، وصالح البشر أفضل باعتبار النهاية، وهذا قول لا بأس به، جمع بين الأدلة الدالة على التفضيل، تفضيل الملائكة على البشر والبشر على الملائكة. ولهذا قال السَّفَارِيني رحمه الله:

وَعِنْدَنَا تَفْضِيلُ أَعْيَانِ البَشَرْ عَلَى مَلَاكِ رَبِّنَا كَمَا اشْتَهَرْ

قال (أحمد) ومن قال سوى هذا افترى يعني: من قال بغير تفضيل أعيان البشر على الملائكة فقد افترى.

لكن الصواب أن نقول كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أما باعتبار البداية الملائكة أفضل، لأنهم خلقوا من نور ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، بالنهاية يكون لصالح البشر من الثواب والأجر والقرب إلى الله ما ليس للملائكة.

٤- **ومن فوائدها:** أن للملائكة إرادة، وذلك في قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ولا تسبيح إلا بإرادة، ومن هنا نقفز إلى الفائدة الثانية وهي أن جميع المخلوقات، من الأحجار والأنهار والأشجار والشمس والقمر والسماء والأرض لها إرادة؛ لأنها كلها تسبح الله قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وبهذا نرد على الذين قالوا إن قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يعني الجدار هذا مجاز، لأن الجدار ليس له إرادة، فنقول: من قال لكم إن الجدار ليس له إرادة؟ بل له إرادة وميله يدل على أنه أراد، وقد قال النبي ﷺ في أحد إنه جبل يحبنا ونحبه(١)، والمحبة أخص من الإرادة، وأثبتها الرسول ﷺ للجبل.

٥- **ومن فوائد هذه الآية:** أن بعض أهل العلم استدل بهذه الآية الكريمة على علو الله، وأن الأشياء ليست كلها سواء بالنسبة للقرب منه لقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، والعندية تقتضي القرب، وأن بعض المخلوقات عند الله أقرب من بعض وهذا لا إشكال فيه، من يقول إن من كان

---

(١) **صحيح**: تقدم تخريجه.

في الأرض السابعة السفلى هو في القرب من الله كالذي في السماء السابعة، وأما من جهة الإحاطة بالخلق، فلا شك أن القريب والبعيد عند الله على حد سواء، وأما من جهة الواقع فلا شك أن من كان في السموات أقرب إلى الله ممن كان في الأرض، ولهذا قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، أقول إن بعض العلماء استدل بهذه الآية على علو الله، وقال: نحن في الأرض والذين عند الله لا بد أن يكونوا في السماء لأنه لولا علوه لكنا نحن أيضًا عنده، فكون يقول ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يخاطب من في الأرض يدل على علو الله عز وجل، وهذا لا شك أنه استنباط جيد، لكننا لسنا بحاجة إلى أن نأتي بهذا الدليل الذي قد تخفى دلالته على كثير من الناس، وعند أدلة كثيرة واضحة على علو الله عز وجل، أدلة عقلية وسمعية وقدرية على علو الله، ولا أحد ينكر علو الله عز وجل العلو الذاتي إلا مخبول.

وهذا فيما أرى كفر صريح، أن من قال أن الله بذاته في كل مكان فهو كافر لو مات ما صليت عليه ولا دعوت له بالرحمة؛ لأنه مكذب بالقرآن وللأدلة العقلية وواصف لربه بكل عيب.

ومنهم من يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارج العالم ولا متصل بالعالم ولا مباين ولا محايد ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، أين هو؟ وبماذا وصف الله؟ وصف الله بالعدم، لو قيل لنا صف المعدوم ما وصفه بأكثر من هذا، فيقال: أين هو، ما دام ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال، فأين هو؟ ولهذا لما قال ابن فورك لمحمود بن سبكتكين رحمه الله: إني لا أقول أن الله فوق العالم ولا تحت العالم إلى آخره وذكر هذه الأسلوبات.

قال: بين لنا الفرق بين وجود ربك وعدمه أو كلمة نحوه؟ يعني معنى ذلك أنك إن وصفت الله بهذه الأوصاف يعني أنك وصفت العدم تمامًا.

على كل حال تقرير أن الله تعالى في السماء يعني العلو الذاتي، أمر لا إشكال فيه، والعجب أنك تأتي العجوز التي لم تدرس ولم تفهم ولم تعلم، وتسألها أين الله؟ تقول في السماء. إلا إذا كان الأمر كما قال النبي ﷺ: «أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»(١) أي: إلا إذا كانت تعيش بين قوم ينكرون العلو، فربما تنكره، بناء على أن البيئة تغيرت، أما إذا أتينا إلى إنسان من حيث الفطرة لرأيناه لا يشك أن الله في السماء، ولذلك أفحم الهمداني رحمه الله أبا المعالي الجويني، حين كان أبو المعالي الجويني ينكر استواء الله على العرش، ويقول: إن الله كن ولا عرش وهو الآن على ما كان عليه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٢/٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يريد أن ينكر استوائه على العرش، فاستواء الله على العرش دليله سمعي لأنه لولا أن الله أخبر أنه مستوٍ على العرش لما علمنا، بخلاف العلو فدليله سمعي وفطري وعقلي، وأما هذا فدليله سمعي، قال له الهمداني رحمه الله: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة، فما قال عارف قط يا الله إلا وجد من قلبه ضرورة في طلب العلو. ما قال عارف، كلمة عارف اصطلاح صوفي، العارف عندهم هو العالم الواسع للعلم، العابد الكثير العبادة، ما قال عارف قط يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة لطلب العلو، وهذا صحيح، أي إنسان يقول يا الله يجد قلبه يتجه إلى السماء.

٦- **ومن فوائدها:** أن الملائكة مستغرقون الزمن كله في العبادة؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والباء وإن كانت بمعنى الظرف بمعنى في، لكن فيها نوع من الدلالة على الاستيعاب، كما قال الله تعالى في آية أخرى، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** بيان قوة الملائكة؛ لقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ أي لا يملون ولا يتعبون مما يدل على قوتهم، والأدلة على قوتهم كثيرة، منها قصة سليمان ﷺ، حين جاءه الهدهد بخبر ملكة سبأ أن لها عرش عظيم، فقال سليمان: ﴿أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ وكان له وقت محدد يقوم فيه ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾، جني يأتي بالعرش من أقصى اليمن إلى الشام، وهو واحد، ويقول ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ﴾ يؤكد قوته، ﴿أَمِينٞ﴾ لن أخون فيه. ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾، الله أكبر في الحال وجده أمامه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، ثم قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ ولم يقل: عنده مستقرًّا كأنه وضع في هذا المكان من سنوات مستقر ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾.

الآن حضر من هناك بلحظة، يعني كأن العرش على يمينك فنقلته على يسارك، فالأدهش، قال أهل العلم لأن هذا دعا الله عز وجل، فحملته الملائكة والملائكة أقوى من الجن وهذا لا شك فيه أنهم أقوى من الجن.

مسألة: حول من الأفضل الإنس أم الملائكة؟

الجواب: الملائكة أفضل من حيث البداية لأنهم خلقوا من نور ولا يستكبروا عن عبادة الله، ولكن في النهاية يكون مآل البشر أفضل، حتى الملائكة عملهم أنهم يدخلون عليهم من كل باب يهنئونهم، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ ولا ينالون من النعيم مثل ما يناله المؤمنون.

مسألة: حول كلمة (نشكر فضل الله) و كلمة (نحمد الله ونشكر فضله)؟

الجواب: هذا ما فيها شيء، أليس الله يقول ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؟ والمراد نعمة الله المخلوقة ما هي الصفة، يعني ما أنعم الله، كذلك أشكر فضل الله ليس معناه أن هذه الصفة مشكورة، ولكن هذا الفضل الذي منَّ الله به علي من شكر.

مسألة: حول الآية ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

الجواب: نحن لدينا قاعدة، أنه إذا دلَّ القرآن على شيء جائز فلا عبرة لمن خالفه، هذه أولًا؟

ثانيا: إذا اختلف النحويون في مسألة، فإننا نتبع الأسهل، ما في دليل شرعي مثلا يؤيد هؤلاء أو هؤلاء، لذلك نتبع الأسهل. وأنا قد أعطيت طلابنا هذه القاعدة، على أنكم إذا رأيتم علماء البصرة وعلماء الكوفة مختلفين في شيء، فاتبعوا الأسهل، وقولوا نحمد الله على الراحة.



قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩، ٤٠]

التَّفْسِيرُ

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ (من) للتبعيض، وآيات جمع آية، وهي العلامة المعينة لمعلومها، فكل علامة تعين معلومها وتحدده فهي آية، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، الخطاب هنا لكل من يتأتى خطابه، وليس خاصًا بالنبي ﷺ، واعلم أن الخطاب الموجه إلى واحد، ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولا: ما دل الدليل على أنه خاص برسول الله ﷺ فهو خاص به.

ثانيًا: ما دل الدليل على العموم فهو العموم.

ثالثًا: ما لا دليل فيه على هذا ولا على هذا، فيصح أن يكون خاصًّا بالرسول وأن يكون موجهًا لكل من يتأتَّى خطابه.

ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ الخطاب خاص بالرسول ﷺ، إذ أن هذا لا يتأتى لغيره، وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾هذا أيضًا خاص به، وفي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ هذا عام دل الدليل عليه، لأنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ثم قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾، وغالب ما يأتي ألا يكون فيه دليل لهذا ولا لهذا.

نقول: إما أنه موجه للرسول ﷺ، وأمته تكون متأسِّية به في ذلك، وإما أن يقال خطاب لكل من يتأتى خطابه، في هذه الآية: ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ﴾، هل الخطاب هنا خاص للرسول؟ لا، بل هو عام له ولغيره إما أن غيره داخل في ذلك في أصل المخاطبة وإما بالتبع، ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أي: [يابسة] هامدة. ليس بها نبات إطلاقًا، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ يعني المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ [تحركت] ﴿وَرَبَتْ﴾ [انتفخت وعلت].

وقوله: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ ماء المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أي: اهتز نباتها من فوقها، وليس المراد أن الأرض نفسها تهتز، لأننا لا نشعر بذلك وإن كنا نجوِّز أن يكون اهتزازها اهتزازًا يسيرًا، لكن الذي يظهر أنها اهتزت في النبات، وربت، أي علت. وهل المراد ما أشار إليه المؤلف؟ انتفاخ الأرض عندما تريد الحبة أن تخرج، فإن الحبة تنتفخ في باطن الأرض، ثم إذا أراد غصنها أن يخرج رفع الأرض، فهل هذا معنى (ربت)، أو معنى علت بالنبات؟

الجواب: يحتمل هذا وهذا أنها علت بالنبات وأنه لما ذكر اهتزازها أولا، اهتزاز النبات الخفيف، ذكر علو النبات الكبيرة التي تعلو، كل هذا ممكن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ أي: أحيا الأرض الخاشعة ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾، والجملة كما ترون مؤكدة بمؤكدين: إن واللام، والموتى جمع ميت، والمراد بهم، كل من مات من بني آدم وغيرهم. ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذه جملة مؤكدة بإن، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كل شيء فالله قادر عليه قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الثابت وعلى تثبيت المتغير، كل شيء قادر عليه.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من آيات الله الدالة على قدرته، أن الأرض اليابسة

الهامدة إذا نزل عليها الماء نبتت واهتزت وَرَبَتْ، وهل أحد يستطيع أن يفعل مثل ذلك؟ أبدًا، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾، لا أحد يستطيع مهما بلغ من القوة أن ينبت ورقة واحدة، وقد تحدى الله عز وجل جميع الخلق فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ وهذا تحدٍ بالأمر الكوني القدري، وتحدى الله الخلق بالأمر الشرعي، فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾، إذنْ فالإنسان عاجز مهما كان.

٢- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالمحسوس المنظور على الموعود المنتظر، وجهه: أن الله استدل بالشيء المحسوس المنظور وهو نبات الأرض، بعد أن كانت هامدة على شيء منتظر وهو إحياء الموتى بعد موتها، وفيه أيضًا الاستدلال بالأدلة العقلية، أن الإنسان يستدل بالمحسوس على المعقول، يعني: أن قدرة الله على هذا، تدل على قدرته على الآخر.

٣- **ومن فوائدها:** استعمال القياس وأن القياس ثابت، لأن الله تعالى قاس إحياء الموتى على إحياء الأرض.

٤- **ومنها:** تأكيد ما ينبغي تأكيده سواء كان ذلك بإنكار المنكر أو بشك شاك أو أهمية الأمر، لأن التأكيدات تكون إما لأهمية الأمر، و إما لرفع الشك والتردد في الشيء حتى يكون أمرًا يقينيًّا، وإما بإثبات الشيء المنكر، فمثلًا إذا كانت الآية تخاطب الذين ينكرون البعث، فهذا الإثبات لإثبات منكر، لأنه إثبات شيء أنكره قوم، وإذا كانت الآية تخاطب من يترددون في ذلك فهي لرفع الشك والتردد وإذا قدَّرنا أنها تخاطب من لا شك عنده ولا إنكار، فهو لأهمية الأمر ولأهمية الموضوع؛ لأن الإيمان بذلك هو الذي يحث الإنسان إلى أن يعمل، لولا أن الإنسان يؤمن بأنه سوف يبعث ويجازى لكان غير نشيط على العمل، أكثر ما ينشط الإنسان على العمل هو خوف يوم القيامة.

٥- **ومن فوائدها:** عموم قدرة الله عز وجل؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء لتمام علمه وتمام قدرته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، لأن العاجز إما أن يكون لعدم علمه وإما أن يكون لعدم قدرته، فنفى الله عز وجل العجز وبيَّن أن ذلك بسبب كمال علمه وقدرته.

إذنْ إن الله على كل شيء قدير. ذكر الجلال السيوطي -غفر الله لنا وله- في سورة المائدة كلامًا منكرًا قال: [وخص العقل ذاته فليس عليها بقادر] يعني: كأنه يقول إنه على كل شيء قدير إلا

على ذاته فإنه ليس عليها قادر، وهذا لا شك كلام منكر. كأنه يقول مثلًا: هل يقدر الله عز وجل على أن يخفي نفسه؟ على كلامه نقول هذا قول ساقط؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالشيء الممكن أما الشيء المستحيل فهو مستحيل، مستحيل على قدرتنا، فالمستحيل على قدرتنا غير مستحيل على قدرة الله عز وجل، لكن المستحيل لذاته فإنه لا يمكن أن تتعلق به قدرة ولا غير قدرة إلا العلم؛ ولهذا قال السَّفاريني:

بِقُدْرَةٍ تَعَلَّقَتْ بِمُمْكِنِ

فيقال لجلال -عفا الله عنا وعنه- : إن أردت أن الله ليس بقادر على أن يخفي نفسه، فهذا أمر غير وارد إطلاقًا؛ لأن القدرة لا تتعلق بهذا، وإن أردت أنه غير قادر على أن ينزل إلى السماء الدنيا، وأن يأتي للفصل بين عباده، وأنه يستوي على عرشه ونحو ذلك من الأفعال الاختيارية، فهذا كذب. بل هو قادر على ذلك، لكن السيوطي ـ عفا الله عنا وعنه ـ ممن يرون أن الأفعال الاختيارية لا تقوم بالله، كأن يقول الله ما يمكن ينزل ولا يستوي ولا يأتي يوم القيامة، لأن هذه حوادث والحوادث لا تتعلق إلا بحادث، على كل حال هذه فلسفة جاء بها أهل الكلام، وما أكثر ما جاءوا به من الكلام، وكلامهم كلام في كلام، لا فائدة فيه، تطويل بلا فائدة، إضاعة للوقت بلا فائدة، مؤدٍ إلى الشك والتردد بلا فائدة، ولهذا قال بعضهم أكثر الناس شكًّا عند الموت هم أهل الكلام، لماذا؟ لأنهم لم يبنوا عقيدتهم على الكتاب والسنة بل بنوا عقيدتهم على وهميات ظنوها عقليات، فضلوا وأضلوا، نحن نقول كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقط، ويكفي، أما العلم فإنه أوسع من المقدرة؛ لأن العلم متعلق بالواجب والمستحيل والممكن يعني علم الله متعلق بكل شيء، يتعلق حتى بالمستحيل، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وهذا مستحيل، ومع ذلك تعلق به العلم، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل على حكمة الله عز وجل.

٦- **ومن فوائدها:** الاستدلال على العموم بالخصوص، فالله سبحانه وتعالى استدل على إحيائه الموت بدليلين، أحدهما: خاص، والثاني: عام، فالخاص أنه يحيي الأرض بعد موتها، والعام ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وينبني على هذه الفائدة، أن العام يتناول جميع أفراده، وقد ذكر النبي ﷺ في قوله حين علم أمته التشهد. قال: «إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»[1]، فمثلًا: إذا قال الرجل: دوري وقف، فهذا يشمل جميع الدور، ولو قال: سياراتي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٣١) ومسلم (٥٥/ ٤٠٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

لفلان يشمل جميع السيارات، ولو قال نسائي طوالق، يشمل كل امرأة له، ولو قال عبيدي أحرار يشمل جميع عبيده، المهم أن العام يشمل جميع أفراده.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ يقول المفسر: [من ألحد ولحد] من ألحد تكون ﴿يُلْحِدُونَ﴾، ولحد (يَلْحَدُونَ)، وأصل اللحد أو الإلحاد هو الميت، ومنه سمي اللحد لحدًا لميله إلى جانب القبر، إذنْ فهذه المادة (ل ـ ح ـ د) مأخوذة من ميل، فمعنى: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون فيها وآياتنا جمع آية وآيات الله تعالى تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية وهي الوحي المنزل على الأنبياء والرسل، وآيات قدرية: وهي المخلوقات، كل المخلوقات آيات قدرية، تدل على خالقها وبارئها وفي ذلك يقول الشاعر الصادق في قوله.

فَوَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

كل المخلوقات آية من أيات الله، إذنْ الآيات قسمان كونية وهي جميع المخلوقات، وآيات شرعية وهي الوحي المنزل على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الإلحاد في الآيات الكونية يكون بواحد من الأمور الثلاثة:

الأمر الأول: بنسبتها إلى غير الله، مثل أن يقول: إن الذي خلق السماء القوة الطبيعية.

الأمر الثاني: وإما باعتقاد مشارك لله فيها. مثل أن يقول إن الذي يدبر الكون هو الله والإمام فلان، كما تقوله بعض الرافضة.

الأمر الثالث: وإما باعتقاد معين لله فيها. يعني كأن الله عجز عن إقامة السموات والأرض فأعانه آخر هذا هو الإلحاد في آيات الله الكونية. وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ كل ثلاث جاءت، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على سبيل الاستقلال، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ على سبيل المشاركة، ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي ما لله ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ معين.

الآيات الشرعية قلنا هي ما نزل من الوحي على رسل الله، والإلحاد فيها يكون بتكذيبها

وتحريفها ومخالفتها، يكون أيضًا بثلاثة أمور: تكذيبها أو تحريفها أو مخالفتها.

هذا الإلحاد في الآيات الشرعية، فمن كذَّب وقال مثلًا: محمد ما نزل عليه وحي، وإنما يعلمه بشر، فهو ملحد. ومن حرفَّها وغيَّر معناها أو غيَّر لفظها فهو ملحد؛ لأن التحريف يكون لفظًا ويكون معنًى، والثالث من خالفها فهو ملحد، فمن عصى الله فهو ملحد لكنه ليس الإلحاد الذي نفهمه وهو الخروج من الدين، بل هو ملحد إلحادًا بقدر ما فعل من المعصية والمخالفة، دليل ذلك قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا سمعي، ودليل عقلي أننا قلنا: إن الإلحاد في اللغة هو الميل، والعاصي المخالف للأوامر مائل بلا شك.

هؤلاء الذين يلحدون في أي واحد من الأقسام السابقة يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، هذه صفة نفي، ﴿لَا يَخْفَوْنَ﴾، نفى الله عز وجل أن يخفى عليه هؤلاء، وذلك لكمال علمه، واعلم أنه لا يمكن أن يوجد في صفات الله نفي محض، بل كل ما نفى الله عن نفسه فهو متضمن لكماله وإثباته وهذه قاعدة هامة لا تفرط فيها.

لا يوجد في صفات الله نفي محض بل كل ما نفى الله عن نفسه فإنه متضمن لكماله، فمثلًا ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، وذلك كمال علمه.

لأن الله تعالى كامل العلم محيط بكل شيء أم يحسبون أنا لا نسمع سرنا ونجواهم بلا ورسلنا لديهم يكتبون.

إذنْ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ أي لا يخفى علينا حالهم لكمال العلم. والمراد بهذه الجملة، المراد بها التهديد، كما تقول لابنك: يا بني اذهب بما شئت فإنه لا يخفى عليَّ فعلك. فالمراد بها التهديد، وهي في غاية التهديد؛ لأنه إذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فسوف ترتعد الفرائص من هذا الوعيد، ثم قال: [فنجازيهم] المؤلف رحمه الله يقول: ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [القرآن بالتكذيب]، ففي تفسير المؤلف قصور، أولًا: لأنه جعل الآيات هنا الآيات الشرعية، وهذا خطأ، فالآيات أعم. ثانيًا: أنه لم يجعل الإلحاد في الآيات الشرعية إلا بنوع واحد من الإلحاد وهو التكذيب وقد قلنا: إن الإلحاد فيها يكون بثلاثة أمور، أو بواحد من ثلاثة أمور، إما التكذيب أو التحريف أو المخالفة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، استفهام من الله عز وجل، الجواب؟ من يأتي آمن. وفي قوله ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ﴾ هذا نتيجة قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، إذنْ فالمعنى لا يخفون علينا وسنلقيهم في النار؛ لأن هذه هي النتيجة من قوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾، فيكون المعنى

لا يخفون علينا وسنلقيهم في النار، وأخبروني ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الجواب: أن الناس في صوت واحد سيقولون: أمن يأتي آمن يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ يلقى يفيد هذا أن أهل النار - والعياذ بالله - إذا وردوها لا يدخلوها طائعين، ولا مختارين ولكنهم يلقون إلقاء، كما يلقى الحجر من على الجبل، قال الله تعالى: ﴿أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ لأنهم لا يريدون أن يذهبوا، ولكن قد ثبت أن النار تتمثل لهم كالسراب فيأتون إليها صراعًا، فنقول لا منافاة، هي تمثل لهم سراب وهم يريدون الشرب فيأتون إليها صراعًا فإذا وصلوا إليهم وعرفوا أنها النار حينئذ يقفون ثم يدعون إلى نار جهنم دعا - أعاذنا الله وإياكم منها - ثم يلقون فيها إلقاء.

قوله: ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهم المؤمنون الذين لا يلحدون في آيات الله هؤلاء يأتون يوم القيامة آمنين، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا﴾ إعراب: ﴿آمِنًا﴾ حال، والفاعل مستتر والتقدير: أم من يأتي هو آمنا يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: له يوم البعث والنشور وسمي بالقيامة لوجوه ثلاثة:

الأول: أن الناس يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الثاني: أنه يقام فيه العدل. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

الثالث: أنه يقام فيه الأشهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. فلهذا سمي يوم القيامة لهذه الوجوه الثلاثة.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ يعني بعد هذا الإنذار والتهديد والوعيد اعملوا ما شئتم، وهذه جملة أيضا تفيد التهديد ولا شك. يعني اعملوا ما شئتم من الخير أو من الشر، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إذنْ ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ليست إباحة أن الإنسان يعمل ما شاء، كما يدعي هؤلاء أن الحرية أن تعمل ما شئت، عند هؤلاء الكفار الإنسان حر في دينه، يدين بما شاء، حر في أخلاقه يتخلق بما شاء، حر في أعماله يعمل ما شاء.

ونحن نقول: لا، الحرية المطلقة هي الرق المطلق، لأنك إذا تحررت من قيود الشر، تقيدت بقيود الشر.

كما يقول ابن القيم: (هربوا من الرق الذين خُلقوا له) والرق الذي خلقوا له عبادة الله عز وجل. (وبلوا برقِّ النفس والشيطان) صاروا عبيدًا لأنفسهم وللشياطين. فروا من رقهم لله إلى رقهم للهوى وللشيطان.

فنقول: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ ليس إطلاقًا، بمعنى ليس إباحًا، ولكنه تهديد وهو أسلوب عربي مبين، منذ نزل القرآن وإلى يومنا هذا؛ ولهذا أكده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قال المؤلف: [تهديد لهم]، إنه الضمير يعود على الله عز وجل، وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عليم وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قدم على عامله، لسببين: أحدهما لفظي، والثاني معنوي، أما اللفظي لتناسب رءوس الآيات، والقرآن الكريم كما تعلمون أنزل بلسان عربي يراعي التناسب اللفظي والمعنوي.

والفائدة الثانية: أنه أشد تهديدًا مما إذا جاء متأخرًا عن العامل، كأنه يقول: لو لم يكن عالمًا بأي شيء لكان عالمًا بأعمالكم، فهنا الحصر لبيان التهديد لهؤلاء، كأنه يقول لو خفي عليه كل شيء لم يخف عليه أعمالكم.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحريم الإلحاد في آيات الله، وجه ذلك أن الله تعالى هدد الملحدين في آيات الله.

٢- **ومن فوائد الآية:** إثبات الآيات والتقسيم من عندنا مبنيًّا على التتبع والاستقراء، يعني: إثبات أن الله له آيات كونية وشرعية، والآية ليس فيها ذلك ولكن بالتتبع والاستقراء علمنا أن آيات الله تنقسم إلى قسمين: شرعية وكونية.

٣- **ومن فوائدها:** تهديد الملحدين؛ لأن الله مطَّلِع عليهم لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

٤- **ومنها:** سعة علم الله وأنه لا يخفى عليه شيء.

٥- **ومنها:** أن الإلحاد سبب في دخول النار؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾ مثل الملحدين.

٦- ومنها أن أهل النار يلقون فيها إلقاء ويدعون إليها دعًّا إهانة لهم وإذلالًا؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ﴾.

٧- **ومن فوائدها:** جواز المفاضلة بين شيئين بينهما من التباين أكثر مما بين السماء والأرض؛ إفحامًا للخصم؛ لقوله: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، كل يعلم أن الثاني خير وأنه لا حاجة للإستفهام. لكن من أجل إفحام الخصم وإقامة الحجة عليه ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، كل يعرف أن الله خير، ولكن هذا من باب إفحام الخصم، ومنه قوله

تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، كل يعرف أن الأعلم هو الله ولكن هذا أيضًا من باب إفحام الخصم.

والقاعدة: أن المفاضلة بين شيئين التفاوت بينهما ظاهر لا يراد به المقارنة، لكن يراد به إفحام الخصم.

٨- **ومن فوائدها:** أن من استقام في آيات الله ولم يلحد فيها فإنه يأتي يوم القيامة آمنًا، لقوله: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في مقابل الملحدين الذين يلقون في النار.

٩- **ومن فوائدها:** عظمة الله عز وجل وقوة سلطانه، لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ لأن مثل هذا التهديد لا يكون إلا لمن كان كامل السلطان.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات يوم القيامة؛ لقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١١- ومنها أيضًا: أن الناس يوم القيامة ما بين آمن وخائف؛ لقوله: ﴿أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

١٢- **ومنها:** إثبات المشيئة للعبد؛ لقوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ فيكون في ذلك رد على الجبرية، الجبرية يقولون الإنسان مجبر على العمل، وليس له أي إرادة على ما يفعله ـ عجبًا لهم ـ يصلِّي ويتوضأ ويمشي ويخرج ويؤمن ويكفر بلا إرادة سبحان الله فهو في معتقدهم أنه مجبر. فالحركة فيه طبيعية فيه كالإحراق في النار، هل النار تحرق باختيارها؟ لا، لكن أودع فيها الإحراق، هم يقولون: هذه الأفعال والحركات من الإنسان لا إرادية ولكنه جبل عليها. ويقولون: إن حركته الإرادية كحركته الإضطرارية، فنزول الإنسان على الدرك من السفلى وصعوده من السفلى إلى العليا. كمن دحرج دحرجةً على الدرج والمدحرج لا ينزل باختياره هكذا هم يقولون لا فرق.

فقيل لهم: إذا كان كذلك فإن من أظلم الظلم أن يعذب الله الظالم، لأن الظالم يقول أنا مجبر، ما لي قدرة ولا لي اختيار، قالوا: لا، لا يمكن. فالظلم في حق الله مستحيل لذاته؛ لا لأن الله لا يريده لكنه مستحيل لذاته، وذلك لأنه تصرف الخالق في ملكه، والمتصرف في ملكه ليس بظالم، ولهذا قال ابن القيم: والظُّلم عندهم المحال لذاته، ونحن نقول: أخطأتم لأن الله تعالى شرع شرائع وأوعد من خالفها ووعد من وافقها، وأعطى الإنسان حرية، والظلم ممكن في حق الله لكنه مستحيل عليه إرادة بمعنى أنه لا يريد الظلم، ولو شاء لظلم، لكنه لا يريد، وليس وصفه إطلاقًا قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وقال تعالى في نفي إرادة الظلم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ وكيف يتمدح الله عز وجل بأمر مستحيل هذا

غير ممكن لو لا أن الظلم ممكن ما كان وصف الله به كمالًا.

فهل ممكن أن يعذب الإنسان الذي أمضى ليله ونهاره في طاعة الله؟ وهذا ممكن عقلًا، لكن الله تعالى لا يريد هذا.

على كل حال ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ في هذه الآية دليل على إثبات المشيئة للعبد، وهو يرد ردًّا واضحًا على الجبرية.

العجب أنه قام أناس ضد الجبرية فداووا البدعة ببدعة، قالوا: إن الإنسان له مشيئة وإرادة واختيار لكنه منفصل عن إرادة الله تعالى وميشئته، مستقل بالعمل، ما لله فيه إرادة إطلاقًا، فأنت الآنْ تذهب وتجيء باختيارك، لا تشعر بأن أحد يجبرك أو يكرهك، فإذنْ لا علاقة لله بفعلك أنت تفعل مختارًا مستقلًا عن إرادة الخالق.

أيهم أقرب إلى المعقول؟ القدرية لأن كل إنسان يعرف أنه يفعل الأشياء باختياره، وأنه يحمد على فعله للخير ويذم على فعله الشر، ولو كان بغير اختيار ما استحق أن يحمد على الخير ولا أن يذم على الشر، كل يعلم ذلك.

ولهذا يسمون العقلانيين، لأنهم يحكمون العقل حتى في مثل هذا الأمر، إذنْ نقول: قوبلت بدعة الجبرية ببدعة القدرية الذين أثبتوا للإنسان إرادة استقلالًا، ولهذا يسمون مجوس هذه الأمة، وذلك لأن المجوس يقولون الحوادث لها خالقان: الظلمة والنور، كل ما في الدنيا من شر فخالقه الظلمة، وكل ما فيها من خير فخالقه النور، لأن الأشياء التي في الدنيا كلها إما خير وإما شر، فيجب أن يكون هناك إلهين، إله الخير وإله الشر، فأيهما المناسب للخير؟ النور، وذلك لأن النور فيه سعة الصدر والإنشراح، وأيهما أنسب للشر؟ الظلمة.

قالوا إذنْ جميع ما يحدث في الكون له خالقان، ظلمة ونور، الظلمة تخلق الشر، والنور يخلق الخير. ولهذا يقول المتنبي في ممدوحه:

وَكَـم لِظَـلامِ اللَيـلِ عِنـدَكَ مِـن يَـدٍ تُخَـــبِّرُ أَنَّ المانَوِيَّـــةَ تَكـــذِبُ

قوله: (من يد) أي: من نعمة، وكم للتكثير؛ لأن المانوية تقول: إن الظلمة تخلق الشر والنور يخلق الخير، والمانوية فرقة من المجوس.

فالمتنبي يقول لممدوحه، أنت تجود ليلًا ونهارًا مما يكذب المانوية الذين يقولون إن الظلمة تخلق الشر.

على كل حال نحن نقول: إن الجبرية قوبلت بدعتهم ببدعة القدرية، وأعلم أن البدعة لا

يمكن أن تقاوم ببدعة.

لأنك إذا ابتدعت ادَّعوا عليك. ومن ذلك ما يفعله بعض الناس في يوم عاشوراء.

فيوم عاشوراء عند الرافضة يوم حزن وبلاء، جاء أناس من أهل السنة قالوا: نجعله يوم فرح وسرور، وينبغي في يوم عاشوراء أن نتزين ونتجمل ونوسع على الأولاد. وهذا ضد الحزن، ولكن هذا ليس بصحيح؟ لا؛ لأننا لو فعلنا هذا قالت الرافضة ما دليلكم على هذا؟ فلا يمكن أن تقابل البدعة ببدعة أبدا، فالبدعة لا تقابل إلا بسنة.

نحن نقابل الجبرية الذين ينكرون مشيئة العبد بدلائل من الكتاب والسنة، أن للإنسان مشيئة، ونقابل القدرية بأن الله تعالى له ملك السموات والأرض وما تشاءون إلا أن يشاء الله.

إذنْ أنا إذا شئت شيئًا وفعلته، أقول إن الله شاء ذلك قبل أن أشاء. لا يمكن أن أشاء شيئًا وأفعله دون أن يكون الله تعالى شاءه أبدًا.

فإذا قال قائل: أنت إذا قلت هذا وأن مشيئتك بعد مشيئة الله وتابعة لمشيئة الله، لزم على ذلك أن يحتج العاصي علينا بقدر الله تعالى ومشيئته. العاصي يشاء المعاصي ويفعل المعصية، إذا قالوا لماذا؟ قلنا لأن الله شاء ذلك. ويوجهون إلينا أننا نقول: إنه ما من مشيئة للعبد إلا وهي مسبوقة بمشيئة الله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيقول أحدهم: شاء الله أن أفعل وفعلت، فكيف تلوموني على أمر قد كتبه الله علي وشاءه عليَّ؟

نقول: قبل كل شيء من أعلمك أن الله شاء ذلك؟ هل أحد يعلم أن الله شاء الشيء إلا بعد وقوعه، لا يعلم. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، أنا مثلًا عندما أقوم وأصلي، أعلم أنني لما شئت الصلاة وفعلت فقد شاءها الله من قبل لكن قبل أن أصلي هل أعلم أن الله شاء أن أصلي أو لا؟ لا، لا أعلم.

العاصي حين يفعل المعصية، هل يعلم أن الله شاء له أن يفعل المعصية قبل أن يفعلها؟ لا.

إذنْ لا حجة لهم.

وما أحسن ما قاله بعض العلماء: إن القدر سر مكتوم، لا يُعلم إلا بعد وقوع المقدور.

وهو كذلك، هذا جواب مفحم لا يمكن أن يتخطاه أحد.

ثم نقول له: ألست الآن إذا كان أمامك نار محرقة أو أودية مغرقة، ألست تحجم عنها ولا تقدم عليها؟ لماذا لا تقدم وتلقي نفسك في النار وتقول والله هذه مشيئة الله؟ لا يمكن أن يقدم، لا على أودية مغرقة، ولا على نار محرقة، ويدعي أن ذلك بمشيئة الله، لا يمكن.

إذًا لماذا لم تتجنب المعاصي التي علمت بوعد الله أو وعيده أنها سبب لدخول النار؟ هذا نخاطبه عندما نريد منه أن يتجنب المعاصي،عندما نريد أن يفعل الطاعات نقول تعالى نزل في الصحف مسابقة على وظيفتين إحداهما عشرة ألاف ريال في الشهر، والثانية عشرة ريال إلى أين يذهب؟ ألست تذهب إلى العشرة آلاف، تريد هذا الراتب الجيد، هكذا العمل الصالح عرض عليك العمل الصالح بأن جزاء الحسنة بعشر امثالها إلى سبعمائة ضعف لماذا لم تقدم عليها؟ كما كنت تقدم على ما تراه حظًّا لك في عمل الدنيا، فلماذا لا تقدم على ما تراه حظًّا لك في عمل الآخرة، وبهذا تنقطع حجة الظالم، سواء ظلم بفعل المحرمات أو بترك الواجبات، لا حرج، نقول: تعرضنا لهذا وإن كان ليس من خصائص علم التفسير، لأن هذا من خصائص علم العقيدة. ربما يشوش على الإنسان مثل هذه الإرادات من الجبرية ومن القدرية ونقول كما قلنا، والأمر والحمد لله واضح. حتى أن الرسول ﷺ حل هذه المشكلة بكلمتين فقط قال ﷺ وعلى شفير قبر إحدى بناته: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ» قالوا: يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟[1] هذا اعتراض، ولكنه اعتراض في بادئ الأمر، كما قال تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾، ما دام مكتوبًا الشيء فلا حاجة أن نعمل، هذا مكتوب من أهل السعادة إذنْ فلينم؛ لأنه من اهل السعادة. هذا من أهل الشقاوة أيضًا فإنه لا حاجة إلى أن يعمل لأنه كتب في أهل الشقاوة فما فائدة العمل؟! حيث إنه لن يغير شيئًا، فقال ﷺ كلمتين: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، سبحان الله ما ذهب يأتي بفلسفة وتطويل بل بكلمتين: « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ »، هذا الذي من قبلنا أن نعمل ثم كل ميسر لما خلق له، فإذا وجدت من نفسك أن الله يسر لك الخير والهدى والنشاط على العبادة، فاعلم أنك ممن كتب من أهل السعادة؛ لقول النبي ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادِةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ» فالأمر والحمد لله واضح جدًّا، أنه لا حجة للعاصي بالقدر على معصيته، ولا للمتهاون في الواجب بالقدر على تهاونه، الأمر أوضح من أن يحتاج إلى كثير كلام.

لكن لما كان الشيطان يأتي للإنسان ويقول كذا وكذا، بقي علينا أن يقال: أليس آدم قد احتج بالقدر، أو أليس الله تعالى قد احتج بالقدر، فقال لرسوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾. فما هو الجواب؟ أما قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، فهذا تسلية للرسول ﷺ، حيث قال الله له ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ فشركهم بمشيئة الله، ومعلوم أن الرسول ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٤٥) ومسلم (٦/ ٢٦٤٧) من حديث علي رضي الله عنه.

سوف يرضى بقضاء الله، ولهذا يجب علينا أن ننظر إلى أهل المعاصي بنظرتين أو بنظرين، نظر قدري ونظر شرعي.

النظر القدري: أن نرضى بما وقع من معاصيهم؛ لأنه بتقدير الله، النظر الشرعي: أن نلزمهم بشرع الله، نقيم عليهم الحدود والتعزيرات وغير ذلك مما يحملهم على فعل الطاعات وترك المحرمات، وهذه مسألة هامة، إذنْ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ فهذا الغرض منها تسلية الرسول ﷺ، لأنه إذا علم أن ذلك بمشيئة الله رضي، ولكن الله تعالى أبطل هذه الدعوى منهم، بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ أي بشريعة ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾ بعقوبة الله، أبطل الله هذه الحجة، لأنهم أرادوا بذلك إبطال الشرع بالقدر، فبين الله تعالى أنه عذبهم، آدم احتج عليه موسى بقوله: خيبتنا وأخرجتنا ونفسك من الجنة بماذا؟

بمعصيته بالأكل من الشجرة، فقال له آدم: «أَتَلُومُنِي عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةٍ، قال النبي ﷺ: «فَحَاجَّهُ آدَمُ». وفي رواية «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[1]، ومعنى حجه أي غلبه في الحجة، احتج آدم بالقدر الذي كتب عليه قبل أن يخلق، وخوصم موسى، هذا الحديث يحتج به أهل المعاصي على معاصيهم ويقولون: إن آدم احتج بالقدر على موسى وحكم النبي ﷺ لآدم، وقال: إنه حاجَّه، فنحن نحتج بالقدر كما احتج أبونا.

نجيب عن هذا بجوابين:

الجواب الأول لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال: إن آدم لم يحتج بالقدر على المعصية، وإنما احتج بالقدر على الخروج من الجنة، وأما المعصية فقد اعتذر منها آدم ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾، فآدم لا يمكن أن يحتج بالقدر على المعصية إطلاقًا.

وهو أجل قدرًا من أن يحتج بالقدر على معصية الله، وإنما احتج بالقدر على إخراجه من الجنة، لا على سبب الإخراج، والاحتجاج بالقدر على المصائب أمر جائز وهو غاية التسليم لله عز وجل، أرأيتم قول الرسول ﷺ «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ» «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (١٣/ ٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»(١).

وهذا احتجاج بالقدر ولكن بعد الفعل أسباب، فالاحتجاج بالقدر على المصائب أمر جائز، والإنسان عندما يصاب بمصيبة ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون فهذا يعمل تسليما للقدر.

إذنْ احتجاج آدم بالقدر على المصيبة لا على المعصية. هذا من وجه.

وجه آخر: ما كان لموسى عليه السلام أن يلوم أباه على ذنب تاب منه وحصل له بعده أن اجتباه ربه وهداه، هذا لا يمكن. أدنى واحد إذا أصاب ذنبًا ثم تاب فإنه لا يوجه اللوم إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ثم بعد هذا ﴿ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اصطفاه واختاره فتاب عليه وهداه، هذه المنزلة ما حصلها قبل أن تحدث له المعصية، إذنْ لا يمكن لموسى عليه السلام أن يلوم أباه على ذنب تاب منه وارتفع بعد التوبة منه منزلة عند الله عز وجل، هذا لا يمكن أن يكون من أدنى واحد فضلًا من أن يكون من أولي العزم من الرسل، هذا جواب شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا جواب جيد ولا شك، وذهب ابن القيم رحمه الله إلى جواب آخر، وقال إن الاحتجاج بالقدر على المعصية بعد التوبة منها والإقلاع عنها مقبول. لا لدفع اللوم واستباحة الاستمرار فيكون الاحتجاج بالقدر نوعان:

نوع احتجاج بالقدر بعد فوات الأوان مع الإقلاع عن المعصية وحسن الحال، فهذا جائز واحتجاج بالقدر لدفع اللوم و الاستمرار في المعصية؛ فهذا ممنوع.

يعني لو قدرنا أن احتجاج آدم ﷺ بالقدر على المعصية التي تاب منها وهداه الله واجتباه يكون جائزًا على هذا التقدير؛ لأن آدم ما احتج بذلك ليستمر إنما احتج بذلك لأنه قد تاب.

ونظير هذا الآن فيما عندنا الآن لو إنسان زنا – والعياذ بالله- وهو رجل خير ولكن غلبته شهوته وزنا ثم تاب؟ وقلنا يا أخي كيف يقع منك هذا الشيء؟ قال يا أخي قضاء وقدر، وإلا فلست من أهل هذا الأمر، لكن المقدر كان، فهذا نقبل منه. لكن لو كان يزني ويستمر، ونقول له تب إلى الله، فيقول والله هذا غصب، كيف غصب وأنت ممارس لهذا العمل؟! هذا ليس بغصب.

على كل حال يقول ابن القيم: الاحتجاج بالقدر بعد وقوعه تسليمًا للقدر وتفويضًا لأمر الله لا استمرارًا للمعصية ولا دفعًا للوم فهذا جائز، ثم استدل بقصة وقعت من علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة رضي الله عنهما: حين دخل عليهما النبي ﷺ فقال لهما: «أَلَا تُصَلِّيَانِ؟»، قال علي: يا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٤/ ٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رسول الله أنفسنا بيد الله لو شاء لأقام[1]، هنا احتج بالقدر، فخرج النبي أو تولى عنهما يضرب على فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾، فالرسول ﷺ هل قبل منهما؟

لا يقال: إنه قبل منهم على الإطلاق، وهذا ليس بصحيح.

وإنما يقال قبل الواقع لكنه كره الجدال. فهذا هو الواقع؛ لأنه لو أراد الإنكار عليهما لقال غير ذلك. لقال: لا حجة لكما في هذا ولكن جعل ذلك من باب الجدل الذي نهى عنه، فقد خرج يومًا من الأيام على أصحابه وهم يتجادلون في القدر فغضب ﷺ، كأنما فُقِئَ في وجهه حب الرمان[2] -احمر وجهه- ونهى عن التنازع في القدر، إذنْ المخرج الثاني من قصة آدم وموسى، أن آدم احتج بالقدر على أمر مضى وانقضى وتخلص منه، ولكن قال هذا أمر فرط مني، ولكل منهما وجه، ولكن الوجه الأول في ظني أنها أقوى. لأن موسى لا يمكن أن يلوم أباه على أمر قد تاب منه.

لكن الثاني لها وجهة نظر ولا شك، إنما لا ننزل قصة آدم وموسى عليها بل نقول إنها في سائر الناس الآن، لو أنك لمت شخصًا على أمر فعله من معصية الله ثم احتج بالقدر بعد أن تاب، فأنا أقبل منه، وهذا يقع كثيرًا، فكثيرًا ما يفعل الإنسان الذنب ثم يتندم ندامة عظيمة، ثم يقول قدر الله وما شاء فعل. كيف يقع مني هذا؟ كيف تغلبني نفسي؟! وهذا أمر لا بأس به.

أطلنا في ذلك عليكم ولكن التمسوا لِيَ العذر[3]، فلابد لطالب العلم أن يكون عنده في ذلك علم بمثل هذه الأمور، ليخلص بها نفسه من الشبهات التي يوردها عليه الشيطان، وليتخلص بها من شبهات يوردها عليه أولياء الشيطان.

١٣- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات علم الله تعالى بكل ما يعمل هؤلاء؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** تخصيص الحكم بما فيه النزاع وإن كان عامًا، فلنا أن نخصص هذا الحكم في محل النزاع. ويؤخذ ذلك من تقديم المعمول، ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا نقول هذا الحصر حقيقي وأنه لا يعلم الله عز وجل إلا بما عملوا، بل يعلم كل شيء، لكن لما كان الكلام في عملهم، جاءت الآية أو جاء الحكم، بصيغة الحصر من أجل شدة التحذير، وأنهم لن يفوتوا الله عز وجل.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١١٢٧) ومسلم (٢٠٦/ ٧٧٥) من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٨٥) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٣) هذا من الشيخ ـ رحمه الله ـ أدب عالٍ دالٌّ على الحرص على بيان ما يجب في حق طالب العلم من وجوب معرفته من أصول هذه العقيدة، وما يترتب على العلم بها في الرد على شبهات أهل الباطل.

مسألة: حول قصة رد علي بن أبي طالب على النبي ﷺ والتي ذكرها الشيخ؟

الجواب: قبل الواقع وهو احتجاجهم بالقدر، النائم في الحقيقة ما عليه لوم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ هو الله. فيقول: أنفسنا بأيدي الله لو شاء أن نقوم لقمنا، هذا واقع أما كونه يجادل النبي ﷺ بالقدر، هذا أمر لا ينبغي، ولهذا تشعر بأنه ليس براضٍ يضرب على فخذيه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾، والجدل قد يكون بحق ويقبل، حتى وإن كان في جدل إذا كان بحق يقبل.

مسألة: أعطيتنا قاعدة وهي إن وجدنا بدعة لا نقابلها ببدعة، ونقابلها بالسنة، وحول مسألة التمثيل؟

الجواب: مسألة التمثيل ليست ببدعة في حد ذاتها، التمثيل تقريب المعاني بصورتها الفعلية، وقد ورد التمثيل في الحديث الصحيح في قصة الملك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى. بصورته التي عليها وقال إنه مسكين وابن سبيل، وهو ليس مسكينًا ولا ابن سبيل ولا أبرص ولا أقرع ولا أعمى، ولكن هذا للتقريب، ولكن المبالغة في التمثيل، بحيث لا ندعو الناس إلا به فهذا هو الخطأ، فنقول: الدعوة إلى الله تعالى له وسائل، كل ما فيه تصوير للواقع والتحذير منه بدون أن يشتمل على كذب أو محاكاة للبهائم أو ما أشبه ذلك، أو محاكاة الرجل للمرأة أو بالعكس فهذا لا مانع، فنحن لا ننكر التمثيل مطلقًا ولا نحبذه، وننكر أن يكون هو الوسيلة في الدعوة إلى الله، لكنك إذا عودت الناس ألا تدعوهم إلى الله إلا بهذه الوسيلة نسوا الأهم وهو موعظة القرآن والسنة؟

مسألة: كيف نجمع بين أن آدم خلق بعد ما كتب عليه بأربعين سنة وبين أن الله تعالى خلق القلم فقال له اكتب قبل أن يخلق السموات بخمسين ألف سنة.

الجواب: يقال: إذا صحت هذه الكلمة وكانت محفوظة فإن هذه كتابة أخرى خاصة بآدم.

مسألة: حول وصف الله بالظلم؟

الجواب: أين في القرآن والسنة أن الله تعالى وصف نفسه بالظلم في مقابلة الظالم؟ إذا كان ليس هناك لماذا يوصف الله بالظلم وهو قد نفاه عن نفسه؟! ولكن الانتقام من الظالم كمال، ولكن أن يرد إلى الظالم بظلم، ولهذا لم يأتِ في القرآن والسنة (فلما ظلمونا ظلمناهم)، بل قال: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، أما الاستهزاء فنعم والخداع نعم المكر والكيد، هذا لا

بأس ذكر الله تعالى هذه الأوصاف في مقابل من عامله بمثلها(١).

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٣]

❁ التَّفْسِيرُ ❁

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ هذه جملة مؤكدة بإن، والمراد بالذكر القرآن الكريم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وسمي القرآن ذكرًا؛ لأنه يذكر صاحبه، لما للمتقين من خير، وما للطاغين من شر، ولأنه ذكر لصاحبه، أي: يرفع به ذكر من تمسك به. ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. ولأنه يذكِّر الإنسان بربه، فإن من أقرب الناس إلى الله، من تلا كتابه ولهذا نقول إن تلاوة الكتاب هي أفضل الذكر المطلق، وأما الاختيار المعين المقيد بشيء معين فهذه تبعٌ لما قيدت به.

وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم، واعلم أن (لما) تأتي في اللغة العربية بعدة أوجه، منها:

١- أن تكون ظرفًا كما في هذه الآية فمعنى ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم.

٢- ومنها أن تأتي نافية جازمة لكنها لتوقع ما بعدها، كقوله تعالى: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ لما هنا نافية لكنها لا تدخل إلا على شيء يتوقع. فمعنى لما يذقوا عذابه، أي: لم يذوقوه ولكنهم مستحقون له، العذاب منهم قريب.

٣- ومنها أنها تأتي بمعنى (إلا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾، أي إلا عليها حافظ.

٤- ومنها أنها تأتي شرطية كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾، فلما أن جاء نقول هنا شرطية، وتقول: (لما زارني أكرمته) فهذه أربعة أوجه.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: حين جاءهم، لم يذكر الله تعالى خبر (إن) بل حذفه من أجل أن

---

(١) قصد الشيخ هنا الصفات المقيدة لا الصفات المطلقة.

تذهب النفس في تقديره كل مذهب، بمعنى يبقى الإنسان يفكر ما الذي سيحدث له، هل كذا أو كذا؟ ولهذا قدرها المفسر: [نجازيهم].

(فنجازيهم) على تفسير المؤلف خبر إن، ويجوز أن تقدر هكذا: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم سوف يعاقبون أو لهم نار جهنم أو ما أشبه ذلك.

المهم: أن حذفه من أجل أن يذهب الذهن كل مذهب في تقدير الخبر، ولكن نعلم علم اليقين، أنه لا يمكن أن يقدر خبرًا سارًّا، يعني لا يمكن أن يكون التقدير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لهم جنات النعيم، هذا مستحيل، إنما هو يقدر في أي شيء تقدره من العذاب، وهذا من بلاغة القرآن، أن يجعل المجال مفتوحًا ليقدره الإنسان كل تقدير.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أكد الله عز وجل عزة هذا الكتاب بمؤكدين، إن واللام. ومحط الفائدة قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ وهذا هو المهم، أما كتاب فكل شيء يكتب كتاب، كل ما يكتب فهو كتاب. ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾. ولكن محط الفائدة قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ الضمير في (إن) يعود إلى الذكر وهو القرآن، وكتاب هنا بمعنى مكتوب، وهو مكتوب في المصاحف، وفي اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، أعرفتم، إذنْ هو كتاب في ثلاثة مواضع كما ذكرنا.

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ قال المؤلف: [منيع]، ولا شك أن منيع من معاني عزيز، ولكن هي أعم مما قال المؤلف، ﴿عَزِيزٌ﴾ بمعنى: منيع أي يمتنع أن يناله أحد بسوء إلا فضحه الله، الثاني: عزيز بمعنى غالب. فالقرآن لا شك أنه وارد على غيره: لقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فهو غالب لكل شيء، إذنْ هو ممتنع أن يناله أحد بسوء إلا فضحه الله، والثاني: أنه غالب. ولهذا لما كانت الأمة الإسلامية متمسكة به كانت غالبة، هددت عروش كسرى وقيصر وغيرهما من الجبابرة، وفُتِحَ به مشارق الأرض ومغاربها.

فلما تولت عنه الأمة الإسلامية حرمت من هذا الخير العظيم، الذي هو العزة والغلبة والقهر. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، [أي ليس قبله كتاب يكذبه ولا بعده]، والباطل ضد الصحيح وضد الحق، عند الفقهاء يقولون الصلاة باطلة، الصلاة صحيحة فيدعون البطلان في مقابل الصحة، وفي القرآن الكريم، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فجعل الباطل في مقابلة الحق. إذنْ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾، وقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فسرها المؤلف بتفسير غريب [أي ليس قبله كتاب يكذبه ولا بعده]،

وفي هذا نظر ظاهر، والصواب أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه أي فيما يخبر به، ولا من خلفه أي فيما أخبر عنه، كل ما أخبر به فهو حق، وكل ما أخبر عنه بأنه سيكون فهو حق. أيضًا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ من حيث الأحكام كل ما حكم به فهو حق، وغايته حق، فيكون المعنى: أن هذا القرآن الكريم ليس فيه شيء من الكذب، لا في الإخبار عما مضى وهو ما بين يديه، ولا في الإخبار عما يستقبل، وهو قوله ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾، وإن شئت اعكس، فقل ما بين يديه هو المستقبل، وما خلفه هو الماضي.

كذلك لا يأتيه الباطل من حيث الأحكام، أحكامه كلها عدل ما فيه جور، ولهذا تجده قرآنًا كريمًا، كما يعطي الرب حقه من العبادة، يعطي المخلوق حقه أيضًا، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا حق الله، بعده﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فهو حق في أحكامه، حق في أخباره، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، صدقًا باعتبار الأخبار، وعدلًا باعتبار الأحكام. ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ﴿تَنزِيلٌ﴾ هذه خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون خبرًا ثالثًا لقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ صفة لكتاب، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ هذه صفة لكتاب أيضًا. وعلى هذا فيكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثانيًا. ويجوز أن تكون خبرًا ثانيًا: أي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ خبر ثانٍ لـ(إن)، وعلى هذا فتكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبرًا ثالثًا، ويجوز أن تكون ﴿تَنزِيلٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير: (هو تنزيل من حكيم حميد). ولعل هذا التقدير أولى لأنه يدل على أن الجملة استئنافية، لبيان عظمة هذا القرآن، قال: ﴿تَنزِيلٌ﴾ أي منزل من ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فإذا فسرنا تنزيل بأنها منزل صار المصدر بمعنى: اسم المفعول، والمصدر يأتي بمعنى اسم المفعول وبمعنى اسم الفاعل والذي يعين ذلك هو السياق، ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ حكيم أي ذي حكمة وذي حكم، فالحكم لله والحكمة في أحكامه، فالرب عزَّ وجل متصل بالحكم الذي لا معقب لحكمه، بالحكم النافذ الذي لا مانع له، وفي الدعاء المأثور: «لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»[1]، أيضًا هو متصل بالحكمة، كل أحكامه حكمة، إن نظرت إلى احكامه النظرية وجدتها في غاية الحكمة، وإذا نظرت إلى أحكامه الشرعية وجدتها كذلك في غاية الحكمة، فهو عز وجل حاكم وذو حكمة، كم من حاكم لا حكمة له وكم من حكيم لا حكم له. فكثير من الرجال حكماء عقلاء ولكن ليس عندهم حكم، لا يستطيع أن يحكم ولا على امرأته، وكم من إنسان حاكم ذو سلطة قوي ولكن ليس عنده حكمة.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٨٤٤) ومسلم (١٣٧/ ٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أما الرب عز وجل فهو حاكم حكيم. وبدأ بذكر الحكيم قبل الحميد؛ لأن الحمد مفرع على الحكمة، فإن الحكيم يكون محمودًا، قال المؤلف: [أي الله المحمود]، يعني كأنه يقول المراد بالحكيم الحميد هو الله، وقوله: [المحمود في أمره]، المحمود أشار إلى أن (فعيلًا) هنا بمعنى مفعول، في اللغة العربية تأتي فعيل بمعنى فاعل، وفعيل بمعنى مفعول، فإذا قلت فلان جريح، بمعنى مجروح، وإذا قلت فلان سميع بمعنى سامع، تأتي في اللغة العربية بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، هنا فسرها المؤلف بمعنى مفعول، لكن هل هذا التفسير قاصر؟

الجواب: نعم، فيه قصور؛ لأن حميدًا هنا تأتي بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، فهو محمود وهو أيضًا حامد، أليس الله تعالى يثني كثيرًا على المؤمنين، وعلى الرسل وعلى من شاء من عباده، هذا حمد، يعني وصف هؤلاء المخلوقين الذين أثنى الله عليه، هو حمدهم في الواقع، إذنْ فيكون حميد بمعنى فاعل أي أنه حامد، وبمعنى مفعول أي أنه محمود، والمؤلف رحمه الله في تفسيره قصور.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد المكذبين بالقرآن، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ وحذف الخبر ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب.

٢ - **ومن فوائدها:** أن هذا القرآن ذكر، سماه الله ذكرًا لما ذكرناه في التفسير.

٣ - **ومن فوائدها:** أن هؤلاء كذَّبوا بالذِّكر بعد أن جاءهم وتحققوا وعرفوه. ومعلوم أن المكذِّب للشيء بعد ما تحقق لديه، أشد إثمًا ووبالًا ممن كذب في أمرٍ مشتبه عنده، يؤخذ هذا من قوله. ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

٤ - **ومن فوائدها:** أن هذا القرآن عزيز غالب لا أحد يناله بسوء إلا فضحه الله ولا أحد يكون أمامه إلا كان مهزوما مغلوبًا، ووصف الله تعالى القرآن بأنه عزيز وبأنه مجيد وبأنه كريم، وبأوصاف متعددة مما يدل على عظمة هذا القرآن.

٥ - **ومن فوائدها:** أن من تمسك بالقرآن فله العزة، وجهه أنه إذا كان القرآن عزيزًا فلا بد أن ينال العزة من تمسك به وإلا لكان القرآن غير عزيز، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٦ - **ومنها:** أن القرآن الكريم حق منتفٍ عنه الباطل من كل وجه؛ لقوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، هذه الصفة للقرآن هل هي من صفات النفي أو من صفات الإثبات؟ هي من صفات النفي، إذنْ ما الذي تضمن النفي الإثبات؟ نقول إذا انتفى الباطل عنها من كل وجه

من بين يديها ومن خلفه لزم من ذلك أن يكون حقًّا من كل وجه.

٧- **ومن فوائدها:** أن القرآن كلام الله، يؤخذ من قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، ووجه كونه كلام الله أن القرآن صفة، ليس عينًا مستقلة منفصلة، فإذا كان صفة وذكر الله أنه نزل منه لزم أن يكون كلامه، أما لو كان الشيء الذي ذكره الله أنه أنزله منفصلًا عن الله فهذا لا يدل على أنه من صفات الله، ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هذا الماء مخلوق، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾، هذه أيضًا مخلوق؛ لأنه منفصل عن الله، ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ مخلوق، لكن إذا جاء التنزيل أو الإنزال في أمر هو صفة فإنه لا يمكن أن يكون مخلوقًا بائنًا عن الله بل هو صفة من صفات الله.

٨- **ومنها:** إثبات علو الله، وجه ذلك أنه قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾، وإذا قال تنزيلًا منه لزم أن يكون فوق عز وجل، وهو كذلك، وقد ذكرنا كثيرًا وذكر غيرنا أيضًا أن علو الله عز وجل ثابت في الأدلة كلها. وهي الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، كلها متفقة على علو الله.

٩- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الإسمين لله عز وجل وهما الحكيم والحميد وإثبات ما تضمناه من المعاني والصفات، الحكيم تضمن صفتين عظيمتين هم الحكم والحكمة فهو حاكم ذو حكمة.

وذكرنا في التفسير أن من الناس من هو حكيم وليس بحاكم، ومن الناس من هو حاكم وليس بحكيم، ومن الناس من ليس بحاكم وليس بحكيم، ومن الناس من هو حاكم حكيم. فهذه الأقسام أربعة.

١٠- **ومن فوائدها:** أنه لا يجوز لأحد أن يشرع شرعًا من عنده؛ لأن من الحكم، الحكم بين الناس، فالحكم إما أن يكون حكمًا بين الناس وإما أن يكون حكمًا في الناس، فلا يجوز لأحد أن يحكم بين الناس إلا بما أنزل الله، لأن الحكم لله عز وجل، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ولكن الحكم لله هل لنا أن نتجاوز حد الله عز وجل في الحكم على أحد بالفسق أو البدعة أو الكفر أو الإيمان وصحة العقيدة إلا بدليل من الشرع؟ هذا لا يجوز إلا بدليل من الشرع، أي ليس لنا أن نقول هذا كافر هذا فاسق هذا مؤمن هذا سليم العقيدة، إلا إذا عرضنا ما هو عليه على الكتاب والسنة، إلا ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.

١١- **ومنها:** أن الله تعالى محمود، على أن حميد اسم مفعول، هل الله يحمد على كل حال؟ إذا قلنا على السراء فهذا واضح وذلك لأنه أحسن إليك ورأف بك، لكن على الضراء كيف يحمد؟

أولًا: نحمده؛ لأننا نعلم أنه لم يقدر ذلك إلا لحكمة، لا شك في ذلك.

ثانيًا: أن ما يترتب على هذه الضراء من مصالح العظيمة يقتضي أن يحمد الله تعالى عليها، فالإنسان إذا أصابته شوكة وتألم بها، ماذا يحصل له؟ يحط عنه من خطيئته، خطيئته مثقلة عظيمة مخزية في الآخرة والشوكة ليست مؤلمة حين ذاك، وليست ظاهرة للناس ومع ذلك يكفر بها من سيئاته.

ولهذا قيل لبعض العابدات لما أصيب أصبعها، ولم تتألم ولم تتأثر ولم تحزن، قالت: إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها. كلمة عجيبة، الصوفية لهم كلمات عجيبة في العبادة؛ لأن الأجر أعظم من المصيبة، فإذنْ حتى ما يصيب الإنسان من الضرر، فإن الله تعالى محمودٌ عليه لأنه لحكمة ولا شك، والإنسان عبدٌ لله عز وجل يفعل به ما يشاء، ولأن العاقبة حميدة.

مسألة: هل يحمد الله عز وجل على وجود الكافرين؟

الجواب: نعم يحمد، لأنه لولا وجود الكافر فهل يعرف المؤمن؟! وهل الإنسان يعرف قدر نعمة الله عليه إذا لم يكن هناك كافر، وهل يقام علم الجهاد؟ وهل يبقى للنار أحد؟ لابد.

لكن هنا مسألة، كان النبي ﷺ إذا أصابه شيء يسؤوه. لا يقول الحمد لله على الضرَّاء أو على كذا. يقول: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»[1] وهذه مسألة هامة. فأنت إذا أصابتك سراء فقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصَالحات. وإذا أصابتك الضراء تقول: الحمد لله على كل حال.

وبهذا نعرف خطأ من يقول: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، هذا خطأ؛ لأن هذه العبارة تنبأ عن التأزم النفسي وعن الكراهة بما قدر الله عز وجل على الإنسان ثم إن فيها تضاد: مكروه وحمد. هذا غير مستقيم، ثم إن فيها أيضًا مخالفة لسنة الرسول ﷺ ، كان الرسول ﷺ يقول: «الحمد لله على كل حال» ولا يذكر المكروه ولا يشعر بأنه متأذٍ منه «الحمد لله على كل حال»، فأنت إذا أصبت بسراء فقل: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»[2] وإن شئت فعيِّن ، الحمد لله الذي رزقني ولدًا، الحمد لله الذي رزَقني مالًا، وما أشبه ذلك لأن هذا خير والثناء عليه واضح، لكن الأمور المكروهة لا تقول: الحمد لله الذي أمرضني، وإنما تقول: «الحمد لله على كل حال» تقول الحمد لله الذي أصابني بمصيبة فقد أبي أو عمي. وإنما تقول: «الحمد لله على كل حال» وإن شئت فقل الحمد لله على ما قدر لأن هذه بمعنى على كل حال.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٦٤٠).

(٢) صحيح: تقدم تخريجه.

١٢- **ومن فوائدها:** أن الرب عز وجل كامل العدل بحيث يحمد من يستحق الحمد، كما أنه يحمد لأنه أهل للحمد، بناء على أن حميد بمعنى حامد.

١٣- ومنها أن جميع ما في القرآن مطابق للحكمة تمامًا من تحليل أو تحريم أو إيجاب أو إطلاق، وجهه: لأنه نزل من حكيم حميد، والنازل من حكيم لا بد أن يكون مشتملًا على الحكمة، والله الموفق.

مسألة: هل كلمة حكيم تضمن صفة ثالثة بالإضافة إلى الحكم والحكمة وهي الإحكام؟

الجواب: لا، الإحكام هو الحكمة.

مسألة: حول آيات نزول النعم كالحديد والماء؟

الجواب: لا شك أن هذا الإنزال نوع من التسخير فلولا أن الله سخرها لما استطعنا أن نسيطر عليها، فالله أنزلها من علياء إلى أسفل حتى تكون مسخرة للخلق.

ومما يحسن بنا ونحن في مقام اسم الله «الحكيم» أن نتكلم عن الحكمة من خلق الشر وأن الله تعالى خالق كل شيء ولهذا جاء في الحديث: «تُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، ولكن لا تنسب الشر إلى الله؛ لأن الله لم يقدر هذا الشر إلا لخير فالشر إذًا في مفعوله لا في فعله، مثلًا إذا قدر الله عز وجل على الناس مرضًا، الشر فيه نفس المرض، لكن في كون الله قدره خيرًا لا شرًّا، لأنه من أكبر ما يكون من مصالح الأمراض مثلًا، تكفير السيئات، ومنها أن الناس يرجعون إلى الله عز وجل، ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ومنها: أن الناس يعرف قدر نعمة الله عليه بالعافية، يعني لا نعرف قدر النعمة التي أنعم الله بها علينا في النفس والحركة وما أشبه ذلك، لكن لو أصيب الإنسان منا بضيق نفس عرف قدر النفس، لو أصيب الإنسان منا بتعنت في أعضاءه يتكلف من الحركة، فإنه يعرف قدر نعمة الله عز وجل عليه، ولهذا قيل: وبضدها تتبين الأشياء.



(١) صحيح: تقدم تخريجه.

قال الله تعالى:

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٣، ٤٤]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ قال المفسر: [من التكذيب] والاستهزاء والسخرية وغير ذلك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ ومنه قولهم: إنه ساحر مجنون، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، هذه الكلمة كل أحد يقولها للرسول، ويحتمل أن المعنى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ من الوحي ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: [مثل]، والآية تحتملها ولا مانع من إرادتها، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا﴾ [مثل] ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾. قوله: [﴿إِلَّا﴾ مثل]، زاد المؤلف مثل، ومعلوم أن قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ﴾ لا يساويه قوله إلا مثل، وإنما لجأ المؤلف إلى ذلك لأن الذي قيل للرسول ﷺ ليس هو بحروفه ما قيل لمن قبله، ولكن الأولى أن يقال الآية على ظاهرها أن ما قيل للرسول قد قيل لمن قبله، وكما ذكرت لكم آنفًا، ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾، فيقال إنهم قالوا نفس الكلام، لكن بلغتهم ليس بلغة العرب، ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، هذه الجملة فيها عرض للمكذبين أن يؤمنوا، فإن لم يؤمنوا فقد تعرضوا للعقاب.

عَرَض أن يؤمنوا لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يعني كأنه يقول فآمنوا يغفر لكم، وهو كقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، و﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ إن لم يؤمنوا، ففيه ترغيب وترهيب، الترغيب في قوله: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ والترهيب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ والعقاب هو الانتقام، والأليم بمعنى المؤلم. وفعيل تأتي بمعنى مُفْعل كثيرًا في اللغة العربية. كما قال الشاعر.

أَمِنْ رَيْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

السميع بمعنى المُسمِع.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية الرسول ﷺ؛ لأنه إذا علم أنه قد قيل للرسل من قبله مثل ما قد قيل له سهل عليه الأمر.

٢- **ومنها:** أن سنة الله تعالى واحدة، فالمكذبون قولهم واحد وفعلهم واحد؛ لقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾.

٣- **ومن فوائد الآية:** إثبات صفة المغفرة لله عز وجل، وهي ستر الذنب والتجاوز عنه، هذه المغفرة.

٤- **ومنها:** إثبات شدة عقابه، لقوله: ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

٥- **ومنها:** رحمة الله بعباده حيث يعرض عليهم، موجب التوبة، حتى لا يتمادوا في المعصية؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

٦- **ومن فوائد الآية:** أن هذا القرآن مثاني فإذا ذكر فيه جانب الترغيب ذكر معه جانب الترهيب، لِئَلَّا تطمع النفس وتغلو في الطمع، فتأمن في مكر الله، فيجمع الله تعالى بين هذا وهذا لئلا يطمع الإنسان في الفضل فيأمن من مكر الله، ولئلا يخاف فيقنط من رحمة الله، وعلى هذا فيكون سيره إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله: ينبغي للسائر إلى الله عز وجلَّ أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه، وقال بعضهم: ينبغي أن يكون الخوف والرجاء للإنسان كجناحي الطير، إن انهزع أحدهما سقط الطير، فيكون الرجاء والخوف واحدًا متساويان، فترجو وتخاف؛ ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وفسر بعض أهل العلم فقال: ينبغي للإنسان إذا عمل الحسنات أن يكون جانب الرجاء في حقه أرجح؛. لأن هذا من إحسان الظن بالله، ووجه ذلك أن الله لما وفقك للعمل فإنه قد وعدك بالثواب ولما وفقك للدعاء فقد وعدك بالإجابة، فعليه إذا فعلت الخير فغلب جانب الرجاء، وإن فعلت الشر أو هممت به فغلب جانب الخوف، ليردعك الخوف عن التمادي في الشر، أو عن مواقعة الشر، هذا تفصيل.

تفصيل آخر، وقيل في حال الصحة ينبغي أن يغلب جانب الخوف، لأن الصحيح أن الإنسان الذي أعطاه الله صحة في ماله وعقله ربما يتمادى في الشر ولا يبالي، وإذا كنت في المرض فغلب

جانب الرجاء، لأن النبي ﷺ قال: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ»[1]؛ لأن الله تعالى عند حسن ظن عبده به، والذي ينبغي أن يقال: إن الإنسان طبيب نفسه، فإذا خاف من نفسه التمادي في المعاصي، والتهاون في الطاعات فليغلب جانب الخوف، وإن خاف من نفسه الزهو والخيلاء والأمن من مكر الله، فليغلب جانب الخوف، فالإنسان في الحقيقة طبيب نفسه.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾، ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ الضمير يعود على القرآن، والمفسر قال: [أي الذكر]، وإنما قال الذكر؛ لأنه قد سبق ذكره قليلًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾ وعلى كل حال المعنى متفق عليه، أن الضمير الهاء يعود إلى القرآن. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾، أي: بلغة العجم، وهو قد نزل على العرب لقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ لقالوا: أي المكذبون لرسول الله ﷺ لولا: هلا فصلت: بينت آياته: حتى نفهمها.

ولكن الله تعالى قد قطع عليهم الحجة، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى [هلَّا]، أفادنا المؤلف -رحمه الله- أن لولا تأتي للتحضيض، وتأتي شرطية، ويقال في إعرابها، حرف امتناع لوجود. وهنا تتقاسم هذه الحروف تتقاسم الوجود والعدم، فلو حرف امتناع لامتناع، ولما حرف وجود لوجود، ولولا حرف امتناع لوجود، تقول: لما جاءني أكرمته، هنا الإكرام وجد لوجود المجيء، وتقول: لو جاء زيدٌ لأكرمته، هنا امتنع الإكرام لامتناع الوجود، وتقول: لولا زيد لفعلت كذا وكذا، فهنا امتناع لوجود، هنا ﴿لَوْلَا﴾ ليست من هذا ولا من هذا، لولا هنا انتقلت عن معنى الشرطية، إلى معنى التحضيض.

أقرآنا أعجمي ونبي عربي؟ [استفهام إنكار منهم]، يعني: لو كان القرآن بلغة العجم ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ وبينت باللغة العربية، ثم لقالوا أيضًا: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ يعني لا يمكن أن يكون القرآن بلغة العجم نزل على نبي عربيٍّ، وهذا الذي قالوه استفهامًا حقيقيًّا، يعني بمعنى أن قولهم حق لا يمكن أن ينزل القرآن أعجمي على نبي عربي، وقد نص الله عز وجل على ذلك في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فكلامهم هذا حق، فنحن نقبل كلامهم

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

هذا، أما قولهم، ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ فنقول: هي مفصلة، ولكنها حجة لو كان القرآن أعجميًّا، وعلى هذا قولهم يكون صحيحًا، لو كان القرآن باللغة الأعجمية لصار لهم حجة، حجة في قولهم، (لولا فصلت آياته)، وحق في قولهم، ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

قال المؤلف: [بتحقيق الهمزة الثانية] أأعجمي كما هي القراءة المشهورة، يقول وقلبها ألفًا، يقول:[﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ﴾ بإشباع ودونه] يعني بمعنى أنك تمد الألف مدًّا طبيعيًّا، أو تمده مدًّا زائدًا على ذلك، والمد الطبيعي قوله: [ودونه]. والمد الزائد قوله: [بإشباع]، وعلى هذا فيكون فيها ثلاث قراءات، ءأعجمي، آعجمي، أعجميٌ. والقراءات كما هو معلوم كلها سنة؛ لأنها ثبتت عن النبي ﷺ، وينبغي للإنسان الذي أتقنها وحفظها أن يقرأ بهذا مرة وبهذا مرة، كما نقول في العبادات التي وردت على وجوه متنوعة، إنه ينبغي أن تفعل هذا مرة وهذا مرة، ولكن هل نقرأ بما يخالف القرآن الذي بين أيدي العوام بقراءة أخرى، الجواب: لا، ولهذا نرى أن من عدم الحكمة، ما يفعله بعض الطلبة، إذا كان يعرف القراءات، يقرأ بالقراءة التي ليست بين أيدي العوام، فإن هذا خطأ عظيم، لأن العامي لا يدرك هذه الأشياء. وسوف يهبط قدر القرآن في نفسه وتقل عظمته عنده. ثم ربما يتهم هذا القارئ أنه أخطأ وغلط، لكن بعض الناس يكون عنده علم وليس عنده حكمة، وهذا خلل في توازن العبد، وفي سير العبد، فلا بد أن يكون عندك علم حكمة.

إذا كان الصحابة رضي الله عنهم، وهم من هم في اختلاف القراءات، فكيف بعوام هذا الزمن.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قل: يعني قل يا محمد في جوابهم: هو للذين آمنوا هدى من الضلالة وشفاء من الجهل، ﴿هُوَ﴾ يعود الضمير على الذكر، للذين آمنوا هدى، أي علم ونور، وشفاء، يقول المؤلف رحمه الله [من الجهل[، وهذا فيه نظر؛ لأن [من الجهل] داخل في قوله: ﴿هُدًى﴾، إذ إن الهدى هو العلم وضده الجهل، لكن شفاء من المرض، مرض القلوب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾. فالصواب أن قوله: ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة وهي الجهل، فهو هدى من الجهل والضلالة، و﴿وَشِفَآءٌ﴾ من المرض، أي مرض القلوب، بل هو أيضًا شفاء من مرض الأبدان، فإن القرآن يستشفى به من أمراض القلوب، ويستشفى به كذلك في أمراض الأبدان، وكم من إنسان مريض مرض مرضًا بدنيًّا شفاه الله تعالى بالقرآن، وقصة الذي كان سيد قومه ونزل به سرية من الصحابة، ولم يضيفهم، فسخر الله تعالى عقربًا كبيرة شديدة، فلدغت سيدهم، فطلبوا راقٍ من الصحابة، فقالوا: لا نرقى لكم إلا

بكذا وكذا من الغنم، فأعطوهم فذهب أحدهم ليقرأ عليهم سورة الفاتحة، حتى قام كأنما نشط من عقال. لكنهم تربصوا بالغنم التي أخذوها، خافوا ألا تحل لهم حتى أتوا النبي ﷺ فسألوه، فقال: «خذوا واضربوا لي معكم بسهم»[1]، قال ذلك، لا حاجة للحم ولكن تطييبًا لقلوبهم واطمئنانًا لنفوسهم، ليتبين أنه حلال لا إشكال فيه، المهم أنهم أخبروا النبي ﷺ أنهم قرأوا على هذا اللديغ الفاتحة، فقال: «وما يدريك أنها رقية»، فيتبين بهذا أن القرآن شفاء لأمراض القلوب وأسقام الأبدان، لكن لمن؟ للذين آمنوا بالقرآن وبأنه من عند الله وبأنه شفاء، أما رجل لم يؤمن به ولم يرفع به رأسًا، ولم يرى بمخالفته بأسًا فإن هذا لا ينتفع به.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ نسأل الله العافية، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ، ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر مبتدأ الأول، الذي هو ﴿وَالَّذِينَ﴾، يعني كأنه قال هو للذين آمنوا هدى وشفاء، وأما الذين لا يؤمنون ففي آذانهم وقر، لا يؤمنون بالله ولا بالرسل ولا بالكتب هؤلاء في آذانهم وقر أي ثقل؛ لأن الوقر بمعنى الحمل الثقيل، قال الله تعالى: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾، يعني السحاب تحمل الماء الكثير، فعلى هذا يكون في آذانهم وقر أي ثقل وصمم، فلا يسمعون ـ والعياذ بالله ـ، وهو عليهم عمىً فلا يبصرون، فصارت منافذ الفهم عند غير المؤمنين مسدودة، لا يسمعون ولا يبصرون، فلا يصل هدى القرآن إلى قلوبهم، وهو عليهم عمى. ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، فإذا قال قائل: كيف يكون الكلام واحد لقوم هدى وشفاء، ولآخرين عمىً وضلالة، قلنا: إن هذا بحسب ما في القلب.

لأن الله قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ونحن نرى الغذاء الحسي، يكون لقوم غذاءً وشفاء ويكون لآخرين مرضًا وعلة.

مثال: بعض الناس يحجب عن التمر عن العنب عن كل ما فيه حلال فيضره، وآخرون ينفعهم الحلال، مع أن الطعام واحد. لكن محل هؤلاء قابلًا له ومحل آخرين غير قابل.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك المشار إليهم الذين لا يؤمنون، وأشار إليهم بصيغة البعيد ليس رفعة لشأنهم، ولكن إظهار للتبرئ منهم وإبعادهم، أولئك ينادون من مكان بعيد، يعني كالذي ينادى من مكان بعيد، والذي ينادى من مكان بعيد يعوقه عن الحضور والاستجابة أمران:

الأمر الأول: أنه لبعده قد لا يسمع النداء.

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري (٥٧٣٦) ومسلم (٦٥/ ٢٢٠١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الأمر الثاني: أنه لبعده قد يرى أن الاستجابة شاقة عليه فلا يجيب، وعلى هذا فكونهم ينادون من مكان بعيد يتعلق بندائهم أمران كما ذكرنا.

قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [أي هم كالمنادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم ما ينادى به].

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** حكمة الله عز وجل، في كون الوحي النازل على النبي على وفق لغة القوم الذي وصل إليهم، يؤخذ من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ والله تعالى جعله قرآنًا عربيًّا.

٢- **ومن فوائدها:** أن الحجة لا تقوم حتى يفهم الإنسان معنى هذه الحجة، وأن مجرد البلاغ لا يعد حجة قائمة حتى يفهمها من بلغته، لأنك لو ألقيت كلامًا عربيًّا بأفصح ما يكون على قوم عجم وهم لا يعرفون مقصودك أصلا، هل يفهمون شيئًا؟ لا، وكذلك بالعكس لو جاء رجل أعجمي وقام يتكلم بأفصح ما يكون من لغة العجم، ونحن لا نعرف مراده لم نفهم منه شيئًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فإن قال قائل: يرد على قولكم هذا أنه لا بد من فهم الحجة بعد بلوغها، ويرد على ذلك قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾، ولم يقل: (ومن بلغ وفهم)، قلنا: هذا مطلق، لكن الآيات الأخرى تقيده، بأنه لا بد من البيان والمعرفة، كذلك لو قال قائل: يرد على قولكم هذا قول النبي ﷺ «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١) فقال هنا لا يسمع بي. فيقال: نعم، لأنه إذا سمع به يجب عليه أن يبحث حتى وإن كان لا يفهم يجب عليه أن يبحث، أما أن يترك فهو لا يعذر لتفريطه وتهاونه، وعلى هذا فلا بد من بلوغ الحجة ولا بد من فهمها، ونحن في الحقيقة لا نتهاون في تكفير من كفره الله، ولا نبالي أن نكفر من كفَّره الله، لكننا لا نتجاسر أن نكفر من لم يكفره الله عز وجل، لأن الحكم ليس إلينا، الحكم بالتكفير وعدم التكفير إلى الله عز وجل، فالحكم ليس إلينا وإلى إلى عواطفنا، ولو كان الحكم إلينا لكنا نكفر من كان فاسقًا، بل قد نكفر من كان تاركًا للأولى، لأن الإنسان لا شك أن معه غيرة يبغض بها من خالف الشرع، لكن كوننا نحكم عليه بالكفر أو عدم الكفر، ليس إلينا بل هو الله، والخلق عبيد الله عز وجل، ليسوا عبيدنا، حتى نحكم عليهم بما نرى، بل نحكم عليهم بمقتضى

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٠/ ١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كلام الله ورسوله، فإذا دار الأمر بين أن نقول هذا كافر وهو ينتسب إلى الإسلام، وبين أن نقول ليس بكافر، لأن بهذا سالمون، لكن لو نكفر ثم بناء على التكفير نستبيح دمه وماله، لأن المسألة ليست سهلة، ونستبيح ألا نصلي عليه ولا ندعو له بالرحمة، المسألة صعبة جدًّا، ولهذا خطأ من يتسرعون في التكفير أشد تهاون ممن لا يكفر الكافر، بما لا يترتب عل التكفير من المصائب والبلاء.

٣- **ومن فوائدها:** أن التناقض بين الرسول والوحي مستحيل، الدليل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ وهذا مستحيل أن يتناقض الوحي، ومن أوحي إليه.

٤- **ومن فوائدها:** أن القرآن يكون لأقوام رحمة ولآخرين نقمة، ويشهد لهذا قوله ﷺ: «القُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»[1]، رحمة للمؤمنين ونقمة على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥- **ومنها:** أنه لا يمكن أن يبتغى الهدى من غير القرآن؛ لقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾، فمن ابتغى الهدى من غير القرآن أضله الله، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

٦- **ومنها:** أن القرآن شفاء من أمراض القلوب، وأسقام الأبدان لقوله: ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، وقد فهمنا أثناء التفسير أن الفاتحة رُقية، كذلك أيضًا إذا أردت أن ترقي أحدًا فانظر مع الفاتحة الآيات المناسبة، فمثلًا إذا كنت تريد أن ترقيه من السحر، فاقرأ إضافة إلى الفاتحة، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، لأنهما السورتان اللتان رُقيا بهما رسول الله ﷺ، كذلك انظر إلى آيات السحر التي تبطل السحر، مثل قوله تعالى عن موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وأمثال ذلك، إذا كنت تريد أن ترقي من مرض اقرأ الآيات المناسبة مثل: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، لأن التناسب بين الآيات التي هي الدواء وبين المرض الذي هو الداء لا بد أن يكون أمرًا مهمًا يراعيه الإنسان، كما يراعي ذلك في الأدوية الحسية، الحار يعالج بالبارد، ولهذا قال النبي ﷺ في الحُمَّى قال: «أَبْرِدْ فَإِنَّ الحُمَّى مِنْ فِيحِ جَهَنَّمَ فَأَبْرِدُوهَا بِالمْاءِ»[2] وقد شهد الأطباء الآن أن البرودة لمن أصيب بالحمى هي من أكبر العلاج،

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (ب/ ٢٢٣) من حديث أبي مالك رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه: أخرجه الخباري (٥٧٢٣) ومسلم (٧٨/ ٢٢٠٩)من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

حتى كانوا يجعلون المريض أحيانا إلى جانب المكيف، من أجل البرودة، وحتى إنهم يضعون أحيانًا على المريض بالحمى ثوبًا مبلولًا بالماء، من أجل التبريد.

٧- **ومن فوائدها:** أن الإنسان كلما كان أقوى إيمانًا كان أهدى وأشفى؛ يؤخذ من قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ وهناك قاعدة مفيدة ومهمة: أن كل حكم مرتب على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف. ويضعف بضعف ذلك الوصف.

٨- ومنها بلاغة القرآن بتصوير المعقول بصورة المحسوس، هؤلاء الذين لا يؤمنون لو أنك نظرت إليهم نظرة حسية، لم تجد في آذانهم وقر، لأنهم يسمعون وقد يكونون أقوى سمعًا من المؤمنين، ولم تجد أيضًا أنهم إذا قرأت عليهم القرآن عميت أعينهم، كما قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾، ولا ترى أنهم ينادون من مكان بعيد، بل تعرض عليهم الدعوة وهم إلى جانب الداعي، لكن هذا من بلاغة القرآن، أن يصور الشيء المعقول بصورة المحسوس، حتى يكون أقرب إلى الفهم، فهنا صور حال هؤلاء بأنهم صم وعمي وبأنهم بعيدون من الداعي.



قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٥، ٤٦]

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا، والإيتاء هنا إيتاء شرعي قدري. إيتاء شرعي: لأنه أضيف إلى الوحي، قدري: لأنه وقع فعلًا، وموسى ﷺ هو أفضل أنبياء بني إسرائيل. وهو بالنسبة لأولي العزم بالمرتبة الثالثة، لأن أولي العزم خمسة أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى، وهو - أي موسى - أكثر الأنبياء أتباعًا بعد الرسول ﷺ. هناك حديث: أن النبي ﷺ قد رأى سوادًا عظيمًا قد سد الأفق[1]. فقيل: هذا موسى وقومه. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ [التوراة]، وسميت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كتابًا؛ لأنها مكتوبة؛ قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، فهي نزلت مكتوبة، ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [بالتصديق والتكذيب كالقرآن]، والذين اختلفوا فيه هم قوم موسى، فمنهم من صدق ومنهم من كذب. لكن قوم موسى مشهورون بالعتوِّ والطغيان. والاستكبار العظيم، والجهل العميق، لما مروا بأقوام يعبدون غير الله ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وصنعوا من الحلي عجلًا، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾، فجعلوا العجل الذي صنعوه بأيديهم إلهًا، نسأل الله العافية.

مسألة: ذكرت أنه شرط فلاح الرقية أن يكون الشخص الذي سيرقى مؤمنًا بآيات الرقية، وزعيم القوم الذين رقوه صحابة النبي ﷺ ما كان مسلمًا؟

الجواب: لا، هو مؤمن بأن قراءتهم سوف تفيد، لأنه إذا لم يؤمن لم تنفع النفس وتكون قابلة، لا يمكن أن تقبل النفس هذا العلاج إلا إذا آمنت بأنه مفيد، والكافر يعالج بالقرآن وربما علاج الكافر بالقرآن أولى من علاج المؤمن به لأنه إذا عرف أنه مؤثر يكون ذلك سببا لإسلامه.

مسألة: قال تعالى في سورة يوسف: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾. ما موقع لولا هنا هل هي شرطية؟

الجواب: انظر إلى ما قبلها ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ يعني: لفعل، فهي شرطية يعني محذوفة الجواب، فإنه قد هم بها لولا أن رأى برهان ربه لأجابها إلى ما دعت.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ لما ذكر الله تعالى هذا الكتاب العزيز وأنه للذين آمنوا هدى وشفاء والذين في قلوبهم مرض، والذي لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، بين ما كان من الأمم السابقة نحو كتبهم فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، آتينا: بمعنى أعطينا. والجملة هذه مؤكدة بثلاث مؤكدات، وهي القسم واللام وقد، وتقدير الكلام، والله لقد آتينا وهو يقع كثيرًا في الكتاب العزيز، أي مثل هذه الصيغة تقع كثيرا في القرآن، وقوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ هذا الإتيان إتيان كوني وشرعي، فالله تعالى قد أنزل عليه التوراة فعلًا، وقد أتاه الحكم بها، وموسى هو ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل. وهو في المرتبة الثالثة بالنسبة لأولي العزم، لأن أولي العزم هم خمسة، أفضلهم محمد ﷺ ثم إبراهيم ثم موسى.

وقوله ﴿الْكِتَابَ﴾ يعني [التوراة]، وسماه الله تعالى كتابا لأن الله تعالى كتبها بيده كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال: ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [بالتصديق والتكذيب كالقرآن]، فمنهم المصدق ومنهم المكذب، كما كان الناس أيضًا بالنسبة

للقرآن، وهكذا جميع الأمم، بالنسبة لما جاءت به الرسل، منهم المصدق ومنهم المكذب.

وقوله: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كذلك أيضًا جميع ما جاءت به الرسل يختلف الناس فيه بين مؤمن وكافر، وهذا تسلية لرسول ﷺ، قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿وَلَوْلَا﴾ هذه كلمة شرطية، حرف شرط، وهي كما قال النحاة حرف وجود لعدم، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ هذا موجود، ﴿لَقُضِىَ﴾ هذا معدوم، حرف وجود لعدم.

وقوله: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يقول المفسر: [بتأخير الحساب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة]، فإن الجزاء الكامل إنما يكون يوم القيامة، أما في الدنيا فهو جزاء لا شك يعاقب فيه المجرمون ويفلح فيه المؤمنون. لكنه ليس الجزاء الكامل من كل وجه. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [في الدنيا فيما اختلفوا فيه]، والمراد بذلك القضاء التام فلا ينافي هذا ما وقع لآل فرعون من الغرق والهلاك لما كذبوا موسى ﷺ، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ [أي المكذبين به] ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تأكيد الكلام إذا دعت الحاجة إليه إما لأهميته وإما لشك فيه وإما لإنكاره. قال علماء البلاغة: والمخاطب له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: حال ابتداء وهي ألا يكون عند المخاطب علم ولا تردد ولا إنكار. فهذا تلقى إليه الجملة غير مؤكدة لأنه لا حاجة للتوكيد مثل ان يقال: قدم فلان اليوم، لإنسان لم يكن في قلبه شيء من قدومه إثباتًا ولا نفيًا، وتسمى هذه الجملة ابتدائية.

الحالة الثانية: أن يكون المخاطب متردد في الأمر شاك فيه لكنه لا ينكره فهذا يحتاج إلى توكيد، لكنه ليس بواجب، مثل أن تخاطب رجلًا في أمر يستبعده لكنه لا ينكره، فهنا يحسن أن تؤكد له الكلام من أجل أن يزول عنه الشك والتردد.

الحالة الثالثة: أن يكون منكرًا مكذبًا، فهذا يتعين توكيد الخبر له؛ لأن ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليه وإقناعه.

فإن قال قائل: يردُ على كلامكم هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ والمراد بالجملة الأولى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ فلا أحد ينكر الموت حتى يؤكد له، أجابوا عن ذلك بأن تكذيبهم وإنكارهم واستكبارهم وتمردهم يفعلون ذلك فعل المنكر، فخوطبوا خطاب المنكر، وهذا لا شك أنه جواب صحيح.

وأما الذي معنا الآن وهو المؤكد بمؤكدات ثلاث قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هل هو

لإنكار المخاطب أو لتردده أم ماذا؟ قلنا: لأهمية الموضوع فيحتاج إلى التوكيد لتسلية الرسول ﷺ.

٢- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات رسالة موسى وجه ذلك أن الكتاب لا يؤتى إلا إلى نبي.

٣- **ومنها:** وجوب الإيمان بأن الله تعالى آتى موسى كتابًا، لأن الله أخبر به وخبره حق، ولإن ذلك من الإيمان بكتب الله.

٤- **ومن فوائدها:** أن الخلاف لم يكن بدعًا في الامم، ولقد سبق هذه الأمة، من اختلفوا في كتبهم ورسلهم لقوله: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

٥- ومنها تسلية المصاب بذكر المشارك له؛ لأن الغرض من الإخبار أن الله آتى موسى الكتاب فاختلف فيه تسلية النبي ﷺ، وعلى هذا فينبغي تسلية المصاب، ومنها ما يسمى بتعزية المصاب بالموت، فمن أصيب بموت فإن من السنة أن يعزَّى أي يقوى على الصبر على المصيبة.

وهذه التسلية سنة، لما في ذلك من رفع ألم المصيبة عن أخيك المسلم.

٦- **ومن فوائدها:** حكمة الله عز وجل بتأخير العذاب عمن كذبوا الرسل، لأن الله تعالى جعل لكل شيء قدره. فمن حكمته تأخير العذاب عن الأمم لعلهم يرجعون.

٧- **ومن فوائدها:** تمام سلطان الله عز وجل، وأنه جل وعلا مدبر الامور أخذًا ورفعًا، لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** رفعة منزلة الرسول ﷺ عند الله، تؤخذ من قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فأضاف الربوبية إليه وهذه الربوبية خاصة، وهي تفيد علو منزلة المربوب عند الله عز وجل. ولقد اجتمعت الربوبيتان العامة والخاصة في قول السحرة من آل فرعون: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾. الأولى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة، والثانية: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة.

٩- **ومن فوائدها:** أن الله يكني عن الشر ببناء الفعل لما لم يسمَّ فاعله؛ لقوله: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يقل: (لقضى بينهم). وهذا هو المضطرد في القرآن والغالب، وانظر إلى أدب الجن؛ حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، أدب عالٍ في الشر قالوا ﴿أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولم يضيفوا إلى الله، وفي الرشد قالوا ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، ولم يقولوا: (أم أريد بهم رشدًا). وهذا من أدب الجن، والجن أحيانًا يكونون آدب من الإنس ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أوصى بعضهم بعضا أن ينصتوا حتى يستمعوا استماعًا تامًّا، فلما قضي لم يتكاسلوا ولم يقفوا، ولكن ولوا إلى قومهم منذرين بادروا: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ

إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا .....﴾.

١٠- **ومنها أيضًا:** أن المكذبين بكتاب موسى في شك مريب، موقع في الريب وهو الشك مع القلق. يعني الفرق بين الريب والشك قريب؛ ولهذا يفسر بعض العلماء الريب بالشك، ولكن شيخ الإسلام -رحمه الله- قال هذا تفسير قريب، والريب أخص من مطلق الشك، إذ إن فيه قلقًا مع ريبة، وذلك لأن الأمر المشكوك فيه إما ألا يكون ذا أهمية فتجد الشاك فيه يقول ما يهم ثبت أم لم يثبت، وإما أن يكون ذا أهمية وحينئذ إذا شك فيه فيكون في قلق، أيؤمن بهذا أم ينكر؟ فالغالب أن الريبة لا تأتي إلا في الأمور الهامة، وأما الشك الذي يشك يقول: فلان قدم أو ما قدم، وليس له أهمية في قدومه أو غيابه، فهذا لا يوجب الريبة.

١١- **ومن فوائدها:** أن الإيمان يجب ألا يخالطه شك، وأنه إذا ورد على القلب شك ولو يسيرًا بشرط ألا يدافع بل يركن إليه فإن هذا محبط للإيمان.

أما لو ورد الشك على القلب وطلبه وجاهد نفسه على دفعه فهذا لا يضره شيئا: ولهذا أخبر النبي ﷺ: أن الناس يتساءلون من خلق كذا من خلق كذا حتى يقولوا من خلق الله -وهذا شك- لكن الرسول أخبر، قال: «فَإِذَا بَلَغَ أَحَدُكُمْ ذَلِكَ» - أو كلمة نحوها - «فَلْيَسْتَعِذْ بِالله وَلْيَنْتَهِ»(١)، وأخبره الصحابة أنهم يجدون في نفوسهم ما يحبون أن يكون حممًا - أي فحمة محترقة - ولا ينطقون به، فقال ﷺ: «ذَاكَ صَرِيْحُ الْإِيمَانِ»(٢).

فالحاصل، أن الشك الوارد على القلب إذا اطمئن به الإنسان وركن إليه فليعلم أنه ليس بمؤمن؛ لأن الإيمان ينافيه شيئان الشك والإنكار، وأما إذا ورد على القلب وطارده وجاهد نفسه على تركه، ففي هذه الحال لا يضره، بل هذا صريح الإيمان وخالص الإيمان، وذلك أن الشيطان لا يورد مثل هذه الأمور على قلب ميت. فالقلب ميت مستريح منه، ولكن يوردها على قلب حي ليميته. ولما ذكر اليهود لابن عباس، أنهم كانوا لا يوسوسون في صلاتهم، يريدون بهذا أن يفتخروا على المسلمين، قال: صدقوا وما يصنع الشيطان بقلب خرب، كلمة عظيمة، يعني يقول إن قلوبهم خربة، والشيطان ماذا يصنع في قلب خرب. أيأتي إليه ليخربه؟

الجواب: لا، إنما يأتي الشيطان بهذه الوساوس إلى قلب حي ليهلكه أو ليمرضه.

ثم قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (٢١٤/ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) **صحيح:** أخرجه مسلم (٢٠٩/ ١٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه جملة شرطية أداة الشرط فيها ﴿مَّنْ﴾ وفعل الشرط ﴿عَمِلَ﴾ وجواب الشرط ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾. واقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية، التقدير: فعمله لنفسه، وقدرها المفسر بقوله: [﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ عمل]، ولكن إذا قدَّرنا جملة اسمية فلا حرج. ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ﴿صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف. والتقدير: عملًا صالحًا، والعمل الصالح: ما اجتمع فيه أمران:

الأول: الإخلاص فيه لله عز وجل، والثاني: المتابعة لشريعة الله، لا نقول المتابعة لمحمد ﷺ؛ لأننا نتكلم عن العمل الصالح في هذه الأمة وفي غير هذه الامة، فنقول الإخلاص لله والمتابعة لشريعة الله، ليشمل ما كان في أمة محمد ﷺ وما كان في أمم سابقة، فإذا فقد الإخلاص فليس بصالح؛ لأنه شرك مردود على صاحبه، قال الله في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١) ومن أخلص على غير شريعة الله، فعمله بدعة مردود، لقول النبي ﷺ «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وفي رواية «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٣)، إذنْ العمل الصالح ما اجتمع فيه شرطان: الإخلاص والمتابعة.

قال: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: المصلحة لنفسه، فإن ذلك لا ينفع الله شيئًا، ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي. «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا»(٤) لماذا؟ لأن الله لا ينتفع بطاعة الطائعين ولا يتضرر بمعصية العاصين، العمل لنفسك، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [أي فضرره إساءته على نفسه]، ولو قلنا: إن التقدير فإساءته عليها لكفت، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ أي: عمل عملًا ليس صالحًا، الذي يدل على أن المقصود بالإساءة هنا العمل الغير صالح، لأنه قوبل بما سبق بمن عمل عملًا صالحًا، وهذا أحد الطرق التي يعرف بها تفسير القرآن الكريم بل وغيره من الكلام، إذا ذكر الشيء ثم ذكر ما بعده على وجه المقابلة، ففسر ما بعده على ضد ما قبله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ لو أنك تأملت ما معنى ثباتًا، هل معناها انفروا ثابتين على الجهاد؟ لا يفسرها ما بعدها، أو انفروا جميعا فيكون معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي أفرادًا، أو انفروا جميعا، ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ والإساءة إما أن تكون كالإشراك بالله كالرياء مثلًا، وإما بالبدعة كبدع الصوفية وغيرهم من أصحاب

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥/ ٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الطرق الذين هم مخلصون لله ويودون التقرب إلى الله ولكن بغير ما شرع الله، فكانوا ضالين كالنصارى تمامًا.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [أي: بذي ظلم]. والخطاب للرسول ﷺ، ﴿وَمَا﴾ هنا حجازية، وكل (ما) في القرآن فهي حجازية، لأنها بلغة قريش، وعلى هذا فمتى أتت (ما) فهي حجازية، قال الله تعالى: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾، ولو كانت تميمية لقال ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ إذنْ كلما أتت (ما) التي تكون دائرة بين التميمية والحجازية، فاجعلها حجازية، فهنا نقول: (ما) حجازية، و(رب) اسمها و(ظلام) خبر، ولكنه جر بحرف الباء الزائد، وقوله ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ وهذا خطاب يدل عليه سياق الآية أنه خاص بالرسول ﷺ، ولكن ليعلم أن الخطاب إذا وجه لرسول ﷺ فإنه لا يعني أن الحكم خاص به بل هو له وللأمة؛ ولهذا نقول: إن الخطاب الموجه للرسول ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أولًا: ما دل الدليل على أنه خاص به، كقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وهذا خاص بالرسول.

ثانيًا: ما دل الدليل على أنه عام، كقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ وهذا خطاب للرسول ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وهذا عام لأنه قال: ﴿يا أيها النبي، إذا طلقتم﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، فأول الآية خاص والثاني عام.

ثالثًا: ما لا دليل فيه على هذا ولا على هذا، فهو خاص بالرسول ولكن نحن لنا فيه أسوة.

وقيل إنه للأمة لكنه خوطب به الرسول لأنه قائدها ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ قال المؤلف: [أي: بذي ظلم]، إشارة منه رحمه الله إلى أن (ظلام) صيغة نسبة وليست صيغة مبالغة، (ظلام) فسرها المؤلف بأنه صيغة نسبة وليست صيغة مبالغة؛ لأن (فَعَّال) تأتي بالنسبة كنجار وحداد وخشاب وما أشبه ذلك. وتأتي للمبالغة، فهنا (ظلام) يتعيَّن أن تكون للنسبة، لأنك لو جعلتها للمبالغة لكان المنفي المبالغة في الظلم دون أصل الظلم، والمعلوم أن الله تعالى منفي عنه الظلم أصله والمبالغة فيه. إذًا يتعين أن نقول: إن (ظلام) صيغة نسبة، وليست صيغة مبالغة ولهذا فسرها بقوله: [أي بذي ظلم]، واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، لا يظلم مثقال ذرة ومن انتفى عنه الظلم في مثقال ذرة، لا يمكن أن يكون لديه ظلم أكثر ولا بمثقال ذرة ولا بدون مثقال ذرة، فإن قال قائل: إن الله لا يظلم مثقال ذرة مفهومها أن ما دونها يمكن، قلنا: لا، لأن مثقال ذرة جيء به على سبيل المبالغة، وما كان قيدًا

للمبالغة فإنه لا مفهوم له، أرأيتم قول الرسول ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»(١) فهل نقول إن من اقتطع نصف شبر لا يعاقب عليه، لا ولكنه أي الرسول ﷺ ذكره على سبيل المبالغة. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [أي: بذي ظلم] وقوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ كونًا وليس شرعًا، يعني: لن يظلم حتى الكافر، فإن قال قائل: إن الله تعالى – وحاشاه- يظلم الكافر. الكافر متع في الدنيا ـ ولتقل ألف سنة ـ على كفره فسيخلد في النار إلى الأبد. مع أنه لم يكفر إلا ألف سنة فالعقوبة زائدة على العمل وهذا ظلم. فلو قال قائل هذا قلنا: كلا، والله إن الله تعالى أعذر إلى هذا الرجل ببعث الرسل وإنزال الكتب وأعطاه عقلًا، وقال إن فعلت كذا أدبتك أبد الآبدين، فأقدم باختياره، وهل إذا ما فعل ما يوجب هذه العقوبة باختياره، ثم عوقب بها هل يقال إنه مظلوم؟ أبدًا لا يقال: إنه مظلوم، هذا لو كان جاهلًا بالعقوبة لقلنا: نعم، واجب ألا يعاقب إلا بمقدار ذنبه كمًا وكيفًا، لكن نقول هذا الرجل قد علم وأعذر إليه بإرسال الرسل وبيان ما يعذب به، ومع ذلك أصر كأنه يقول: أنا لا أبالي ولو عذبت أبد الآبدين، وحينئذ يكون هو الذي جنى على نفسه وفعل ما يوجب هذا العذاب المؤبد.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** الحث على العمل الصالح؛ لقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنك متى علمت أن عملك لنفسك فسوف تجتهد في هذا، إذنْ ففيه الحث على العمل الصالح.

٢- **ومن فوائدها:** أن كل عمل لا إخلاص فيه فهو ضرر على صاحبه وليس له، لأننا فسرنا العمل الصالح بأنه ما جمع بين شرطي الإخلاص والمتابعة.

٣- **ومن فوائدها:** أن من عمل عملا بدعيًا فعمله عليه لا له؛ لأنه لا يدخل في العمل الصالح. إخواننا كثيرٌ ممن يعملون بهذه البدع تجدهم يبكون ويخشعون وتلين قلوبهم ولهم من البكاء ما لا يكون عند المخلصين المتبعين، فماذا نقول؟

نقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ فلا يخدعنَّك هذا الشيء الذي يقع منهم؛ لأن هذا من إغواء وغرور الشيطان لهم.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا يمكن أن يصل ثواب العمل الصالح إلى الغير، لقوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وبهذا أخذ أكثر العلماء وقالوا: إن الميت لا ينتفع إلا بعمل ولده فقط، أما غيره فلا، يعني: لو أنك

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.

اعتمرت لصديقٍ لك ميتٍ أو حيٍ لا يستطيع العمرة فإن ذلك لا ينفعه، وذلك لأن من عمل صالحًا فلنفسه لا يتعدى غيره، وما جاءت به السنة من صيام المرأة نذر شهر على أمها، أو حجها عن أبيها الذي لا يستطيع ركوب الراحلة، فهذا إنما وقع من الولد، وقد قال النبي ﷺ «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»(١) فالعمل من كسْب الأب والأم وهو جزء من أبيه. كما قال النبي ﷺ « فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي»(٢) قال ذلك على المنبر، وأشار النبي ﷺ في هذا الحديث أشار إلى التنديد بعلي بن أبي طالب، وأثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، وقال: «حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي وَوَعَدَنِي فَوَفَانِي»، وانتقد عليًا لأنه أراد أن يتزوج بنت أبي جهل، فقام الرسول ﷺ وخطب الناس، وقال: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يَرِيبُهَا مَا رَابَنِي» وتكلم بكلام غليظ، لكن الامر عدل عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما رأى النبي ﷺ متأثرًا هذا التأثر، وأنه لا يمكن أن يجمع بين بنت نبي الله وبنت عدو الله، لأن هذا يكون متحدث الناس. وعلى كل نقول: إن بعض أهل العلم أخذ بما يفيده ظاهر هذه الآية وقال: لا ينفع العمل - لأي إنسان نويته - إلا من الولد، ولكن كثيرًا من العلماء قال: بل إن الذي ينتفع به الميت من ولده لا مانع أن ينتفع به من غيره. وربما يستدل بذلك بحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول: لبيك عن شبرمة، قال: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قال: أخ أو قريب لي، وهو محرم عنه(٣)، فقالوا: هذا يدل على أنه يجوز للإنسان أن ينوب عن غيره، فيقال هذه نيابة عن الغير والحج أيضًا يسلم له، ولكن الذي يظهر لي أنه لا فرق بين الولد وغيره وبين حج وغيره، لكن الذي ننتقده إسراف الناس الآن في الأعمال للأموات، تجده يقرأ القرآن في رمضان عدة مرات، ويقول المرة الأولى لأمي والثاني لأبي والثالث لجدتي والرابع لجدي والخامس لأخي والسادس لأختي والسابع لعمي والثامن لعمتي وينتهي رمضان وليس له ثواب وهذا غلط فهذا إفراط، فالأفضل: أن يلزم هدي السلف الصالح، كذلك أيضًا يسرف ويخالف السنة في إسرافه، تجده يذهب يعتمر أول عمرة له وفي نفس الوقت وهو بمكة ثاني عمرة لأمه وثالث عمرة لأبيه، كل يوم عمرة، وإذا قدرنا أنه بقي عشرة أيام

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٣٥٨) من حديث عائشة رضي الله عنها وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري بنحوه (٣٧١٤) ومسلم (٩٤/ ٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١٨١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

وله عشرة أقارب، اعتمر عشر عمرات، فهذا خطأ؛ لأنه ليس من هدي السلف، والشرع ليس حسب الذوق وميل النفس أو الهوى، الشرع محدد، هل ورد عن السلف أنهم كانوا يكررون العمرة؟ لا، لا لأنفسهم ولا لغيرهم، فأصل تكرار العمرة في سفر واحد، أصل غير مشروع. ولهذا قال عطاء بن أبي رباح وهو عالم مكة في زمنه: لا أدري هؤلاء الذين يخرجون إلى التنعيم أيأثمون أم يسلمون، يعني معناه أنهم ليس لهم أجر لأن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابة، فلذلك يجب عليكم - أنتم طلبة العلم - أن تبينوا للناس حتى ولو انتقدوكم، دائمًا نحذر من ذلك في الحرم، ونقول هذا خطأ وليس بمشروع، ثم يذهبون إلى الناس ويقولون ليس فيه شيء أن تعتمر أول يوم لك وثاني يوم لأمك وثالث يوم لأبيك ليس فيه شيء، من قال بأن تفعل عمرتين في اليوم وعمرتين في الليلة، لكن المشكلة أن بعض العلماء يتهاونون في هذه الأمور ولا يريحون عباد الله، تجده في أيام مواسم الحج يتكلف كلفًا عظيمًا في الزِّحام والمشقة ومع ذلك يصرُّ على أن يأتي بعمرة لأبيه ولأمه، مع أن هذا ليس من هدي السلف ويضيق الناس بعضهم على بعض - فنسأل الله الهداية.

على كل حال قوله ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ استدل بها بعض العلماء على أن العمل الصالح لا يتعدى الغير لا يتعدى فاعله، ونحن نقول ما جاءت به السنة فهو مخصص لهذا، والسنة تفسر القرآن وتبينه، ثم هل يقاس عليه؟ الجواب: هذا محل نظر وعندي أنه لا بأس بأن نقيس عليه لأن الذي ورد إنما هو قضايا أعيان، فإذا كان قضايا أعيان ربما نقول ونقيس على هذه العين ما شابهها، لكن الذين ينكر الإسراف والإفراط.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه من أساء فعلى نفسه أساء، لا يضر الله شيئًا، ولكن لو قال قائل: أليس النبي ﷺ أخبر بأنه: «من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»(١).

إذنْ هذا الإنسان صارت إساءة غيره عليه، والله يقول: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي على نفسه فقط، فيقال: إن كونه سن هذه السيئة هو عمله الذي تبعه الناس عليه ولولا أنه فعل ما فعله الناس والناس إنما فعلوا اتباع له، فيكون هذا في الحقيقة من فعله لأنه هو الذي سن هذه السنة السيئة، ولهذا ما من إنسان يقتل نفسًا عمدًا بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، من الذي قتل أول ابن آدم هو قابيل قتل هابيل؟ قتله حسدًا بدون إساءة إليه، قرب قربان فتقبل الله

---

(١) صحيح: تقدم تريجه.

من هابيل ولم يتقبل من قابيل، فقال له لأقتلنك لأنه قبل من هابيل ولم يقبل منه، فأرشده صاحبه، إلى ما يكون به القبول. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ومعنى الآية: حثه على أن يتقي وليس المعنى أنه يمدح نفسه بأنه كان متقيًا فقبل منه، وإنما يحث على التقوى، كأنه يقول اتق الله يتقبل منك، ثم قال له: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولعل هذا لم يكن مشروعًا في عهدهم أن يدافع الإنسان عن نفسه. لأن في شريعتنا من أراد قتلك يجب عليك أن تدافعه، حتى لو قتلته فهو في النار ولو قتلك فأنت شهيد. لكن لعله في عهدهم لم يكن هذا مشروعًا وهو من الآصار التي كتبها الله على من قبلنا، ونجّانا الله منها.

على كل حال نقول: من سن سنة سيئة فسنه من عمله فيكون وزر من عمل بها عليه لأنه هو الذي سنها.

٦- **ومنها:** انتفاء الظلم عن الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وهذه من صفات النفي، وصفات الله تعالى نوعان: صفات إثبات، وصفات نفي، فصفات الإثبات كثيرة جدًا، وصفات النفي أقل، ولكن مع ذلك صفات النفي هي في الحقيقة صفات إثبات لأن المراد بالنفي إثبات ضد ذلك. فمثلًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ المراد إثبات كمال عدله، وأن عدله لا ظلم فيه بوجه من الوجوه.

وهنا قاعدة عريضة: لا يوجد النفي المحض في صفات الله أبدًا، فإن كل نفي في صفات الله فهو إثبات لضده. فكأنه يقول عز وجل هو أعدل الحاكمين ولا ظلم في حكمه إطلاقا، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذا من صفات النفي، لكن لإثبات كمال علمه، ولأنه لكمال علمه لا يرد عليه النسيان إطلاقًا، علمنا نحن يرد عليه النسيان، وهو أيضًا حاصل بعد جهل سابق، والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، فعلمنا في الواقع معيب من وجوه، الوجه الأول: أنه مسبوق بجهل.

والوجه الثاني: أنه ملحوق بنسيان.

والوجه الثالث: أنه ليس شاملًا عامًّا.

على كل حال نقول: هذا النفي في صفات الله، لا يراد به النفي المحض، بل هو إثباتٌ في الواقع. إذ إن المراد به إثبات كمال ضده.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات العدل في أعلى مقاماته، حيث قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾، أي لعبيده، وهذا أبلغ لو قلت لك: (أنت لا تظلم عبيدك)، فهو أبلغ من أن لو قلت أنت لا تظلم الناس لماذا؟

فعدم ظلمك الناس؛ لأنك لا سيطرة لك عليهم، لكن لو قلت لا تظلم عبيدك، كان هذا أبلغ في إثبات العدل، إذا كنت لا تظلم من كان لك سلطة عليه، فعدم ظلمك لمن لا سلطة لك عليه من باب أولى، إذنْ فقابل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ بقول القائل: فلان لا يظلم الناس. فالأول أبلغ؛ لأنه إذا كان لا يظلم عبيده مع إنهم عبيده يفعل بهم ما يشاء لئلا يظلم غيرهم ولكن هذا على سبيل الفرض، وإلا فكل من في السماوات والأرض آتي الرحمن عبدًا.

٨- **ومن فوائدها:** الرد على الجبرية، يقول الجبرية: إن الظلم في حق الله محال وانتفاء المحال ليس مدحًا. أقول لكم الآن انتفاء المحال ليس مدحًا؛ لأن المحال لا يمكن وجوده لذاته، ولو أراده الإنسان لم يوجد لأنه محال، لكن انتفاء الممكن إذا كان الانتفاء مدحًا، فهو مدح، هنا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ﴾ هل تفيد الآية أن الظلم في حقه ممكن؟ نعم تفيد أنه ممكن، لكن لكمال عدله، لا يمكن، فالظلم ليس محال لذاته في حق الله، بل هو محال لكمال عدل الله، وبهذا يتحقق المدح، مدح الله تعالى بانتفاء الظلم عنه، أما إذا كان الشيء محالًا فالمحال لا يمدح به.

مسألة: هل من فكَّر في المعصية ولم يهم بها عليه شيء؟

الجواب: هذا لا شيء عليه، ولكن من أراد المعصية ولم يفعلها، له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يعجز عنها ويفعل الأسباب التي يريد الوصول بها إليها ولكن يعجز.

فرجل سارق همَّ بالسرقة ووضع السلم على الجدار ليصعد منه، وبينما هو في أثناء الصعود إذا برجل يمر من الشارع فنزل وهرب هذا يكتب له عمل السيئة، كأنه عملها تمامًا، مع أنه لم يعملها، نقول: لأنه أرادها وعمل لها، لكن عجز والدليل لذلك قول النبي: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ»[1].

إذنْ من همَّ بالسيئة وعمل لها عملها لكن عجز عن اتمامها كتب له وزرها كاملة، الثانية: من هم بها وتمناها لكنه عجز عنها بدون أن يعمل عملها. فهذا عليه وزر النية، والدليل على هذا: أن النبي ﷺ أخبر عن رجل أتاه الله المال فجعل يتخبط فيه، فقال الفقير: لو أن لي مثل مال فلان لعملت به مثل عمل فلان، قال: فهو بنيته وهما في الوزر سواء[2]، الوزر الإرادي، لأن هذا لم

---

(١) **متفق عليه:** أخرجه البخاري (٣١) ومسلم (١٤/ ٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة الثقفي رضي الله عنه.

(٢) **صحيح:** أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

يعمل، الثالثة: أن يكون همَّ بالسيئة وعزم عليها ولكن تذكر خشية الله فتركها خوفًا من الله، فهذا يكتب له حسنة كاملة.

وهناك قسم رابع: وهو من لم تطرأ عليه المعصية فهذا لا يكتب له ولا عليه، كإنسان مستقيم ولا يطرأ على باله السرقة ولا الزنا ولا الخمر هذا ليس له ولا عليه لكن غير داخل في تقسيم الإرادة، يعني: من أراد السوء.

مسألة: حول هبة العمل للغير؟

الجواب: هناك صيغتان لمن أراد أن يعمل لغيره. الصيغة الأولى: أن ينوي النية للغير من ابتداء العمل، من الأصل من حين أن أراد أن يكبر نوى أن تكون لأبيه أو لأمه، فهذا يصح ولا إشكال فيه، لأنه كالذي يحج ناويًا الحج عن أبيه وأمه من الأصل، الثانية: أن يعمل العمل ثم بعد الفراغ منه ينويه لأبيه أو لأمه، هذه اختلف فيها العلماء، حتى الذين يقولون بجواز إهداء القرب اختلفوا هل يصح هذا أم لا؟

ووجه الفرق بين هذه والتي قبلها، أن التي قبلها ابتدأ النية من أول الفعل فهو يفعل ويتحرك ويتكلم يشعر به عن الغير، أما هذا فقد صلى وانتهى من صلاته على أنها له، فثبت الأجر له، وإذا ثبت الأجر له فليس من حقه أن يتصرف في الثواب، هو يتصرف في العمل، أما الثواب فلا، يعني يقول هؤلاء: إنه إذا أهدى العمل بعد فعله لا يصل إلى المهدى إليه، لماذا؟ لأن العمل ثبت لنفسه وانتهى العمل والنية لنفسه، وإذا أهداه لغيره فقد تصرف في الثواب، والتصرف في الثواب ليس إليه، وإنما هو لله عز وجل، وليس هذا أمرًا ماليًا، تقول والله أعطي فلان مائة درهم هذا ثواب عند الله عز وجل وكتب لك وانتهى الأمر، وهذا التفريق تفريق جيد وله معنى لطيف.



❁ قال الله تعالى:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٧، ٤٨]

التفسير

قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إليه أي إلى الله وحده، وإنما قلنا وحده لتقديم المعمول، وتقديم المعمول يفيد الحصر، وذلك لأن المعمول مكانه أن يكون بعد العامل، فإذا تقدم فإنه يكون من باب تقديم ما حقه التأخير، والقاعدة اللغوية البلاغية: أن تقديم ما حقه التاخير يفيد الحصر، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ﴾ فيكون المعنى إليه لا إلى غيره. وأخذنا هذا النفي من تقديم المعمول لأن المعمول حقه أن يكون بعد العامل، فإذا قدم كان هذا من باب تقديم ما حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، هذه قاعدة لغوية بلاغية، ﴿يُرَدُّ﴾ أي يرجع ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ قال المفسر: [متى تكون] ثم قال: [لا يعلمها غيره]، أخذ هذا الحصر (لا يعلمها غيره) من تقديم المعمول وهو (إليه). وهذا لا شك فيه أنه لا يعلم متى تكون الساعة إلا الله سبحانه وتعالى: ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ يعني ما علمها إلا عند ربي ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ وقال النبي ﷺ وقد سأله جبريل: «أَخْبِرْنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»(١)، يعني: لا علم عندي كما أنك أنت ليس عندك علم، وعلى هذا فمن ادعى علم الساعة فهو كاذب لا شك فيه، ثم هو كافر أيضًا؛ لأنه مكذب للقرآن والسنة، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ قوله ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ قد يتراءى للإنسان أن (ما) اسم موصول، يعني ويرد إليه علم ما تخرج من ثمرات من أكمامها لكن هذا وهم، وعلى هذا فنقول: (ما) نافية، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ [وفي قراءة ﴿ثَمَرَتٍ﴾] المؤلف فسر على قراءة ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ مفردة، والقراءة التي بين أيدينا في المصحف ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ واعلم أن للمؤلف رحمه الله اصطلاحًا، وهو أنه إذا قال: في قراءة فهي سبعية، وإذا قال: وقرئ فهي قراءة شاذة ليست من السبع، هذا اصطلاح الجلالين رحمهما الله، في قراءة ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ القراءة هذه سبعية يعني أنها ثابتة تجوز القراءة بها في الصلاة، وتكون الحجة بها في الأحكام الشرعية، وفي الأخبار العلمية، وعلى صيغة الجمع: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ كل الثمرات، وأما على صيغة الإفراد ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ فهي أيضًا تفيد العموم، لأن ثمرة نكرة في سياق النفي مؤكدة بـ(من) الزائدة فتشمل جميع الثمرات، وعلى هذا فليس خلاف في المعنى بين

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ثمرة وثمرات.

وقوله: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [أوعيتها]، الأكمام: [أوعيتها، يقول جمع كم، بكسر كاف إلا بعلمه]، الأكمام: هي أوعية الطلع. هذا معروف في النخل، وكذلك معروف في الأزهار، تجد الزهرة عليها غلاف يسمى هذا كِمْ، فما تخرج من ثمرة من كمها إلا بعلم الله عز وجل، أي ثمرة تكون صغيرة أو كبيرة مأكولة أو غير مأكولة، فهي بعلم الله عز وجل، ووجه كونها (بعلمه) أن هذه الثمرات مخلوقة لله، وكل مخلوق لله فهو معلوم له، لقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فأنت متى أقررت أن الله خالق هذه، لزم من إقرارك أن كون الله عالم بها، لأنه لا يمكن أن يخلقها وهو لا يعلم، ولهذا استدل الله لذلك بدليل عقلي، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ ما تحمل من أنثى أيَّ أنثى من بني آدم أو من الحيوان، أي أنثى ما تحمل ولا تضع إلا بعلم، فابتداء الحمل معلوم عند الله ووضعه كذلك معلوم عند الله تبارك وتعالى:

أما إعراب (من ثمرة) (ومن أنثى): من حرف جر زائد، زائد من حيث الإعراب، وليس زائدًا من حيث المعنى لأنه يفيد معنى وهو التوكيد، وعلى هذا فنقول من ثمرة: من حرف جر زائد، وثمرة: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها حركة المحل لحرف الجر الزائد، وكذلك يقال: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾: من حرف جر زائد، وأنثى: فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها التعذر وهو في محل جر لفظا بدخول ﴿مِنْ﴾ عليها.

﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ هل هو العلم السابق أو الحادث عند وجود هذا الشيء؟ السابق؛ لأن علم الله تعالى محيط بكل شيء أزلًا وأبدًا، فهو يعلم ما تخرج من ثمرات من أكمامها إلى يوم القيامة، وكذلك ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، يعني: (يوم) ظرف والظرف يحتاج إلى ما يتعلق به، لأنه مفعول فيه وإذا كان مفعولًا فيه فلا بد من فعل يكون عاملًا فيه، والعامل في هذا مقدر والتقدير: (واذكر يوم يناديهم). ومثل هذا التعبير موجود في القرآن كثيرًا، والتقدير: (اذكر يوم يناديهم)، ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، وإنما أمر الله نبيه بذكره تخويفًا لهؤلاء المكذبين وتسلية لرسول الله ﷺ، وقوله: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ أي: يدعوهم بصوت رفيع، لأن النداء يكون بصوت رفيع، والمناجاة تكون بصوت أدنى، وفاعل يناديهم هو (الله)، بدليل قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يعني أن الله تعالى ينادي هؤلاء المشركين يقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ وهذا الاستفهام للتعجيز والتوبيخ جامع بين المعنيين: التعجيز والتوبيخ، يعني أين الذين أشركتم معي. يقول الله

عز وجل: ﴿ءَاذَنَّكَ﴾ [أعلمناك الآن] ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ آذن: بمعنى أعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: إعلام من الله ورسوله، فآذن بمعى أعلم، وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال للنساء اللاتي يغسلْن ابنته: «إِذَا فَرَغْتُنَّ فَآذِنَّنِي»[(1)] أي: أعلمنني، آذناك: يقول المؤلف: [أعلمناك الآن]، فأفاد المؤلف بقوله: (الآن) أن الفعل الماضي بمعنى المضارع. فهو إذنْ جملة خبرية حالية بمعنى: الآن نعلمك ما علمنا من شهيد، وقيل: آذناك إنها فعل ماضٍ على بابها، فهي بمعنى الخبر عن شيء ماضٍ.

فعندنا قولان، هل الإعلام هنا يوم القيامة، كما قال المؤلف، آذناك الآن، أم هو إعلان سابق في الدنيا؟ إن نظرنا إلى ظاهر اللفظ قلنا نرجح أنه إعلام في الدنيا، يعني أعلمناك في الدنيا فيكون على ظاهره، لكن يشكل على هذا التفسير، أن واقع حالهم لا يدل على هذا، لأنهم مشركون فعلًا، فكيف يؤذنونه أنها ما منهم من شهيد بذلك. أجاب القائلون بهذا: أن المعنى آذناك بحسب الفطرة، وما في قلوبنا، لأن ما من مولود يولد إلا وهو على الفطرة، آذناك صيغتها فعل ماضٍ يقتضي أن يكون هذا الإعلام سابقًا عن وقت الخطاب، هذه واحدة، آذناك فعل ماضٍ لكن يراد به الخبر عن الحال الحاضرة، فهو بمعنى نحن نعلمك الآن، هذا التفسير مخالف لظاهر اللفظ لكنه موافق لواقع حالهم، التفسير الأول موافق للفظ ولكنه مخالف لظاهر حالهم، لأنهم لا يعلمونهم بذلك؛ إذ انهم مشركون فعلًا، أجاب هؤلاء الذين يقولون: آذناك في الدنيا بأنهم أعلموه بحسب الفطرة التي فطروا عليها؛ لأنه ما من مولود يولد إلا على الفطرة ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، [أي شاهد بأن لك شريكًا]، ما نافية و﴿مِن شَهِيدٍ﴾ جار ومجرور خبر مقدم، و﴿مِن﴾ حرف جر زائدًا إعرابًا، و﴿شَهِيدٌ﴾ مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

يعني أننا قد أقررنا بأنه لا أحد منا يشهد بأن لك شريكًا، وهم يقولون هذا الآن ولكنهم لا ينفعهم، لأنه إقرار بعد معاينة العذاب، والإقرار بعد معاينة العذاب ليس بنافع، ولهذا أقر فرعون حين أغرق ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولكنه لم ينفعه فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي غاب عنهم ما كانوا يدعون من قبل، ﴿مَّا كَانُواْ﴾ ﴿مَّا﴾ اسم

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (١٢٥٣) ومسلم (٣٦/ ٩٣٩) من حديث أم عطية رضي الله عنها.

موصول فاعل بمعنى الذي، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ قال المؤلف: [ما كانوا يعبدون من قبل في الدنيا من الأصنام]، أصنامهم التي كانوا يتعلقون بها ويعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، في ذلك اليوم الذي هم أشد ما يكونون حاجة لها، تغيب عنهم، ولا تنفعهم، ولهذا قال ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي ضاع وغاب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ أي يعبدون من قبل. ويريد بذلك الأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا، مثلًا النصارى يعبدون عيسى بن مريم، قريش تعبد اللَّات وهبل والعزَّى ومناة، منهم مَنْ يعبد القمر والشمس، هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله هل تنفعهم يوم القيامة؟ لا، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ وربما نفهم من قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أنهم ذهبوا يطلبونها يبحثون عنها ولكنها ضلَّت وضاعت، ويكون هذا أشد حسرة في نفوسهم، أنهم طلبوها في وقت الحاجة ولكن لم يجدوها، ﴿وَظَنُّوا۟﴾ قال: [أيقنوا] ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ظن هنا بمعنى أيقن، وهل يأتي الظن بمعنى اليقين؟ الجواب: نعم، يأتي كثيرًا. قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ إذنْ ظنوا بمعنى أيقنوا، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ معنى يظنون: أي يوقنون أنهم ملاقوا ربهم، ولو كان الظن بمعنى الشيء الراجح، لم يكونوا مؤمنين، ولكن يظنون بمعنى يوقنون، إذنْ الظن في اللغة العربية يأتي بمعنى اليقين، هنا ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أيقنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ فيها تقديم وتأخير وتوكيد، التقديم والتأخير أنه قدم فيها الخبر وأخر فيها المبتدأ، الخبر ﴿لَهُم﴾ والمبتدأ ﴿مَّحِيصٍ﴾، والتوكيد ﴿مِّن﴾ الزائدة؛ لأن ﴿مَّحِيصٍ﴾ مبتدأ مؤخر، ودخلت عليه من الزائدة للتوكيد، وإعرابه: أنه مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخرها منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

وقوله: ﴿مَّحِيصٍ﴾ [مهرب من العذاب]، يعني أيقنوا أنهم لا مهرب لهم من العذاب ولا مفر لهم منه وأنه واقع بهم لا محالة، ثم قال المؤلف: [والنفي في الموضعين معلَّق عن العمل، وجملة النفي سدت مسد المفعولين].

النفي في الموضعين: قالوا ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هذه ﴿مَا﴾ نافية معلِّقة عن العمل؛ لأن آذناك: أعلمناك، وهي تنصب ثلاثة مفاعيل، أعلم تنصب ثلاثة مفاعيل. تقول مثلا: (أعلمت زيدًا عمرًا قائمًا). هنا نصبت زيدًا وعمرًا وقائمًا.

والمفعول الأول موجود وهو الكاف. والمفعول الثاني والثالث: معلق أغنت عنه جملة الاستفهام، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾، وعلى هذا فتكون جملة ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ تكون في موضع

نصب سدت مسد مفعولي (آذن)، أقول الثاني والثالث.

وقوله: ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، ﴿وَظَنُّواْ﴾ تنصب مفعولين، هنا ليس فيه مفعولان، و(إنما) علِّقت عن العمل بجملة النفي بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ وعلى هذا فيكون ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ جملة في محل نصب سدت مسد مفعولي (ظن). وهذا الإعراب لا يدركه إلا من كان عنده علم بالمفاعيل.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن علم الساعة عند الله وحده، ويؤخذ من قوله: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ﴾ وذلك بتقديم ما حقه التأخير وهو المعمول وهذا يفيد الحصر.

٢- **ومن فوائدها:** أن من ادعى علم الساعة فهو كافر، وجه ذلك أنه مكذب لله ورسوله وتكذيب الله ورسوله رِدَّة، والردة لا تخرج عن هذين الأمرين: إما التكذيب وإما الاستكبار ومن صدقه فهو كافر أيضًا؛ لأنه صدق بما هو تكذيب للقرآن الكريم، ومن صدَّق بما هو تكذيب للقرآن الكريم فإنه كافر بلا شك.

٣- **ومن فوائدها:** عموم علم الله عز وجل؛ لقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ ....﴾

٤- **ومنها:** توبيخ الكفار يوم القيامة، لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، والتوبيخ بهذا المكان من أعظم ما يكون التوبيخ؛ لأنه اليوم المشهود الذي يشهده الله وملائكته وجميع خلقه.

٥- **ومن فوائدها:** إقرار هؤلاء المكذِّبين بالبعث في ذلك اليوم أنه لا شريك لله عز وجل؛ لقوله: ﴿ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما يعبد من دون الله فإنه هلاك وضلال ولن يجدي شيئًا عن عابديه، لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ﴾.

٢- ومنها أيضًا: أن هؤلاء المكذبين يوقنوا في ذلك اليوم أنهم لا مفر لهم من عذاب الله لأنه ليس هناك أحد يدفع عذاب الله تعالى عنهم، فيوقنون بأنهم لا محيص لهم منه.



قال الله تعالى:

﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠]

التفسير

قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾

قوله: ﴿لَا يَسْـَٔمُ﴾ أي لا يمل، بل لا يزال يسأل، والإنسان هنا يحتمل أن يراد به الكافر، ويحتمل أن يراد به الجنس أي جنس الإنسان سواء كان مؤمنًا أو كافرًا ثم تنزل الأحوال على ما يليق بها.

وقوله: ﴿دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ (دعاء) مضاف، و(الخير) مضاف إليه، من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، والخير أيضًا مفعول لـ ﴿دُعَآءِ﴾، والمدعو هو الله عز وجل، فعندنا داع ومدعو ومدعو به أي مطلوب.

فالداعي الإنسان، والمدعو الله، والمدعو به الخير. قال المؤلف: [أي: لا يزال يسأل ربه المال والصحة وغيرهما] من البنين والزوجات والجاه والشرف وغير ذلك مما يدعوه الإنسان رغبة به.

وقوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ [الفقر والشدة]، وتخصيص الشر بالفقر والشدة، ليس على سبيل الحصر، بل هو على سبيل المثال، لأنه يشمل الفقر والشدة وفقد الأولاد وفقد الجاه والإيذاء من الخلق وأشياء كثيرة، فتخصيص المؤلف ذلك من الفقر والشدة، هذا من باب التمثيل، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، الفاء رابطة للجواب وهو ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو يئوس قنوط، قال المؤلف: [من رحمة الله تعالى] هل هناك فرق بين اليأس والقنوط؟

الجواب: نعم، اليأس زوال الرجاء بحيث ينقطع رجاء الإنسان، والقنوط أشد من اليأس، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ يكون هذا ابتداء، والقنوط نهايته.

قوله: ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾. ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثانٍ وتعدد الأخبار جائز واقع في اللغة العربية

وواقع في القرآن، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كل هذه أخبار متعددة وهي لا تصح أن يكون الثاني وصفًا للأول لأنها كلها تعود على موصوف واحد، وعليه فنقول: ﴿قَنُوطٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ المحذوف ولا يصح أن يكون نعتًا لـ(يئوس)؛ لأن (يئوس) نفسها نعت، قال المؤلف رحمه الله: [وهذا وما بعده في الكافرين] هذا المشار إليه اليأس والقنوط، وما بعده سيذكر في الكافرين، وإنما قال المؤلف ذلك؛ لأن المؤمن لا ييأس ولا يقنط. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، فلا يمكن للمؤمن أن ييأس، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكافرين، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾أي: [أتيناه]، ﴿وَلَئِنْ﴾ قال: [لام القسم] يعني اللام، و(إن) شرطية، ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ [أتيناه]، ﴿رَحْمَةً﴾ [غنى وصحة] ﴿مِّنَّا﴾ أي من الله عز وجل، ﴿ضَرَّآءَ﴾ [شدة وبلاء]، ﴿مَسَّتْهُ﴾أصابته، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: [بعملي]، انظر إلى حال هذا.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ في هذه الجملة حرف شرط، والشرط يحتاج إلى جواب للشرط، وفي سياق الآية لم نجد جوابًا للشرط، فجواب الشرط في هذه الآية محذوف، لأنه اجتمع قسم وشرط، وإذا اجتمع القسم والشرط حذف جواب المتأخِّر منهما، هنا اجتمع قسم في (اللام) والشرط (إن)، فالمتأخر الشرط ولذا يحذف جواب الشرط. ولهذا جاء جواب القسم في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، قال ابن مالك في «الألفية»:

وَاحْـذِفْ لَـدَى اجْـتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ ... جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَم

قوله تعالى: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ يعني: [أتيناه]. لكن عبر بالإذاقة عن الإيتاء، لأن من ذاق شيئًا فقد انتفع به، والإيتاء قد ينتفع به الإنسان وقد لا ينتفع، فإذا أعطيتك خبزًا قد تأكلها وقد لا تأكلها، لكن إذا ذقتها فقد أكلتها وانتفعت بها، ولهذا عبر عن الإتيان بالإذاقة، لأنه أبلغ في المماسة وفي الانتفاء. وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فسرها المؤلف بأنها [الغنى والصحة]، وهذا مثال وليس هو الحصر، بل تشمل الرحمة كل ما هو مطلوب للإنسان، من غنًى وصحة وجاه وأموال وبنين وغير ذلك. وقوله: ﴿مِّنَّا﴾ إشارة واضحة إلى أن هذه الرحمة ليست من كسبه، ولكنها فضل من الله عز وجل، فالغنى أتاه من حيث لا يحتسب، والصحة أتته من حيث لا يحتسب والبنون وغيرهم هي من عند الله، وواضح أنها من عند الله وليست من كسبه. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ رحمة من بعد ضراء، يعني معناه أنه قد تلقَّى الضرر ثم بعد ذلك أتته رحمة من الله، وهذا أبلغ في النعمة أن تأتي بعد الضرر؛ لأن النعمة الدائمة لا يحس بها لكن النعمة الطارئة بعد الضرر هي التي يحس بها

ولهذا من لم يذق مرارة المرض فإنه لا يتذوق حلاوة الصحة، حتى في الأمور الشرعية، قال عمر بن الخطاب: لا ينقض الإسلام إلا من لم يعرف الجاهلية، أو كلمة نحوها، يعني: الذي لا يعرف الكفر لا يعرف قدر الإيمان، كذلك أيضًا الرحمة إذا كانت مستديمة مستمرة لا يُحسُّ بها الإنسان ولكن إذا جاءت من بعد الضرر أحس بها وذاق لها طعمًا.

وأضرب مثالًا الآن في النفس: النفس نعمة كبيرة من أكبر النعم، والإنسان لا يحس بها مادامت النعمة مستمرة، لكن لو أصيب بكتم النفس وحجبه، ثم فرج عنه، لوجد لهذا النفس نعمة عظيمة وأثرًا عظيمة، كذلك المرض، فالإنسان الصحيح المستمر في صحته لا يعرف قدر الصحة، لكن إذا مرض ثم شفي تبين له قدر النعمة.

الرحمة التي ذكرها الله هنا رحمة من بعد الضراء، يكون لها أثر بالغ، أعظم مما لو كانت الرحمة مستمرة، إذا أذاقه الله عز وجل رحمة من عنده من بعد الضراء، ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ هذا جواب القسم يعني يقول: ﴿هَٰذَا لِي﴾، وهذا معناه أن هذا بعملي، فتكون (اللام) بمعنى (من) أي: هذا مني وليس من الله.

وقيل: (اللام) للاستحقاق، يعني أني مستحق له، فلا منة لله علي به لأني له أهل، فأنا حقيق به، والمؤلف مشى على القول الأول، وهو أن (اللام) بمعنى (من)، أي: ليقولن هذا مني وأنا الذي اكتسبته، وأنا الذي أتجرت وما أشبه ذلك.

القول الثاني يقول: هذا من الله ولكن لا منة له علي به، لأني مستحق له، والآية تحتمل هذا وهذا.

والقاعدة: أنه إذا كانت الآية تحتمل المعنيين لا ينافي أحدهما الآخر فإنها تحمل عليهما جميعًا إذا لم يوجد مرجِّح لأحدهما.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ يعني: يظن أنه مخلَّد، لما جاءته هذه الرحمة قال: [إذنْ لا بعث ولا جزاء]، ثم قال ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يعني على فرض أن تقوم الساعة وردي إلى الله فإن الذي أنعم علي في الدنيا سوف ينعمني في الآخرة، ولهذا قال ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [أي الجنة]، نقول في إعراب ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ ما قلناه في ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ لأنه اجتمع قسم وشرط، وتأخر الشرط فحذف جوابه وبقي جواب القسم في قوله ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ تجد هذا الرجل من غروره ـ والعياذ بالله ـ أنه أكد ذلك بالقسم وإن، والقسم في قوله: ﴿وَلَئِن﴾ و ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ لِي﴾ واللام في قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾، فهو أكد أنه

على فرض إن رجع إلى الله فسيجزيه الحسنى وهي الجنة كما قال المؤلف رحمه الله، وأخذ المؤلف رحمه الله هذا التفسير من تفسير النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ حيث قال: «إِنَّ الحُسْنَى الجَنَّةُ وَالزِّيَادَةُ هِيَ النَّظَرُ لِوَجْهِ اللهِ»(١).

إذنْ هذا الرجل مغرور في غاية الغرور؛ وذلك لأنه:

أولًا: أنه أضاف النعمة ـ التي حصلت له في الدنيا ـ إلى نفسه إما مباشرة وهو الذي حصلها بدون الله، وإما لأنه مستحق لها فلا فضل لله عليه فيها.

ثانيًا: أنه أنكر البعث، بقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

ثالثًا: أنه على فرض أن الساعة قائمة فسيجد عند الله ما هو أحسن، ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فلننبئن: أي نخبرن، والفاء عاطفة واللام مؤكدة للقسم المحذوف، والتقدير: فوالله لننبئن، إذنْ الجملة مؤكدة بثلاث مؤكدات، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾: المؤكد الأول: القسم، والثاني: اللام، والثالث: نون التوكيد في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾.

والضمير في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ يعود على الله عز وجل، وعاد إليه بصيغة الجمع من باب التعظيم وإلا فالله إله واحد، ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: نخبرهم بذلك يوم القيامة، وكيفية هذا أن الله سبحانه وتعالى يحصي أعمالهم يوم القيامة، فينادى عليهم على رءوس الأشهاد، لأنهم قد أخزاهم الله، ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يعني: بعد أن ننبئهم ويقرون بذلك ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ قال: [أي: شديد، واللام في الفعلين لام القسم]، أين الفعلان؟ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ و ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾

١ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان حالة الإنسان الكافر وهو كفره بنعمة الله عز وجل واعتزازه بنفسه في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ هذا يدل على كفره الشديد وإعجابه بنفسه واعتزازه بها.

٢ـ **ومن فوائدها:** أن الإنسان يحب الخير دائمًا لقوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾، وهذا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٧/ ١٨١) من حديث صهيب رضي الله عنه.

من طبيعة الإنسان أنه يحب الخير وهو ما يلائم نفسه ومرادها.

٣- **ومنها:** أن الإنسان الذي ليس عنده إيمان، إذا مسه الشر يئس وقنط من رحمة الله.

٤- **ومنها:** ذم أهل اليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل؛ لأن الله تعالى ساق هذا مساق الذم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

١- **ومن فوائدها:** أن الله تعالى يرحم الكافر؛ لقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً﴾ وبناء على هذا لو سألنا سائل هل الله يرحم الكافر؟ فالجواب نعم يرحمه والدليل هذه الآية، ولكن اعلم أن رحمة الله نوعان: رحمة خاصة ورحمة عامة، فما به قوام البدن فمن الرحمة العامة؛ لأنه يشمل الكافر والمؤمن والفاجر والحيوان، وما به قوام الدين فمن الرحمة الخاصة وهذا يختص بالمؤمنين، والفرق بينهما أن الرحمة العامة إنما هي غذاء البدن فقط، وتزول بزواله، والرحمة الخاصة غذاء الروح تبقى ببقاء الروح، والروح منذ خلقها الله لا تفنى. والأرواح من الأشياء التي خلقت للبقاء بخلاف الأجساد، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ لكن الروح لا تفنى كالولدان في الجنة والحور العين في الجنة، خلقت للبقاء.

٢- **ومن فوائدها:** بيان فضل الله عز وجل على الكافر لكون الرحمة التي أصابت الكافر من عند الله لقوله: ﴿مِنَّا﴾.

٣- **ومن فوائدها:** إعجاب الكافر بنفسه حيث يضيف هذه الرحمة التي هي من الله إلى نفسه، لقوله: ﴿هَذَا لِي﴾، أو يضيفها إلى استحقاقه إياها، فكأن الله لا منة له عليه - على القول الثاني - وأن معنى قوله: ﴿هَذَا لِي﴾ هذا مستحق لي.

٤- **ومن فوائدها:** بيان عتو الكافر حيث أنكر ما قامت الأدلة الشرعية والعقلية والحسية على ثبوته، في قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ﴾، الأدلة الشرعية على ثبوت الساعة كثيرة لا تحصى، الأدلة العقلية، هو أنه ليس من الحكمة أن يوجد الله هذه الخليقة ويأمرها وينهاها ويسلط بعضها على بعض بالسيف فيقاتل المؤمن الكافر، ثم تكون النهاية ولا شيء هذا سفه، وقد أشار الله إلى ذلك في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ أي فائدة لخلق يوجد ويؤمر وينهى ويسلط بعضه على بعض في القتل العمد، ثم النهاية لاشيء، لا فائدة من هذا، وحكمة الله تعالى تأبى أن يقع مثل ذلك من الله، هذا دليل عقلي واضح وهذا دليل عقلي يوجب أن يبعث الناس ليجازوا على أعمالهم.

أما الدليل الحسِّي على وجود البعث وإمكانه وجوازه، فالله تعالى يقره في القرآن قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يعني: هامدة ليس فيها نبات ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ ماء المطر ﴿ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ يعني صارت حية، بعد أن كانت ميتة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإحياء الأرض من بعد موتها والناس يشاهدون دليل على إمكان إحياء الموتى وبعثهم، وهذا دليل واضح حسي ومشاهد. كذلك أيضًا أشهدنا الله عز وجل في الدنيا إحياء الموتى، فلنستعرض هذا في القرآن، المشهد الأول: بنو إسرائيل، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ فماتوا ثم بعثوا هذا في الدنيا. المشهد الثاني: القتيل التي اختلفت القبيلتان فيه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا القتيل ببعضها ففعلوا فحيا القتيل وقال: إن الذي قتله فلان. وهو إحياء بعد الموت، المشهد الثالث: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، خافوا من الموت وخرجوا من ديارهم، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾، أماتهم ليعلموا أنهم لا مفر لهم من قضاء الله ثم أحياهم ليقضي أجل مسمى، المشهد الرابع: صاحب القرية ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.

المشهد الخامس: قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فأمره الله عز وجل أن يذبح أربعة من الطيور، وأن يلقي على كل جبل منها جزءًا، وأن يدعوها ففعل فأقبلت إليه حية إما أنها تطير أو تمشي بسرعة. هذه خمسة مشاهد مذكورة في البقرة كلها تدل على إمكان الإحياء بعد الموت.

أما قصة عيسى فكذلك أيضًا، كان عيسى ﷺ يحيي الموتى بإذن الله، يقف على الميت ويقول: يا فلان قم فيقوم، بل يقف على القبر والميت مدفون ويأمره أن يخرج حيًا فيخرج، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾. وفي الدجال أخبرنا النبي ﷺ أنه يقطع رجلًا جزلتين ويمر بينهما ثم يقف ويأمره أن يقبل يأمر هذا الميت الذي هو قطعتين أن يقبل فيلتئم حالًا ويقوم والناس ينظرون[1]، هذا أيضًا شاهد محسوس، فالمهم أن البعث دل عليه السمع والعقل والحس.

٥- أن هذا الكافر عنده من العجب والثقة بنفسه ـ على أنه ليس له شيء يثق به ـ ما أمكنه أن يقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الإقرار بالربوبية لا يدخل الإنسان الإسلام لأن هذا المنكر مقر بالربوبية، ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ والمشركون كانوا مقرين بالربوبية، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٣٧/١١٠) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لكن الإقرار بالربوبية لا يغني عن الإسلام شيئًا. ولقد افتخر بعض الناس الجهَّال أن أحد رواد الفضاء شهد بأن لهذا الكون خالقًا، لما صعد في الفضاء ورأى الأرض ورأى ما حوله من الآيات شهد بأن لها خالقًا، فصار بعض الناس الجهال يطنطن على إثبات أن للكون خالقًا بشهادة هذا الرجل الكافر، وهذا حقيقة يدل على ضعف إيمانه؛ لأن خبر الله ورسوله عن ذلك أصدق وأوجب للإيمان، نعم لو كنا نجادل شخصًا منكرًا لا يؤمن بالأديان فنقول له: صاحبك الذي هو مثلك أقر بأن للكون خالقًا. ربما ينفع، فيكون هذا من باب إقامة الحجة عليهم، لكننا نجعل هذا حجة مطلقة هذا أمر فيه نظر.

٧- **ومن فوائدها:** التأكيد على أن هؤلاء الكافرين سوف يُخبرون بما عملوا، لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ ويكون هذا يوم القيامة، فإن قال قائل: هل لهذا القيد مفهوم، أو هو لبيان الواقع؟ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا ليس له مفهوم، ولكنه لبيان الواقع، وذلك لأنك لو جعلت له مفهومًا لكان المؤمنون لا ينبئون بما عملوا، مع أنهم ينبئون، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أن الله يخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه يعني عملت كذا في يوم كذا[1]. إذنْ تقييد الإنباء بالكافر لبيان الواقع يعني هؤلاء الذين كذَّبوا واقعهم أنهم سينبئون بما عملوا.

٨- **ومنها:** أن كل شيء مقيد محسوب على الإنسان، نأخذه من قوله: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ فإن ما اسم موصول تفيد العموم. وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي قول تلفظ به فلديك رقيب يعني حاضر يكتب ما تقول.

٩- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء الكفار سيكون غليظًا أي: شديدًا؛ لأن الغلظة معناها القسوة، وهي في كل موضع بحسبه. فغلظ الطباع ليست كغلظ العجين أو الطين أو ما أشبه ذلك، فغلظ العذاب ليس كغلظ الطين أو العجين وغلظ القول وما أشبه ذلك كل غلظة بحسبها.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات العذاب في الآخرة ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، فهل هناك عذاب قبل الآخرة؟

الجواب: نعم، يعذب الإنسان في قبره قبل أن يبعث وهذا ثابت في القرآن والسنة، استمع إليه في القرآن قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾. فقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ يدل على أنهم لا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

يريدون أن تخرج، ولهذا يقال أخرجوا أنفسكم توبيخًا، ثم يقال لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ متى اليوم؟ يوم موتكم تجزون عذاب الهون، وهذا نص في إثبات عذاب القبر، وقال الله تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وأما السنة كثيرة في ذلك: ومنها ما أجمع المسلمون عليه، فكل المسلمون يقولون في الصلاة «أعوذ بالله من عذاب جهنم ومن عذاب القبر»[1] هل يتصور أن أحدًا يتعوذ من شيء وهو لا يؤمن بوجوده؟ لا، إذنْ فعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة والإجماع، وعليه فيكون العذاب المذكور في قوله ونذيقنهم عذاب الغليظ، هو عذاب الآخرة وهو أشد من عذاب القبر، أجارنا الله وإياكم منه.

١١ - **ومن فوائدها:** أن الإنسان حريص على الخير شحيح في بذل ما يطلب منه.

١٢ - **ومن فوائدها:** أنه لا ينبغي للإنسان أن يغلِّب جانب اليأس والقنوط كما أنه لا يغلب جانب الرحمة، لأنه إن غلب جانب الرجاء والرحمة فإنه يدخل فيمن يأمن مكر الله، وإن غلب جانب اليأس والقنوط دخل في أهل اليأس والقنوط، وهل الذي ينبغي للإنسان أن يغلب الرجاء أو يغلب الخوف؟ اختلف السالكون إلى الله عز وجل في هذا. فمنهم من قال: يغلب جانب الخوف ليحذر المعاصي ويتجنبها لأنه إذا غلب جانب الخوف خاف وحذر من المعاصي، ومنهم من قال: يغلب جانب الرجاء لأن الله تعالى عند حسن ظن عبده بي. وإذا غلب الرجاء ابتعد عن اليأس والقنوط. ومنهم من قال: ينبغي ألا يغلب هذا على هذا، بل يجعل خوفه ورجاءه واحدًا، قال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاء واحدًا فأيهما غلب هلك صاحبه.

وقال بعضهم: ينبغي للإنسان أن يكون بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه إن انخفض أحدهما سقط.

وقال بعض أهل العلم: ينبغي أن يغلب جانب الرجاء عند فعل الطاعة فيرجو القبول والثواب، ويغلب جانب الخوف عند الهم بالمعصية حتى لا يعصي الله عز وجل، ومن العلماء من يقول: يغلب جانب الرجاء عند المرض حتى إذا مات لقي الله وهو يحسن به الظن، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف، لأن حال الصحة يدعو الإنسان إلى البطر والأشر، بل يغلب جانب الخوف. كل هذه الأقوال التي تبلغ ستة أو سبعة، هي في الواقع تنظر إلى حال العبد، ولهذا نرى في

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢٨/ ٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذه المسألة أن الإنسان ينظر إلى حاله، فإن كان قد عمل عملا صالحًا وكدح فيما يرضي الله فليغلب جانب الرجاء، كلما عمل طاعة غلب جانب الرجاء أن الله سبحانه وتعالى قبلها، وإذا رأى من نفسه العلو والتعاظم فليغلب جانب الخوف حتى يسير إلى الله سبحانه وتعالى سيرًا حسنًا.

١٣- **ومنها:** أن من عباد الله من لا يشكر الله عزَّ وجل ولا يعترف له بالفضل، فإذا جاءته الرحمة بعد الضراء ادعى أن هذا بعمله وأنه محقوق به وأهل له، لقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾.

١٤- **ومن فوائدها:** أن الرحمن إنما هي من الله عز وجل، لا يستطيع الإنسان أن يجلب لنفسه نفعًا ولا أن يدفع عنها ضررًا، بل ذلك إلى الله، ولكن الله قد جعل لكل شيء سببًا فللرحمة أسباب وللعذاب اسباب.

١٥- **ومنها:** بيان حال هذا الإنسان الذي إذا أصابته الرحمة والخير قال هذا لي ثم ادعى دعوى أخرى أنه لو رجع إلى الله لوجد عنده خيرًا من ذلك، مع أنه ينكر قيام الساعة.

١٦- **ومنها:** أن الإقرار بالربوبية لا يكفي في توحيد الإنسان وإيمانه؛ لأن هذا الرجل قد أقر بالربوبية في قوله: ﴿رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾.

١٧- **ومن فوائدها:** تهديد من هذا حاله بأن الله سوف يقرره بذنوبه ويذيقه من العذاب الغليظ لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

١٨- **ومن فوائدها:** أن الإظهار في موضع الإضمار في موضعه خير من الإضمار يعني إذا دار الأمر بين أن تأتي بضمير المتحدث عنه أو باسم ظاهر فإن الأصل أن تأتي بالضمير لكن إذا صار هناك فائدة في الإظهار في نوع الإضمار فإنه أولى وأحسن، الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولو أضمر فقال: (فلننبئنهم) فهذا لا بأس به، لكنه أظهر في موضع الإضمار. والإظهار في موضع الإضمار فيه ثلاث فوائد:

١- بيان الصفة أو الوصف الذي استحق من أجله أن يعاقب بهذه العقوبة.

٢- بيان العموم يعني أن هذا الوعيد ليس لهذا الرجل وحده بل لكل كافر، هذا بالنسبة للآية التي معنا.

٣- انتباه المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد بضمائره ومظهراته فإن الإنسان لا ينتبه، لكن إذا جاء شيء يخرج الكلام عن سياقه، فلا بد أن ينتبه.

١٩- **ومنها:** إثبات البعث لقوله ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٠- **ومنها** عموم علم الله عز وجل؛ لأن المنبئ بالعمل لا بد أن يكون عالمًا به.

٢١- **ومنها** بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، حيث أضاف الضمائر إليه بصيغة الجمع، والجمع الواحد يراد به التعظيم.



قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥١ - ٥٢]

التفسير

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾

قوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ يعني أعطيناه نعمة، والنعمة تدور على شيئين: على حصول المطلوب وعلى النجاة من المرهوب، فمن سقط في بحر ثم هيأ الله له من ينقذه من الغرق فتلك نعمة. وكذلك أيضًا من رزقه الله مالا وولدا هذه نعمة، فالنعمة إما ارتفاع نقمة وإما حصول محبوب للإنسان.

وقوله ﴿عَلَى الْإِنسَانِ﴾ يقول المؤلف: [المراد الجنس] أي ليس المؤمن ولا الكافر، يعني أن جنس الإنسان بالنظر إلى كونه إنسان فقط، هذه حاله، إذا أنعمنا على الإنسان أعرض [عن الشكر] والشكر حقيقة هو طاعة الله عز وجل ويكون بالقلب وباللسان وبالجوارح.

ويدل على أن الشكر هو طاعة الله قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وَقَالَ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾»[1]، فجعل النبي ﷺ الشكر

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٥/ ١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لله هو العمل الصالح، يعني القيام بطاعة، الله، فالشكر إذنْ القيام بطاعة الله ويكون بالقلب ويكون باللسان ويكون بالجوارح.

أما بالقلب فهو شعور الإنسان بأن هذه النعمة من الله سبحانه وتعالى، وأنه لولا فضل الله لما حصلت له فيقر بقلبه ويعترف أن ذلك من عند الله وليس بحوله وقوته، وأما الشكر باللسان فالتحدث بنعمة الله عز وجل اعترافًا بفضله لا افتخارًا على خلقه، كأن يقول: الحمد لله قد رزقني الله أموالًا وأولادًا وعلمًا وما أشبه ذلك. ومن الشكر باللسان جميع الطاعات القولية فإنها من الشكر باللسان، فقراءة القرآن من الشكر؛ لأن كل طاعة باللسان من شكر الله عز وجل، والشكر بالجوارح أي العمل كالركوع والقيام والصدقة وما إلى ذلك.

وفي هذا يقول الشاعر.

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

قوله: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ يقول المؤلف: [أي: ثنا عطفه متبخترًا]، يعني أعرض ببدنه وبقلبه مفتخرًا متعارضًا، هذا بالنسبة لحاله، وبالنسبة لما يطلب منه الشكر يعرض، ولا يشكر الله عزَّ وجل، وهذا حال كثير من بني آدم، ولهذا عممها الله، قال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ لأن أكثر بني آدم على هذا الحال، قوله: ﴿وَنَـَٔا﴾ [وفي قراءة بتقديم الهمزة] في قراءة سبعية واعلم أن اصطلاح المؤلف رحمه الله أنه إذا قال [وفي قراءة] فهي سبعية أي من القراءة السبع، وإذا قال: (وقرئ) فهي من القراءات الشاذة، إذنْ ناء ونئا معناهما واحد كآيس ويأس بتقديم الهمزة وتأخيرها ومعناهما واحد، أيس من كذا يأس من كذا معناهما واحد، ناء بكذا أو نئا بكذا معناهما واحد والمقصود كما قال المؤلف: [أنه ثنى عطفه متبخترًا].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أقبل ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: [كثير]، إذا مسه الشر لجأ إلى الله وأطال الدعاء وأكثر منه وانظروا ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن المشركين إذا كانوا في البحر وهاج البحر ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ولكنهم يعدون ويكذبون، فإذا أنجاهم الله عادوا إلى الكفر والعياذ بالله.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إن الإنسان من حيث هو إنسان بطر عند النعماء مقبل على الضراء؛ لقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** أن ما يتمتع به الإنسان من النعيم فهو من عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾.

٣- **ومن فوائدها:** التحذير من هذه الحالة، فإذا رأى الإنسان من نفسه أنه عند النعمة يفرح ويبطر ويتهاون بما أوجب الله تعالى عليه، فليعلم أنه داخل في هذا الإنسان المذموم.

٤- **ومن فوائدها:** أن الإنسان يعرف من نفسه الضعف، فإذا أصابه الضرر يلجأ إلى الله، حتى الكافر يعرف من نفسه الضعف ويلجأ إلى الله عزَّ وجل.

٥- ومنها أيضًا: أن الكفار يؤمنون بالله وبأنه هو كاشف الضر، لقوله: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، والإعراض في قوله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ هذه جملة شرطية، وجوابها: ﴿أَعْرَضَ﴾ هذا الجواب ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ معطوف عليه.

الجواب في قوله ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الجواب ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ عاملها مقدر، تقديره: فهو ذو دعاء عريض، اقترنت الفاء في جواب الشرط؛ لأن جواب الشرط جملة اسمية، وإذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب قرنها بالفاء ولا تسقط إلا نادرًا.

والجمل التي إذا وقعت جوابًا للشرط اقترنت بالفاء مجموعة في قول الناظم:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسُ

مثل قول الشاعر:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

الأصل من يفعل الحسنات فالله يشكرها لكنها سقطت إما لغرض الشعر وإما للقلة؛ لأنها تسقط حتى في النثر.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [كما قال النبي ﷺ] ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، وقوله: ﴿إِن كَانَ﴾ يعني: [القرآن] من عند الله وكفرتم به وأنكرتم أن يكون من عند الله، ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، أصل الجملة ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وتبين لكم أنه من عند الله ثم كفرتم به ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾، الأصل (من أضل منكم)، ولكنه أظهر في موضع الإضمار لفائدة سنذكرها إن شاء الله.

قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [أي القرآن] وتبين لكم ذلك واتضح ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾

أتى بثم الدالة على الترتيب والتراخي إشارة إلى أن هؤلاء أنكروا وكفروا بعد التروي وبعد المدة التي يؤمن بها من أراد الإيمان، ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ الضمير يعود على القرآن ويجوز أن يعود على الرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي نزل عليه القرآن، ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ قال المؤلف: [أي لا أحد أضل]، إشارة إلى أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، واعلم أن الاستفهام يأتي بمعنى النفي كثيرًا، وإتيانه في موضع النفي أعظم من النفي، لأنه إذا أتى الاستفهام في موضع النفي صار مشربًا معنى التحدي كأنه قال: (أروني أحد أضل)، وهذا لا شك أنه مشتمل على النفي وعلى التحدي، وقال ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿مَنْ﴾ هذه مبتدأ اسم استفهام مبتدأ و﴿أَضَلُّ﴾ خبره، ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾أي من الذي هو ﴿في شقاق بعيد﴾ خلاف بعيد، بل الشقاق أخص من الخلاف، لأنه قد يخالفك ولا يشاقك لكن هؤلاء خالفوا وشاقوا، وقوله: ﴿بَعِيدٍ﴾ [أي بعيد عن الحق أوقع هذا موقع منكم بيانًا لحالهم]، أوقع هذا يريد من أضل ممن هو في شقاق بعيد موقع منكم أي موقع الضمير فهو إظهار في موضع الإضمار لبيان حالهم، أي لبيان أنهم هم أضل من كل أحد وأن حالهم الشقاق البعيد، ففيه إظهار في موضع الإضمار.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تحدي هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ، وأنهم بعد أن علموا الحق كفروا به.

٢- أن القرآن كلام الله لقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وجه ذلك، أن القرآن وصف وصفة لا بد أن يقوم بموصوف وإذا كان من عند الله لزم أن يكون الموصوف به هو الله عز وجل، وهذا ما نؤمن به ويؤمن به السلف أهل السنة والجماعة، بأن القرآن كلام الله، تكلم به حقيقة بحروفه وسمعه منه جبريل وألقاه على قلب النبي ﷺ. يرى أهل التعطيل أن القرآن كلام الله ولكنه مخلوق وليس وصف من صفاته، بل هو مخلوق من مخلوقاته، وهذا رأي الجهمية والمعتزلة، هذا الرأي يبطل الأمر والنهي ويبطل الشريعة كلها؛ لأنه إذا كان كذلك صار مجرد أصوات أو مجرد حروف لا مدلول لها كما نسمع صوت الرعد مثلًا لا نستفيد منه شيئًا، إذ هو شيء يسمع فقط وليس له معنًى، أو حروف خلقت على هذا النحو، كأنه نقش في جدار أو في باب نقوش ليس لها معنى، ولهذا يعتبر هذا القول من أشد الإلحاد، لأنه تبطل به الشريعة كلها، فمثلا إذا قلنا إنها مخلوقة، إن رسمتها في ورقة صارت صورة كلمة فقط كأنها نقش ما هي كلام، وإن تكلمت بها فالصوت مخلوق بل والله عز وجل حين تكلم بها وأوحى بها إلى جبريل يعتبر أنه خلق

صوت ليس له معنى، لأنه مخلوق من المخلوقات، والله عز وجل فرق بين الخلق والأمر فقال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ فالقائلون بأن القرآن كلام الله لكنه مخلوق، قد عطلوا الشرائع نهائيًا إذ إنه ليس هناك أمر ولا نهي، وهناك قول آخر للأشاعرة يقولون: إن القرآن كلام الله، لكنه أي الكلام هو المعنى القائم بنفسه أما ما سمعه جبريل فهو مخلوق، فالقرآن عندهم كلام الله لكن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأما ما يسمع من الله عز وجل كمناجاته موسى وكلامه بالوحي إلى جبريل فإنه مخلوق عبارة عن المعنى القائم بالنفس، هذا المعنى أشد وأخبث من قول المعتزلة لماذا؟ لأن المعتزلة يقولون: ما نقرأه في المصاحف كلام الله حقًّا، والأشاعرة يقولون: عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله، والكل متفقون على أن ما نقرأه في المصاحف مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: هو كلام الله، والأشعرية يقولون: عبارة عن كلام الله فصاروا من هذه الناحية أخبث وأشر من المعتزلة والجهمية، أما نحن فنؤمن بأن ما كتب في المصاحف وحفظ في الصدور فإنه كلام الله وهو غير مخلوق، فإن قال قائل أرأيت القارئ يقرأ نسمع صوته بالقراءة هل هذا الصوت مخلوق أم غير مخلوق؟ نقول هو مخلوق؛ لأن صوت الإنسان وصف من أوصافه فهو مخلوق كأصله لكن الملفوظ به والمصوت به غير مخلوق، وهناك فرق بين الصوت والنطق وبين المصوَّت به والمنطوق به، أليس كذلك؟ أنا لو قرأت كتاب ألفه عالم من العلماء فأنا أقرأ الصوت صوتي، لكن المقروء هو كلام صاحب الكتاب.

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله في «العقيدة الواسطية»: الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، فصار لو أراد الإنسان أن يستفصل، هل لفظ الإنسان في القرآن مخلوق أم لا؟ ماذا نقول؟ نقول لفظه الذي تلفظه مخلوق لأنه حركات لسانه وشفتيه وصوته، وأما الملفوظ به فإنه كلام الله غير مخلوق، ويدل لهذا أن الله تعالى قال في القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ الرسول هنا جبريل. وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ الرسول هنا محمد ﷺ، ولا يمكن أن يكون كلام واحد لمتكلمين اثنين، لكنه أضافه إليهما لأنهما رسولان مبلغان عن الله؛ ولهذا قال ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ في الآيتين فتنبه لهذا أو تفطن له.

ذُكر عن الإمام أحمد رحمه الله: أن من قال لفظي في القرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. هكذا روي عنه.

وفي رواية: من قال لفظي في القرآن مخلوق يريد القرآن فهو جهمي. ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع، الرواية الثانية فسرت الرواية الأولى، أي أنه من قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد القرآن

الذي هو الملفوظ به.

فإن قال قائل: هل يمكن أن يراد باللفظ الملفوظ، قلنا نعم لأن لفظ مصدر والمصدر يأتي أحيانا بمعنى اسم المفعول، كما في قوله: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(1) وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ﴾ أي: أولات محمول فالحمل مصدر يراد به اسم المفعول.

على كل حال نحن نقول في كلام الله عز وجل إنه كلام مسموع بحرف وصوت وأنه غير مخلوق وأنه صفة من صفاته.

ولكن هل هو من الصفات الذاتية أو من الصفات الفعلية؟ نقول: أما باعتبار أصله وأنه تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا فهو من الصفات الذاتية، وأما باعتبار آحاده فهو من الصفات الفعلية لقوله تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ متى صارت كن؟ بعد الإرادة وهذا دليل على أن كلام الله من حيث آحاده وأفراده من الصفات الفعلية.

مسألة: قول الأشاعرة هل نكفرهم بهذا الأمر؟

الجواب: يجب أن تعلم قاعدة مهمة وهي: أن المجتهد من هذه الأمة ولو أخطأ فإنه مغفور له، هم يريدون بهذا أن الله منزه أن تقوم به الحوادث، لأنهم يعتقدون بعقولهم السخيفة أن الحوادث لا تقوم إلا بحادث، وهم يعلمون أن الكلام حادث، كل حرف حدث بعد الحرف الذي قبله، لكن لعقولهم السخيفة ظنوا أن من يقوم به الحادث فهو حادث، وهذا خطأ، التكفير لا نكفرهم بهذا، نعم لو أن الإنسان تبين له الحق وقال إنه لا يريد الحق وإنما يتبع هواه فقد يكفر.

إذن يستفاد أن القرآن كلام الله من قوله: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ووجه ذلك أن الكلام صفة لا يمكن أن يقوم بنفسه فلزم أن يكون كلام الله.

٤- **ومن فوائدها**: أن الكفر بعد التبين أشد قبحًا من الكفر مع الجهل، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾، فإن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي وأن كفرهم كان بعد أن تبين الأمر.

٥- **ومن فوائدها**: أنه لا أحد أضل ممن شاق الله ورسوله حيث إنه في شقاق بعيد لقوله تعالى ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

٦- **ومن فوائدها**: بلاغة القرآن التامة؛ حيث يختار في كل تركيب ما يناسب الحال لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

٧- **ومن فوائدها:** وقوع الاستفهام موقع النفي وأن إيقاع الاستفهام موقع النفي أسلوب عربي صحيح، وفائدته: أنه إذا كان بصيغة الاستفهام كان مشربًا بالتحدي، فقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أبلغ من قوله لا أضل.



قال الله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤]

التفسير

قال الله تبارك وتعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ السين للتنفيس، وهي تفيد القرب والتحقيق، وسوف: للتسويف وهي تفيد التحقيق مع البعد، ولذلك يجب أن نفرق بين سوف والسين إذا كان الشيء سيكون قريبًا فقل سيكون، وإذا كان بعيدا فقل سوف يكون، ولهذا تجدون قول الله تعالى ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٤] لأنه لم يأت بعد وهو بعيد بالنسبة لكونه في الدنيا، ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ يعني عن قرب إراءة متحققة ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: نظهرها لهم حتى يرونها بأعينهم أو حتى يرونها ببصائرهم.

وقوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الآيات جمع آية وهي في اللغة العلامة، والمراد بآيات الله: علاماته الدالة على كمال علمه وحكمته وقدرته وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته، واعلم أن آيات الله تعالى نوعان: آيات كونية وهي ما جاءت به الرسل ومنها القرآن الكريم فإنه آية، وآيات كونية وهي الدالة على كمال الله تبارك وتعالى في العلم والخلق وكل ما يتعلق بربوبيته وهي ما يعجز البشر عن مثله فالبشر كلهم عاجزون على أن يخلقوا أرضا أو سماءً أو نجومًا أو شمسًا أو قمرًا، ولهذا قال الله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ هذه آيات كونية لأنه يعجز عن مثلها البشر، آيات شرعية مثل قوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم:١٥].

قال المؤلف: [﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أقطار السماوات والأرض من النيرات والنبات

والأشجار]، والآفاق جمع أُفق وهو الناحية، والآفاق هنا جمع فتدل على أن هذه الآيات ستكون في كل ناحية من السماء والأرض، ففي السماء نجوم، في السماء شمس، وفي السماء قمر، وفيها مشارق، وفيها مغارب، وكل هذه من آيات الله، ومن يستطيع أن يخلق مثل الشمس؟ لا أحد، ومن يستطيع أن يجريها بهذا النظام البديع منذ خلقها الله عز وجل إلى أن يأذن الله بخراب العالم؟ لا أحد يستطيع، من يستطيع أن يزحزحها من مشارقها الشرقية الشمالية إلى مشارقها الشرقية الجنوبية؟ لا أحد، وهلم جرًّا، هذا في آفاق السماء، من آفاق السماء ما يحصل من الأمطار الغزيرة أو الخفيفة والرعد والبرق وغير ذلك.

المهم: أن آفاق السماء كل ما علا، فإنه داخل في آفاق السماء، كذلك أيضًا آفاق الأرض، وآفاق الأرض فيها من آيات الله عز وجل ما يدل على كمال علمه وقدرته وحكمته ورحمته، جبال وأنهار وبحار، وفيافي، وأودية، وهضاب، إلى غير ذلك، نباتات مختلفة تجد النبات كأنه رقعة ثوب مغشَىً، هذا أخضر وهذا بنفسجي وهذا أبيض وزهورها مختلفة وثمارها مختلفة تسقى بماء واحد ويفضل الله بعضها على بعض في الأُكُل، كذلك أيضًا يدخل في قوله: ﴿فِي ٱلْآفَاقِ﴾ ما يحصل في الآفاق من حرب وسلم وأمن وخوف وشدة ورخاء، كل هذا من آيات الله في الآفاق، كذلك ما يحصل من غلبة وانهزام وغير هذا، فالله تعالى وعد بأن يري العباد آياته في الآفاق، فصار كل ما في الآفاق العلوية والسفلية مما لا يستطيع الخلق أن يأتوا بمثله فهو من آيات الله.

وقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني ونريهم آياتنا في أنفسهم، وذلك من نواحي متعددة أولًا: من ناحية الخلقة كيف خلق الله تعالى الآدمي على هذه الصفة البديعة الغريبة التي لا يوجد من الحيوانات ما هو مثله في حسن القامة وحسن التدبير والعقل وغير ذلك، كذلك أيضًا ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من طول وقصر، وبياض وسواد، وحسن خلق وسوء خلق، كذلك في أنفسهم من تقلبات الأحوال وكون الإنسان أحيانًا يريد كذا وأحيانًا يريد كذا، وأحيانًا يريد الشيء ويصمم عليه وإذا هو مصروف عنه، يصرف عنه، هذا من آيات الله، ولهذا قيل لأعرابي بما عرفت ربك؟ قال: (بصرف الهمم وتقليب القلوب)، تجد الإنسان مثلًا متجه إلى أن ينصرف إلى الشمال فإذا به ينصرف إلى الجنوب بدون أي سبب، لكن بتقدير الله عز وجل، كذلك أيضًا من آيات الله في الإنسان تركيب هذا البدن العجيب البديع، واسأل أهل التشريح عن هذا تجد العجب العجاب، إن أتيت إلى الرأس وما فيه من المخ وما فيه من الأدوات، وإذا أتيت إلى الأمعاء وإلى المعدة وإلى الكبد وإلى الغدد وإلى غيرها تجد العجب العجاب، يعني أنه دولة في الواقع، دولة كل شيء منه له عمله الخاص، من يستطيع أن يركب هذا؟ الله عز وجل، كذلك أيضًا من الآيات في الأنفس ما حصل لقريش في بدر حيث إن قريشًا في بدر خرجت إلى بدر كما وصف الله عز وجل ﴿بَطَرًا

﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول القائل منهم: والله لن نرجع حتى نقدم بدرًا فنقيم فيها ثلاثا ننحر الجذور ونسلخه وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا هكذا قالوا ولكن الأمر صار بالعكس والحمد لله، صار العرب يتحدثون عن هزيمتهم إلى أن يشاء الله من أمد الدنيا، هذا من الآيات، كذلك من آيات الله تعالى في الإنسان أن الناس يختلفون اختلافًا عظيمًا في الفهم والحفظ والعمل، فتجد هذا يختار هذا العمل، والآخر يقول: كيف يصبر هذا الرجل على هذا العمل، وآخر بالعكس، هذا من آيات الله تبارك وتعالى، فكذلك أيضًا الناس يختلفون في الفهم، فمن الناس من إذا قرأت عليه العبارة فهمها لأول مرة، ومن الناس من لا يفهمها بأول مرة، من الناس من لو تلوت عليه عبارة حفظها بأول مرة، ومن الناس من ليس كذلك، كل هذا من آيات الله وإلا فالدم واحد والعصب واحد والعظام واحدة والجلد واحد وكل شيء واحد، ولكن يختلف الناس هذا الاختلاف العظيم، كل هذا داخل في قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ المفسر يقول: [﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (يتبين) بمعنى يتضح ﴿لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين، ﴿أَنَّهُ﴾ يقول المؤلف [أي: القرآن] ويحتمل أن يراد به الرسول ﷺ ويحتمل أن يراد المعنيان جميعًا، ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [المنزل من الله تعالى بالبعث والحساب والعقاب فيعاقبون على كفرهم به وبالجائي به].

قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الحق في الأصل هو الشيء الثابت الواقع لا محالة، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة:٢] يعني الشيء الثابت، ويطلق على معانٍ متعددة منها أنه الصدق، فالصدق حق وضده الكذب باطل، ومنها العدل فالعدل حق وضده الجور وهو باطل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ومن معاني الحق: أنه الشيء الثابت الذي لا يزحزحه أحد، وضده الشيء الذي لا يثبت ولا يستقر وكل إنسان يبطله، فالآن نجد أن القرآن الكريم مهما جادل به المجادل ليدفعه فحجته باطلة ولا يمكن لأحد أن يغلب القرآن بل القرآن غالب، لكن اعلموا أن كون القرآن غالب إنما هو بحسب حامله ولذلك تجد السيف البتار بيد الجبان لا يغني شيئًا، لابد أن يكون القرآن بحسب حامله، وإلا فالقرآن نفسه لا يمكن أن يغلب أبدًا، إلا أنه قد يغلب من جهة حامله وهذا ليس عيبًا في القرآن ولكنه عيب في حامل القرآن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [المنزل من الله بالبعث والحساب] وهذا التخصيص من

المؤلف رحمه الله على سبيل المثال، وإلا فإنه يتبين أنه الحق في كل شيء، في كونه يغلب ولا يُغلب، وفي كون أحكامه عدلًا وأخباره صدقًا وغير ذلك، قال: [فيعاقبون على كفرهم به] أفادنا المؤلف رحمه الله أن المراد بالتبين هنا لازمه وهو المعاقبة، لأنه لو كان المراد التبين فقط بدون عقاب على مخالفته بعد التبين لم يكن هناك فائدة، ومن ذلك أيضًا من كونه يطلق البيان أو العلم ويراد به اللازم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦] يرونها فقط أو يرونها ويجازون عليها؟ الثاني أي يروها ويجازوا عليها، هذا أيضًا يتبين فيعاقبون على كفرهم به، [وبالجائي به] وهو الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لما بين الله سبحانه وتعالى أن هذا القرآن حق وأن محمدًا حق ذكر شيئًا أعظم دلالة على أن القرآن حق وعلى أن الرسول حق ﷺ، من هو؟ الله عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

والجواب: بلى يكفي ذلك، لأن الله تعالى إذا رأى هذا الرجل يدعو الناس إلى ما يدعوهم إليه ويقاتلهم به وينصره الله عليهم ويمكّن له في الأرض ويتبعه الناس هل يمكن أن يقر الله ذلك وهو باطل؟ لا يمكن أبدًا لا يمكن إطلاقًا، فكون الله تعالى يمكن لرسوله ﷺ في الأرض ويجلب قلوب الناس إليه وينصره على أعدائه ويفتح بدينه آفاق الشرق والغرب كل هذا دليل على أنه حق، وشهادة الله سبحانه وتعالى لرسوله نوعان: شهادة قولية وشهادة فعلية، أما الشهادة القولية: فدليلها قوله تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ هذه شهادة من الله، ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)﴾ [النساء:١٦٦] أما الشهادة الفعلية فهي تمكين الله تعالى لمحمد ﷺ في الأرض ونصره إياه وغلبة دينه على جميع الأديان.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ قال المؤلف [فاعل ﴿يَكْفِ﴾] والباء مزيدة فيه لتحسين اللفظ ونظيرها ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وكفى الله شهيدًا، ولهذا نقول في إعرابها الباء حرف جر زائد إعرابا فائدته تحسين اللفظ، وفاعل ﴿يَكْفِ﴾ مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها حرف الجر الزائد.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أضاف الربوبية للرسول ﷺ، وهل هذا للتخصيص أو للتشريف والتكريم؟ الثاني؛ لأنه رب كل شيء، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وبعدها قال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ لئلا يظن الظان أن ربوبيته خاصة بهذه البلدة كذلك أيضًا إضافة الربوبية إلى الرسول من باب التشريف والتكريم والإشارة إلى أنه

سوف ينصره على عدوه لأن ربوبية الله للرسول ﷺ ربوبية خاصة، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل منه أي بدل من قوله: ﴿بِرَبِّكَ﴾ والبدل يقولون في تعريفه هو الذي إذا إذا أسقطت المبدل منه استقام الكلام، تقول أعجبني زيدٌ خلقه، هذا بدل، أسقط زيد: أعجبني خلق زيد، أكلت الرغيف ثلثه، أسقط الرغيف، يستقيم الكلام أم لا؟ يستقيم، هذا ضابط البدل، هنا نقول ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أسقط بربك، تقول: أولم يكفي أن الله على كل شيء شهيد، يستقيم لكن لا شك أن القرآن الكريم لا يمكن أن يوجد بدل ومبدل منه إلا لفائدة عظيمة، فيكون ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ شهادة ونصرة وتثبيتًا وما أشبه ذلك.

ثم قال: ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذا بعض من مقتضى ربوبيته سبحانه وتعالى ﴿أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قال [بدل منه] أي: أولم يكفهم في صدقك أن ربك لا يغيب عنه شيء ما، وهذا واضح، والشهادة هنا شهادة فعلية يعني أولم يكف بربك أن الله على كل شيء شهيد وقد مكن لك في الأرض وثبتك ونصرك عليهم وعلى كل عدو لك؟

والجواب: بلى والله إن هذا لكافٍ، وهذا كقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت:٥٠] بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فالكتاب أعظم آية، شهادة الله على صدق رسوله أعظم آية.

ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ (ألا) أداة استفهام، وتفيد شيئين: الشيء الأول: التوكيد والشيء الثاني: التنبيه، وهل هي مركبة من الهمزة ولا أو هي غير مركبة؟

الجواب: هي غير مركبة، بل هي كلمة واحدة، [﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بإنكارهم البعث]، فهم والعياذ بالله في شك من لقاء الله ولو كانوا يرجون لله لقاءً لاستقاموا وخافوا منه، فكل إنسان يؤمن بأنه ملاق ربه فإنه سوف يستقيم على أمر الله لأنه يعلم أن الرب عز وجل سوف يحاسبه على هذا، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا﴾ أداة استفتاح أخرى تفيد التنبيه والتوكيد ﴿أَلَا إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علمًا وقدرة فيجازيهم بكفرهم، هم في شك من لقاء الله لكن سوف ينبئهم الله عز وجل بما عملوا لأنه بكل شيء محيط، وعلى هذا فَصِلَةُ قوله ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ بما قبلها الإشارة إلى أنه سوف يجازيهم.

الفوائد:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

١- **من فوائد الآية الأولى:** أن الله تعالى سيظهر ما يتبين به صدق الرسول ﷺ ﴿فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ نأخذها من قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢- **ومنها:** أن هذه الإراءة قريبة محققة، وهذه تؤخذ من قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾؛ لأنها صدرت بالسين الدالة على التحقق والقوة.

٣- **ومنها:** أنه ينبغي للإنسان أن يفكر في آيات الله تعالى في الآفاق وفي نفسه؛ لأن ذلك طريق إلى أن يتبين له الحق نأخذها من قوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فأنت كلما ازددت تأملًا وتدبرًا لآيات الله الآفاقية والآيات التي في نفسك، فإنك لا شك تزداد إيمانًا ويتبين لك صدق الرسول ﷺ.

٤- **ومن فوائدها:** أن الإنسان ناقص العلم نقصًا عظيمًا، وجهه أن الله تعالى يريه آياته في نفسه، فالإنسان غير عالم بنفسه إلا إذا علمه الله، ولذلك الآن نفسك التي هي مادة حياتك ما تعرفها، ولهذا اختلف فيها النظار من المتكلمين والفلاسفة وغيرهم، منهم من قال: إن النفس هي الدم، ومنهم من قال: إن النفس جزء من البدن، ومنهم من قال: إن النفس عرض في البدن، ومنهم من قال: إن النفس لا توصف بشيء فلا هي داخلة العالم ولا خارجه ولا متصلة ولا منفصلة، إلى آخر ما يقولون في النفي المطلق، ومنهم من قال: إن النفس مخلوق من مخلوقات الله، وأنها ذات جرم وأنها تدخل في البدن وتسير فيه كما تسير الجمر في الفحم أو الماء في المدر، ويدل لذلك أن النبي ﷺ أخبر بأن الإنسان إذا قبض أخذت الملائكة نفسه وجعلتها في كفن وحنوط وأنه إذا قبض تبعه البصر وهذا يدل على أنها شيء مخلوق له جرم وجسد، لكننا مع ذلك لا نعلم منها إلا قليلًا ولهذا لما سألوا عن الروح قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

٥- **ومن فوائدها:** أن القرآن والرسول ﷺ حق؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

٦- **ومن فوائدها:** أن الآيات الدالة على ذلك آيات توصل إلى اليقين، لقوله ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ والتبين يعني: الوضوح والظهور، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ فإذا علمت أنك لم تصل إلى اليقين فاتهم نفسك، وعليك أن تعالج هذا المرض العضال الخطير، وحتى تصل إلى اليقين، حتى تصل إلى ما يدل عليه قول الرسول ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

٧- **ومن فوائدها:** كفاية الله تعالى عن كل شيء بشهادته؛ لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** الاستدلال بالآثار على مؤثراتها، وجه ذلك: أن الله تعالى استدل بتمكينه

---

(١) **صحيح:** تقدم تخريجه.

للرسول على أنه حق، فالإنسان يستدل بالآثار على مؤثراتها، ولهذا قيل: البعرة تدل على البعير، وهذا جواب من أعرابي سئل بما عرفت ربك؟ قال على البديهة: البعرة تدل على البعير، اختار هذا؛ لأنه أعرابي لا يعرف إلا الإبل: البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير، إذا رأيت صورة القدم على الأرض عرفت أنه قد صار عليها أحد، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا تدل على السميع البصير؟!

والجواب: بلى، هذا الأعرابي استدل بالآيات الآفاقية على وجود الله وعلى قدرته.

٩- **ومن فوائد هذه الآية**: الحذر من المخالفة، وهذه فائدة تربوية تؤخذ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإذا علمت أن الله شهيد على كل شيء على نفسك وأفعالك وأقوالك، وكل التصرفات، فإنك سوف تراقب الله عز وجل، ومن لم يتعظ بمثل هذه الآية فإنه لن يتعظ، إذا علمت أن الله شهيد عليك في خلواتك وفي جلوسك مع أهلك وفي جلوسك مع صحبك فإنك سوف تراقب الله عز وجل، وهذا هو معنى قول الرسول ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

٧- **ومن فوائدها**: بيان حال هؤلاء المكذبين وأن سبب تكذيبهم أنهم في شك من لقاء الله، ومعلوم أن من كان في شك من لقاء الله فلن يعمل لله، ولهذا تجدون الله تعالى يقرن دائمًا بين الإيمان به واليوم الآخر، لأن من نقص إيمانه باليوم الآخر فسوف ينقص عمله، ومن كمل إيمانه باليوم الآخر فسوف يكمل عمله؛ لأنه يرجو أن يكون سعيدًا في ذلك اليوم، وأنت عندما تركع أو تسجد اجعل على بالك أن هذا الركوع أو السجود سوف ينفعك يوم القيامة، وهو ينفعك من الآن؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، لكن الثمرة الملموسة يوم القيامة هي هدف لكل أحد، في الدنيا يظهر للمؤمن الانتفاع التام بالطاعات كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ما يفعل أعدائي بي إن جنتي في صدري، حبسي خلوة، ونفيي سياحة، وقتلي شهادة)، رحمه الله، فالإنسان المؤمن يجد هذا في نفسه قبل يوم القيامة، في يوم القيامة يكون الظهور الكامل، يكشف عن كل شيء.

٨- **ومن فوائدها**: بيان إحاطة الله بكل شيء، علمًا وقدرة وسلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك، ومحيط بكل شيء بأفعاله وأفعال العباد، قال الله تبارك وتعالى ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

٩- **ومن فوائدها**: تحقيق مراقبة الله، لأنك إذا آمنت أن الله بكل محيط فسوف تراقبه المراقبة التامة بحيث لا يفقدك حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك، والله أعلم.



تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الشورى

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

الحمد لله على تعلم تفسير القرآن؛ لأن القرآن أشرف كتاب، وأعظم كتاب فإنه كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ - تكلَّم به حقيقةً وسَمِعَهُ جبريل فألقاه إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم إن هذا شأن الصحابة - رضي الله عنهم - فقد كانوا لا يتجاوزن عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا[1]، ومن المعلوم أن الإنسان إذا قرأ القرآن بدون معرفة لمعناه، فإنه لا يستفيد منه شيئًا كما لو قرأ كتاب فقه، أو كتاب طب أو كتاب أدب وهو لا يعرف المعنى فإنه لا يستفيد من هذا شيئاً.

أهم شيء في القرآن أن تتدبر آياته وتتعظ بها كما قال الله - تعالى -: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بعض الناس تميل نفسه إلى فن من فنون العلم، وإذا سألته في معنى أقل الآيات وجدته ليس عنده منها خبر، ولا وقف منها على عين، ولا أثر وهذا نقص كبير في العلم.

أصل المعلومات وأهمها وأشرفها وأجلها هو تعلم القرآن الكريم ولذلك ينبغي العناية به، واعلم أن القرآن الكريم لم ينزل على أنه كتاب نحو، أو كتاب صرف، أو كتاب فلك، أو ما أشبه ذلك، إنما نزل القرآن؛ ليهدي الخلق إلى الله وكيفية معاملتهم مع الله، ولذلك تجد القرآن الكريم لا يعتني كثيرًا بالآيات الكونية الفلكية، وإنما يشير إليها إشارة، لكنه في الأحكام الشرعية يأتي فيها بالتفصيل والبيان، أما المعلومات الفلكية والكونية والأرضية حاول البعض أن يجعل القرآن دالًّا عليها بالتفصيل، فصار يسوق الآيات ويتكلف في معناها ليخضعها إلى نتائجه وهذا خطأ؛ لأن القرآن إنما نزل لهداية الخلق في العبادات والمعاملات وما أتى فيه بالكلام عن الأمور الكونية فهذا أتى على وجه الإجمال ولم يأت على وجه التفصيل فَلْيُعْنَ طالب العلم بتفسير كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وسورة الشورى يقال: سورة شورى، ويقال: (أل) فيها للبيان، وأما شورى فهي مأخوذة من

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١/ ٨٠) من حديث جرير عن عطاء عن أبى عبدالرحمن السلمى.

قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وليس فيها (أل)، فهذه السورة تسمى سورة الشورى وسورة (شورى) يقال: [مكية]، ما معنى مكية؟ معناها: ما نزل قبل الهجرة ولو نزل خارج مكة كقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، فهذه الآية مدنية ومع ذلك نزلت على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة إذن: ما نزل قبل الهجرة سواء في مكة، أم خارجها فهي مكية، وما نزل بعد الهجرة سواء في المدينة، أو في غيرها من الأماكن، فهي مدنية.

إذن: الحد الفاصل بين السور المكية والمدنية هو الهجرة[1].

لكن استثنى المؤلف من هذه السورة أربع آيات وهي قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[الشورى:٢٣-٢٦]،بأنها مدنية وبقية السورة مكية، لكن لاحظوا أن أي إنسان يستثني آيات من سورة مدنية؛ لتكون هذه الآيات مكية، أو بالعكس، فإننا نطالبه بالدليل وإلَّا فالأصل أن السورة المكية مكية بجميع آياتها وأن السورة المدنية مدنية بجميع آياتها قد يقول قائل: الشاهد مثلًا أو الدليل أن أسلوب الآيات المدنية يختلف عن أسلوب الآيات المكية نقول: هذا على الأكثر وقد يقول قائل: الدليل على هذه الآيات أنها تبحث في فروع الدين وهذه علامة على أنها مدنية؛ لأن غالب السور المكية تبحث في أصول الدين نقول: هذا ليس بدليل، وعلى هذا فالأصل أن هذه السورة مكية بجميع آياتها حتى يقوم دليل واضح على أن هذه الآيات التي استثناها المؤلف مدنية، ثم اعلم أن جميع السور المبدوءة بالحروف الهجائية مكية، إلَّا سورتين وهما: البقرة وآل عمران والباقي كله مكي.

ثم قال المؤلف: [ثلاث وخمسون آية].

معنى الآية: عبارة عن جملة من القرآن الكريم انفصلت عما قبلها انفصالًا معنوياً، أو انفصالًا توقيفيًا يعني: أن الآيات تفصل هذه عن هذه إما معنويًا أي بالمعنى، أو بالوحي ولهذا تجدون قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، هاتان آيتان مع أن الذين هم عن صلاتهم ساهون مرتبطة تمامًا بقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾، فهذا فصل توقيفي المهم أن فصل الآية عن الآية إنما هو بالتوقيف.

---

(١) راجع مناهل العرفان (١/ ١٩٢ – ١٩٥).

كذلك - أيضًا - وضع الآيات بعضها إلى بعض هو أيضًا توقيفي ليس للرأي فيه مجال وليس لأي أحد فيه أي عمل بل هو توقيفي إذا نزلت الآية قال النبي ﷺ: ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا فصار - الآن - فصل الآيات بعضها عن بعض بالتوقيف وترتيبها - أيضًا - توقيفي، أما ترتيب السور فبعضها ترتيبه توقيفي، وبعضها ترتيبه غير توقيفي، فمثلًا: البقرة وآل عمران ترتيبها توقيفي: آل عمران بعد البقرة ولا يشكل عليك حديث حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة أنه قرأ بالبقرة، ثم قرأ بالنساء ثم قرأ بآل عمران؛ لأن الترتيب النهائي أن آل عمران بعد البقرة ويكون حديث حذيفة قبل الترتيب النهائي ولهذا تجدون في الحديث أن النبي ﷺ يقرن دائمًا بالبقرة وآل عمران[1] كقوله ﷺ: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ[2]»[3] يعني: البقرة وآل عمران فصار عندنا - الآن - ترتيب السور بعضه توقيفي وبعضه غير توقيفي، أما ترتيب الآيات فتوقيفي.



❁ قال الله تعالى:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١-٣]

❁ التفسير ❁

(ح م ع س ق): خمسة أحرف لكنها أحرف هجائية يعني: هي مثل: [ألف باء تاء ثاء جيم] وهكذا. لماذا اختار الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذه الحروف بعينها دون غيرها؟ نقول: هذا ليس إلينا ولا يمكن أن نحيط بذلك علمًا لكن لنا أن نسأل هل لهذه الحروف معنى؟ المؤلف أثبت لها معنى وهذا يقتضي أنها معلومة ولكنها غير معلومة وهذه الحروف الهجائية التي ابتدئت بها بعض السور اختلف فيها العلماء - رحمهم الله - سلفًا وخلفًا ما معناها؟ وهل هي رموز، أو أسماء للسور التي جاءت فيها؟ ولكننا إذا طبقنا ذلك على ما تقتضيه الأدلة وجدنا أنها حروف هجائية ليس لها معنى والدليل على ذلك؛ أن القرآن بيان لجميع الناس ولو قُدِّر أن القرآن فيه أشياء مجهولة لما كان بيانًا لجميع الناس؛ لأن مقتضى البيان ألَّا يكون فيه شيءٌ غير معلوم فهذا لا يمكن وقد قال الله تعالى:

---

(١) رواه مسلم (٧٧٢)، والنسائي (١١٣٣)، وأحمد في مسنده (٢٣٣٠٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) قالوا: سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما.

(٣) رواه مسلم (٨٠٤)، وأحمد في مسنده (٢٢٢٠٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، والبيان هنا البيان المعنوي والبيان الأصلي، واعلم أنه لا يوجد شيء في القرآن لا يفهم الناس معناه أبدًا لابد أن يفهموا معناه.

ثانيا: قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، قلنا: هذه الحروف في لغة العرب، فبمقتضى كون القرآن باللسان العربي وأنه بلسان عربي مبين يقتضي أنَّ لهذه الحروف معنى؛ لأن هذه الحروف ليس لها معنى في اللغة العربية وهذا هو الذي نقله ابن كثير[1] - رحمه الله - عن إمام المفسرين (قتادة) الذي أخذ تفسير القرآن عن (ابن عباس) قال: بأن هذه الحروف الهجائية ليس لها معنى نجزم بذلك أم لا؟ نعم نجزم بذلك لا تخرصًا ولكن استدلالًا بالقرآن واستدلالًا بحال القرآن، أما استدلالًا بحال القرآن فإن القرآن ليس فيه قول لا يعرف الناس معناه لابد أن يكون معلومًا، وعلى هذا فإننا نجزم بأن هذه الحروف ليس لها معنى ولكن يرد علينا إشكال إذا قلنا إنها ليس لها معنى صار إنزالها وكلام الرب بها - عَزَّ وَجَلَّ - عبثًا، والله - سبحانه وتعالى - لا يفعل شيئًا عبثًا فنقول: ليس بعبث هي بذاتها ليس لها معنى لكن لها مغزى يقترن بالتحدي وهو أن يقال: إنكم أيها العرب تُرَكِّبُونَ كلامكم من هذه الحروف والقرآن من هذه الحروف بل كله من الحروف التي تتكلمون بها وهذا مثال: (ح م ع س ق) ومع هذا عجزتم أن تأتوا بمثله فيكون بهذا مغزى عظيم فكأنه يقول لهم: ها أنتم أهل فصاحة وهذه الحروف من جنس ما تتكلمون به وليست جديدة ومع ذلك فقد عجزتم عن الإتيان بمثله، ولذلك لا تجد سورة بدأت بهذه الحروف إلَّا وتجد بعدها ذكر القرآن الكريم أو ذكر ما لا يمكن إلَّا بوحي ننظر - الآن - فمثلًا: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، في البقرة، وقوله: ﴿الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، في آل عمران، وقوله: ﴿المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ في الأعراف، وهَلُمَّ جرًّا، وكأنه يقول له: إن الذي أنزل هذه الحروف لا يتأتى القرآن إلَّا عن طريق من أنزل هذه الحروف.



﴿حم (١) عسق﴾، نقول في تفسير هذه الحروف: هجائية ليس لها معنى لكن لها مغزى كالإيحاء ﴿يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾، [فاعل الإيحاء] (كذلك) تأتي في القرآن كثيرًا وإعرابها في جميع المواطن - إلَّا يسيرًا - أن تقول: (الكاف) نائبة عن مفعول مطلق وعاملها ما يأتي بعدها (الكاف): بمعنى:مثل منصوبة، على أنها مفعول مطلق عاملها ما يأتي بعدها حَوِّل (الكاف) إلى

(١) راجع تفسير ابن كثير (١/ ١٥٦- ١٦١).

(مثل) (كذلك) أين العامل فيها (يُوحِي) أي: يوحي إليك مثل ذلك الإيحاء، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، المشار إليه الوحي وقوله: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾، الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء[1] ويطلق على الرمزة وقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾، ويطلق على الإلهام كما في قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾.

أما في الاصطلاح: فالوحي إعلام الله بالشرع لأنبيائه ورسله، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، معطوف على ﴿إِلَيۡكَ﴾، وإذا كانت معطوفة على ﴿إِلَيۡكَ﴾ كان تقدير الفعل ويوحي إلى الذين من قبلك لكن لاحظ أن المؤلف ـ رحمه الله ـ قال: في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، فقدر فعلًا ماضيًا مع أنها معطوفة على معمول وهو فعل مضارع؛ لأن إيحاء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى رسوله محمدٍ ﷺ مستمر فلهذا قدر المؤلف فعلًا ماضيًا ولكننا نقول: الأصل عدم التقدير؛ لأن القرآن كامل وهنا لا ضرورة للتقدير فنقول: ذلك يوحي إليك ويوحي إلى الذين من قبلك ويكون ذكر الإيحاء لمن سَبَقَنَا من باب سورة الحال فإنه ـ سبحانه وتعالى ـ وحيه لمن سبق يوحي بالمضارع، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، المراد به الأنبياء والرسل، وقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، فاعل [الإيحاء] لو قال: فاعل (يوحي) لكان أحسن من حيث بيان الإعراب، وعلى هذا نقول: يوحي فعل مضارع والله فاعل وهو علم على ربنا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

قيل: وأصله الإله فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال كما حذفت الهمزة من خير وشر من قولك فلان خير من فلان وفلان شر من فلان، والتقدير أخير وأشر، ومعنى كلمة (الله) ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هذه الكلمة العظيمة قيل: هو اسم جامد ليس له معنى وهذا كلام غير صحيح؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، والاسم المجرد عن المعنى لا يدخل في الحسنى، بل ولا في الحسن، فكل اسم هو متضمن لصفة أو أكثر وليس في أسماء الله اسم جامد لا يحمل معنى أبدًا وعلى هذا نقول: (الله) مشتق من الألوهية ومعناه: التذلل للمألوه مع المحبة والتعظيم فالله معناه المتألَّه إليه حبًا وتعظيمًا.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾، قال المؤلف: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ [في ملكه]، لكنه ما فسر معنى العزة والعزيز، في الأصل الغالب العزيز يعني: الغالب القاهر لمن سواه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ واستمع إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾، من يريد بالأعز يريدون أنفسهم ويريدون بالأذل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه ماذا قال الله رادًا عليهم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: لله الغلبة ولرسوله وللمؤمنين وتأمل قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ﴾، ولم يقل: الله الأعز مع أنهم هم

(١) مشارق الأنوار (٢/ ٢٨١)، ولسان العرب (١٥/ ٣٧٩)، وتهذيب اللغة (٥/ ١٩٣).

يقولون: ﴿ٱلۡأَعَزُّ﴾ و﴿ٱلۡأَذَلَّ﴾ فلم يقل الله أعز ولو قال الله أعز لأثبت للمنافقين عزة مفضولة، ولكنه في الحقيقة أنه لا عزة للمنافق بل هو مغلوب دائمًا بل حاله يدل على أنه مغلوب؛ لأنه مختفٍ جبان ولهذا نقول: الكافرين الخلص أشجع من المنافقين؛ لأنهم يصرحون ويعلنون لكن المنافق ذليل يظهر الإسلام خوفًا من المسلمين ويبطن الكفر؛ لأنه كافر والعياذ بالله، فالمؤلف ـ رحمه الله ـ لم يبين معناها فنقول: العزة يعني: الغلبة.

قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، يقول المؤلف: [في صنعه]. وهذا ناقص جدًّا؛ لأن حكمة الله ـ تعالى ـ ليست مقتصرة على ما في صنعه، وإنما هو ـ سبحانه ـ حكيم في صنعه، وفي خلقه، وفي شرعه واقرأ قول الله ـ تعالى ـ في سورة الممتحنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ فهو ـ جل وعلا ـ حكيم في شرعه وفي خلقه في كل ما خلقه الله ـ تعالى ـ فالحكمة تقتضي وجوده وكل ما أعدمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ فالحكمة تقتضي عدمه فهذا أمر مسلم به وكل ما شرعه الله إيجابًا أو تحريمًا يقتضي شرعه. كذلك فالواجب يقتضي الحكمة إيجاباً، والمحرم تقتضي الحكمة تحريمه والمباح تقتضي الحكمة إباحته، لكن لا يلزم من وجود الحكمة في ذلك معرفتها فهناك حكمة لا يمكن أن نعلمها ومن الممكن عدم علمنا بها وهل إذا حجب عنا علمها يعنى العدم؟ لا؛ لأننا قاصرون.، الإنسان منًّا خُلِقَ ضعيفًا فالإنسان ضعيف في كل شيء، في قوته، وفي علمه، وفي إدراكه في كل شيء ولهذا لما قالوا: ما الروح يا محمد؟ قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، ختم الآية بقوله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، كأنه يقول: ما بقي من العلم إلّا الروح حتى تسألوا عنها، بل الذي فاتكم من العلم أكثر من الذي أدركتموه ولذلك واجب المسلم تجاه خلق الله وتجاه شرع الله أن يستسلم تمامًا وأن يقول: هذه هي الحكمة فمثلًا: لماذا يأتي الناس بحصوات صغيرة يضربون بها مكانًا معيناً؟ نقول: بمجرد كون الله شرع لنا ذلك دليل على الحكمة، ونكتفي بهذا فالحكمة أن يأتي الإنسان بحصوات يضرب بها مكانًا لامتثال أمر الله هذا هو الحكمة؛ لأن فيه كمال التعبد فانقياد النفس لما تعلم فائدته أسهل بالانقياد لما لا تعلم فائدته، والحكمة من ذلك التذلل والتعبد لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مع أن هذا العمل مقرون بذكره ـ تعالى ـ فكل حصاة ترميها تقول: الله أكبر كذلك مقرون بالاتباع فكل حصاة ترميها وأن تشعر أنك متبع لرسول الله ﷺ أقول: إنَّ قصر المؤلف ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ على حكمة الصنعة قاصر ـ بلا شك ـ فهو حكيم في صنعه وحكيم في شرعه ـ تبارك وتعالى ـ لابد أن نعرف ما هي الحكمة؟ يقول العلماء: الحكمة وضع الشيء في

موضعه اللائق به، بمعنى: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا خلق شيئًا أو شرَّع شيئًا،فإنه في المكان اللائق به، ولهذا قال بعض السلف: إن الله لم يأمر بشيء فيقول العقل ليته لم ينهَ عنه[1]، فكل ما ثبت في الشرع لا ينافي العقل، بل إن العقل يؤيده ويشهد بصحته، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ إذن واضع الأشياء مواضعها فما أمر الله بشيء فقال العقل ليته لم يأمر به وما نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، أما الأمور الكونية فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ربما يقدر أشياء تظن أنها شر لكن فيها الخير والصلاح قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قد يقدر أشياء إذا نظر إليها الإنسان في أول وهلة ظنها أنها من الشر أو ليست في مواضعها ولكن هي في الحقيقة في موضعها اللائق بها ولذلك بعد فترة نكتشف أنها في موضعها القدري وهذا لا يرضاه الله يصلي الإنسان ويتصدق ويصوم ويحج هذا حكم الله كوني أو شرعي؟ هذا شرعي والله يرضاه، والقدري يكون فيما يرضاه الله وما لا يرضاه الله أما الحكم الشرعي فلا يكون إلَّا فيما يرضاه الله، فلا يحرم الله شيئًا إلَّا وهو يرضى ألَّا يكون، وما شرع شيئًا أو أحله إلَّا وهو يرضى أن يكون.

من الفروق ـ أيضًا ـ بين الحكم الكوني والحكم الشرعي أن الحكم الكوني لابد من وقوعه إذا حكم الله بشيء والحكم الشرعي قد يقع وقد لا يقع هل كل الناس ملتزمون بأحكام الله الشرعية؟ الجواب لا، فهذان فرقان بين الحكم الكوني والحكم الشرعي، والله ـ تعالى ـ هو الحكيم.

الفوائد

١ ـ بيان قدرة الله ـ تعالى ـ حيث إن كلامه المنزل على نبيه من الحروف التي يتكلم بها الناس ويُرَكِّبُون منها كلامهم ومع ذلك عجزوا أن يأتوا بمثله، (ح م ع س ق).

٢ ـ إثبات نبوة النبي ﷺ لقوله: ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾.

٣ ـ إثبات النبوة من قوله: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٤ ـ إثبات هذين الاسمينِ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهما: العزيز والحكيم، واعلم أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لابد أن تتضمن شيئين: ثبوت ذلك الاسم لله، فمثلًا: العزيز نحن نشهد أن من أسماء الله (العزيز)، كذلك نشهد أن من أسماء الله (الحكيم)، والشيء الثاني الذي دلَّ عليه هذا الاسم فمثلًا: العزيز دل على العزة، والحكيم على الحكمة لابد من كل اسم من هذيْنِ أن يتضمن الصفة، قد يتضمن الاسم شيئًا ثالثًا وهو الأثر المترتب على ذلك فمثلًا: السميع يتضمن إثبات اسم السميع لله وإثبات السمْع له، والصفة معنى زائد على الذات وهو أن الله يسمع كل شيء وفي

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٤١)، والبداية والنهاية (٦/ ٧٢).

الحكيم نقول: كذلك إثبات الحكيم اسمًا لله، والثاني إثبات الحكمة صفة لله وإثبات الحكم والثالث أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يحكم بين العباد.

٥ـ كمال عزته وكمال حكمته ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وفي هذا إشارة إلى أن عزته وغلبته مبنية على الحكمة فهي مبنية على الحكمة أما عزة المخلوق قد توجب أن يتصرف تصرفًا سفيهًا كما في قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، فهنا صار له عزة ولكنها لم تنفعه؛ لأنها ليست مقرونة بالحكمة كذلك ـ أيضًا ـ حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مقرونة بعزته؛ لأن الحكيم قد يكون خوارًا فيفوته شيء كثير ويفوته الحزم، من أجل أنه يقول: إن ذلك هو الحكمة لكن حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مقرونة بعزته ولهذا نحن نستفيد ـ الآن ـ معنىً زائدًا على ما نستفيده بمجرد الاسم.

٦ـ أن الشرائع التي أوحيت إلى الرسل هي عزة وحكمة، قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فمن تمسك بهذه الشرائع نال الأمرين جميعاً.



قال الله تعالى:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]

التفسير

﴿لَهُ﴾، الضمير يعود على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنتم تعلمون أن (له) خبر مقدم والمبتدأ (ما) في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾؛ لأن ما مؤخرة والقاعدة عند أهل البلاغة أن تقديم ما حقه التأخير يقتضي الحصر والاختصاص فقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، يعني: لا لغيره من العالمين.

قال المؤلف: [ملكًا وخلقًا وعبيدًا]. لو بدأ بالخلق قبل الملك لكان أحسن؛ لأن الخلق سابق ـ وعلى كل حال ـ المسألة ليست ذات أهمية كبيرة.

والمعنى: أنه مالك أعيانهم وخلقًا يعني: أنه خالقها وعبيدًا بالمعنى القدري بمعنى:أن ما في السماوات والأرض متذلل لله ـ تعالى ـ كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾.

وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، جمعها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أفردها؛ لأن السماوات أعظم من الأرض ولهذا تجيئ كثيرًا بلفظ الجمع وتجيء بلفظ الإفراد في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، فإذا جاءت بالإفراد فالمراد الجنس وإذا جاءت بالجمع فالمراد العدد والسماوات عددها سبع كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾.

والأرض لم تأتِ في القرآن إلَّا مفردة باعتبار الجنس ولكن القرآن أشار إلى أنها سبع في قوله - تعالى -: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾، المثلية لا يصح تنزيلها على الكيفية؛ لأن السماء أعظم وأكبر وأوسع إذن ما بقي إلَّا أن ننزلها على الكمية فيكون معنى قوله: ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾، يعني: أي في العدد، وقال النبي - عليه الصلاة والسلام: «مَنِ اقْتَطَعَ[1] شِبْرًا[2] مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ[3] اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[4] وهذا نص صريح وكذلك يروى عنه - عليه الصلاة والسلام - كان يقول إذا أقبل على البلد: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ»[5] فهي سبع أرضين، ولكن كيف هي سبع أرضين هل المعنى أنها سبع أقاليم، أو سبع قارات، أو ماذا؟ نقول: هي سبع أرضين طباقًا كما أن السماوات سبع طباق كذلك الأرضون سبع طباق، ويدل لهذا أن النبي ﷺ قال: «طَوَّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»؛ لأنها لو كانت الأقاليم لكان يملك قطعة أرض هنا لا يملكها في المكان الآخر، لكن الذي يملك قطعة هنا له ما يملكه على سطح الأرض وله ما تحته إلى الأرض السابعة ولهذا قال العلماء: الهواء تابع للقرار والأسفل تابع للأعلى.

قوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾، [على خلقه] ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، [الكبير] نعم هو العلي العظيم قرنه الله - تعالى - في هذا وفي آية الكرسي، ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾: وزنها الصرفي فعيل صفة مشبهة، والصفة المشبهة تقتضي وصف الموصوف بها دائمًا إذن العلي وصف لازم لله - عَزَّ وَجَلَّ - أزلا فالعلو إذن صفة ذاتية.

(مسألة) هل العلو هنا علو الصفة التي اتفقت الأمة الإسلامية عليها أم علو الذات الذي أنكره من أنكره؟ المراد كلاهما أما علو الصفة فإن المسلمين كلهم أجمعوا على ذلك حتى الجهمية والمعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرهم كلهم أجمعوا على ثبوت صفة العلو لله - عَزَّ وَجَلَّ - أي

---

(١) أي أخذ والمراد الأخذ بغير حق.

(٢) أي قدره من الأرض.

(٣) التطويق: أن يُجعل له ما غصبه ظلما مِثْلَ الطوق في العنق تنكيلا وتعذيبا، وقيل: هو أن يُطَوَّق حَمْلَه يوم القيامة أي يُكلَّف، فيكون من طَوْق التَّكْلِيف.

(٤) رواه مسلم (١٦١٠)، والطيالسي في مسنده (٢٣٧)، وأبويعلى في مسنده (٩٥٩)، والطبراني في الكبير (١/ ١٥٣)، والبيهقي في الكبرى (١١٣١٢) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه (٢٧٠٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠١٠٠) من حديث صهيب رضي الله عنه، وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

علو الصفة ولهذا أقول لكم: المعطلة الذين أنكروا الصفات - أتدرون لماذا عطلوا - قالوا: لأننا ننزه الله؛ لأن ثبوت هذه الصفات يستلزم على زعمهم تنزيهًا لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

أما علو الذات فهذا الذي اختلف فيه الناس إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

القسم الأول: أنكره لكن جعل الله - سبحانه وتعالى - في كل مكان، يقول الله - سبحانه وتعالى - ليس خاصًا في صفة العلو بل هو في كل مكان كالجهمية والحلولية ولهم شبهة في ذلك.

القسم الثاني: عكس هذا تمامًا قال: لا يجوز أن نقول: إن الله في مكان لا عالي ولا نازل بل هو - سبحانه وتعالى - لا في يمين ولا شمال ولا فوق ولا أسفل ولا خلف ولا أمام ولا متصل ولا منفصل ولا مباين ولا محايد وهلم جرًّا من الأمور السلبية على عكس الأولين تمامًا، وإني أسألكم بالله أين يكون الإله إذا كان ينفى عنه كل شيء؟ فهنا يكون عدما ولهذا قال (السلطان محمود بن سبكتكين) - رحمه الله: أحد القواد المشهورين وهو يناظر (محمد بن فورك): أحد المتكلمين لما قال محمد بن فورك: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه قال له محمود: بين لي ما الفرق بين العدم وبين ربك الذي تصفه لي[1]؟ ما الجواب؟ لا فرق!!

القسم الثالث: يقولون: إن الله عالٍ بذاته فوق كل شيء وعلوه لازم لذاته وهو - سبحانه وتعالى - بائن من خلقه بمعنى: أنه ليس حالًّا فيهم ولا هم حالُّون فيه وهذا مذهب أهل الحق الذي دلّ عليه القرآن والسنة والعقل فهناك خمسة أدلة كلها تدل على أنه - سبحانه - عال بذاته وهي - أيضًا - دلالات متنوعة، فدلالات القرآن ليست على وجهٍ واحد فهي متنوعة وكذلك في السنة، فالقرآن مليء بالأدلة على علوه سبحانه قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وأدلة كثيرة غير ما سقناه هنا.

وكذلك من السنة أدلة قولية وفعلية وإقرارية، فمثلًا: النبي ﷺ يقول في سجوده: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»[2] فيثبت علوه، وأما الإقرارية: فإنه سأل الجارية أين الله؟ قالت: في السماء، فأقرها ﷺ[3]، وكذلك يوم خطب الناس يوم عرفة يقول: أَلاَ هَلْ بَلَّغتَ؟، فيقولون: نعم، فيقول: اللَّهمَّ اشْهَد وَهُو يرفع أصبعه إلى السماء[4]. وهذه دلالة على علو الله - سبحانه وتعالى -.

وأما الإجماع: فالسلف على رأسهم الصحابة مُجْمِعُوْنَ أن الله - تعالى - فوق كل شيء إجماعًا

---

(١) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد (١/ ١٩٣).

(٢) كما رواه مسلم (٧٧٢)، وأبوداود (٨٧١)، والترمذى (٢٦٢) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبوداود (٩٣٠)، والنسائى (١٢١٨) عن معاوية بن الحكم السلمى رضى الله عنه.

(٤) رواه البخارى (١٦٥٤)، ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه.

قطعياً؛ لأنهم كلهم يقولون في سجودهم: سبحان ربي الأعلى، ولم ينقل عن واحد منهم أنه قال: إن الله ليس في السماء، أبدًا ما قالوا هذا، وهذا طريق واضح ما يخالف دلالة القرآن فهم مُجْمِعُوْنَ على ما دلّ عليه القرآن.

أما دلالة العقل: أيهما أَوْلَى؟ ربٌّ يوصف بالعدم أَمْ رب فوق كل شيء؟ لا شك الجواب: أن الله يُوصَفُ بأنه فوق كل شيء، ثم إن العلو من حيث هو العلو صفة كمال، أليس كذلك؟ وإذا كان صفة كمال فقد أثبت الله لنفسه العلو، هذه الدلالة العقلية.

أما الدلالة الفطرية: ـ أيضًا ـ الفطرة دلت على علو ذاته، الإنسان بفطرته قبل أن يتعلم وهو عامي إذا أراد أن يدعو الله تجده يرفع يديه إلى السماء وقلبه كذلك متجه إلى السماء؛ ولهذا قال (أبو العلاء الهمداني) (للإمام الجويني) وهو يقرر ـ أعني الجويني ـ عفا الله عنه ـ ولعله تاب فتاب الله عليه ـ يقرر إنكار العلو يعني: استواء الرب على العرش، ويقول: إن الله كان ولا شيء معه وهو ما عليه ـ الآن ـ كان!! ماذا يريد؟ هو يريد أن ينكر الاستواء على العرش والعلو أيضاً، فقال له أبو العلاء الهمداني: يا أستاذ! دعنا من ذكر العرش والاستواء على العرش أخبرني عن هذه الفطرة ما قال عارف قط يا الله إلَّا ووجد من قلبه ضرورة من طلب العلو! سبحان الله أليس الأمر كذلك؟ ما قال عارف، والعارف يطلق على الصوفي، إلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فجعل يلطم على رأسه، وجعل يقول: حيرني حيرني حيرني، قال ذلك لأنه وقف على الإجابة فهذه دلالة فطرية لا يمكن لأحد أن ينكرها ـ فالحمد لله الذي هدانا لهذا ـ.

إذن: علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينقسم إلى قسميْنِ: علو ذاتي وعلو وصفي، والثاني لم تختلف الأمة الإسلامية فيه والأول وهو العلو الذاتي، انقسموا فيه إلى ثلاث فرق:

والفرقة الناجية التي تقول: بأن الله يوصف بالعلو الذاتي والعلو كصفة؛ فإن الله ـ تعالى ـ فوق كل شيء فما شيء خارج عن قبضة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا كانت السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، والحلقة هي حلقة المغفر وهي ضيقة فإنها لا تشغل شيئاً.

قال النبي ﷺ: «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الكُرْسِيْ كَفَضْلِ الفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الحَلَقَةِ»[1] إذا ما تكون الكرسي في العرش؟ لا شيء والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فوق ذلك فهو ـ سبحانه وتعالى ـ فوق كل ذلك لا شيء يحاذيه كل المخلوقات تحته ـ سبحانه وتعالى ـ وهو فوق كل شيء إذن أثبتنا هذا العلو ومع

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه (٣٦١) من حديث أبى ذر رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٩).

ذلك يوجد - الآن - من ينكره - نسأل الله العافية - ولا شك أن هؤلاء قد أزاغ الله قلوبهم وإلّا لو رجعوا إلى فطرتهم فقط لعلموا أن الله - تعالى - فوق كل شيء، قال المؤلف - رحمه الله -: [هو العلي على خلقه].

لا نستطيع أن نقول: إن المؤلف - رحمه الله - أنكر العلو الذاتي أو أثبته قطعًا فإن العلي على خلقه يحتمل العالي عليهم بالسلطان والقهر والغلبة ويحتمل أنه عليهم بذاته - فعلى كل حال - لا نقول: إن المؤلف أنكر العلو ولا نشهد بأنه أثبته؛ لأن المؤلف - رحمه الله - من الأشاعرة فلا ندري، لكننا يجب علينا إذا سمعنا كلاما من إخواننا المسلمين من الممكن أن يكون له محمل صحيح أن نحمله على المحمل الصحيح ما لم توجد قرينة تمنع ذلك وإلّا فالأصل إذا سمعت من أخيك كلمة يجب أن تحملها على المحمل الصحيح حتى ولو قلت: إنه يسخر منَّا مثلًا أو يستهزئ بنا لا تحملها على هذا احملها على المعنى الحق.

أما العظيم يقول - رحمه الله -: [الكبير]، وفي هذا نظر؛ لأن الكبير غير العظيم، فالعظيم يعني: قوة السلطان، قوة العلم، أي شيء يحتمل من هذه المعاني فهو داخل في كلمة العظيم.

الفوائد

من فوائد قوله - تبارك وتعالى -: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾:

١ - عموم ملك الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن (ما) اسم موصول يفيد العموم.

٢ - ومن فوائدها:

أن ذلك مختص بالله، لا يشاركه فيه أحد وذلك بتقديم الخبر والقاعدة البلاغية: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، فإن قال قائل: يرد على قولكم هذا أن الله أثبت للإنسان الملك، فقال مثلًا: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾، وما أشبه ذلك؟

الجواب: أن ملك الإنسان بالشيء لا يسمى ملكًا مطلقًا ولا ملكًا عامًا فهو ليس ملكًا مطلقاً؛ لأن الإنسان لا يملك أن يتصرف في ماله كما شاء، لو أراد أن يحرق ماله، فهل له ذلك؟ الجواب: لا.

وليس - أيضًا - عامًا، فملك كل إنسان منَّا خاص به فأنت لا تملك مالي، وأنا لا أملك مالك، ملك الله - عَزَّ وَجَلَّ - مطلق عام، فظهر الفرق بين ملك الرب - عَزَّ وَجَلَّ - وملك المخلوق.

٣ - إثبات عدد السماوات؛ لأنها جاءت بلفظ الجمع، وقد بَيَّنَ الله - سبحانه وتعالى - في موضع آخر أنها سبع سماوات، أما الأرض فجاءت في القرآن مفردة لكن الله أشار إلى أنها جمع في قوله:

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

٤ـ إثبات علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾.

٥ـ أن العلو صفة لازمة لله ليست من صفات الأفعال التي إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، ووجه الدلالة أن العلي صفة مشبهة، والصفة المشبهة تفيد الثبوت وعدم التحول.

٦ـ علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الشامل لعلو الذات وعلو الصفة.

٧ـ إثبات عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، مأخوذة من قوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾.

٨ـ إثبات هذيْنِ الاسميْنِ لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، العلي والعظيم واضح فمثلًا: ـ الآن ـ معي قلم دلالة على غطاه وعلى أصله، دلالة ذات ودلالة على واحد منها دلالة تضمن، إذن نأتي على أسماء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، نقول: من أسماء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ (الخالق) دلالته على الذات الإلهية وعلى الصفة التي هي الخلق (دلالة مطابقة) ودلالتها على الذات وحدها، أو على الخلق وحدها (دلالة تضمن)، ودلالته على العلم والقدرة؛ لأنه ما من خالق إلَّا وهو عالم، وما من خالق إلَّا وهو قادر (دلالة الالتزام)، أما النوعان الأول والثاني دلالة المطابقة والتضمن، لا تشكل على أحد، كل طالب علم يمكن أن يعرفها وأما دلالة الالتزام فهي التي تخفى على كثير من الناس، ولذلك يختلف فيها العلماء اختلافًا كثيرًا، فدلالة الالتزام لازمة في كل قول أو في كل ما قاله الله ورسوله.؟ الجواب: الثاني؛ لأن دلالة الالتزام قد ينكرها مَنْ يتكلم بالكلام، فمثلًا: نقول: الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان حتى الحشوش والأماكن القذرة، هم لا يلتزمون بهذا لو التزموا بهذا لكفروا لا محالة، ولا يشك أحد في كفرهم، لكن لا يلتزمون بهذا، ولذلك عبر العلماء عن هذه الكلمة: هل لازم القول بلازم؟ الجواب: لازم القول ليس بلازم، إلَّا كلام الله ورسوله وأما غيرهما فلا؛ لأنه إذا آذناه به لا يلتزم، ويحتمل إن آذناه به التزم ولم يطرأ على باله هذا اللازم.



قال الله تعالى:

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

التفسير

قوله ـ تعالى ـ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن﴾، هكذا مكتوب عندي.

يقول الشارح: [تكاد بالتاء والياء يعني: تكاد ويكاد]، أما تكاد فمعناها ظاهر؛ لأن السماوات جمع وكما قال الزمخشري: جمع مؤنث، وتكاد مطابقة لمرفوعها، ويكاد للمذكر، والسماوات مؤنث فما الجواب؟ فالجواب: أن المؤنث إذا كان مجازيًا جاز تذكيره وتأنيثه أي: تذكير فعله وتأنيثه، فتقول: طلعت الشمس وطلع الشمس، فيجوز هذا وهذا؛ لأنه مجازي، أما إذا كان حقيقيًا وهو الذي له فرج من بني آدم أو غيره، فإنه يجب تأنيث عامله تقول: قامت امرأة ولا تقول: قام امرأة، أما السماوات فمجازي، ولهذا جاء فيها قراءاتان: ﴿تَكَادُ السَّمَوَٰتُ﴾، ومعنى تكاد: تقرب، فهي من أفعال المقاربة.

تكاد السماوات، يعني: السبع، وقوله: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، [بالنون وفي قراءة بالتاء والتشديد]، سمعية أم غير سمعية؛ لأن قاعدة المفسر ـ رحمه الله ـ: أنه إذا قال: في قراءة أو قال: بالتاء والياء أو قال: بالمد وحذفه أن القراءة، ينفطرن، ولك أن تقول: ويتفطرن، والانفطار بمعنى: الانشقاق، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ﴾، وقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾، لم يقل: من أسفل؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فوق، والسماوات تكاد يتفطرن من فوقهن، قال الشارح رحمه الله: [أي: تنشق كل واحدة فوق التي تليها من عظمة الله] ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ولولا أن الله أمسكها لتفطرت، كما أن الله ـ جل وعلا ـ لما تجلى للجبل جعله دكًا، فالسماوات على عظمها وقوتها وشدتها تكاد تنفطر من عظمة الله ـ جَلَّ وَعَلَا ـ.

قال: ﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، انظر إلى العظمة، عظمة تكاد السماوات يتفطرن منه، عظمة أخرى بأن الملائكة يسبحون بحمد ربهم، نقول: الملائكة عالم غيبي خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور، وسخرهم لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فهم عالم غيبي لا يُشَاهَدُون، وهم خُلِقُوا من نور، قال النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ: «أَطَّت[1] السَّمَاءُ وَحُقَّ[2] لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا و فِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ لله أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ»[3] أطت يعني: صار لها صرير كصرير الرحل المحمل، لعلكم أدركتم الرحل المحمل، الرحل على البعير إذا ثقل الحمل صار له صرير مع حركة السير، السماء لها هذا من كثرة ما عليها من الملائكة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: حق لها أن تئط، إذن: الملائكة تفسيرها: عالم غيبي خلقهم الله ـ تعالى ـ من نور كما ثبت

(١) بتشديد الطاء من الأطيط ، وهو صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل أصواتها وحنينها على ما في النهاية أي صوتت.

(٢) بصيغة المجهول أي ويستحق وينبغي.

(٣) حسن : رواه الترمذى (٢٣١٢) ، وأحمد فى مسنده (٢١٥٥٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ، ووحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٤٤٩).

عن النبي ﷺ[(١)]، وهو سخرهم لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وإذا أمرهم الله بشيء لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وضدهم الشياطين، عالم غيبي، خلقوا من نار، عصاة لله مستكبرون عن عبادته، وأبوهم الشيطان الأكبر إبليس فإذا قال قائل: أنتم قلتم: عالم الغيب، أليس جبريل - عليه السلام - قد شاهده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حقيقته وله ستمائة جناح قد سد الأفق[(٢)]، فالجواب: بلى لكن هذا لا ينافي أنه عالم غيبي في الأصل، وقد يُظْهِرُهُمُ الله - تعالى - لبعض الناس وقد يتشكلون، يكون الملك بصورة الآدمي كما جاء جبريل في صورة رجل غريب ولكن لا يرى عليه أثر السفر[(٣)]، وجاء مرة بصورة دحية الكلبي[(٤)]، فهم قد يتشكلون بصور الآدمي، هذا التشكل هل هو بإرادتهم أو مِنَ الله - عَزَّ وَجَلَّ -؟، السؤال عن هذا بدعة، هل لنا مصلحة أن نعرف أن جبريل يستطيع أن يحول نفسه إلى صورة آدمي، أو أن الله يقلبه في صورة آدمي؟ ما لنا مصلحة، لكن نعلم أنه لا يقع ذلك إلَّا بإرادة الله سواء كان بفعل اختياري من جبريل أم بفعل خلقي من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، نقول: ليس لنا حق أن نسأل فإن السؤال بدعة، فكل أمور الغيب لا تسأل عنها أَجِرْهَا على ما جاءت؛ لأنه سبقك مَنْ هو أحرص منك علمًا وأقوى منك إيمانًا، وباشر مَنْ يستطيع الجواب والرد وهم الصحابة ومع ذلك ما سألوا إذا لم يَسَعْكَ ما وَسِعَ الصحابة فلا وسع الله عليك، ولهذا يجب أن نقول لبعض الشباب - الآن - الذين يبحثون في أسماء الله وصفاته ويتعمقون: يجب أن ننهاهم ونقول: اتقوا الله، آمنوا بالقرآن والسنة على ما جاء في القرآن والسنة ولا تبحثوا، سبقكم مَنْ هم أحرص منكم علمًا وما سألوا، ثم هم لو سألوا سيسألون الرسول الذي ينزل عليه الوحي وسيجيبهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بما سألوا عنه، أما أن تسأل إنسانًا يُخْطِئُ ويُصيب وأنت وهو سواء في علم الغيب فهذا من الخطأ والسفه ومن مخالفة جادة السلف، وما أحسن ما قال مالك - رحمه الله - للذي سأله عن كيفية الاستواء قال: (الكيف مجهول والاستواء معلوم والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[(٥)] وما أراك إلَّا مبتدعًا)، فنصيحتي لكم أن تَدَعُوا الأمور الغيبيَّة.

مسألة أخرى: هل الملائكة أجسام؟ الجواب: نعم لا شك قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ

---

(١) كما روى مسلم (٢٩٩٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم.

(٢) رواه البخارى (٣٠٦٢)، ومسلم (١٧٧) من حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

(٣) كما روى مسلم (٨)، وأبوداود (٤٦٩٥) من حديث عبدالله بن عمر رضى الله عنهما.

(٤) كما رواه النسائى (٤٩٩١) من حديث أبى هريرة وأبى ذر رضى الله عنهما، وصححه الألبانى فى تعليقه على السنن.

(٥) تفسير الثعلبى (٤/ ٢٩٣)، وكتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية (١٦/ ٤٧٣).

﴿أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وأما مَنْ قال: إن الملائكة كناية عن قوى الخير والشياطين كناية عن قوى الشر فهذا يعني إنكار الملائكة والشياطين بل نقول الملائكة أجسام لها أجنحة والشياطين أجسام تأكل وتشرب قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، ـ أعاذنا الله وإياكم من الشيطان ـ ولكن نؤمن بأن الملائكة أجسام والشياطين أجسام لكن هل نعرف كيفيتهم؟ لا نعرف إلَّا ما علمنا الله وما لم يُعْلِمْنَا لا نعرفه.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، أي: [ملابسين للحمد] أفادنا المؤلف بقوله: [أي، ملابسين بالحمد] أن الباء هنا للملابسة والمصاحبة ومعنى يسبح أي: ينزه، أي تسبحيًا مسبوقًا بالحمد؛ لأن التسبيح تنزيه وتقديس، والحمد ـ عكس ذلك ـ إثبات، فيجتمع في هذا تنزيه الله عن كل نقص وإثبات كل كمال له، من أين أخذنا ذلك؛ لأن الإثبات من الحمد والتنزيه من التسبيح.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المفعول محذوف للعلم به من هو المستغْفَر؟ هو الله سبحانه ويستغفرون الله.

الاستغفار: طلب المغفرة؛ لأن استفعل تأتي دائمًا وغالبًا بمعنى:الطلب تقول: استسقى، بمعنى:طلب السقيا واستغفر بمعنى:طلب المغفرة، واسترحم بمعنى:طلب الرحمة، وما أشبه ذلك، وقد تأتي لغير ذلك كما في قولك: استكبر ما فيها طلب استكبار لكنه بلَّغ في الكِبْرِ غايته، يستغفرون أي: يطلبون المغفرة من الله فما هي المغفرة؟ قالوا: إنها مشتقة من المِغْفَر، المغفر شيء يجعله المقاتل على رأسه ليقيه السهام، ففيه ستر ووقاية، فإذا قلت: أستغفر الله أو رب اغفر لي فأنت تطلب شيئين: الشيء الأول: الستر بأن يستر عيوبك عن الناس فلو علم الناس ما عندك من المعايب ما ردوا عليك السلام. كما قال القحطاني ـ رحمه الله ـ:

وَاللهِ لَوْ عَلِمُوا خَبِيءَ سَرِيرَتِي ... لَأَبَى السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي[1]

فأنتَ تسأل الله أن يستر عليك.

الشيء الثاني: أن تسأل الله الوقاية من الذنب، وهو العذاب فكل مذنب يستحق العذاب لو طلب الإنسان المغفرة أي: عدم المؤاخذة على الذنب، نقول: هذا بعض معناه؛ لأن معنى المغفرة، ستر الذنب وعدم المؤاخذة عليه.

وقوله: ﴿لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، مَنْ هنا اسم موصول يفيد العموم فهل هو عام؟ لا إنما هو عام يُرادُ

---

(١) نونية القحطانى (ص٩).

به الخاص بدليل قوله - تعالى - في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، إذن: من هنا عام يراد به الخصوص.

لو قال قائل: هو عام خُصِّصَ، قلنا: لا؛ لأنه لا يُرَادُ العموم أصلا، إنما يريد الخصوص، ولهذا قال المؤلف: [من المؤمنين]

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، (أَلَا) أداة استفتاح تبتدأ بها الجملة وتفيد شيئين: الأول: التنبيه، والثاني: التوكيد، وننظر، (إن الله)، إن: حرف توكيد، هو: ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد التوكيد، وحينئذ يحق لنا أن نقول: إن هذه الجملة أكدت بثلاثة مؤكدات وهي: ألا، وإن، وهو الذي هو ضمير الفصل.

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ولذلك طلبت الملائكة منه المغفرة؛ لأنه - سبحانه وتعالى - أهل لذلك، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، فبمغفرته تزول المكروهات وبرحمته تحصل المحبوبات.

قال الله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥].

فوائد الآية:

١- بيان عظمة الله - سبحانه وتعالى - وأن هذه السماوات على شدتها وقوتها تكاد تتفطر من عظمة الله وهذا كقوله لما سأل موسى ربه: ﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، بل إن كلام الله - تعالى - لو نزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله.

٢ - **ومن فوائدها:** بيان علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - الذاتي لقوله: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

٣ - **ومن فوائدها:** إثبات الملائكة لقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، ويجب علينا أن نؤمن بالملائكة بأنهم عالم غيبي وأن لهم أجسامًا وأن لهم أجنحة كما قال الله - تبارك وتعالى -.

٤ - **ومن فوائدها:** كمال عبادة الملائكة لله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، فيجمعون له بين التنزيه والتمجيد، فالتنزيه بقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، والتمجيد بقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٥ - **ومن فوائدها:** أن الملائكة أفضل من بني آدم؛ لأن بني آدم ليست حالهم هذه أي: التسبيح بحمد الله بل منهم مؤمن ومنهم كافر فيكون الملائكة أفضل من بني آدم وهذا هو أحد الأقوال في هذه المسألة، ومن العلماء مَنْ يقول: بل صالح البشر أفضل يعني: أن المؤمنين من البشر أفضل من

الملائكة، ولهذا كانت الملائكة مُسخرة لهم وهذا القول هو الذي نص عليه الإمام أحمد: أن صالح البشر أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة خلقوا للعبادة، فليست عندهم صوارف تصرفهم عن عبادة الله، والبشر خُلِقُوا للعبادة لا شك لكن عندهم صوارف تصرفهم عن عبادة الله وهي الشبهات والشهوات ومن المعلوم أن تحقيق الإيمان مع الصوارف أشد مجاهدة ومعاناة من تحقيق الإيمان من عدم الصوارف، ولهذا كان الرجل المتمسك بدين الله في آخر الزمان أفضل من خمسين من الصحابة كما قال النبي ﷺ: «أَجْرُ خَمْسِيْنَ مِنَ الصَّحَابَةِ»[1] وإنما كان ذلك لمشقة العبادة، واختار شيخ الإسلام التفصيل في ذلك فقال: الملائكة أفضل باعتبار البداية، والبشر أفضل باعتبار كمال النهاية؛ لأن البشر في النهاية يدخلون الجنة والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم) كأنهم خلقوا لخدمتهم.

وبعد ذلك الخوض في هذه الأمور المهمة قد نقول: ما علمنا من فضائلهم وفضائل البشر نؤمن به، وأما التفضيل فهو عند الله، والله بصير بما يعملون، فلا ندري من أفضل وإنما باعتبار ما تبين لنا نعطي كل إنسان بما يتميز به، وباعتبار ما عند الله، فالله عليم به، ولسنا مؤاخذين فيما إذا توقفنا في هذا الأمر.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** فضيلة الجمع بين التسبيح والتحميد؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وقد ثبت عن النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ قوله: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ[2] عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللهَّ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ الله الْعَظِيمِ»[3] فما أجدرنا أن تكون هاتان الكلمتين على ألسنتنا دائمًا؛ لأنهما خفيفتان على اللسان ليس فيهما تعب، حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان فماذا كان علينا لو أن الإنسان يديم هذا القول وهو يشتغل وهو يعمل وهو يمشي وهو مضطجع وهو قاعد لحصَّلنا خيرًا كثيرا، ولوصلنا بإذن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إلى محبة الله لنا؛ لأننا ما دمنا نأتي ونلازم فهو أكرم منا ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الملائكة مربوبون ليس لهم حق من الربوبية؛ لقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وعلى هذا فمن دعا جبريل، أو ميكائيل، أو إسرافيل، أو مالك، أو غير ذلك فإنه كافر مشرك بالله ولهذا أهل النار لم يقولوا: يا مالك أخرجنا من النار ولكنهم قالوا كما قال الله

---

(١) روى الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : إن من ورائكم زمان صبر للمتمسك فيه أجر خمسين شهيدا فقال عمر : يا رسول الله منا أو منهم ؟ قال : منكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣٤).

(٢) سهلتان.

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٣) ، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾، انظر إلى الخجل والحياء - والعياذ بالله - لم يقولوا: ادعوا ربنا بل قالوا: ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب؛ لأنهم أحقر في أنفسهم من أن يدعوا الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيقولون: يا ربنا خفف عنا يومًا من العذاب.

٨ - **ومن فوائد الآية:** فضل الملائكة على البشر بمعنى:أن لهم منة ونعمة؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولا شك أن من استغفر لك له منة عليك وفضل.

٩ - **ومن فوائدها:** نعمة الله علينا أن سخر لنا الملائكة يستغفرون لنا؛ لأن الملائكة لولا أن الله سخرهم لنا ما استغفروا لنا، لكن الله سخرهم، ففيه فضل ونعمة من الله - تعالى - على المؤمنين حيث إن الملائكة يستغفرون لهم.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التأكيد على أن الله - سبحانه وتعالى - غفور رحيم وأكد ذلك بثلاث مؤكدات ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

١١ - **ومن فوائدها:** إثبات ثلاثة أسماء من أسماء الله وهي: (الله، الغفور، الرحيم)، وهل أسماء الله - تعالى - مشتقة؟ الجواب: نعم مشتقة - بلا شك -، الله من الألوهية، الغفور من المغفرة والرحيم من الرحمة فهو لم يُسَمَّ بهذه الأسماء إلَّا وهو متصف بما دلَّتْ عليه من صفات ولهذا نقول: كل اسم من الأسماء فهو مقتضٍ لصفة أو صفتيْنِ أو أكثر حسب ما تدل عليه هذه الأسماء من المطابقة والتضمن والالتزام.

١٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أننا إذا علمنا أن الله غفور رحيم فجدير بنا أن نسأله المغفرة والرحمة؛ لأنه أهلٌ لذلك فيكون في هذا تربية للإنسان وسلوكه في وصوله إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بأن يعلم أنه غفور فيستغفر وأنه رحيم فيسترحم.

١٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن فيها حثًا للإنسان على ترك الذنوب، وعلى فعل الطاعات، وجه ذلك: أن المغفرة تحتاج إلى عمل صالح وإلى توبة، يغفر الله بها الذنب، والرحمة تحتاج إلى طاعات يتوصل بها الإنسان إلى رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

١٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان الحكمة في حكم الله الكوني القدري؛ لأن قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كالتعليل لقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، كأن قائلا يقول: لماذا يستغفرون لمن في الأرض؟ فتكون الإجابة؛ لأن الله هو الغفور الرحيم.

١٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الأسماء الحسنى تكون كاملة بانفرادها واشتمالها؛ لأنه لما جمع بين الغفور والرحيم تَوَلَّد منهما صفة ثالثة غير المغفرة والرحمة وهي اجتماع هذين الوصفين

أو هذين الاسمين الدالين على الوصف في حق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فبالمغفرة تُمْحَى الذنوب وبالرحمة يحصل المطلوب.



۞ قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى:٦]

۞ التفسير ۞

أولًا: الإعراب: (الذين اتخذوا) مبتدأ (أولياء) مفعول ثان لـ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾؛ لأن التقدير: اتخذوا الأصنام أولياء، (الله) مبتدأ و(حفيظ) خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في محل رفع خبر المبتدأ الأول، أين المبتدأ الأول؟ الذين، فإن قال قائل: المعروف عند النحويين أن الجملة الواقعة خبرًا لابد أن تتضمن ضميرًا يعود على المبتدأ، حتى يعرف اتصالها به، قلنا هنا: حَلَّ الظاهر محل الضمير وهو قوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: الذين اتخذوا من دونه أولياء هو حفيظ عليهم يعني: الله، ويجوز أن يكون الرابط هو قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: الضمير، الذين اتخذوا، اتخذوا من؟ اتخذوا الأصنام؛ ولهذا قال المؤلف: [أي الأصنام]، وهذا التقدير لبيان المفعول الثاني كأنه يقول: هو مفعول ثانٍ محذوف تقديره الأصنام.

﴿أَوْلِيَآءَ﴾، جمع ولي، أي: أنهم يتولون هذه الأصنام، يعبدونها، يذبحون لها، ينذرون لها، وهم عن الله غافلون.

﴿حَفِيظٌ﴾: [محصٍ] ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [ليجازيهم]، تفسير حفيظ بالمحصي تفسير باللازم، ولكن المراد بالحفيظ: أي: حافظ أعمالهم رقيب عليهم لا يفوته شيء من أعمالهم، فلابد أن يحصي عليهم أعمالهم ويجازيهم عليها.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، [تحصل المطلوب منهم ما عليك إلَّا البلاغ]، وما أنت عليهم ـ الخطاب للرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ (بوكيل) أي بحفيظ، فالآية واضحة، كأن الله يقول: أنا الحفيظ عليهم أما أنت فلست عليهم بحفيظ، ماذا على الرسول؟ إن عليك إلَّا البلاغ، ليس عليه إلَّا أن يبلغ، أما أن يهدي أحدًا أو يحصي أعمال أحد فهذا ليس إليك، إنما هو إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، حتى إن الله قال في آخر سورة آل عمران ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ

﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ....﴾، ففي هذه الآية بيان سفه أولئك المتخذين أولياء من دون الله ووجه السفه قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أنهم غفلوا عن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ نهائيًا واتخذوا هذه الأصنام أولياء.

الفوائد:

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** وعيد من اتخذ من دون الله أولياء؛لقوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، هذا هو التهديد كما يقول قائل للإنسان: اذهب وأنا معك، أنا وراءك، أنا أحصي عليك.

٢ ـ **من فوئد هذه الآية الكريمة:** بيان عموم علم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله:﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، يشمل جميع ما يقومون به من عمل وهذا يدل على سعة علْم الله واطلاعه.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ بشر لا يعلم الغيب ولا يحصي أعمال العباد؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الرسول ﷺ وهو ـ سيد الدعاة وإمام الدعاة ـ لا يلزمه إلَّا أن يبلغ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، وهذه الآية لها شواهد لفظية ومعنوية قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾، يعني: ما تستطيع، وإذا كان إمام الدعاة لا يستطيع أن يهديهم فما بالك بمن سواه.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تسلية الدعاة إلى الله إذا لم يطعهم الناس، أكثر الدعاة إذا لم يطعهم الناس تتفطر قلوبهم، وتنحلّ أجسامهم، نقول له: مَنِ الذي منعهم ألَّا يطيعوك؟ ومن الذي منعهم أن يطيعوك؟ هو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وكلا العبارتين صحيح. قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، فكلا التعبيريْنِ صحيح، ـ على كل حال ـ نقول لهذا الداعي الحريص على هداية الله: لا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون، لعلك باخع نفسك ألَّا يكون مؤمنين، أنت عليك ما عليك وهو البلاغ، والهداية بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ [ولو شاء الله لاهتدوا]، فإذا كان هذا وقع بمشيئة الله فإن الإنسان يطمئن، لكن إذا تقطع قلبه حسرة، اشتغل بعيوب الناس عن عيوبه ولهذا تجد الداعية الذي هذا وصفه، تجده ـ دائمًا ـ مشغولًا بأحوال الناس، وينسى نفسه، لو فتشت ما فتشت لرأيته في العبادة مقصِّرًا، وإذا جاء في العبادة فقلبه في وادٍ، وهذا غلط، أنت مأمور قبل كل شيء بإصلاح نفسك، مأمور ـ أيضًا ـ بالرضا بقضاء ربك، قضى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ألَّا يهتدي هؤلاء، فالأمر أمره والعباد عباده، صحيح أن الإنسان يحزن لكن لا يصل إلى درجة يغفل الإنسان فيها عن نفسه كما هو شأن بعض الدعاة، والإنسان إذا كان هكذا فثق أنه سيكون متزنا في الدعوة إلى الله وإلَّا فسيكون متهورًا، ويأتي بما لا

تحمد عقباه، لذلك كن داعيًا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - كما كان عليه رسول الله ﷺ.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ بشر، ليس له من الأمر شيء، لقوله: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، الرسول - عليه الصلاة والسلام - بشر لا يستطيع أن يهدي أحدًا، ولا أن يحصي أعمال أحد، لو استطاع أن يهدي أحدًا لهدى عمه (أبا طالب)، الذي كان له من الفضل على الدعوة الإسلامية ما هو معلوم، لكنه لم يفعل إلَّا في شيء واحد وحقيقة لم يفعل شيئًا أنه شفع له عند الله فخفف عنه العذاب، فكان في ضَحْضَاحٍ من نار تحته نعلان يغلي منهما دماغه، ومع هذا يرى أنه أشد الناس عذابًا؛ لأنه لو رأى أنه أخف الناس عذابًا لهان عليه الأمر وتسلى بغيره ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابًا - نسأل الله العافية - وقد أشار الله إلى أن الاشتراك في العذاب يخفف في قوله - تعالى -: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، في الدنيا ينفع إذا شارك الإنسان غيره لكن في الآخرة ما ينفع.



۞ قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٧، ٨]

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، (الكاف) هنا بمعنى: مثل، وهي منصوبة على المفعولية المطلقة ولهذا قدرها المؤلف بقوله: [مثل ذلك الإيحاء]، [الأول قال: كذلك يوحي إليك ولم يبين الموحى، هنا قال: وكذلك أوحينا إليك قرآنا]، فبين الموحى فكان الأمر هنا تفصيلًا بعد إجمال، ولا يخفى علينا أن التفصيل بعد الإجمال من أساليب اللغة.

أصبحت النفس متطلِّعة متشوِّقة إلى تفصيل فإذا جاء مفصَّل بعد إجمال ورد كالماء على أرض يابسة، فالماء على أرض يابسة تشربها بمجرد ورود الماء، وكذلك إذا ورد التفصيل بعد الإجمال فإنه يرد على قلب متطلع تمامًا إلى التفصيل.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، [أي مثل ذلك الإيحاء] ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - عن طريق جبريل - عليه السلام - قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ﴾، قرآنا بمعنى:مقروءًا، أو بمعنى:قارئ، أما هو فمصدر، كغفران مصدر غفر، وشكران مصدر شكر، إذن قرآن مصدر قرأ، لكن هل هو بمعنى:اسم الفاعل أو بمعنى:اسم المفعول؟ نقول: لنا قاعدة سبقت وهي: أن الآية أو الحديث ـ أيضًا ـ إذا احتمل معنيين على السواء ولا منافاة بينهما وجب أن يحمل عليهما جميعًا.

إذن: قرآن بمعنى:قارئ، وقرآن بمعنى:مقروء، لكن كيف يكون القرآن بمعنى:قارئ؟ قارئ بمعنى:جامع، ومنه سميت القرية؛ لأنها تجمع الناس ولا شك أن القرآن جامع لكل علم نافع وعمل صالح.

قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: بلسان العرب، هل هي عروبة النسب أم عروبة اللسان؟، الظاهر أنها عروبة اللسان، لكن حقيقة الأمر أن عروبة اللسان أصلها عروبة النسب، إذ أن اللغة العربية وإن تكلم بها غير العربي هي أصلها من عروبة النسب، ولذلك فالقوم الذين من فارس والروم، نقول: هم عرب اللسان، وليس هم عرب النسب، فهل يلحقهم؛ مدح العرب؟ الجواب: لا يلحقهم؛ لأن المدح ـ مدح العرب ـ هو عرب النسب، أما الوصف وهم عرب اللسان فلا يستحق هذا المدح، ولهذا لو سألنا مَنْ أشرف الناس نسباً؟ نقول: أشرف الناس نسبا عرب النسب وليس عرب اللسان، وأضاف الله سبحانه الوحي إليه لبيان شرفها ومهمتها، والموحى به هو أشرف الكلام ﴿قُرْءَانًا﴾ مصدر كالغفران والشكران.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، اللام للتعليل، فما هو المعلل؟ قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾، وعلى هذا فاللام متعلقة بأوحينا، وقوله: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ قال المؤلف: [لتخوِّف]، وقوله: ﴿أم القرى ومن حولها﴾، أي: [أهل مكة وسائر الناس]، أم القرى هي مكة، وسميت بذلك لأنها جامعة للقرى، إذ أن جميع القرى تأوي إليها، ولا شك أن المسلمين يتجهون إليها؛ لأن الكعبة فيها، وهي ـ أيضًا ـ تجمع القرى من جهة أنه يجب على كل المسلمين أن يحجوا هذا البيت من استطاع إليه سبيلًا لقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ إذن سميت أم القرى؛ لأنها تجمع جميع القرى.

والقرى في الآية معناها المدن؛ لأن القرية البلد الصغير عرفا، أما لغة: فإن القرية تطلق حتى على المدينة الكبيرة كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، يقول المؤلف: [المراد بمن حولها سائر الناس]، وهذا التفسير وإن كان معناه صحيحًا؛ لأن رسالة النبي ﷺ بلغتْ جميع الناس، ومن لم تبلغ فستبلغه، ولكن ظاهر اللفظ خلاف ذلك؛ لأن ما حول الشيء هو القريب منه، وحينئذ يبقى في الأمر إشكال فإن

النبي ﷺ مبعوث إلى جميع الناس، ولكن يقال: لا إشكال، فهو كقوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وهو مبعوث لكل الخلق، ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، وعلى هذا نقول: المراد بالإنذار: الإنذار المباشر، والإنذار المباشر من النبي ﷺ ما كان إلَّا لأم القرى وَمَنْ حولها ولهذا ما فتحت العراق ولا الشام ولا مصر في عهد النبي ﷺ، وإنما كانت الجزيرة فقط، الإنذار الذي تَمَّ في حياته عليه الصلاة السلام فإنه لا يشمل إلا أم القرى وَمَنْ حولها.

وقوله: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، هل المراد بهذا إنذار المدينة نفسها أو المراد الأهل؟ الأهل لا شك، ولا يشكل هذا على أحد، وهذا الذي جعل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يقول: [بأنه لا مجاز في القرآن ولا في غيره]، ونحن نقول: هنا ليس المراد بيوت مكة وأسواقها وإنما المراد أن ينذر أهلها، بقي أن يقال: أين مفعول ينذر الثاني؛ لأن أنذر تنصب مفعولَيْنِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾، الكاف مفعول أول والنارمفعول ثان، نقول: المفعول الثاني محذوف، ويقدر بما يناسب، ممكن أن نقدره، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، لتنذر أم القرى وَمَنْ حولها يوم الجمع، بدليل قوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، فتجد الآية الكريمة الجملة الأولى حذف منها مفعول، والثاني حُذف منها مفعول لكن ـ الجملة الأولى ـ حُذِف مفعولها الثاني والجملة الثانية حذف مفعولها الأول وهذا من بلاغة القرآن، إذن المفعول الثاني من قوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ محذوف تقديره: يوم الجمع، ولنا أن نقدره تقديرًا آخرًا ولكن ما دام بين أيدينا ما يدل عليه فهو أولى.

قال الله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، هذا المفعول الأول المحذوف، يوم الجمع المفعول الثاني، أي: تنذرهم اليوم الذي يُجمع فيه الناس، وذلك يوم القيامة الذي يجمع فيه الخلائق، وهذا من أسماء يوم القيامة، كما أنه يسمى يوم القيامة؛ لأنه يشتمل على معنى هذا وهذا، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، أي: تجمع فيه الخلائق لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، وذلك يوم مشهود.

قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، [لا شك]. ﴿فِيهِ﴾، أي: الآخرة، الريب هو: الشك لكن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ قال: إن تفسير الريب بالشك تفسير مقارب وليس مطابقاً؛ لأن الريب يوحي بقلق في النفس، والمعنى: ليس فيه ريب وقلق.

قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، لا نافية، فهل المراد بالنفي النهي، فيكون المعنى: لا ترتابوا فيه، أو المراد بالنفي معناه الحقيقي؟ نقول: المراد به المعنى الحقيقي؛ لأنه إذا كان معناه النفي، صارت صفة هذا اليوم انتفاء الريب، وعلى هذا فمن ارتاب فيه، فقد ارتاب في أمر واقع لكن لو كان النفي بمعنى النهي لكنا أخرجنا الكلام عن ظاهره هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن النفي قد يمتثله الناس وقد لا يمتثلونه ولكن النهي أوضح، أولًا: لمطابقته ظاهر اللفظ، وثانيًا: لأنه يعطي أن هذا اليوم موصوف بانتفاء الريب فيه فيكون من ارتاب مخالفًا للواقع، لا ريب فيه [فريق منهم في الجنة

وفريق في السعير] ـ [في النار] ـ، (فريق) مبتدأ والفريق الثاني مبتدأ، ولكن في هذا إشكال، ما هو الإشكال؟ الإشكال هو الابتداء بالنكرة والابتداء بالنكرة غير جائز؛ لأن المبتدأ محكوم عليه، فإذا قلت: زيد قائم فقد حكمت على زيد بالقيام والمحكوم عليه لا بد أن يكون معروفًا، إذا كان نكرة فأي فائدة في الحكم عليه؟ فكلام النحويين أنه لا يجوز الابتداء بالنكرة، هذا تأويله؛ لأن المبتدأ محكوم عليه والمحكوم عليه لا بد أن يكون معرفة معلومًا، فهنا ابتدأ بالنكرة، يقول النحويون: إن المسوغ للابتداء بالنكرة في هذه الآية هو التقسيم، والتقسيم يفيد فريق في الجنة أي نوع في الجنة ونوع في السعير، فالتقسيم يبيح الابتداء بالنكرة، ومنه قول الشاعر[1]:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَر

فهذا ابتداء بالنكرة لكنه فيه التقسيم، فيكون المسوغ للابتداء بالنكرة هنا هو التقسيم.

قوله: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾، أيها أكثر؟ فريق السعير أكثر كما جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يَوْمَ القِيَامَةِ يُنَادِي فِيهِ فَيَقُولُ يَا آدَمُ: فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ[2] فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِن ذُرِّيَتِكَ بَعْثَ النَّارِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ فَيَقُولُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ»[3]، إذن أيهم أكثر؟ الأكثر أهل النار، أكثر من أهل الجنة بكثير ـ أجارنا الله وإياكم من النار، (ففزع الصحابة لهذا، فقالوا: يا رسول الله أينا ذلك الواحد؟، قال لهم أبشروا، إنكم في أمتين ما كانتا في شيء، إلَّا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، وهم من بني آدم كما دل على ذلك القرآن، منكم واحد وألف منهم، ففرح الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بذلك.

المهم أن الله قال: فريق وفريق، مع اختلاف الفريقين اختلافًا عظيمًا، فدلَّ ذلك على أن الفريق في اللغة يطلق على القليل وعلى الكثير، فريق في الجنة وفريق في السعير، ما هي الجنة؟ الجنة هي الدار التي أعدها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمؤمنين والمتقين، وهي دار فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وأصناف النعيم في هذه الجنة ـ جعلنا الله وإيَّاكم منهم ـ موجودة في القرآن والسنة، أما السعير ـ والعياذ بالله ـ فهي النار تُسعَّر بها الأجساد، وفيها من أنواع العذاب والنَّكال ما يتمنَّى أهلها أن يموتوا قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الشورى:٨]، أي: [على دين واحد هو الإسلام] لو شاء الله أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلهم أمة واحدة، على الضلال أو على الهدى،

(١) ينسب هذا البيت إلى النمر بن تولب رضى الله عنه.

(٢) لزوما لطاعتك وإجابة بعد إجابة لأمرك وسعيًا في إسعادك إسعادًا بعد إسعاد.

(٣) رواه البخارى (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

يعني: لو شاء هذا أو هذا؛ لأن الأمر كله بيده ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله: ﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يعني: فرقة واحدة على دين واحد، وقوله: [وهو الإسلام]. قد ينازع فيه بأن الآية مطلقة وليس فيها ما يدل على أنه الإسلام؛ لأن قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، ذكر الأمريْنِ فنقول: إن الآية تحتمل المعنييْنِ جميعًا يعني: لو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، يعني: على الإسلام أو على الكفر، ولكنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لحكمته، جعلهم متفرقين قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، قوله: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ﴾، (مَنْ) اسم موصول عام، لكن يجب أن نعلم أن هذا العموم مقيد بمن علم الله فيهم خيرًا فهو الذي يدخله في رحمته؛ لأن كل فعْل أضافه الله إلى مشيئته فلا بد أن يكون لحكمة كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، إذن يدخل مَنْ يشاء في رحمته ممن علم الله فيهم خيرًا ليكون إدخاله في الرحمة على وفق الحكمة.

وقوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾، هل المراد هنا بالرحمة، التي هي وصفه، أو المراد الرحمة التي هي خلقه؟ الثاني:؛ لأن الرحمة التي هي وصفه لا يدخلها الناس وإنما يدخلون في الرحمة التي هي خلقه وهي الجنة، ويدل لهذا قوله ـ سبحانه وتعالى ـ في الحديث القدسي للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1] فقال لها: أنت رحمتي.

قوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾، أي: [الكافرون]، (لظالمون)مبتدأ وليست معطوفة على (مَنْ) لفساد المعنى واللفظ.

فسر المؤلف هنا: [الظالمون الكافرين]؛ لأن الله ـ تعالى ـ وصف الكافرين بالظلم فقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا[2] إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ فسرها النبي ﷺ بالشرك وقال: ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، والظالمون الكافرون.

قوله: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، (ما) نافية، و(لهم) خبر مقدم، و(ولي) مبتدأ مؤخر دخل عليه حرف جر زائد للتوكيد، وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، [يدفع عنهم العذاب]، أي: مِنْ ولي يتولاهم ويتحمل عنهم ولا نصير يدفع عنهم، فليس لهم مَنْ يُسلّيهم في حال المصيبة، ولا مَنْ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يخلطوا.

(٣) رواه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٢٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

يدفع عنهم إذا وقعت.

الفوائد:

١ - **من فوائدها** أولاً: أن القرآن كلام الله لقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾، وجه كونه كلام الله أن هذا القرآن كلام أو شيء مخلوق؟ كلام، وإذا كان كلاما وقد أضافه الله لنفسه علمنا أنه كلامه.

وهل هو مخلوق؟ لا، لماذا؟ لوجهين:

الوجه الأول: وصفه، وجميع أوصاف الله غير مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة لذاته، فالخالق هو الله، وصفاته غير مخلوقة.

الوجه الثاني: لو قلنا: إنه مخلوق لبطل الأمر والنهي؛ لأننا إذا قلنا: إنه مخلوق صار شيئًا مخلوقا على شيء معين، كما تخلق الشمس والنجوم والقمر والأنهار على شكل معين، فيقول مثلًا: أقيموا الصلاة، ليست أمرًا؛ لأنه خلق على هذا الرسم، - الآن - مثلًا لو رسمنا في القرآن أقيموا الصلاة وأن نقول هذه ليست كلاما ولكنه مخلوقة لن تفيد الأمر، وكذلك لو قال: في الأخبار، الأخبار تأتيك آية طويلة فيها خبر ما، إذا قلت: القرآن مخلوق صارت مجرد نقش فقط.

ولذلك قال ابن القيم رحمه الله:

(إن القول بأن القرآن مخلوق مبطل للشريعة؛ لأنه لا يكون فيه أمر ولا نهي إنما فيه أشكال خلقت على هذا)

أقيموا الصلاة أنتم - الآن - تعرفون إذا شهدتم أقيموا الصلاة تجدون أنها وشي تختلف بعضها عن بعض، أقيموا لها شكل والصلاة لها شكل، فإذا قلنا: أن هذه الأشياء خلقها الله على هذا الشكل لم يكن أمرًا ولا نهيا، إذن الآية تفيد أن القرآن كلام الله؛ لأن الله - تعالى - أضافه إلى نفسه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فخر العرب؛ لأن القرآن عربي وهو للأمم كلهم.

٣ - **ومن فوائدها:** حكمة الله - تبارك وتعالى - في إنزال القرآن باللغة التي يفهمها مَنْ أُنزِلَ إليهم وهذا كقوله - تعالى -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** التأكيد على معرفة اللغة العربية، وجه ذلك أنه إذا كان القرآن عربيًا وكنا مخاطبين به وملزمين بالعمل به، فإنه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلَّا بتعلم اللغة العربية.

٥ - **ومن فوائد الآية:** الإشارة إلى أن الناس جميعا ينبغي أن يتحدثوا باللغة العربية؛ لأن الناس جميعا يجب أن يكون دينهم الإسلام، فإذا وجب أن يكون دينهم الإسلام فإنه يلزم من ذلك

أنه يجب أن يتعلموا لغة الإسلام، ولذلك نرى أن الإسلام لما كان في أوج عزته وقوته دخل الناس في دين الله وتعلموا اللغة العربية، ومن الفرس والروم من كانوا أئمة في الدين وأئمة في العربية، القاموس المحيط مرجع الناس في اللغة مؤلفه (الفيروز آبادي) مِنْ قريش هو أو مِن بني هاشم؟ لا هذا ولا ذاك، إنه فارسي، ومع ذلك هو مرجع اللغة العربية، (البخاري) إمام المحدثين يعني: إمام نقلة سنة النبي ﷺ ليس عربيًا؛ لأن في الفتوحات الإسلامية كانت الغلبة للمسلمين الذين يتكلمون باللغة العربية، فتعلم الناس العربية ضرورةً لأنه لا يمكن الوصول إلى فهم الدين إلّا باللغة العربية، وحال الناس اليوم على العكس من ذلك، العربي يحاول أن يتعلم اللغة غير العربية؛ لأن المسلمين - مع الأسف الشديد - بمعاصي أهله خذلوا وذلّوا وكانوا من أذلّ الأمم إن لم أقل: أذل الأمم، أنا أقول: أذل الأمم ولا أبالي؛ لأن عند المسلمين من الثروات العظيمة والمعادن العظيمة والأماكن الفسيحة والواسعة ما إذا قسناه بحالهم وجدنا أنهم أذل الأمم، مَنْ يكن عنده مثل هذه الثروات ثم يتخلف هذا التخلف، - حفنة من اليهود تلعب بعقولهم ليلًا ونهارا، ولو قلت: أمم من النصارى يلعبون بهم ولو كان لهم عزة لكانوا هم الذين يتحكمون في الناس ويقاتلونهم حتى يكون الدين كله لله، لكن لما ذلوا ذلت لغتهم، - الآن - تجد المتاجر في البلاد - بلاد العرب في مدننا وفي قرانا - تجدها مملوءة باللافتات غير العربية، أحيانا تجد المتاجر كأنك في سوق لندن إلّا ما شاء الله، كل هذا من الذل.

٦ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات حكمة الله، تؤخذ من قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ لأن اللام هنا للتعليل وكلما وجدت لام التعليل في القرآن فإن فيها إثبات حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحينئذ نعلم أن جميع ما يفعله الله - عَزَّ وَجَلَّ - أو يشرعه فإنه لحكمة.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الاقتصار على أحد موضوعي الرسالة إذا اقتضت الحكمة ذلك، وجهه أن قال الله - تعالى -: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ولم يذكر البشارة مع أن الله - تعالى - في مواضع كثيرة يذكر الإنذار والبشارة ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾؛ لأن السياق مع قريش، وقريش كما تعلمون عتاد معتدون فناسب ذكر الإنذار دون ذكر البشارة؛ لأنه إذا رأيت شخصًا معتديًا تحاول استقامته بالبشارة أولًا أو بالإنذار أولا؟ بالإنذار أولا، وهذا مِنْ بلاغة القرآن أن يجعل كل شيء في موضعه.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ ملزم بإنذار أم القرى إلزامًا أوليًا، لقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾، وما سواها إنذارًا ثانويًا.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن النبي ﷺ لن يصل إلى مَنْ أرسل إليه مباشرة وإنما ينذر من حوله لقوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فالقرآن باللغة العربية لا يمكن

أن يُنْذَر به إلَّا أم القرى وَمَنْ حولها الذين هم عرب، وأما فارس والروم والأقباط وما أشبههم فهؤلاء لا ينتفعون بالقرآن إلَّا بعد أن يعرفوا اللغة العربية، ويعرفوا معاني القرآن، ولعل هذا ـ والله أعلم ـ أيضًا ـ من الحكم أن الله قال: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

١٠ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تخويف الناس من يوم القيامة لقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.

١١ ـ **ومن فوائدها:** أن يوم القيامة واقع لا محالة لقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

١٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الناس في ذلك اليوم ينقسمون إلى قسميْنِ: فريق في الجنة وفريق في السعير، أهل الجنة يتجهون إلى الصراط ليصلوا إلى الأعلى إلى الجنة، وأما أهل النار فلا يصعدون على الصراط لأنه لا يرجى منهم أن ينجوا بل إنهم (يساقون إلى جهنم وردا)، أي: على أشد ما يكون من العطش وتمثل لهم النار كأنها سراب يظنونها ماء فيسرعوا إليها فإذا جاءوها وجدوا الأمر بالعكس فيتوقفون لكنهم يدعون إلى نار جهنم دعا ويقال لهم: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦].

١٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

١٤ ـ **ومن فوائدها:** الرد على القدرية، أتعرفون من القدرية؟ هم الذين يقولون: إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا علاقة له في فعل العبد يقولون: العبد مستقل ما لله فيه إرادة، وغلاتهم يُنْكِرُون علم الله بأحوال العبد إلَّا ما وقع منها، يقولون: إن الله لا يعلم ماذا يصنع العبد، لكن إذا صنعه العبد علم به، وهؤلاء لا شك في كفرهم؛ لأنهم أنكروا علم الله، مقصدهم أنهم ينكرون المشيئة والخلق هذا الذي استقر عليه رأيهم يقولون: إن الله لا مشيئة له في فعل العبد، وليس خالقًا في فعل العبد والعبد حر يقوم ويسجد يفعل ويترك ينام ويستيقظ استقلالًا ما لله فيه مشيئة ولهذا سُمُّوا مجوس الأمة المحمدية؛ لأنهم بهذه العقيدة يجعلون للحادث خالقيْنِ حوادث العباد مَنْ خَلَقَهَا؟ خلقها العباد، وحوادث الله خلقها الله ولهذا يسمون مجوس الأمة الإسلامية.

في الآية الكريمة ردّ عليهم، ووجه الرد قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وهذا كما قال ـ تعالى ـ في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فهذا فيه ردّ على القدرية وفيه حجة للجبرية؛ لأنه قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، إذن هم انقسموا بمشيئة الله ـ وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ـ فهذا دليل على أن الإنسان لا اختيار له بل فعله بمشيئة الله، فيقال هذا مما احتج به مَنْ في قلوبهم زيغ؛ لأن الذين في

قلوبهم زيغ؛ يتبعون المتشابه ويدعون المحكم، يتبعون المتشابه في مثل هذه الآية ويقولون: هذا دليل على أن فعل العبد بمشيئة الله ولا يمكن لأحد أن يغير مشيئة الله، نقول: سبحان الله أنتم نظرتم إلى الأدلة بعين أعور والعين الباقية عليها غبش، أو غمش ليست جيدة، هنالك آيات صريحة في إضافة العمل للإنسان نفسه وبأنه بمشيئة الإنسان، أليس الله يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، أليس الله - تعالى - يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؟ والآيات في هذا كثيرة، أليس الإنسان يحس في نفسه أنه يفعل الفعل ولا مكره له؟ أنت تأتي إلى المسجد بدون أن يكرهك أحد، تدخل المسجد بدون إكراه من أحد، وهذا شيء ملموس، إذن ما معنى قولنا: بمشيئة الله؟ نقول: معنى فعلنا بمشيئة الله أننا مهما فعلنا من شيء فالله قد شاءه ومشيئته سابقة لمشيئتنا، ولكننا لا نعلم مشيئة الله إلَّا بعد وقوع الشيء فنعلم أن الله قد شاءه، أنا - الآن - أشاء أن أتكلم معكم، وأشاء أن أحرك يدي، أليس كذلك؟ هل شاء الله أن أتكلم وأن أحرك يدي، بماذا عرفت بوقوعه؛ لأني أعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يكون في ملك الله ما لا يشاؤه وأنا في ملك الله والسماوات والأرض في ملك الله إذًا لا يمكن أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه، لكن أنا لا أعلم مشيئة الله إلَّا بعد وقوع الشيء، ولهذا قال بعض العلماء: إن القدر سر مكتوم لا يعلم به العباد؛ لأنه لا يعلم العباد به إلَّا بعد وقوعه.

١٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله يَمُنُّ على من يشاء فيدخله في رحمته لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾.

١٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه ليس في الجنة ما يكدر وجهه لقوله: ﴿فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، والرحمة تستلزم حصول المطلوب والنجاة من المرهوب ولهذا ينادى أهل الجنة: «إِنَّ لَهُمْ أَنْ يَصِحُّوا فَلَا يَسْقَمُوا، وَأَنْ يَشِبُّوا فَلَا يَهْرَمُوا، وَأَنْ يَحْيَوْا فَلَا يَمُوْتُوا»(١) وأيضًا نقول: بأن يسروا فلا يحزنوا جميع النعيم كاملة بأهل الجنة وليس فيها تنغيص لا خوف المرض ولا خوف الموت، بل إنهم لا ينامون حتى النوم لا ينامون من الفرح والسرور، حتى تكون أوقاتهم كلها مستغرقة بالفرح والسرور، وعدم نومهم دليل على كمال حياتهم؛ لأن النوم إنما نحتاج إليه لنقل التعب السابق واستجداد القوة اللاحقة أليس كذلك؟ ولهذا كلما تعب الإنسان احتاج إلى النوم، وإذا نام قام نشيطًا، إذن نحن محتاجون إلى النوم في الحياة الدنيا لنقص حياتنا، لكن في الآخرة ما في نقص دائمًا هم في سرور - اللهم اجعلنا منهم - ولهذا قال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾، فالرحمة ما فيها شيء يحزن ولا يكدر وإنما كلها خير.

---

(١) رواه ابن الجعد في مسنده (١/ ٢١٠) برقم (١٣٨٧).

١٧ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكفار ظلمة بل هم أظلم الظلمة؛ لأن أعظم الذنب الكفر أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، فأظلم الظالمين هم الكفار وإذا كنا نؤمن بهذا ـ ويجب علينا أن نؤمن بهذا ـ فهل نرجوا من الكفار خيرًا وهم أظلم الظلمة؟ لا والله لا نرجو خيرًا، لا نرجو منهم خيرًا للإسلام أبدًا؛ لأنهم أظلم الظلمة، ولهذا يجب أن تغرس في قلبك، بغض الكافرين والكفر، أن تجعلها غريزة مستقرة كامنة تبغض كل كافر وكل كفر، فماذا نفعل إذا كان في الإنسان خصال كفر وخصال إيمان؟ من القسط والعدل أن أحبه على ما معه من الخير والإيمان وأبغضه على ما معه من الكفر، والإنسان قد يكون في خصلة إيمان وخصلة كفر قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ[(١)]»[(٢)] وهذان لا يخرجان الإنسان من الإيمان، انتبهوا لهذا، الكفار أظلم الظالمين ومن كان أظلم الظالمين لا يمكن أن يُرجَى منه الخير ولا العدل، واعلم أنه إن عدل فلاستغلال الفرصة ليأخذ بدل العدل مرة الظلم مرات، ـ الآن ـ اليهود نعلم أنهم أشد الناس حرصًا على المال ومع ذلك نجدهم يبذلون، ولكن يبذلون قرشا؛ ليأخذوا دينارًا، لا تفكر أبدًا في أنهم يبذلون شيئًا لله إنما يفعلون ذلك، لينالوا أكثر منه، وهذا شيء معلوم ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾.

١٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الظالمين لا يجدون ناصرًا ولا يجدون وليًّا، لا ناصرًا يدفع العذاب أو يرفعه، ولا وَلِيًّا يُواسيهم فيهوِّن عليهم المصائب، لا تجد لهم هذا، وهذا يدل على أنهم في حسرة شديدة ولا يجدون نفعًا وقد قال تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾.

قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، في هذه الآية فوائد:

١ ـ منها: الرد على القدرية الذين ينفون القدر ويقولون: إن الإنسان مستقل بعمله؛ لأنكم تعلمون ـ كما درستم أو بعضكم في العقيدة ـ أن الناس قد انقسموا بالنسبة لأفعال العبد إلى ثلاثة أقسام:

قسم يقول: إن العبد لا اختيار له ولا إرادة ولا مشيئة، وأنه يفعل الفعل الاختياري كالفعل الإجباري، وهؤلاء هم الجبرية، وهم الجهمية فالجهمية جبرية بالنسبة لأفعال العبد فحركة الإنسان الاختيارية كقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه واستيقاظه مجبر عليه، فهو في هذه

---

(١) قال النووى فى شرحه على مسلم : وفيه أقوال أصحها أن معناه هما من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية. والثاني : أنه يؤدي إلى الكفر. والثالث : أنه كفر النعمة والإحسان. والرابع : أن ذلك في المستحل. وفي هذا الحديث تغليظ تحريم الطعن في النسب والنياحة. وقد جاء في كل واحد منهما نصوص معروفة. والله أعلم.

(٢) رواه مسلم (٦٧) ، وأحمد فى مسنده (١٠٤٣٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الحركات كالمريض الذي يرتعش من الحرارة بغير اختياره وهؤلاء ضالون؛ لأنه على قاعدتهم يكون الله - عَزَّ وَجَلَّ - إذا عذب الإنسان المخالف يكون ظالمًا له؛ لأنه ليس يختار هم يرون أن الظلم في حق الله محال مستحيل؛ لأن الظلم تصرف الفاعل في غير ملكه، والله - عَزَّ وَجَلَّ - له ملك السماوات والأرض، ولهذا كان الظلم عندهم مستحيلًا.

القسم الثاني: يقول: الإنسان مستقل بعمله يفعل ما يشاء ولا علاقة لله - تعالى - في عمله وهؤلاء هم القدرية، الذين سماهم النبي ﷺ: «مجوس هذه الأمة[1]»[2]؛ لأن هؤلاء يقولون: الحوادث الكونية لها خالقان حوادث العباد هم يخلقونها، وحوادث الكون يخلقها الله - عَزَّ وَجَلَّ - فجعلوا للحوادث خالقيْنِ، كما أن المجوس جعلوا للحوادث خالقيْنِ ولهذا سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة وعلى رأيهم يكون في ملك الله ما لا يشاؤه الله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإذا كانت أفعال العباد من غير مشيئة الله وإرادته، صار في ملكه ما لا يشاء وهؤلاء ضالون غالطون؛ لأنه كيف يكون الله هو الخالق للعبد ونقول: أن العبد مستقل عن الله ولا دخل لله في فعل العبد ولا شيء.

أهل السنة والجماعة وهم القسم الثالث يقولون: إن الإنسان يفعل باختياره وإرادته والقرآن دلّ على ذلك ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾، يقولون: الإنسان له إرادة واختيار ويفرق بين الفعل الاختياري والفعل الإجباري، ولا شك فالإنسان يقوم ويقعد ويأكل ويشرب وينام ويستيقظ وغير ذلك، كل ذلك لا يشعر أن أحدًا يجبره عليه ولكنه مع هذا الفعل وهذه الإرادة مخلوقة لله - عَزَّ وَجَلَّ -، كيف تكون مخلوقة لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الإنسان نفسه مخلوق لله فإراداته التي تكون في نفسه والأفعال التي تكون في جوارحه تكون مخلوقة؛ لأن أوصاف المخلوق وأفعال المخلوق مخلوقة كما أن أوصاف الخالق غير مخلوقة، ولهذا نقول: القرآن غير مخلوق؛ لأنه كلام الله، إذن أهل السنة والجماعة - والحمد لله - هداهم الله للحق فكانوا وسطًا بين متطرفيْنِ، الآية الكريمة: (ولو

(١) قال الخطابي في المعالم: إنما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين وهما النور والظلمة يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله والشر إلى غيره، والله سبحانه خالق الخير والشر لا يكون شيء منهما إلا بمشيئته. وخلقه الشر شرا في الحكمة كخلقه الخير خيرا، فإن الأمرين جميعا مضافان إليه خلقا وإيجادا، وإلى الفاعلين لهما فعلا واكتسابا انتهى.

(٢) كما روى أبوداود (٤٦٩١) من حديث ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال " القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم". وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٤٤٢).

شاء الله لجعلهم أمة واحدة﴾، ترد على القدرية الذين يقولون: الإنسان مستقل بعمله، على رأيهم لا يستطيع الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يهدي الناس جميعًا أو يضلهم جميعًا.

٢ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن ينقسم الناس إلى مؤمن وكافر مأخوذة من قوله: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ لأنه لا يمكن أن تظهر أثر الرحمة إلَّا إذا انقسم الناس إلى مرحوم وغير مرحوم، فنحن نعلم لولا اختلاف الناس لم يتميز مؤمن من كافر، لولا اختلاف الناس ما قام جهاد وما قام الأمربالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يكن فائدة في خلق الجنة والنار إلى غير ذلك.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرحمة لله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: في رحمته، واعلم أن الرحمة نوعان: مخلوقة وغير مخلوقة، أما غير مخلوقة فهي: رحمة الله التي هي وصفه فهذه غير مخلوق، أما المخلوقة فهي: الرحمة هي التي من آثار رحمة الله قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، هذه مخلوقة فإن (في) للظرفية ولا يمكن أن تكون رحمة الله التي هي وصفه ظرفًا لهؤلاء الذين آمنوا، إذن ففي رحمة الله أي: المخلوقة ما هي الرحمة المخلوقة؟ هي الجنة لقوله - تعالى - للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1]، وكذلك قول الله - تعالى -: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾، ما المراد بالرحمة هنا؟ الصفة أم المخلوقة؟ الصفة هي المرادة هنا.

إذن: من صفات الله الرحمة، والعَجَبُ من قوم يدعون أنهم منزهون لله يقولون: إن الله لا يوصف بالرحمة - نسأل الله ألَّا يزيغ قلوبنا - ويقولون: لأن الرحمة انفعال وانكسار كما ترحم الصبي وترحم اليتيم والله - عَزَّ وَجَلَّ - منزه عن ذلك، ماذا نفعل بالآيات التي - لا تحصى - المثبتة لله؟ قالوا: نفسر الرحمة بالإنعام، فيفسرونها بالرحمة المخلوقة، أو فسر الرحمة بإرادة الإنعام، فيفسرونها بالإرادة، وهؤلاء الأشاعرة؛ لأنهم يقرون بالإرادة على أنها صفة لله - وسبحان الله - حجتهم في هذا يقولون: الإرادة دلّ عليها العقل والرحمة ما دل عليها العقل بل دلّ العقل على خلافها، فنقول لهم: ما العقل الذي دلّ على الإرادة، قالوا: العقل الذي دلّ على الإرادة التخصيص، - تخصيص المخلوقات -، الجمل له صورة معينة والشاة لها صورة معينة، بنو آدم لهم صور معينة، فكونه يجعل البعير على هذه الصفة والشاة على هذه الصفة وبني آدم على هذه الصفة تدل على الإرادة.

هناك أدلة عقلية على أن الرحمة أكثر دلالة من دلالة التخصيص على الإرادة، كل ما في الكون

(١) تقدم تخريجه.

مِنَ النعم علام يدلّ؟ إنما يدل على الرحمة، ولذلك تجد العاميَّ إذا أمطرت السماء يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته، فدلالة هذه الأشياء على الرحمة أقوى من الدلالة على التخصيص بالإرادة فنحن نؤمن أن من صفات الله الرحمة، فإذا قال: إن الرحمة تدل على الإنكسار والانفعال، قلنا: هذا بالنسبة لرحمة المخلوق أما رحمة الخالق فهي تليق به - عَزَّ وَجَلَّ -، ما فيها انكسار ولا فيها نقص ولا فيها عيب، أرأيتم الغضب؟ الغضب انفعال يحدث للإنسان حتى يفقد أعصابه، ويتصرف تصرف المجانين حتى ربما خسر ماله وضرب أولاده وطلق زوجته وربما يؤدي إلى أن يرمي بنفسه في الماء، فالغضب يفعل بصاحبه هذا؛ لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يفور دمه، هل نقول: إن غضب الله كغضب الإنسان؟ حاشا لله، إن غضب الله صفة تليق به تدل على كمال سلطانه وعلى قدرته على الانتقام، ولكنها لا يمكن أن ينتج عنها سوء تصرف أبدًا بخلاف غضب المخلوق، وكذلك: هناك قوم أنكروا رحمة الله وبماذا فسروا الرحمة؟ بواحد من أمريْنِ: إما الإنعام أو إرادة الإنعام، وهذا لا شك في ضلالهم وبدعهم وإرجاعهم أمور الغيب إلى ما تقتضيه عقولهم القاصرة، والحقيقة أن هذه العقول ليست عقولًا، بل هي أوهام وإلّا فنحن نعلم علم اليقين أن ما جاءت به الشريعة لا يمكن أن يخالف صريح المعقول أبدا، صحيح المنقول لا يخالف صريح المعقول أبدًا ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كتاب (مجلدان) في بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ويسمى (درء تعارض العقل والنقل).

٤ - **من فوائد الآية الكريمة:** سوء عاقبة الظلم لقوله: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، حتى أولياؤهم في الدنيا لا ينفعونهم في الآخرة، ليس لهم ولي يتولاهم، ولا نصير يدفع عنهم الأذى.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن القائم بالعدل له ناصر وولي، والدليل مِنْ مفهوم المخالفة، إذا كان الظالم لا ولي له ولا نصير فمن قام بالعدل فله ولي ونصير.



قال الله تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ٩، ١٠]

❁ التفسير ❁

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، (أم) هذه منقطعة، و(أم) المنقطعة تكون بمعنى: (بل) و(همزة الاستفهام)، وهناك (أم) المتصلة وهي التي تقع بين شيئين متقابلين، وتكون بمعنى: (أو) مثال ذلك: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، هذه (أم) متصلة لأنها بين شيئين متقابلَيْنِ؛ ولأنها بمعنى:(أو) سواء عليهم أستغفرت لهم أو لم تستغفر لهم ففي غير القرآن لو وضع (أو) بدلا من (أم) لاستقام الكلام، فإذن نقول: إن (أم) تكون منقطعة وتكون متصلة والفرق بينهما، (أم) المتصلة بمعنى: (أو)، أم المنقطعة بمعنى: (بل) و(همزة الاستفهام).

و(أم) المتصلة تكون بين شيئين متقابلين و(أم) المنقطعة بخلاف ذلك، هنا يقول -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، ليس فيه شيئان متقابلان، إذن فهي منقطعة بمعنى: (بل) و(الهمزة)، (أم اتخذوا) الضمير يعود على المشركين ﴿مِن دُونِهِ﴾، الضمير يعود على الرب -عَزَّ وَجَلَّ- (أولياء) يقول الشارح -رحمه الله-: [أي: الأصنام]. إشارة منه إلى أن المفعول الأول اتخذوا محذوف والتقدير: أم اتخذوا من دونه الأصنام أولياءَ؛ لأن اتخذوا تنصب مفعولَيْنِ كقوله -تعالى-: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، هذه الآية يعني: اتخذوا من دون الله، ليس أمام أعيننا إلَّا مفعولٌ واحدٌ، أم اتخذوا من دونه أولياء، يقول المفعول الثاني محذوف، والتقدير أم اتخذوا الأصنام أولياء، يقول المؤلف: أولياء يعني: [أنصارًا يستغيثون بهم ويستنصرون بهم، ويوالونهم، ويتقربون إليهم، كأنهم رب].

قال المؤلف الشارح: [أم المنقطعة بمعنى:بل التي للانتقال والهمزة للإنكار، أي ليس للمتخذين أولياء]، يعني: هؤلاء اتخذوا الأصنام أولياء، والأصنام بعضها شجر وبعضها حجر، وبعضها مخلوقات كونية، كالشمس والقمر، وبعضها مخلوقات بشرية، كل هذه لا تنفع صاحبها، ولذلك تجد المشركين إذا وقعوا في الضرورة مَنْ يَدْعُونَ؟ يدعون الله -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، فهي لا تنفع، وهم -أيضًا- مقرون بهذا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، فالله هو الولي، [أي: الناصر للمؤمنين]، والفاء لمجرد العطف]، الفاء في قوله: ﴿فَاللَّهُ﴾، يعني: أنها ليست جوابًا لشرط ولكنها لمجرد العطف، وقوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، انتبه في إعراب الجملة هذه، (الله) مبتدأ و(هو) ضمير فصل و(الولي) خبر المبتدأ، واعلم أن ضمير الفصل حرف وليس اسمًا، وله ثلاث فوائد، الفائدة الأولى: الحصر، والفائدة الثانية: الفصل بين الخبر والصفة، يعني: مثلًا إذا قلت: (فلان الكريم)، (فلان) مبتدأ و(الكريم) خبر، ويحتمل أن يكون فلان مبتدأ وكريم صفته والخبر محذوف وتقديره (فلان الكريم حاضر)، فإذا

قلت: فلان هو الكريم تعين أن تكون الكريم خبرًا وليست صفة ولهذا يسمونه ضمير الفصل؛ لأنه يفصل أي يميز بين الخبر وبين الصفة و ليس له محل من الإعراب، ولهذا نقول: (الله) مبتدأ و(الولي) خبره وهو ضمير فصل لا محل له من الإعراب، إذن هويفيد الحصر والتوكيد، والتمييز بين الخبر والصفة.

فإذا قلنا: (محمد الرسول)، يحتمل أن تكون الرسول صفة لمحمد وأن التقدير (محمد الرسول صادق)، وإذا أتيت بـ(هو)، وقلت: (محمد هو الرسول)، يتعين، أن الرسول خبر، هذه واحدة، ـ أيضًا ـ هو الرسول، يفيد الحصر، يعني: لا غيره، ولا شك أن محمدًا بن عبد الله هو الرسول لهذه الأمة، ولا رسول غيره، الفائدة الثالثة: التوكيد هو الرسول هذه فائدة ضمير الفصل، أما إعرابه فليس له محل من الإعراب، فـ(الله هو الولي)، قوله: هو الولي، يقول المؤلف: أي [الناصر للمؤمنين]، وفي هذا نظر؛ لأن المؤلف ـ الآن ـ قصر الولاية على الولاية الخاصة، والصواب أنها عامة، هو الولي لكل أحد، الولاية العامة والولاية الخاصة، الولاية العامة لكل أحد؛ فإنه لا يتولَّى شئون الخلق غير الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أما الولاية الخاصة فهي ولاية النصرة والتأييد، وعلى هذا فاقتصار المؤلف ـ رحمه الله ـ على الولاية الخاصة فيه نظر، إذن هو الولي على كل أحد بالولاية العامة والولاية الخاصة، والفرق بين الولاية العامة والولاية الخاصة: أن الولاية العامة تشمل كل أحد فكل أحد فالله وليه يتولَّى أمره حتى الكافر الله وليه، والولاية الخاصة تقتضي النصر والتأييد، ومنه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، وعندما أقول: هو الولي الجملة هذه فيها حصر أم لا؟ فـ(الله هو الولي) فيها حصر وطريقه ضمير الفصل.

قوله: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وغير الله لا يمكن أن يحيي الموتى؛ لأن الإحياء هو: جعل الشيء حَيًّا بعد أن كان مَيِّتًا وهذا لا يقدر عليه إلَّا الله، بل إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ إذا أراد أن يميت أحدا، لا يمكن لأحد أن يمنع الموت، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، هل يمكن أن يرجعونها؟ لا يمكن، إذن الله يميت الأحياء ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وقوله: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي شيء معدوم فالله قادر على إيجاده، وأي شيء موجود فالله قادر على إعدامه، كل شيء فالله ـ تعالى ـ قدير عليه، وضد القدرة العجز، ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٠]، (ما) شرطية، و(اختلفتم) فعل الشرط فحكمه إلى الله، الجملة جواب الشرط، قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾، أي شيء

يقع بين الناس من الخلاف فمرده إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - سواء كان في الأمور الدينية أو الأمور الدنيوية، وسواء كان مع المؤمنين أم كان مع الكفار، أي شيء فحكمه إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، لا أحد يُرَدُّ إلى حكمه إلَّا الله.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾، يقول الشارح: [ما اختلفتم مع الكفار فيه من شيء]، والصواب أنه أعم، المؤلف - رحمه الله - خصه بالكفار، لاختلافنا مع الكفار، وفي هذا التفصيل نظر أيضا، والصواب أنه عام، ما اختلفتم أيها الناس مع الكفار أو فيما بينكم أيها المسلمون فحكمه إلى الله.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾، يقول الشارح: [من الدين وغيره]، الدِّينُ هو: كل ما يتعبد به الإنسان لله، [وغيره] أي ما ليس كذلك، فحكمه إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده، أي مرد حكمه إلى الله ولهذا قال: [حكمه مردود إلى الله يوم القيامة يفصل بينكم]، والصواب: أنه مردود إلى الله في الدنيا والآخرة، ودليل هذا قوله - تعالى -: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

الفوائد:

١ - **يستفاد من هذه الآية الكريمة:** أنه لا مرجع للقوانين، وأن القوانين المخالفة لحكم الله باطلة، وهو كذلك.

أولًا: لأن القانون مِنْ وضْع البشر والبشر ليس عندهم إحاطة علْم لا في الحاضر ولا في المستقبل، فهم لم يحيطوا بالدنيا علمًا غاية ما هنالك أن هذا الذي وضع المادة القانونية يعرف ظواهر شعبه فقط وهل يعرف كل الناس أن هذا الحكم مناسب لهم؟ لا، بل هذا قصور.

ثانيا: وأنه لو علم أحوال الناس من حيث العموم، هل يمكن أن يعلم حال كل أحد؟لا؛ لأن الناس يختلفون حتى في الحكم الواحد، أرأيت غنيًا وفقيرًا الغني عليه زكاة والفقير ليس عليه زكاة، فالفقير يجوز دفع الزكاة له والغني لا يجوز دفع الزكاة له.

مثال آخر: العاجز والقادر، فالقادر يصلى قائمًا والعاجز يصلي قاعدًا، هل هذا الذي وضع القانون يعرف أحوال الناس بحيث يكون القانون صالحًا لكل حال مِنْ أحوال الناس؟ لا، فهذا نقص آخر.

ثالثا: واضع القانون هل يدرك أحوال الناس في المستقبل أو لا؟ لا يدرك، فمعلوم أن الأحكام تختلف باختلاف الأحوال، ولهذا نجد أن الشريعة الإسلامية تختلف عن الشريعة النصرانية والشريعة النصرانية تختلف عن الشريعة اليهودية، فهذا هو عيسى يقول: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، والدين الإسلامي جاء - أيضًا - مغايرًا لكثير من الأشياء الفرعية لما سبقه

من الأديان قال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، إذن القانون قاصر من كل وجه، وإذا كان قاصرًا من كل وجه فهل يمكن أن يكون هذا الشيء القاصر مردًّا في النزاع؟ لا يمكن.

مسألة: مَنْ رجع إلى القانون فهل يكون كافرًا؟ الجواب: يحتاج إلى تفصيل، إذا لم يجد الإنسان طريقًا إلى أخذ حقه إلَّا عن طريق القانون، فليس هذا بكفر ولا محرم، فلو كنت في بلد تحكم بالقانون ولك خصومة مع شخص ولا يمكن أن تلجأ إلى حكم شرعي، فلا حرج أن تتحاكم إلى القانون، وإذا حكم لك، فهذا يعني: أنه كالشرطة، ولو لم نقل هذا لضاعت حقوق الناس وقد أشار إلى هذا المعنى المحقق (ابن القيم) ـ رحمه الله ـ في كتاب (الطرق الحكمية) لكن إذا تحاكمت إلى القانون وأنت تعلم أنه يحكم بالظلم فهل يجوز أن تتحاكم إليه أم لا؟ لا يجوز؛ لأن بعض الناس، من حيث الحكم الشرعي لا يستحق هذا الشيء، لكن باعتبار القانون يستحقه فقال أحاكمه لآخذ حقي بمقتضى القانون، ماذا نقول؟ نقول: هذا حرام ولا يجوز، مثال ذلك: ما يسمونه بالفوائد البنكية، الفوائد البنكية في الحكم الشرعي حرام أم حلال؟ حرام، وهذا الرجل يعرف أنها حرام في الشرع، لكن قال: أريد أن أتحاكم إلى القانون؛ لأن القانون سوف يمكنني منه هل يجوز؟ لا يجوز؛ لأن هذا أكل المال بالباطل، إذن التحاكم إلى الطاغوت ـ وهو ما خالف الحكم الشرعي، إن كان لاستخراج الحق لا لاعتقاد أن ما حكم به هو الحق، ـ انتبه للفرق ـ لاستخراج الحق لا لاعتقاد أنه الحق، فهذا جائز فكأنما فعلته شرطة يستخرجون حقك من هذا الذي ظلمك، وإن كان لاعتقاد أن ماجاء في القانون حق مع مخالفته للشرع فهذا حرام.

*** مسألة: حكم واضع القانون:**

إما أن يعلم أنه مخالف للشرع لكنه يعتقد أنه أنفع للخلق من شرع رب الخلق، فهذا كافر لا شك، كافر كفرًا مخرجًا عن الملة؛ لأنه مكذب لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ومكذبًا لقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾؛ لأنه وضع كتابا بدلا عن كتاب الله وهذا واضح من الكفر، أبدل دين الله بغيره، وأبدل حكم الله بغيره فهذا كافر، أما إذا كان لا يدري أنه مخالف للشرع وإنما صنع ذلك بتأويل - إن كان من أهل الاجتهاد - أو بتضليل - إن كان من غير أهل الاجتهاد - فهذا لا يكفر.

مثال: أن يعتقد أن مسألة العِينَةِ جائزة ويضعها قانونًا ومسألة العينة معروفة عندكم؟ وهو أن يبيع شيئًا بثمن مؤجل ويشتريه نقدًا بأقل، فيقول مثلًا: مادة كذا: إذا باع شيئًا بثمن مؤجل واشتراه بأقل فالعقد صحيح.

هذه المادة تخالف الشرع لكن هو لا يدري أنها تخالف الشرع، أو تأول أنها جائزة بناءً على صورة في المعاملة هذا لا يكفر وقد يكون واضع القانون المخالف للشرع عن تضليل لا هو عن

تأويل بحيث يكون الحاكم جاهلًا أُمِيًّا لكن ضلله بعض علماء الدولة فقالوا: هذا لا بأس به؛ لأن النبي ﷺ يقول: «أَنْتُم أَعْلَمُ بِأُمُورِ دُنْيَاكُمْ»[1] ونحن نعلم أن هذا خير لنا في الدنيا بناءًا على ظنهم فهذا لا يكفر، فصار ـ الآن ـ الذي يضع قانونًا يخالف الشرع معتقدًا أنه أولى من الشرع وأنفع للخلق فهذا كافر لا نشك في هذا لكن بشرطيْنِ أولًا: يعلم أنه مخالف للشرع والثاني: أنه يعتقد أنه أنفع للخلق أو مثل الشرع حتى الذي يعتقد المماثلة فهو كافر؛ لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾، ويقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، أما مَنْ وضعه مخالفًا للشرع بتأويل أو تضليل فإنه لا يكفر؛ لأن هذا في نظره لا يخالف الشرع فلا يكفر بهذا.

الخلاصة ـ الآن ـ عندما يختلف الناس في شيء فإلى مَنْ يرجعون؟ إلى الله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، فإذا قال قائل: من أين نعلم حكم الله؟ قلنا: من القرآن والسنة يفسر هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ـ الآن ـ فهمنا أن المؤلف ـ رحمه الله ـ قصر في تفسير الآية في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾، حيث خصها بالمؤمنين بالولاية الخاصة.

قصر ـ أيضًا ـ المؤلف هنا (فحكمه إلى الله يوم القيامة يفصل بينكم)هذا ـ أيضًا ـ قصور والصواب أن حكم الله في الدنيا والآخرة.

ثم قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ويمر بنا كثيرًا ذلك، فلماذا تختلف الكاف من موضع إلى موضع، فالجواب: أن (الكاف) بحسب المخاطب، واسم الإشارة بحسب المشار إليه، هنا: (ذلكم) اسم الإشارة بحسب المشار إليه؛ لأنك تشير إلى لفظ الجلالة، وذلكم الله واحد ويخاطب جماعة، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾، (ذلكم) مبتدأ و(الله) عطف بيان، و(ربي) خبر مبتدأ، يعني: الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يجب أن يعلن لهؤلاء: أن الله ـ تعالى ـ ربه وأنه لا رب سواه، وإنما قلنا: وأنه لا رب له سواه؛ لأن طرفي الجملة معرفة، وإذا كانت الجملة قد عرف طرفاها دلت على الحصر، ولو سألنا سائل: بما تعلقت الكلمة (عليه)؟ قلنا: تعلقت بـ(توكلت)، بما تعلقت إليه؟ قلنا: العامل مؤخر عن المعمول في (عليه توكلت) وفي (إليه أنيب)، والقاعدة عند البلاغيين، أنه إذا تقدم ما حقه التأخير كان ذلك دليلًا على الحصر، فـ(عليه توكلت) بمنزلة: ما توكلت إلَّا عليه، (إليه أنيب) بمنزلة: ما أنيب إلَّا إليه.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: فوضت أمري إلى الله تفويضًا كاملًا، والتوكل على الله ليس كالتوكل على البشر، والتوكل على البشر بمعنى: أنك تعطيه التصرف في أن يشتري لك شيئًا،

---

(١) رواه مسلم (٢٣٦٣) عن أنس وعائشة رضي الله عنهما.

وهذا تفويض خاص، وأيضًا تفويض وأنت تعتقد أنت صاحب الشأن فيه، بمعنى: لو شئت لعزلته لكن توكلك على الله تفويض إلى الله في كل شيء ولا يمكنك أن تفسخ الوكالة حتى ولو فسختها فالله - عَزَّ وَجَلَّ - وكيل عليك، وبهذا نعرف الفرق بين أن يقول القائل: توكلت على فلان بمعنى:أني وكلته، وتوكلت على الله، هل توكلت على الله مثل توكلت على فلان؟ لا أبدًا وإن اتفق اللفظان لكن يختلف المعنيان اختلافا عظيما، لاحظوا: توكلت على فلان أي: فوضته بأمري والأمر إِلَيَّ إن شئتُ عزلتَهُ، لكن إن توكلتُ على الله فوضتُ أمري إليه مستندًا إليه جل وعلا في تيسير أمري وتسهيله وحينئذ لا نقول: إِنَّ مَنْ توكَّل على شخص في شراء أي شيء يكون مشركا بالله، ما نقول هذا؛ لأن الفرق العظيم بين توكلي على الشخص الذي وكلته أن يشتري حاجة وبين توكلي على الله، توكلي على الله تفويض واستعانة، لكن على الشخص لا، استخدامي له في الواقع، توكيلي إياه أو توكلي عليه في الوكالة عبارة عن استخدام، ولهذا متى شئت، قلت: لا أتوكل عليه وأعزله، لكن بالنسبة في التوكل على الله ليس كذلك فما هو التوكل على الله؟ هو التفويض لله - عَزَّ وَجَلَّ - تفويضًا تاما، وبعضهم يقول: صِدْقُ الاعتماد على الله، يعني: التوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله - عَزَّ وَجَلَّ - يفسر هكذا، وهذا التوكل على الله - عَزَّ وَجَلَّ - يعني: إلغاء الأسباب ولهذا لو قيل لرجل: تزوج حتى يأتيك أولاد، قال: أنا متوكل على الله، نقول: لا يصح مثل هذا التوكل افعل الأسباب وتوكل، وفي المَثَل اعقلها وتوكل يعني: لا تطلق الناقة وتقول: أنا متوكل على الله، الناقة إذا أطلقتها ذهبتْ حيث شاءتْ، وحتى ولو كنتَ متوكلًا على الله، افعل الأسباب، لو أن فلانًا قيل له: ابتغ الرزق وبع واشتر، اعمل الأسباب التي تحصل بها المال، فقال: أنا متوكل على الله، هل هو صادق؟ لا، هذا توكل المتهاونين، إذا كنت صادقًا في التوكل على الله فاعمل بالسبب ولكن لا تعتمد على السبب، اجعل السبب سببًا، والمدبر هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾، يعني: أرجع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - في عباداتي وفي جميع أحوالي.

٥ - **ومن فوائد الآية:** الإنكار على الذين اتخذوا من دون الله أولياء، أم هنا بمعنى: (بل) وهمزة استفهام أم الإنكارية.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هؤلاء طلبوا شيئًا من غير محله لقوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾، فهو الذي ينبغي أن يتخذ وليًّا - عَزَّ وَجَلَّ -.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الولاية لله؛ لقوله: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾، وهل هي عامة أو لا؟ في الجلالين صرح بأنها ولاية خاصة فقال: [ولي المؤمنين] والصحيح أنها عامة فالله ولي كل أحد فإن الله - تعالى - ولي للكافرين، يرزقهم ويعافيهم، ويدفع عنهم السوء ويتولاهم، كما قال

تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، لكن نقول: الولاية قسمان: عامة وخاصة كما بيناها في التفسير.

٨ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا ولاية لأحد من دون الله، من أين تؤخذ؟ من قوله: ﴿هُوَ﴾؛ لأن (هو) ضمير فصل يفيد الحصر.

٩ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان قدرة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على أمر لا أحد يدَّعيه، ومن ادعاه فهو كاذب لقوله: ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، هذه الجملة لا يدَّعيها أحد ولو ادَّعاها فهو كاذب، فإن قال قائل: أليس يؤتى بالرجل يستحق القتل فيأمر السلطان ألَّا يقتل أليس هذا إحياء؟ الجواب: لا، ليس هذا إحياء، لا يمكن أن يكون إحياءً، ولكنه استبقاء الحياة؛ لأنها الحياة السابقة هو لم يجعل في هذا حياة فيبقى، ولكنه استبقى حياة موجودة.

فإن قال قائل: ما تقولون في قول الله ـ تعالى ـ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، فأثبت الإحياء للإنسان، الجواب: أحياهم بإبقاء حياتهم الموجودة، يعني: مَنْ رفع القتل عن الإنسان ودافع عن شخص يقتل فهو كأنما أحيا الناس جميعًا، ومن المعلوم أنه لا أحد يستطيع أن ينفخ الروح في الميت!

١٠ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

١١ـ **ومن فوائدها:** حث الإنسان على أن يدعو الله لكل ما أراد ما لم يعتدِ في الدعاء، انتبه يا أخي فهذه فائدة تربوية أن تدعو الله بكل شيء إلَّا ما حرم الله عليك الدعاء به، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإنك إذا دعوت الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بأي شيء لا تيأس، لا تقل: هذا لا يمكن، إنما كان عدوانًا واعتداءً فلا يجوز، وهذا يفتح للإنسان باب الرجاء، وباب دعاء الله، واللجوء إليه، لو كان عندك مريض مدنف، فهل تقول: لا أستطيع أن أدعو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الرجل وصل إلى حالة خطيرة، فهذا لا شك خطأ؛ لأن الله على كل شيء قدير، فادعُ الله، إنسان تقطعت به الأسباب، طلب الرزق في البيع والشراء فخسر، طلب التقديم في الوظيفة فلم ينجح، وهكذا، قال: إذن ما الحاجة إلى الدعاء، ماذا نقول له؟ نقول له: هذا خطأ، ادعُ الله فالله على كل شيء قدير، كم من إنسان دعا له الناس واشتروا له الكفن وقربوا له النعش وتهيأ أصحابه لتشييعه ثم يعافيه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأن الله على كل شيء قدير، إذن متى آمنت يا أخي بأن الله على كل شيء قدير، فلا تستصعب شيئًا على قدرة الله، اسأل الله كل شيء ما لم يكن إثمًا أو قطيعة رحم ولا تيأس، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذه الجملة كما قلت لكم تفيد أن الإنسان لا ييأس من رحمة الله ـ

عَزَّ وَجَلَّ - وأن يدعو الله - تعالى - بكل ما أراد ما لم يكن إثما أو قطيعة رحم[1].

الفوائد:

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ - ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ في هذه الآية من **الفوائد:**

١ - ومنها: أنه لابد أن يكون هناك اختلاف بين الناس وهذا هو الواقع، يعني: لا يمكن أن ترفع الخلاف بين الناس، لا بد أن يختلفوا، وأسباب الاختلاف كثيرة ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، وهو كتاب مختصر نافع، لخصناه وزدنا عليه بعض الشيء وذكرنا الأمثلة التطبيقية على القواعد التي ذكرها - رحمه الله - في كتاب سميناه: (اختلا ف الأئمة وموقفنا نحوها)أو معنى كهذا وهو مفيد.

٢ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الواجب عند الاختلاف الرجوع إلى حكم الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

٣ - ومن فوائد الآية الكريمة: أن الحكم لله في الدنيا والآخرة لعموم قوله: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، وأما مَنْ خَصَّ ذلك بالآخرة فخطأ حتى في أمور الدنيا نرجع إلى أمر الله كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

٤ - ومن فوائدها: تحريم الرجوع إلى قوانين البشرية عند الاختلاف، لقوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، لا إلى غيره، فإن قال قائل: ألستم تقولون: إن قول الصحابي بحجة؟ الجواب: بلى، على خلاف في هذا، فالمسألة ليست إجماعية، لكن على القول بأن فقهاء الصحابة أقوالهم حجة، قلنا: بلى، نقول بذلك، لكننا مستندون إلى قول الرسول - عليه الصلاة والسلام: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ[2] الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»[3]؛ لأن الصحيح أن الخلفاء الراشدين اتباعهم معلقٌ بأوصاف لا بأعيان، يعني: ليس الخلفاء الراشدون هم الأربعة بل كل مَنْ خَلَفَ النبي ﷺ في أمته علمًا ودعوةً وتعليمًا هذا خليفة راشد، وأرشد مَنْ خَلَفَ النبي ﷺ هم

---

(١) كما روى مسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال ؟ قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء.

(٢) قيل هم الأربعة رضي الله عنهم وقيل بل هم ومن سار سيرتهم من أئمة الإسلام المجتهدين في الأحكام فإنهم خلفاء الرسول عليه الصلاة والسلام في إعلاء الحق وإحياء الدين وإرشاد الخلق إلى الصراط المستقيم. حاشية السندى على ابن ماجه.

(٣) **صحيح** : رواه أبوداود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) ، وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه ، وصححه الألبانى فى الإرواء (٢٤٥٥).

الصحابة رجوعًا إلى حكم الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إعلام النبي ﷺ بالإخلاص والتوحيد لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾، أي: ذلك الذي يُرْجَعُ إلى حكمه هو الله ربي.

٦- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مِنْ هَدْي النبي ﷺ التوكل على الله وحده، لقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، لكن كلمة (وحده) مِنْ أين أخذناها؟ من الحصر الذي طريقه تقديم ما حقه التأخير.

٧- **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن من هدي الرسول ﷺ الإنابة إلى الله - تعالى - وحده، لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وإذا كان هذا من هدْي الرسول ﷺ وجب علينا أنْ نأخذ به، لقوله - تعالى -: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

التفسير

قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، (فاطر) خبر المبتدأ المحذوف والتقدير: (هو فاطر)، وإنما قلنا هذا؛ لأن اللغة العربية لا يمكن أن يتركب بها كلام إلَّا من مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل أو ما ينوب مناب الفاعل، فاطر أي: هو فاطر، والفاطر بمعنى: الخالق على غير مثال سبق، فهو بمعنى:بديع السماوات، والسماوات والأرض معروفتان، فالسماوات هذه السبع التي أخبرنا الله عنها، وبين أنها سبع شداد، وبين - سبحانه وتعالى - أنه بناها بأيد فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، أي: بقوة، وليس المراد بالأيد في هذه الآية يد الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لأن الله لم يضفها إلى نفسه، لم يقل بأيدينا، قال: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾، وأيد مصدر آد يئيد، إذا قوي فهو كقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، هذه السبع الشداد إذا كان يوم القيامة قال الله عنها: إنها تكون واهية، وقوله: ﴿فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾، أي: ضعيفة، أما الأرض فهي أرضنا المعروفة، والسماوات مجموعة لأنها سبع، والأرض مفردة يراد بها الجنس، وقد بين الله - عَزَّ وَجَلَّ - في سورة الطلاق أنها سبع فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، ومن المعلوم: أن المماثلة هنا ليست مماثلة في الذات، إذ أن بين السماوات والأرض بونًا شاسعًا، لكن المراد مثلهن في العدد، ويؤيد ذلك ما جاءت به السنة، فقد قال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[1].

قوله: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، جعل يقول المفسر: [مبدعهما]، يريد أن يفسر فاطر بمعنى: مبدع، ولكننا فسرناها بمعنى: بديع وتفسيرنا لا ينافي تفسيره فالمعنى واحد، لكن مطابقة اللفظ بما جاء به أولى، والذي جاء في القرآن بديع وليس مبدع.

قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أي: صير لكم من أنفسكم أزواجًا، قال الشارح: [حيث خلق حواء من ضلع آدم]، كأنه يميل - رحمه الله - إلى أن الأزواج هنا حواء، ولكن هذا غير صحيح بل جعل من أنفسنا أزواجًا يعني: نساء مشاكلات لنا، لم تكن الأنثى بعيدة عن شكل الرجل؛ لأنها لو كانت بعيدة عن شكل الرجل ما ألفها، ولا جعل الله بينهم مودة ورحمة.

وقوله - تعالى -: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من جنسكم، وليس المراد من نفس الإنسان أن جعل له زوجًا، لا، لو كانت من نفسه لم تكن زوجًا لكانت بنته، لكن المراد من أنفسكم أي: من جنسكم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾.

وجعل لكم - أيضًا - من الأنعام أزواجا، الأنعام جمع نعم كبهيمة الأنعام، أزواجا أي: ذكورًا وإناثًا من أجل الإنتاج والتنمية، وغير ذلك من المصالح.

قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، [بالمعجمة]، قال: [يخلقكم] ما معنى معجمة؟ هل في القرآن شيء أعجمي؟ لا، لكن يعبرون بالمنقوط من الحروف بأنه مُعْجَم، من باب تسمية الشيء بضده، وإلَّا فهو معرب في الواقع؛ لأنه لولا هذه النقط مثلًا لأشكل ولا يفهم المعنى، إذن المعجم المنقوط، وسمي بذلك من باب تسمية الشيء بضده، كما يسمون التعبد بالتحنث كما في حديث بدء الوحي: يتحنث فيه، أي: يتعبد. إذن المعجمة ضدها المهملة، فالشين ضد السين، والذال ضد الدال، وهكذا، أما الحركات فيسمونها مثلثة أو بالوجهين أو ما أشبه ذلك، وأحيانا يقولون: إذا كانت الكلمتان المشتبهتان كلتاهما معجمة قالوا: بالمثلثة، مثل التاء والثاء فلو قالوا معجمة ما زال الإشكال، ولكن يقولون: بالمثلثة، التاء والظاء يقولون: بالظاء المشاله، يعني، التي فيها ألف، احترازًا من الضاد؛ لأنها غير مشالة، المهم أن هذه المصطلحات معروفة عند العلماء.

وقوله - تعالى -: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، فسر المؤلف يذرأ [بيخلق]، وهو تفسير ناقص؛ لأن يذرأ لها

(١) تقدم تخريجه.

معنى زائد على الخلق وهو البث والانتشار، كما قال ـ تعالى ـ في آية أخرى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، فالذرء أخصّ من الخلق، فمعنى يذرؤكم إذن يبثكم فيه وينشركم.

وقوله: ﴿فِيهِ﴾، أي: [في الجعل المذكور]، ثم قال: أي: [يكثركم بسببه]، انظر فسر أولًا: يذرؤكم بيخلقكم، ثم قال: أي، يكثركم والتفسير الثاني: هو الأصح، التكثير والبث والنشر، بالتوالد، قال: [والضمير للأناسي والأنعام بالتغليب]، كيفْ للتغليب؟؛ لأن الضمير هنا جاء ضمير العاقل والأنعام لا يأتي لها ضمير العاقل؛ لأنها غير عاقلة، لكن جاء ذلك للتغليب، لما كان الذرء للإنسان والبهائم قال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾، ولم يقل: يذرءكن، التغليب قد يكون بتغيير الاسم وقد يكون للضمير وما أشبه ذلك، القمران للشمس والقمر هو تغليب بتغير الاسم؛ لأن القمران لو فككتها عن التثنية لكانت قمر وقمر وليس كذلك بل المراد: قمر وشمس فهنا بتغيير الاسم، فالضمير هنا في قوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾، يعود على ما سبق ذكره من بهائم وأناسي عل سبيل التغليب، ولولا التغليب لوجب أن يكون الضمير ضميرًا مؤنثًا للبهائم، وضميرًا مذكرًا للأناسي.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، السميع [لما يقال]، والبصير [لما يفعل]جل وعلا.

قال المؤلف: [ليس كمثله الكاف زائدة لأنه ـ تعالى ـ لا مثل له]، وزيادة الكاف ليس غريبًا تأتي دائمًا زائدة ولهذا قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في الألفية التي ينبغي لطالب النحو ألَّا يترك حفظها:

شَبِّه بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلِ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ[1]

يعني: قد تأتي زائدة، في هذه الآية (الكاف) زائدة، بمعنى:أنها لو حذفت لاستقام الكلام، لو قيل: (ليس مثله شيء) يستقيم الكلام، لكن لماذا جاءت الكاف؟ جاءت للتوكيد، كأنه نَفَى المثل مرتيْنِ، ليس كهو ليس مثله، فالزيادة هنا فيها زيادة معنى كأنه نفى المثلية مرتيْنِ، مرة عن طريق الكاف ومرة عن طريق المثل، وبعضهم يقول: إن الزائد (مثل) وأن التقدير (ليس كهو شيء)، لكن هذا قول ضعيف؛ لأنه إذا دارت الزيادة بين أن تكون حرفًا أو اسمًا، فالواجب أن تكون الزيادة حرفا؛ لأنه لم يأتِ في اللغة العربية زيادة في الأسماء، ولأن الحرف معناه في غيره فمجيئه زائدًا ليس بغريب، والاسم يدل على معنى في نفسه، فإتيانه زائدًا بعيد، إذن عندنا قولان:

الأول: أن الكاف زائدة وهذا سهل وجرى في اللغة العربية مثله، وتكون الزيادة هنا للتوكيد، وبعضهم قال: الزائد (مثل)، وقوله ضعيف.

---

(١) شرح ابن عقيل (٣/ ٢٥).

بعضهم يقول: إن المثل هنا بمعنى:الصفة، يعني: ليس كصفته شيء، والمثل تأتي بمعنى:الصفة مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: صفته، وهذا ـ أيضًا ـ ضعيف؛ لأننا نقول إن الله ليس مثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته.

بعضهم يقول: إن هذا على سبيل المبالغة، يعني: إذا لم يكن لمثله مثل، لو فرض أن له مثلًا فمن باب أولى ألَّا يكون له مثلٌ، وأن هذا مثل ما جرى عليه لسان العرب في المبالغة في الوصف، وأنشدوا على ذلك: لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْر

من المبالغة، يعني: هذا لا نظير له إطلاقا وهذا الأخير والأول هما أقرب الأقوال في إعراب هذه الجملة، لكن من حيث المعنى والاعتقاد نؤمن بأن الله ـ تعالى ـ ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ليس كمثله شيء في كل شيء، يجب علينا أن نؤمن بهذا، فذاته مخالفة لجميع الذوات، نحن نرى أن الذوات مختلفة، فالإنسان مركب من لحم ودم وعصب وعظم، وهناك أشياء مركبة من جواهر أخرى، الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مباين لكل موجود في الكون، في ذاته، لا تقل مثلًا: إنه مثل الذهب مثل الفضة وما أشبه ذلك، ولهذا لما قال المشركون للرسول ﷺ: يا محمد هل ربك من ذهب أو من فضة أو من كذا ومن كذا[1]، أنزل الله قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، فلا تتصور ذات الرب أبدا؛ لأنك مهما تصورت - على أي شيء تتصورها - فإنه لا مثيل له ولا نظير له، كذلك في صفاته ليس له مثيل ولا نظير في أي صفة من صفاته، ولنأخذ على ذلك مثالا وهو العلم، فالعلم من صفات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، هل له نظير في هذه الصفة؟ لا نظير له في هذه الصفة أبدا، علْم كل ذي علْم محدود، فأعلم الناس علمه محدود، أليس كذلك؟ بلى، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾، أنت بنفسك لا تدري ماذا تكسب غدًا، قد تقدر أنك تعمل كذا وكذا، لكنك لا تعمل إما لصرف الهمة أو لمانع خارجي، أليس كذلك؟ كلنا نقدر أن غدًا نفعل كذا وكذا، لكن ما نفعل، ولا ندري ما يكون، قد يصرف الله همتنا عن هذا الفعل، أو توجد موانع خارجية من مرض أو سفر أو حيلولة بيننا وبين مرادنا.

أيضًا علمك محدود بالمشاهدة، الغائب لا تفكر أن عندك منه علمًا، بل حتى في المشاهدة علمك ناقص، الإنسان لا يعلم ماذا يفعل وهو في بيته، ولا أهله في بيته، بل أشد من هذا وأضعف في العلم، أنك لا تعلم عن نفسك وروحك التي بها حياتك، وهي في جسمك ما تدري عنها، لما

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٤)، والدر المنثور (٤/ ٦٢٥ و ٦٢٦).

سألوا النبي ﷺ عن الروح[1] أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، ثم وبخهم على هذا السؤال، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، كأنه يقول ـ سبحانه وتعالى ـ: تسألون عن الروح وأنتم ما أحطتم بالأشياء، ما علمتم عن الأشياء إلَّا قليلًا، ما بقي عليكم إلَّا علم الروح حتى تسألوا عنها! فإذا كان الإنسان لا يعلم روحه التي بين جنبيه وبها حياته، فهو دليل على نقصان العلم، فعلم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أعظم، اسمع ماذا يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، كل إنسان، كل حيوان، يعلم ما في نفسه، هل علم المخلوق مثل هذا ؟!

ومثال آخر: القدرة ليس لأحدٍ بل لو اجتمع الخلق كلهم بِقُدَرِهم ما ساووا شيئًا من قدرة الله، فإن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على كل شيء قدير، اسمع، قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، يعني: البعث صيحة واحدة يصيح بهم: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كلهم في أقطار الدنيا ولو في الغابات والكهوف وأعماق البحار، كلهم يأتون في آن واحد، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، هذه القدرة هل يمكن أن يماثلها قدرة أو يشابهها؟ لا يمكن أبدا، لذلك نقول: إن الله ليس كمثله شيء، واعلم أن هذه الآية استدل بها المعطلة والممثلة وأهل السنة.

الممثلة قالوا: وهو السميع البصير إثبات يدل على المماثلة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ -هذه شبهتهم- خاطبنا بالقرآن، والقرآن جعله الله بلسان عربي من أجل أن نعقل ونفهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فإذا خاطبنا الله بشيء مما وصف به نفسه وجب أن نحمله على ما نفهم، ونحن لا نفهم إلَّا ما نحس به، فيجب أن تحمل كل صفة لله على ما كان معلومًا، ولذلك قالوا: إن الله ـ تعالى ـ مثل خلقه ـ نسأل الله العافية ـ، والله لو كان مثلنا ما عبدناه، ولا يمكن أن يعبد الإنسان مثله، لكن هم بعقولهم الضالة قالوا: يلزم مما أخبر الله به عن الصفات أن تكون مثل صفاتنا والشبه أن الله خاطبنا بما نفهم ونعقل، ونحن لا نفهم إلا ما نشاهد، فإذا خاطبنا عن شيء غائب وجب أن نحمله على المعلوم عندنا.

أما المعطلة فقد استدلوا ـ أيضًا ـ بهذه الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقالوا: كل صفة أثبتها الله لنفسه فإنها تدل على التمثيل فيجب أن تكون منفية، وإن فتحت لهم الباب وجدتهم ممثلة؛ لأنهم يقولون: كل صفة أثبتها الله لنفسه فإنها تستلزم التمثيل، والتمثيل ممتنع، إذن يجب أن تمتنع كل صفة، مثال ذلك: يقولون إن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يستو على العرش، - والاستواء حقيقي -؛ لأنه لو كان مستو على العرش لكان جسما، فيكون مماثلًا للمخلوق، فهم تصوروا أن استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على الأنعام، فلما فهموا هذا الفهم أنكروا الاستواء، فالإنسان يستوي

---

(١) كما روى البخاري (١٢٥)، ومسلم (٢٧٩٤) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

على البعير، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾، فهم فهموا استواء الله على العرش كاستواء الإنسان على البعير، وقالوا: هذا تمثيل، والتمثيل مستحيل على الله فيجب إنكاره، وهذا قول المعتزلة والجهمية وَمَنْ ظاهرهم، نفوا كل صفة لله، وقالوا: لا يمكن أن نصف الله بشيء، وشبهتهم في ذلك: أن الإثبات يستلزم التمثيل والله - عَزَّ وَجَلَّ - قد نفى أن يكون له مِثْل، وأيضًا المماثلة مستحيلة عقلا فيكون دليلهم العقل - على زعمهم - والشرع على أن الله ليس له مثيل، فيجب أن ننفي جميع الصفات.

هؤلاء حقيقة أمرهم أنهم مثَّلوا أولًا ثم عطَّلوا ثانيًا، مثلواأولًا حيث اعتقدوا أن الأدلة تدل على التمثيل وهذا اعتقاد فاسد، ثم بعد ذلك عطّلوا وأنكروا، ولكن هذه الشبهة دَفْعُهَا يسير.

نقول لهم: هل تثبتون لله وجودًا؟ إما أن يقولون: لا، وإما أن يقولوا: نعم، أليس كذلك ؟!، فإذا أثبتوا لله وجودًا، نقول: هل هو وجود حقيقي أو وهمي؟ إن قالوا: وهمي! كفروا ما في شك في كفرهم، وإن قالوا: حقيقي، قلنا لهم: هل تثبتون لأنفسكم وجودا؟ إما أن يقولوا: نعم وإما أن يقولوا: لا، فإن قالوا: لا، فلا نخاطب أشباحهم بشيء، لكن لن يقولوا: لا، يقولون: نعم، نثبت لأنفسنا وجودًا، نقول: إذن يلزمكم التمثيل؛ لأنكم أثبتم لله - تعالى - صفة هي ثابتة للمخلوق فيلزمكم التمثيل، انظر الباطل لا بد أن يندحر، لكن انفك قوم عن هذا الإلزام من الغلاة وقالوا: لا نقول: إن الله موجود، - أعوذ بالله - إذن مَنْ تعبدون ؟! نقول لهم: إذا قلتم: إنه غير موجود لزم من ذلك أن تقولوا هو معدوم، إن قلتم إنه معدوم مَثَّلْتُمْ؛ لأن الموجود من الخلق يكون معدومًا قبل وجوده وبعد وجوده قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ وهذه حقيقة، الواحد منَّا قبل ولادته بسنتين ليس بشيء معدوم، فإن قلتم: إن الله معدوم شبهتم ومثلتم على قاعدتكم، قالوا: إذن نقول: لا موجود ولا معدوم، نقول: الله أكبر، هل يمكن أن يكون الشيء لا موجودًا ولا معدوما، كل شيء إما موجود أو معدوم؛ لأن تقابل الوجود والعدم تقابل تناقض والمتناقضان لا بد من وجود أحدهما لا يمكن أن يجتمعا ولا يمكن أن يمتنعا، فإذا قالوا: لا معدوم ولا موجود، قلنا لهم: شبهتموه بالمستحيلات والممتنعات فأهل الباطل لا مفر لهم من لوازم الباطل.

تكائس قوم وقالوا: نحن لا نقول: إنه لا يتصف بصفة لكننا نصفه بما نحكم به عليه، ولا يحكم به على نفسه، قالوا: لا ننكر الصفات لكن نصفه بما نحكم به عليه، لا بما يحكم به على نفسه، وهؤلاء المتكائسون: هم الأشعرية، أثبتوا بعض الصفات وأنكروا أكثر الصفات، أثبتوا من الصفات سبعاً، وأنكروا الباقي، فأثبتوا الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة والكلام، وأنكروا الباقي، قالوا: لا نثبت من الصفات على وجه الحقيقة إلَّا هذه الصفات السبع - على

اختلاف بينهم وبين أهل السنة في بعضها فالكلام عندهم غير الكلام عند أهل السنة ـ والباقي لا يثبتونه، نقول لهم: ماذا تصنعون إذن في عدم إثباته، قالوا: لنا فيه طريقان:

أما التفويض بأن نقول: لا ندري ما معناها، وأما التأويل الذي يسمونه تأويلًا هو في الحقيقة تحريف، والأشاعرة هم أكثر الناس انتشارًا في البلاد الإسلامية، ولهذا يجب أن نعرف مذهبهم تمامًا، ونعرف الردَّ عليهم، حتى يتقلص هذا المدَّ أو يزول بالكلية ـ ونحن نسأل الله ـ تعالى ـ أن يزيله إلى الحق.

يقولون: نثبت هذه الصفات السبع وغيرها لا، ولذلك يقولون في استعمالهم في النصوص: ما سوى هذا إما نفوضه ونقول لا ندري معناه وإما أن نؤوله ونحن نسمي تأويلهم: تحريفا؛ لأن التأويل الذي لا دليل عليه تحريف وفي ذلك يقول ناظم عقيدتهم:

وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبِيها أَوِّلْهِ أو فَوِّض تَرُمْ تَنْزِيها[1]

نقول: إن أَوَّلْنَاهُ ـ وهو التحريف ـ فإننا لَمْ نَرُمِ التنزيه بل وقعنا في العيب، ووجهه: أننا إذا قلنا: لا نعلم المعنى فهذا يعني: أن الله أنزل علينا كتابًا مجهولًا، لا ندري ما معناه، ولا نفهم إذن ما يتعلق بأمور العبد كالصلاة والزكاة وغيرهما، وإن حَرَّفْنَاهُ وقعنا ـ أيضًا ـ في بلاء وقعنا في اتهام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أنه لم يبين لعباده إلَّا ما كان خلاف الحق، وكلاهما شيء كبير، حتى إن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ يقول: إن قول أهل التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد وأنه هو الذي فتح للفلاسفة القدْح في الدين، وقال: إذا كنتم لا تعلمون المعنى وأنتم عجم بالنسبة للقرآن العربي، نحن نعرف معناه، وصاروا يخبطون خبط عشواء.

نعود إلى مذهب الأشاعرة، يثبتون لله سبع صفات: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام ومع ذلك إثباتهم لها ليس كإثبات أهل السنة، نضرب مثلًا بالكلام، يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت مسموع أبدًا وإنما كلامه هو المعني القائم بنفسه، وما يسمعه العباد إنما هو عبارة عن الكلام المخلوق، فلما قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لنبيه ﷺ: إني فرضت عليك خمسين صلاة[2]، - بهذا اللفظ أو معناه -، الله ـ سبحانه ـ ما قاله؛ لأن الكلام معنى قائم بنفسه - على زعمهم - خلق أصواتًا للنبي ﷺ تعبر عما في نفسه، سبحان الله، ـ الآن ـ لو تفكرنا لوجدنا قولهم هذا أخبث من قول الجهمية، الجهمية عندهم صراحة قالوا: كلام الله مخلوق ومسموع لكنه مخلوق، هؤلاء قالوا: كلام الله غير مخلوق ولكنهم قالوا: لكنه غير مسموع وهو المعنى القائم

---

(١) الفواكه الدواني (١/ ٤٨) ونسبه إلى صاحب الجوهرة.

(٢) راجع صحيح البخاري (٣٤٢)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

بنفسه، ويخلق أصواتا تسمع تعبر عما في نفسه، أيهم أصرح؟ الجهمية أصرح.

ما بين أيدينا القرآن هذا، الجهمية يقولون: هذا كلام الله حقيقة لكنه مخلوق، الأشاعرة يقولون: لا هذا ما هو كلام الله حقيقة هذا عبارة عن كلام الله وكلام الله هو المعنى القائم بالنفس أيهم أحسن؟ الأول وكلاهما غير حسن، لكن نحن نقول: أحسن كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ يومئذ فيما أصاب أهل النار ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾، مع أن ما فيه خير لأهل النار، - على كل حال - الأشعرية أثبتوا سبع صفات قيل لهم: ما هو الدليل على إثبات الصفات السبع ولكن ما سواها، قالوا: الدليل العقل، فالعقل دل على هذه الصفات السبع لله ولم يدل على إثبات غيره إذن حَكَّموا العقل فيما يثبتون لله، ولا يحكمون الله فيما يثبت لنفسه، وهذا عدوان في حق الله - عَزَّ وَجَلَّ -، من الذي يحكم على نفسه لنفسه؟ الله - عَزَّ وَجَلَّ -، أنتم تحكمون على الله، قالوا: إن الله خاطبنا ولنا عقول، لا بد أن نُعْمِلَ العقول، قلنا لهم: أعطونا دليلًا عقليًا على هذه الصفات السبع، قالوا: نعم نعطيكم أدلة.

فمثلًا: الإيجاد يدل على القدرة؛ لأن العاجز ما يستطيع أن يُوجِدَ شيئًا، ومعلوم أننا نرى المخلوقات تتواجد شيئًا فشيئا، قالوا: إيجادها يدل على القدرة، إذن المخلوقات الكائنة بعضها إنسان وبعضها حصان، وبعضها جمل، وبعضها شمس، وبعضها قمر، وبعضها أرض، وهذا التخصيص يدل على ماذا؟ يدل على الإرادة لولا الإرادة ما صار هذا كذا وهذا كذا،فهذا يدل على القدرة، هذه المخلوقات محكمة متقنة ما فيها تناقض ولا تصادم فنحن لم نر الشمس يومًا من الأيام اصطدمت بالأرض أو بالقمر فالمحكَم والمتقَن يدل على العلم، إذن ثبت ثلاث صفات عن طريق العقل وهي: العلم والإرادة والقدرة وقالوا: هذه الصفات لا يمكن أن تقوم إلَّا بحيٍّ فثبت بذلك صفة الحياة، قالوا: والحي إما أن يكون سميعًا بصيرًا متكلما، أو أصم أبكم أعمى، والأول كمال والثاني نقص، والله - تعالى - منزه عن النقص، فوجب أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا.

أما نحن - أهل السنة - قد نوافقهم على هذا ونقول: إن العقل دلَّ على هذا، لكن ما سوى هذه دل عليه الشرع، ونحن نتنزل معهم إلى آخر شيء، نقول: ما سوى ذلك دلَّ عليه الشرع، ومن المعلوم: أن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول؛ لأن الأدلة قد تتعدد على مدلول واحد، فإذا قدرنا أن العقل لم يدل على الصفات التي أثبتها سوى السبع، فقد دلَّ عليها الشرع، والشرع يثبت بدليل واحد وبدليلَيْنِ وبثلاثة، المهم أن يكون له دليل هذه واحدة.

جواب آخر: أن نمنع من كون العقل أنه لم يدل على بقية الصفات، ونقول: بقية الصفات منها ما دلَّ عليها العقل ومنها ما دلَّ عليها السمع فقط، فمثلًا: إنزال المطر، إنبات النبات، رفع الوباء، بسط الرزق، ممن هذا؟ من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، علام يدل هذا؟ يدل على الرحمة، دلالة واضحة أقوى

من دلالة التخصيص على الإرادة؛ لأن دلالة التخصيص على الإرادة لا يفهمها إلَّا طالب العلم المختص، حتى طلبة العلم أحيانًا لا يفهمون هذه الدلالة على الإرادة، ربما يقول طالب العلم: كيف يدل التخصيص على الإرادة؟، كون هذه الأمور النافعة، حصول النعم ودفع النقم تدل على الرحمة، هل هو خفي أو واضح؟ واضح حتى للعامي، العامي يخرج من بيته في الصباح وقد جاء المطر بالليل، فيقول: مطرنا بفضل الله ورحمته، وهو عامي، فنقول لهم: ما نفيتموه زاعمين أن العقل لا يدل عليه فلنا عنه جوابان، الجواب الأول: لا نسلم أن العقل لا يدل عليه، بل نقول: إن العقل يدل عليه وإن كان لم يدل على كل الصفات لكن دَلَّ عليها في الجملة.

ثانيًا: نقول: هَبْ أن العقل لا يدل عليه، لكن دلَّ عليه السمع، القرآن والسنة، ولا يلزم من انتفاء دلالة العقل ألَّا يثبت الشيء بدليل آخر؛ لأن انتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول، فهذه قاعدة مفيدة، وأضرب لكم لذلك بشيء محسوس، مكة كم لها من طريق؟ لها طرق متعددة، إذا قدر أن هذا الطريق امتنع السير فيه لوجود قطاع طريق أو وجود أمطار أفسدتها أو ما أشبه ذلك ألا يمكن أن نصل إلى مكة من طريق آخر؟ بلى، يمكن أن نصل، هكذا المعاني.

إذن: إذا انتفى دليل من الأدلة وجدنا دليلًا آخر، هل يمكن أن ننكر هذا المدلول؛ لأن أحد الأدلة غير قائم؟ لا، إن كان هذا الدليل غير قائم فهناك دليل آخر، ولذلك هدى الله أهل السنة والجماعة إلى القول الوسط، لا تمثيل ولا تعطيل، قالوا: نثبت لله - عَزَّ وَجَلَّ - جميع ما وصف به نفسه في القرآن وما صحت به السنة، لاحظوا لازم من القيد بالنسبة للسنة، فيما صحت به السنة؛ لأن من الأحاديث ما هو ضعيف أو موضوع، القرآن لا تقل: ما صح في القرآن؛ لأن كله صحيح، أما السنة فلا بد أن تقيد، أو ما صحت به السنة، نثبت كل صفة: ولا نتحاشى، ولا نتهيب، إذا كان الله - عَزَّ وَجَلَّ - أثبت لنفسه يدًا، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، هل علينا أن نتهيب من إثبات اليد؟ بل هل لنا أن نتهيب؟ لا يجوز أبدًا؟ بل الهيبة أن نخالف، أثبت اليد ولا تبالِ، أثبت ربك لنفسه وجها، تتهيب من إثبات الوجه، تهيب حقيقة من نفي الوجه، أما ما أثبته الله فيجب أن نثبته، لكن على هذه القاعدة ليس كمثله شيء، فنقول: لله وجه، يقينًا أنه ليس كأوجه المخلوقين، فإن قال قائل: ما دليلك، لماذا لا تحمل الوجه على الوجه المعروف ؟، الجواب: دليلي قوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

وأثبت أنه يأتي يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، أتتهيب أن تصف الله بالمجيء؟ لا تتهيب، نقول: نصف الله بالمجيء، لكن هل هو كمجيء الملك على فرس أو سيارة أو ما أشبه ذلك؟ لا، يقينا ليس كذلك، لكنه مجيء يليق بجلاله، أثبت الله لنفسه أنه استوى على العرش، في عدة مواضع من القرآن تبلغ سبعة مواضع، هل تتهيب أن نثبت ذلك لله؟ لا أتهيب

وإنما أتهيب أن أقول: استوى بمعنى:استولى؛ لأن استوى بمعنى (استولى) تحريف، إنما نؤمن إيمانًا ـ لا شك فيه - أن هذا الاستواء لا يماثل استواء المخلوقين في أي حال من الأحوال، استوائي على الفلك أو على البعير، لو أزيل ما استويت عليه لسقطت لا شك، لكن استواء الله علي العرش ليس كذلك، ليس استواء احتياج يعني: استوائه على العرش، يعني: الله غني عن العرش وعن غيره، لكنه استواء عظمة وسلطان، وما ذنب الإنسان إذا قال: أنا أؤومن بكل شيء؟ ليس ذنبك بل هذه حقيقة الانقياد والاستسلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لكن يجب شيء وهو أن تؤمن أنه لا مثيل له؛ لأن الله قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وما أشبه ذلك، وأنت يا أخي لا تعلم الغيب، والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يعلم الغيب وهو الذي أخبرك عن نفسه، فقل: آمنا وصدقنا، وقد ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: أن المعطلة أقسام:

قسم: عطَّلوا البعض، وقسم: عطَّلوا الصفة دون الاسم، وقسم: عطَّلوا الاسم والصفة نفيًا لا إثباتًا، يعني: جماعة قالوا: لا نصف الله بشيء ثابت لكن نصفه بالنفي، وقسم قالوا: لا نصفه لا بالنفي ولا بالإثبات، إن وصفناه بثابت شبهناه بالموجودات وإن وصفناه بمنفٍ شبهناه بالمعدومات.

إذن قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، نرى في بعض الكتب أن الله لا شبيه له، فهل هذا التعبير يماثل قولنا: إن الله لا مثيل له؟ لا، ولهذا التعبير نقول: نؤمن بالإثبات دون التمثيل خيرٌ من التعبير بالتشبيه مع أننا نرى أكثر الكتب التي بأيدينا أنهم يقولون: (بلا تشبيه)، لكن هذا نقص في التعبير (بلا تمثيل) أولى؛ لأنه تعبير القرآن وكلما أمكنك أن تعبر بالقرآن أوالسنة عن المعنى الذي تريد فهو أولى.

ثانيا: يعنون به إثبات الصفات، ويقولون: كل من أثبت لله صفة فهو مشبه، فإذا قلت: بلا تشبيه، وكان هذا المخاطب لا يفهم من التشبيه إلَّا الإثبات فُهِمَ منك أنك لا تثبت شيئا، ثم إن التشبيه ـ أيضًا ـ له احتمالات، فإن نفي التشبيه من كل وجه فهذا لا يمكن؛ لأنه لا بد أن يشترك الخالق والمخلوق في أصل الصفة، فالحياة ـ مثلًا ـ عندنا حياة والله ـ تعالى ـ حي، أصل الحياة موجود، لكن المنفي هو أن تكون حياتنا مماثلة لحياة الله.

السمع موجود عندنا، وهو موجود عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فإن الله ـ تعالى ـ سميع، فلا بد مِن اشتراك في الأصل، كذلك وجودنا فنحن موجودون والرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ موجود كذلك، وَهَلُمَّ جَرًّا.

فصار التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، هذا رد على المعطلة والجملة الأولى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَىۡءٞ﴾، ردٌّ على الممثلة، السميع: أي: ذو السمع، وسمع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ له معنيان، المعنى الأول: الاستجابة، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، معنى سميع: أي مستجيب، وليس المراد أن يسمعه فقط؛ لأنه كون يسمعه ولا يستجيب قليل الفائدة، لكن إن ربي لسميع الدعاء، أي: مستجيبه، واستجابته إياه تستلزم سماعه لا شك، ومن ذلك ـ أيضًا ـ أي من كون السماع بمعنى الاستجابة قول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب له؛ لأنه مجرد سماع الصوت لا يفيد شيئًا بالنسبة للداعي ولهذا لو قال لك إنسان: يا فلان أرجو أن تساعدني، تقول: أسمع يعني: أسمع بأذني، هل يستفيد من هذا أم لا يستفيد؟ ما يستفيد؛ لأنه سيقول لك: إذا كنت تسمع أعطني، فصار كل ما أضيف للدعاء من السمع معناه الاستجابة.

النوع الثاني من السمع: إدراك المسموعات بمعنى: أنه لا يخفى على الله شيءٌ قَرُبَ أم بَعُدَ، خَفِي أم بان، فإن الله يسمع كل شيء، أرأيتم قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾، أين الله؟ في السماء على العرش، وأين المكان التي تشتكي فيه؟ في الأرض، تقول عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات لقد كانت تجادل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإني لفي الحجرة يخفي عَلَيَّ بعض حديثه والله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لم يخفَ عليه، سمع المجادلة وسمع المحاورة وأنزل حل المشكلة، إذن سمْع الإدراك شامل لكل صوت ثم هذا السمع إما أن يكون للتأييد أو للتهديد أو للإحاطة، فهذه ثلاثة أقسام؛ التأييد مثل قوله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، لماذا قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: أسمع وأرى؟ تأييدًا لهما، يعني: أسمع ما تقولان وما يقال لكما والأمر أمره ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، هذا سماع يراد به التأييد.

الثاني: ما يراد به التهديد مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾، ما المراد بهذه الآية؟ ليس المراد مجرد أنه يسمع سرهم ونجواهم بل المراد من ذلك التهديد ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾، فهذا تهديد بدليل قوله: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾، فهذا تهديد.

الثالث: الإحاطة: بأن يخبر بأنه يسمع مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

قوله: ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾، البصير لها معنيان: المعنى الأول: إدراك الشيء بالبصر، والثاني: العلم، فهنا البصير تشمل المعنيين، فبصر الله ـ تعالى ـ محيط بكل شيء، لا يخفى عليه البصير لها معنيان: المعني الأول إدراك الشيء بالبصر، والدليل على أن البصير تأتي بمعنى: البصر الحديث الصحيح:

«حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1] والمعنى: لو أحرقت هذه السبحات، والسبحات هي البهاء والعظمة في كل شيء، وبصير بمعنى:عليم، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، ومعلوم أننا نعمل أشياء لا ترى في قلوبنا أشياء لا ترى والله يعلمها فإذن البصير من أسماء الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أي ذو البصر وله معنيان: معنى إدراك المرئيات لبصره، والثاني: بمعنى: العليم.

إذا سمعنا أسماء الله وصفاته، فليس المقصود أن نعلم المعنى فقط، بل أن نتعبد لله بها فإذا علمنا أنه سميع أوجب لنا أن نخاف من قول يغضب الله؛ لأنه يسمع، وإذا علمنا أنه بصير، أوجب لنا أن نحذر من كل فعل يغضب الله؛ لأن الله ـ تعالى ـ يبصره ويراه ففي هذه الأسماء التي يخبرنا الله بها تربية للإنسان بأن يحذر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مِنْ أن يخالفه بقول أو فعل.

قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، ولعلنا أشبعنا إن شاء الله الكلام في هذا وأهم شيء أن تبني عقيدتك على أمرين:

الأول: إثبات ما أثبته الله لنفسه في القرآن أو السنة.

والثاني: نفي المماثلة أنه لا مثيل له.

بقي شيء آخر: هل لنا أو علينا أن نكيف الصفة بدون أن نذكر مماثلًا؟ الجواب: لا، لا يجوز أن نكيف الصفة؛ لأن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، هل أنت علمت كيفية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؟ كيفية صفاته؟ لا، أنا أومن أنه ينزل لكن لا أدري كيف ينزل؟ أومن أنه استوى على العرش ولكن لا أدري كيف استوى، فالكيفية لا يجوز للإنسان أن يتخيلها، ولا يجوز أن ينطق بها؛ لأن الله أعظم من كل تخيل تتخيله؛ ولأنك لو تخيلت فإنك سوف تعبد صنمًا؛ لأن هذا المتخيل لا بد أن يكون عندك تصور أنك تعبد هذا الذي تخيلته، فتكون من جنس الممثلين، وفي مقدمة النونية لابن القيم قال: (الْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا وَالْمُمَثِّلُ يَعْبُدُ صَنَمًا).

إذن: لا تتخيل الكيفية، ولهذا جاء في الأثر:

تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللهِ، الآيات تفكر فيها كالسماء والأرض والنجوم والشجر والدواب والبشر والمخلوقات الأخرى، تفكر فيها بقدر ما تستطيع لتستدل بها على الخالق ـ عَزَّ

(١) رواه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد في مسنده (١٩٦٤٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وَجَلَّ ـ، لكن في ذات الله لا تتفكروا، لكن هل لنا أن نتفكر في معاني أسماء الله وصفاته؟ نعم، بل يجب أن نتفكر في المعنى والمعنى غير الكيفية.

سُئِلَ الإمام مالك ـ رحمه الله ـ، قيل له: يا أبا عبد الله - وهو يُدرِّس - قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، كيف استوى، أتدرون ماذا حصل للإمام مالك ـ رحمه الله ـ؟ قام يتصبب عرقا وأطرق رأسه حياء وخجلًا، ـ وَمَنْ كان في الله أعرف كان مِنَ الله أخوف ـ، نحن تمر علينا هذه الكلمة مر الرياح، لا تؤثر في القلوب شيئًا، لكن أهل المعرفة بالله الذين هم أهله، لا بد أن يتأثروا، أطلق برأسه وقام يتصبب عرقا ثم رفع رأسه، وقال: (يا هذا: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة[1]، وما أراك، - يعني: وما أظنك - إلَّا مبتدعا)، ثم أمر به فأخرج، لا مقام لك عندي، هؤلاء هم الرجال، فالمعاني معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله ـ جل وعلا ـ بما لا نعلم أبدا، لكن الكيفيات مجهولة، فإن قال قائل: كيف أتصور المعنى ولا أتصور الكيفية؟ قلنا له: هذا سهل، ـ الآن ـ لو قلت لك: فلان صعد على السطح، تعرف معنى صعد، لكن هل تعرف كيف صعد، مع أنه مثلك ما تعرف كيف صعد؟ ممكن صعد على رجليه ويديه، ممكن صعد بالسيارة، ممكن صعد محمولا، ويمكن صعد يمشي على رجليه، بل يمكن أن يمشي على يديه فالآن يوجد أناس يمشون على أيديهم ـ على كل حال ـ نحن ـ الآن ـ إذا قيل فلان صعد على السطح فأنا أعرف معنى الصعود، لكن كيف صعد؟، ما تدري، إذا عقْل المعنى دون الكيفية أمر واقع، فنحن نؤمن أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ استوى على العرش لكن لا نكيف ذلك، لا ندرك كيفيته، وما لا ندري كيفيته لا يجوز أن نتكلم فيه، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾، أرجو الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بهذا الكلام؛ لأنه كلام مهم جدًا فهو كلام في العقيدة، ولا يمكن أن يستريح الإنسان راحة نفسية، ولا أن يتخلى عن الشبهات إلَّا إذا لزم مذهب أهل السنة والجماعة نثبت لله ما أثبته لنفسه، وننفي ما نفاه عن نفسه، وإثباتنا إثبات تنزيه لا إثبات تمثيل، ونفينا نفي تنزيه لا نفي تعطيل، والله الموفق.

مسألة: هل ابن حجر والنووي والعز بن عبد السلام أشاعرة؟

الجواب: أما ابن حجر ـ رحمه الله ـ رأيي فيه أنه ليس على الطريقة الأشعرية، الرجل متذبذب أحيانًا يتكلم في كلام كأنه كلام أهل السنة مائة في المائة، وأحيانًا ينقل كلام الأشاعرة، وأحيانًا ينقل عن شيخ الإسلام يقرر قوله.

---

(١) أقاويل الثقات (ص ١٢١).

أما النووي - رحمه الله - فصحيح على مذهب الأشاعرة في جميع ما قرأت له من كتبه، لكن إذا قابلونا بفلان وفلان، نقول لهم: هل أنتم تعرفون الحق بالرجال أو الرجال بالحق؟ فإن قالوا: نعرف الحق بالرجال، فنقول لهم: عندنا شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم والإمام أحمد وغيرهم من العلماء الفحول فهؤلاء مقابل هؤلاء ثم لدينا شيء فوق الجميع الصحابة - رضي الله عنهم - ائتوا لنا بدليل واحد يؤيد مذهب الأشاعرة، يقول: استوى بمعنى: استولى، ما منهم أحد قال استوى بمعنى: استولى، كلهم يقولون: استوى بمعنى:علا، من أين علمنا هذا؟ علمنا هذا بأنهم يقرؤون القرآن ويعرفون معناه، ولم يأت عن أحد منهم قول بصرف اللفظ عن ظاهره، - الحمد لله - الحق واضح.

فلو قال لنا قائل: إن الصحابة أجمعوا على أنه استوى على العرش بمعنى: أنه علا عليه، هل يمكن لأحد أن ينازع ويقول: لم يجمع الصحابة على ذلك؟ ما يمكن؛ لأننا نعلم أنّ الصحابة يقرؤون القرآن وينزلون معناه على اللغة العربية، واللغة العربية في جميع مواردها فسّرت استوى بعلا، فالمراد العلو.

قال تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

الفوائد:

١ـ **من فوائد هذه الآية:** أن الله - تعالى - هو الذي خلق السماوات والأرض ابتداءً على غير مثال سبق.

٢ـ **ومنها:** تمام قدرة الله - تبارك وتعالى -؛ لأن هذه السماوات العظيمة لا يقدر عليها أحد إلّا الله، ثم إنه خلقها في ستة أيام جاءت مفصلة في سورة فصلت.

٣ـ **ومنها:** أن السماوات جمع وهي سبع سماوات والأرض سبع - أيضًا - ولكن من غير هذه الآية.

٤ـ **ومنها:** حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - ورحمته حيث جعل لنا من أنفسنا أزواجًا، ورحمته حيث جعل لنا أزواجًا نتمتع بهن من جهة، وننمو ونزداد من جهة أخرى.

٥ـ **ومنها:** رحمة الله - تعالى - بنا حيث جعل لنا من الأنعام أزواجًا؛ لأن هذا لا شك من مصلحتنا.

٦ـ **ومنها:** أن الله - سبحانه وتعالى - ينشر ويبث ويكثر بني آدم وما خلق له من الأنعام بسبب التزاوج لقوله: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

٧ـ **ومنها:** الرد على المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر حيث قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيْءٌ﴾، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ لا مثل له، لا في الخلق ولا في الصفات ولا في غيره.

٨ ـ **ومنها:** الرد على أهل التمثيل بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

٩ ـ **ومنها:** إثبات اسمينِ من أسماء الله هما السميع والبصير.

١٠ ـ **ومنها:** إثبات السمع والبصر وصفًا لله؛ لأن السميع من السمع والبصير من البصر وهنا قاعدة نشير إليها: كل اسم من أسماء الله فإنه متضمن لشيئين:

ـ الأول: إثبات كونه اسمًا من أسماء الله.

ـ الثاني: إثبات الصفة التي تدل عليها.

فَمَنْ قال: إن الله سميع ولكن بلا سمع، فإنه لم يؤمن بالاسم، لكن لابد أن تؤمن بما دلّ عليه من صفة وإلَّا لم تؤمن به. ـ أيضًا ـ إثبات بأن هذه الصفة متعدية للغير، فمثلًا: السميع نؤمن بأن الله يسمع وأن من أسماء الله السميع، ومن صفاته السمع، ونؤمن بأمر زائد، وهو أنه يسمع كل شيء، ولهذا قال أهل العلم: الاسم إذا كان لازما لم يتم الإيمان به إلَّا بشيئيْنِ:

الأول: إثبات كونه اسمًا من أسماء الله. الثاني: إثبات الصفة التي دلّ عليها، وإذا كان متعديًا فلابد من الإيمان به من ثلاثة:

الأول: إثبات كونه اسمًا لله. الثاني: إثبات الصفة التي دلّ عليها. الثالث: إثبات تعدي هذه الصفة إلى ما يتعلق به، بمعنى: أن السمع يتعلق بكل مسموع، والبصر بكل مبصر، كذلك يقول العلماء في الأسماء: الأسماء تتضمن الدلالات الثلاث:

(دلالة المطابقة)، (دلالة التضمن)، (دلالة الالتزام)، وإن شئت فقل: دلالة اللزوم، فدلالة الاسم على الذات وحدها دلالة تضمن، وعلى الصفة وحدها دلالة تضمن، وعليهما جميعا دلالة مطابقة، ودلالة ذلك الاسم على المعنى اللازم له، دلالة التزام، هذه من القواعد المهمةنضرب لهذا مثلًا: مِنْ أسماء الله ـ تعالى ـ (الخالق) فدلالته على الذات وحدها تضمن، وعلى صفة الخلق وحدها تضمن ـ أيضا ـ، وعليهما جميعا مطابقة، فالخالق يدل على صفة الخلق وعلى الخالق نفسه ويدل ـ أيضًا ـ على شيء لازم، فمن لازم الخلق القدرة، ومن لازم الخلق العلم، إذ من ليس بقادر، لا يمكن أن يخلق، ومن ليس بعالم لا يمكن أن يخلق، فتكون دلالة الخالق على العلم والقدرة، هي دلالة التزام.

١١ ـ **ومنها:** الرد على أهل التعطيل في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

مسألة: فإن قال قائل: أيهما أوسع الصفة أو الاسم؟ فالجواب: الصفة أوسع؛ لأن الله يوصف بما لا يسمى به، ولكن كل ما يسمى به فهو متضمن للصفة.

إذن أيهما أوسع الصفات أو الأسماء؟ قلنا: الصفات، ووجه ذلك أن كل اسم متضمن صفة،

وبهذا يكون الاسم والصفة متوازيَيْنِ، ثم هناك صفات لا يمكن أن يسمى الله بها فالصفة أوسع، ألسنا نقول: عبر الله بكذا وكذا؟ ألسنا نقول: تحدث الله عن كذا وكذا؟ ومع ذلك لا نسمي الله ـ تعالى ـ متحدثًا، ولا نسميه معبرًا؛ لأن الوصف أوسع من الاسم، وهذه فائدة ـ أيضًا ـ مهمة.

۞ ۞ ۞

۞ **قال الله تعالى:**

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]



۞ التفسير ۞

قوله: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، له أي: لله وحده، وإنما قلنا: وحده؛ لأن تقديم الخبر يدل على الحصر، بل قاعدة أوسع من هذا تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، حتى ولو قلت: زيدًا أكرمت، يعني: أنك لم تكرم غيره؛ لأنك قدمت المعمول، فنقول: له لا لغيره.

وقوله: ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، قال المفسر: [أي مفاتيح خزائنها]، فجعل المقاليد بمعنى:المفاتيح، ولكن من حيث اللغة العربية، لا تتناسب مع الاشتقاق؛ لأن المقاليد مأخوذة من القلادة، يعني: أزمة الأمور في السماوات والأرض، كلها بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما تقول: قلادة البعير؛ لأنك تجره بها، فالظاهر والله أعلم أن المفسر ـ رحمه الله ـ بما يخالف الظاهر، لكن بعض الناس يقول: إن مقاليد اسم أعجمي معرب، والمقلاد بمعنى: المفتاح، لكن هذا قول ضعيف ـ بلا شك ـ؛ لأنه يا إخواني لا نرجع إلى التعريف إلَّا بالضرورة، يعني: لا يمكن أن نقول: هذه الكلمة أصلها فارسية، أو أصلها رومية أو أصلها كذا وعربت، لا يجوز لنا أن نعدل إلى هذا إلَّا عند الضرورة؛ لأن الله ـ تعالى ـ جعل القرآن عربيًا، فإذا قلنا في كلمة: أصلها غير عربي هذا خلاف ظاهر القرآن، لكن إذا اضطررنا إلى أننا لم نجد لهذه الكلمة أصلا في اللغة حينئذ يكون معربًا، ومقاليد لها أصل مأخوذ من القلادة، التي تقاد بها البعير، فمعنى مقاليد، أي: أَزِمَّة الأمور، أمور السماوات والأرض له وحده، أما المؤلف ـ رحمه الله ـ فقال: [مفاتيح خزائنها كالمطر والنبات وغيرهما].

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، يعني: يوسع، يقدر يعني: يضيق، إذن البسط والقدر، امتحانًا وابتلاء؛ لأن مِنَ الناس مَنْ لا يصلحه إلَّا الفقر، وَمِنَ الناس مَنْ لا يصلحه إلَّا البسط، وفي

الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الفَقْرُ»[(١)].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، يقول المفسر ـ رحمه الله ـ: [يبسط الرزق ـ والمراد بالرزق العطاء ـ [يوسعه] ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [امتحانًا]، ﴿وَيَقْدِرُ﴾: [يضيقه لمن يشاء ابتلاء]، وامتحانًا هل يشكر أو لا يشكر؟، وابتلاء هل يصبر أو لا يصبر؟].

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، إنه عليم بكل شيء، فهو يعلم أن البسط لهذا أفضل، وأن التضييق لهذا أفضل.

الفوائد

١ـ **من فوائدها:** أن أزِمَّة الأمور لله وحده في السماوات والأرض، فهو الذي يدبر الأمور، ويداول الأيام بين الناس، ويقلب الأحوال، وكم من رجل أصبح كافرًا وأمسى مؤمنًا، وكم من إنسان أصبح مؤمنًا وأمسى كافرًا، كما أخبر النبي ﷺ عن الفتن في آخر الزمان[(٢)].

٢ ـ **ومن فوائدها:** أن الأرزاق بسطها وتضييقها بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فهل يلزم من هذا ألَّا نفعل الأسباب؟ لا؛ لأن هذا ضعف في التوكل، إذا لم تفعل الأسباب، افعل الأسباب واعتمد على الخَلَّاق ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٣ـ **ومن فوائدها:** ألَّا نطلب الرزق إلَّا من الله؛ لأنه هو الذي يبسط الرزق أو يضيقه.

٤ ـ **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله لقوله ـ تعالى ـ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، فإن قال قائل: هل هذه المشيئة مجردة عن الحكمة أو مقرونة بالحكمة؟ الجواب: الثاني ـ لا شك ـ، يعني: ليس عطاء الله أو منعه مجرد أنه أراد، لا بد أن يكون لحكمة، وهذه القاعدة يجب إثباتها في عقلك، كل شيء قرنه الله بمشيئته فإنه مقرون بحكمة بلا شك، لا يمكن أن يفعل شيئًا عبثا، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فكلما مر بك شيء مقرون بالمشيئة فاعلم أنه تابع لحكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، واقرأ قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، بعدها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، يعني: فمشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

٥ ـ **ومن فوائدها:** إثبات عموم علم الله لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، بكل شيء كائن أو معدوم؟ كلاهما بكل شيء واجب الوجود أو جائزه أو ممتنعه، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا

---

(١) ضعيف جدًا: انظر السلسلة الضعيفة (١٧٧٥).

(٢) رواه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وهل يمكن أن يكون فيهما آلهة إلّا الله؟ لا يمكن، ومع ذلك علم ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لو كان ذلك لفسدت السماوات والأرض، ولهذا نقول: علم الله ـ تعالى ـ متعلق بكل شيء، في الواجب كعلمه بنفسه، بالمستحيل كعلمه بفساد السماوات والأرض لو كانت فيهما آلهة إلّا الله، بالممكن كعلمه بالمخلوقات فعلم الله متعلق بكل شيء.

تنبيه يتعلق بخطأ لغوي شائع:

خطأ جار بين الناس، إذا كان هناك شيءٌ قليلٌ قالوا: (هذا بسيط)، وهذا خطأ؛ لأن البسط في اللغة يعني: التوسيع والتكثير، فلا تقل: (هذا بسيط)، قل: (هذا يسير، هذا قليل)، فإن كان من حيث الصفة فقل: يسير، وإن كان من حيث العدد فقل: قليل.



قال الله تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣]

التفسير

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾، الخطاب لهذه الأمة ولله الحمد، ومعنى شرع لكم: أي: سن لكم، وجعل لكم شريعة هي ما وصى به نوحًا، قال الشارح: [وهو أول أنبياء الشريعة] وتساهل ـ رحمه الله ـ في هذا، والصواب أن يقول: هو أول رسل الشريعة؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح: أَنَّ الخَلْقَ يَوْمَ القِيَامَة يَأْتُونَ

أن نعدل عن الأخص إلى الأعم، إذن: الصواب: أن نقول: هو أول رسل الشريعة، أما إنَّ أول أنبياء الشريعة فهو آدم، فآدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبي مكلم لكنه ليس برسول، والحكمة من كونه غير رسول؛ لأن الناس لم يختلفوا بعد، والله ـ تعالى ـ أرسل الرسل بين الناس ليحكموا فيما اختلفوا فيه كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾، لكن في عهد آدم ما كان هناك اختلاف، فالعدد كان قليلًا، وليس هناك مغريات، ولا أشياء توجب أن يختلف الناس، ولذلك كان آدم يتعبد بالشريعة التي شرعها الله لهم، وأبناؤه يتبعونه، فلما كثروا وانتشروا واختلفوا حينئذ جاءت الحاجة

بل الضرورة إلى الرسل.

فالأولى أن نقول: هو أول رسل الشريعة.

في قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: شرع لكم الذي أوحينا إليك ما وصى به نوحًا ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، معطوفة على قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، والوصية: هي العهد بالشيء الذي يهتم به.

وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وهو القرآن وفي قوله: ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾، ذكر الله ـ تعالى ـ أول الأنبياء – الذين هم الرسل – وآخرهم، ثم ذكر ما بين ذلك ليجمع ـ سبحانه ـ بين الطرفين والوسط.

من أول هؤلاء الرسل الكرام؟ نوح ـ عليه السلام ـ وآخرهم محمد ـ صلى الله عليه وعليهم وسلم ـ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وذكروا في القرآن في موضعيْنِ: هذا واحد، والثاني قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾، وهذه الآية من سورة الأحزاب.

وفي قوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾، (أنْ) هذه تفسيرية، بمعنى: أي، ولذلك لا تعمل شيئًا؛ لأنها لمجرد التفسير والتبيين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾، أقيموا الدين، يعني: ايتوا به مستقيمًا غير منحرف، وما هو الدين القيم؟ هو الدين الذي شرعه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فيجب علينا أن نقيم الدين كما أقامه الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، لا نغلوا فيه ولا نقصر عنه، ولذلك كان الناس في دين الله على ثلاثة أقسام:

قسم غلا، وقسم قَصَّر، وقسم اعتدل، فما الذي أُمِرْنَا به؟ الاعتدال، كما قال: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾، غير متجاوزين ولا قاصرين عنه، ولذلك هلك أقوام ممن قصّروا أو تجاوزوا، وأيهم أخطر؟ الأخطر التجاوز، وهو الغلو، إنما أهلك من كان قبلكم الغلو؛ ولأن الغالي يعتقد بأن هذا دين، فلا يكاد يقلع عنه، أما المقصِّر يعترف أنه مقصر، فربما حاسب نفسه يوما من الأيام وندم، فالغلو أخطر، ولذلك تجد بدع المبتدعة أشدها الغلو، فالرافضة مثلًا غَلَوْ في آل البيت وتجاوزوا الحد، والمؤلهة للرسول ـ عليه الصلاة والسلام، الذين يعتقدون أنه أشد من الإله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ غلوا في الرسول وهلكوا، والغالية في الدين الذين غلوا وأرادوا أن يجعلوا الناس على الجادة من الدين وألا يفعلوا كبيرة، ـ أيضًا ـ غلوا كالخوارج، المهم أنك إذا تأملت البدع وجدت أن الغلو فيها أشد خطرًا من التقصير؛ لأن الغالي إنما يعتقد أن ما عليه دين، والمقصر يعرف أنه مقصر، وربما استقام بعد ذلك.

وقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، الدين يطلق على معنيين:

المعنى الأول: الجزاء. المعنى الثاني: العمل، فمن إطلاقه على العمل قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، أي: لكم عملكم ولي عملي، كقوله - تعالى -: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، ومن إطلاقه على الجزاء قوله - تعالى -: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، وكذلك ما نقوله في صلاتنا كل فريضة قول الله - تعالى -: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أي: يوم الجزاء، (أن أقيموا الدين) هنا المراد بها العمل، وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، يعني: لا تتفرقوا في دينكم فتكونوا أحزابا، فنهى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن التفرق في الدين، وهذا يستلزم وجوب الاعتماد عليه؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، يعني: ليس له إلَّا هذا الضد، وحينئذ يجب على المسلمين أن يجتمعوا في دين الله وألا يتفرقوا فيه وما اختلف العلماء فيه من الأراء، فإن الهدف منه واحد لمن صلحت نيته؛ لأن كل واحد من المختلفيْنِ، إنما يريد الوصول إلى الحقِّ لكن اختلفوا في الطريق، وإذا كان الهدف واحدًا، وهو الوصول إلى الحق، لا يجوز أن يجعل هذا الاختلاف، سببًا للتفرق في الاتجاه، لا يجوز هذا - إطلاقًا - بل تجب الوحدة والاجتماع حتى مع اختلاف الآراء، ولهذا كان السلف الصالح - رضي الله عنهم - من الصحابة يختلفون في أشياء كثيرة مهمة، ومع ذلك فالقلوب واحدة، ولما وصل إلى الاختلاف بهم إلى تفرق القلوب، حصل ما حصل من الفتن بين معاوية وعلي وعائشة والزبير وما أشبه ذلك، وفي وقتنا الحاضر، لا شك أن الناس مختلفون، فمنهم من يتجه اتجاهًا سياسيًا، ومنهم من يتجه اتجاهًا صوفيًا، ومنهم من هو معتدل، وهناك اختلافات كثيرة، فالواجب علينا أن ننزع فتيل هذا الاختلاف، وأن نكون أمة واحدة، حتى لا نتفرق فنفشل؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، يعني: ولا يكن لكم قيمة وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، ولهذا نجد - الآن - مع الأسف الشديد، أن ما يسمى بالصحوة الإسلامية أصيب بهذا البلاء، وصار نفس المتدينين يلمز بعضهم بعضًا، ويضلل بعضهم بعضًا، ويبدع بعضهم بعضًا، وربما يكفر بعضهم بعضًا، فضاعت تلك الصحوة، وصار الذين يراد منهم أن يكونوا حربًا على أعداء الله صاروا حربًا على أنفسهم، وأحزابًا بأنفسهم، وهذا ما يبذل فيه العدو أغلى ما يكون ليحصل، وقد حصل له مجّانًا، فالواجب علينا أن نزيل هذه الاختلافات، وأن ندعها وأن نترك ما يعمر به الناس كثيرًا من مجالسهم، في سبِّ فلان وفلان أو ذَمِّ فلان وفلان، أو الغلوّ في فلان وفلان؛ لأن هذا يضيِّع الأوقات ويولِّد الأحقاد ولا يفيد شيئًا بل يضر، ما لنا وفلان، إن كان ميتًا فقد واجه الحساب، وإن كان حيًا فنرجو له الاستقامة، أما أن نجعل أكبر همنا هذا الكلام الذي لا يعود على الأمة إلَّا بالشر، ولهذا ينهى الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن التفرق في عدة آيات كما في هذه الآية: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾،

فإذا اختلفت أنت وصاحبك في رأي من الآراء وهو محل للاجتهاد، فالواجب أن تعتقد أن صاحبك لن يخالفك؛ لأنه سلك السبيل الذي تسلكه أنت، هو اجتهد فقال: هذا هو الصواب، وأنت اجتهدت وقلت: هذا هو الصواب، إذن: ما مراد كل واحد منكم؟ الوصول إلى الحق، ولا يمكن أن يكون اجتهادك حجة عليه، ولا اجتهاده حجة عليك، وحينئذ نكون في الواقع متفقين، حتى ولو خالفني فأنا أعتقد أنه يوافقني؛ لأننا كلنا يقصد الحق، ولا نريد مخالفة الحق، لكن - مع الأسف - الآن بعض الناس يتخذ هذا الخلاف الذي هو محل اجتهاد، يتخذ منه سلمًا للتفرق والطعن - قبل سنوات في منى، حضرت طائفتان أفريقيتان كل واحدة تلعن الأخرى وتكفرها فأتوا إلى أمير الدعوة التي أنا من ضمن أعضائها أتوا إليه متشاكسين جدًّا جدًّا في منى في أيام الحج في الشهر الحرام في البلد الحرام، فهو - جزاه الله خيرًا - حضر معهم إلي، فقلت لأحدهما: ما الأمر فقالوا: هؤلاء كفار هؤلاء رغبوا عن سنة النبي ﷺ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1] ونحن نبرأ منهم، فقلت لهم: ما الخلاف؟ فقالوا: الخلاف بأن إحدى الطائفتين إذا قام المصلي يضع إحدى يديه اليمنى على الأخرى، والطائفة الأخرى قالت: إذا قام المصلي يرسل يديه، فالمسألة ما هي خلاف في العقيدة فالمسألة خلاف في سنة من سنن الصلاة هي محل اجتهاد، فكل واحد يقول للآخر: هو كافر؛ لأنه رغب عن سنة النبي ﷺ، وقد قال: «مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

الآن الشباب صار خلافهم في أمر آخر؛ في الأشخاص يجعلون الشخص هدفًا فيقولون: ماذا تقولون في فلان؟ فإذا قال فلان طيب وحبيب، ونعم الرجل هو، وهو من خير عباد الله انشرح صدره وكأنما أعطي الجنة، وإذا قال: هذا الرجل عنده انحراف في المسلك، إنسان فيه كذا وفيه كذا وكذا، تجد السائل انقبض، وضاق صدره وترك صاحبه، هذا خطأ، يا إخوان الرجال إذا أخطأوا فاسأل الله أن يعفو عنهم؛ لأنهم مسلمون مهما كانوا فهم لا يخرجون من الإسلام، وإن أصابوا فخذ بصوابهم واحمدهم، أما أن تجعلهم محكًّا للولاء والبراء فهذا خطأ عظيم، لذلك أنا أدعو إخواننا من السعوديين أو غيرهم إلى نبذ هذه الطريقة والبعد عنها وأن نعتقد أننا إخوان، وأن كل واحد منَّا مجزي بعمله، وألَّا نجعل هذا سببا للتفرق؛ لأن الله نهانا ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا ينهانا إلَّا عن شيء فيه ضررنا، فهنا يقول: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ﴾، يعني: غير مغالين فيه ولا مقصِّرين وقوله: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾، اجتمعوا عليه.

وقوله - تعالى -: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، كبر بمعنى:عظم واشتد عليهم،

---

(١) كما رواه البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (١٤٠١) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، يعني: بالله.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، من أي شيء؟ من التوحيد؛ لأن المشرك يكبر عليه التوحيد، أكبر شيء عنده هو التوحيد، ولهذا قالوا في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾، انظر صبروا أنفسهم على الشرك ـ والعياذ بالله ـ وقالوا في التوحيد: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، أي: عجيب جدًّا، فما هو الشيء العجاب حقيقة؟ هو الإشراك بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، الذي يقرون هم أنه خالقهم ولا خالق سواه، أن المشركين يعظم عليهم التوحيد، وأنا أقول لكم: إذا كان يعظم عليهم التوحيد فلا بد أن يفعلوا كل سبب يحول بين هذا التوحيد وقيامه وانتشاره، أليس كذلك؟ كل شيء عظيم عليك لابد أن تدافعه، فهم ـ الآن ـ حرب على التوحيد وأهله.

ولهذا تسمع ـ الآن ـ مخططات النصارى على ما في ديانتهم التي هم عليها من الضلال والمخالفة للمعقول والمحسوس، تجدهم يبثون الإذاعات القوية التي ليست فيها تشويش، والتي تأتي في أوقات مناسبة للدعوة إلى الدين الذي هم عليه، مع أن المسيح بريء منهم، تجد بعض أهل البدع يكبر عليه جدًّا مَنْ يدعو إلى السنة، ويحاربون مَنْ يدعو إلى السنة، ويشوِّهون السمعة؛ لأنه عظيم عليهم، فهنا يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ﴾، يجتبي بمعنى: يختار ويصطفي.

وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، أعاد الضمير ـ رحمه الله ـ إلى التوحيد في قوله: [إلى التوحيد] ولكن فيه احتمال أقوى مما قال، وهو أن الضمير يعود إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، أي: الله يجتبي إلى نفسه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مَنْ يشاء، ويهدي إلى نفسه مَنْ يُنيب وهذا أحسن مما سلك المؤلف، فالله ـ تعالى ـ يختار إليه من يشاء ـ نسأل الله أن يجعلنا ممن اختارهم إليه ـ ويكره آخرين، فالأولون يهديهم إلى صراط مستقيم والآخرون يضلهم؛ لأنهم هم الذين فعلوا السبب.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾، من يشاء، ولكن مر علينا ـ آنفا ـ قريبًا جدًّا أن كل شيء علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة لا يشاء شيئًا إيجادًا أو إعدامًا أو تغييرًا إلَّا لحكمة.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: من [يُقبل على طاعته] هكذا قال الشارح ـ رحمه الله ـ فهو يهديه الله إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ، فيما رواه عن ربه إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»؛ لأن الفرائض أحب إلى الله من النوافل «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ

وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[1] وكذلك قال الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى الله شِبْرًا تَقَرَّبَ الله إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا وَمَنْ أَتَاهُ يَمْشِي أَتَاهُ الله هَرْوَلَةً»[2] فمن أناب إلى الله فإن الله يهديه إليه ويعينه ويسدده.

الفوائد

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** أن الشرع والدين لله - عَزَّ وَجَلَّ - وحده، ولهذا أنكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الذين يشرعون لأقوامهم دينا لم يأذن به الله فقال: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾.

٢ - **ومن فوائدها:** أن الأصل في العبادات المنع إلَّا بدليل ولهذا إذا رأيت شخصًا يعمل عملا يتقرب به إلى الله فأنكِرْ عليه إلَّا إذا أقام دليلا، أما في غير العبادات فالأصل فيها الحل، ولهذا إذا رأيت شخصًا يفعل شيئًا ليس عبادة فأنكرت عليه فعليك الدليل.

٣ - **ومن فوائدها:** أن دين الأنبياء واحد من نوح إلى محمد ﷺ لقوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فما هذا التوحيد في الأديان؟ التوحيد في الأديان ما أفاده قوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾، فهذه هي القاعدة العامة في جميع الرسالات ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾، أما الشرائع والمنهج فلكل أمة ما يناسبها لقوله - تعالى -: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، ولهذا نجد أن بني إسرائيل يشدد الله على أقوام منهم بالشريعة، ويخفف بالشريعة الأخرى، قال عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، إذن: الأصل هو توحيد الرسالات وهذا الأصل هو المشار إليه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّٰغُوتَ﴾، أما الشرائع والمنهاج، فهذا يشرع الله لكل أمة ما يناسبها، حتى الأمة الواحدة يشرع لها في أول أمرها ما يناسبها، ويشرع لها في آخر أمرها ما يناسبها كالمنسوخ في هذه الشريعة الإسلامية.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات نبوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لقوله: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** عناية الله - تبارك وتعالى - بالشرائع حيث جعل ذلك وصية، والوصية هي العهد بالشيء المهتم به.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن هذا القرآن الكريم وَحْيٌ أوحاه الله - تعالى - إلى رسوله ﷺ لقوله - جلا وعلا -: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن القرآن شامل لجميع الشريعة؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فإن قال قائل: في الشريعة ما لا يوجد في القرآن تفصيلا؟ فالجواب: تكفي الإشارة إليه؛ لأننا لو بحثنا هل في القرآن ما يدل على عدد الصلوات وعلى عدد ركعاتها وعلى كيفيتها؟ لكان الجواب: لا، ما هو موجود، لكن كون الله - عَزَّ وَجَلَّ - يأمرنا أن نطيع الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأن نتبعه يكفي؛ لأن سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد أمرنا بها وبكل ما تتضمنه، وعلى هذا تكون الشريعة كلها موجودة في القرآن، إما بالإشارة والإيماء، وإما بالتصريح.

٨ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات رسالة النبي ﷺ حيث قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

٩ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأمم جميعهم مأمورون بإقامة الدين وعدم التفرق فيه لقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾.

١٠ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن التفرق مناف لما أوحى الله لرسوله ﷺ، ووصى به نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما يدعو إليه النبي ﷺ بالتوحيد كان عظيمًا وشاقًا على المشركين لقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، ويتفرع على هذه الفائدة أنه متى كان التوحيد كبيرًا على المشركين، فلا بد أن يسعوا بكل جهودهم على إبطال التوحيد؛ لأن كل إنسان بمقتضى فطرته، لابد أن يسعى في إزالة كل ما كان شاقا عليه، ويتفرع على ذلك فائدة: وهو الحذر مِنْ كَيْدِ المشركين.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ كان يدعو المسلمين وغير المسلمين لدين الله لقوله - تعالى -: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وهذا قد وقع تطبيقه وشاهده في حال النبي ﷺ، كان يخرج إلى البلاد الأخرى يدعو الناس إلى التوحيد، كما خرج إلى الطائف، وكان في موسم الحج يعرض نفسه على القبائل - عليه الصلاة والسلام - يأتي لكل قبيلة ويدعوها، ويقول: «أَلَا أَحَدٌ يُؤْوِينِي» - أو كلمة نحوها- «حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي»[1]، فَإِنَّ قُرَيْشًا مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤٤٩٦)، والبيهقي في الكبرى (١٦٣٣٣) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٣).

رَبِّي».

١٣ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله قد يمن على بعض العباد بالاجتباء والهداية؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾.

١٤ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله ـ تعالى ـ لفعل العبد؛ لقوله: ﴿يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾، فيكون فيها رَدٌّ على القدرية الذين يقولون: إن الإنسان مستقل بعمله ولا مشيئة لله ـ تعالى ـ في فعله.

١٥ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الهداية لكل منيب وهذه الهداية غير الإنابة، فالإنابة هداية سابقة، لكن كلما أناب الإنسان إلى ربه ازداد هدايةً.

١٦ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عصمة الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَن يُنِيبُ﴾، من البدع والمخالفات، لقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾، وهذا ـ بلا شك ـ ضد البدع؛ لأن البدع ليست فيها هداية إلى الله، بل كل البدع فيها ضلالة.

١٧ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحثُّ على الإنابة إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنها سببٌ للهداية.

١٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الردُّ على الجبرية لقوله: ﴿مَن يُنِيبُ﴾، فأضاف الفعل إلى العبد، والجبرية لا يضيفون الأفعال إلى العبد، يقولون: إن العبد يفعل بغير إرادة أو اختيار، ففي الآية إذن: رد على القدرية ورد على الجبرية، وهما طائفتان مبتدعتان متطرفتان فما هو المذهب الوسط؟ المذهب الوسط هو الذي يقول: إن الإنسان لا يجبر على عمله وأنه يفعل الفعل باختياره، ولا يشعر أن أحدًا أجبره، لكننا نعلم أن هذا الفعل الذي وقع منه، واقع بمشيئة الله، وإرادة الله، ولا يمكن أن يستقل الإنسان بشيء في الكون من دون الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى: ١٤]

❁ التفسير ❁

قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾، أي: [أهل الأديان] وقوله: ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾، بأن وحد بعضهم وكفر بعض، قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، أي: [بالتوحيد]، وقوله: ﴿بَغْيًۢا﴾، [من الكافرين] بينهم وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾، يقول المؤلف: [أي أهل الأديان]، وهذا تفسير جيد، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ في سورة البينة قوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، فهل نقول: إن هذه الآية العامة ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾، تخصص بآية البينة ويكون المراد: (ما تفرق الذين أوتوا الكتاب)، أو نقول: هي عامة، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب بعض من الأفراد، وإذا ذكر حكم بعض الأفراد فإن حكمهم يطابق حكم العام، فإنه لا يعد مخصصًا! الجواب: الثاني، وهذه قاعدة أصولية: أنه إذا ذكر بعض أفراد العام بحكم يطابق العام هذا ليس بتخصيص، مثاله: قلت: أكرم الطلبة، ثم قلت: أكرم محمدًا وهو منهم، هل هذا يقتضي ألَّا تكرم سواه؟ لا، إذن: ذكره بحكم يوافق حكم العام لا يقتضي تخصيصه به، أما لو كان يخالف فهذا تخصيص، لو قلت: أكرم الطلبة ثم قلت: لا تكرم محمدا، فحينئذ يخرج حكمه عن حكم العام.

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، إذن: قول المؤلف: [بأن وَحَّد بعض وكفر بعض]هذا مناسب؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، وإلَّا فالاختلاف أوسع من أن يكون اختلافا في التوحيد والكفر وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، فيكون تفرقهم عن علم قد قامت عليهم الحجة وقوله ـ تعالى ـ: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، مفعول لأجله، أي: أن تفرقهم للبغي والعدوان، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، بتأخير الجزاء إلى أجل مسمى وقوله: ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾، .... إلى آخره.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، والكلمة التي سبقت من الله هي تأخير الجزاء حتى يوافوا الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: معين وهو [يوم القيامة]، لقضي بينهم [بتعذيب الكافرين في الدنيا]، لقضي بينهم أي: فصل، وحكم بينهم وأهلك الكفار وبقي الموحدون.

فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، يقول الشارح: [وهم اليهود والنصارى]، وقوله: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾، [من محمد ﷺ] وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ [موقع للريبة].

قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، الكلمة هي: أنه قضى ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بتأخير العذاب عنهم: فتنةً واختبارًا، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى هذه الفتنة والاختبار بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾، لو انتصر الله منهم وأهلكهم ما بقي للجهاد

محل، ولا بقي للمؤمنين محنةً واختبارًا، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: معين محدد وذلك يوم القيامة، يوم القيامة محدد في علم الله، لا يتقدم ولا يتأخر، كما أن موت الإنسان محدد من قبل الله لا يتقدم ولا يتأخر.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: أعطوه مجانا أو بعوض؟ مجانا، يعني: بدون تعب، كما أن الوارث يرث مال مورثه بدون تعب مجانا، قال تعالى: ﴿أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، هل المراد بالكتاب هنا التوراة والإنجيل أو المراد بالكتاب القرآن؟ ويكون المعنى: وإن الذين أورثوا الكتاب - وهو القرآن - من بعدهم، أي: من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم لفي شك منه أي: من هذا الكتاب مريب، هذا الذي أقوله أحسن مما ذهب إليه (المؤلف) ـ رحمه الله ـ (المؤلف) يفيد قوله أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل لأنه قال: هم اليهود والنصارى، فاليهود لهم التوراة والنصارى لهم الإنجيل، ولكن الظاهر أن المراد بالكتاب هو هذا القرآن (لفي شك منه) أي: من هذا الكتاب، مريب: موقع في الريبة، والريبة أشد من الشك؛ لأنها ارتياب وقلق، الشاك قد يكون بارد الضمير ليس عنده قلق لكن المرتاب أشد، والغالب أن الارتياب يكون مع تعارض الأدلة التي كل واحد منها يقتضي أن يكون المصير إليه، فيرتاب الإنسان ويقلق، أما الشك المجرد هو شك بدون ارتياب ولا يؤدي الشك إلى الريبة إلَّا إذا عظم وقوي وتعارضت الأدلة حينئذ يبقى الإنسان في ارتياب شديد وتفرق هؤلاء بعد أن قامت عليهم الحجة لقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾.

الفوائد

١ ـ **ومن فوائدها:** أن مَنْ خالف الدين من بعد مجيء العلم فإنه باغٍ معتدٍ لقوله: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات كلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، ولا شك أن الله ـ تعالى ـ موصوف بالكلام لأنه كمال، وضد الكلام الخرس، والخرس نقص، فلو نفينا الكلام لزم من ذلك ثبوت الخرس وهذا نقص ينزه الله عنه، فإن قال قائل: ما هو كلام الله؟ قلنا: إن كلام الله مسموع بالآذان، يسمعه جبريل ويسمعه غيره ممن يكلمه الله هذا هو الحكم، وقد وافقنا عليه الجهمية، فقالوا: إن كلام الله هو المسموع بالآذان لكن اختلافنا عنهم بأنهم يقولون: هو مخلوق، ونحن نقول: إنه ليس بمخلوق، الأشعرية والكلابية وأمثالهم قالوا: كلام الله هو المعنى القائم بنفسه وليس المسموع، فالمسموع عبارة أو حكاية عن كلام الله، وكلام الله هو ما قام في نفسه، ولذلك يرون أن كلام الله غير متعلق بمشيئته،

فلا يقولون: إن الله يتكلم متى شاء؛ لأنه معنى قائم بالنفس كقيام السمع والبصر، ولا شك أن هذا قول باطل، وأنه أبعد من الصواب من قول الجهمية؛ لأن الجهمية يُصرِّحون بأن كلام الله هو المسموع ولكن ليس المعنى قائم بالنفس، ولكنهم يقولون: إنه مخلوق، هؤلاء إذا قالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وخلق أصواتا تعبر عما في نفسه، هل خالفوا الجهمية؟ ما خالفوهم، اتفقوا على أن هذا المصحف الذي بين أيدينا مخلوق، لكن الجهمية صاروا أشجع من الأشاعرة، الجهمية قالوا: إن هذا كلام الله لكنه عبارة عن كلام الله، ـ على كل حال ـ نحن نقول: إن الله أضاف الكلام إلى نفسه وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، وأكد ذلك بقوله: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾، أثبتت الأدلة أنه يكلم مَنْ شاء من خلقه، فما الذي يجعلنا نُحرِّف؟ وأيهما أحق بالكمال إله يتكلم متى شاء بما شاء وإله لا يتكلم؟ الأول ـ لا شك ـ بل الثاني لا يستحق أن يكون إلها، ولهذا قال إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾، إذن: من قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾، نستفيد إثبات الكلام لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حكمة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بتأخير العقوبة عن العصاة، ومن الحكم في هذا: أن الله ـ تعالى ـ يمهلهم لعلهم يتوبون، ولهذا قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

٤ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الدنيا لها حد؛ لقوله: ﴿مُّسَمّٗى﴾، أي: معين ومحدود كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾، أي: العذاب وقوله: ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم في شك منه مريب يعني: اليهود الذين أدركوا هذا القرآن، وورثوه من بعد اليهود السابقين، كذلك النصارى في شك منه مريب، ويتفرع على هذه الفائدة: أن مثل هؤلاء لا تنفع فيهم المواعظ ولا الآيات ويدل على هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[الشورى: ١٥]

التفسير

قوله - تعالى -: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾، المشار إليه الاستقامة في الدين وعدم التفرق فيه، وقوله: ﴿فَٱدۡعُ﴾، الفاء زائدة لتحسين اللفظ، والأصل (فلذلك ادعُ)، ولهذا نقول: إن هذه الجملة فيها حصر، وقاعدته هنا تقديم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور، ولهذا قلت لكم: إن الفاء في قوله - تعالى -: ﴿فَٱدۡعُ﴾ زائدة لتحسين اللفظ، ولولا أنها من كلام الله، لقلنا: (فلذلك ادع) وهذا هو السر في أن قلنا: الجملة تفيد الحصر.

فقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾، قال المؤلف - رحمه الله -: فلذلك [التوحيد]، ولو قال: فلذلك أي: لإقامة الدين وعدم التفرق فيه لكان أجود.

وقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولهذا قال المؤلف: [يا محمد الناس]، الناس أشار به إلى أن مفعول يدعو محذوف والتقدير: الناس.

وقوله: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾، [عليه] ﴿كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[في تركه].

وقوله: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، هذا ليس خاصًا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - لقوله - تعالى - في سورة هود وقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، وقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، أي: على الوجه الذي أمرت من غير زيادة ولا نقص.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، ما هي أهواءهم التي نُهِيَ عن اتباعها؟ ما يخالف ما أُمروا به ولهذا قال المؤلف: [في تركه] وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب، قل: معلنا لهم ولغيرهم، آمنت بما أنزل الله من الكتاب، وآمنت بمعنى: أقررت، والإيمان: هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان وليس مجرد الإقرار، ولهذا نقول: إن أبا طالب ليس بمؤمن، مع أنه مقر برسالة النبي ﷺ فإنه كان يقول في لاميته المشهورة:

لَقَدْ عَلِمُواْ أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبُ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

ويقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْ لَا المَلَامَةُ أَو حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَرَأَيْتَنِي سَمْحًا بذاكَ مُبِينَ

ولكنه - والعياذ بالله - سبقت لهم من الله الشقاوة فكان آخر ما قال: أنه على مِلّة عبد المطلب وصرح في تلك الحال أنه لولا أن قومه يلومونه، ويقولون: (عندما أيس من الحياة آمن) لآمن، هكذا يقول: - والعياذ بالله - وهو في سياق الموت، فقوله: آمنت بما أنزل الله من أي الكتاب، نقول: الإيمان هو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان، أبو طالب مقر لكنه لم يقبل ولم يذعن فصار كافرًا.

آمنت بما أنزل الله من الكتاب، أي: بالذي أنزل الله من الكتب كلها، وهكذا يجب علينا نحن - أيضًا - أن نؤمن بما أنزل الله من كتاب، ولكن هل يجب علينا أن نتبع ما أنزل الله من كتاب؟ الجواب: لا، نتبع ما جاء في شريعتنا، وإن خالف ما في الشرائع الأولى، لكن نؤمن بأن الكتب النازلة على موسى وعيسى وداود وغيرهم من الأنبياء بأنها حق، أما الاتباع فهو لشريعة محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أفادنا المؤلف - رحمه الله -: أن اللام في قوله: ﴿لِأَعْدِلَ﴾، بمعنى: [الباء] أي: أمرت [بأن أعدل] بينكم، هذا ما قدره المؤلف - رحمه الله - ولا شك أن هذا تقدير سهل بأن يقول: اللام بمعنى: الباء، لكن إتيان اللام بمعنى: الباء قد لا يكون سائغا في اللغة العربية، وأن الله - تعالى - أمر رسوله ﷺ بأمر فوق ذلك، أي: وأمرت بالشرع أو بالعدل لأعدل بينكم، فيكون المأمور به محذوفا ويكون الموجود هو العلة، أمرت بكذا لأعدل بينكم، وهذا أبلغ من أن نقول: اللام بمعنى: الباء، ولكن أمرت بالشرع والإيمان بكل كتاب لأعدل بينكم في الحكم.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، هذه الجملة حق لا شك فيها، ولكن قد يقول قائل: ما الفائدة منها؟، أليس هذا كقول القائل: السماء فوقنا والأرض تحتنا؛ لأن هؤلاء يقرون بأن الله ربهم، فما الفائدة؟ الفائدة من ذلك هو: إلزامهم أن يكونوا مثلما نحن عليه من الدين؛ لأن الرب واحد، الله ربنا وربكم بإقراركم، فإذا كان كذلك، فالواجب عليكم أن تخضعوا لأوامر ربكم - عَزَّ وَجَلَّ -.

وقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، يعني: أنه لا يضرنا عملكم ولا يضركم عملنا، فإذن: لا تتعلقوا بنا ولا نتعلق بكم، كلٌّ له عمله [فكل يجازى بعمله].

وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، كيف لا حجة بيننا وبينهم ولدينا الحجة عليهم؟ المقصود كما قال الشارح: لا حجة يعني: [لا خصومة] بأن أعدل بيننا وبينكم، والصواب: عدم التقدير [بأن أعدل]؛ لأنه لا داعي لها، بل المعنى: لا حجة قائمة على وجه الخصومة بيننا وبينكم؛ لأننا قد أيسنا منكم، ولا تنفع فيكم محاجة.

قال المؤلف: [هذا قبل أن يؤمر بالجهاد]، إذن بعد أن أمروا بالجهاد صار لهم أعمالهم ولنا أعمالنا، هل حين شرع الجهاد تبطل المحاجة؟ لا، ولهذا نقول للمؤلف - رحمه الله -: عفا الله عنك، أولًا: أثبت لنا أن هذه الآية قبل الأمر بالجهاد، فإذا قال: إن هذه الآية مكية وأمر بالجهاد في المدينة، نقول: أثبت لنا أنه لما أمر بالجهاد بطلت هذه البراءة، لا يستطيع أن يثبت ذلك، والله - سبحانه وتعالى - إنما يتحدث في هذا عن حال المشركين والنبي ﷺ بين أظهرهم في مكة وهذا أصلا لا جهاد فيه حتى نقول: إن هذا من باب النسخ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، [في المعاد لفصل القضاء] وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، [المرجع]، والجملة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، فيها حصر طريقه تقديم ما حقه التأخير. - والله أعلم -.

الفوائد

١ - **من فوائد الآية الكريمة:** وجوب الدعوة إلى توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ -، لقوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾، وتقديم المعمول يدل على الاهتمام به.

٢ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب على المرء أن يستقيم كما أمر فلا يحدث في دين الله ما ليس منه، لقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه يجوز توجيه الأمر لمن كان متصفًا به من قبل من أجل الثبات عليه لقوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾؛ لأن النبي ﷺ، استقام كما أمر من حين ما أرسل بل بل من حين ما بعث، لكن المراد بذلك الثبوت على هذا الشيء.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن النبي ﷺ عبدٌ مأمور يُوَجَّهُ إليه الأمر ،وليس له من الأمر شيء كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾، وهنا قال: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الرد على أولئك القوم الذين يدَّعون أن للنبي ﷺ تصرفًا في الكون وتدبيرًا له، ومن باب أولى أن يكون فيها رد على القائلين بأن من دون الرسول - عليه الصلاة والسلام - لهم تصرف في الكون، كقول الرافضة وبعض الصوفية الذين يدَّعون أن مِنْ أئمتهم مَنْ يتصرف في الكون، وأولئك الصوفية يدعون أنهم من أقطابهم فهؤلاء - بلا شك - ضالون يشركون بالله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** النهي عن اتباع الهوى لقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، فإن قال قائل: هل اتباع الهوى محمود، أو مذموم؟ قلنا: أن ما كان موافقا للشريعة فهو محمود، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1] وأما ما خالف الشريعة فإنه مذموم.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية:** تثبيت الله - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ؛ لأن مثل هذه الأوامر والنواهي تؤيده وتثبته وتقويه.

٨ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** وجوب الإيمان بكل ما أنزل الله من كتاب، لقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، ولكن كيف يكون الإيمان بالكتب السابقة؟ يكون بالإيمان بأنها نازلة من عند الله حقاً، وأما اتباعها فإنه منسوخ بهذه الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، فإن قال قائل: وهل نؤمن بأن الكتب التي بأيدي النصارى واليهود - الآن - كالكتب النازلة على أنبيائهم؟ فالجواب: لا؛ لأن الله - تعالى - ذكر أنهم حرفوها، وأخفوا كثيرًا منها، ولذلك لا ثقة لنا بها عندهم

(١) شرح السنة للبغوى (١/ ٢١٢ و ٢١٣).

من الكتب التي يزعمونها أنها كتب الله.

٩- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب العدل لقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، في كل معاملة، حتى في معاملة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فإن الواجب العدل، قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ولما بعث النبي ﷺ (عبد الله بن رواحة) إلى اليهود في خيبر من أجل مقاسمتهم جمعهم وقال لهم: إني أتيت مِنْ عند أحب الناس إليّ، وإنكم لأبغض إليّ من القردة والخنازير، وليس حبي إياه وبغضي إياكم بمانع أن أقوم فيكم بالعدل، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض[1]، وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أنه لو اجتمع مسلم وكافر في خصومة بين يدي القاضي، فإن الواجب عليه أن يعدل بينهما في الجلوس وفي النظر وفي الكلام، يعني: لا يتكلم مع الكافر بغلظة وينظر إليه شذرًا وإنما يعامله كما يعامل المسلم؛ لأن العدل واجب، ولا يجوز في مقام الحكم أن يفرق بين فلان وفلان، ولهذا قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

١٠- **ومن فوائد الآية الكريمة:** إعلان ما به الإلزام للخصم؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، يعني: وإذا كان ربنا وربكم، فالواجب أن ننقاد إلى جميع أوامره، فإن قال قائل: وهل الله - تعالى - رب للكافرين؟ فالجواب: نعم، رب كل شيء، لكن لا يضاف إليه فتقول: رب الكافرين كذا، اللهم إلَّا في مقام الاحتجاج عليهم؛ لأنه وإن كان الله خالق كل شيء ورب كل شيء، لكن لا ينبغي أن تضاف ربوبيته وخلقه إلى أقبح خلقه، كما أننا نعلم أنه - سبحانه وتعالى - رب الكلاب ورب الخنازير ورب القردة وما أشبه ذلك، وهذه نقطة قد لا يتفطن لها بعض الناس، وهو الأدب في التعبير، ويذكر أن أحد الملوك رأى في المنام أن أسنانه ساقطة فدعا معبرًا يعبر الرؤيا فعبرها هذا العابر، أن حاشيته وأهله يموتون؛ لأن الإنسان بأسنانه يتغذى، ويحفظ حياته، فأمر بسجنه، ثم إنه دعا معبرًا آخر فقال له: أنه أطولهم عمرًا فأكرمه وارتاح لقوله، والمعنى واحد؛ لأنه لو مات أهله صار هو أطولهم عمرا، لكن التعبير يختلف، هنا ففي قوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أضاف ربوبيته - عَزَّ وَجَلَّ - إلى الكافرين لكن في مقام الاحتجاج ثم أنه قال: ﴿رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لإفادة العموم.

١١- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله - سبحانه وتعالى - سوف يجمع بين الناس يوم القيامة، ويحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

١٢- **ومن فوائدها:** أن المرجع إلى الله خاصةً لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، لكن في أي شيء؟ هل معناه المصير أي: الحساب، أو إليه المصير في كل شيء؟ الجواب: الثاني، إليه المصير في كل شيء، إن

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٤٩٩٦)، والدارقطنى فى سننه (٢٣)، والبيهقى فى الكبرى (٧٢٣٠) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه.

أردنا الحكم الشرعي فالمصير إلى الله، وإن أردنا الحكم القدري فالمصير إلى الله، الحكم في الدنيا المصير إلى الله، الحكم في الآخرة المصير إلى الله، في كل شيء فإن مصيره إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، يتفرع على هذه القاعدة، أن الإنسان لا يرجو ولا يخاف، ولا يدعو إلَّا الله وحده لا شريك له، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يستعين إلَّا به.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]



❁ التفسير ❁

قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، الإعراب: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾، مبتدأ، وحجة: مبتدأ ثاني، وداحضة: خبر المبتدأ الثاني والمبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول، الذين يحاجون في الله أي: يجادلون فيه، قال المؤلف: في [دين الله] يعني: يحاجون في دين الله، والصواب العموم، المحاجة في الله تشمل المحاجة في دينه، والمحاجة في أسمائه وصفاته، والمحاجة في ذاته؛ لأن الآية عامة وقوله: ﴿فِي اللَّهِ﴾، والمحاجة - أيضًا - في قدره، فكوننا نخصها في دين الله فيه نظر، حتى ولو قدر أن الذين يحاجون في سبيل الله إنما يحاجون بل إنه ليس في سبيل الله فقط فأخذها بالعموم أولى؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال المؤلف: [نبيه] مفعول يحاجون، وكأنه قال: مَنْ يحاجون فيقال: نبيهم، وهذا - أيضًا - فيه نظر؛ لأن تقييد المحاجة في الله - عَزَّ وَجَلَّ - مع النبي ﷺ غير صحيح؛ لأنهم يحاجون نبي الله ويحاجون غيره، فإطلاق الآية أولى، ويقولون: إن حذف المفعول يفيد العموم، فإبقاء الآية على ما هو عليه أَوْلَى، إذن الذين يحاجون في الله، أي: يحاجون كل مَنْ يجادلهم في الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأيضًا ليس في دين الله فقط، بل في دين الله وذات الله وكل ما يتعلق بالله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾، يعني: من بعد ما استجاب له فَمَنْ مَنَّ الله عليه بالاستجابة، وهذه الجملة كإقامة البرهان على هؤلاء، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ [بالإيمان لظهور معجزاته وهم اليهود] هذا قوله (من بعد ما استجيب له بالإيمان).

وقوله: [لظهور معجزاته]، بناء على أنهم يحاجون النبي ﷺ وإذا قلنا: بالعموم، فلا حاجة لهذا القيد.

وقوله: [وهم اليهود]، ـ أيضًا ـ فيه نظر، بل نقول: كل من يحاجج الله حتى المشركون من قريش وغيرهم حاجوا النبي ﷺ أليس يخاصمونه دائمًا، ويستهزئون به، ويسخرون منه؟، فتقييد هذا باليهود فيه نظر، فصار عندنا ـ الآن ـ ثلاثة أشياء في الآية خصصها المؤلف بشيء، الأول قوله: في دين الله وهو أعم، والثاني نبيه وهي كذلك أعم.

وقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، يقول: داحضة [باطلة] لكن الدحوض أشد البطلان، يعني: باطلة بطلانا لا فوقه.

فقوله: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فهل تنفعهم؟ لا، وسيأتي ـ إن شاء الله ـ بيان فائدة هذه الجملة.

وأما قوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، عليهم غضب مِمَّنْ مَنَّ الله أو من أولياء الله؟، ولهذا لم يقيد الغضب بكونه من الله لإفادة العموم، وتأمل سورة الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن النعمة من الله، وإذا صدر من الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ثناء ومدح لله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم بل قال: المغضوب عليهم، ليشمل غضب الله، وغضب أوليائه من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولئلا يسند الغضب إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذا المقام، وإلَّا فإن الغضب قد أسند إلى الله ـ تعالى ـ في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

فقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: قوي قد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون فيهما.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان بطلان جميع الحجج المخالفة لدين الله؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾، حجتهم داحضة عند ربهم.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن أولئك المتحاجين لا وجه لمحاجتهم؛ لأن الحق قد بان، وقبله الناس لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بطلان حجج أهل الباطل لقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أن هؤلاء المبتلين وإن غلبوا أهل الحق في الظاهر، فإن حجتهم عند الله لا تنفعهم بل هي باطلة، وهذا من فوائد قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ لأن حجة الكافر والمبطل قد لا

تندحض أمام الناس فقد يكون الذي حاجه ضعيفا في علمه أو فهمه أو في خصومته، لكن مهما كان فهي عند الله باطلة بل داحضة.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الغضب لله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾، فإن قال قائل: كيف تثبت الغضب لله - عَزَّ وَجَلَّ - وهو لم يُضَفْ إلى الله هنا، بل قال: عليهم غضب وهو نكرة فكيف تثبته لله؟

فالجواب: أن السياق يعين هذا؛ لقوله: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وإذا دحضت عند ربهم فهل يرضى الله عنهم أو يغضب؟ يغضب، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن الله - تعالى - أثبت لنفسه الغضب في آيات أخرى، إذن: يصح أن نثبت غضب الله، أو أن نثبت الغضب لله بهذه الآية الكريمة، وإنما أوردت هذا الإيراد؛ لأنه لا يجوز لنا أن نثبت لله إلَّا ما أضافه لنفسه، وانظر إلى قوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، هل يمكن أن نثبت لله الساق في هذه الآية، لا يجوز؛ لأن الله - تعالى - لم يضفه إلى نفسه، بل قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولهذا روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: أي: (عن شدة)، ولكن نقول: هذه الآية لا نستطيع أن نثبت منها الساق لربنا - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن ظاهرها خلاف ذلك، ولكن سياقها يوافق حديث إثبات الساق لله - عَزَّ وَجَلَّ -، حيث جاء مصرّحا به، أن الله - تعالى - يكشف عن ساقه، وحينئذ نقول: ما دام سياق الآية يطابق سياق الحديث فإن النبي ﷺ أعلم الناس بتفسير كتاب الله، وإلَّا فلا يجوز لنا أن نثبت لله - عَزَّ وَجَلَّ - ما لم يثبته لنفسه.

٦ - فإذن **من فوائد هذه الآية:**

إثبات الغضب لله، ما وجهه؟ السياق يدل عليه، وهو ليس ممتنعا على الله بدليل ثبوته صريحا في آيات أخرى.

فإن قال قائل: بماذا تُفسِّرون الغضب؟ قلنا: نفسر الغضب بأنه صفة لله - عَزَّ وَجَلَّ - لائقة به، وليس كغضب المخلوقين.

فإن قال قائل: ما قولكم فيمن يفسِّر غضب الله بانتقامه؟ فيقول: غضب بمعنى:انتقم، أو بمعنى:أراد الانتقام، فالجواب نقول: هذا خطأ يبطله دليلان:-

أ - أن الله - تعالى - قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، ومعنى آسفونا: أغضبونا، انتقمنا منهم فجعل الانتقام مرتبا على الغضب مع أنهما متباينان.

ب - نقول: إن الغضب الذي نثبته لله ليس كغضب المخلوق إذا غضب أساء التصرف، ولم

يتصرف تصرف الحكيم؛ لأن الإنسان إذا غضب تكلم بكلام يندم عليه وفعل أفعالا يندم عليها ربما يُطلِّق زوجاته وربما يوقف أملاكه وربما يحرر عبيده من شدة الغضب لكن غضب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ينتفي عنه ذلك غاية الانتفاء فهو حكيم وإن غضب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

فإن قال قائل: هل الغضب صفة مدح أو صفة ذم؟ الجواب: صفة مدح، في محله؛ لأنه يدل على قوة الغاضب، وقدرته على الانتقام بخلاف الحزن، ولذلك لا يوصف الله بالحزن؛ لأنه صفة ذم وإنما يوصف بالغضب؛ لأنه يدل على قدرته على الانتقام، انظر مثلًا إلى رجل، أساء إليه ابنه هل يحزن أو يغضب ؟، يغضب ويؤدبه، وانظر إلى شخص ضعيف أساء إليه رجل ضعيف هل يغضب أو يحزن؟ يحزن ولا يستطيع أن يغضب وماذا يفعل إذا غضب؟!

إذن: الغضب لا يكون صاحبه غاضبًا إلَّا أن يكون قادرًا على الانتقام ولهذا نقول: إن الغضب في محله صفة مدح.

٧ـ من فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ مع الغضب لهم عذاب شديد فيجمعون بين غضب الله عليهم وبين عذابه الشديد



قال الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]

التَّفْسِيرُ

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾، قال: الكتاب: [القرآن]، بالحق [متعلق بأنزل].

أولا: قول المؤلف بأن [الكتاب أي القرآن] فيه نظر، وهو أن الكتاب أعم من القرآن بدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ فهذه الآية تبعا لا استقلال تطابق هذه الآية التي معنا، والمؤلف خص الكتاب بالقرآن، بل الصواب أن المراد بالكتاب، كل كتاب أنزله الله، ف (أل)هنا للجنس.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، يقول المؤلف: [متعلق بأنزل] وعلى هذا يكون المعنى: أن نزول هذه الكتب من عند الله حق، ولكننا نقول: الآية أعم مما قال المؤلف، فهي نازلة بالحق؛ لأنها نزلت حقا من

عند الله، وهي ـ أيضًا ـ متصفة بالحق، بمعنى: أنها جاءت بالحق، والفرق بين المعنيين ظاهر؛ لأنها على ما فسرنا تتضمن أن هذه الكتب حق من عند الله، وأن ما جاءت به هذه الكتب فهو حق فتكون الباء هنا على كلام المؤلف تكون للتعدية، وعلى ما قلنا تكون للتعدية والمصاحبة أو الملابسة.

وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: [العدل]، وعبر عن العدل بالميزان؛ لأنه يعرف به العدل.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: [ما يعلمك] أيها المخاطب، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، أي: [إتيانها]، وعبر المؤلف بقوله: أي: إتيانها، ليطابق قوله: قريب؛ لأن قريب مذكر والساعة مؤنث، ولو كان في غير القرآن لكان: لعل الساعة قريبة، لكنه قال: قريب ولم يقل: قريبة، واحتاج المؤلف أن يؤول هذا إلى قوله: إتيانها حتى يكون مذكرًا ويكون قريب مطابقًا له، إذن: الآية على تقدير مضاف، ألجأ إلى تقديره أن الخبر مذكر والساعة مؤنث.

وقال بعض العلماء: إن قريب صفة يستوي فيها المذكر والمؤنث كقتيل وجريح، وقال: إن هذا له نظائر في القرآن، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، ومنها: قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال: فلما اضطرد تذكيرها في مواضع عدة وجب أن يقال: إن (قريب) يعني: هذا اللفظ يستوي فيه المذكر والمؤنث، وبناء على هذا لا نحتاج إلى تقدير؛ لأن الأصل في الكلام عدم التقدير.

فقوله: ﴿قَرِيبٌ﴾، وصدق الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، الساعة مهما طال الزمن فهي قريبة، لا من حيث الساعة العمومية ولا من حيث الساعة الخصوصية، الساعة الخصوصية ساعة كل إنسان بحسبه، ساعة كل واحد منًّا قريبة أو بعيدة؟ قريبة ولو بلغ آلاف السنين؛ لأن ما مضى من السنين كأن لا شيء، ـ الآن ـ مضى الأمس القريب كأنه لم يكن، ويوم ولادتك كأنه أمس، إذن: الساعة قريب باعتبار كل إنسان بنفسه، وكذلك الساعة الكبرى هي قريبة ـ أيضًا ـ كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾.

ولذلك من عبارات الناس (كل آت قريب وكل ماض بعيد).

قال المؤلف: [ولعل معلق للفعل عن العمل وما بعده سد مسد للمفعولين].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، تنصب ثلاث مفاعيل، المفعول الأول: منصوب وهو قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، المفعول الثاني والثالث: تنصب، ولكنه علق عن العمل بالإتيان بلعل؛ لأن لعل موجبة

بتعليق أفعال القلوب عن العمل فتسُدُّ مسد المفعولين، إذن لعل معلق بالفعل عن العمل أين لعل؟ لعل الساعة قريب، أين الفعل المعلق؟ يدريك، وما بعده، أي :بعد لعل، سد مسد المفعولين، أين الذي بعد لعل؟ الساعة قريب، فيكون هنا لعل قد علقتها عن العمل، أي: أبطلت عملها لفظا دون المحل، والمعلقات كثيرة ذكرها ابن مالك ـ رحمه الله ـ في الألفية فليرجع إليها.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن كلام الله؛ لأن القرآن كلام وإذا أضيف إنزاله إلى أحد صار كلاما له صفة من صفاته.

٣ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الكتب التي أنزلها الله نازلة بحق، فليس فيها باطل، الباطل في الأخبار هو الكذب، والباطل في الأحكام هو الظلم والجور والفساد، فكلام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ليس فيه كذب، وليس فيه ظلم ولا جور ولا فساد.

٤ ـ **ومن فوائدها:** أنها نازلة من عند الله حقا؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات القياس؛ لقوله: ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾؛ لأن الميزان ما توزن به الأشياء، ويقارن بينها ففيه إثبات القياس في الشرائع السماوية، وهذه المسألة ـ مسألة القياس ـ أنكرها بعض العلماء ولا سيما الظاهرية ـ عفا الله عنا وعنهم ـ وإنكارهم هو المنكر؛ لأن القياس جاء في الكتاب والسنة فهنا ذكر الميزان، والميزان ما توزن به الأشياء وهذا لا يكون إلَّا بالقياس، واعلم أن كل مثل ضربه الله في القرآن فإنه مثبت للقياس؛ لأن المقصود به قياس هذه الحال على هذه الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾، عندنا هنا مشبه ومشبه به والتشبيه يقتضي الموازنة وإلحاق المشبه بالمشبه به، وهذا تمامًا هو القياس، وهذه خذها قاعدة كل مثل في القرآن فإنه يتضمن إثبات القياس.

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾، هذا فيه قياس، ولكن هل هو قياس أولوية أو مماثلة؟ قياس أولوية، والرسول ﷺ ذكر القياس في عدة أحاديث منها:

أنه شبه قضاء الحج عن الميت بقضاء الدين.

ومنها: أن رجلا جاء إليه وقال: يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود وهو والمرأة أبيضان، فقال له النبي ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ » قال: نعم، قال: «مَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر «قَالَ هَلْ

فِيهَا مِنْ أَوْرَق» قال: نعم، قال: «أَنَّى لَهَا ذَلِكَ؟» قال: لعله نزعه عرق، فقال: «وَلَعَلَّ ابْنَكَ نَزْعَةُ عِرْقٍ»[1].

فإثبات القياس لا بد منه، ولا يمكن أن تتوسع الشريعة إلَّا بالقياس؛ لأن أكثر الحوادث لم يوجد بعينه في النصوص، لكن وجدت قواعد وأصول ترجع إليه هذه الحوادث في حكمها.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى قرب الساعة؛ لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وسبق في التفسير أن المراد بالساعة الخصوصية، وهي الموت والعمومية وهي القيامة.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يعلم متى تقوم الساعة لقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، أي: وما يعلمك، وهذا حق ثابت، فإن جبريل - عليه السلام - سأل النبي ﷺ قال: أَخْبِرْنِي عِنِ السَّاعَةِ؟ فقال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[2] يعني، كما أنك أنت تجهلها، فأنا أجهلها، ولهذا من ادَّعى علم الساعة، فإنه كافر مكذب؛ لقول الله - تعالى -: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والمراد بالكتاب هنا كلامه الذي أوحاه إلى رسله، ما وجه الدلالة من الآية؟ ووجه الدلالة أن النزول يكون من الأعلى إلى الأسفل، وعلو الله - سبحانه وتعالى - ثابت بالقرآن والسنة والإجماع والعقل والفطرة وكل الأدلة الممكنة حاصلة لإثبات علو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهل العلو علو ذاتي، أو علو وصفي بمعنى: أن علوه علو صفة، أو علو ذات وصفة؟ الثاني، ذات وصفة، لقوله - تعالى -: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وقوله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، يعني: الوصف، إذن: علو الله علو ذات وعلو صفة، علو الصفة لا أعلم أحدًا ممن انتسب إلى الإسلام أنكره، كل المنتسب إلى الإسلام من مبتدعة، وسنية كلهم يؤمنون بعلو الله - تعالى - علو صفة، لكن ما هو علو الصفة؟ هنا تختلف الأفهام، بعضهم يقول: من علو صفته تعطيل صفاته هذا بحث آخر، أما علو الذات هذا محل المعترك بين السنيين والبدعيين، انقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام ولا بأس أن نبسط؛ لأن هذه عقيدة:

أولًا: قسم أثبتوه.

ثانيًا: وقسم نفوه، وقالوا: إن الله - تعالى - لا يقال: فوق ولا تحت، وقسم نفوه وقالوا: إن الله -

---

(١) رواه البخاري (٤٩٩٩)، ومسلم (١٥٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تعالى - في كل مكان في الأسواق في المساجد وفي المراحيض - والعياذ بالله -.

ثالثًا: أما أهل السنة فيقولون: أن الله - تعالى - فوق جميع مخلوقاته، وأن علوه علو ذات ودل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة ونأخذ من كل نوع دليلًا:

أما الكتاب: فما أكثر الله من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، والعلي هنا صفة مشبهة، والصفة: المشبهة صفة ثبوتية لا تفارق موصوفها، ويقول - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، الأعلى اسم تفضيل حذف المفضل عليه ليدل على العموم، يعني: الأعلى على كل شيء، نكتفي بهذا وإلَّا في القرآن ما لا يحصى على وجوه متنوعة.

أما السنة: كان النبي - عليه الصلاة والسلام - إذا سجد يقول: سبحان ربي الأعلى، وقد دلت السنة القولية والفعلية والإقرارية على علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - فقول الرسول - عليه الصلاة والسلام: - سبحان ربي الأعلى - هذا سنة قولية، وقوله ﷺ للجارية: «أَيْنَ اللهُ؟» قالت: في السماء قال: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1] هذه إقرارية، ورفع يده إلى السماء عند الدعاء وهو يدعو الله يا رب وهذه سنة فعلية، وقد جرت السنة الفعلية في أكبر اجتماع حصل للنبي ﷺ مع أصحابه وذلك في يوم عرفة حين قال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[2] اللهم ورفع اصبعه، اشهد أشار إليهم علوًا وسفلًا، علوًا لله وسفلًا للخلق، يشهد الله - عَزَّ وَجَلَّ - على إقرار أمته على أنه بلغ، وهل تشهدون أنتم؟ نعم والله نشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأنه عانى من أجل ذلك أكبر العناء - صلوات الله وسلامه عليه، هذه سنة فعليه، إذن: السنة بجميع أنواعها كلها دلت على علو الله.

أما الإجماع: إجماع الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم على علو الله، فإن قال قائل: أثبت لي قولًا واحدًا عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي على أنهم قالوا: إن الله عالٍ بذاته، أقول: إن هؤلاء الصحابة يقرءون القرآن، ويعرفون من السنة ما عرفوا ولم يرد عنهم حرف واحد يدل على نقيض ما جاء في القرآن وكفى بذلك دليلا، لو كانت عندهم معارضة لورد عنهم خلاف ما في القرآن وهم يقرءون القرآن وهم عرب يعرفون المعنى، ويعرفون المراد، ألَّا توافقون على هذا؟، وهذا من أحسن ما يكون في تقرير إجماع الصحابة، يعني: إذا أتاك إنسان وقال لك: أثبت لي قولًا واحدًا عن الصحابة أنَّهم آمنوا بعلو الله بذاته، أقول: ما أحتاج أن أثبت لك فهم قرءوا القرآن وعلموا من السنة ما علموا ولم يرد عنهم حرف واحد يقولون فيه: إن الله ليس في السماء أبدا، ولا إنه بذاته

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

في كل مكان وهذا إجماع، وهكذا يا إخواني كل الصفات التي لم ترد عن الصحابة ما يناقضها فهو دليل على إجماعهم.

أما العقل: العقل يدل على علو الله؛ لأنك لو سألت أي إنسان هل العلو أكمل أو السفول؟ لقال لك: العلو أكمل ـ لا شك ـ حتى في أمور الدنيا يقول: هذا اللباس أعلى من هذا اللباس، كل يعرف أن العلو صفة كمال فإذا كان الأمر كذلك فهل الرب موصوف بالكمال عقلًا أو لا؟ موصوف بالكمال عقلا، ولهذا لما احتج إبراهيم على أبيه فإِنَّهُ احتج عليه بالعقل قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾، هذا ما يعقل، فهذا استدلال عقلي، وأيضًا نحن نقول: العلو باتفاق العقلاء صفة كمال والسفول باتفاق العقلاء صفة نقص فحينئذ ثبت لله العلو الذاتي عقلا.

أما الفطرة: لا تسأل، اسأل عجوزًا تدور بالرحى تطحن الطحين اسألها أين الله؟، وهي ما درست لا العقيدة الواسطية ولا الطحاوية ولا غيرها، تقول: في السماء ولا تتوقف لحظة؛ لأن هذا أمر مفطور عليه الخلق، ويقال: إن أبا المعالي الجويني إمام الحرمين ـ عفا الله عنا وعنه ـ كان يتكلم عن الاستواء ومعروف أن الأشاعرة وهو من أئمة الأشاعرة ـ عفا الله عنا وعنه، معلوم أنهم ينكرون استواء الله على العرش يقولون: استوى على العرش يعني: استولى عليه، ما في علو استولى عليه. ففي مجلس جمعني بعوام تكلم أحد الطلبة في نفس المجلس فقال: إن أهل التأويل يعني: أهل التحريف يقولون: استوى بمعنى:استولى فقال عامِّي جمَّال يحمل على الجمال يسافر من بلد إلى آخر فقال: غربله الله يعني: عاقبه فقال: العرش من ملكه ـ سبحان الله ـ هذا عامي يفهم أفضل من طلاب علم كثيرين.

المهم أَنَّهُم يقولون: إن أبا المعالي الجويني تكلم عن الاستواء وقال: إن الله ـ تعالى ـ كان، ولم يكن عرش، ولا مخلوق وهو ـ الآن ـ على ما كان عليه، يعني: أن الله ليس على العرش، فقال له أبو العلاء الهمداني: يا شيخ دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الفطرة، ما قال عارف: قط يا الله إلَّا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فجعل يلطم على رأسه حيرني الهمداني، فكل إنسان مفطور على هذا ما دام أن الشياطين لم تجتاله.

يتبين من هذا: أن علو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة.

* الطائفة الثانية في هذه المسألة: أن الله لا يوصف بالعلو إطلاقًا، بماذا يوصف؟ قالوا: في كل مكان، ثم شبهوا بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، فأين ظرف مكان والمعنى: في أي مكان أنتم فالله معكم.

إذن إذا كنت في المسجد يكون الله معي، وإذا بآخر في المرحاض كذلك يكون الله معه على

زعمهم كم إله الآن؟ اثنين واحد في المسجد وواحد في المرحاض والله في السوق صاروا كم ؟! ثلاثة وواحد في الطيارة صاروا كم؟ ! أربعة وهلم جرًّا، هل هذا يقوله عاقل؟ ! هذا يستلزم وصف الله بما لا يليق بأن يكون الله في الحمامات والمراحيض والأماكن القذرة، والعالية والسافلة.

هذا يلزم أحد أمرين:

* إما تجزؤ الله وإما تعدد الله، فإن قالوا: بالتعدد صحنا بهم صيحةً تتقطع منها قلوبهم نقول لهم: كفرتم وصرتم أعظم من النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، وأنتم تقولون ملايين الملايين.

وإن قالوا: يتجزأ، قلنا: ـ الآن ـ أبطلتم قولكم إذا كان جزء هنا وجزء هناك؛ لأن استدلالكم بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، هذا دليل على أن واحدًا معهم ليس جزءا منه، فأنتم ـ الآن ـ خذلتم ـ والحمد لله ـ.

* أما ما شبهوا به ولبسوا، وفي قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾، نقول: لا يلزم من المعية أن يكون في نفس المكان، ولهذا العرب تقول في لغتها: القمر معنا، ومكان القمر فوق في السماء، وهم يقولون: معنا، العرب تقول: المرأة مع زوجها يعني: في عصمته ولو كان هو في أقصى المشرق، وهي في أقصى المغرب، القائد يوجه جنده إلى معركة في الميدان قاتلوا باسم الله وأنا معكم وهو في مكانه، فالمعية مدلولها واسع لا تستلزم الاختلاط لا في المكان، ولا في الذات، إذن ـ الحمد لله ـ هذا القول بطل، القول بأن الله بذاته في كل مكان هذا باطل.

* بقي القول الثالث: لا تصف الله بأنه معك ولا بأنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا خلف ولا أمام ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا مباين ولا متحد ،إذن: أين يكون؟ العدم، ولهذا قال بعض أهل العلم: لو قيل لنا صفوا العدم ما وجدنا أدق من هذا الوصف.

أما القول الذي لا يرتاب عاقل في صحته، ولا يمكن أن يؤمن الإنسان بسواه إلَّا من اجتالته الشياطين؛ هو أن الله ـ تعالى ـ عالٍ بذاته، عالٍ بصفاته ولا يمكن أن تستقر قدم مؤمن بالله واليوم الآخر إلَّا على هذا القول.



قال الله تعالى:

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]

التفسير

أما قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، قال المؤلف: [يقولون: متى تأتي ظنا منهم أنها غير آتية]، لا يقولون ذلك حرصًا عليها ولا رغبة فيما يكون فيها من الخير ولكنه استبطاء لها وإنكار لها كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهم بهذا ملبسون مشبهون؛ لأنهم لم يقال لهم: ائتوا بهم في الدنيا إنما يأتون يوم القيامة فالرسل لم تقل: إن آباءكم سيأتون وأنتم أحياء؛ لأنه من مات لا يبعث إلَّا يوم القيامة قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾، اللهم إلَّا إذا كانت آية من آيات الرسل كما جرت لعيسى عليه السلام، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها.

أما الذين آمنوا فاسمع ماذا يقول الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ﴾، أي: [خائفون] وقوله: ﴿مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾، الذين آمنوا مشفقون والإشفاق أشد الخوف.

وتفسير المؤلف له بالخوف تقريبي، وليس على وجه التحديد؛ لأن الإشفاق خوف وزيادة؛ لأنهم يعلمون أنها الحق وأنها ستقوم، وستكون أهوالًا عظامًا، ستكون الجبال كالعهن المنفوش، وستدك الأرض، وكل ما ذكر في الكتاب والسنة مما يكون في الآخرة فالذين آمنوا مشفقون منه خائفون.

قال الله - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ﴾، أي: [يجادلون] وقوله: ﴿فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

ألا: أداة استفتاح، والفائدة: منها التنبيه والتحقيق والعناية ولهذا تأتي بعدها غالبًا (إنْ)، و(إنَّ) للتوكيد مثل قوله - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ألا أداة استفتاح تفيد التوكيد والتنبيه والتحقيق والعناية.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾، (إنَّ) للتوكيد، واللام في قوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، هي داخلة على الخبر وقوله: ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، أي: لفي ضلال بعيد عن الهدى؛ لأن الضلال قد يكون قريبا

ويهتدي الإنسان عن قرب، وقد يكون بعيدًا فلا يهتدي ـ والعياذ بالله ـ.

الفوائد

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن منكري الساعة يستعجلونها، يقولون متى تأتي؟، والمراد بقولهم: متى: الإنكار، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن المؤمن بالساعة خائف منها، لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، ولكنهم خائفون خوفًا يحملهم على العمل لها، لا خوف ذعر فقط، بل خوف يحملهم على العمل لها، وهذا هو الخوف النافع، أما مجرد الخوف فلا يكفي.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى ترجيح جانب الخوف؛ لأن الله ـ تعالى ـ امتدح الذين يخافون من الساعة، وهذه المسألة اختلف فيها أرباب السلوك والمعارف أيهما أفضل أن يُغَلِّبَ الإنسان جانب الخوف أو جانب الرجاء؟

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه؛ لأنه إن غَلَّبَ جانب الخوف وقع الإنسان في القنوط من رحمة الله، وإن غلب جانب الرجاء وقع في الأمن مِنْ مكر الله، وكلاهما خطر على الإنسان.

* وقال بعض العلماء: ينبغي عند إرادة العمل السيء أي: المعصية أن يُغَلِّبَ جانب الخوف، لئلا يقع فيها، وعند فعل الطاعة، أن يُغَلِّبَ جانب الرجاء وهذا جيد جدًّا؛ لأنه عند الهم بالمعصية إذا لم يُغَلِّبَ جانب الخوف وقع فيها، وعند فعل الطاعة إذا لم يُغَلِّبَ جانب الرجاء لم يَنْشَطْ للطاعة.

وعليه نقول: إن تغليب أحد الجانبيْنِ ـ الخوف أو الرجاء ـ يرجع إلى حال الشخص في حال الهم بالمعصية فإِنَّهُ يُغَلِّبَ جانب الخوف، وفي حال فعل الطاعة يُغَلِّبَ جانب الرجاء، لئلا يقنط من رحمة الله، وييئس من روح الله، فيغلب جانب الرجاء، ويكون رجاؤه هذا مبنيا، على أنه يَسَّرَ الله له فعل الطاعة فإن رجاءه يكون في الله أعظم وأمكن، فيكون الله ـ تعالى ـ عند حسن ظنه به، هذان قولان.

* القول الثالث: في حال المرض ودنو الأجل يغلب جانب الرجاء حتى يموت وهو يحسن ظنه بالله ـ تعالى ـ، وفي حال الصحة يُغَلِّبَ جانب الخوف؛ لأن الإنسان إذا كان صحيحا فإنه يكون عنده شيء من البطر والأشر وربما يُقْدِمُ على المعاصي والتهاون بالواجبات فيُغَلِّبَ هنا

جانب الخوف، ولهذا جاء في الحديث: «نِعْمَتَانِ[١] مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»[٢]، وعند العرب يقولون: نعمتان مجحودتان: الصحة في الأبدان، والأمن في الأوطان.

هذا غير صحيح، إنما الصحيح نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ، ولم يكن فارغًا إلّا لأنه غني؛ لأن الفقير لا يكون فارغًا، يعمل ويكدح ويكتسب، فهذان نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس؛ لأنه لا يربح فيهما.

إذن هذا قول ثالث، في حال المرض يُغَلِّبَ جانب الرجاء، وفي حال الصحة يُغَلِّبَ جانب الخوف.

لكن القول الوسط هو ما أشرنا إليه وهو القول الثاني: إذا هم بالمعصية فليُغَلِّبَ جانب الخوف وإذا فعل الطاعة فليُغَلِّبَ جانب الرجاء.



قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى:١٩]

التَّفْسِيرُ

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، الجملة استئنافية، وهي - أيضًا - مبتدأ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، لا يخفى أنها مبتدأ وخبر، ومعنى اللطيف: هو الذي يلطف بالعبد فيقدر له من التيسير ما لا يخطر له على بال، قال ابن القيم - رحمه الله - في النونية: وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ

لطيف به: يرفق به وييسر له الأمر، لطيف لعبده، يقدر له من الأمور الخارجية ما يكون فيه اللطف كما قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾.

فاللطافة كناية عن تيسير الأمر وتسهيل الأمر لمن شاء من عباده، لكن المؤلف يقول: [بعباده برهم وفاجرهم]، حتى الفاجر، الله لطيف به؟ نعم، لطيف به بالمعنى العام، ولهذا ينزل عليهم المطر وينبت لهم النبات، ويدفع عنهم الشرور إلى آخره، فالله - عَزَّ وَجَلَّ - لطيف بالعباد كلهم، البر والفاجر، لكن لطفه بالبر لطف خاص مستمر في الدنيا وفي الآخرة، ولطفه بالفاجر لطفًا عامًا يكون ابتلاءً وامتحانًا، وربما يزداد به الفاجر فجورًا بما لطف الله به كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ

---

(١) تثنية نعمة وهي الحالة الحسنة وقيل هي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى غيره.

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٩)، والترمذي (٢٣٠٤)، وابن ماجه (٤١٧٠)، وأحمد في مسنده (٣٢٠٧) من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

لَيُمْلي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، حيث لم يهلكهم جوعا بمعاصيهم، وإنما فسرها بقوله: [حيث لم يهلكهم جوعا] توطئة لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾، يرزق، أي: يعطي، فالرزق بمعنى: العطاء، قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم﴾، أي: أعطوهم، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾،أي: [من كل منهم ما يشاء]؛ لأن المسألة فيها مرزوق وفيها رزق، المرزوق عبر عنه بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، فأتى بمن التي للعقلاء، والمرزوق قدرها الشارح بقوله: [ما يشاء].

إذن: لدينا رزق ومرزوق، والمرزوق عبر الله عنه بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ و(الرزق) حذف للعلم به وقدره المؤلف بقوله:[ما يشاء]. ونظير هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، ترد كثيرًا في القرآن الأشياء معلقة بالمشيئة، هل هذه أشياء المقدرة معلقة بالمشيئة؟ أو هي مشيئة مجردة؟ أو هي مشيئة مقرونة بالحكمة ؟، الجواب: مشيئة مقرونة بالحكمة؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يفعل إلَّا لحكمة، كل ما وجد مضافًا إلى الله معلقًا بالمشيئة فاعلم أنه مقرون بالحكمة، دليل ذلك قوله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ففي هذا إشارة إلى أن مشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ صادرة عن علم وحكمة، فخذها بقلبك، كلما وجدت شيئًا من أفعال الله أو أحكام الله الشرعية معلقة بالمشيئة فاعلم أنه مقرون بالحكمة خلافا لمن قال كالجهمية وغيرهم: إن أفعال الله ـ تعالى ـ لمجرد المشيئة وليست مقرونة بالحكمة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾، القوي ضد الضعيف؛ لأنه ذو القوة الكاملة التي لا يلحقها ضعف، ولنسأل أنفسنا هل لدينا قوة كاملة؟ لا، ثم لا، ثم لا، وهذه قوتنا الناقصة تستمر؟ لا، وهل هذه قوتنا الناقصة ثابتة لنا من حين ولدنا؟ لا.

واسمع إلى قول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، هكذا حال الإنسان ولا مفر منها، الرب ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هو القوي ذو القوة التامة التي لم تزل ولا تزال واستمع إلى عاد حين فخروا بقوتهم وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، فقال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

فلو قالت أمريكا ـ الآن ـ: (مَنْ أشد منَّا قوة) إذن نقول لها: الله الذي خلقكم أشد منكم قوة أنتم مخلوقون ضعفاء، ولو شاء الله لسلبكم القوة والقدرة والعقول؛ لأن الله الذي خلقكم هو أشد منكم قوة وكذلك غيرها من الدول الذين يعتزون بقوتهم المادية، نقول: إن ربكم فوقكم

---

(١) رواه البخارى (٤٤٠٩)، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى رضى الله عنه.

رب العباد ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الذي خلقكم، ولم تكونوا شيئًا فهو أشد منكم قوة.

وقد يكون تفتيت القوة من نفس القوة، أرأيتم الاتحاد السوفيتي، ألم يهدد العالم من قبل؟ ألم يقل رئيسهم حين قال وزير الدفاع الأمريكي: إن لدينا صواريخ من الممكن أن نضرب بها روسيا، فقال رئيس الاتحاد السوفيتي: ولكنها إذا رجعت لن تجد أمريكا!!!

أين ذهبت هذه الصواريخ؟ دُمِّرَتْ، روسيا تفاخروا بالقوة، ـ الآن ـ أين الاتحاد السوفيتي؟ فتته الله من الداخل، والقادر على هذا قادر على أن يفتت أمريكا ـ نسأل الله أن يفتتها ـ، المهم أن الله هو القوي الكامل القوة، ولا يمكن أن يلحقها ضعف.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية:** هناك قوة وقدرة وهناك ضعف وعجز، ما الذي يقابل القوة؟ الضعف، والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا﴾، وما الذي يقابل القدرة؟ العجز والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾، ما قال: عليمًا قويًا وإنما قال: ﴿عليما قديرًا﴾، أيهما أشد؟ نقول: كل شيء بحسبه، فالقدرة لا يوصف بها إلَّا ذوو الإرادة، فالجدار مثلًا لا تقول: له قدير، والقوة يوصف بها ذوي الإرادة وغيرهم، تقول: الجدار قوي، والحجارة قوية، ولا تقول: قديرة.

القوة أكمل من جهة أخرى؛ لأنه ليس كل قادر قويًا، فلو امتحنا واحدًا منكم، احمل هذا الحجر، فأراد أن يحمله عجز أن يقله عن الأرض، هل هنا نقول: غير قوي أم غير قادر؟ غير قادر؛ لأنه عجز، ولو قلنا لآخر: احمل هذا الحجر فكشف عن ذراعيه ثم حمل ولكن بتعسر غير قوي، فصارت القوة من هذه الناحية أكمل؛ لأنها القدرة على الشيء بلا ضعف، هنا يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، والعزيز يعني: الغالب، [الغالب على أمره]، وقد قسم العلماء ـ رحمهم الله ـ العزة إلى ثلاثة أقسام:

عزة القدر، عزة القهر، عزة الامتناع.

أولًا: عزة القدر يعني: أن قدره عظيم لا نظير له، ومنه قول العرب: هذا عزيز، يعني: نادر الوجود، هذا عزة القدر.

ثانيًا: عزة القهر، يعني: الغلبة وهذا أكثر ما ترد بهذا المعنى، فالعزيز بمعنى: الغالب، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ردًا على قول المنافقين: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾.

ثالثًا: عزة الامتناع، يعني: يمتنع عليه السوء ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ويمتنع عليه النقص، يحاول

المنقصون أن يصفوه بالنقص ولكنه يمتنع عليه، ومنه قولهم: هذه أرض عِزَاز، يعني: أرض شديدة صلبة وهي التي لا تؤثر فيها المعاول يقولون: إنها عزاز، وفي اللغة العامية يقولون: أرض عزا، ويحذفون الزاي الثانية، أي أرض صلبة.

فالعزيز له ثلاث معانٍ: عزيز القدر، عزيز القهر، عزيز الامتناع. كل هذا ثابت لله ـ عزَّ وَ جَلَّ ـ قال ابن القيم:

وَهُوَ العَزِيزُ فلن يـرام جَنَـابُهُ　　　أَنَّى يُـرَامُ جَنَابُ ذَا السُّلْطَانِ



قال الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[الشورى: ٢٠]

التفسير

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، لا يخفى علينا جميعا من حيث الإعراب، أن (من) هنا شرطية والدليل قوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ حيث جاء الجواب مجزوما، وهذا فيه أن فعل الشرط يكون ماضيًا والجواب يكون مضارعا، ماضيًا لقوله: ﴿مَن كَانَ﴾، الجواب: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، وكذلك بالعكس قد يكون فعل الشرط مضارعًا والجواب ماضيًا مثل (من يشكر الله زاده الله)، من كان يريد [بعمله] حرث الآخرة، أي: [كسبها وهو الثواب] نزد له في حرثه [بالتضعيف فيه الحسنة إلى العشرة، وأكثر]، أصل الحرث ما يحرث للنماء والزيادة، ومنه: حرث الفلاح الأرض من أجل أن يزرعها، فيكسب ويزداد ماله.

وقوله: ﴿حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾، أي: كسبها وهو الثواب.

وقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ زيادة الحرث: [بزيادة الثواب الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة]، ونزيد أمرًا آخر، أي: نؤته من الدنيا والآخرة، بدليل قوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، إذن: نزد له في حرثه من وجهيْن:

الوجه الأول: أن الله ـ تعالى ـ يعطيه ثواب الدنيا والآخرة.

والوجه الثاني: أنه يضاعف الثواب فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف بل إلى أضعاف كثيرة.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾، يعني: كسبها والتنعم فيها، هذا في الغالب يعرض عن الآخرة؛ لأنه لا يريد إلَّا الدنيا ولهذا تجده مهتمًا بأمور الدنيا غاية الاهتمام حتى السيارة إذا أصابتها بقعة من الطين، بالمشي على الطين ذهب ينظفها ويمسحها، لكن قلبه مملوء من البلاء ولكن لا يحرص على تنظيفه؛ لأنه لا يريد إلَّا الدنيا، تجده مثلًا في قصوره، لا يهتم إلَّا بإصلاح الجدر وتنظيفها، لكن بناء الدين لا يهتم به، هذا يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، ولا يؤتيه كل ما أراد، وكلمة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، هذه مطلقة، لكنها مقيدة، بما في سورة الإسراء في قوله - تعالى -: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾، لا ما يشاءُ هو، وقوله: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾، حتى أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - بيَّن أن المعجل تابع لمشيئته، وأن المعجل له - وهو الإنسان - تابع لإرادته، فقال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، انتبه، حتى لا تظن أن الآية فيها تكرار، ما نشاء هذا باعتبار المعجل، لمن نريد باعتبار المعجل له، فلا كل أحد أراد أن يعجل له، ولا كل أحد أراد شيئًا يحصل له ما أراد؛ لأن الأمر بيد الله - سبحانه وتعالى -، ولهذا يقول هنا: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، فإذا قال قائل: كلمة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، جواب الشرط، وهي تقتضي أن الله سيؤتيه منها، فنقول: إن هذا المطلق مقيد بآية سورة الإسراء في قوله - تعالى -: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: وهي الدنيا ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورًا﴾، نؤته منها [بلا تضعيف لما قسم له]،وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، - نسأل الله العافية - في هذه الآية حث على أن يريد الإنسان بعمله الآخرة، فإن قال قائل: كيف يريد الآخرة بعمل الدنيا ولنفرض الأكل والشرب، ذهب فلان إلى سوق ليشتري خبزًا وإدامًا، كيف يريد الآخرة؟ نقول: يمكن أن يريد الآخرة بذلك، فيريد أولا: امتثال أمر الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾، ويريد ثانيا: حفظ قوته وصحته، وهذا أمر مطلوب؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، وأمر أن نأكل من الطيبات ونشكره، يريد بذلك التَّقَوِّي على طاعة الله؛ لأنه كلما كان الجسم قويًا كانت العبادة أكمل، فيريد بأكله وشربه التَّقَوِّي على طاعة الله، ثالثًا: يريد بذلك التنعم بكرم الله، كيف ذلك؟ لأن الكريم يحب أن يقبل كرمه؛ لأنه لو أن فلانا أهدى إليك هدية يُسَرُّ إذا قبلتها ويُغَمُّ إذا رفضتها، إن الله - جل وعلا - أكرم الأكرمِين، فهو يحب من عباده أن يتبسطوا من نعمه، ويتنعموا بها.

إذن: هذه إرادة حرث الآخرة بعمل الدنيا أما عمل الآخرة المحض، كالصلاة والصيام والحج وما أشبه ذلك فهذا أمره واضح، إذن: السؤال - الآن - كيف يريد الإنسان حرث الآخرة بأمور

الدنيا؟ الجواب: أن ذلك ممكن، ونضرب مثلًا لهذا: بالأكل والشرب ويتبين لنا أربع إرادات كلها يثاب عليها الإنسان مع أنه لو تأمل المتأمل لوجد أكثر من هذا.

الفوائد

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** التحذير من إرادة الدنيا فقط؛ لقوله: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن مَنْ أراد حرث الدنيا فإنه لا يُعْطَى كل ما أراد، لقوله ـ تعالى ـ: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، ومَنْ أراد حرث الآخرة يعطى منها كل مراده وزيادة.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة بأن الأعمال بالنيات لقوله ـ تعالى ـ: ﴿يُرِيدُ﴾، ففيه إشارة إلى حسن النية وأن الإنسان ينبغي له إحسان النية بل يجب عليه إحسانها.

٤ ـ **ومنها:** الردُّ على الجبرية لقوله: ﴿يُرِيدُ﴾؛ لأن الجبرية يقولون: إن الإنسان ليس له إرادة، مثلًا: طبخ الطعام ليأكله فهل هذا ليس له إرادة؟ ـ سبحان الله ـ كيف لا يكون له إرادة، أحضر أدوات المنزل ليستعملها، قال: هذا ما هو إرادة، ليس بإرادته؟ ماذا تقولون في هذا الرأي؟ هذا الرأي مخالف للكتاب والسنة ومخالف للفطرة بل مخالف لأدنى فطرة، بل الصبي يعرف متى يجبر؟ ومتى يخير؟، قُدِّم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سارق فأمر بقطع يده، فقال: السارق مهلا يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت هذا إلَّا بقدر الله، أراد أن يردأ عنه الحدَّ، وقال أمير المؤمنين: ونحن لا نقطع يدك إلَّا بإرادة الله، فبهت ولم يستطع أن يقول شيئًا، مع أنه قطع يده كان بإرادة الله الكونية والشرعية، والسارق سرق بإرادة الله الكونية؛ لأنه لم يؤذن له بالسرقة، إذًا في الآية ردٌّ على الجبرية.

وهل في الآية دليل للقدرية؟ الذين ينكرون إرادة الله ويقولون: العبد مستقل بأفعاله، الجواب: لا، ليس فيها رد لقولهم ليس فيها إثبات لقولهم؛ لأن إرادة الإنسان من صفاته، فالعبد مخلوق، إذا: إذا كان مخلوقا كانت صفاته ـ أيضًا ـ مخلوقة، فإرادتك مخلوقة لله باعتبار أنك مخلوق، وصفة المخلوق مخلوقة.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** كمال سلطان الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾، وقوله: ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات كرم الله، وأنه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أكرم من عبده، يعمل العبد قليلًا ويثاب كثيرًا.

٧ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات الآخرة وإثباتها ثابت في القرآن والسنة وإجماع

المسلمين والنظر الصحيح يعني العقل:

أما الكتاب والسنة فمملوءان من إثبات اليوم الآخر، وأما الإجماع فهو ثابت، لا أحد من المسلمين ينكر الآخرة ومن أنكرها كفر.

وأما النظر الصحيح: فلقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، أرأيتم لو أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ خلق هذه الخليقة وأرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض الجهاد، وكان هذا يقتل هذا على دين الله ويسبي ماله ونساءه، ثم بعد ذلك كله لا قيامة ولا حساب ويكون الناس رِمَمًا لا يبعثون، فبماذا يسمى هذا العمل؟! عبث والله منزه عنه، ولولا إيماننا باليوم الآخر، لكان القوي منَّا يأكل الضعيف؛ لأنه لا يرجو حسابًا، ولكن العقل يقتضي ويوجب الإيمان باليوم الآخر.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أَنَّ مَنْ أراد بعمله الدنيا فإنه لا نصيب له في الآخرة، لكن هل هذا النفي نفي النصيب نفيًا كاملًا أو ليس له نصيب في الآخرة بهذا العمل الذي أراد به الدنيا؟ الثاني: لا شك، اللهم إلَّا إذا كان هذا العمل أو الإرادة مما يخرج عن الدين، فإنه لا نصيب له مطلقًا.

هل لو أراد الإنسان في دراسته أن ينال الشهادة هل يكون ممن أراد حرث الدنيا أو الآخرة؟ حسب ما في قلبه، إن كان أراد بالشهادة أن يرتقي في الدنيا إلى منصب دنيوي، فقد أراد الدنيا، وإن أراد بذلك أن يرتقي إلى منصب يتمكن به من نفع المسلمين بالتدريس أو بالتدبير فهذا أراد الآخرة، ولهذا لا فرق بين هذه المسألة كدنيا وآخرة إلَّا شعرة أو أقل.



قال الله تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]

التفسير

فقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، قال المفسر: أم بمعنى: [بل] أشار بهذا إلى أن (أم) هنا منقطعة، وأم المنقطعة هي التي تأتي بمعنى: بل وهمزة الاستفهام، أي: بل لهم شركاء.

وقوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾، قال المؤلف: [لهم لكفار مكة]، والصواب: أنها أعم من ذلك، يعني:

أن جميع المشركين له شركاء، جعلوهم مع الله - عَزَّ وَجَلَّ -، يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله، قال: [هم شياطينهم] وقوله: ﴿شَرَعُوا﴾، أي: [الشركاء] وقوله: ﴿لَهُم﴾، [للكفار]، وهنا قال: [للكفار]، وفيما سبق قال: كفار مكة، فتكون (أل) في كلامه للعهد الذكري، وقوله: ﴿مِّنَ الدِّينِ﴾، [الفاسد] وقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾، [كالشرك وإنكار البعث]، وهذا الاستفهام هنا بمعنى: الإنكار عليهم، أن يتخذوا هؤلاء شركاء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله.

وقوله: ﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ﴾، والمراد بالإذن هنا: الإذن الشرعي؛ لأن الإذن يكون قدريًا، ويكون شرعيًا فما يتعلق بالأمر والنهي شرعي، وما يتعلق بالخلق والتكوين قدري، فقوله - تعالى -: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، يحتمل الشرعي ويحتمل القدري، وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، بأن يأذن قدرًا أو يأذن شرعا.

وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهذا الإذن القدري؛ لأن الله - تعالى - لا يأذن شرعا، بأن يضر السحرة أحدا، وهنا وقوله: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾، أي: ما لم يأذن به شرعا، أما قدرًا فقد أذن به؛ لأنه وقع وكل شيء وقع، فإنه مأذون فيه قدرًا؛ لأنه لا يمكن أن يقع في ملك الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ما لم يأذن به قدرًا، ومِنْ تشريع ما لم يأذن به الله تحريم ما أحلَّ الله، أو تحليل ما حرَّم الله، ولهذا جعل الله - تعالى - هؤلاء الذين يحللون ما حرم ويحرمون ما أحل، جعلهم أربابا، كما في قوله - تعالى -: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، قال عدي بن حاتم للرسول ﷺ: إنَّا لسنا نعبدهم، فقال النبي ﷺ: «أَلَيْسَ يُحِلُّوْنَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّوْنَهُ، وَيُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُوْنَهُ» قال: بلى، قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»[1] يعني: طاعتهم.

[قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾، أي: القضاء السابق بأن الجزاء في يوم القيامة، وقوله: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، وبين المؤمنين بالتعذيب لهم في الدنيا، وقوله: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، (لولا) هذه يقول النحويون: إنها حرف امتناع لوجود، ما الذي امتنع في هذه الآية؟ القضاء بينهم، والموجود كلمة الفصل، واعلم أن (لولا)حرف امتناع لوجود، و(لما) حرف وجود لوجود، (ولو)حرف امتناع لامتناع، فاقتسمت هذه الأدوات الثلاث هذه المعاني الثلاثة، (لو) حرف امتناع لامتناع، تقول: (لو زرتني لأكرمتك)، هنا امتنع الإكرام لامتناع الزيارة.

---

(١) صحيح : رواه البيهقى فى الكبرى (٢٠١٣٧)، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣٢٩٣).

وتقول: (لما رأيتك أكرمتك)، هنا وجد الإكرام لوجود الرؤية، وتقول: لولا زيد لفعلت كذا وكذا هذا حرف امتناع لوجود وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾، وهي كلمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - السابقة التي قضى - عَزَّ وَجَلَّ - أن لكل شيء أجلًا مقدرًا، هذه الكلمة التي جعلها الله - عَزَّ وَجَلَّ - لكل شيء أجلا مقدرا، لولا هذه لقضى الله بينهم وبين المؤمنين لتعجيل العذاب لهم.

الفوائد

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مَنْ أطاع الزعماء والكبار في تحريم شيء أحله الله أو تحليل شيء حرمه الله أو إيجاب شيء لم يوجبه الله فإنه قد اتخذهم شركاء، ويترتب على هذه الفائدة، أن متبعي دعاة البدع قد اتخذوهم شركاء.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الأمور المشروعة لا بد أن يكون فيها إذن من الله، يعني: ما فعله الإنسان تدينًا لابد أن يكون فيه إذن من الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الله - تعالى - أنكر على هؤلاء الذين اتخذوا شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله وهذا بمعنى: قولنا: الأصل في العبادات المنع والحظر إلَّا إذا قام دليل على مشروعيته، وعليه: فلو رأينا شخصًا تعبَّد بعبادة لم نكن نعرفها، فلنا أن ننكر عليه حتى يأتي بدليل، أليس كذلك؟ بلى؛ لأن الدين متلقًّى من عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما سوى الأمور الدينية فإنه خاضع للأمور العادية، أو للأحوال العادية، لقوله: ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾، وعلى هذا لو شرعوا قوانينًا ونظمًا لا علاقة لها بالدين فإن ذلك جائز، ولا تعد موافقة هذه النظم شركا، فكيف إذا كانت هذه النظم تُؤَيَّدُ بالقواعد العامة وهي: جلب المصالح ودرء المفاسد؟

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الرد على أولئك القوم الجهلة الذين ينكرون كل نظام تسنه الحكومات بقطع النظر عن كونه أمرًا دينيًا أو أمرًا دنيويًا، وبقطع النظر عن كونه موافقا للشرع أو غير موافق للشرع؛ لأن بعض الناس يقول: أنا لا أتقيد بأنظمة المرور؛ لأنها ليس فيها دليل، وربما يقول: هذه بدعة، فيقال له:

أ - الأمور الدنيوية: الأصل فيها الحلُّ ولا يبدَّعُ مَنْ أتى بها خارجًا عن العادة لكن ينظر هل هي حلال أو حرام؟

ب - أن النصوص تدل على وجوب طاعة ولاة الأمر كقوله - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وقول النبي ﷺ: «اسْمَعْ وَأَطِعْ وَلَوْ أَخَذَ مَالَكَ وَضَرَبَ

ظَهْرَكَ»[١].

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - بتعجيل أو بتأخير العذاب لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾.

٦ - **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن ما قضاه الله أزلًا لا يتغير، يعني: في الماضي لا يتغير؛ لقوله: ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾.

فإن قال قائل: ما تقولون في قوله - تعالى -: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، هل يعارض ما قررناه من فوائد هذه الآية؟ الجواب: لا، لا يعارض؛ لأن الله قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، ثم قال: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، يعني: أصله، فما في أم الكتاب لا يتغير، وما لم يكن كذلك فإنه يتغير، أليس الله - تعالى - يقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، فالسيئات بعد أن كتبت أتت الحسنات فمحتها، فالإنسان يذنب فيكتب الذنب، ثم يستغفر فيمحى الذنب، وأما ما في أصل الكتاب فإنه لا يتغير، وعلى هذا فلا يعارض هذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

فإن قال قائل: ما تقولون في الحديث الصحيح: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ[٢] لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ[٣] لَهُ فِي أَثَرِهِ[٤] فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»[٥] فإن هذا يدل على أن صلة الرحم سبب لكثرة الرزق وسبب لطول العمر وأنتم تقولون: إن العمر مكتوب والرزق مكتوب؟

الجواب: الرزق مكتوب على هذا السبب، والأجر مكتوب على هذا السبب فيكون قد كتب الله أجل هذا مؤخرًا لصلة الرحم، ووسع في رزق هذا لصلة الرحم، ويكون هذا معلوما عند الله، لكن النبي ﷺ ذكر هذا ترغيبا في صلة الرحم؛ لأن الإنسان لا يعلم ما كتب له في المستقبل، وحينئذ لا منافاة، وأما مَنْ قال من العلماء: إن معنى (أن ينسأ له في أثره)، أن الله يبارك له في العمر هذا غير صحيح؛ لأنه خلاف ظاهر الحديث، فظاهر الحديث أنه يؤخر لكن يكون مكتوبا عند الله أنه واصل وأن عمره إلى كذا، لكن هل الإنسان يعلم أنه مكتوب عند الله هكذا؟ لا يعلم، فأراد النبي ﷺ أن يحث الإنسان على صلة الرحم بمثل هذا الوعد.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن

---

(١) حسن: انظر صحيح الجامع (٢٩٩٥).

(٢) يوسع.

(٣) يؤخر.

(٤) بقية عمره.

(٥) رواه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾، فالكلمة السبب لتأخير العذاب، وإثبات الأسباب أمر لا ينكره إلَّا الجاحد، واعلم أن الناس انقسموا في الأسباب ثلاثة أقسام:

* قسم أنكروا الأسباب نهائيًا، وقالوا: لا تأثير للسبب في المسبَّب.

* وقسم أثبتوا الأسباب على وجه الغلو، وزعموا: أنها مُوجِبَة ولابد.

* وقسم أثبتوا الأسباب ولكن جعلوا ذلك تابعا لمشيئة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ. وهذا القول هو المتعين، أننا لا ننكر الأسباب، وكيف ننكرها ونحن نشاهد هذا بأعيننا، هم يقولون: إن ما يحدث بالسبب، ليس حاصلا به، لكنه حاصل عنده، فمثلًا: إذا رميت بحجر على زجاج ثم انكسر، يقولون: إن الذي كسرها ليس الحجر، لكن كسرتها إرادة الله عند ملامسة الحجر.

إذن: حصل عند السبب لا بالسبب، عندما تُدْخِلُ ورقة في النار تحترق، يقولون: النار ما أحرقتها، إنما احرقتها إرادة الله عند ملامسة النار، هذا كلام غير معقول يضحك منه السفهاء قبل الحكماء، كيف نقول هذا ونحن نشاهد أن الحجر يقع على الزجاجة يكسرها كيف نقول لَمْ يكسرها؟ الإنسان لو اتكأ على زجاجة لقيل له: لا تتكأ حتى لا تنكسر.

وأما القول الثاني: الغالي في إثبات الأسباب والذين يقولون: إن الأسباب فاعلة ولا بد، أو موجبة ولا بد، هؤلاء ـ أيضًا ـ ضالون، فها هي النار العظيمة كانت على إبراهيم بردًا وسلامًا، ولو كان سببًا موجبًا بذاته ولابد؛ لأحرقت إبراهيم على كل حال، لكن الله قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، فكانت بردًا وكانت سلاما، قال العلماء: لو قال الله ـ تعالى ـ كوني بردًا ولم يقل: وسلاما، لأهلكت إبراهيم من البرد، لكن الله قرن البرد بالسلام، إذن: الآية التي معنا فيها ذكر الأسباب لقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

٨ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الوعيد الشديد للظالمين لقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾،

٩ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: ـ من فوائدها اللغوية ـ أن (أليم) تأتي بمعنى:مؤلم يعني: فعيل بمعنى: مُفْعِل، وهذا قليل في اللغة العربية، أكثر ما يأتي أليم في اللغة العربية تأتي بمعنى: آلِم بمعنى:فاعل، وهذا هو الأكثر، لكن قد تأتي فعيل بمعنى:مفعل، كما في هذه الآية، وكما في قول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَـــةَ الدَّاعِي السَّمِيـــعُ يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَـــابِي رُجُـــوعُ

فالسميع بمعنى: المسمع يقولها في معشوقته: الداعي المُسْمِع يؤرقني وأصحابي رجوع.



قال الله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤](١).

التفسير

قوله - تعالى -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أم هنا كما قال المفسر بمعنى:[بل]، ويسمونها أم المنقطعة؛ لأن (أم) تكون متصلة، وتكون منقطعة، إذا صارت بمعنى (بل) فهي منقطعة؛ لأنها تشبه الإضطراب عما سبق، وإذا كانت بمعنى: (أو) فهي متصلة مثل أن أقول: أتريد كتابًا أم ساعة، فهذه متصلة؛ لأنها بمعنى: (أو) ولا يستغني أحد الطرفين فيها عن الآخر، وإذا قلت: (أم يقولون افتراه)، لا تجد في مقابل، فهي منقطعة بمعنى: بل.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، أي: الكفار من مشركي قريش وغيرهم.

وقوله: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: اختلق على الله كذبًا وذلك بقوله: إن القرآن كلام الله، فقالوا: إن القرآن ليس كلام الله وإن محمدًا كاذب وساحر وكاهن ومجنون، وما أشبه ذلك من الكلمات التي يرمون بها رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾، مفعول يشأ محذوف ويقدر بما يدل عليه السياق، أي: إن يشأ الله أن تفتري عليه كذبا، - وهذا شيء محال -.

فقوله: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، قال المؤلف: [يربط]، والصواب: الختم هنا: بمعنى:الطبع، يعني: إن افتريت على الله كذبا، طبع الله على قلبك، ويمحو الله الباطل الذي افتريته لو قدر أنك افتريته.

وقوله - تعالى -: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، يحقه، أي: [يثبته] وقوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: [المنزلة على نبيه ﷺ] إنه عليم بذات الصدور [بما في القلوب].

المعنى الإجمالي: لو قدر انك افتريت على الله كذبًا فلن يتركك الله، لا بد أن يبين الحق، فيختم على قلبك - يطبع - عليه، ثم يمحو الله الباطل، ويحق الحق بكلماته، إنه عليم بذات الصدور، ويشبه هذا قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، يعني: إذا قرأ ألقى الشيطان في قراءته: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فإن يشأ﴾، هل يلزم من هذا الشرط الوقوع؟

(١) تفسير الآيتين: (٢٢، ٢٣) غير موجود - فيما لدينا من مصادر المادة -.

لا يلزم، يأتي الشرط أحيانا في أعظم المستحيلات، أرأيت قول الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، وهل يمكن أن يكون لله ولد؟ لا يمكن ومع هذا جاءت الشرطية وقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهل هذا يستلزم جواز إشراك النبي ﷺ؟ لا يستلزم، وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، هل يمكن أن يكون في شك؟، إذن (فإن يشأ الله) لا يلزم من هذا الشرط جواز افتراء النبي ﷺ على الله كذبا، ومن المعلوم أن الله ـ تعالى ـ شهد للنبي ﷺ بالرسالة، فقال: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾،وقال تعالى: ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بصاحبة الصدور، وما هي صاحبة الصدور؟ هي القلوب، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

الفوائد:

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** محاولة المشركين أن يلبّسوا على الخلق حتى ينكروا رسالة النبي ﷺ فيقولون: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، حتى يظن العوام أنه مفتر على الله كذبا فيعرضوا عما جاء به.

٢ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** بيان شدة منابذة الكفار لما جاء به النبي ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ لقوله: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٣ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** مثل هذا الكلام قدْحٌ في الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، قدْح في القرآن، قدح في النبي ﷺ، أما كونه قدحًا في الله؛ فلأنه ليس من الحكمة أن يؤيد الله ـ تعالى ـ هذا الذي افترى عليه كذبا، بل الحكمة أن يؤاخذه ويعاقبه ولا يؤيده، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أيد نبيه ﷺ بالآيات الدالة على صدقه، وقدحًا في القرآن؛ لأنه على زعمهم، كلام مفترى من عند الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولقد قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾، قدْحًا في الرسول ـ عليه الصلاة والسلام، بأن يُجْعَلَ أصدق الخلق في مقام المفتري على الله، والافتراء على الله أشد من الافتراء على غيره، ولهذا قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات المشيئة لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، وهل مشيئة الله مجردة عن الحكمة، أو لا يشاء شيئًا إلَّا بحكمة؟ الثاني لا شك لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فبين الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن له المشيئة التامة، وأردف ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ليتبين أن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة عبثًا

ولكن لحكمة.

٥ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن النبي ﷺ مربوب لله يفعل به ما شاء لقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

٦ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن القلب محل الإدارك والعقل والتصرف لقوله: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، فدل هذا على أن مدار التصرف كله على القلب.

٧ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: أن الطبع على القلب عقوبة سواء كان طبعًا على العلم، أم طبعًا على القصد والإرادة، فإنه عقوبة ولا شك، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ، اللَّهُمَّ يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا إلى طَاعَتِكَ»[1]، فالإنسان يجب ألَّا يعتمد على ما في قلبه من اليقين فإن هذا ربما يزول، بل عليه أن يسأل الله دائمًا التثبيت يؤخذ من قوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾.

٨ ـ ومن فوائد الآية الكريمة: حسن الأدلة في القرآن الكريم، حيث استدل بأمر واضح على ما زعمه هؤلاء، وهو أنه لو شاء الله أن يفتري الرسول ﷺ على الله كذبا لختم على قلبه، وأنساه ما عنده، ثم محا الله الباطل الذي افتراه، ثم أحق الحق بكلماته.

٩ ـ ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله ـ تعالى ـ لا يقر على باطل لقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾، فلا يمكن أن يقر الله ـ تعالى ـ على باطل، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة عظيمة: وهي ما فعل في عهد النبي ﷺ ولم نعلم أن النبي ﷺ اطلع عليه فهل نحكم بجوازه؛ لأن الله اطلع عليه وسكت عنه أو لا نحكم به حتى نعرف أن النبي ﷺ علمه؟ الأول؛ لأن الله لا يقر على باطل والوحي ما زال ينزل، ولهذا يخطئ بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ إذا استدل بما وقع في عهد النبي ﷺ يقولون: إن النبي ﷺ لم يعلم، فنقول: هب أنه لم يعلم، فإن الله قد علم، مثال ذلك، قال بعض أهل العلم: إنه لا يصح أن يكون الإمام متنفلا، والمأموم مفترضا، هذا هو المذهب عندنا فقيل لهم: هذا قول مردود؛ لأن معاذ بن جبل كان يصلى صلاة العشاء مع النبي ﷺ ثم يذهب إلى قومه فيصلي بهم تلك الصلاة في عهد النبي ﷺ، قالوا: لا حجة في هذا؛ لأننا لا نعلم أن النبي ﷺ اطلع عليه، فما الجواب؟ إذا لم يطلع رسول الله ﷺ عليه اطلع الله عليه ولو كان باطلًا لبيَّنه الله له، كما بين حال الذين يبيتون ما لا يرضى من القول ويكتمونه عن الناس فقال: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾، الذين قالوا: إن النبي ﷺ لم يعلم

(١) صحيح: رواه الترمذى (٢١٤٠)، وأحمد فى مسنده (١٢١٢٨) من حديث أنس رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٨٩٣٢).

به نقول: إن الله علمه، ولو كان باطلا لم يقره، على أننا نقول: يبعد عن النبي ﷺ أنه لم يعلم به، ومعاذ قد شكي إلى رسول الله ﷺ بأنه يطيل في الصلاة، ولكن نريد أن نتنزل مع الخصم ونقول: هب أن الرسول لم يعلم به فإن الله قد علم به.

١٠ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أنه لا يمكن أن يُمَكِّن الله - تبارك وتعالى - لأحد كافر تمكينا مطلقا لقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، فلا يمكّنه من الباطل، وقولنا: التمكين المطلق، خرج به ما لو مكن الله - تعالى - الكافر على وجه لا يستقر، كما حصل في غزوة أحد، فإن المشركين هزموا المسلمين لكنه ليست هزيمة مستقرةً بل هو من حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يمكّن للكفار، حتى يتشجعوا على حرب المسلمين ثم يَقْوَى المسلمون عليهم.

١١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله - تعالى - إذا محا الباطل جعل مكانه الحق؛ لقوله: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

١٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات الكلمات لله، لقوله: (لكلماته)والله - سبحانه وتعالى - متكلم بكلام حقيقي بحروف وأصوات مسموعة، ومحاورة بينه وبين مَنْ شاء مِنْ خلقه، وهذا مذهب السلف الصالح، وعليه جرت المحنة العظيمة على أئمة المسلمين من أمراء الجور والظلم وعلماء السوء، حيث ابتدعت الجهمية والمعتزلة القول: بأن الله لا يتكلم وإنما يخلق كلامًا، وكلامه مخلوق ويقال: لو قلنا: أن كلامه مخلوق لبطلت الشريعة؛ لأنه يستوي الأمر والنهي والخبر والاستخبار والقصص؛ لأنه مخلوق، لا يمتاز بعضها عن بعض، فهي باعتبار الصوت كزمجرة الرعد، وباعتبار الكتابة كنقوش الجدار؛ لأنه مخلوق، فحينئذ لا أمر ولا نهي ولا خبر ولا استخبار ولا شيء.

وتلطفت طائفة فلم تُوَفَّقْ وقالوا: إن كلام الله غير مخلوق لكن كلامه هو المعنى القائم بنفسه وما سمع منه، فهو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق، فانظر كيف ضلّت هذه الطائفة حتى صارت أشد ضلالًا من الذين قالوا: إن الكلام مخلوق، ما معنى كلامهم؟ يقولون: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه كما لو أنك في نفسك قدرت أن تتكلم بقول، ثم قلته، ثم يقولون: إن الله - تعالى - أضمر الكلام في نفسه، ثم خلق أصواتا تدل عليه، فيكون هذا الذي في المصحف، ليس كلام الله لكنه مخلوق خلقه الله ليعبر عما في نفس الباري، المعتزلة يقولون: إن الذي في المصاحف كلام الله مخلوق.

والأشاعرة يقولون: ليس كلام الله وهو مخلوق، فأيهما أقرب إلى الصواب، المعتزلة أقرب، وهؤلاء الأشاعرة يزعمون أنهم العقلاء، وأنهم حاولوا الجمع بين المنقول والمعقول، ولكنهم أفسدوا المنقول والمعقول.

نحن نقول: إن الله يتكلم بكلام مسموع وبحروف متتالية والله يفعل ما يشاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

١٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** عموم علْم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وبطون علْم الله أنه عِلْمٌ عميق يصل إلى أخفى شيء لقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

١٤ - **ومن فوائدها:** الفائدة المسلكية المهمة وهي: أن الإنسان إذا عَلِمَ أن الله عليم بما في قلبه فإنه سوف يمسك عن كل إرادة سيئة، ويُقْدِمُ على كل إرادة حسنة.

١٥ - **ومن فوائدها:** أنه يجب على العبد أن يُصحِّح ما في قلبه؛ لأن المدار عليه قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾، واعلم يا أخي أن الحكم في الدنيا على الظاهر، والحكم في الآخرة على الباطن فهل تُحسِّنُ ظاهرك، ليحكم عليك في الدنيا بما يقتضيه هذا الظاهر، أم تحسن باطنك ليحكم لك يوم القيامة بما يقتضيه هذا الباطن؟ الثاني، ولهذا لا تغتر بكثرة الركوع والسجود وبكاء العين وما أشبه ذلك، بل انظر إلى ما في القلب، وإن كانت هذه الأعمال التي ذكرتها علامة على صلاح القلب، لكن ثَبِّتِ الإيمان في القلب، عليك بإصلاح القلب قبل كل شيء، اغرس في قلبك محبة الله ورسوله، اغرس في قلبك محبة الشريعة وإن ثقلت عليك كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، اغرس في قلبك محبة المؤمنين، لا تكره أي مؤمن وإن أساء إليك، فإن أساء إليك المؤمن، فاكره إساءته، أما هو شخصيًا لا تكرهه، اغرس في قلبك الولاية لكل مسلم، والعداوة لكل كافر، ....وهلم جرا، المهم أن تعتني بصلاح قلبك؛ لأنه هو الذي عليه مدار الحساب يوم القيامة قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تختبر، - اللهم أصلح ظواهرنا وبواطننا يا رب العالمين -.

١٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مدار الحساب على القلوب، وأنها في الصدور وبها العقل قال - سبحانه وتعالى -: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾، وعلى هذا فيجب علينا أن نؤمن بأن العقل في القلب، فالآية صريحة أو ظاهرة، وأما قول بعضهم: إن العقل في الدماغ فضعيف مقابل بقول العالم الخالق - عزَّ وجلَّ -، وأصل العقل في القلب - لا شك -، قال الإمام أحمد - رحمه الله -: العقل في القلب، وله اتصال بالدماغ، ونروي عن شيخنا عبد الرحمن - رحمه الله -: أن أحد المعتزلة حكم عليه بالقتل على حين اختلاف بين الناس العقل في الدماغ أو في القلب؟ فقال لهم: إذا قتلموني، فأبينوا رأسي ثم إن كان العقل في قلبي حركت أصبعي وإن كان في الدماغ مات مع الدماغ ففعلوا، فلما قتلوه حركوا العضو الذي قال لهم على الوجه الذي قال لهم، فهذا دليل حسي

إن ثبتت القصة بأن العقل في القلب؛ لأنه حرَّك أصبعه أو يده على الوجه الذي قال لهم وهذا يدل على أنه استحضر بقلبه بعد أن بان رأسه فاستحضر في قلبه على ما قال لهم لما حركوا العضو، فإن ثبتت هذه القصة فإنها دليل حسي، وإن لم تثبت فعندنا دليل سمعي، والدليل السمعي هو ما ثبت في الكتاب والسنة.



قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥]

التفسير

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، الله - عَزَّ وَجَلَّ - يقبل توبة التائبين، بل ويحب توبة التائبين كما قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، فما هي التوبة ؟، التوبة: هي الرجوع من معصية الله إلى طاعة الله، وتقع كلية وجزئية، تقع كلية بأن يتوب الإنسان من كل ذنب ومنها توبة الكافر، فإنها كلية يمحو الله بها كل ما سلف من ذنبه كما قال - جل وعلا -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ويقول المسلم: اللهم إني أستغفرك من جميع الذنوب وأتوب إليك، هذه كلية.

أما التوبة الخاصة: أن يتوب من ذنب معين، كإنسان تاب من أكل الربا، ولكنه مصر على شرب الخمر - والعياذ بالله - فهذه توبة خاصة جزئية ما هي شاملة.

وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله. والثاني: الندم على ما فعلوا.

والثالث: الإقلاع عنه. والرابع: العزم على ألَّا يعود.

والخامس: أن تكون التوبة قبل غلق الأبواب.

الإخلاص: بأن يكون الحامل على التوبة خوف الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ورجاء التقرب إليه بألا يقصد بذلك دنيا، ولا جاها، ولا شيئًا من مخلوقات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، لا يريد إلَّا الوصول إلى رضا الله - عَزَّ وَجَلَّ - ودار كرامته، والإخلاص كما تعلمون شرط في كل عمل.

الثاني: الندم على ما مضى من الذنب، بحيث يشعر الإنسان بالحزن والتأثر كيف وقع منه هذا الذنب؟! والندم هو انفعال في النفس يحصل بفعل الإنسان وبغير فعله، لكن كلامنا في الندم في التوبة الذي يكون بفعله، بمعنى: يتأثر ويتحسَّر بأن وقع منه ذنب، ولا يكون حاله كحال مَنْ لم يذنب.

الثالث: الإقلاع عن الذنب، فإن كان معصية لمحرم فليجتنبه، وإن كان إفراطا في واجب فليفعله، وعلى هذا فمن زعم أنه تائب من الغِيْبَة، ولكن لا يدع فرصة تحصل فيها الغيبة إلَّا اغتاب، فهل نقول: إنه تائب؟ لا لم يقلع، كذلك مَنْ جحد مال شخص وأنكره وقال: إنه تائب، فلا بد أن يرد المال إلى صاحبه وإلَّا فلا تقبل توبته، ومن اغتاب شخصا، أي: ذكره في غيبته فلا بد أن يقلع عن ذلك ويتحلَّل صاحب الغيبة، يذهب إليه ويقول: سامحني حلِّلْني فقد قلت فيك قولًا قد تبت منه، فإن قال: إن ذهبت إليه أستحلَّه أخشى أن يظن الأمر أنه أكبر مما قلت، فتقع العداوة، فالجواب: وإن كان كذلك أنت أبرئ ذمتك، وكونه يترتب على ذلك عداوة، أو ما أشبه ذلك ليس إليك، إذا كان صاحبك لم يعلم بغيبتك إيَّاه، فهنا يكفي وتقلع عن غيبته في المستقبل وتذكره في المجلس الذي اغتبته فيه لما له من صفات حميدة.

الرابع: العزم على ألَّا يعود، بأن يقع في قلبه أنه لن يعود إلى هذه المعصية، فإن كان قد تاب ولكنه متردِّد، فيما لو تيسَّرتْ هذه المعصية أيفعلها أم لا؟ فالتوبة غير صحيحة، لابد أن يعزم على ألَّا يعود فإن عاد هل تبطل التوبة؟ فالجواب: لا تبطل، فالتوبة الأولى صحيحة لكن عليه أن يجدد التوبة للذنب الثاني، ولهذا كانت العبارة: العزم على ألَّا يعود وليست العبارة (بشرط ألَّا يعود) وبينهما فرق كبير.

الخامس: وما أعظمه أن تكون التوبة في زمن الإمكان، فإن فات الأوان لم تنفع، وفوات الأوان عام وخاص، أما العام: طلوع الشمس من مغربها، والخاص: حضور الموت، أما الأول: فدليله قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، فسر النبي ﷺ بعض الآيات أنها تطلع من مغربها وقال النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ، حَتَى تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ، حَتَى تَخْرُجَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1] أما الخاص: فهو حضور الأجل، فإنه إذا حضر الموت لم تقبل التوبة لقول الله - تعالى -: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ

(١) صحيح: رواه أبوداود (٢٤٧٩)، وأحمد فى مسنده (١٦٩٥٢) من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٦٩).

كُفَّارٌ﴾، الشاهد قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، وهذا الشرط يستلزم أن تكون التوبة على الفور بدون تأخير، ووجه ذلك؛ أنَّه لايعلم متى يأتيه الموت، فقد يموت واقفًا، أو على فراشه، أو على كرسيه، أو وهو ساجد، أو راكع، وحينئذ يتبيَّن أن التوبة واجبة على الفور، فاسْتَدْرِكْ أيها العبد نفسك إن كان في أمر بينك وبين الله، أو بينك وبين الخلق؛ لأنك لا تدري متى يأتي الموت.

الخلاصة: شروط قبول التوبة خمسة:

أولا: الإخلاص لله -عَزَّ وَجَلَّ-.

ثانيا: الندم على الذنب.

ثالثا: الإقلاع في الحال.

رابعا: العزم على ألَّا يعود.

خامسا: أن تكون التوبة في زمن الإمكان.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، قال المؤلف: [منهم].

فصرف المؤلف معنى (عن) إلى معنى (من)، وهذا مبني على ما سبق بأن حروف المعاني تتناوب، أي: تنوب بعضها عن بعض، ولكن إبقاء اللفظ على ظاهره أولى، ويكون (يقبل التوبة عن عباده) يتضمن معنى: يعفو عنهم، ويقبل التوبة عن عباده يعني: ويعفو عنهم، ونجعل (عن) على بابها، ويكون قوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، كالتوكيد لما سبق.

قوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، [المتاب عنها]، والعفو مأخوذ من قوله: عفا الأثر، إذا أخفته الرياح، وهو التجاوز عن العقوبة بالذنوب، والسيئات جمع سيئة وهو كل ما يسوء للإنسان فعله أو وقوعه، والمراد بالسيئات هنا: مخالفة الشرع، فكل ما خالف الشرع فهو سيئة سواء كان بترك واجب أم بفعل محرم.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يقول: [بالياء والتاء]، ما تفعلون وما يفعلون، أما على قراءة ما يفعلون فهي مطابقة للضمائر السبع، ويعلم ما يفعلون أي: ما يفعل العباد، وأما على قراءة التاء فهي من باب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وأسلوب الالتفات أسلوبٌ بلاغيّ، ويقصد به تنبيه المخاطب على ما سيلقى إليه، وذلك لأن الكلام على وتيرة واحدة، فإن الإنسان ينسجم معه، وربما يغفل عنه، وإذا اختلف وقف الإنسان، لماذا صار الأمر كذلك؟

الالتفات على قراءة وما تفعلون، هو التفات من الغيبة إلى المخاطب، والالتفات فن معروف في البلاغة، ومن فوائده: تنبيه المخاطب، انظر إلى قول الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، مقتضى السياق أن يقول: (وبعث منهم) لكن قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، فانتقل من الغيبة إلى التكلم؛ لأجل تنبيه المخاطب.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، علمه بما نعمل يشمل العلم بالأشياء الظاهرة والأشياء الباطنة، قد يعمل الإنسان ذنبا ظاهرا، يعلمه الناس ويعلمه الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وقد يكون خفيًا لا يعلمه الناس ولكن يعلمه الله - تبارك وتعالى -.

الفوائد

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** رحمة الله - تعالى - بعباده حيث حثهم على التوبة، وجهه في قوله - تعالى -: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، فإن هذا ليس مجرد خبر بأنه يقبل، بل هو حث من الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن نتوب إلى الله - نظير ذلك أن أقول: (مَنْ زارني أعطيته مائة درهم)، معنى هذا حث الناس على الزيارة، كل إنسان سوف يقبل على الزيارة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، حث الناس - بلا شك - على التوبة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** بيان كرم الرب - عَزَّ وَجَلَّ -، حيث يقبل التوبة عن عباده مهما كان الذنب، واقرأ قول الله - تعالى -: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، بل التوبة من الكفر مقبولة، والإسلام يهدم ما قبله مهما عظم حتى بِمَنْ سَبَّ الله، أو رسوله، ثم أسلم تقبل توبته لعموم الأدلة، وقد قال الله - تعالى -: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾، يعني: عن كفرهم وقوله: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، من الذنوب وإن عظمت لقوله: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، و(ما) اسم موصول يفيد العموم، حتى ولو قَتَلَ هذا الكافر ألف رجل مؤمن ثم أسلم تاب الله عليه، ولذلك إذا أسلم الكفار، وقد أتلفوا أموال المسلمين بالحرب، هل يضمنون أموال المسلمين؟ لا يضمنون؛ لأن الإسلام يهدم ما قبله.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** الإشارة إلى لطف الله - تبارك وتعالى -، حيث قال: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، كأنه - والله أعلم - لما كان عبيدًا له عاملهم بالرفق والعفو والتوبة.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله إذا تاب عن العبد عفا عن سيئاته مهما عظم، لقوله: ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات عموم علْم الله - تعالى - لكل ما نفعل؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يتفرع على هذه الفائدة التحذير من المخالفة وجه ذلك قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، يعني: فاحذروا أن تفعلوا شيئًا يغضبه، فإنه عالم بكم.



قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٦]

التفسير

قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قال المؤلف: [يجيبهم إلى ما يسئلون]، يستجيب بمعنى:أي: يجيب، مع أنه قد يتبادر إلى ذهن الإنسان أن معنى يستجيب: أي: يطيع، كما إذا قلت: دعوت فلانا فاستجاب لي، أن أطاعني، لكن هنا يستجيب بمعنى:يجيب، ودليل هذا التفسير، قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ) إذن، استجاب بمعنى: أجاب، ويستجيب بمعنى: يجيب، فماذا يكون إعراب (الذين)؟، الذين: مفعول به وليست فاعل، الفاعل ضمير مستتر يعود على الله.

قوله:﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، والإيمان والعمل الصالح يقرنا دائمًا؛ لأن أحدهما ملازم للآخر فكل مَنْ آمن حقا فسيعمل الصالحات قطعا، دليل هذه القاعدة، قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1].

ومعنى ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أي: آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وعرفتم أن أركان الإيمان قال عنها النبي ﷺ: «الإِيمَانُ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[2].

قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، (الصالحات) صفة لموصوف محذوف والتقدير: الأعمال الصالحات، فما ضابط العمل الصالح؟ أن يكون خالصًا لله، موافقا لشريعة الله، هذا يقع في أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لكن هل يقع في الأمم السابقة، الجواب: نعم، حين كانت الشرائع قائمة يقع منهم الإيمان والعمل الصالح.

إذن: ما ضابط العمل الصالح؟

أن يكون خالصًا لله موافقًا لشريعة الله، وقولنا: أن يكون خالصًا لله، احترازًا من الأعمال التي فيها شرك وليست بخالصة فهي ليست صالحة، وإن قل الشرك؛ لقوله ـ تعالى ـ في الحديث

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكِهِ»(١).

وعلى وفق الشريعة أن يكون خاليًا من البدعة، فإن كان فيه بدعة لم يكن صالحًا، حتى ولو كانت أجزاء هذه البدعة عملًا صالحًا فإنها إذا كانت بدعة لا تكون أعمالًا صالحة، يعني: لو أن أحدًا أحدث أذكارًا من القرآن، أو من السنة لكن على صفة لم تأت بها الشريعة، فإنها ليست عملًا صالحا، ولا يكون عملًا صالحًا إلَّا إذا وافق الشريعة في أمور ستة:

١-السبب. ٢- والقدر. ٣- والكيفية.

٤-والنوع. ٥- والزمان. ٦ - والمكان.

لابد أن يوافق الشريعة في هذه الأشياء الستة.

أولًا: السبب: بأن يكون هذا العمل مشروعًا لسبب معين، فلو أن إنسانًا أحدثه لسبب آخر لم يقبل منه ولم يكن صالحًا، مثال ذلك: نرى بعض الناس إذا قُدِّم إليه الطيب يقول: اللهم صل على محمد، هذا ليس عملًا صالحًا، فإذا قال قائل: كيف لا يكون عملًا صالحًا وأنا أصلي على النبي ﷺ، قلنا: ليس من هدي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه كلما يتطيب صلى على النبي، ولا أمر أمته في ذلك، إذن أنت ـ الآن ـ أثبتَّ سببًا غير شرعي.

ومن ذلك: أن بعض الناس تجشأ قال: الحمد لله، ومعنى تجشأ: خروج الريح من فوق، فتجد بعض الناس يقول: الحمد لله، نقول: وَمَنْ قال لك إنه يشرع عند التجشُّأ أن تحمد الله، إذن عملك غير صالح؛ لأنه غير مطابق للشريعة، ونقول: يلزم على قولك أنك إذا فسوت تحمد الله ولا دليل على هذا.

وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، هذه الجملة مستأنفة، لَمَّا ذكر ما يحصل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ذكر ما يحصل لضدهم؛ لأن القرآن الكريم مثاني تثنى فيه المعاني، فتذكر فيه الجنة ثم تذكر النار، يذكر المؤمن ثم يذكر الكافر، ويذكر العقاب ثم الثواب، وهَلُمَّ جرًّا.

وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، الكافر في الأصل: الجاحد، مأخوذ من الكفرى وهي وعاء لضلع النخل، ولكنه يطلق على كل مَنْ كفر بالله ـ تعالى ـ بجحد أو غيره، سواء كان جاحدًا مثل أن يجحد الرسالة أو القرآن، أو كان باستكبار عن دين الله مثل أن يجعل الصلاة بتركها كفر.

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، مبتدأ وخبر، والمبتدأ والخبر كلاهما خبر المبتدأ الأول وهو الكافرون، وجاءت العبارة بهذا الوجه للتأكيد على عذابهم ـ والعياذ بالله ـ وإلَّا لكان يكفي

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥)، وابن ماجه (٤٢٠٢)، وابن خزيمة في صحيحه (٩٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن يقال: والكافرون لهم عذاب شديد، ولكن الله - تعالى - قال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، الشديد القوي، وإذا أردت أن تعرف هذا، فاقرأ ما في القرآن والسنة من عذاب أهل النار.

لم نتكلم على قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، نقول: أي يعطيهم من فضله زيادة على ما عملوا، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قوله: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، أي: عملوا الأعمال الصالحة، ولا يكون صالحا إلّا إذا وافق الشريعة ولا يكون موافقا للشريعة إلّا بأمور ستة:

السبب الأول: الجنس، الثاني: بأن يكون مِنْ جنس ما جاءت به الشريعة، مثاله: لو أن أحدًا ضحى بفرس، فالفرس أغلى من الشاة غالبًا، فإن الأضحية لا تجزئ؛ لأنه ليس من جنس المشروع به؛ ولأن التضحية لا تكون إلّا من بهيمة الأنعام كالأبل والبقر والغنم قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾

الثاني: أن يكون مطابقا للشريعة في قدره، فلا يزيد على ما جاءت به الشريعة، ولهذا لو أن إنسانا زاد في الصلاة ركعة لم يكن عملًا صالحًا حتى وإن كانت الصلاة في الأصل مشروعة، لكنها في هذا الحال ليست مشروعة، فإن قال قائل: ماذا تقولون: لو أن الإنسان زاد في صلاة الليل على إحدى عشر ركعة، هل تكون الزيادة عملا صالحا؟ إذا قلتم: نعم، أشكل علينا قولكم لا بد أن تطابق الشريعة في قدرها، ومعلوم أن النبي ﷺ كان لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشر[1] ركعة، وربما صلى ثلاثة عشر ركعة؟

الجواب: أن صلاة الليل لم يرد فيها تحديد عن النبي ﷺ فلم يقل: لا تزيدوا على كذا، بل صلى هو إحدى عشر ركعة، وقال للذي سأله عن صلاة الليل قال له: « مَثْنَى مَثْنَى، فَإِذَا خَشِيتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِوَاحِدَةٍ تُوتِرُ لَكَ مَا قَدْ صَلَّيْتَ»[2] فقوله: «مَثْنَى مَثْنَى» بدون تحديد يدل على أن صلاة الليل لا حدّ لها، صَلِّ ما شئتَ مِنَ الركعات.

الثالث: أن تكون موافقة للشريعة في الزمان، فإن خالفت الشريعة في الزمان، فإنها لا تقبل مثال ذلك: رجل ضَحَّى وذبح أضحيته قبل صلاة العيد، فلا تصلح هذه الأضحية، ولهذا قال النبي ﷺ للذي أخبره أنه ذبح قبل أن يصلّي قال له: «شَاتُكَ شَاةُ لَحْمٍ[3]»[4].

الخامس: أن تكون مطابقة للشريعة في المكان، يعني: أنه إذا خَصَّ الشارع العبادة بمكان معين،

---

(١) رواه البخاري (١٠٩٦)، ومسلم (٧٣٨) من عائشة رضي الله عنها.
(٢) رواه البخاري (٤٦٠)، ومسلم (٧٤٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣)أي فليست أضحية وليس لها ثواب الأضحية بل هي كغيرها مما يذبح عادة للأكل.
(٤) رواه البخاري (٩١٢)، ومسلم (١٩٦١) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

فإن عبادته في هذا المكان ليست عملًا صالحًا، كالوقوف بعرفة، لو أن إنسانا وقف بمزدلفة بدلا من عرفة، فإن ذلك لا يصح؛ لأنه وقف في غير المكان الذي حدده الشارع ولو أن إنسانًا اعتكف في بيته فلا يصح؟ لأن الاعتكاف يكون في المسجد.

السادسة: أن تكون مطابقة للشريعة في هيئتها يعني: الكيفية، فلو توضأ إنسان فغسل يديه قبل وجهه، فالوضوء لا يصح؛ لأنه مخالف للشريعة في الهيئة، إن الله يقول: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. ولو صلَّى إنسان فسجد قبل أن يركع، ثم قام وركع، لم تصح الصلاة لعدم موافقة الشريعة في الهيئة.

هذه ستة أشياء لا يمكن أن تكون العبادة مطابقة للشريعة إلَّا إذا تحققت هذه الأشياء الستة.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الإيمان والعمل الصالح، وأنه سبب لإجابة الله - تعالى -.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله - تعالى - يعطي المؤمنين العاملين الصالحات أكثر مما عملوا لقوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وهذه الزيادة بينها الله - تعالى - في مواضع أخرى في كتابه فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وربما يقال - أيضًا - لزيادة أخرى غير العدد وهي: أنه يزيدهم من الإيمان والعمل الصالح؛ لأنه كلما عمل الإنسان عملًا صالحًا ازداد يقينًا، ولهذا كان من قول أهل السنة والجماعة أن الأعمال داخلة في الإيمان.

٣ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن كل ما ينال الإنسان من خير فبفضل الله، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يقطع عن نفسه الإعجاب، ويجب عليه ألَّا يقول هذا من عندي، أو أنا جدير به أو ما أشبه ذلك من الكلمات التي يفخر بها على الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من الكفر لقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾؛ لأنه ليس المراد من هذه الجملة الإخبار عن شدة العذاب بالكافرين ولكن المراد بيان هذا والتحذير من الكفر خوفًا من العذاب الشديد.

٥ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن الله - تعالى - ينذر الناس عن المعاصي والكفر بذكر العقاب، أخذ العلماء من هذا، أنه إذا ذَكَر الله - تعالى - عقابًا في عَمَلٍ من الأعمال دلّ على التحريم، وإذا ذَكَر ثوابًا في عَمَلٍ من الأعمال دَلّ ذلك على مشروعيته.



قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]

التفسير

وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، بسط بمعنى: وسع، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾، وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يضيق، فالبسط بمعنى: التوسيع، يعني: لو وسع الله الرزق للعباد لبغوا في الأرض.

وقوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾، قال المفسر: [لجميعهم]، يعني: لو كان كل الناس أغنياء وبسط لهم في الرزق لبغوا في الأرض، قال: [لبغوا] جميعهم.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، أي: طغوا فيها، وتجاوزوا حدودهم؛ لأن الجميع كانوا في رفاهية وفي رزق واسع، ولا رادع ولا اعتبار، وأيضا: لو بسط الله الرزق لجميع العباد لفسدت الدنيا؛ لأنه لولا هذا التفاضل بين العباد في الرزق ما خدم أحدٌ أحدًا ولا استقامت الأحوال، فلو كان الناس كلهم على حَدٍّ واحد في الغنى وطلبت من شخص أن يعمل لك فإنه لا يستجيب، لاستغنائه بما عنده، لكن الله ـ تعالى ـ فَضَّل بعض الناس على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا، هذا ما ذهب إليه المؤلف، لكن قد يقال: إن قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾، شامل للجميع أو للأطفال، فإن الإنسان إذا بسط الله له الرزق طغى واستغنى، ولذلك تجدون أكثر مَنْ يُكذِّب الأنبياء هم الملأ الأغنياء والكبراء، وأما الفقراء الضعفاء فالغالب هم الذين يتبعون الأنبياء فيكون المراد من قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾، المراد الجنس، يعني: لواحد من عباده لبغوا في الأرض.

وقوله: ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾، قال المؤلف: [ينزل بالتخفيف وضده]، وضده التشديد، يعني: يَنْزِلُ ويُنَزِّلُ، يَنْزِلُ من نَزَلَ، ويُنَزِّلُ مِنْ أَنْزَلَ.

وقوله: [بالتخفيف وضده]، اصطلاح المؤلف ـ رحمه الله ـ أنه إذا أتى بمثل هذا التعبير فالقراءتان سبعيتان، وكذلك لو قال: وفيه قراءة، فقراءتان سبعيتان، أما إذا قال: وقرئ، فالقراءة شاذة؛ لأنه أتى بها في صيغة التمريض، ـ انتبهوا للاصطلاح ـ هذا التعبير الذي معنا، بالتخفيف وضده على حد سواء، يعني: ساوى بين القراءتيْنِ، وعلى هذا فهما سَبْعِيَّتَانِ.

قال: [من الأرزاق]، بيان للمنزل، فالمضمر إذن (من الأرزاق)، ويدل على أن المضمر من الأرزاق قوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، أي: بتقدير مكتوب في الأزل، لا يتغير ولا يتبدل، ما يشاء، فيبسطها لعباده لبعض دون بعض، وينشأ عن البسط البغي إنه بعباده خبير بصير.

قوله: ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، هذه المشيئة - كما سبق - مقرونة بالحكمة، فمن اقتضت حكمة الله أن يغنيه أغناه، ومن اقتضت حكمة الله أن يفقره أفقره، وفي الحديث القدسي: «إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»[1] فالله - تبارك وتعالى - حكيم، وكم من إنسان رجع إلى الله - تعالى - بسبب المصائب، من فقر أو موت قريب أو موت صديق أو ما أشبه ذلك.

قوله: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾، قال المؤلف - رحمه الله -: [فيبسطها لبعض عباده دون بعض وينشأ عن البسط البغي] يعني: توسيع الرزق من البغي، هذا كالتعليل لكونه جواب ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾، بأنه ينشأ عن البسط البغي والطغيان والاستكبار عن العبادة والتكذيب بالحق.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾،

الجملة استئنافية تبين أن بسط الرزق وعدمه، ناشئ عن علم وخبرة، والخبرة أخصُّ من العلم؛ لأنها العلم ببواطن الأمور، ولكن نقول: إن العلم ببواطن الأمور يدل بالالتزام على العلم بظواهر الأمور من باب أولى.

قوله: ﴿بَصِيرٌ﴾، مأخوذة من الإبصار بالعين ومن البصيرة وهي العلم، قوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾، وهذا يعني: أنه يُضَيِّقُ على مَنْ شاء، وَيُوَسِّعُ على مَنْ شاء.

الفوائد

١ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن بسط الرزق وتضييقه من عند الله - وحده - لقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإن قال قائل: ألَّا يَرِدُ على هذا أننا نرى الرجل يعمل ويكدحَ وَيَتَّجِرُ فيزيد ماله؟ قلنا: لا يرد؛ لأن أصل عمله من عند الله، هو الذي أوقع في قلبه النية، وأقدره على العمل، فهو من فضل الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا وجه، وجه آخر: أننا نرى بعض الناس يكدح ويعمل ويتعب ولكن لا يُوَفَّق، كلما ضرب وجهًا، ازداد خسرانًا، فحينئذ ينتفي هذا الإيراد مِنْ أصله.

٢ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** الحذر من الترف وسعة الرزق، وجه ذلك أن الله -

---

(١) تقدم تخريجه.

تعالى - أخبر أن بسط الرزق سبب للبغي وهذا كقوله - تعالى -: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، وأخبر النبي ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا»، فليحذر الإنسان مما يُبسط له من الرزق، فلعل سقاءه يكون بسببه، - نسأل الله السلامة والعافية -.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** حكمة الله - تبارك وتعالى - فيما ينزل من الرزق؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُ﴾.

٤ - **ومن فوائد الآية الكريمة:** إثبات المشيئة لله - تبارك وتعالى - حتى فيما يحصل للعبد.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الإشارة إلى أن توسيع الرزق لشخص وتضييقه لآخر مبنيٌّ على خبرة وعلم لقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨]

التفسير

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، يُنْزِلُهُ من السماء، أي: ما يحصل به الإغاثة وهي: الإنقاذ من الشدة.

قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾، أي: ما قنطوا من قبل الإنزال، قال المؤلف - رحمه الله -: [الغيث المطر] ﴿من بعد ما قنطوا﴾، أي: [يئسوا من نزوله لتأخره عن وقته]، قالوا: إذن هذا العام ما في مطر، فينزل الله المطر وإنزال المطر على حين شفقة له وخروج من نزوله يكون أشد وقعًا في النفوس وأبين لرحمة الله - تعالى - وفضله.

قال: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥ﴾، [يبسط مطره]، هكذا قال المفسر، ولو كان المراد كما قال، لقال الله: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشره، ولكن الصواب: ينشر رحمته، أي: الرحمة التي تحصل بالغيث من نبات الزرع وسعة الرزق وغير ذلك مما ينشأ عن المطر، وقال بعض العلماء: ينشر رحمته، أي: يجعل السماء صحوا حتى تخرج الشمس، وفي هذا نظر، اللهم إلَّا إذا وصلت الأمطار إلى حَدٍّ يُخشى مِنْ ضررها، فحينئذ يكون انجلاء الغيم وخروج الشمس يكون رحمة، أما

مجرد خروج الشمس وانجلاء الغيث ليست برحمة، ولكنه بحكمة، نعم، نعلم أن الله ـ تعالى ـ أراد ذلك لحكمة.

وقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، فالمسألة أعم مما ذكر المؤلف، وهو الولي المحسن للمؤمنين الحميد المحمود عندهم.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ [المحسن للمؤمنين]، ففسر الولاية بالإحسان، والصواب: أن الولاية أعم، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾، أي: الذي يتولى أمور عباده، وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود على هذه الولاية بأنها ولاية رحمة وحكمة وعدل، فيحمد عليها، إذا كان الله ـ تعالى ـ هو الولي فإلى مَنْ يلجأ إذا ضاقت عليه الأمور، يلجأ إلى الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لأنه ولي، كما أن اليتيم يرجع إلى وليه في تصريف ماله.

وقوله: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، أي: الحميد على ولايته، وولاية الله ـ تعالى ـ تنقسم إلى قسميْنِ لا تخرج عنهما:

إما إحسان، وإما عدل، والثالث ممتنع وهو الظلم، فولاية الله ـ تعالى ـ لا تخرج عن هذيْنِ الأمرين يعني: الإحسان والعدل.

الفوائد

١ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة**: أن إنزال المطر بيد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ؛ لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن بإنزال المطر زوال الشدة؛ لأن الغيث هو: إزالة الشدة.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن الإنسان لا يصبر، طبيعة الإنسان أنه لا يصبر، فيستولي عليه اليأس والقنوط من رحمة الله، والذي يجب على المرء: ألَّا يقنط من رحمة الله كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، وقال عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، فالواجب عليك إذا مسك السوء، ألَّا تقنطْ، الواجب أن تصبر وتحتسب ودوام الحال من المحال، لكن الله ـ تبارك وتعالى ـ يذكر الشيء بحسب الواقع، لا بحسب ما ينبغي للإنسان، فعليه ملازمة الصبر، وانتظار الفرج.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أن نزول المطر رحمة، لقوله: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾، هذا على تفسير المؤلف، بأن المراد بالرحمة المطر، وقد ذكرنا أن الرحمة أعم من ذلك، وهي هكذا تشمل نزول المطر، ونبات الأرض، وكثرة التصرفات والحركات.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إثبات ولاية الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ لجميع الخلق لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾، ولم يقيد، واعلم أن ولاية الله ـ تعالى ـ نوعان: ولاية خاصة وولاية عامة:

أما الولاية العامة تشمل ولاية الله ـ تعالى ـ لجميع العباد مؤمنهم وكافرهم، بل برهم وفاجرهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، هذه عامة ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، هذه من الولاية العامة؛ لأن المراد بهم الكافرون.

أما الولاية الخاصة: هي التي للمؤمنين فقط، ودليلها قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

إذن: ما الفرق بين الخاصة والعامة؟

الفرق بينهما في المحل ظاهر، فالولاية العامة تشمل كل أحد، الولاية الخاصة للمؤمنين، كذلك الفرق بينهما ـ أيضًا ـ من حيث الأثر أو التأثير، أن الولاية الخاصة تستلزم توفيق الله ـ تعالى ـ للعبد بالهداية وغير ذلك والعامة لا تسلتزم ذلك، فإن الكفار الله وليهم بالمعنى العام، ومع ذلك لم يهدهم؛ لأن الحكمة تقتضي ألَّا يهديهم.

٦ ـ **ومن فوائد الآية الكريمة:** أن ولاية الله محمودة على كل حال، لقوله: ﴿ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، اقرن بين هذا وبين قوله ـ تعالى ـ: ﴿وهو الغني الحميد﴾، تجد التناسب التام، فالغني الحميد الذي يحمد على غناه، بحيث يُغْنِي به ما شاء والحميد الذي يُحمد على ولايته بحيث يختص بالولاية الخاصة من شاء، ويمنعها عمن شاء، ـ وعلى كل حال ـ فولايته حميدة، وغناه حميد ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

مسألة: هل يُستَفادُ من قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ألَّا يعطى الفقير؛ لأنه لو أعطي لكان هذا سوء أدب مع الله؟

الجواب: لا، هذا خطأ؛ لأن الله أمر المؤمنين بإعطاء الصدقات والزكوات للفقراء.



قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]

التَّفْسِيرُ

ومن قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، (مِنْ) هنا للتبعيض، وآيات جمع آية، وهي العلامة المعينة لما كانت له، أي العلامة التي تحدد الشيء وتعلمه يقال لها: آية من آيات الله، أي العلامات الدالة، على كمال قدرته - عَزَّ وَجَلَّ - وكمال سلطانه، خلق السماوات والأرض، فإنه لا يمكن لأي أحد أن يخلقهم، وسبق الكلام عن السماوات والأرض.

قوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾، [فرق ونشر] فيهما، أي: في السماوات والأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهي كل ما يدب على الأرض، قوله: ﴿وَمَا بَثَّ﴾، يعني: خلق ما بث، وبث بمعنى: فرق ونشر، وقوله: ﴿فِيهِمَا﴾، أي: في السماوات والأرض، وقوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: مما يدب على الأرض من الإنسان وغيره، فهو من آيات الله.

من آيات الله في هذه المخلوقات، أن الله - سبحانه وتعالى -: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

تجد الحيوانات وهي بُهْمٌ لا عقول لها، تجدها تكسب رزقها، وتذهب تطلبه، وتخزن ما تخزن منه، إن كانت مما تخزن له الأقوات، وتجدها تحن إلى أولادها، وترحم أولادها، وغير ذلك مما إذا تأملته عجبت من هذه المخلوقات البهم.

كذلك الطيور أعطاها الله - عَزَّ وَجَلَّ - قوة نظر بعيد، بدليل أنها ترى الحبَّ وهي في جو السماء، والآدمي لا يراها - بلا شك - لكن لما كانت الطيور لا تمشي على الأرض، يسر الله لها بصرًا نافذا قويا، حتى ترى الحبَّ وهي في جو السماء، فتنزل وتأخذها وتطير، إن ذلك من الآيات العجيبة، انظر مثلًا إلى النمل الصغير كيف يهتدي إلى جحره، وهو يأتي إليه من بعيد، ثم إنه يمشي على خط واحد شاهدناه بأعيننا، يمشي على خط واحد على البساط الذي ليس فيه أثر فتجده يصل إلى النهاية، وإذا به ينحرف على زاوية، كيف اهتدى هذا إلَّا بهداية الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وقد قيل: إنه كلما مشى فإنه يخرج منه شيء، أي: مادة فيشمها الآخر فيتبعه، هذا من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

تجد النمل وهو أكبر من الذَّرِّ يحرص على أن يأتي بزاده من بعيد، ثم يخزنه في جحر، وإذا أراد أن يخزنه أكل رءوس الحب من أجل ألَّا ينبت؛ لأنه لو أبقى من الحب رءوسه نبت وفسد عليه، فتجده يقطع أعلى الحبة وأسفلها حتى لا تنبت، ثم إذا جاء المطر وابتلت الأرض ووصل البلل إلى جحره تجده ينقل هذا الحب إلى الشمس والهواء حتى ييبس، مَنِ الذي عَلَّمَهُ؟ الله - عَزَّ وَجَلَّ - فهو من آيات الله، وما أحسن الاستعانة بقراءة كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن القيم - رحمه الله - هذا الكتاب ذكر فيه صاحبه عجائب، حتى ذكر فيه قصة، أن رجلا وضع طعامًا، لذرة من الذرات، حاولت الذرة أن تحملها فعجزت فرجعت إلى جحرها واستغاثت بأخواتها، فأقبلن إليه

يزفون، لما أقبلن عليه، نزعه - رفعه - من الأرض، جعلوا يبحثون فما وجدوا شيئا، وبقيت الأولى التي كانت قد دلت عليهم، فوضع الطعم، فلما تيقنته ذهبت إلى قومها فدعتهم، فلما أقبلن نزعه، فطلبنه فلم يجدن الطعم، فرجعن، ثم وضع الطعم للمرة الثالثة، فتأكدته هذه الذرة فرجعت إلى قومها تستدعيهم فلما أقبلن نزعها فلما طلبنه ولم يجدنه أكلن هذه الذرة نهائيًا قطعن أوصالها، يقول: فحكيت ذلك لشيخ الإسلام ابن تيمية متعجبًا منه، قال: نعم كل شيء مفطور على عقوبة الظالم الكاذب، وهذه كذبت عليهن وظلمتهن فلم يبق إلَّا أن تعدم؛ لأن الساعي في الأرض فسادًا يجب إعدامه، حتى الابن، لكن هل عليه دية هذه المقتولة؟ هو ظالم لها - نسأل الله أن يعفو عنه -.

على كل حال قصدي بذلك أن كل شيء هداه الله - عَزَّ وَجَلَّ - لما خلقه له، حتى الذر شاهدته أنا في حوض نخلة، لما سقيت النخلة دخل الماء من تحت الأرض إلى جحر الذر، فجعلت الذر تحمل بيضها الأبيض وبسرعة حتى أخرجته من الماء، من الذي هداها له؟ الله - عزَّ جلَّ، وآيات الله كثيرة ولهذا قال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾، فأتى بالماضي وأتى بالمضارع الدال على الاستمرار، قوله: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾، وهو كل [ما يدب على الأرض من الناس وغيرهم].

قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾، [للحشر] ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾، جمعه ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو على جمعهم، أي: جمع هذه المخلوقات، وقوله: ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ أي: إذا يشاء جمعه دل عليه السياق.

وقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾، أي: لا يعجزه شيء، يقول المفسر - رحمه الله -: [في الضمير تغليب العاقل]، الضمير يعني: في جمعه، تغليب العاقل؛ لأن الميم الدالة على الجمع لا تكون إلَّا في العقلاء، وأما غير العقلاء فيؤتى بنون النسوة، لكن هنا: أتى بضمير الجمع مع أن ما في الأرض من دابة أكثره غير عقلاء، لكن يقول المؤلف - رحمه الله -: [تغليب للعاقل].

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة:** بيان أن خالق السماوات والأرض هو الله؛ لقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولم يشاركه أحد في ذلك.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن هذه المخلوقات من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكن لا يتبين أنها من آيات الله إلَّا بالتأمل والتدبر بأن تفنى هذه المخلوقات، تفنى طلوع الشمس وغروبها، وطلوع القمر وأفوله، لم يكن ذلك محركًا لقلوبنا؛ لأنه شيء معتاد، ولكن لو أننا تدبرنا هذه المخلوقات، لتبين لنا أنها من آيات الله العظيمة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن من آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ - ما يبث الله - تعالى - في السماوات والأرض من دابة من الآدميين وغير الآدميين، فإن في كل منها آية تدل على كمال وحدانيته - عَزَّ وَجَلَّ - ورحمته.

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ظاهر الآية أن في السماوات دوابًا لقوله: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أما الأرض فالدواب فيها معلومة لنا، أكثرها معلوم لنا، أما السماوات ففيها دواب لكن لا ندري ما هي؟، إن قلنا: (الملائكة) صار هناك إشكال، وإن قلنا: غير الملائكة، فإن الله على كل شيء قدير؛ لأن الملائكة بين الله - تعالى - أنهم أولو أجنحة، فقال: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وذو الجناح يطير، وربما يكون يمشي أيضا، - على كل حال - نحن لسنا مكلفين إلَّا بما نفهمه من ظاهر الآية ولا تنجاوز ذلك، فنقول: ظاهر الآية الكريمة أن السماوات فيها دوابًا كالأرض، وإذا سألنا سائل، ما هذه الدواب؟ قلنا: إما الملائكة أو غيرها والله أعلم.

وقال بعض العلماء: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: في الأرض، كما في قوله - تعالى -: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾، إلى قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وزعموا أن ذلك لا يكون إلَّا في المالح، والصواب: أن الآية على ظاهرها، وأن البحرَيْنِ المالح والعذب كلاهما يخرج منه اللؤلؤ والمرجان وإن كان في أحدهما أكثر.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - بجمع هذه الدواب يوم الحساب، لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الرد على هؤلاء المنكرين للبعث الذين قالوا: ﴿أَئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، المنكرون للبعث يقولون: إن كنتم صادقين أرجعوا آباءنا، فيقال: إن الله - تعالى - لم يشأ ذلك، وسيشاؤه فيما بعد، وأنتم لم يقل لكم: (إنكم مجموعون اليوم) بل قيل لكم: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، أما تحديهم بما لا يلتزمه المتكلم فهذا مضيعة وقت في جدل.

٧ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تمام قدرة الله - تعالى -: في جمع هذه المخلوقات، فإن قيل: هل في الآية ما يدل على تقييد القدرة بالمشيئة؟ الجواب: لا؛ لأن المقيد بالمشيئة ليس القدرة، ولكن الجمع، وبهذا نعرف أن بعض الناس الذين يقولون: إنه على ما يشاء قدير، قد أخطأوا خطأً عظيما، وقيدوا ما أطلقه الله، فإنه - تعالى - قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، على ما يشاء ولا ما يشاء، وهؤلاء يقولون: إنه على ما يشاء قدير، فقدموا المعمول، وتقديم المعمول يفيد الحصر، إذن: هو قدير على الذي يشاء، وأما الذي لا يشاؤه فليس بقدير عليه وهذا خطأ عظيم، هو قادر على

كل شيء على الذي يشاؤه والذي لا يشاؤه، هل نَنْهَى الذين يقولون هذه الجملة: إن الله على ما يشاء قدير؟ نعم، ننهاه عن ذلك، ونقول، يا أخي قُلْ ما قالهالله : (الله على كل شيء قدير)، ولا تقل: على ما يشاء قدير .



قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]

التفسير

فقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، (ما) هذه شرطية جوابها: (فبما كسبت أيديكم)، وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، خبر المبتدأ المحذوف تقديره: فهو بما كسبت أيديكم.

قال المؤلف: [﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾، خطاب للمؤمنين﴿مِّن مُّصِيبَةٖ﴾، بيان لـ ﴿وَمَآ﴾، قال: [بلية وشدة]، وقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أي: كسبتم من الذنوب، لكنه عبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تزاول بها، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ منها، فلا يجازي عليه وهو ـ تعالى ـ أكرم من أن يثني الجزاء في الآخرة، أما غير المذنبين فما يصيبهم في الدنيا لرفع درجاتهم في الآخرة].

يقول الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ﴾، خَصَّ المفسر هذا بالمؤمنين ووجه التخصيص أنه قال: ويعفو عن كثير، والكفار ليسوا أهلًا للعفو.

وقوله: ﴿مُّصِيبَةٖ﴾، قال: [بلية وشدة]، ويشمل المصائب الدينية والمصائب الدنيوية، وأيهما أعظم؟ المصائب الدينية، فإنها أعظم من المصائب الدنيوية، فإذا قدر أن أحدًا أصيب بانتكاسة فهو أشد من أن يهلك أهله وماله، فإن المصائب الدينية أعظم بكثير من المصائب الدنيوية، إذ أن المصائب الدنيوية تزول وتنسى كما قال بعضهم:

إِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الكِرَامِ وَإِمَّا أَنْ تَسْلُو سُلُوَّ البَهَائِم.

لا بد أن تزول، أما المصائب الدينية ـ والعياذ بالله ـ خسارة في الدنيا والآخرة، فإن قال قائل: ما هو الدليل على أن الإعراض من المصائب ؟، الدليل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾، فتأمل أن الذنوب صارت سببا لإعراضهم، والإعراض مصيبة

عظيمة.

المهم: أن قوله: المصيبة يشمل المصائب الدنيوية كتلف المال وموت الأحبة، والخوف، والفقر، وما أشبه ذلك، وتشمل كذلك مصائب الدين كالمعاصي والبدع وكراهة الحق وكراهة أهل الحق وما أشبه هذا كله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، والمراد: بما كسبتم؛ لأنه قد يكون الكسب باليد ويكون الكسب بالرجل، ويكون الكسب بالعين، ويكون بالشم وباللسان، لكن عبر بالأيدي عن الكُلِّ؛ لأن أكثر ما تزاول الأعمال باليد، وقوله: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، يعني: يعفو عن كثير مما أذنبتم فلا يؤاخذ بها.

الفوائد

١ - **في هذه الآية فوائد:** إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وجه ذلك: أن الباء هنا للسببية، ففيه إثبات الأسباب، وإثبات الأسباب ثابت شرعًا وعقلًا وحسًّا، وإنكاره ضلال في الدين وسفه في العقل، أما ثبوت الأسباب في الشرع فكما رأيتم والأدلة على هذا لا تحصى سواء في القرآن أم السنة.

وأما ثبوته في العقل: فلأننا نعلم أن كل شيء حادث لابد أن يكون له سبب يحدثه، إما معلوم لنا، وإما مجهول، فالطفل لا يمكن أن يخرج على ظهر بطن أمه لا بد أن يكون له سبب لوجوده وبقائه، وكذلك كل الحوادث لا بد لها من سبب إما معلوم وإما مجهول.

أما الحس فظاهر أن للأسباب تأثيرًا لو أنك رميت زجاجة بحجر لانكسرت ما الذي كسرها؟ الحجارة، إذن: لها سبب، لو أوقدت على الماء البارد صار حارًّا، فهذا شيء حسي معروف.

يرى بعض العلماء مِنْ سفاهتهم: أن الأسباب ليس لها تأثير إطلاقا، - سبحان الله - نقول: أليست الزجاجة إذا رميتها بحجر انكسرت؟ قالوا: نعم، لكن حصل الانكسار عند وجود الرمي لا بوجود الرمي !!!، هكذا قالوا، وهذا خطأ كبير وجهل وسفه، بدليل أنك لو أتيت بأكبر حجر وضعته على الزجاجة وضعا ما انكسر.

قال الجهلة: لو أنك أثبت للأسباب تأثيرًا في المسببات لكنت مشركا بالله العظيم !!

أقول: أعوذ بالله أن أجعل مع الله خالقا، ولكن أقول: إن السبب يؤثر لا بنفسه ولكن بما أودعه الله من قوة والدليل على هذا: أن نار إبراهيم وهي نار عظيمة أحرقت، جمعوا حطبًا عظيمًا وأوقدوا عليه، حتى إنهم رموا إبراهيم بالمنجنيق؛ لأنهم لا يستطيعون أن يحوموا حول هذه النار من شدة حرارتها ماذا كانت النار؟ قال الله - تعالى -: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، إذن نحن نقول: إنها سبب يؤثر ولكن ليس بنفسه بل بما جعل الله فيه من التأثير.

هناك طائفة أخرى تطرفوا وقالوا: إن الأسباب مؤثرة بنفسها!! هذا هو الذي نقول إن فيه نوعًا من الشرك، وليست الأسباب مؤثرة بنفسها والدليل على ذلك: نار إبراهيم، ـ فعلى كل حال ـ نحن نؤمن بأن للأسباب تأثيرًا بما أودعها الله فيها من القوة المؤثرة، وأن هذه القوى لا تؤثر إلَّا إذا أراد الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ.

٢ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الإنسان يُجَازَى على كَسْ به بمثل كسبه؛ لأنه لو كان بما كسب، فلا بد أن يكون على قدْر ما كسب، فإن كان أزيد كان ظلمًا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يظلم أحدا.

٣ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** جواز التعبير بالبعض عن الكل؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، مع أنه يشمل ما كسبه الإنسان برجله، كمشيه إلى بيوت الدعارة والخمر وما أشبه ذلك، فإنه يُؤَاخَذُ عليه.

فإن قال قائل: هل كُلّ بعضٍ يجوز أن يُعَبَّرَ به عن الكل؟ فالجواب: لا، ولكن بشرط أن يكون لهذا البعض تأثير على الكل، فكسب اليد له تأثير ـ بلا شك ـ؛ لأن أكثر المال بها، أعتق رقبة المراد أن أضرب بصفحة رقبة العتيق، وأقول: أنت أيتها الرقبة عتيقة، هذا خطأ ولكن عَبَّرَ بالرقبة عن الكل؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش بدون رقبة، ولأن الرقبة محل القتل التي إذا فصلت عن البدن هلك الإنسان.

الخلاصة:

جواز التعبير بالبعض عن الكل بشرط أن يكون له أثر فيما عبر عنه به.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله يعفو عن كثير من الذنوب فلا يؤاخذ بها؛ لقوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، لكن هل هذا العفو مضمون؟ لا، غير مضمون والدليل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فلا يؤاخذ كالأمن من مكر الله أن تقول إن هذا الذنب مما عفا الله عنه!! فهذا غرور واغترار؛ لأن قوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، مقيد بقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قال المفسر: [وهو ـ تعالى ـ أكرم من أن يُثَنِّيَ الجزاءَ في الآخرة]، مراد المؤلف ـ رحمه الله ـ أن المصائب التي تصيبنا بذنوبنا لا نعاقب على ذنوبنا في الآخرة، تكفي المصائب هذا ظاهر الآية؛ لأن قوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، يدل على أن هذه المصيبة هي الجزاء، وإذا كانت هي الجزاء فلن يثني الله الجزاء في الآخرة؛ لأنه أكرم من أن يثني الجزاء، وهذا صحيح، أن ما أصيب به الإنسان في الدنيا فهو كفارة عن ذنوبه، إذا أقيم عليه الحد في معصية فيها حد فهو كفارة، إذا عذر على ذنب

ليس فيه حد فهو كفارة، إذا أصابته مصيبة من هذه الذنوب فهي كفارة، فلا يعيد الله عليه العقوبة في الآخرة إلَّا ذنبًا واحدًا وهو السعي في الأرض بالفساد قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فهذا مستثنى، وذلك لفداحة هذا النوع من الذنوب، فإن الفساد في الأرض ليس من الأمر السهل، فجعل الله هؤلاء المحاربين المفسدين في الأرض لهم عقوبتيْنِ، الأولى: العقوبة بقطع الأعضاء والثانية: العذاب في الآخرة إلَّا الذين تابوا.

قال المُفَسِّر: [أما غير المذنبين فما يصيبهم في الدنيا لرفع درجاتهم عند الآخرة]، هذا يوحي أن هناك أناسًا كثيرين غير مذنبين، وهذا عند التأمل فيه نظر؛ لأنه مَا مِنْ إنسان إلَّا ويصاب بذنب، حتى إن النبي ﷺ قال: «لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١)، وقال النبي ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»(٢)، وقال النبي ﷺ عن نفسه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ»(٣)، زَادَ ابْنُ السَّرْحِ: «عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ» وقال الله - تعالى - لنبيه يخاطبه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ﴾، فهل يمكن أن يجرؤ أحد فيقول: إن الرسول ﷺ لم يذنب والله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾،؟ لا يمكن، لا يمكن أن تقول: لا ذنب له حتى يَمُنَّ الله عليه بمغفرة ذنبه، نعم الرسل معصومون من شيء - ليس لغيرهم - وهو الاستمرار في الذنب، فهذا لا يمكن - إذن لابد أن يعفو الله عنهم إما باستغفارهم وتوبتهم إلى الله وإما بمنته عليهم، قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾، وقال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وهذه الآية عظيمة ترتب سير الإنسان ألَّا يتعجل في الأمور، هو عاتب نبيه؛ لأنه أَذِنَ لهم قبل أن يتبين له الأمر فما بالكم بغيره؟ وقال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾، نعم الرسل - عليهم الصلاة والسلام - معصومون من كبائر الذنوب، ومعصومون من الشرك، معصومون من سفاسف الأخلاق، أما المعاصي التي دون ذلك فإنهم

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩)، وأحمد فى مسنده (٨٠٦٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٥١)، والدارمى فى سننه (٢٧٢٧)، وأبويعلى فى مسنده (٢٩٢٢) من حديث أنس رضى الله عنه، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٥١٥).

(٣) رواه مسلم (٤٨٣)، وأبوداود (٨٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

غير معصومين منها ولكنهم معصومون من الاستمرار فيها، وهذا شيء ليس لغيرهم ـ نسأل الله تعالى ـ أن يجعلنا من أتباعهم والله على كل شيء قدير.

إذن: قول المؤلف: [أما غير المذنبين] غير مُسَلَّم؛ لأنه ما مِنْ أحد إلَّا ويذنب وعليه فإن كلام المؤلف غير وارد، نعم، نعلم أن هناك أناسًا تكون لهم ذنوب ولهم أعمال صالحة تُكفِّر هذه الذنوب، دون أن يصاب بمصيبة، هذا واقع كثيرًا، حكى رجل للنبي ﷺ: عن امرأة وأصاب منها ما يصيب الرجل من امرأته غير أنه لم يَزْنِ بها قال: أشهدتَ معنا صلاة الفجر قال: نعم، قال له: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(١) فصلاة الفجر محتِ السيئات، وكذلك قال النبي ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لَمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرَ»(٢).



قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١]

التفسير

فقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾، (ما) نافية، وهي تعمل عمل (ليس) على لغة الحجازيين، والقرآن الكريم نزل بلغتهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿أَنتُم﴾، اسمها، و ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾، خبرها، لكنه اقترن بالباء الزائدة إعرابًا، غير الزائدة معنى، يعني: أنها من حيث الإعراب زائدة، لو حذفت لتمَّ الكلام بدونها، ولكنَّها من حيث المعنى غير زائدة، بل هي مفيدة، وفائدة حروف الزيادة: هي التوكيد، كلما جاءك حرف زائد فهو لتأكيد العموم.

يقول: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: بمعجزين الله ـ تعالى ـ إذا طلبكم فلن تعجزوه في الأرض، وقول المفسر رحمه الله: [بمعجزين الله هربًا].

هذا كالمثال وإلَّا المعنى أعم مما قال، أي: بمعجزين الله هربًا وبمعجزين الله اختفاء، وبمعجزين الله إعجازًا وما أشبه ذلك، الإنسان بالنسبة للإنسان إذا هرب منه ربما يعجزه، ويكون

---

(١) رواه البخاري (٥٠٣)، ومسلم (٢٧٦٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٣٣)، وأحمد في مسنده (٩١٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أسبق منه، ربما يعجزه إذا اختفى عنه في جدار، أو مغارة، أو شجر، أو ما أشبه ذلك، فهل هذا الإعجاز الذي يكون من الإنسان إلى الإنسان هل يكون مِنَ الإنسان لله؟ لا؛ لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يمتنع على قدرته شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا كالوعيد لهؤلاء، وما لكم من دون الله، أي: [غيره] من ولي ولا نصير.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُم﴾: (ما) هذه نافية، ولا نقول: إنها حجازية؛ لأن من شرط عملها عمل (ليس)، والترتيب أن يكون الاسم هو المقدَّم، وهنا الخبر هو المقدّم، وعليه تكون نافية غير عاملة، وقوله: ﴿مِن وَلِيّ﴾، (مِنْ) هذه زائدة لتوكيد النفي، وقوله: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾، [يدفع عذابه عنكم]، من ولي يتولاكم، ويحسن ولايته، ولا نصير يدفع عنكم، فليس هناك ولي يتولاكم من دون الله ولا نصير يدفع عنكم هذا العذاب، بل أنتم في قبضته - سبحانه وتعالى - أينما كنتم.

الفوائد:

١ - **من فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد المشركين بعذاب الله وأن الله إذا أراده لم يعجزه.

٢ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب خوف الله - تعالى - ورقابته؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - إذا أراد أن يُعذِّبَ العاصي فلن يخفى عليه.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أنه ليس أحد يقوم بتولِّي هؤلاء المكذبين وينصرهم من دون الله، وعلى رأس هؤلاء الأصنام، فالأصنام لا تنفعهم، بل هي إن كانت عاقلة تتبرأ منهم لربها، وإن لم تكن عاقلة فهي وإياهم حصب جهنم، كما قال - عَزَّ وَجَلَّ - في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٥]

التفسير

فقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾، (مِنْ) للتبعيض، وآياته: علاماته الدالة على رحمته وقدرته وحكمته، وقوله: ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، مبتدأ مؤخر، ولكنها معربة بتقدير الضمة على الياء المحذوفة

للتخفيف، وأصل الجوار، الجواري بالياء، جمع: جارية، والجارية: هي السفينة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: هذه السفن في البحر على الماء،قوله: ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾، كالجبال في العِظَم، هذه السفن العظيمة المحملة بالأموال والأناسي والحيوان من آيات الله وأن تكون في هذا البحر المتلاطم تمشي على الماء، إن ما فيها من الأرزاق لا شك أنّه من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ،وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، هذه أدنى عقوبة أن يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره؛ لأن السفن الشراعية تمشي حسب الرياح؛ لأنها تعتمد في سيرها على شراع طويل يوضع عليها فإذا اصطدمت به الرياح سارت، فإذا سكنت الرياح وقفت ولهذا قال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾، أي: الجواري ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: على ظهر البحر، وحينئذ تتعطل المصالح، وربما تأتي ريح عاصف تقصف بالسفينة فتغرقها، فالأحوال إذن ثلاث:

إما رياح طيبة تسير بها السفينة على ما ينبغي، وإما رياح عاصفة تُغرِقُ السفينة، وإما سكون تقف رواكد على ظهر البحر، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يُبيِّنُ: أن من آياته سير هذه السفن.

[وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾، يصرن، وقوله: ﴿رَوَاكِدَ﴾، ثوابت لا تجري]، وقوله: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: ظهر البحر.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، أي (مِنْ آياته) ثم قال: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾؛ لأن التبعيض بعض الشيء فإذا كان الشيء ألفًا فبعضه قد يكون مائتين أو ثلاثمائة، وإذا كان الشيء اثنين فالبعض واحد فالسفن كثيرة لا تُحصَى ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾، باعتبار السفن الكثيرة التي تجري في البحر، وربما يكون باعتبار السفينة الواحدة مما يشاهده ركابها في البحر من الآيات العظيمة الدّالة على كمال قدرة الله، ولهذا يحدثنا الذين يذهبون للبحر لاصطياد السمك، يحدثوننا عن عجائب مما يشاهدون من السمك باختلاف أنواعها، واختلاف ذواتها كبرًا وصغرًا وشكلًا؛ مما هو من أعظم آيات الله.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، صبَّار: صيغة مبالغة، أي: كثير الصبر،وقوله: ﴿شَكُورٍ﴾، كثير الشكر، فما وجه الجمع بين الصبر والشكر؟ وجهه ظاهر، أن هذه السفن إن جرت على ما ينبغي، فوظيفة الإنسان الشكر، وإن جرت على ما لا ينبغي، فوظيفته الصبر، فالصابر والشاكر، كلاهما سيرى من آيات الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ من هذه السفن، ما يجعله موقنًا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير وأنه رحيم بالعباد، وغير ذلك مما سيراه.

قال: [هو المؤمن يصبر في الشدة ويشكر في الرخاء]، وقد يقال: المؤمن والكافر، ولكن الكافر يصبر ولا يشكر، المؤمن يصبر ويشكر؛ يصبر في موضع الصبر ويشكر في موضع الشكر، الكافر يصبر في موضع الصبر ويتحمل، ولكن لا يشكر في موضع الشكر، وإنما يزداد بطرًا وأشرًا.

وقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ [عطف على يسكن، أي، يغرقهن بعصف الريح] هذا قسم ثالث، إن يشأ يسكن الريح، وإن يشأ يوبقهن، أي: يغرقهن.

وقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، أي: بسبب كسبهم، فما هو الكسب الذي يؤدي إلى العقوبة؟ المعاصي، وذلك بترك الواجبات أو بفعل المحرمات.

وقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، ليست معطوفة على يسكن؛ لأنه يفسد المعنى إذ يكون المعنى (إن يشأ يسكن، أو يوبق أو يعفو عن كثير) وهذا فاسد، ولكن المعنى: يوبقهن بما كسبوا ويعفو جملة استئنافية لكن حذفت الواو للتخفيف: والمعنى أن الله ـ تعالى ـ يعفو عن كثير من الذنوب فلا يعاقب عليها، ويعفو عن كثير منها فلا يغرق أهلها.

وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، قال المؤلف: [بالرفع مستأنف وبالنصب معطوف على تعليل مقدر، أي: يغرقهم لينتقم منهم ويعلم].

أولا: فيها قراءتان، ويعلمُ ويعلمَ، على قراءة الرفع الواو استئنافية تقديره: (وهو يعلم الذين يجادلون)، وعلى قراءة النصب وَجَّهَهَا المؤلف بأنها معطوفة على تعليل مقدر، أي: (يغرقهم لينتقم منهم ويعلم).

تجد أن الكلام لا يتناسب إلَّا إذا قدر ما يناسبه المقدر على كلام المؤلف، أي: يغرقهم لينتقم منهم، أي: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، أي: [مهرب من العذاب]،وقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ﴾، (الذين) فاعل.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَ﴾، المجادلة هي المناظرة والمخاصمة: مأخوذة من الجدل وهو الفتل، يقال: جدل الحبل أي: فتله، وسمي المناظر مجادلا؛ لأن كل واحد من المتناظريْنِ يفتل حجته لتقوى على حجة الآخر، هذا أصل المجادلة وهي المنازعة والمخاصمة.

وقوله: ﴿فِي آيَاتِنَا﴾، ليثبت الباطل ويبطل الحق، كأن مجادلة المشركين للأنبياء قصدهم إبطال الحق الذي جاءت به الرسل، وإثبات الباطل الذي هم عليه.

وقوله: ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، (ما) نافية وهل تصح أن تكون هنا حجازية؟ لا يصح لعدم الترتيب لتقدم الخبر، إذن: ما مجرد النفي لا تعمل، ومحيص مبتدأ مؤخر دخلت عليه (مِنْ) الزائدة.

والمحيص: المهرب،وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، [مهرب من العذاب، وجملة النفي سدت مسد مفعولي يعلم، والنفي معلق عن العمل]، هذا جواب سؤال مقدّر، وهو أين؛ لأن يعلم من أفعال القلوب التي تنصب المبتدأ والخبر، يعني: أنها من أخوات (ظن) تنصب مفعوليْنِ، أين المفعولان؟

يقول المؤلف - رحمه الله -: إن عملها معلق بالنفي، فجملة النفي سدت مسد المفعولين، وهذا جعل من درس النحو؛ لأن أفعال القلوب إما أن تعمل، وإما أن تعلق، وإما أن تلغى، إذا ألغيت بطل عملها في المحل واللفظ، وإذا علقت بقي عملها في المحل دون اللفظ، وإذا عملت، عملت باللفظ والمحل.

الفوائد:

١ - **في هذه الآية الكريمة فوائد:** التهديد بإغراق السفن؛ لقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾، وقد علمتم قبل قليل أن الرياح بالنسبة للسفن تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

ريح مناسبة طيبة، وريح عاصفة مدمرة مغرقة، وريح ساكنة تبقى السفينة راكدة على ظهر البحر.

٢ - **ومن فوائد الآية:** التهديد بإغراق السفن بالمعاصي.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** التحذير من المعاصي وأنها سبب للعقوبات؛ لقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾،

٤ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الله - سبحانه وتعالى - يعفو عن كثير من السيئات فلا يعاقب عليها لقوله: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾، حتى مع إغراق السفن يعف الله - تبارك وتعالى - عن كثير.

٥ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** تهديد أولئك العصاة بأنهم ليس لهم مهرب من الله - عَزَّ وَجَلَّ - لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾.

٦ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** ذم المجادلة لإبطال الحق؛ لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾، أما المجادلة لإثبات الحق فإنها واجبة، حيث كان الإنسان يجيدها ويحسنها، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، فالمجادلة لإثبات الحق وإبطال الباطل واجبة، لكن بشرط أن يكون عند الإنسان علم بما يجادل به، فإن لم يكن له علم فالواجب ألَّا يجادل؛ لأنه إذا جادل لإثبات الحق بدون علم فقد تنعكس القضية عليه، يُورَدُ عليه من الشبهات ما لا يستطيع دفعه، وحينئذ ينقطع، وانقطاع المجادل بالحق ليس ضرره على نفسه بل هو على نفسه وعلى الحق الذي يجادل من أجله، وهل المجادلة تحصل بالغريزة أو بالتمرن؟ الجواب: بهما جميعًا فقد يعطى الإنسان قوة حجة وقريحة وسرعة إجابة وهذا من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وقد يكون قليلًا من هذه الناحية في أصل خلقته، ولكن مع المجادلة يتمرن، ولهذا كان بعض أهل العلم، إذا أراد أن يحرر مسألة

ويثبتها فرغ نفسه مع مجادل، فيورد على نفسه إشكالًا، ثم يجيب عنه، ثم إشكالًا، ثم يجيب عنه، حتى يتمرن على المجادلة ويذكر أن عاميًّا يجادله نصراني، يقول له: أنتم أيها المسلمون ظلمة، قال: بم؟ قال: لأنكم تجيزون أن تتزوجوا منَّا ولا تجيزون أن نتزوج منكم؟ إذا جاء هذا الإيراد على شخص لا يعرف المجادلة لعله يقول: نعم صحيح !! فقال العامي: إنا نؤمن برسولكم ولا تؤمنوا برسولنا آمنوا برسولنا نزوجكم.

هذه حجة صريحة لا شك، فإذا كانت صحيحة من عامي كان هذا دليلًا على أن المجادلة تكون غريزة وتكون بالممارسة والتمرن.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة**: أنه لا مفر لمن حاد الله ورسوله من عقوبة الله، لقوله: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ومن المعلوم أن (يعلم) تنصب مفعولَيْنِ، فأين مفعوليها؟ ولكنها هنا معلقة.



قال الله تعالى:

﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]

التفسير

وقوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ يعني: أي شيء أوتيتموه من زخارف الدنيا وقوله: ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَمَتَاعُ﴾، الفاء رابطة للجواب، جواب الشرط وهو قوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأن (ما) هنا شرطية، و(مِنْ) بيان لها، وجملة (فمتاع) هذه جواب الشرط، وعلى هذا فنقول: إن (متاع) خبر لمبتدأ محذوف والتقدير: فهو متاع، قال المؤلف: [يتمتع بها ثم يزول].

وقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ....﴾، (ما) هنا اسم موصول بمعنى:الذي، و(خير) خبر المبتدأ، (وأبقى) وصفه الله بوصفَيْنِ مهمين جدًّا، الأول: أنه خير، والثاني: أنه أبقى؛ لأن ما في الدنيا: هو متاع زائل منغص لا يكاد يمر بك أسبوع إلَّا وجدت التنغيص، وهذا على حد قول الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ... وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَر

أما الآخرة فهي خير، خير محض ليس فيه شر وأيضًا أبقى، يعني: أدوم، وقوله: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٌ﴾، يزول سريعا بخلاف متاع ما عند الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وقد سأل جبريل النبي ﷺ عن الإيمان فقال له: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1] إذن آمنوا بما يجب الإيمان به، هذه العبارة تشمل كل شيء.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، قدم المعمول لإفادة الحصر والعناية به، وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، الرب هو الخالق المالك المدبر، وقوله: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون وَيُفَوِّضُونَ أمرهم إليه ـ تبارك وتعالى ـ، والتوكل فسره بعضهم بأنه: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله ـ تبارك وتعالى ـ، صدق الاعتماد على الله، يعني: أن تعتمد على الله اعتمادًا صادقا لا تلتفت لسواه في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، يعني: تعتمد على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وأنت واثق بأنه حسبك وسيعينك، والتوكل على الله نصف الدين، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، إذ لا يمكن للإنسان أن يأتي بشرائع الإسلام إلَّا بالتوكل على الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ والاعتماد عليه، انظر إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وإلى قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾، تجد أن الله ـ تعالى ـ قسم الدين إلى قسمين، عبادة واستعانة.

الفوائد

١ ـ **من فوائد هذه الآية الكريمة:** ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، يقول المفسر: [للمؤمنين وغيرهم] ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾، قال: [من أثاث الدنيا] فما متاع الحياة الدنيا؟ فما عند الله خير وأبقى].

وقوله: ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾، (مِنْ) هذه بيانية، بل هي زائدة لبيان العموم، أي: أي شيء تؤتونه من أمور الدنيا فإنه متاع الحياة الدنيا، وقوله: [الخطاب للمؤمنين وغيرهم]، صحيح؛ لأن هذا يخاطب به المؤمن والكافر؛ فالكافر يتمتع بالدنيا، ولكن هؤلاء الكفار يتمتعون كما تتمتع الأنعام والنار مثوى لهم، والمؤمن يتمتع بالدنيا، ولكنه إذا قام في عمل الآخرة صار نعيمهم في الدنيا وفي الآخرة، وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا، يتمتع به فيها ثم يزول، هذا هو الواقع، أن متاع الحياة الدنيا يزول أو يزال عنه، يعني: إما هذا وإما هذا.

لو قدر أن الإنسان يبقى غنيًا صحيح الجسم آمن المقام أليس من الجائز أن يمرض هذا؟ بلى، فيكون متاعًا قد زال، فإن لم يزل عنه زال الإنسان عنه، من الذي مُتِّعَ أبد الآبدين؟ لا يوجد، قال

(١) تقدم تخريجه.

الله - تعالى -: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (ما) هذه اسم موصول مبتدأ، و(خير) خبره، وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خير من متاع الدنيا في ذاته ونوعه وكلِّ متعه، وأبقى، أي: أدوم؛ لأن متاع الدنيا يزول، فنعيم الآخرة جمع بين الوصفين أنه خير وأنه أبقى، والإنسان لا يريد إلَّا هذا، لا يريد إلَّا الأكمل والأبقى حتى لا يزول عنه، لكن لمن؟ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، واعلم أن مثل هذه العبارة وردت على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يخاطب بها الشخص بعينه، فيقال له: إن الآخرة خير لك.

والثاني: أن تأتي مقيدة بأوصاف محبوبة مرغوبة.

والثالث: أن تأتي مفردة اسمع إلى قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - لنبيه ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾، فالآن نشهد بأن الآخرة خير للنبي - صلى عليه وسلم - من الأولى، هذا خطاب لشخص معين.

أما المقيد بأوصاف كالآية التي معنا، ومثل قوله - تعالى -: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾، وهذه مقيدة بأوصاف، الثالثة: مطلقة كقوله - تعالى -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، لكن هذا المطلق يُحْمَلُ عَلَى الْمُقَيَّد، أو يقال هذا باعتبار وصفه لا باعتبار مَنْ يحصل له، فيقول: من حيث الجملة الآخرة خير وأبقى، أما من حيث التفصيل، فيفصل كل موضع بحسبه، يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾، إلخ.

٢ - **ومن فوائد الآية:** التزهيد في الدنيا، وأنها زائلة.

٣ - **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** إنذار الكفار بأن ما هم فيه من النعيم، ليس بشيء بالنسبة لنعيم الآخرة، وذكر أهل التاريخ أن «ابن حجر» - رحمه الله - صاحب «فتح الباري» كان قاضي القضاة في مصر، فمر ذات يوم برجل يهودي زيات، يعني: يعمل في الزيت، كل ثيابه متسخة وفي تعب شديد، فمر ابن حجر - رحمه الله - وهو قاضي قضاة مصر بمركبه تجره الخيول أو البغال وفي أبهة، فأوقفه اليهودي فقال اليهودي: ما تقولون في قول نبيكم: «إن الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»[1]، كيف يتفق هذا مع الحال الذي نحن عليها الآن، أنت مؤمن وفي هذا النعيم !! واليهودي كافر وهو في هذا العناء، كيف يتفق؟

فأجابه «الحافظ ابن حجر» بجواب على البديهة فقال: ما أنا فيه من النعيم بالنسبة لنعيم الآخرة سجن؛ لأن الآخرة خير وهذا ليس بشيء، وأنت بما أنت فيه من العناء بالنسبة لعذاب النار في

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤)، وأحمد في مسنده (٨٢٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

جنة، فقال اليهودي: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، آمن مباشرة؛ لأن هذا الجواب دخل عقله، وأن ما قاله الرسول حق، الدنيا مهما كانت فهي بالنسبة للآخرة سجن ما هي بشيء، ولكن الدنيا مهما كانت من الضيق فهي بالنسبة للنار جنة.

٤ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن حياتنا هذه دنيا من الدنو، أي القرب، أو من الدناءة، أي: الخسة والحقارة، تشمل المعنيينِ جميعا، فهي قريبة؛ لأنها سابقة على الآخرة، من حيث ولد الإنسان وهو فيها، وهي دنيئة، أي: حقيرة بالنسبة للآخرة، إذن: دنيا مؤنث أدون، وهي إما من الدنو أو من الدناءة، ففيها تحقير الدنيا.

٥ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن ما عند الله خير من الدنيا بأجمعها؛ لقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، إذن: فيه التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

٦ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** الثناء على مَنْ جمع بين الإيمان والتوكل؛ لقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

٧ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن التوكل عبادة يجب إفراد الله به، وجه الدلالة تقديم المعمول، هذا دليل على وجوب إفراد الله به، وأما الدليل على أنه عبادة: فلأنه ذكره الله ـ تعالى ـ في مقام الثناء، ولا ثناء إلَّا في عبادة.

٨ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** فضيلة الجمع بين هذه الصفات المذكورة؛ لأن كل صفة منها صفة مدح لا شك، لكن اجتماعها يكون أكمل، أرأيت لو وصفتَ إنسانا بالكرم وقلت: فلان كريم، أليس مدحا؟ بلى، إذا قلت: شجاع، انضم ـ الآن ـ الكرم إلى الشجاعة بانضمام صفتيْنِ بعضهما إلى بعض تولد صفة ثالثة وهو الجمع بين الصفات، وهكذا نقول في كل الصفات المتعددة: أن جمعها يزيد الموصوف بها بهاء.

٩ ـ **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** وجوب التوكل على الله؛ لقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، حيث قدم المعمول، فإن قال قائل: أيجوز أن يتوكل على الغير فيما يقدر عليه؟ الجواب: نعم، ولكن لا يجعل هذا التوكل تفويضًا يتعلق القلب به؛ لأن هناك فرقا بين أن أقول: يا فلان وكلتك أن تشتري كذا وكذا، هنا أعتمد عليه لكني لا أفوض الأمر إليه، بل أنا حينما أقول: يا فلان اشتر لي كذا وكذا أعتبر نفسي فوقه أم دونه؟ فوقه؛ لأني أنا الآمر، أنا الذي بيدي الأمر، آمر وأنهى، لكن الاعتماد الذي هو التفويض المطلق هذا لا يكون إلَّا لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، فإذا أورد علينا إنسان هذا الإيراد الذي أنا ذكرته، نقول: الجواب سهل، التوكيل في الشيء لا يدل على التفويض المطلق، التوكيل على الشيء لا يتعلق القلب بنفس المتوكل عليه، بخلاف التوكل على الله، فبهذا يظهر الأمر، ويقال للإنسان الذي وكَّل غيره: إنه ليس ناقص التوكل، بدليل أن الرسول ـ عليه الصلاة

والسلام - وَكَّلَ عَلِيًّا بن أبي طالب في حجة الوداع أن ينحر عنه بقية هديه، ووكَّل «عروة بن الجعد» أن يشتري له أضحية[1] وأعطاه النبي ﷺ دينارًا وقال: اشترِ لي به أضحية فاشترى أضحيتيْنِ بدينار ثم باع واحدة منهما بدينار، فرجع إلى النبي ﷺ بشاة ودينار، الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم ينقصه شيء، ديناره الذي سلمه له رجع إليه، والشاة التي يريدها حصلت له، فدعا له النبي ﷺ بالبركة في بيعه، فكان لا يشتري شيئًا إلَّا ربح فيه حتى ولو اشترى ترابًا لربح ببركة دعوة النبي ﷺ، العلماء أخذوا من هذه القصة: جواز التصرف في مال الغير لمصلحة؛ فعروة تصرف في مال النبي ﷺ؛ اشترى شاتيْنِ وهو مأمور بشراء واحدة، وباع واحدة ولم يُؤْمَرْ بالبيع، لكن هذا لمصحلة الغير، إلَّا أنه مع ذلك موقوف على إجازته، فلو أن هذا المتصرف قال له صاحبه: لا أرغب في هذا التصرف، فإنه يرد، لو علمنا أن فلانا يريد أن يبيع بيته قد عرضه للبيع، وجاء شخص وبذل فيه مالا كثيرًا بذل مثل قيمته مرتيْنِ يجوز أو لا يجوز؟ يجوز لأني أعرف أن الرجل عازم على بيع البيت، وإذا هو عزم على بيع البيت سيكون بيعه بثمن المثل، فإذا جاء إنسان وبذل قيمة أكثر من المثل مرتيْنِ مثلًا، وتقدم شخص لم يُوَكَّلْ وباعه، فالبيع صحيح وهذا التصرف في مال الغير بما يحبه ، لكن لو فرض أن صاحب البيت قال: لا أجيز هذا، فحينئذ يُرَدُّ البيع، لكن يبقى إشكال آخر مع المشترى، المشتري يقول: أنا اشتريت، والموكل يقول: أنا لم أرض، والوكيل يقول: أنا راضٍ، فما الحل إذا كان الوكيل أخبر المشتري بأنه وكيل وأن البيت لفلان؟ ثم قال الموكِّل: أنا لا أرضى بهذا البيع، وإلَّا بقي البيع، وضمن الوكيل ما يطلبه الموكِّل.



۞ قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧].

۞ التفسير ۞

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ نص على أنه معطوف عليه لئلا يظن الظان أن الواو هنا للاستئناف، وعلى هذا فيكون من باب عطف الصفات وليس من باب عطف الأعيان، فالذين استجابوا لربهم هم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، هل لهذا نظير؟ أي: عطف الأوصاف لموصوف واحد؟ الجواب: كثير، قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى:٤] قوله: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ليس هو شيئًا آخر بل

---

(١) صحيح : راجع إرواء الغليل (١٢٨٧).

هو الأول، فيكون هذا من باب عطف الأوصاف دون الأعيان، أنت إذا قلت: (قام زيد وعمرو وبكر وخالد) فهذا من باب عطف الأعيان؛ لأن الثاني غير الأول، وإذا قلت: (جاء زيد الفاضل والكريم والشجاع) فهذا من باب عطف الأوصاف؛ لأن الثاني هو الأول لكن اختلفت الصفة، إذن فالعطف نوعان: عطف أعيان وعطف أوصاف، وفي الآيات التي معنا ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذه من باب عطف الأوصاف؛ لأن الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش هم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، قوله: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ كبائر: جمع كبيرة، فما هي الكبيرة؟ الجواب: ما ذكر الشرع أنه كبيرة فهو كبيرة كقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي بَكْرَةَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ» قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، هنا نص على أنها كبيرة، أما ما لم ينص عليه الشرع، فقد اختلف العلماء رحمهم الله في حَدِّ الكبيرة وأقرب شيء ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقال: (إن الكبيرة ما رُتِّبَ عليه عقوبة خاصة)، يعني ما خُصَّ به عقوبة، وذلك أن المنهيات تنقسم إلى قسمين: قسم فيها النهي أو التحريم أو ما أشبه ذلك، لكن ما فيه عقوبة ما ذكر فيه عقوبة، وقسم آخر ذكر فيه العقوبة، فيقول: ما ذُكِرَ فيه عقوبة خاصة فهو كبيرة، إذن إذا رتَّب على الذنب لعنة كقوله: «لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ»، ماذا يكون؟ كبيرة، لأنه رتّب عليه عقوبة خاصة وهي اللعن، إذا رتب عليه السخط فهو كبيرة كقول النبي صلى الله عليه وسلم في المرأة: «يَبِيتُ زَوْجُهَا سَاخِطٌ عَلَيْهَا فَإِنَّ اللهَ يَسْخَطُ عَلَيْهَا»، هذا كبيرة، وقوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»، فهو كبيرة ما الذي رتب عليه؟ البراءة منه، ليس منا كذا، «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»، مثله كبيرة لأنه رتب عليه عقوبة خاصة، «لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، كبيرة لأنه رتب عليه نفي الإيمان، إذن الكبيرة محدودة أو معدودة؟ محدودة يعني تعرف بالحدّ دون العدّ، وأحسن ما قيل فيها ما اختاره شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ من أن (الكبيرة ما رتب عليه عقوبة خاصة)، وقوله: ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ بالنصب معطوفة على كبائر، أي يجتنبون الفواحش، قال: [وهي موجبات الحدود من عطف البعض على الكل]، فسر المؤلف ـ رحمه الله ـ الفواحش بأنها ما توجب الحد، فلنعدها، الزنا فاحشة وهو بنص القرآن ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ نكاح ذوات المحارم فاحشة لقوله الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢] تأمل الآن أيُّها أعظم؟ نكاح ذوات المحارم أم الزنا؟ الأول؛ لأن الله قال فيه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وفي الزنا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ ولهذا كان القول الراجح أن الإنسان إذا زنا بمحارمه وجب رجمه سواء كان محصنًا أو

غير محصن، سؤال: السرقة فاحشة أو غير فاحشة؟ فاحشة، المؤلف قال: [كل الذي فيه حد فهو فاحشة]، قطع الطريق فاحشة؛ لأن فيه حدًّا، الخمر فاحشة أعليه حد؟ الصحيح أن عقوبة الخمر ليست حدًّا بل هي عقوبة، لكنها لا تنقص عن أربعين، والدليل أنها عقوبة أن شارب الخمر في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤتى به فيضربه الناس الذي يضرب بيده والذي يضرب بثوبه والذي يضرب بنعله بدون حد معين ثم جعلها أبو بكر أربعين ثم جعلها عمر أربعين، ثم كثر شرب الخمر فزادها عمر إلى ثمانين بعد أن استشار الصحابة فقال عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: أرى أن تجعلها كأخف الحدود، ما هو أخف الحدود؟ حد القذف ثمانون، فجعلها عمر رضي الله عنه ثمانين وهذا كالإجماع من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أن عقوبة شارب الخمر ليست حدًّا، لأنه لو كانت حدًّا هل يمكن لأي أحد أن يزيد؟ لا يمكن، ولهذا لو كثر الزنا في الناس لا نزيد عن مائة جلدة، فقول عبد الرحمن بن عوف: اجعلها كأخف الحدود، دل هذا على أنها ليست حدًّا، وإلا لَمَا صَحَّ أن يقول: كأخف الحدود، وأيضًا إذا تكرر جلده ففي الرابعة يقتل على رأي كثير من العلماء لما جاء في السنن، «إِذَا شَرِبُوا الْخَمْرَ فَاجْلِدُوهُمْ ثُمَّ إِنْ شَرِبُوا فَاجْلِدُوهُمْ ثُمَّ إِنْ شَرِبُوا فَاجْلِدُوهُمْ ثُمَّ إِنْ شَرِبُوا فَاقْتُلُوهُمْ»، هذا الحديث صحيح، ذهب إليه أهل الظاهر، وأكثر العلماء يقولون: لا يقتل ولو شرب ألف مرة ويجلد ألف مرة، واختار شيخ الإسلام قولًا وسطًا وقال: إذا لم ينته الناس بدون القتل فإنه يقتل، لئلا يتكاثر شرب الخمر، وأما إذا انتهى الناس بدون القتل فإنه لا يقتل.

المهم المؤلف ـ رحمه الله ـ: يرى أن الفواحش هي موجبات الحدود، قال: [وهو من عطف البعض على الكل]؛ لأن الفواحش بعض كبائر الإثم، فهو من باب عطف البعض على الكل، وهذا يقع كثيرًا كما أنه يقع أحيانًا عطف الكل على البعض، فقول الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ هذا من باب عطف البعض على الكل، وإذا قلت أكرم زيدًا والطلبة، وهو منهم، فهو من باب عطف الكل على البعض، وتخصيص بعض الأفراد بكونه معطوفًا أو معطوفًا عليه يدل على العناية به والاهتمام به، قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (ما) هنا زائدة في الإعراب، وأما في المعنى فهي للتوكيد، وأقول: (ما) بعد (إذا) زائدة؟ يعني كلما أتتك (ما) بعد (إذا) فهي زائدة، كهذه الآية ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ المعنى وإذا غضبوا، وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ﴾ أي حتى إذا جاءوها، فخذ هذه الفائدة، و(ما) من أوسع الحروف معنى؛ لأن لها عشر معاني أو أكثر، جمعت في قول الناظم:

مَحَامِلُ مَا عَشْرٌ إِذَا رُمْتَ عَدَّهَا ... فَحَافِظْ عَلَى بَيْتٍ سَلِيمٍ مِنَ الشِّعْرْ
سَتَفْهَمُ شَرْطَ الْوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا ... بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدَرِه

ستفهم: إشارة إلى ما الاستفهامية، شرط: إلى ما الشرطية، الوصل: إلى ما الموصولة، فاعجب: إلى ما التعجبية مثل أن تقول: ما أحسن زيدًا، لنكرها: إلى ما النكرة الموصوفة أو الواصفة، بكف: إلى ما الكافة، وهي الداخلة على إن مثل ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ونفي: (ما) النافية، زيد: ما الزائدة، تعظيم: ما التعظيمية مثل ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ [الحاقة:٢] ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة:٢] مصدر: إلى (ما) المصدرية، مثل يعجبني ما فعلت أي يعجبني فعلك، هذه عشر معاني

قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ يعني إذا نالهم الغضب فإنهم يملكون أنفسهم. فيغفرون لمن أغضبهم، ومعنى يغفرون قال المفسر: [يتجاوزن] ونحن نزيد شيئًا آخر: الستر، يعني يتجاوزون عمن أساء إليهم ويسترونه.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن مِنْ وصْف الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون: اجتنابهم كبائر الإثم والفواحش وبعدهم عنها؛ لأن اجتنب بمعنى: صار في جانب وآخر في جانب، فيفيد بعدهم عن كبائر الإثم والفواحش.

٢- **ومن فوائدها:** أن صغائر الذنوب لا تنقص من كمال الإيمان، لماذا؟ لأنها تقع مغفورة باجتناب الكبائر كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ في سورة النجم ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ يعني: إلا الصغائر فإنها لا تضر، فإنها لا تضر، وأخبر النبي ﷺ: «**أَنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَةَ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»، لكن لو قال قائل: هل الإصرار على الصغائر يحولها إلى كبائر؟ فالجواب: نعم هذا هو المشهور عند أهل العلم أن الإصرار على الصغيرة كبيرة، لكنهم لا يقولون: إن الصغيرة تكون كبيرة، يقولون: إن إصرار الإنسان على المعصية يدل على استخفافه بشريعة الله وعدم مبالاته بها، فمن هنا صار الإصرار كبيرة، وليس المعنى أن الصغيرة تنقلب كبيرة، لكن لما كان الإصرار يدل على استخفاف الإنسان بشريعة الله صار هذا كبيرة من أجل الاستخفاف.

٣- **ومن فوائدها:** أن من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم إذا غضبوا غفروا، والغضب وصفه النبي ﷺ بقوله: «إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي جَوْفِ ابْنِ آدَمَ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى حُمْرَةِ عَيْنَيْهِ وَانْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ»، أما المتكلمون فيقولون: (إن الغضب غليان دم القلب لمحبة الانتقام)، وما قاله النبي ﷺ هو الخير، ولذلك تجد الرجل إذا غضب يتصرف تصرفًا سيئًا لا يحمده هو إذا سكن غضبه، فينبغي للإنسان عند الغضب أن يكظم غيظه، وقد طلب أحد الصحابة من النبي ﷺ أن يوصيه فقال: «**لا تغضب، فردد مرارًا فقال لا تغضب**»، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى:٣٨]

التفسير

قال الله -تبارك وتعالى- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ الواو: حرف عطف، الذين: معطوف على ما سبق عطف أوصاف، ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ قال المفسر: [أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة] ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ بمعنى: أجابوه، وقد سبق لنا ذكر الأمثلة على كون استجاب بمعنى: أجاب، وقوله [من التوحيد والعبادة] تفسير لا بأس به، ولو قال رحمه الله: (استجابوا لربهم) أي أجابوه إلى كل ما دعاهم إليه من فعل الأوامر وترك النواهي لكان أبين وأعم، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوفة على (استجابوا) فهي داخلة في صلة الموصول، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ قال المؤلف: [أداموها] وفيها نظر، بل معنى (أقاموا الصلاة) أتوا بها مستقيمة على الوجه الذي طلب منهم؛ لأن هناك فرق بين إقامة الصلاة وبين إدامة الصلاة، نعم إدامتها من إقامتها لا شك، ولكن ليست الإقامة هي الإدامة، إذن الإقامة معناها أن يأتي بالصلاة مستقيمة على الوجه المطلوب، وقوله: ﴿الصَّلَاةَ﴾ يعم الفريضة والنافلة، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أمرهم: أي شأنهم، والمراد الشأن العام لا الشأن الخاص، الشأن العام الذي يهم الجميع ويتشاورون فيه، ومعنى يتشاورون فيه: يعني يتبادلون الرأي هل يقدمون أو يحجمون؟ هل يعدلون أو يبقون الشيء على ما هو عليه، المهم أن المشاورة هي تداول الرأي ليخرجوا بنتيجة مرضية للجميع.

قال الله -تعالى-: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (من) هنا للتبعيض، ويحتمل أن تكون للجنس، فإن كانت الأولى صار المدح لمن ينفق بعض ماله، وإن قلنا بأنها للجنس صار المدح لمن ينفق ماله كله أو بعضه، فأيهما أولى؟ أن نقول للتبعيض أو للجنس؟ للجنس أولى، ليشمل القليل والكثير والكل، ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ قال [أعطيناهم] ﴿يُنْفِقُونَ﴾ [في طاعة الله].

الفوائد:

١- **ومن فوائدها:** أن من صفات المؤمنين المتوكلين أنهم يستجيبون لله عزَّ وجلَّ -، أي يجيبونه إلى ما طلبه منهم، ومعناه المبادرة وعدم التأخير؛ لأن التأخير عن تنفيذ الواجب نقص في

الاستجابة، وأضرب لكم مثلًا برجل أمر ابنه أن يأتي إليه بحاجة، فتوانى الابن وبقي ساعة أو ساعتين ثم جاء بالحاجة، فهل يقال إن الابن امتثل امتثالًا كاملًا؟ لا، الامتثال الكامل بالمبادرة، وهذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾.

٢- **ومن فوائدها:** العناية بإقامة الصلاة، وجه ذلك أن الله نص عليها بعد التعميم؛ لأن قوله: ﴿ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ يشمل الصلاة وغيرها، فلما قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ نص عليها بخصوصها وهذا دليل على العناية بها، وحق والله أن يُعتنى بها؛ لأنه ليس هناك عبادة أقوى صلة بك في الله عزَّ وجلَّ - من الصلاة، الإنسان يتصدق لكن لا يشعر بالصلة بينه وبين ربه، يصوم ويحج لكن الصلاة الحقيقية الشرعية أن الإنسان يشعر بأنه في صلة بينه وبين الله، ومن أجل ذلك سميت صلاةً؛ لأنها صلة بين الإنسان وبين الله، إذا قال: الإنسان - الحمد لله - قال الله: حمدني عبدي وهكذا مُحَاوَرَة، ثم هو يشعر بأنه إذا ركع ففوقه رب يعظمه، وإذا سجد فكذلك يضع أشرف أعضائه في مواطئ الأقدام، ولذلك صارت العناية بالصلاة حيث قال: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أين فرضت الصلاة؟ ليلة المعراج، من الله إلى الرسول أم بواسطة؟ بدون واسطة، هذا يدل على أهميتها والعناية بها، ثم إنها فرضت خمسين صلاة وخفف الله على العباد فجعلها خمس صلوات لكنها في الواقع خمسون صلاة، بمعنى: أنك إذا صليت فريضة واحدة كأنما صليت عشر، لأن الحسنة بعشر أمثالها؛ وهذا لجميع الحسنات، كأنك صليت الظهر مثلًا عشر مرات، صلّيت وسلّمت، وصليت وسلمت حتى بلغت عشرًا، وبهذا يظهر الفرق بينها وبين سائر العبادات، ثواب الحسنة بعشر أمثالها، لكن هذه كأنك فعلًا صلّيت خمسين صلاة.

٣- **ومن فوائدها:** مراعاة الأحوال الاجتماعية، وأن الأمور العامة ينبغي أو يجب التشاور فيها، لقوله - تعالى - ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وهل تدل الآية على أن الإنسان إذا أراد أن يفعل فعلًا خاصًا به يشاور؟ لا، لا تدل عليها، لكن المشاورة مشروعة إذا أشكل عليك شيء، فلديك شيئان: الاستخارة والمشاورة، لكن الأمر العام لابد من التشاور فيه، يستثنى من ذلك إذا بان الأمر لولي الأمر فإنه لا حاجة إلى المشاورة فيه، يعني لو تبين للأمير أو الرئيس أو الملك مصلحة ما يريدها فلا حاجة إلى التشاور؛ لأن التشاور يُرجَع إليه عند الإشكال والتردد، أما مع ظهور المصلحة فلا حاجة إلى أن يشاور؛ لأن المشورة حينئذٍ لا تزيد الأمر إلا إشكالًا وفوضى، فالناس ليسوا على أمر واحد، إذا أردت أن يتمزق الأمر فضعه بين يدي عشرة، وإن أردت أن يذوب بالكلية فضعه بين يدي عشرين، لابد من اختلاف الناس.

إذن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ على عمومه أو يستثنى منه؟ الجواب: يستثنى منه ما ظهرت مصلحته لولي الأمر فإنه لا حاجة إلى أن يشاور، ويدل لهذا الاستثناء عمل السلف الصالح، فها هو عمر

رضي الله عنه، وهو من أشد الخلفاء اهتمامًا بالرعية، لا يشاور إذا كانت المصلحة ظاهرة له، وإنما يشاور إذا أشكل عليه الأمر، لو أحصيت ما شاور فيه ما بلغ إلا العشرات أو أقل، وقد بقي عشر سنوات في الخلافة، هذا العمل السلفي من الخلفاء الراشدين يقيد قوله - تعالى - ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ إذن ما الذي يستثنى؟ وأظهرت فيه المصلحة لولي الأمر فلا حاجة فيه للمشاورة؛ لأن المشاورة في هذه الحال ضرر في تنفيذ الأمر والمضي فيه.

٤-ومن فوائدها: أن من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون بذل المال في طاعة الله، لقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

مسألة: وهل يُطْلَبُ من الإنسان أن ينفق جميع ماله؟

الجواب:هذا ينبني على (مِنْ) هل هي للتبعيض أو للجنس؟ إذا قلنا: للتبعيض صار المدح على مَنْ أنفق بعض ماله، وإذا قلنا للجنس أي أنهم ينفقون من هذا الجنس الذي رزقهم الله صار عامًّا، والتفصيل هو التأصيل إن شاء الله، إذا كان الإنسان لا ينقص إنفاقه شيئًا من واجبات الإنفاق على الأهل فلا حرج أن ينفق جميع ماله، مثل أن يكون عند الإنسان مائة ريال لا يحتاجها للإنفاق على أهله، وليس عنده سواها، نقول: هنا أنفق جميع المال ثم اكتسب للإنفاق على أهلك، كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، أما إذا كان يحتاج المال للإنفاق الواجب على أهله وهو ضعيف الاكتساب فهنا نقول: لا تنفق جميع مالك، أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.



قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]

التفسير

قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ الواو حرف عطف، والمعطوف هنا باعتبار الصفات، أي من صفاتهم أنهم إذا بغى عليهم أحد انتصروا لأنفسهم، قوله: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي العدوان، من أحد عليهم، ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ ينتصرون لأنفسهم أي لا يظهرون مظهر الضعيف الذليل بل ينتصر لنفسه، والانتصار للنفس في مقام العز أمر مطلوب، أما في مقام التواضع فهذا شيء آخر يأتي إن شاء الله في المستقبل، يقول ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ المؤلف - رحمه الله - ذكر أن الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون صنفان: ولكن الصحيح أن هذا كله وصف لموصوف واحد، وليس هناك أصناف، وعليه فنقول: من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم ينتصرون لأنفسهم إذا

ظُلِمُوا، أي: ينتقمون ممن ظلمهم بمثل ظلمه بدون عدوان، على أن قوله: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ لا يستلزم أن يأخذوا لأنفسهم بحقها، بل إذا انتصروا فلهم أن يعفوا، وإذا عفوا مع القدرة كان ذلك أكمل.

الفوائد:

١- **ومن فوائد هذه الآية:** أن من صفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون أنهم لا يرضون بالظلم والانخناس عن الأخذ بحقهم، لقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

وهل من لازم الانتصار أن يقتص أو أن يكون له اليد العليا سواء بالقصاص أو بالعفو أو بغير هذا؟ الظاهر الثاني لأنه أعم؛ لأن من عفا عن قدرة وعزة فإنه لا شك منتصر، ومن أخذ بحقه فهو منتصر.

٢- **ومن فوائدها:** أن هؤلاء لا ينتصرون لأنفسهم إلا إذا تحقق البغي عليهم، وأما مجرد التهمة فلا يعتبرونها، يؤخذ من قوله: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ فلو اتهموا أحدًا أنه ظلمهم فإنهم لا يتحركون، لكن إذا أصابهم البغي حينئذٍ ينتصرون.

٣- **من الفوائد - أيضًا -:** أنه يجب على من انتصر إذا أصابه البغي ألا يتجاوز الحد بالاستيفاء.

❁ ❁ ❁

❁ قال الله تعالى:

﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]



❁ التفسير ❁

[قال: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ سميت الثانية سيئة لمشابهتها للأولى في الصورة، وهذا ظاهر فيما يقتص فيه من الجراحات، قال بعضهم: وإذا قال له أخزاك الله فيجيبه أخزاك الله]، قوله: ﴿وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذه في الحقيقة قاعدة أن للإنسان أن ينتقم لنفسه السيئة بمثلها لا يزيد؛ لأنه إن زاد فقد ظلم.

والزيادة في الانتصار للنفس قد تكون في الكمية وقد تكون في الكيفية وقد تكون في النوعية؛ فإذا انتصر لنفسه فضرب مَنْ ظلمه ثلاثًا وقد ظلمه باثنتين فهذا من باب الزيادة الكمية، وإذا ضرب من ضربه ضربًا خفيفا فانتصر لنفسه بضرب ثقيل هذا بالكيفية، وإذا ضرب من اعتدى

عليه بسوط ضعيف بسوط أكبر هذا بالنوعية.

المهم أنه لابد أن تكون المجازاة بمثل السيئة التي أُسيء إليه فيها ولا تزيد، فإن زاد فهو ظالم، ولهذا يقال: هذه بتلك والبادي أظلم، وقول المؤلف رحمه الله: [سميت الثانية سيئة لمشابهتها الأولى في الصورة] فيه نظر واضح، فالمقاصة سيئة لكن ليست سيئة بالنسبة للفاعل بل هي سيئة بالنسبة لمن اقتص منه، تسوؤه وتؤلمه وترد اعتباره إذا كان يرى أنه فوق صاحبه، فهي سيئة لا باعتبار الفاعل ولكن باعتبار المقتص منه، وأما قوله [لمشابهتها الأولى] فلا يمكن أن تطلق سيئة لمجرد المشابهة، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ إذن هذه قاعدة في جميع الاقتصاص، فلننظر إذا شق ثوبك فهل تشق ثوبه؟ ظاهر الآية نعم، لكن إذا كان ثوبك رديئًا يساوي عشرة وثوبه جيد يساوي مائة تشق ثوبه أو لا تشق؟ إذا شققته فنقص عُشْر قيمته كم يكون؟ ينقص العُشْر، مثلًا هذا الثوب يساوي عشرة ريالات شقه المعتدي بشق ينزل قيمته العشر، العشر كم من العشرة؟ واحد، ثوبه يساوي مائة فشققته بشق يساوي العشر، كم ينقص؟ عشرة، الآن أخذت عشرة مقابل واحد، فهل نقول العبرة بالمعنى فإنه لما شقَّ ثوبك أذلَّك، وأنت إذا اقتصصت منه وشققت ثوبه أذللته وهو البادي فنشق ثوبه ولو كان أغلى، أو نقول نشق ثوبه إن كان مماثلًا للأول أو مقاربًا له وإلا فلا؛ لأن هذا الذي ثوبه بعشرة ينكسر اعتباره كالذي ثوبه بمائة، والمقصود إذلال المعتدي وكسر اعتباره، وعلى هذا فنقول: مَنْ شَقَّ ثوبك فشق ثوبه، إذن وهل المعتبر المساحة أو المعتبر النسبة؟ يعني هذا إنسان ثوبه قصير شق ثوبه بمقدار شبر، الشبر هذا يساوي العُشْر مثلًا من ثوبه، والآخر طويل جدًا، هل يتساوى في النسبة مع ذاك؟ الجواب: ما يتساوى.

نسأل الآن: هل المعتبر المساحة أو النسبة؟ العدل أن يكون المعتبر النسبة، فإذا شق نصف هذا الثوب القصير مساحة ذراع، والطويل شقه بمساحة ذراع لكنه طويل طول الأول مرتين هل يكفي أو لا يكفي؟ لا يكفي نقول: شق إلى أن تبلغ النسبة إذا كان العشر فهذا العشر؛ لأن هذا هو العدل في الحقيقة؛ لأن المعتدي أفسد عشر ثوب المعتَدَى عليه، فلنفسد عشر ثوبه مع أنه هو المعتدِي وهذا ينطبق تمامًا على قول الله - تعالى -:﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ رجل مثلًا قال لشخص مع المغاضبة، قال له: أنت حمار، هل يقول له: أنت الحمار؟ لا، يقوله، لكن هل يقول أنت حمار وأبوك حمار؟ الجواب: لا، هذا عدوان لكن يقول: أنت حمار، إذن إذا قال له: لعنك الله، هل يقول له: بل لعنك أنت؟ له أن يقول هذا ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ولذلك إذا لعن الإنسان شخصًا لم يكن أهلًا له أين تذهب اللعنة؟ ترجع إلى الأول، فيعاقب بمثل ما فعل، اسمع لكلام المؤلف: [وهذا ظاهر فيما يقتص فيه من الجراحات].

الذي يقتص فيه من الجراحات: كل عضو قائم بنفسه، وكل جرح ينتهي إلى عظم هذا فيه القصاص، كل عضو قائم بنفسه مثل العين والإصبع وما أشبه ذلك هذا يقتص، رجل قطع

خنصرك تُقطع خنصره، أو جرح ينتهي إلى عظم: جرحه في رأسه حتى بان عظم رأسه يقتص منه، جرحه في ساقه حتى بان العظم يقتص حتى لو كانت طبقة اللحم التي على العظم في الجاني أغلظ يقتص حتى يصل إلى العظم، وإذا كان الجرح لا يصل إلى العظم مثل أن جرحه في فخذه جرحًا لم ينته إلى العظم، هل يقتص منه؟ يقول الفقهاء: إنه لا يقتص منه وذلك لعدم انضباط القصاص، ما ينضبط إلا إذا وصل للعظم، ولكن نظرًا لتقدم الطب نقول: إذا أمكن أن يقتص منه اقتص منه، إذن إذا قطع يده من نصف الذراع يقتص منه أو لا؟ الفقهاء يقولون: يقتص منه لعدم الانضباط، لكن إذا كان من المفصل كما لو قطع كفه من مفصلها يقتص منه، والصحيح أنه في الصورة الأولى إذا قطع يده من نصف الذراع أنه إذا أمكن القصاص فإنه يقتص منه، وفي عصرنا الآن يمكن على الشعرة أو أدنى من الشعرة، فإذا كان لا يمكن وقال المجني عليه: اقطعوا يده وأنا أعفو عما قطع من الذراع، المجني عليه قال اقطعوا كف الجاني والزائد أعفو عنه، هل يقتص منه أو لا؟ الصحيح أنه يقتص منه، تقطع كف الجاني، وإذا أسقط الزائد أعني ـ المجني عليه ـ سقط، إذن فإن قال المجني عليه: أنا أريد أن تقصوا كفه وآخذ أرش الزائد؟ نعم له ذلك؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ وهنا يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ وهذا ظاهر فيما يقتص به من الجراحات، ما هو الذي يقتص به من الجراحات؟ كل عضو مستقل أو جرح ينتهي إلى عظم، والباقي فيه خلاف.

قال بعض العلماء: وإذا قال له أخزاك الله، فيجيبه أخزاك الله، لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ إذا قال: لعن الله أباك، ماذا تقول؟ تقول لعن الله أباك؟ لا، قال النبي ﷺ: "لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْه" قالوا: يا رسول الله وهل يلعن الرجل والديه؟ قال: "نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ" نقول: إن قول الرسول ﷺ لبيان الواقع لا لبيان الحكم الشرعي، يعني أنه جرت العادة في المسابة بين الناس أن الرجل إذا سَبَّ أبا الرجل سَبَّ أباه، وهذا شيء تعرفونه وإن لم تعرفوه فاعرفوه، انزل الأسواق وانظر المسابة بين الناس إذا سَبَّ أباه سب أباه، فيكون قول الرسول ﷺ بيانًا للواقع، وبيان الواقع لا يعطي الجواز شرعًا، والدليل على أن بيان الواقع لا يعطي الجواز: قول النبي ـ ﷺ ـ: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى" هل لنا أن نتبع اليهود والنصارى؟ لا، ولكن هذا لبيان الواقع، كذلك ـ أيضًا ـ أخبر أن المرأة تسافر من كذا إلى كذا وحدها هذا لبيان الواقع ليس لبيان الحكم الشرعي، إذا قال لك قائل: ما هو الذي حملك على أن تجعل قوله: "يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبَّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبَّ أُمَّهُ" أن هذا لبيان الواقع لا لبيان الحكم الشرعي؟ أقول: الذي حملني على هذا أنه لا يجوز العدوان على أحد لم يقع منه عدوان، هذا ظلم، كيف أسبُّ أباه هذا ظلم لا شك؟! والظلم لا يأذن به الشرع، لكن لو قال قائل: " إنه إذا لعن والديه فلا تطيب نفس الذي لُعن والداه إلا إذا لعن والديَّ مَنْ سَبَّه لأن لعن

الوالديْنِ إذلال للولد، وهو يريد أن يطيب نفسه، يقول: الحمد لله، ليس هناك ضرورة، إذا لعن والديك العنه هو، وهذا أشد في الإذلال، فالحاصل أنه إذا دعا على أبيك وأمك لا تدعو على أبيه وأمه؛ لأنه لا ذنب لهما، والحديث عرفتم الجواب عنه، أنه بيان للواقع لا للحكم الشرعي، ولكن لك أن تحول السب واللعن إلى نفس الفاعل لا إلى والديْهِ.

سائل يسأل يقول: هل القاتل يقتل بمثل ما قتل به أو يقتل بالسيف؟ الجواب: يقتل بمثل ما قتل به؛ لأن النبي ﷺ رَضَّ رأس اليهودي بين حجريْنِ؛ لأنه رضَّ رأس الجارية بين حجريْنِ، وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لكن استثنى العلماء ما لم تكن الوسيلة محرمة لذاتها فلا يقتص منه، قالوا: فلو تلوَّطَ رجل بطفل صغير وهو يعرف أن هذا الفعل يقتله ثم مات الطفل من أجل هذا، فهل نقيم رجلًا يتلوط بهذا؟ لا، ما نفعل، قال بعض العلماء: ما نفعل هذا؛ لأن اللواط محرم لذاته لكن ندخل خشبة في دبره حتى يموت، هذا له وجهة نظر، لكن عندي أن فيه نظرًا وذلك؛ لأن الخشبة أشد ألمًا من اللواط، فلا يمكن القصاص.

قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ علي أي شيء حمل المؤلف السيئة الثانية؟ على مشابهة الأولى في اللفظ عن طريق المشاكلة، فهل كلامه صحيح أو لا؟ غير صحيح كيف ذلك؟ لأن المقتص منه إذا اقتص منه يسؤوه؛ إذن هي سيئة بالنسبة لمن؟ بالنسبة للمقتص منه، وإبقاء اللفظ على ظاهره خير من تحريفه بدون دليل، قال الله - تعالى -: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (مَنْ) هذه شرطية، فعل الشرط (عفا) والمعطوف عليه، جملة ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي جواب الشرط.

يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ أي لم يؤاخذ بالذنب، يعني عمن ظلمه، وأصلح: يقول: [الود بينه وبين المعفو عنه] فأجره على الله، [أي إن الله يأجره لا محالة]، قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ قال المؤلف: [عن ظالمه] وهذا واضح والعفو عنه يعني عدم مؤاخذته، وأصلح: يقول [الود بينه وبين ظالمه] وهذا تفسير قاصر جدًا، بل المراد: أصلح في عفوه، أي صار عفوه مشتملًا على الإصلاح، وإنما قلنا ذلك؛ لأن ما ذكرناه أعم وأنفع بالنسبة للمعنى، إذن [أصلح] المؤلف يراها قاصرة على إصلاح الود بينه وبين مَنْ ظلمه، والصواب أن المراد: أصلح في عفوه، أي كان عفوه إصلاحًا ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يقول المؤلف: [أي أن الله يأجره لا محالة] أجر: بمعنى: الثواب، وسمى الله - سبحانه - الثواب أجرًا؛ لأنه في مقابل عمل، كأجرة الأجير إذا قام بعمله، وفيه - أيضًا - إيماءٌ إلى أن هذا الثواب واجب كما يجب إعطاء الأجير أجره، وقول المؤلف: [أي فإن الله يأجره لا محالة] أخذ هذا المعنى أعني قوله: [لا محالة] من الجملة اسمية؛ لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** أنه يجب أن تكون المقاصة على وجه العدل فتكون جزاء السيئة سيئة مثلها، فلا يجوز أن يعتدي في القصاص لا القولي ولا الفعلي، ولننظر: لو أن رجلًا سبك بوصفين وسببته بثلاثة أوصاف ما تقول؟ يجوز أو لا يجوز؟ لا يجوز؛ لأن الله قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ إذن لو أن رجلًا قطع يد إنسان وطلب القصاص، فقال الجاني: أنا أريد أن أضع بنجًا في يدي حتى لا أحس بالألم، وقال المجني عليه: لا، أيهما نأخذ بقوله قول المجني عليه؛ لأن الجاني أتى مفسدَتيْنِ الإيلام وفقد العضو، فلا تتم المقاصة إلا إذا حصل هذان الأمران بالنسبة للجاني، ولو أن سارقًا حكم عليه بقطع اليد وطلب أن تبنج يده، هل يجوز هذا أو لا؟ يجوز؛ لأن المقصود بالنسبة للسارق المقصود إعدام اليد المتعدية، وهو حاصل وليس هناك قصاص حتى نقول: لابد أن يكون المثل بالمثل.

٢- **ومن فوائد الآية الكريمة:** تأكيد المقاصة بالعدل لقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فأكد ذلك بقوله: ﴿مِّثۡلُهَا﴾ لو أراد المجني عليه أن يأخذ بعض حقه، يجوز أم لا يجوز؟ الآية تقول ﴿مِّثۡلُهَا﴾ يعني معناه إذا أردنا العدل فهذا هو، وإذا عفا الإنسان عن حقه الخاص به فلا بأس، كما أنه لو عفا مطلقًا فلا حرج عليه.

٣- **ومن فوائدها:** الحث على العفو إذا كان إصلاحًا، فإن لم يكن إصلاحًا فالأخذ بالحزم أولى، دليل هذا أن الله قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾.

يتفرع على هذا مسألة مهمة: لو أن الجاني معروف بالشر والفساد فاعتدى على شخص هل نقول: الأفضل أن يعفو عنه؟ الجواب: لا، بل نشترط أن يكون ذلك إصلاحًا، هذا الرجل الشرير المعروف بالشر إذا جنى على شخص هل نقول للشخص المجني عليه اعفُ عنه فأجرك على الله؟ لا نقول هذا؛ لأننا لو عفونا عن هذا الرجل الشرير في هذه القضية المعينة، فَعَلَ مثلها أو أشد بعد ذلك، لأنه أخذ على العفو، فكان يؤمل أن يُعف عنه في كل فعل، فإذا كان الجاني شريرًا معروفًا بالفساد فجنى على شخص، فهل نقول: الأفضل أن تعفو عنه أو تأخذ بحق؟ ذكرنا أن الأفضل في هذه الحال أن تأخذ بحقك؛ لأن هذا الرجل الشرير المجبول على الشر إذا عفوت عنه الآن ذهب يفعل ما هو أشد في اليوم الثاني، يجب أن نعلم أن قوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ هذه الآية المطلقة تقيد بهذه الآية، بل كل نص فيه الحث على العفو فإنه مقيد بهذه الآية، إذن لابد أن يكون العفو إصلاحًا، إذن لو أن أحدًا صدم شخصًا وهو يقود السيارة فمات، فهل الأفضل لأولياء المقتول أن يعفوا عن الصادم أو أن يأخذوا بالدية؟ فيه تفصيل: وهو إن كان هذا الرجل معروفًا بالتهور، وعدم المبالاة وكما يقول بعض السفهاء: (الدية في الطبلون)، فهذا لا

ينبغي أن يُعفى عنه، وأما إذا كان رجلًا ذو مروءة ونعلم أن هذا أمر حصل منه كما يقول العوام من : (فوات الحرص)، فإن الأفضل أن يعفى عنه، وهذه الآية هي ميزان العفو المحمود وغير المحمود.

٣- **ومن فوائد الآية:** تفضل الله - تعالى - على عباده حيث أوجب على نفسه أجر العافي، مِنْ أين يُؤخذ؟ ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ضمن الله - عزَّ وجلَّ - لهذا العافي الأجر لكن بشرط أن يكون ذلك إصلاحًا، قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي البادئين بالظلم فيترتب عليهم عقابه، قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾ الضمير يعود على الله - جل وعلا - وقوله: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المعتدين سواء ظلموا أنفسهم أو ظلموا غيرهم، فصاحب المعاصي غير محبوب إلى الله - عزَّ وجلَّ - والمعتدي على عباد الله غير محبوب لله - عزَّ وجلَّ - ، وقول المؤلف - رحمه الله -: [أي البادئين بالظلم] فيه نظر، الآية عامة تشمل الظالمين ابتداءً، والظالمين في الثاني، بمعنى: أن المبتدأ بالظلم غير محبوب عندالله، وكذلك مَنْ تجاوز في حقه فإنه غير محبوب إلى الله، فإبقاء الآية على إطلاقها أولى، أي: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ابتداءً ولا اقتصاصًا، بعض العلماء أخذ من قوله - تعالى -: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ أن الإنسان لو جحد لك مالًا فلك أن تأخذ من ماله بمقدار ما جحد بدون علمه، نقول: نعم، هذا ظاهر الآية أنه إذا أخذ من مالك وقدرت على استرداده من ماله فلك هذا، ولكن قال النبي - ﷺ -: "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ" ولو فتح هذا الباب لكانت الأمور فوضى، كل واحد يأخذ من مال الثاني ويقول: قد جحد لي مالي، فلا يستقيم هذا عمليًا، وأما قضية هند بنت عُتبة رضي الله عنها فإن السبب فيها ظاهر، كل الناس يعرفون أن هذه زوجته، وأنه يجب عليه أن ينفق عليها، فإذا أخذتْ مِنْ ماله بغير علمه، وقالت: إنه لا ينفق عَلَيَّ، لم يقل الناس شيئًا؛ لأن السبب ظاهر، ومثلها لو نزل الضيف على أحد ولم يقدم له الضيافة وقدر على أن يأخذ شيئًا من ماله بقدر ضيافته فله ذلك؛ لأن السبب ظاهر، وبهذا يتم الجمع بين الأدلة.



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

التفسير

قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلَمَنِ﴾ لام الابتداء، ومَنْ: اسم شرط جازم، وفعل الشرط ﴿ٱنتَصَرَ﴾ وجوابه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ ﴾ أي: أخذ بحق نفسه﴿بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ أي: [ظلم الظالم إياه]، هنا نسأل: ظلْم هنا مصدر، هل هو مضاف إلى الفاعل أو إلى المفعول به؟ كلام المؤلف يدل على أنه مضاف إلى المفعول به، أي: ظلم الظالم إياه، وعلى هذا فالمصدر مضاف إلى مفعوله لا إلى فاعله، ولا يصح أن يكون مضافًا إلى فاعله؛ لأنه لو كان كذلك لكان المعنى: (ولمن انتصر بعد أن يظلم الناس فأولئك ما عليهم من سبيل)، والظالم غير مُعْتَدَىً عليه حتى ينتصر لنفسه، إذن فالمصدر مضاف إلى المفعول، ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ وقد سبق أن الله - تعالى - مدح الذين إذا أصابهم البغي انتصروا لأنفسهم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ قال [مؤاخذة] وأصل السبيل: الطريق، أي ليس عليهم طريق للوم والمؤاخذة، قوله: ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ (مِنْ): حرف جر زائد، (سبيل): مبتدأ مؤخر مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والمعنى: (فأولئك ما عليهم سبيل)، إذا قال قائل: ما هي فائدة حروف الجر الزائدة؟ فالجواب: أن فائدتها التأكيد، يعني تأكيد النفي.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** إثبات محبة الله - سبحانه وتعالى - لذوي العدل والقسط، من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مفهومه أن غير الظالم يحبه الله.

٢- **ومن فوائدها:** ثبوت صفة المحبة لله - عزَّ وجلَّ - وهذه المسألة بحث عقدي، وجه الدلالة: أنه لما نفى محبته للظالمين دلّ ذلك على أنه يحب العادلين ذوي القسط، وهذا الاستدلال يشابه استدلال الشافعي - رحمه الله - على أن المؤمنين يرون الله بقوله - تعالى - في الفجار: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين:١٥] فقال: لو كان محتجبًا عن الجميع فلا فائدة للنفي.

٣- **ومن فوائدها:** التحذير من الظلم، ووجهه: أن في الظلم انتفاء محبة الله للعبد، وما أعظم الخسارة فيمن خسر محبة الله له، - اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحَبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَحُبَّ العَمَلِ الَّذِي يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ -.

٤- **ومن فوائدها:** أن من انتصر لنفسه بعد أن يُظْلَم فلا اعتراض عليه؛ لقوله: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾.

٥- **ومن فوائدها:** أن انتفاء السبيل عمن انتصر لنفسه مشروط بتحقق الظلم؛ لقوله: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ ﴾ فأما الأخذ بالتهم فلا يجوز، لابد أن تتحقق أنك مظلوم حتى تنتصر لنفسك.



❁ قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢]

❁ التفسير ❁

قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ﴾ قال المفسر: [يعملون] ﴿فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [بالمعاصي] ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [مؤلم] ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ هذه الجملة فيها أداة حصر وهي: إنما، والحصر: إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه، فكأنه قال: لا سبيل إلا على هؤلاء، ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ يعني: الطريق إلى اللوم والقدح والمؤاخذة على الذين يظلمون الناس سواء بأموالهم أو دمائهم أو أعراضهم، فإن النبي ﷺ أعلن في حجة الوداع فقال: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ" فظلم الناس يدور حول هذه الأشياء الثلاثة: الدماء، والأموال، والأعراض، فمن اغتاب أحدًا فقد ظلمه، ومن أخذ ماله فقد ظلمه، ومن خانه في معاملة بينه وبينه فقد ظلمه، وهذه لا حصر لأمثلتها، المهم أن الذين يظلمون الناس عليهم اللوم، وقوله: ﴿وَيَبْغُونَ﴾ فسرها المؤلف بقوله: [يعملون] وكأنه تحاشى أن يجمع بين البغي وبين قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فقال: [يعملون] من أجل أن يكون الفعل ﴿وَيَبْغُونَ﴾ له معنى مستقل و﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ له معنى مستقل، والصواب هو إبقاء الآية على ظاهرها، ومعنى يبغون: أي يعتدون، من (بَغَى على غيره): أي اعتدى عليه، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ فقوله ﴿وَيَبْغُونَ﴾ معناها: يعتدون على غيرهم ويتجاوزون حدَّهم في معاملتهم، ويكون قوله بغير الحق صفة كاشفة تبين أن كل بغي فهو بغير حق، فإبقاء النص القرآني على ظاهره هو الواجب، لاسيما أن هذا التفسير يجعله قاصرًا، ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي يعتدون فيها ويتجاوزون الحدَّ.

قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيان للواقع فهو صفة كاشفة، إذ أن كل بغي فهو بغير حق، وقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فسرها بأنها: [المعاصي]، ونعم، المعاصي كلها بغير الحق، لكن لا تفهم من هذا أن ذلك خاص بحق الله، بل هو عام في حق الله وغيره، فالبغي في حق الله محرم، وكذلك في حق الآدمي، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أولئك: المشار إليهم وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم، والإيلام: بمعنى: الإيجاع، أي: أنه مُوجِعٌ.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** أن مَنْ ظلَم الناس فإنه مؤاخذ، وجهه: أنه حصر المؤاخذة بِمَنْ

ظلم الناس وبغى في الأرض بغير الحق.

٢- **ومن فوائدها:** أن البغي ظلم لا حق فيه، لقوله: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

٣- **ومن فوائدها:** تهديد أولئك الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق بالعذاب الأليم، لقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤- **ومن فوائدها:** أن عذاب هؤلاء عظيم، لأنه أتى به بالجملة الاسمية على هذه الصيغة المعينة﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.



قال الله تعالى:

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

التفسير

[قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ فلم ينتصر]،﴿وَغَفَرَ﴾ [تجاوز] يعني عن الجاني،﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ [الصبر والتجاوز] ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: [معزوماتها بمعنى: المطلوبات شرعًا] ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾اللام هذه لام الابتداء وتفيد التوكيد، ومَنْ: اسم شرط جازم، وفعل الشرط: ﴿صَبَرَ﴾ وجواب الشرط:﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ مَنْ: شرطية، فعل الشرط: صبر وما عطف عليه، جواب الشرط:﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وهنا إشكال: وهو أنه إذا كان جواب الشرط جملة اسمية وجب اقتران الجواب بالفاء، كالآية التي قبلها،﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ وهنا حذفت الفاء، الإشكال هنا كيف حذفت الفاء في جواب الشرط وهو جملة اسمية؟ الجواب: أن الفاء قد تحذف وإن كانت جملة جواب الشرط اسمية، وأنشدوا على هذا قول الشاعر:

مَنْ يَفعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا

مَنْ يفعل الحسنات: هذه شرطية، فعل الشرط: يفعل، جواب الشرط: الله يشكرها، وليس فيها فاء، فقالوا: إنه يجوز أحيانًا حذف الفاء واستدلوا بالآية واستدلوا بالبيت، قال بعضهم في الإعراب في الآية: حذف الفاء يدل على أن (مَنْ) ليست شرطية، وإنها هي اسم موصول، وعليه يكون المعنى: (ولَلَّذِي صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور)، والحقيقة أن الإعراب الأول والثاني جائز، لكن كوننا نجعل (مَنْ) اسم شرط كالآية التي قبلها أولى من حيث تلائم السياق بعضه مع بعض، ويكون الإشكال في حذف الفاء في الجواب، وجوابها أنها قد تحذف أحيانًا، قوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ أي (مَنْ صبر على ظلم الظالم إياه)، وإن شئت فقل: إنها عامة تشمل كل

مَنْ صبر على أذية، مِنْ مرض أو سفر أو ما أشبه ذلك، ولكن العموم قد يمنع القول به قوله ﴿وَغَفَرَ﴾ فإن ظاهر هذا السياق أن المراد صبر عن مؤاخذة الظالم، ﴿وَغَفَرَ﴾ أي ستر ما حصل عليه من ظلم.

قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: معزوماتها، أي: لدليل على أن الرجل من ذوي العزم؛ لأنه تحمل فصبر، وعفا فغفر.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية:** الحث على الصبر والمغفرة؛ لقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ولكن يجب أن تلاحظوا الآية السابقة أن يكون في ذلك إصلاح.

٢- **ومن فوائدها:** أن الأمور تختلف في وما دونها؛ لقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ولا شك أنها تختلف، فأن بعضها يكون المقدم عليه ذا عزيمة صادقة ومروءة تامة، وبعضها دون هذا.



قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٤-٤٥]

التفسير

قال - الله تعالى -: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (مَنْ) هذه شرطية وهي للعموم، يعني: أي أحدٍ يقدر - الله تعالى - أن يضل فإنه لا يمكن أن يتولاه أحد بعد الله، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يهديه أحد، كما قال - تعالى - في آية أخرى: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يقول المفسر: [أيْ أحد يلي هدايته بعد إضلال الله إياه]، ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤] ﴿وَتَرَى﴾: بصرية و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به، و﴿يَقُولُونَ﴾: جملة حالية،

و ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ لما: جازمة بمعنى حين، ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ والمراد بالظالمين: الكافرون، كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤]، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي حين رأوا العذاب بأعينهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هذا الاستفهام للتمني، يعني: يتمنون أن يكون لهم سبيل إلى الرد، وقوله: ﴿إِلَى مَرَدٍّ﴾ أي إلى مرجع، والمراد مرجع للدنيا ليعملوا صالحاً، ولكن هذا التمني باء بالفشل؛ لأن ذلك أمر غير ممكن، بل قد قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ﴾ فهم يتمنون هذا ويدعون أنهم إذا رجعوا صلحوا، ولكن الأمر ليس بذلك، ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ قال [أي من طريق] والجواب: لا سبيل، وكما سمعتم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ كما أنهم إذا غشيهم موج كالظلل في البحار دعوا الله مخلصين له الدين إذا نجوا عادوا إلى الشرك، قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ كلمة (ترى) هنا والتي قبلها هل المراد بها الرسول ﷺ وحده، أو ترى أيها المخاطب؟ الثاني، لأننا إذا قلنا بالثاني صار أعم مما إذا قلنا بالأول، ﴿وَتَرَاهُمْ﴾ أيها الرائي ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ﴾ [خائفين متواضعين] ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ مِنْ: للسببية، أي: بسبب ذلهم، هؤلاء الذين كانوا في الدنيا مستكبرين متعنجهين لا يرون الناس شيئاً ولا يقبلون الحق، يُعرَضون على النار على هذا الوصف ﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ يعني: قد امتلأت قلوبهم ذلاً ينظرون [إليها] من طرف خفي [ضعيف النظر مسارقة]، يعني: ينظر إلى النار -والعياذ بالله- من طرف أي: من بصر خفي أي: ضعيف يسارقون النظر كالإنسان الذي هو خائف من شيء تجده ينظر إليه نظراً ضعيفاً ثم يصرف النظر، وذلك لشدة ذلهم، أعاذنا الله وإياكم من حالهم، [ومن ابتدائية أو بمعنى الباء]، من في قوله: ﴿مِنْ طَرْفٍ﴾ ابتدائية أو بمعنى الباء أي: ينظرون بطرف خفيْ، وإذا دار الأمر بين أن تكون ابتدائية على بابها أو بمعنى الباء فالأولى أن تجعل على بابها، يعني: يبتدأ نظرهم من الطرف الخفي، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قالوا مُثْنِينَ على الله -عزَّ وجلَّ- متحدثين بنعمه: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿إِنَّ﴾: تحتاج إلى اسم وخبر، اسمها: ﴿الْخَاسِرِينَ﴾، وخبرها: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فقدوها، فقدوا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة [بتخليدهم في النار وعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة]، الخاسرون حقيقة ليسوا الذين فقدوا المال ولا الذين فقدوا الأهل في الدنيا، الخاسرون حقيقة هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، أما خسران أهليهم فظاهر؛ لأنه لا يجمع بينهم وبين أهليهم في النار، بخلاف أهل الجنة فإن أهل الجنة يقول الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، حتى لو كانت الذرية نازلة المرتبة فإن الله يرفعهم إلى آباءهم في الجنة، وهؤلاء -والعياذ بالله- يفرق بينهم وبين أهليهم في النار حتى لو جمع بينهم فماذا يكون؟ فخسرانهم أهليهم واضح، لكن كيف خسروا أنفسهم؟ خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يستفيدوا من الحياة الدنيا شيئاً، حياتهم خسارة؛ لأنهم لم يستفيدوا منها شيئاً فلم

يؤمنوا بالله ورسله، وقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: [بتخليدهم في النار وعدم وصولهم إلى الحور المعدة لهم في الجنة لو آمنوا] في هذا نظر ظاهر، والمراد بأهليهم أهلوهم في الدنيا، وليس المراد الحور المعدة لهم لو آمنوا؛ لأن هذا قد علم من قبل، فإنه يقال: للميت إذا دفن في قبره: هذا مقعدك من الجنة يعني: لو آمنت، ويقال للمؤمن: هذا مقعدك من النار، يعني: لو لم تؤمن، فالمراد بالأهلين هنا مَنْ؟ أهليهم في الدنيا، لم يربحوا، وقول المؤلف رحمه الله [والموصول خبر إن] أين الموصول؟ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ هذا هو الموصول، ونبه على ذلك لئلا يظن الظان أن الذين خسروا صفة للخاسرين، قال ـ الله تعالى ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول المفسر: [الكافرين] ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ [دائم] وهو من مقول الله ـ تبارك وتعالى ـ، يعني: ليس من مقول الذين آمنوا ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ لو نظرنا إلى السياق لقلنا إن هذا بقية كلام المؤمنين، لكن المؤلف نبه على أن هذا من كلام الله، وليس من كلام الذين آمنوا، والسياق محتمل لهذا وهذا، محتمل أن يكون كما قال المفسر: من كلام الله ومحتمل أن يكون من كلام الذين آمنوا، والذين آمنوا يعلمون أن الظالمين في عذاب مقيم من الوقت الذي هم فيه في الدنيا؛ لأنهم قرأوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه الجملة مؤكدة بمؤكِّدَيْنِ: الأول: (ألا)؛ لأن (ألا) هنا للتنبيه، والتنبيه يقتضي التوكيد، والمؤكد الثاني: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن (إن): حرف توكيد، ﴿فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ أي دائم والعياذ بالله.

الفوائد:

في هذه الآيات فوائد:

١- **منها:** أن من أضله الله فلا أحد يهديه مهما كانت منزلة هذا الذي حاول أن يهديه؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ ويشهد لهذا الحكم العظيم المخوف، ما جرى للنبي ﷺ مع عمه أبي طالب، أبو طالب شقيق أبي الرسول ﷺ، كان ينصر الرسول ﷺ ويحوطه ويدافع عنه، ولما حضرته الوفاة كان عنده النبي ﷺ ورجلان من قريش، فكان يعرض عليه الإسلام يقول: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال له الرجلان: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وهي ملة الكفر والشرك، فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعاد فكان آخر ما قال هو على ملّة عبد المطلب ـ نسأل الله العافية والسلامة ـ، مع محبته للرسول ﷺ، وشهادته له بالرسالة لكنه لم يذعن ولم يقبل فكان آخر حياته أن قال: على ملّة عبد المطلب، ومات على الشرك، أَذِنَ الله تعالى لرسوله ﷺ أن يشفع له في تخفيف العذاب عنه فشفع له، فكان في ضحضاح من نار وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه ـ والعياذ بالله ـ، دماغه أعلى شيء في بدنه والنعلان في أسفل شيء، وإذا كان الأعلى يغلي فما دونه أشد وأشد، قال النبي ﷺ: "ولَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" لولا أنا

شفعت، أو لولا أنا في رسالتي التي كان يدافع عنها أبو طالب؟ الظاهر أنها للأمرين جميعاً؛ لأن الله شكر له، وأذن لرسوله ﷺ أن يشفع فيه لما قدمه للإسلام من نصر، ويؤخذ منه أن من نصر الإسلام ولو من الكافرين فله فضل؛ لأن الإسلام دين العدل يعطي كل ذي حق حقه، فمثلًا إذا أعان الكفارُ المسلمينَ إعانة صادقة نعلم أنهم ليس لهم طمع في ذلك، وانتفع المسلمون بهذا النصر فإنه يجب أن نعترف بفضلهم في هذا الباب؛ لأنهم صنعوا إلينا معروفاً ولأن الدين الإسلامي دين العدل لا يظلم أحداً حقه، وأما قول بعض الناس: لن نعترف لهم بالفضل لأنهم كفار، فكفرهم بينهم وبين الله وتفضلهم علينا حق يجب أن نعترف به، أضرب مثلاً لذلك في قضية كوسوفا، (قضية كوسوفا) حصل فيها ما سمعه كثير منكم، ومن الذي انتصر لهم؟ الكفار انتصروا لهم، الحلف الأطلسي وضع كل ما يملك من معدات يمكنه أن يقاتل بها ودافع عنهم، ولم نسمع أحداً من المسلمين أرسل طائرة أو قذيفة، ولعل لها عذراً وأنت تلوم، لكن كوننا نجحد هذا الفضل غلط، نقول: هؤلاء لهم فضل، وكفرهم بينهم وبين الله، ونحن لا نحبهم على كفرهم أبداً، بل نشكر لهم الفضل وإن كنا نكرههم غاية الكراهة؛ لأنهم أعداء الله ورسوله، هذا إذا علمنا أن النية صادقة، أما إذا علمنا أنه مكر وخديعة علماً يقينياً فهنا نذمهم على ما فعلوا ولا نمدحهم ولا نعترف لهم بالفضل؛ لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدمًا.

٢- **ومن فوائد هذه الآية الكريمة:** أن مَنْ هداه الله فقد تولاه؛ لأنه لما نفى الولاية عن الظالمين فإنها تثبت للمؤمنين، ولهذا جاء التصريح في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

٣- **ومن فوائدها:** أنه ينبغي للإنسان أن يلح على الله دائماً أن يهديه من الضلال؛ لأنه إذا كان المرجع في الإضلال إلى الله، فإلى من نلتجئ؟ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ما دام الإضلال والهداية بيد الله فلنرجع إليه.

٤- **ومن فوائدها:** تحسر وذل الظالمين إذا رأوا العذاب، ﴿وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن﴾ تحسرهم بقولهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ لأن هذا تمني.

٥- **ومن فوائد الآية الكريمة التي بعدها:** أن هؤلاء الظالمين يعرضون على النار على أكمل ذل وأخزى حال، ﴿خَـٰشِعِينَ﴾ أي ذليلين خائفين من الذل.

٦- **ومن فوائدها:** أن المستكبرين على الحق المعاندين يجازون بعقاب يناسب معصيتهم، وجه ذلك أنهم يعرضون على النار خاشعين ذليلين، ومعلوم أن العقوبة بالذل مناسبة للمعصية بالاستكبار.

٧- **ومن فوائدها:** أن الظالمين يلحقهم الذل ظاهراً وباطناً، الباطن في قوله: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ من الذل، والظاهر في قوله ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** تحدث الذين آمنوا بنعم الله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فكأنهم يثنون على الله - عزَّ وجلَّ - بكونهم ربحوا دنياهم وأخراهم.

٩- **ومن فوائدها:** أن العاصي قد خسر نفسه وعلى حسب معصيته تكون الخسارة؛ لأنه لم يستفد من وجوده في الدنيا شيئًا، ويتفرع على هذا: أنه ينبغي للإنسان أن يحاسب نفسه وينظر ماذا صنع؟ فإن رأى أنه قد ملأ زمانه من الخير المقصود والوسيلة فليحمد الله، وإن رأى أنه أضاعه، فليستعتب، يؤخذ من قوله: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ولنضرب لهذا مثلاً رجل قام يصلي ويقرأ القرآن لمدة ساعة وآخر يلعب هذه المدة، مَنِ الرابح؟ الأول هو الرابح؛ لأنه ملأ هذا الفراغ عبادة، والثاني خاسر ضائع، حتى إن بعض أهل العلم قال: إنه يحرم عليه ألَّا يشغل الزمن بالطاعة؛ لأنه كالذي عنده مال فلم ينفقه في سبيل الله، لكن الصحيح أنه إذا لم يأمره بالمعصية، فلا له ولا عليه، إلا أنه يعتبر خاسراً بالنسبة لمن شغله بطاعة الله، وأنت فكِّرْ في هذا عندما تقوم تصلي، قل لنفسك: إن عمرك هو هذا الزمن الذي أمضيته في طاعة الله، عود نفسك على هذا، من أجل أن تحرص على أن تعمر زمانك بطاعة الله.

١٠- **ومن فوائدها:** أن عذاب الكافرين دائم؛ لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

١١- **ومن فوائدها:** تأكيد هذه العقوبة لئلا يقول قائل: إن العذاب قد ينقطع، قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من: شرطية، والفعل مجزوم بها: أي بفعل الشرط وعلامة جزمه السكون وحرك بالكسر لالتقاء الساكنين، لماذا اقترن الجواب بالفاء؟ لأنه مقترن بما، وقد أخبر الله - عزَّ وجلَّ - أن الكفار يدعون إلى نار جهنم دعا يقذفون فيها، كيف نجمع بينه وبين قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يعرضون عليها قبل أن يدخلوها، والكفار لا يحاولون الصعود على الصراط لأنهم يصرفون إلى جهنم في عرصات القيامة.



قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]

التفسير

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [أي غيره يدفع عقابه عنهم]، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ أي الظالمين، ﴿مِّنْ أَوْلِيَاءَ﴾ من: زائدة إعراباً وهي للتوكيد، ﴿أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم﴾ يعني: ليس لهم مَنْ يتولاهم وينصرهم من دون الله، أي من عذابه، و(دون) هنا بمعنى غير، كما فسرها المؤلف ـ رحمه الله ـ؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يدفع عذاب الله عمن أراد الله أن يعذبهم، أبداً ولا ينصره منه، في الدنيا لو أراد ظالم أن يظلم أحداً أمكن أن ندفعه، لكن عقوبة الله لا يمكن أحد أن يدفعها، قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ من يضلل الله: جملة شرطية وهي كما سبق جوابها مقرون بالفاء؛ لأنه اتصل بها، ﴿فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [أي طريق إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة]، بل يكون أعمى ـ والعياذ بالله ـ ليس له سبيل إلى الحق، ولذلك تجد الذين قضى الله بإضلالهم يقدم لهم الحق كالشمس في رابعة النهار، ولكن لا يفهمونه قد حيل بينهم وبينه، واسمع لقول الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الله ـ عز وجل ـ ﴿كَلَّا﴾ يعني: ليست أساطير الأولين ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الذنوب جعلته يرى الحق باطلاً ويرى الباطل حقاً، تتلى عليه آيات الله كالقرآن أو التوراة حين لم تنسخ ولكنه يقول هذه أساطير الأولين، قد حيل بينه وبين فهمها، ولذلك كلما رأيت قلبك مطمئناً بالقرآن محباً له متدبراً له فاعلم أنه نقي من الذنوب، وكلما وجدت الأمر بالعكس فطهر القلب.

الفوائد:

١- **من فوائد هذه الآية الكريمة:** أن الظالمين لا أحد ينصرهم من دون الله؛ لأنهم استحقوا العذاب، ولا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع.

٢- **ومن فوائدها:** أن الإضلال بيد الله وأن من أضله الله لا يمكن أن يرجع إلى الحق، لقوله ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾.

٣- **ومنها:** أنه يجب على المرء أن يلجأ إلى الله دائماً ويسأل الله الهداية، وها هو النبي ﷺ يسأل ربه أن يهديه أول ما يدعو في صلاة الليل يدعو بالاستفتاح المشهور: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، يقول اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك فكيف بنا؟! المهم أنه يؤخذ من الآية أن يرجع الإنسان في طلب الهداية إلى الله تعالى وحده وأن يعيذه من الضلال.

مسألة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] هل يدل على انتفاء وجود غيرهم واختصاصهم بهذا المكان في النار؟

الجواب: لا ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لا تدل على أن غيرهم لا يكونون فيها، كما لو قلت مثلاً: فلان في بيت فلان، هل ينافي أن يكون أحد في هذا البيت؟ لا ينافي.

أقول نسبة الشيء إلى سببه إذا كان سببًا صحيحًا لا بأس به، فمثلاً لو أن رجلاً سقط في البحر فقام آخر فأنقذه يجوز أن نقول: لولا فلان لغرقتَ؛ لأنه نسبة إلى سبب معلوم، لكن لو قال ذلك وهو مدفون في قبره لا يجوز، هل هذا سبب معلوم؟! إنسان غرق في الماء وقال لولا الولي فلان سيدي لغرقت يصح أو لا يصح؟ لا يصح، لأنه شرك، خذ قاعدة: نسبة الشيء إلى سببه المعلوم يجوز، لكن لا يقرن مع الله بالواو، فإن قرن مع الله بالواو صار حراماً، مثل أن يقول: لولا الله وفلان لغرقت، هذا ما يجوز، فنذكر لك السؤال إذا قال: لولا الله قيض لي فلاناً لغرقت، ما تقول؟ هذا يصح، وهو أعلى الأنواع؛ لأنه ذكر المسبِّب والسبب، إذا قال: لولا فلان لغرقت، هذا جائز لأنه أضافه إلى سبب معلوم صحيح، إذا قال: لولا الله وفلان لغرقت، هذا لا يجوز؛ لأنه شرك بين الله وغيره بحرف يقتضي التسوية، إذا قال: لولا الله ثم فلان لغرقت، يجوز، إذا قال: لولا الله ففلان لغرقت، ففلان مثل الواو؟ هل (الفاء) مثل (الواو)؟ (الفاء) تقتضي الترتيب لكنها في الواقع في منزلة بين منزلتين، ليست كـ (ثُمَّ) لأن ثم تدل على الترتيب والتراخي، وليست كالواو لأن الواو تقتضي التسوية، فهي في منزلة بين المنزلتين، فهل نقول إنها كثم لأنها دالة على الترتيب أو إنها كالواو لأن ترتيبها يقتضي التعقيب؟ الأول هو الصواب، يعني: لولا الله ففلان لأنك جعلت فلانا بعد الله - عزَّ وجلَّ -، وكونه متراخياً أو متعاقباً هذا شيء آخر.

مسألة: إن ما نقل عن ابن عباس أنه كان يقول قول القائل: (لولا الركبان لغرقت السفينة) هل يُعد هذا من الشرك الأصغر؟ فما وجهه؟

الجواب: وجهه أمران: أولًا: الحديث رواه ابن أبي حاتم فيحتاج إلى تصحيح، ثانيًا: أن ابن عباس رضي الله عنهما لعله في وقتٍ كان الناس فيه قريبين من الشرك فأراد أن يشدد في هذا الأمر حتى ينتهي الناس عنه؛ لأن قول الرسول ﷺ: «لولا أنا ...»، واضح أنه أضاف الشيء إلى سببه دون أن يقرنه بمشيئة الله.



قال الله تعالى:

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى:٤٧]

التفسير

قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾:

(استجاب) بمعنى أجاب، ولهذا قال المفسر: [أجيبوه بالتوحيد والعبادة] بالتوحيد ضد الشرك، والعبادة ضد الاستكبار، وهذا واجب على كل مسلم أن يجيب الله - تبارك وتعالى - بالإيمان به وتوحيده وطاعته ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ [هو يوم القيامة] ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [أي أنه إذا أتى به لا يرده] ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد يرده ويمنعه، وقيل ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي أن الله - سبحانه وتعالى -: لا يرده إذا أتى به، وكلا المعنيَيْنِ صحيح، فالله - تبارك وتعالى - إذا أتى به فقد قضي به فلا يمكن أن يرده وكذلك لا يمكن لأحد أن يرده من دون الله، لا أحد يمنعه من الله - عزَّ وجلَّ -، ولذلك لو أن أحداً حاول أن يرد يوم القيامة لم يتمكن ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ [تلجأون إليه] يومئذٍ ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [إنكارٍ لذنوبكم]، ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ هذه جملة مبتدأ وخبر قدم فيها الخبر على المبتدأ وأدخلت (من) الزائدة على المبتدأ من باب التوكيد، يعني: ما لكم أيُّ ملجأٍ من دون الله - عزَّ وجلَّ -، والملجأ بمعنى المعاد أو الملاذ الذي يلوذ به الإنسان، عما نزل به، وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي (يوم إذ يأتي ذلك اليوم)، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ قال: [إنكار لذنوبكم] فكأنه فسر النكير بالمصدر وهو الإنكار، فإن صح ما فسره به ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ فإنه يشكل على هذا قول الله تبارك وتعالى -: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام:٢٣] وهذا إنكار، فعلى تفسير المؤلف [مالكم إنكارٍ لذنوبكم] يحتاج أن نجمع بينه وبين هذه الآية، والجواب أن نقول: الجمع بينهما: أنهم ينكرون أولاً يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ ظناً منهم أنهم إذا فعلوا ذلك نجوا كما نجا أهل التوحيد، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون، وحينئذٍ يعترفون ويقرون، فيكون الإنكار أولاً ثم الإقرار ثانياً وتكون الآية هذه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ أي: باعتبار المآل، أي: لا يمكنكم أن تنكروا، وقيل إن نكيراً بمعنى مُنْكِر، كسميع بمعنى مُسْمِع، والمعنى: لا أحد ينكر ما نزل بكم ويدفعه عنكم، وهذا المعنى أصح، وأنسب لسياق الآية، ما لكم من ملجأ وما لكم من منكر، يعني: لا ملجأ تلجأون إليه ولا أحد يدافع عنكم وينكر ما نزل بكم.

الفوائد:

في هذه الآية فوائد:

١- **منها:** وجوب الاستجابة إلى - الله تعالى - فوراً لقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ﴾ هذا اليوم الذي حدث الله به هل له وقت محدد في عمر الإنسان بحيث يستطيع أن يؤخر التوبة والاستعداد؟ الجواب: لا؛ لأن الإنسان ما يدري متى يفجأه الموت، وإذا فاجئه الموت انقطع كل عمل كما ثبت عن النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ»، فلا فرق بين قيام الساعة الكبرى وبين موت الإنسان من حيث انقطاع العمل.

٢- **ومن فوائدها:** رأفة الله - تبارك وتعالى - بعباده حيث ينذرهم بعذابه قبل الوقوع، ولا شك أن هذا من رحمته ورأفته بهم، وإلا لتركهم يفعلون ما يشاءون حتى ينزل بهم العذاب.

٣- **ومن فوائدها:** أنه لا ملجأ يوم القيامة من الله - عزَّ وجلَّ - ، في الدنيا يمكن أن يلوذ الإنسان بذي سلطة يستجير به لكن في الآخرة لا.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا أحد ينكر ما نزل بأهل العذاب من العذاب لقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.



قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨]

التفسير

قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ يعني: [عن الإجابة] ولم يستجيبوا فلا لوم عليك ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [تحفظ أعمالهم بأن توافق المطلوب منهم]، الجواب: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ جواب الشرط: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ المعنى: إن أعرضوا فلا لوم عليك؛ لأنك لم ترسل عليهم حفيظا على أعمالهم، ولا مسيطراً عليهم، إنما أرسلت للإبلاغ وقد حصل، ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (إن) [ما] أراد أن يفسر (إن) بمعنى: ما، وإن تأتي نافية كما هنا، وتأتي زائدة، وتأتي شرطية، وتأتي مخففة من الثقيلة، فهنا جاءت نافية والغالب أنها تكون نافية إذا أتى بعدها إثبات مثل ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا

نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٣] ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ وما أشبه ذلك، هذه تكون نافية بمعنى ما، تأتي شرطية مثل ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ وتأتي زائدة كما في قول الشاعر:

بَنِي غُدَانَةَ مَا إِنْ أَنْتُمُ ذَهَبٌ وَلاَ صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَزَفُ

بني غدانة ما إن أنتم ذهبٌ: هذه (إن) زائدة؛ لأنها لو حذفت لاستقام الكلام، لو قيل بني غدانة ما أنتم ذهباً، استقام الكلام، فهي زائدة، وتأتي مخففة من الثقيلة بمعنى أن تكون هي بمعنى (إنَّ) ولكن خففت وفي هذه الحال يكون اسمها ضمير الشأن محذوفاً والجملة التي بعدها تكون خبراً، هذه أربعة معاني؛ [(إن) ما]: أي بمعنى ما، ﴿عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ يعني: ما عليك إلا البلاغ، وقد بلّغ أم لا؟ بلّغ البلاغ المبين وتعب في ذلك تعباً عظيماً، وأُوذي في ذلك أذىً عظيماً ومع ذلك فهو صابر محتسب؛ لأنه ﷺ يعلم أن ما أصابه في ذات الله فهو خير ورفعة، جاهد في الله حقَّ جهاده وبلّغ الرسالة غاية البلاغ وأُوذي على ذلك ولكنه صبر وكان يقول:

وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ الله مَا لَقِيتِ.

إذن فالآية على كلام المؤلف منسوخة، والمؤلف ونحوه دائماً إذا جاء مثَل هذه الآية يقول: هذه منسوخة، وهذا غلط لأن النسخ ليس بالأمر الهين، ادعاء النسخ يعني: أن المنسوخ باطل حكماً، وهذا صعب أن ترفع حكم آية أو حديث لمجرد وهم توهمته، لذلك لا يجوز للإنسان أن يسلك هذا المسلك المشين، فإنه إذا عجز عن الجمع بين الآيات ذهب يقول: إنها منسوخة، النسخ يحتاج إلى العلم بتأخر الناسخ، ويحتاج ـ أيضاً ـ إلى تعذر إمكان الجمع فإن أمكن الجمع فلا نسخ، هل قوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ هل هو منسوخ؟ أبداً إلى آخر رمق من حياة النبي ﷺ وهو عليه البلاغ فلم ينسخ، والبلاغ لا ينافي أن يكون معه جهاد، ولكن من حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يفرض الجهاد إلا حين قويت الأمة الإسلامية، لم يفرض الجهاد في مكة وإنما فرضه في المدينة حين صار للأمة الإسلامية دولة مستقلة تستطيع أن تجاهد، فهذا من الحكمة ويعبر عنه أنه من باب التدرج في التشريع، ومن باب الحكمة في التشريع، إذن نقول: إن قول المؤلف ـ عفا الله عنه وغفر له ـ: [إن هذا قبل أمر الجهاد] خطأ عظيم، نقول: البلاغ واجب عليه حتى بعد الأمر بالجهاد ولا يتنافيان، لا ينافي أن يكون عليه البلاغ وأن يكون مأموراً بالجهاد ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [نعمة كالغنى والصحة] ﴿فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ [الضمير للإنسان باعتبار الجنس] ﴿سَيِّئَةٌ﴾ [بلاء] ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [أي قدموه وعبر بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تُزاول بها] ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [للنعمة] ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا﴾ معلوم أن الله واحد فلماذا قال إنا؟ نقول: للتعظيم لإظهار العظمة والسلطان وقوة الملك، ﴿إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ يعني: أوصلناها إليه حتى كأنها طعام ذاقه لا يشك فيه، وقوله: ﴿مِنَّا﴾؛ لأن كل نعمة بنا فإنها من الله كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ يقول: [نعمة كالغنى

والصحة] والمثال هنا لا يعني الحصر لكنه مثال، الغنى نعمة، الصحة نعمة، الأولاد نعمة، الأمن نعمة، نعم الله لا تحصى كما قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذن ما ذكره المؤلف على سبيل التمثيل، والتمثيل لا يعطي الحصر، وقوله: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ المراد بذلك فرح البطر والأشر لا الفرح بالنعمة مع اعتقاد أنها من عند الله، فإن هذا مأمور به أن يفرح الإنسان بنعم الله، وفي الحديث: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» ومن آثار النعمة الفرح، والإنسان إذا رزقه الله مالاً فرح، إذا عافاه الله بعد المرض فرح، إذا تزوج فرح، إذا ولد له فرح، ولكن الفرح نوعان: فرح أشر وبطر فهذا مذموم، وفرح بنعمة ـ الله تعالى ـ مع التزام شريعته فهذا ممدوح ولا بأس به ولا ينبغي أن يكون الإنسان كالحمار لا يفرح بنعمة ولا يتألم بنقمة بل يجب أن يكون الإنسان إنساناً منفعلاً مع الحوادث يفرح في موضع الفرح ويغتم في موضع الاغتمام ﴿فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ يقول المؤلف: [الضمير للإنسان باعتبار الجنس] أزال بذلك إشكالاً وهو أن الآية ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ والإنسان واحد كيف يقول: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؟ فيعيد الضمير عليه جمعاً؟ أجابنا المؤلف بأن المراد بالإنسان الجنس فيشمل كل إنسان، ويصح أن يقول: وإن تصبهم سيئة ضد رحمة، ولهذا فسرها المؤلف بالبلاء ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي بما قدموا من المعاصي وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها، لو أنك فكرت أيها أكثر عملا الأيدي أم الأرجل؟ الأيدي مشيك من بيتك إلى المسجد كم خطوة كم حركة؟ لو ما تحركت الرجل ما مشيت، فيقال: إن حركة الرجل من جنس واحد وهو المشي، لكن حركة اليد ما أكثر أنواعها فضلاً عن أفرادها، فالأعمال حقيقة إنما تزاول باليد؛ لأنها أكثر من أي عضو في البدن مزاولة للأعمال، حتى لو قال قائل: اللسان أكثر من اليد، مَنْ يُحصِي كلمات اللسان؟ نجيب على هذا بما أجبنا على المشي؛ لأنها من جنس واحد، لكن اليد تبطش وتضرب وتكتب وتمحو، ما تحصى أنواعه، فلذلك عبر بالأيدي عن النفس ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ المراد مما عملنا لكن اللغة العربية واسعة تعبر بالأيدي عن النفس ومن ثم نعلم أنه لا سواء بين خلْق آدم بيد الله وبين عمل أيدي الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الإبل ونحوها، قال: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ أعاد الإفراد بعد أن جاء الجمع ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ هنا ابتدأ بالمفرد ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ ختمها بالمفرد من أجل أن يشمل الإنسان مجتمعاً أو منفردا فهذه حالة، ولكن من المراد بالإنسان هنا؟ الظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد به الكافر؛ لأنه هو الذي ينطبق عليه فرح البطر والأشر والكفر إذا أصيب بسوء، في هذه الآية فوائد:

الفوائد:

١- **منها:** تسلية الرسول ﷺ حينما أعرضوا عن إجابته؛ لقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

٢- **ومن فوائدها:** أنها تسلية للدعاة من بعد الرسول ﷺ أن الداعي عليه البلاغ وليس عليه أن يهدي الناس ولا يمكن ذلك، وإذا كان النبي ﷺ أخبرنا أنه رأى النبي وليس معه أحد فكيف نغضب إذا دعونا إلى الله ولم يستجب لنا أحد، إذا كان الأنبياء وهم الأنبياء لا يستجاب لهم كيف بنا نحن، ولهذا نرى بعض الدعاة إذا لم يجد مجيباً استحسر وترك الدعوة، هذا غلط لا يجوز أبدا أن تيأس من رحمة الله، ادعوا ثم ادعوا ثم ادعوا، حتى لو أوذيت بدل أن يستجاب لك فلا تيأس، إذن في هذه الآية تسلية لمن؟ للدعاة إلى الله - عزَّ وجلَّ - كما أن فيها تسلية للرسول ﷺ فأنت إنما عليك البلاغ، وما أجل أن تقوم بما عليك من البلاغ أما أن الناس يهتدون فلا، هذه واحدة.

ثانياً: بعض الناس يريد أن يهتدي الناس بين عشية وضحاها، وهذا غلط هذا لا يمكن، وهذا خلاف سنة الله - عزَّ وجلَّ - ، فإن النبي ﷺ بقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله إلى التوحيد فقط وفي الآخر إلى الصلاة، ومع ذلك لم يستجب أكثرهم، لم يستجب مَلَؤُهم حتى ألجأوه إلى أن يهاجر وَيَدَعَ بلده فكيف بك أنت تعيش في قوم أفسدهم الاستعمار العسكري والفكري والخُلُقِي، تريد أن يهتدوا بين عشية وضحاها، مَنْ أنت حتى تريد خلاف سنة الله - عزَّ وجلَّ - ، اصبر وبالتدريج ولا حرج عليك -فيما أرى- أن تعامل الناس بالتدريج لا حرج ما دام المقصود الإصلاح فاصبر على بعض المعاصي ودَرِّجِ الناسَ عليها، يعني: مثلاً لو أن إنسانًا حذر الناس من شرب الدخان الذي ابتلي به كثير من الناس فقال له الشارب أنا ما أستطيع، قال ما في مانع كل يوم اشرب عشرة لمدة أسبوع ثم ثمان لمدة أسبوع، حتى يتقاصر إلى آخر النهاية، هل هذا جائز أم لا؟ هذا جائز لأني الآن لم أقره على شرب الدخان، أقررته على بعض المفسدة من أجل أن أتوصل إلى زوال المفسدة نهائياً، وهذا من العلاج ومن الدعوة بالحكمة وهذا كما أنه بالأمراض المعنوية الدينية فهو - أيضاً - في الأمراض البدنية، الطبيب يعالج المريض شيئاً فشيئاً ويصبر على ما به من مرض شيئاً فشيئاً ولا يعطيه الدواء كاملاً للحظة واحدة كما فعل البدوي لما أعطوه نوفالجين وقالوا خذ هذا كل ست ساعات واحدة فاستبطأ الأمر وقال: هذا أجعله كل ست ساعات واحدة أبتلع الجميع، فبلع الجميع فقضي عليه، استعجل الأمر وهلك، اصبر عالج الشيء بالتي هي أحسن المهم أن تكون عازماً على إزالة هذا.

٣- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ ليس حفيظاً على الأمة لا في حياته ولا بعد مماته، وعلى هذا فلا يستغاث به بعد موته ولا تطلب منه الهداية وإنما الهداية من عند الله - عزَّ وجلَّ - .

٤- **ومن فوائدها:** وجوب الإبلاغ ولم يبين الله الوسيلة للإبلاغ، فنقول: كل وسيلة للإبلاغ فهي واجبة والوسائل لها أحكام المقاصد، فيما سبق الإبلاغ محصور يبلغ الإنسان مَنْ جاء إلى بلده ومن يفد إليها من الناس، الآن يمكنه أن يبلغ العالم كله وحينئذٍ نسأل: لو أن شخصاً أمكنه أن

يجعل له صفحة في الإنترنت أيجوز أن يفعل؟ يجوز ذلك حتى ولو كان قبله أغنية وبعده أغنية؛ لأن هذا ليس من فعله، لكن لا يجوز أن نترك الدعوة إلى الحق لأن في هذه الإذاعة مثلاً أو المحطة لأن فيها سيئة، هذا غير صحيح ونظرية قاصرة، زَاحِمْ أهل الباطل حتى يتبين الحق، ولا يضرك إذا أدخلوا فيها أشياء منكرة، بعض الناس مثلاً يقول لنا أو لغيرنا لا تدخلون الإنترنت لا تدخلون فيها، كيف تدخلون فيها وفيها الأغاني وفيها البلاوي وفيها، ما يصير؟ أيهما أولى أن ندخل في هذا المغمار لعل الله أن يهدي بنا واحداً من الناس، أو أن ندع المجال لأهل الشر؟ الأول بلا شك، الأول أحسن، ومثل ذلك ما يقال في الانتخابات إذا كان البلد مبنية على الانتخابات يقول: بعض الناس لا تنتخب، يا جماعة ما أرشح واحد من أهل الخير؟ قال لا، الانتخابات وفيها بلاء وفيها رشاوي وفيها أهواء، إذا كان فيها رشاوي وأهواء أنا لن أدخل في الرشاوي والأهواء ولكن أدخل في ترشيح رجل أعرف أن فيه خير، قالوا: إذا رشحت واحدًا يأتي مائة فاسد، طيب إذا كان مائة فاسد ليس معهم مستقيم أو مائة فاسق معهم مستقيم؟ الثاني أحسن، وإذا قالوا إن هذا لا يجدي ولا ينفع، واحد في المائة ما فيه فائدة، نقول: لابد أن يكون فيه فائدة، إذا أخلص النية لله لابد أن يؤثر؛ هل لأن الكلمة لله ليست تؤثر؛ لأن فلاناً تكلم بها؟ تؤثر لأنها كلمة الله، واسمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وبعده ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ أم ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾؟ بالرفع؛ لأنه لو قال: وكلمةَ الله دخلت في المفعول به، يعني: وجعل كلمة الله، وكلمة الله هي العليا بجعله وبغير جعله، ولهذا تبين الآن أن قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ لها موقع عظيم جداً يعني: أن كلمة الله هي العليا مهما جاءت هي العليا ولا يخفى عليكم ما يتكرر في قصة موسى مع السحرة وفرعون لما اجتمعوا وكان موسى واثقاً بنصر الله - عزّ وجلّ - ، ولهذا لما قالوا: اجعل لنا موعداً، جعل لهم موعد في وسط الليل في حجرة مظلمة؟ لا، متى؟ في وضح النهار وفي يوم الزينة يوم العيد، قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩] شيء عجيب جاء السحرة وجمع فرعون كيده ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه:٦٤] فقال موسى كلمة واحدة قال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١] ما الذي حصل من هذه الكلمة؟ اسمع ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ في الحال، الفاء تدل على الترتيب والتعقيب والسببية، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ وإذا تنازع الناس تحدث عن الفشل، حدث ما شئت ولا حرج، تنازعوا أمرهم بينهم ففشلوا وفي النهاية أن هؤلاء السحرة الذين جاءوا يكيدون

لموسى صاروا مع موسى وهُددوا بالقتل والصلب ولكن أبوا قالوا لفرعون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فالإيمان إذا دخل القلب فلا تسأل عن الحزم والعزم والقوة، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ والذي لا يموت اليوم يموت غدا فالمهم أني أقول: إن بعض الناس إذا رأى الموقف غلب فيه الشر استحسر وتخلّى وهذا غلط، خذ غمار القوم والنصر للحق، أنا ما دخلت مع هؤلاء لأوافقهم على باطلهم، سأدافع عن الحق الذي أعتقده مهما أمكن، ثم إنه من الحكمة أن يفتت القوم المجتمعون، يفتتوا يعني: يؤخذوا واحدًا واحدًا ويُتكلم مع كل واحد، ويقال: يا فلان ما هي فائدتك من هذا؟ هذا إثمنا عليك، هذا سوء في الدنيا والآخرة، كما فعلت قريش في نقض الصحيفة التي تعاهدوا فيها على مقاطعة بني هاشم والقصة مشهورة، صار أحد المعارضين لهذه الصحيفة يأتي كبراءهم كبراء الذين وقعوا يأتيهم واحد واحد يقول: كذا وكذا وكذا، حتى تفتتوا وهذا من السياسة؛ لأنك إذا فتت المجتمعين زالت قوتهم وزال سلطانهم وحصلت على الخير.

٥- **ومن فوائدها:** أن الناس ينقسمون إلى قسمين: قسم إذا أصابته رحمة من الله فرح بها فرح أشر وبطر، وقسم آخر إذا أصابته ـ رحمة الله تعالى ـ فإنه يستعملها في طاعة الله.

٦- **ومنها:** التحذير من الفرح بنعمة الله إذا كان فرح أشر وبطر، وأما إذا كان فرح استبشار وسرور وقيام بطاعة الله فإنه يمدح، قال ـ الله تعالى ـ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

٧- **ومن فوائدها:** أن ما يصيب الإنسان من سيئة فإنما هو بسبب عمله؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٨- **ومن فوائدها:** التعبير بالبعض عن الكل إذا كان لهذا البعض تأثير كبير؛ لقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

٩- **ومن فوائدها:** أن الإنسان من حيث هو إنسان إذا أصابته السيئة كفر بمعنى أيس من رحمة الله ـ تعالى ـ أن يصرف عنه هذه السيئة، وأما المؤمن فإنه لا ييأس بل يصبر وينتظر الفرج إيماناً بقول النبي ﷺ: (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا).



❁ قال الله تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩ - ٥٠]

❁ التفسير ❁

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجملة خبرية خبرها مقدم يراد به الحصر؛ لأن القاعدة البلاغية أن تقديم ما حقه التأخير يدل على الحصر والاختصاص، إذن (لله) لا لغيره (ملك السموات والأرض) أي خلقاً وتدبيرا، فالله - تعالى - مالك السماوات والأرض خلقاً وتدبيرا ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (ما) هذه موصولة ويعبر عنها غالباً لما لا يعقل، وكان التعبير بها ليعم الأعيان والأوصاف؛ لأنه إذا قصدت الأوصاف عبر بها ولو كان لعاقل، انظر إلى قول الله تعالى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ولم يقل (من طاب)، مع أن النساء من العقلاء، لكن لما كانت المرأة إنها تنكح من أجل صفاتها لا لعينها قال: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، هنا ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ نقول عبر بها؛ لأن المقصود بذلك الأعيان والأوصاف، أما الأعيان فلو سئلنا أيها أكثر العاقل أو غير العاقل؟ في الأرض غير العاقل لكن في السماء لا، السماء أوسع من الأرض وما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك فيكون العاقل باعتبار الجميع أكثر، لكن باعتبار ما في الأرض الأكثر غير العاقل، كذلك - أيضاً - إذا اعتبرنا الأوصاف فالأوصاف تشمل العقلاء وغيرهم فلهذا عبر بها، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يُوجده بعد العدم، ولكن الخلق ليس مجرد إيجاد بل هو خلْق عن تقدير ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ هذا من جملة خلقه - أيضاً - ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ الهبة هي التبرع بالشيء مجانًا، ووصف الله - تعالى - الأولاد بالهبة؛ لأنه لا طاقة للإنسان في إيجادهم بل هو مجرد فضل من الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [من الأولاد] ﴿إِنَاثًا﴾ قوله: [من الأولاد] كيف تتلائم مع قوله إناثا؟ لأن الأولاد في اللغة العربية تشمل الذكر والأنثى كما في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ولم يقل: ذكورا، بل أتى بـ(أل) المعرفة الدالة على شرف مدخولها، فإن الذكور عند الناس أشرف من الإناث، ولكن مع هذا جبر نقصهن بتقديم ذكرهن على الذكور، أو يقال إن الله قدم الإناث لأن إرادة الإنسان أن يكون أولاده ذكوراً، فقدم

الإناث إشارة إلى أن الأمر إلى الله وحده لا إلى ما يريده الإنسان ويهواه، ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ قال: [أي يجعلهم] والصواب: يصنفهم؛ لأن التزوج بمعنى التصنيف كما قال - تعالى -: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] أي: أصناف، فمعنى يزوجهم أي: يصنفهم فيجعلهم صنفين ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ فلا يلد ولا يولد له، فلا يلد باعتبار الأنثى ولا يولد له باعتبار الذكر، فهذه أربعة أصناف: الأول: أن يهب لمن يشاء إناثا، الثاني: أن يهب ذكورا، الثالث: أن يهب ذكورا وإناثا، الرابع: أن يجعل الإنسان عقيما، لا ذكور ولا إناث، ذلك لأن الأمر أمر الله - عزَّ وجلَّ -، ولا أحد يستطيع أن يخلق شيئا من هذا، بل الله وحده هو الخالق، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عليم [بما يخلق]، قدير [على ما يشاء] فهو يعلم ما يخلق - عزَّ وجلَّ -، وقدير على ما يخلق ما أراد، في الآية الكريمة عموم ملك الله - سبحانه وتعالى - لما في السماوات والأرض لقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الفوائد:

١- **من فوائدها:** اختصاص الله - تبارك وتعالى - بذلك، من أين نأخذ الاختصاص، اختصاص الله - تعالى - بملك السماوات والأرض؟ وجه ذلك؟ وجه ذلك أن الله قدّم الخبر والخبر حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، فإن قال قائل: إذا قلتم إن ملك السماوات والأرض خاص بالله أليس الإنسان له ملك؟ قال - الله تعالى -: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فللإنسان ملك، فكيف الجمع بين قولنا إن ملك السماوات والأرض خاص بالله وإثبات الملكية لغير الله؟ الجواب: ملك الله - تبارك وتعالى - تام شامل، ففيه شمول التصرف وفيه شمول المكان، بمعنى: أن ملك الله - تعالى - تام من كل وجه عام من كل وجه، ملك الإنسان قاصر من جهة عموم المكان ومن جهة عموم التصرف، فكلنا نملك لكن ملكنا محدود، أنا أملك حقيبة ولا أملك حقيبة أخرى لغيري فهو محدود، ثانيًا: ناقص ملك ناقص، لا يمكنني أن أتصرف في ملكي كما أشاء، صحيح لا يمكن أن أضيعه؛ لأننا منهي عن إضاعة المال، لا يمكن أن يعذبه إن كان حيواناً؛ لأني منهي عن ذلك، لا يمكن أن آكل من ملكي ما شئت وأدع ما شئت، فالحيوان المحرم لا يجوز لي أن آكله ولو كان ملكي، المهم أن ملك الإنسان محدود.

ثانيا: ناقص، محدود: لا يشمل كل شيء، ناقص: لا يملك كل تصرف.

٢- **ومن فوائدها:** أن الله - تبارك وتعالى - يخلق ما يشاء من الأعيان والأوصاف على أي كيفية وعلى أي صفة، ولهذا انظر إلى مخلوقات الله هل هي واحدة؟ لا، ليست واحدة تختلف اختلافا عظيما كبيراً، في الشكل وفي الأيدي وفي الأرجل وفي الغذاء وفي كل شيء، فالله - تعالى - يخلق ما يشاء، لكن اعلم أن الله - تعالى - هدى كل مخلوق لما خلق له، قال الله - تعالى - عن موسى حين

سأله فرعون قال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: خلقه اللائق به ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أي هدى كل مخلوق لما خلق له، ولذلك تجد هذا المخلوق لا يأكل هذا النوع من هذا العشب والمخلوق الآخر يأكل منه، تجد هذا المخلوق لا يسكن هذا النوع من الأرض ويسكن أرضاً أخرى ومخلوق آخر بضده، الرمل مثلاً لا يسكنه النمل؛ لأنه لا يملك الجحور، لكن يسكنه الحشرات أو الزواحف التي تندس في الرمل؛ لأن هناك زواحفًا صغيرة تندس في الرمل اندساسا تشاهدها كأنما يغوص السابح في الماء وليس لها جحور، هناك أشياء ما تسكن هذا النوع من الأرض، بل تسكن أرضاً صلبة حتى تبني لها الجحور، أشياء غريبة في مخلوقات الله؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطى كل شيء خلقه.

٣- **من فوائد الآية الكريمة:** أن الأولاد هبة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ والهبة هي العطية بلا عوض، فما هو العوض الذي هو علينا بالنسبة لأهل النعم؟ هو الشكر، وهنا سؤال هل يجوز أن تسمي ابنك أو ابنتك هبة الله؟ نعم يجوز، ولهذا قال الفقهاء ـ رحمهم الله ـ في السقط: السقط إذا سقط يعني: الحمل إذا سقط بعد أن تنفخ فيه الروح فسمه ولو مات في الحال سمّه، فإذا جهلت أنه ذكر أو أنثى فسمّه اسماً يصلح لهما بأن تقول: هذا هبة الله، سمّه هبة الله.

٤- **ومن فوائدها:** أنه لا اختيار للمرء بالنسبة للأولاد؛ لقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فجعل الأمر راجعا إلى مشيئته ـ سبحانه وتعالى ـ.

٥- **ومنها:** أنه لا ينبغي للإنسان أن ييأس إذا أتاه إناث متتابعات فإن بعض الناس إذا أتاه إناث متتابعات أيس وقال: لن يولد لي ذكر، وهذا غلط فالله ـ تعالى ـ يخلق ما يشاء.

٦- **ومن فوائدها:** تمام قدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ حيث خلق مِنْ هذه النطفة وهي واحدة خلق منها ذكورًا خلصًا وإناثًا خلصًا والثالث أصنافًا ذكورًا وإناثًا مع أن الماء واحد، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على كل شيء قدير.

٧- **ومنها:** أن العقم يعتبر نقصا بالنسبة لمن يُولد له؛ لقوله: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ بعد أن ذكر أن الأولاد هبة فيكون العقيم موهوبا له أم لا؟ لا إذن هذا نقص، ويتفرع على هذه القاعدة أنه لو تبين زوج المرأة عقيماً فلها فسخ النكاح، يعني: لو أن أحداً تزوج امرأة وهو لا يعلم عن نفسه ثم تبين أنه عقيم فلها أن تفسخ إما بنفسها – تُشْهِدُ اثنين تقول: إني فسخت نكاحي من فلان -، أو بالقاضي تذهب وزوجها إلى القاضي فيفسخ النكاح، وهذا حق لها، فإن قال الزوج: أنا ليس فيَّ عيب إنه يقدر على الوطء وإنه مستقيم خلقًا ودينًا لماذا تفسخونها مني، ماذا نقول؟ نقول: لأن العقم عيب والمرأة لها حق في الأولاد، ولذلك يحرم على الزوج أن يعزل عن زوجته إلا بإذنها؛

لأنه إذا عزل عنها حرمها من الأولاد إلا أن تأذن.

٨- **ومن فوائدها:** إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عزَّ وجلَّ - وهما: العليم والقدير.

٩- **ومن فوائدها:** إثبات ما دل عليه هذان الاسمان مِنْ صفة، العليم دل على ماذا؟ على العلم، والقدير على القدرة، وكل اسم من أسماء الله متضمن لصفة أو لأكثر، وليست كل صفة يُشتق منها اسم لله، وبه نعرف أن الصفات أكثر من الأسماء.

١٠- **ومن فوائدها:** إثبات المشيئة لله - عزَّ وجلَّ - لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا أحد يجبره على أن يخلق أنثى أو ذكراً، بل له - عزَّ وجلَّ - المشيئة التامة في خلقه، واعلم أنه كلما ذُكِرَتِ المشيئة لله - عزَّ وجلَّ - فإنها مقرونة بالحكمة، يعني: أن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة بل هي مقرونة بالحكمة والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان:٣٠] بعد أن قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فعلم من هذا أن مشيئة الله تابعة لعلمه وحكمته وأنه لا يشاء شيئًا مشيئة مجردة، بل لابد أن تكون مقرونة بالحكمة وهذا في كل نص يأتيك فيه ذكر المشيئة لله، فاعلم أنها مقرونة بالحكمة، ثم قال - عزَّ وجلَّ - لما ذكر خلقه - سبحانه وتعالى - وأنه هو الخالق له المشيئة المطلقة ذكر شيئاً آخر وهو الشرع، لو تأملت الآيات القرآنية لوجدت أن الله - تعالى - يذكر الشرع قبل القدر، اقرأ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمن:٣] فبدأ بالشرع ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق:٢] فبدأ بالقراءة، وهكذا تجد هذه القاعدة مطردة إلا أن يكون هناك سبب لتقديم الخلق على الشرع، نسأل الله - تعالى - أن يلقانا برحمته وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى.



قال الله تعالى:

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]

التفسير

قال - الله تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ (ما كان): هذه الصيغة في القرآن الكريم تدل على أن الشيء ممتنع غاية الامتناع، ممتنع غاية الامتناع إما قدراً وإما شرعاً، قال - الله - تعالى -: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ يعني: ممتنع غاية الامتناع، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن

﴿يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ممتنع غاية الامتناع شرعا؛ لأنه يجوز أن يستغفروا لكن حرام عليهم، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾ هذا ممتنع قدراً يعني: حسب خبر الله - عزَّ وجلَّ - وإلا فالله قادر على أن يكلم على غير هذا الوجه، لكن حسب خبر الله يكون ممتنعاً ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ البشر: هم الآدميون سموا بشراً لماذا؟ لأن بشرتهم بادية إلا أن يستتروا، غير الآدم من الحيوانات مستور إما بالريش وإما بالصوف وإما بالوبر وإما بالشعر، إما بالريش مثل الطير، وإما بالشعر مثل الماعز، وإما بالصوف كالضأن، وإما بالوبر كالإبل، الآدمي لم تستر بشرته، والحكمة من ذلك أنه إذا شعر الإنسان بافتقاره إلى الكسوة الحسية انتقل من هذا إلى افتقاره إلى الكسوة المعنوية، انظر الحكمة من الله - عزَّ وجلَّ - حتى يعرف الإنسان أنه محتاج إلى ستر العورة المعنوية كما احتاج إلى ستر العورة الحسية، وإلى هذا يشير قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ اللباس العادي ﴿وَرِيشًا﴾ اللباس الجميل الذي يتزين به المرء، ثم قال ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لباس التقوى هذا اللباس معنوي أم حسي؟ معنوي، وقيل إن الآدمي سمي بشراً لظهور أثر ما في قلبه على بشرته، إذا غضب الإنسان يظهر أثر الغضب على بشرته، ماذا يصنع؟ يحمر وجهه وعيناه وتنتفخ أوداجه ويقف شعره، وإذا بشر بما يسره يتهلل وجهه وتجد فيه البشرى، والظاهر - والله أعلم - أن المعنى الأول أقوى أنه سمي بشراً لظهور بشرته إلا بساتر، ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يقول: [إلا أن يوحي إليه] وحيًا [في المنام أو بإلهام] هذا واحدة ﴿أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ يعني: يكلمه مباشرة غير الوحي الذي في القلب من وراء حجاب كما حصل لموسى - عليه الصلاة والسلام - وحصل لمحمد ﷺ ليلة المعراج، فإن الله كلمه من وراء حجاب، فما هو الحجاب الذي يحتجب الله به؟ قال النبي ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»، هذا النور نور عظيم جداً ما أحد يتصوره، هذا هو الذي احتجب الله به عن الخلق - تعالى - الله، فإذا كان هذا النور من قوته يحجب فما بالك بنور الله - عزَّ وجلَّ - ؟ هو أعظم وأعظم قال - الله تعالى -: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا يتصور أحد ذلك أبدا، وإنما يُكلِّم الله - تعالى - عباده من وراء حجاب؛ لأنه لو كشف الحجاب لهلك الإنسان، ولم يستطع أن يثبت أمام رؤية الله - عزَّ وجلَّ - ، ولما قال موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال هذا شوقا إلى الله - عزَّ وجلَّ - ، لا شكًّا، قال ذلك شوقا إلى الله، قال الله له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يعني: لا يمكن أن تراني، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ الجبل الأصم الصلب ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ تجلى ما ظهر كله تجلى للجبل ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ دك الجبل مرة واحدة وساوى الأرض، موسى - عليه الصلاة والسلام - لما رأى هذا صعق غشي عليه مِنْ هَوْل ما رأى، فهل الآدمي الضعيف يثبت لرؤية الله والجبل لم يثبت؟ لا والله، ولهذا اندهش موسى وصعق وعلم أنه لا يمكن أن يرى الله - عزَّ وجلَّ - قوله: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ الوحي هو ما

يحصل للرسول من الإلهام أو الرؤية المنامية؛ لأن أصل الوحي الإعلام بسرعة وخفاء، هذا أصله في اللغة، فيكون ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي عن طريق الإلهام أو طريق المنام، ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يعني: يكلمه الله ـ تعالى ـ مكالمة صريحة ولكن من وراء حجاب، والحجاب المذكور هو النور كما قال النبي ﷺ: حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وذلك أن البشر لا يستطيع رؤية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الدنيا، قال موسى لربه ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ قال ذلك شوقاً ومحبة فقال ـ الله تعالى ـ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي لن تستطيع ذلك، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ فنظر موسى إلى الجبل فلما تجلى الله له جعله دكا، اندك حتى ساوى الأرض، فلما رأى موسى هذا خر صعقا، أي غشي عليه من هول ما وجد وعدم تحمله، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف:١٤٣] فإذن إذا أراد الله أن يكلم أحدا من الرسل فلابد أن يكون هناك حجاب، القسم الثالث: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ وهو جبريل يرسله إلى المرسل إليه فيوحي إلى هذا الرسول بإذن الله ـ تعالى ـ ما يشاء، وإنما خصصناه بجبريل لأن جبريل موكل بالوحي، وقد كان النبي ﷺ يستفتح في صلاة الليل بهذا الاستفتاح: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» هؤلاء الثلاثة كل واحد منهم موكل بما فيه الحياة، جبريل: بما فيه حياة القلوب، إسرافيل: بما فيه حياة الناس للبعث، ميكائيل: بما فيه حياة الأرض الذي به يحي البهائم والإنسان، ﴿فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ بإذنه: أي بإذنه القدري ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾ أي: مما أوحاه الله إلى هذا الرسول الذي بعثه إلى الرسول البشري ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ﴾ [عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ] هذا تفسير خطأ؛ لأنه يوهم أن كل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق، فالسمع لا يثبت للخالق والبصر وكل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق ولذلك لو قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: إنه عَلِيٌّ عن مماثلة المخلوقين وصفات النقص لو قال هذا لكان أهون، مع أننا نقول: إنه عَلِيٌّ بذاته وصفاته، فذاته فوق كل شيء وصفاته هي المثل الأعلى هذا هو الصواب، لكن المؤلف ـ عفا الله عنا وعنه ـ يفسر القرآن على طريقة الأشاعرة؛ لأنه منهم، فلذلك يحرف الكلم عن مواضعه ليوافق مذهبه الباطل، وهذه آفة قَلَّ مَنْ يسلم منها مِنْ أهل العلم، تجد رجلا يعتقد شيئاً ما في العقيدة أو في الأحكام الشرعية التكليفية ثم يحاول في النصوص التي تخالف ما ذهب إليه أن يلوي أعناقها إلى ما ذهب إليه، فيجعل النصوص تابعة والواجب أن تكون متبوعة، لكن هذه آفة ابتلي بها كثير من الناس، إنما نحن نقول: ﴿عَلِيٌّ﴾ يعني: بذاته وصفاته عن كل نقص، أما [عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ] هذه غرائب، والثاني يقول: [حكيم في صنعه] هذا ـ أيضاً ـ ناقص، بل هو حكيم في صنعه حكيم في شرعه، والحكمة في الشرع أبلغ من الحكمة في الصنع؛ لأن الصنع أمر كوني لا طاقة للإنسان في تغييره ولا

في الحيادة عنه، أما الأمر الشرعي فهو هو الذي محل التلاعب من البشر، فنقول: للبشر لا تتلاعبوا بأحكام الله فإنها صادرة عن حكمة، إذن يعتبر تفسير المؤلف الذي قصره على الحكمة القدرية في صنع الله تفسيراً ناقصاً فنقول: حكيم في صنعه وشرعه.

الفوائد:

١- **من فوائد الآية الكريمة:** بيان عظمة الله - عزَّ وجلَّ - ، وأنه لا يستطيع البشر أن يكلموه بلا واسطة، إما رسول أو حجاب؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

٢- **ومن فوائدها:** إثبات تكليم الله - عزَّ وجلَّ - ، وقد سبق الكلام عليه فلا حاجة إلى إعادته وبينا أن كلام الله - عزَّ وجلَّ - كلام بحرف وصوت مسموع، وأن ذلك من كماله وليس كما يزعم الزاعمون إنه من النقص.

٣- **ومن فوائدها:** أن إيحاء الله تعالى: على ثلاثة أوجه: وحي إلهام، والثاني: تكليم من وراء حجاب، والثالث: إرسال رسول يوحي إلى المرسَل إليه ما شاء الله.

٤- **ومن فوائدها:** إثبات مشيئة الله - عزَّ وجلَّ - لقوله ﴿مَا يَشَاءُ﴾.

٥- **ومنها:** إثبات علوه بقسميه: العلو الذاتي والعلو الوصفي، فأما علو الذات فهو أنه - سبحانه و تعالى -: فوق كل شيء، وأما علو الوصف فهو أن جميع صفاته عُلْيَا ليس فيها نقص من وجه من الوجوه.

٦- **ومن فوائدها:** إثبات الحكمة في شرعه وخلقه، وإثبات الحكم الكوني والشرعي؛ لأنه مر علينا أن كلمة حكيم تعني الحكم والحكمة معا، قسم الله الناس بالنسبة للإيحاب إلى ثلاثة أقسام: وحياً، أو من وراء حجاب، أو عن طريق الملك ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ هذه ثلاثة أقسام، وهل معنى هذا أن الله - سبحانه و تعالى -: سوف يرزقنا يوم القيامة قوة في أبصارنا حتى ننظر إليه؟ أي نعم، قوة الناس يوم القيامة لا تنسب إليها قوة الدنيا أبداً، أليس يمكثون خمسين ألف سنة لا يأكلون ولا يشربون، هذا لا يمكن أن يطاق في الدنيا، أليس الواحد ينظر إلى ملكه في الجنة مسيرة ألفين سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه هذا لا يمكن في البشر في الدنيا، وما معنى ﴿تَجَلَّى﴾؟ أي ظهر، لمن يثبت الستر يوم القيامة؟ الظاهر أنه يثبت للجميع، ورد في الحديث أنه للنساء أيضاً أن المرأة إذا مات لها ثلاثة من الولد كان لها سترا من النار، وأما مسألة التربية فلأن الأب هو المسئول عن تربية الأولاد، وما الحكمة في ذكر الخلق بعد الشرع؟ أقول مما يدل على أن الاهتمام بالشرع أبلغ والناس ما خلقوا إلا للشرع، قول - الله تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وهل كلَّم الله أحدًا غير موسى؟ نعم كلم النبيَّ ﷺ، كلم آدم لكن موسى - عليه الصلاة

والسلام ـ سمي الكليم؛ لأنه أول ما أوحى الله إليه كلمه، وغيره أوحى الله إليه بواسطة. والخلق أولًا ثم جاء بالشرع وذلك لأن الشرع يختص بالأنبياء، الشرع المذكور هنا الوحي الخاص بالأنبياء هذا هو السبب، وأنه خاص بالأنبياء، هل هو يريد النور المخلوق؟ لا ما هو يريد النور المخلوق، النور المخلوق منفصل عن الله وليس صفة لله، هذا إذا قلنا: إن نور بمعنى المنور؛ لأن بعض المفسرين قال: [منور السماوات والأرض]، لكنه خلاف ظاهر الآية، ويقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وليس هو النور المخلوق، بل هو ـ عزَّ وجلَّ ـ نور وكلامه نور وحجابه نور، يعني: على هذا الحال يكون ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ (مَنْ) عامة أريد بها الخاص كذا؟ هذه، إذا قلنا: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي الأنبياء؟ ـ انظر بارك الله فيك ـ إذا ادعى أحد خلاف ظاهر النص لا تقبل منه، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ولم يقل: للأنبياء، ثم من الذي يقول: إن الصحابة يعني: سئموا من كون بعضهم يولد له وبعضهم لا يولد له، بعضهم يولد له إناث وبعضهم يولد له ذكور، من قال هذا؟ فالآية عامة، وكل ما وجدت قولاً يكون فيه التخصيص والعام فلا تقبله إلا بدليل، ونحن ذكرنا أنه تجلى أي بعضه ـ عزَّ وجلَّ ـ، على أني في قلق من هذا، من كون المراد بعضه؛ لأن الأصل أنه كله لكن قد يقال: إنه يمنع من هذا أن الله تعالى: لا يحيط به شيء من مخلوقاته فلا يمكن أن يتجلى كله والأرض ما هي بالنسبة إليه شيء.



قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]

التفسير

ثم قال ـ عزَّ وجلَّ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَٰبُ وَلَا الْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [أي مثل إيحائنا إلى غيرك من الرسل] ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ كذلك تأتي في القرآن كثيراً، وحسب كلام المفسر: أن الكاف اسم بمعنى مثل، فتكون مصدرا لفعل محذوف، والتقدير: مثل ذلك، ثم تفسر الفعل بما يناسب المقام، أي مثل إيحائنا لمن سبق من الرسل أوحينا إليك يا محمد، أفادنا بقوله: [يا محمد] أن الخطاب خاص

بالرسول ﷺ ولا يتعداه إلى غيره، ﴿رُوحًا﴾ قال: [هو القرآن به تحيا القلوب] صَدَقَ، المراد بالروح هنا القرآن؛ لأنه تحيا به القلوب، وقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الذي نوحيه إليك] يعني: مما نأمر به، ويحتمل أن يكون الأمر هنا واحد الأمور لا واحد الأوامر أي من شأننا، ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي﴾ [تعرف قبل الوحي إليك] ﴿مَا الْكِتَابُ﴾ [القرآن] ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قال المؤلف: [أي شرائعه ومعالمه] أوحى الله إلى نبيه روحاً من أمره سواء قلنا واحد الأمور أو واحد الأوامر، وأخبر أن لله المنة الكبرى عليه في ذلك؛ لأنه كان قبل هذا ما يدري أي ما يعلم أو ما يعرف ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ كلمة ما الكتاب يحتمل أن المراد بها: ما الكتابة ويحتمل أن يراد بذلك ما ذكره المؤلف وهو القرآن، أما الأول؛ فلأن الله تعالى: قال في نبيه ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨] وأما كون المراد به القرآن فهذا أمثلته كثيرة، المهم أن النبي ﷺ ما كان يعرف حتى الكتابة ما يكتب، ﷺ وما كان يعرف أيضاً الوحي قبل أن يوحى إليه، ﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ قال المؤلف [أي شرائعه ومعالمه] يعني: وما كنت تدري عن شرائع الإيمان، فهل كان الرسول ﷺ يدري عما شرعه الله له في هذه الشريعة كاملة قبل ذلك؟ لا، ثم قال المؤلف: [والنفي معلق للفعل عن العمل وما بعده سد مسد المفعولين] الجملة هذه للإعراب، كلمة تدري: تنصب مفعولين، هل بعدها شيء منصوب؟ لا، بعدها ما استفهامية مبتدأ والكتاب خبره ما فيها شيء منصوب، إذا جاءت الجملة الاستفهامية في محل المفعولين فإنها تعلق الفعل عن العمل ظاهراً ولكن الجملة تكون في محل نصب، إذن الاستفهام هنا علق الفعل عن العمل، وما بعده سد مسد المفعولين، ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ جعلناه [أي: الروح أو الكتاب]، يعني: جعلنا الكتاب الذي أوحينا إليك أو الروح الذي أوحينا إليك والمعنى لا يختلف ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ - اللهم اهدنا به - النور يهتدي به الناس ومنه قول الخنساء في أخيها:

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

يعني: النار تجعل علامة على الشيء إذا كان الناس في البر أوقدوا في الليل نارًا على رأس جبل أو على رأس أكمة، حتى يهتدي بها مَنْ يريدهم، يقول: ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ نهدي بهذا النور من نشاء، وهذا مبني على حكمة الله - عزّ وجلّ -، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠].

فمن الحري أن يهدى بهذا النور؟ مَنْ تمسك به وعمل بما فيه تصديقا للأخبار وتنفيذاً للأحكام من فعل هذا صار القرآن له نورًا يهتدي به كما قال - الله تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧] وأما من أعرض عنه - والعياذ بالله - فإنه سيكون حجة عليه ولا ينتفع

به، ﴿نَهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ هل المراد العبودية العامة أو الخاصة؟ ﴿نَهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ هذه تقسم الناس إلى قسمين: مهتدٍ وضال، فيكون عبادنا المراد به العبودية العامة؛ لأنه جعل العبودية هذه قسمين: مهتدٍ وضال، ﴿مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ﴾ أي: يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ قال: [تدعوا بالوحي إليك إلى صراط مستقيم] لو أن المؤلف قال: ﴿لَتَهْدِي﴾ أي تدل لكان أوضح وأخصر، تهدي بمعنى تدل فهي هداية الدلالة، أما المؤلف يقول: [تدعو بالوحي إليك] ولكن هذا لا يكفي؛ لأنه لو دعا فهل يهتدي الناس لكن لو قلنا: تدل فقد وضح الطريق ودلّ عليه ثم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ [طريق] ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: [دين الإسلام] وصدق، الصراط المستقيم بعد بعثة رسول الله ﷺ هو دين الإسلام، ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صراط الله: هذه بدل من قوله: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ أضافه الله تعالى إلى نفسه؛ لأنه الذي وضعه لعباده؛ ولأنه موصل إليه، فأضيف إلى الله باعتبارين:

الأول: أنه الذي وضعه لعباده وشرعه لهم.

والثاني: أنه موصل إليه، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: قويم غير معوج ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (له)، الجار والمجرور خبر مقدم، و﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأ مؤخر، وتقديم الخبر يفيد الحصر، أي له وحده ما في السماوات وما في الأرض [ملكًا وخلقًا وعبيدًا]، لو قدم المؤلف خلقا على [ملكًا] لكان أحسن لأن الخلق سابق على الملك ولكن القول في هذا سهل، وقوله: [عبيداً] يعني: تدبيراً يدبره، ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ ألا هنا أداة استفتاح والمقصود بها التنبيه والتأكيد، وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ مفعول (تصير) مقدم عليها لإفادة الحصر، أي إلى الله لا إلى غيره تصير الأمور أي الشئون شئون الخلق، في هذه الآية بيانٌ أن هذا القرآن الكريم روح تحيا به القلوب، وعلى هذا إذا وجدت قلبك ميتاً، أو وجدته مريضاً، أو وجدته قاسياً فعليك بالقرآن اقرأه عن محبة وتدبر فسيتغير القلب من مرض إلى صحة، ومن موت إلى حياة، ومن قسوة إلى لين، قال ابن عبد القوي ـ رحمه الله ـ:

وَحَافِظْ عَلَى دَرْسِ القُــرانِ فَـإِنَّهُ يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْـــلَ جَلْمَدِ

أي مثل الحصى، ويدل عليه هذه الآية.

الفوائد:

١- **ومن فوائد هذه الآية:** أن القرآن من أمر الله، وينبني عليها أنه ليس بمخلوق، وجه ذلك قول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ففصل الخلق عن الأمر وجعله قسيماً له فدل ذلك على أن الأمر ليس من الخلق، وهذا هو المراد، فهذه الآية مما يُستَدَلُّ به على طائفتي المعتزلة والأشعرية الذين يقولون: إن القرآن مخلوق، ـ فالاستدلال واضح ـ ووجه ذلك أن الله جعل

الأمر قسيما للخلق وقسيم الشيء ليس قسمًا منه.

٢- **ومن فوائدها:** تعظيم الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ نفسه لقوله: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ وقوله: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾ وهو أهل للتعظيم ـ عزَّ وجلَّ ـ وأهل للإكرام وأهل للثناء.

٣- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ قبل هذا الوحي لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وعليه يدل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضُّحى:٧] ضالاً يعني: جاهلاً.

٤- **ومن فوائدها:** بيان منة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ﷺ بإنزال القرآن الذي صار به عالماً بالكتاب وعالما بالإيمان.

٥- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ كان أميا لا يقرأ ولا يكتب فيكون فيه إبطال لدعوى أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم كاذب؛ لأنه لا يستطيع أن يأتي بهذا القرآن من عنده.

٦- **ومن فوائدها:** أن الله ـ سبحانه و تعالى ـ: جعل القرآن نوراً يهدي به من يشاء، وينبني على هذه الفائدة أنك إذا أردت أن يستنير قلبك ويحيا قلبك فعليك بالقرآن لكن قراءة تدبر.

٧- **ومن فوائدها:** إثبات أن الهداية والضلال بمشيئة الله؛ لقوله: ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٨- **ومن فوائدها:** أن النبي ﷺ يدل على الصراط المستقيم لقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الجواب: أن الهداية في الآية الثانية هداية التوفيق، فإن النبي ﷺ لا يملك أن يهدي أحدا وأما الهداية في الآية التي هنا فهي هداية الدلالة،اقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ هديناهم هداية دلالة يعني: بينا لهم الحق ودللناهم عليه ولكنهم – والعياذ بالله – استحبوا العمى على الهدى فلم يهتدوا.

٩- **ومن فوائدها:** أن هدي النبي ﷺ هدي مستقيم لا اعوجاج فيه لقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فليس فيه اعوجاج في الخبر، والاعوجاج في الخبر الكذب، وليس فيه اعوجاج في الشرائع بل كلها مبنية على العدل والفضل ـ والحمد لله رب العالمين ـ.

١٠- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن ما خالف هدي النبي ﷺ فليس صراطاً مستقيما تؤخذ من قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يعني: ما سوى ما أنت عليه فليس صراطا مستقيماً.

١١- **ومن فوائدها:** تعظيم شأن دين الله الذي يدعو إليه الرسول ﷺ لقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهنا يقول: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؟ فالجواب: أنه يضاف إلى الله باعتبار، ويضاف إلى الذين أنعم الله عليهم باعتبار آخر، فإضافته إلى الله باعتبار أنه وضعه وأنه

يوصل إليه، وباعتبار إضافته إلى الذين أنعم الله عليهم أنهم سالكوه المؤمنون به، اللهم اجعلنا منهم.

١٢- **ومن فوائدها:** عموم ملك الله واختصاصه بهذا الملك، العموم من قوله: ﴿مَا﴾ فإن (ما) اسم موصول يدل على العموم، واختصاصه به مِنْ تقديم الخبر على المبتدأ.

١٣- **ومن فوائدها:** الإشارة إلى أن الله - تعالى -: يحكم ما يشاء، وأنه لا اعتراض على حكمه لقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأتى بعموم الملك بعد ذكر الصراط المستقيم إشارة إلى أن ما حكم به - تبارك وتعالى -: لا اعتراض عليه فيه لأن الله له ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء ويشرع ما يشاء، ولهذا تجد بعض أهل العلم - رحمهم الله - إذا لم يهتدوا إلى علة الحكم قالوا: هذا تعبدي يعني: علينا أن نتعبد به وإن لم نعلم الحكمة.

١٤- **ومن فوائدها:** بيان أن الأمور كلها تصير إلى الله أي: ترجع إليه خلقاً وملكاً وتدبيراً وحكماً، كل شيء يرجع إلى الله، إذا اختلفنا في حكم في مسألة من مسائل العلم إلى من نرجع؟ إلى الله، إذا كان يوم القيامة يبعث الخلائق ويرجعون إلى الله، إذن ﴿تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: كل الأمور تصير إلى الله ترجع إليه، فهو منه المبتدأ وإليه المنتهى - تبارك وتعالى -.

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الشورى



الفهرس

الموضوع		الصفحة
تفسير قوله تعالى:	﴿حم ۝١﴾	٧
إلى قوله تعالى:	﴿...إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝٣﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا... ۝٤﴾	٢٠
تفسير قوله تعالى:	﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ... ۝٥﴾	٢٤
تفسير قوله تعالى:	﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ... ۝٦﴾	٢٨
تفسير قوله تعالى:	﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ... ۝٧﴾	٣٠
تفسير قوله تعالى:	﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ... ۝٨﴾	٣٩
إلى قوله تعالى:	﴿...وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ... ۝١٠﴾	٤٥
تفسير قوله تعالى:	﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ... ۝١١﴾	٤٧
تفسير قوله تعالى:	﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ... ۝١٢﴾	٤٩
تفسير قوله تعالى:	﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ... ۝١٣﴾	٥٦
تفسير قوله تعالى:	﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ... ۝١٤﴾	٦٠
إلى قوله تعالى:	﴿...لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝١٥﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ... ۝١٦﴾	٦٦
تفسير قوله تعالى:	﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ... ۝١٧﴾	٦٨
تفسير قوله تعالى:	﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ... ۝١٨﴾	٧١
تفسير قوله تعالى:	﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ... ۝١٩﴾	٧٥
إلى قوله تعالى:	﴿...إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٢٠﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ... ۝٢١﴾	٨٢
تفسير قوله تعالى:	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ... ۝٢٢﴾	٨٧
تفسير قوله تعالى:	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٢٣﴾	٨٩

تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ ... ﴿٢٤﴾﴾ ﴿... وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾	٩٢
تفسير قوله تعالى:	﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ... ﴿٢٦﴾﴾	٩٦
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾	٩٨
تفسير قوله تعالى:	﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ... ﴿٢٩﴾﴾	١٠٤
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم ... ﴿٣٠﴾﴾ ﴿... وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾	١٠٨
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ ﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾	١١٢
تفسير قوله تعالى:	﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ... ﴿٣٥﴾﴾	١١٣
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا ... ﴿٣٦﴾﴾ ﴿... وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾	١١٨
تفسير قوله تعالى:	﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ ... ﴿٣٨﴾﴾	١٢٥
تفسير قوله تعالى:	﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ... ﴿٣٩﴾﴾	١٢٥
تفسير قوله تعالى:	﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ... ﴿٤٠﴾﴾	١٢٦
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ ﴿... وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾	١٣١
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ... ﴿٤٤﴾﴾ ﴿... وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾	١٣٩
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ... ﴿٤٧﴾﴾ ﴿... وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾	١٤٥
تفسير قوله تعالى:	﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ﴿٥١﴾﴾	١٥٢

إلى قوله تعالى:	﴿...وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾	
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ ... ﴿٥٣﴾﴾ ﴿...إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾	١٥٧
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ ... ﴿٥٧﴾﴾ ﴿...قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾	١٦٩
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا ... ﴿٥٩﴾﴾ ﴿...سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾	١٧٢
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ... ﴿٦١﴾﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾	١٧٧
تفسير قوله تعالى:	﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا ... ﴿٦٤﴾﴾	١٨٣
تفسير قوله تعالى:	﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴿٦٥﴾﴾	١٨٩
تفسير قوله تعالى:	﴿۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴿٦٦﴾﴾	١٩٢
تفسير قوله تعالى:	﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ... ﴿٦٧﴾﴾	١٩٦
تفسير قوله تعالى:	﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ... ﴿٦٨﴾﴾	١٩٩
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ... ﴿٦٩﴾﴾ ﴿...ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾	٢٠٢
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ﴿...فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾	٢٠٧
تفسير قوله تعالى:	﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ... ﴿٧٧﴾﴾	٢١٤
تفسير قوله تعالى:	﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ ... ﴿٧٨﴾﴾	٢٢٢
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ ... ﴿٧٩﴾﴾ ﴿...وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾	٢٢٨
تفسير قوله تعالى:	﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾	٢٣٠
تفسير قوله تعالى:	﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ... ﴿٨٢﴾﴾	٢٣١

تفسير قوله تعالى:	﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم...(٨٣)﴾	٢٣٣
إلى قوله تعالى:	﴿...وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾	
تفسير سورة فصلت		
تفسير قوله تعالى:	﴿حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢)﴾	٢٤٣
إلى قوله تعالى:	﴿...فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...(٦)﴾	٢٥٣
إلى قوله تعالى:	﴿...وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)﴾	٢٦١
إلى قوله تعالى:	﴿...ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)﴾	٢٨٢
إلى قوله تعالى:	﴿...فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...(١٥)﴾	٢٨٧
إلى قوله تعالى:	﴿...وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ...(١٧)﴾	٢٩٣
إلى قوله تعالى:	﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ...(١٩)﴾	٢٩٨
إلى قوله تعالى:	﴿...فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...(٢٥)﴾	٣٠٨
تفسير قوله تعالى:	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ...(٢٦)﴾	٣١٣
إلى قوله تعالى:	﴿...نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...(٣٠)﴾	٣٢٤
إلى قوله تعالى:	﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ...(٣٣)﴾	٣٣٠
إلى قوله تعالى:	﴿...إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ...(٣٧)﴾	٣٤٢
إلى قوله تعالى:	﴿...فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا	

	﴿يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾	
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ... (٣٩)﴾ ﴿... إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠)﴾	٣٥٣
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ... (٤٣)﴾ ﴿... أُولَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤)﴾	٣٧٦
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ... (٤٥)﴾ ﴿... وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾	٣٨٣
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ... (٤٧)﴾ ﴿... وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾	٣٩٥
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ... (٤٩)﴾ ﴿... وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠)﴾	٤٠١
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ... (٥١)﴾ ﴿... مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢)﴾	٤١٠
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ ... (٥٣)﴾ ﴿... أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤)﴾	٤١٦
	تفسير سورة الشورى	
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿حمٓ (١)﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣)﴾	٤٢٧
تفسير قوله تعالى:	﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... (٤)﴾	٤٣٢
تفسير قوله تعالى:	﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ... (٥)﴾	٤٣٧
تفسير قوله تعالى:	﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ ... (٦)﴾	٤٤٤
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ... (٧)﴾ ﴿... وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨)﴾	٤٤٦
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ... (٩)﴾ ﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠)﴾	٤٥٨
تفسير قوله تعالى:	﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... (١١)﴾	٤٦٧

تفسير قوله تعالى:	﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... (١٢)﴾	٤٨٢
تفسير قوله تعالى:	﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ... (١٣)﴾	٤٨٥
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ... (١٤)﴾	٤٩١
تفسير قوله تعالى:	﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ... (١٥)﴾	٤٩٤
تفسير قوله تعالى:	﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ ... (١٦)﴾	٤٩٩
تفسير قوله تعالى:	﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ... (١٧)﴾	٥٠٢
تفسير قوله تعالى:	﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ... (١٨)﴾	٥٠٩
تفسير قوله تعالى:	﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ... (١٩)﴾	٥١١
تفسير قوله تعالى:	﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ... (٢٠)﴾	٥١٤
تفسير قوله تعالى:	﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ... (٢١)﴾	٥١٧
تفسير قوله تعالى:	﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ... (٢٤)﴾	٥٢٢
تفسير قوله تعالى:	﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ... (٢٥)﴾	٥٢٧
تفسير قوله تعالى:	﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ... (٢٦)﴾	٥٣١
تفسير قوله تعالى:	﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ... (٢٧)﴾	٥٣٥
تفسير قوله تعالى:	﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ... (٢٨)﴾	٥٣٧
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... (٢٩)﴾	٥٣٩
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ... (٣٠)﴾	٥٤٣
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١)﴾	٥٤٧
تفسير قوله تعالى: إلى قوله تعالى:	﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٣٢)﴾ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥)﴾	٥٤٨
تفسير قوله تعالى:	﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... (٣٦)﴾	٥٥٢
تفسير قوله تعالى:	﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ... (٣٧)﴾	٥٥٦
تفسير قوله تعالى:	﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ... (٣٨)﴾	٥٦٠
تفسير قوله تعالى:	﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩)﴾	٥٦٢
تفسير قوله تعالى:	﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (٤٠)﴾	٥٦٣

تفسير قوله تعالى:	﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١)﴾	٥٦٨
تفسير قوله تعالى:	﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... (٤٢)﴾	٥٧٠
تفسير قوله تعالى:	﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (٤٣)﴾	٥٧١
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ... (٤٤)﴾	٥٧٢
إلى قوله تعالى:	﴿... أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... (٤٦)﴾	٥٧٦
تفسير قوله تعالى:	﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ... (٤٧)﴾	٥٧٩
تفسير قوله تعالى:	﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ... (٤٨)﴾	٥٨٠
تفسير قوله تعالى:	﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... (٤٩)﴾	٥٨٦
إلى قوله تعالى:	﴿... إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)﴾	
تفسير قوله تعالى:	﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ... (٥١)﴾	٥٨٩
تفسير قوله تعالى:	﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... (٥٢)﴾	٥٩٣
إلى قوله تعالى:	﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... (٥٣)﴾	
الفهرس		٤٢٧

من إصدارات مكتبة الطبري:

الإحكام في تفسير آيات الأحكام

جمعًا وترتيبًا وإفادةً من كلام الإمامين:

للعلامة محمد بن صالح العثيمين

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمهما الله تعالى

اعتنى به

أشرف بن كمال

من إصدارات مكتبة الطبري:

كَاشِفُ الغُمَّةِ
فِي شَرْحِ أُصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ

للإمام الحافظ اللالكائي

اعتنى به وحققه وخرج أحاديثه

أبو يعقوب نشأت المصري

من إصدارات مكتبة الطبري:

شرح القصيدة النونية

المسماة

الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية

للإمام ابن القيم رحمه الله

المتوفى سنة ٧٥١ هـ

تأليف

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله

والعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

ومعه تعليقات مهمة ومفيدة

للعلامة محمد خليل هراس رحمه الله

اعتنى به وعلق عليه

فضيلة الشيخ الدكتور أبو عائش عبد المنعم إبراهيم

من إصدارات مكتبة الطبري:

الدروس العلمية العامة

في

العلم والدعوة والتربية

مجموعة محاضرات لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

وزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
بالمملكة العربية السعودية